

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
أطروحة

مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه العلوم

التخصص: المعجمية وقضايا الدلالة

إعداد الطالب(ة): محمد بولخطوط

عنوان الأطروحة:

التنغيم وأثره الصوتي والدلالي في سور الطواسين
دراسة إيقاعية وظيفية

المشرف: د بوزيد مومني

جامعة: محمد الصديق بن يحيى - جيجل

أعضاء لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة	الرتبة	اسم ولقب العضو
رئيسا	جامعة سطيف 2	أستاذ	أ.د يوسف وسطاني
مشرفا ومقررا	جامعة جيجل	أستاذ محاضر أ	د بوزيد مومني
ممتحنا	جامعة سطيف 2	أستاذة محاضرة أ	د أسمهان مصرع
ممتحنا	جامعة جيجل	أستاذ محاضر أ	د الحاج قديدح
ممتحنا	جامعة باتنة 1	أستاذ	أ.د سناني سناني
ممتحنا	جامعة سطيف 2	أستاذ محاضر أ	د جمال كويحل

السنة الجامعية: 2020-2021



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين - سطيف 2
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
أطروحة

مقدمة لنيل شهادة

دكتوراه العلوم

التخصص: المعجمية وقضايا الدلالة

إعداد الطالب(ة): محمد بولخطوط

عنوان الأطروحة:

التنغيم وأثره الصوتي والدلالي في سور الطواسين
دراسة إيقاعية وظيفية

المشرف: د بوزيد مومني

جامعة: محمد الصديق بن يحيى - جيجل

أعضاء لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة	الرتبة	اسم ولقب العضو
رئيسا	جامعة سطيف 2	أستاذ	أ.د يوسف وسطاني
مشرفا ومقررا	جامعة جيجل	أستاذ محاضر أ	د بوزيد مومني
ممتحنا	جامعة سطيف 2	أستاذة محاضرة أ	د أسمهان مصرع
ممتحنا	جامعة جيجل	أستاذ محاضر أ	د الحاج قديدح
ممتحنا	جامعة باتنة 1	أستاذ	أ.د سناني سناني
ممتحنا	جامعة سطيف 2	أستاذ محاضر أ	د جمال كويحل

السنة الجامعية: 2020-2021



قال الإمام فاضل

" وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ "

سورة الفاتحة، الآية 19

الدعاء

اللهم! تصدقنا نصيب بالفرد إذا نزلنا، ولا باليأس إذا
أخفقتنا، وحكمتنا بأن الإخفاق هو التجربة التي تسبق النجاح.
اللهم! إذا أمليتنا نجالاتنا فإنا نألف توأمتنا، وإذا أمليتنا
توأمنا فإنا نألف امتنازنا بكماتنا، سبحانه! اللهم! لنا إلا ما
ملئتنا، إنك أنت العليم العظيم

اللهم آمين



شكراً

لأهدى ثمرة جهدي لهذا

والدي الكريمين

أظن الله في عمرهما

وبارك في محنتهما

محمد





شكر وعرفان

الحمد لله الوهاب الفتح الرزاق، المبتدئ بالنعم قبل الاستحقاق
نحمدك يا الله حمدا كثيرا مباركا يليق بعظمتك وجلالك، ونشكرك ونثني على سوابغ نعمتك
وجزيل فضلك، والصلاة والسلام على نبي الرحمة ورسول الهدى؛ صفوة خلقك وأشرف
المرسلين، سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه الذين آمنوا به، واتبعوا النور الذي
أنزل معه، واستمسكوا بالعروة الوثقى، ولم تصرفهم عاجلتهم عما هو خير وأبقى، فالشكر
والحمد، والابتهال والإجلال لفيض عطائك، وتوفيقك لنا ربنا في إتمام هذا العمل.
أما بعد، وعملا بقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم: {لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ
النَّاسَ}، وقوله أيضا: {مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ
حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَيْتُمُوهُ}، لذا كان لزاما عليّ ههنا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان إلى
صاحب الصدر الرحب، والتوجيهات الهادفة، الذي تفضل بقبول الإشراف على هذا
البحث، فأفادني بكثير من إرشاداته وتصويباته، إلى أستاذي الفاضل: الدكتور: "بوزيد
مومني" جزاه الله عني خير الجزاء، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته.
كما أستغلّ الفرصة لشكر كلّ من كان له الفضل في تعليمنا ولو حرفا من هذه اللغة
المقدّسة، ابتداء من والديّ حفظهما الله، إلى أساتذتي في جميع أطوار التعليم.
كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كلّ من قدّم لي يد المساعدة في إنجاز هذا البحث سواء من
قريب أو من بعيد، وحقّرتني على الاستمرار رغم كثرة العثرات، وعلى رأسهم زميلي المقرب:
الدكتور "فريد عوف" له مّنيّ أسمي عبارات التقدير والوفاء.
دون أن أنسى كآلية الآداب واللغات- قسم اللغة والأدب العربي بجامعة سطيف 02، التي
فتحت لي الباب بمصرعيها، ومنحتني فرصة التسجيل فيها، فمّنيّ إليها وإلى طاقمها الإداري
وهيئة التدريس ألف شكر وعرفان.
في الأخير أقول: ربّنا اختم لنا بالباقيات الصالحات أعمالنا، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا،
إنّك نعم المولى ونعم النصير

محمد بولخطوط

مَقَدِّمَةٌ

إنَّ أقدس العلوم وأشرفها العلم بكتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثمَّ إنَّ خير اللغات وأعظمها على الإطلاق لغة هذا الكتاب، التي ستظلُّ لا محالة قائمة محفوظة لحفظه سبحانه للقرآن الكريم، هذا الكتاب الذي أنزله الله متحدِّيا خلقه بأن يأتيه بمثله ولو آية، كلَّ هذا يرجع أساسا إلى إعجازه اللغوي والأسلوبي والبلاغي.

يزخر القرآن الكريم إذاً كونه الكنز اللغوي المستدام، ومعجزة الإسلام الخالدة بوحدات إعجازية، تُضفي على نظمه لمسة جمالية أخاذة، ورونقا أسلوبيا خاطفا، ولعلَّ من أبرز هذه الوحدات: وحدة الصوت، هذا الأخير الذي وُضع في القرآن موضعا لا يصلح غيره أن يحلَّ محله، وإلاَّ اختلَّ النظام الدلالي، وانتفى الانسجام النسقي.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ القارئ حينما يُقبل على تلاوة آي القرآن الكريم، فإنَّه في ذلك يترنم في قراءته، ويمنح ألفاظه الجرس الذي يتواءم والسياق العام المحيط بها، الأمر الذي من شأنه أن يوُلِّد ضربا من النغم والإيقاع الموسيقي، فالكلام الذي يتوافر عليهما يتسم بقوة التأثير، والإحساس بالسلاسة والعدوية أثناء التلقِّي.

إنَّ للإيقاع الموسيقي في القرآن الكريم أثرا بالغا في تجلية المعاني، وكشف الدلالات الكامنة، فهو بهذا وجهة من أوجه إعجازه، وسرٌّ من أسرار جمال جرسه، بل ومظهرٌ من مظاهر سحر أسلوبه، فالتأمُّل في نصوصه يلحظ أنَّه قدَّ وظَّف أنماطا متنوّعة من الإيقاع، تتناغم كلُّها مع المعنى والجوِّ العام التي تحمله الآيات والسور، فنلقي: الإيقاع السريع والهادئ، الإيقاع الحزين والبهيج، الإيقاع القويِّ الصاحب والإيقاع الضعيف الخافت وهكذا دواليك. وبهذا يلتقي جمال التعبير مع جمال التصوير، ضمن أعظم كتاب عربي هو القرآن الكريم.

وليس الإيقاع المصاحب للكلام هو وحده قادرٌ على تحديد معاني التراكيب، بل يمكن للسياق أيضا أن يقوم بالعملية دون أن يكون للإيقاع دخلٌ في ذلك، هذا فضل على وجود ظواهر سياقية أخرى وملامح غير تركيبية تتجاوز بنية الكلام ولا تشكِّل جزءا منها، بيد أنَّها تملك من القدرة ما يجعلها تتدخل بطريقة أو بأخرى في تحديد معاني الأساليب الكلامية، وتوجيه أغراضها ورفع اللبس عن الدلالة المقصودة، ألا وهي ظاهرة التنغيم؛ إذ أجمع الدارسون على ارتباط الظاهرة بالجمال الفني ارتباطا عضويا، فلا يكاد يقوم فنٌّ بدونها، فهي المسؤولة عمَّا فيها من انسجام واتساق.

على هذا الأساس جاء البحث موسوما بـ: **التنغيم وأثره الصوتي والدلالي في سور الطواسين - دراسة إيقاعية وظيفية** - نحاول من خلاله أن نعالج مسألة سر الجمال الفني للتنغيم في سور الطواسين، ودوره في التفريق بين أغراض التراكيب، والكشف عن الأثر الإيقاعي للظاهرة، وما يتولَّد عن ذلك من معاني ودلالات.

ولمَّا كان للتنغيم أثره البالغ في علم المعاني على وجه الخصوص؛ لكونه عاملا مهما في التمييز بين الجمل



الخبرية والإنشائية، درج البلاغيون إلى حصر النصوص اللغوية في إطار هذين الضربين من الجمل، فكلّ التراكيب الجملية عندهم لا يمكن لها أن تخرج عن نطاق الإخبار أو الإنشاء، ثمّ إنهم عمدوا إلى وضع آلية معروفة للتمييز بينهما، وعلى الرغم من وجود المحدّدات والمعايير التي ذكروها، فإنّ المتأمل سيجد فرقا واضحا بين نوعي الجمل المتقدمة الذكر، يكمن ذلك في طريقة نطق وأداء كل جملة، إذ أنّ الجمل الخبرية تختلف عن الجمل الإنشائية - كما سنعرف لاحقا إن شاء الله - في طبيعة تلقّظ الأولى عن الثانية؛ ذلك أنّ الجمل الخبرية تكون نبرتها التنغيمية العامة ميّالة إلى قطعية الحدوث والوقوع وإلى الصرامة في تقرير الأحداث، ولذا فهي قد تتضمن بعض المؤكّدات التي تعزّز للسامع وقوع ذلك الحدث، وهذا ما نلاحظه تماما في الجمل الخبرية التي يُطلق عليها تسمية: الجمل ذات الأخبار الطلّبية والإنكارية.

أمّا الجمل الإنشائية فإنّ نبرتها الصوتية تميل إلى نوع من التلطف، لأنّه يُقصد من ورائها التأثير في السامع وحمله على الالتزام وتنفيذ الحدث المطلوب والاستجابة له. فثمّة إذاً فرق بين تنغيم الجمل الخبرية، وبين تلك الجمل التي يُراد من خلالها التأثير في وجدان السامع، وحمله على الاستجابة والتفاعل مع المتكلّم وهي الجمل الإنشائية. وما يزيد هذا الكلام تبيانا وتأكيّدا أنّ الآية الكرّمة قد تبدو بالنظر إليها من الوهلة الأولى بصيغة ما، كأن تكون استفهامية مثلا، بناء على القرينة اللفظية المتمثلة في أداة الاستفهام، هذا إذا نظرنا إليها وهي مكتوبة، بيد أنّنا إذا عرضناها على السمع أو نظرنا إليها في سياق المعنى القرآني لم تكن كذلك؛ إذ تُصبح القرينة - أي أداة الاستفهام - التي كانت لها الغلبة في تحديد المعنى مهمّشة، ليقف التنغيم حينها معوّلا في تحديد الدلالة وكشف الأغراض، وبهذا تتجرّد الآية من معنى الاستفهام مثلا مع توافر قرينة الاستفهام اللفظية إلى معنى: التقرير أو الإنكار أو الأمر أو الاستغراب أو الاستهزاء أو النفي أو التعجّب أو التوبيخ أو التهديد... وغيرها من الأغراض الأخرى. من هنا تنبثق إشكالية البحث والتي يمكن صياغتها على النحو التالي: إذا أقرنا بأنّ التنغيم من بين الوسائل الأدائية والقرائن السياقية التي يُتوصّل بواسطتها إلى تحديد المعنى، والوصول إلى الدلالة المقصودة، فكيف إذاً بإمكانه أن يميّز بين أسلوب الكلام إن كان خبريا أو إنشائيا، ويبرز أغراض كل صنف من الكلام؟ بل أنّي يكون للتنغيم قادرا على الانحراف بأساليب التركيب الكلامي الواحد، وتوجيه معانيه من غرض إلى آخر، على الرغم من أنّ البنية السطحية للكلام توحي بأنّ المعنى الظاهري غير المعنى الذي يقف التنغيم محدّدا له وموضّحا إيّاه (المعنى الباطني الخفي)؟ ثمّ أيّهما أفضل للوصول إلى المعنى الحقيقي: التنغيم عن طريق الأداء الإيقاعي والموسيقي، أم الترقيم بواسطة الكتابة والرسم الخطي؟ وهل يعدّ الاقتصار على أحكام التلاوة فقط، وعدم أداء كلمات القرآن الكريم على الوجه الذي يُجلّي معانيه ويبرز دلالاته، من خلال توظيف التنغيم والأداء الصوتي

المناسب، من أسباب عدم فهم مقاصد القرآن ومراميه، الأمر الذي يُؤدّي إلى غياب التدبّر والعمل والتطبيق؟

هذا، وتفرّع عن هذه الإشكالية الرئيسة جملة من التساؤلات الثانوية، نذكر أبرزها:

- ✓ ما علاقة التنغيم بالسياق الكلامي؟ أيهما الأسبق في كشف الدلالات؟ أم أنّ الواحد منهما خادم للآخر؟
 - ✓ هل يمكن للتنغيم أن يحلّ محلّ علامات الترقيم غير الظاهرة في الرسم القرآني، وكيف يتمّ ذلك؟ وهل يمكن له في المقابل تجريد بعض الأدوات من معانيها التي وُضعت لها في الأصل، لتتلبّث قوالب دلالية مغايرة؟
 - ✓ فيم تكمن علاقة التنغيم بالإيقاع؟ وما مدى تأثير هذا الأخير في إبراز الوظائف المتعدّدة للتنغيم على مستوى آيات القرآن الكريم؟ ثمّ كيف بإمكان التنغيم أن ينقل واقع الآية من جو إلى آخر مخالف له؟
 - ✓ كيف يساهم التنغيم بوصفه جانبا فنيا أدائيا إقائيا في الوصول إلى معنى الآية، وفهم المقصود منها عن طريق التلوين الإيقاعي لنصّها؟
 - ✓ هل يكتفي التنغيم لوحده القيام بهذه العملية؟ أم أنّ هناك قرائن سياقية أخرى على غرار: النبر والفواصل القرآنية من سكت ووقف، تقف معه جنبا إلى جنب في أداء دوره التمييزي في نظام اللغة؟
 - ✓ ما هو المقياس الذي يتّخذهُ الأداء التنغيمي في القرآن للتفريق بين أنواع الخبر (الحقيقي والمجازي)، والإنشاء (الطلبي وغير الطلبي)، والتمييز بين أغراضهما؟
 - ✓ أمكن للتنغيم أن يميّز بين الجمل الاستفهامية مثلا، بالرغم من انعدام أداة الاستفهام فيها؟
 - ✓ إلى أيّ حدّ يستطيع التنغيم بتلوّناته الصوتية المختلفة (صعود/ هبوط/ استواء) من إبراز مواضع سور الطواسين، والوصول إلى معانيها الضمنية؟
- أمّا عن الفرضيات التي أردت الإجابة عنها فتتمثّل في:
- ✓ التأكيد على أنّ التنغيم لا ينحصر مفهومه في ارتفاع أو انخفاض ينتاب طبقة الصوت، بل هو أبعد من ذلك، خصوصا وأنّه يتضافر مع عوامل أخرى لأداء وظيفته في اللغة، وبناء على هذا لا يصبح مستوى الصوت هو المحدّد الوحيد الذي يستند عليه التنغيم قصد القيام بدوره الدلالي التمييزي.
 - ✓ إثبات حضور ظاهرة التنغيم في التراث اللغوي العربي.
 - ✓ الإقرار بفاعلية التنغيم في تحديد معاني التراكيب اللغوية، وتوجيه أغراضها البلاغية، بعدّه بديلا عن علامات الترقيم المختلفة، إذ استطاع أن يفرض سلطته على مستوى نظام اللغة المنطوقة، وأنّ يمثّل قرينة يُعوّل عليها في مثل هكذا حالات.

وللإجابة على مختلف التساؤلات المطروحة، والفرضيات الموضوعية، كان لابدّ من رسم خطة ممنهجة قصد

الوصول إلى نتائج دقيقة، توخّيت فيها التدرّج بالمعلومة من العام المجرى، إلى الخاصّ المفصّل، وعلى هذا الأساس فقد اشتمل هيكل البحث على العناصر الرئيسة التالية: مقدمة، فصل تمهيدي، باب نظري وآخر تطبيقي، ثمّ خاتمة، وفيما يأتي سرد لمسار البحث:

بعد المقدمة التي تمّ فيها التأسيس لموضوع البحث وبيان أهمّيته والأهداف المتوخّاة منه، يأتي الفصل التمهيدي الموسوم بـ: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)، افتتح بتوطئة، واشتمل على أربعة مباحث، خُصّص الأوّل منها لمفهوم الفونيم من الزاوية العقلية والماديّة والوظيفية، إلى جانب النظرة التجريدية له، والثاني جعل لتاريخ الفونيم في العصر الحديث، أمّا المبحث الثالث فقد تمّ التطرّق فيه لمستويات الفونيم وأقسامه وكذا أنواعه، ليُختتم هذا الفصل بالمبحث الرابع، وفيه تناولت وظيفة الفونيم في اللغة العربية، ومختلف الآليات التي يعتمد عليها هذا المفهوم، في أداء دوره التمييزي على مستوى نظام اللغة، تأتي في مقدّمتها: الإبدال الصوتي والقلب المكاني.

ليتمّ الانتقال بعد ذلك إلى الباب الأوّل المعنون بـ: محدّدات أولية (بسط نظري)، استهلّ هو الآخر بتوطئة عامة، كما تضمّن ثلاثة فصول نظرية، تحدّث الفصل الأوّل عن علم الأصوات وعلاقته بالعلوم الأخرى، حيث ضمّ ثلاثة مباحث؛ الأوّل منها كان ماهية علم الأصوات، وفيه بسط نظري للعناصر التالية: مفهوم علم الأصوات وموضوع دراسته، الفرق بين الصوت والحرف، فروع علم الأصوات، أهمّية علم الأصوات.

أمّا المبحث الثاني فكان لعلمي القراءات والتجويد وصلتهما بعلم الأصوات، وفيه تناولت: مفهوم علم القراءات، شروط القراءة القرآنية الصحيحة ومراتبها، ثمّ علم التجويد: مفهومه وموضوعه، والفرق بينه وبين علم القراءات، وفي الأخير تمّ عقد علاقة بين هذين العلمين وعلم الأصوات.

في حين دار الحديث في المبحث الثالث حول علم الدلالة وصلته بعلم الأصوات، وفيه تناولت العناصر الفرعية التالية: مفهوم علم الدلالة، مهاد تاريخي حول نشأة علم الدلالة، موضوع علم الدلالة، ليُختتم هذا المبحث بالعنصر الرابع والذي تمّ فيه البحث عن علاقة علم الدلالة بعلم الأصوات.

بعدها عزّجت إلى الفصل الثاني الذي وُسم بـ: ظاهرة التنغيم في اللغة، وعلاقتها بالإيقاع الصوتي، حوى هذا الفصل على ثمانية مباحث؛ جعل الأوّل منها لمفهوم التنغيم في اللغة والاصطلاح عند علماء الغرب والعرب القدامى منهم والمحدثين، أمّا المبحث الثاني فتّم فيه تناول التنغيم من حيث: آلية إنتاجه، حقيقته وجوهره، وأسس تحديده، في حين عالج المبحث الثالث مسألة التنغيم واللغات، ليتعرّض المبحث الرابع إلى سلسلة العلاقات التي تربط التنغيم بغيره من القرائن والظواهر المختلفة على غرار علاقته مع: اللحن، النغمة، النغم، الإيقاع الصوتي

والموسيقى، الترتيم، المقطع الصوتي، النبر، الوقف، الترتيل، والفاصلة القرآنية، بينما تطرّق المبحث الخامس لأنواع التنعيم ومستوياته، والسادس لخصائص التنعيم وقيّمته في الاستعمال اللغوي، أمّا المبحث السابع فقد عكف فيه الباحث لمعالجة مسألة وجود ظاهرة التنعيم من عدمها في تراثنا اللغوي العربي، لينتهي هذا الفصل بالمبحث الثامن، والذي عُقد لبيان مختلف الوظائف التي يؤدّيها التنعيم في نظام اللغة، وبما يُساهم في تحديد معنى الكلام وتوجيه أغراضه البلاغية، في مقدّماتها: الوظيفة الأدائية، الوظيفة الصرفية، الوظيفة النحوية، وكذا الوظيفة الدلالية السياقية.

في حين جاء الفصل الثالث والأخير من هذا الباب معنوناً بـ: لمحة عامة حول سور الطواسين، وهي ثلاث سور قرآنية تشترك في قواسم كثيرة تجمعها منها: وحدة الموضوع (التوحيد والوحي والبعث)، وكذا وحدة المطلع (سورة الشعراء "طسم"، سورة النمل "طس"، وسورة القصص "طسم")، هذا فضلاً عن كونها سوراً جاءت متتابعة الترتيب في المصحف الشريف، على وفق ترتيبها في النزول على الرسول الكريم محمد ﷺ، حيث قُسم هذا الفصل إلى أربعة مباحث، خُصّص الأول منها لسورة الشعراء، والثاني لسورة النمل، والثالث لسورة القصص، تناولت في كلّ مبحث منها العناصر المشتركة التالية: التعريف بالسورة الكريمة، علّة تسمية السورة، فحواها، فضلها، مرتبتها في النزول والمصحف، تصنيفها، الهدف من السورة، وأخيراً أوجه التناسب والتباين بينها وبين السورة التي قبلها، حيث يُحتم كلّ مبحث من المباحث الثلاثة بمخطّط عام، يُلخّص العناصر المذكورة، بشكل يُبسّط المعلومة ويجعلها أكثر قرباً للاستيعاب والتذكّر.

أمّا المبحث الختامي فهو أقرب للتطبيق منه إلى التنظير، ولعلّه مبحث تمهيدي للولوج إلى الجانب التطبيقي، حيث تمّ فيه استعراض جملة من النماذج المأخوذة من سور الطواسين - مدوّنة البحث - قصد الاستشهاد بما على أنواع الفواصل القرآنية في السور المذكورة، والبحث عن مدى أثر إيقاعها الصوتي في تحقيق ذلك التناغم والانسجام والاتّساق مع موضوعات ومعاني هذه السور الثلاث.

أُزِدَفَ هذا الباب بباب آخر أخذ الجانب التطبيقي القسط الأكبر منه، وُسِمَ بـ: وظيفة الأداء التنغمي في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين، افتُتح بتوطئة حول علم البلاغة وعلاقة التنعيم بالفرع الأوّل منه وهو علم المعاني، حيث قُسم هذا الباب إلى أربعة فصول؛ الأوّل منها كان لدور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب الخبر في سور الطواسين، حيث تفرّغ إلى مبحثين، أخذ المبحث الأوّل الطابع النظري، وفيه عالج: مفهوم الخبر، أركانه، أغراضه، وأضره، أمّا المبحث الثاني فقد عكف فيه الباحث على استنباط مختلف الأغراض البلاغية التي خرج إليها الخبر في هذه السور، وبيان أثر الأداء التنغمي في كشفها.

أمّا الفصل الثاني فتعرّضت فيه لأسلوبين من الأساليب الإنشائية، حيث جاء بعنوان: دور التنعيم في تمييز

أغراض أسلوبَي الأمر والنهي في سور الطواسين، ضمّ ثلاثة مباحث؛ الأوّل منها نظري تناولت فيه: مفهوم الإنشاء وأقسامه، أمّا الثاني فجعل للأمر، وفيه تمّ التعرّض لمفهومه وصيغته، وكذا مختلف أغراضه البلاغية، ولأثر التنغيم في تحديدها. بينما خصّص المبحث الثالث لأسلوب النهي، وفيه سلكت المنهجية ذاتها في نقل المعلومة، حيث عرّجت لمفهومه وصيغته، إلى جانب استعراض مجمل الأغراض البلاغية التي خرج إليها النهي الحقيقي في هذه السور، مع الإشارة إلى الوظيفة التي تُؤدّيها قرينة التنغيم في هذا الإطار.

بعدها يتمّ الانتقال إلى الفصل الثالث المعنون بـ: دور التنغيم في تمييز أغراض أسلوب الاستفهام في سور الطواسين، الذي تفرّع هو الآخر إلى مبحثين؛ الأوّل منهما كان نظرياً، خصّص لمفهوم الاستفهام، أدواته، أقسامه، وكذا أهمّيته، أمّا المبحث الثاني فتناول أغراض الاستفهام البلاغية، ودور التنغيم في توجيه الأسلوب الكلامي من غرض لآخر.

في الأخير يأتي الفصل الرابع، الذي جمع بين آخر أساليب الإنشاء، وعليه جاء موسوماً بـ: دور التنغيم في تمييز أغراض التمنيّ والنداء في سور الطواسين، تضمّن مبحثين، جعل الأوّل لأسلوب التمنيّ، وفيه تمّ التطرّق لمفهومه وأدواته من الناحية النظرية، ثمّ استعراض مختلف الأغراض البلاغية التي خرج إليها الأسلوب في هذه السور، والتي من المؤكّد كان للأداء التنغيمي فيها الدور الأبرز في تحديد هذه الأغراض، في حين تناول المبحث الثاني أسلوب النداء؛ مفهومه وأدواته، فضلاً عن عنصر خروج النداء من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي، وما ترتّب عن ذلك من بروز عدّة أغراض بلاغية، تُستشفّ من خلال السياقات وقرائن الأحوال المختلفة، على غرار قرينة التنغيم.

للإشارة فإنّ أغلب النماذج التي خرجت فيها أساليب الكلام الخبرية والإنشائية بأنواعها المختلفة إلى معاني مجازية في سور الطواسين، كانت مشفوعة بمخطّطات بيانية توضيحية للموجات الصوتية، مزوّدة بمختلف الخصائص الفيزيائية للصوت اللغوي على غرار: الرسومات الطيفية، منحنى الدرجات الصوتية (التنغيم)، منحنى التواترات وشدّة الصوت (النبر)، سلاسل الحزم الصوتية (صفات الأصوات)، وذلك استناداً على النتائج التي سجّلتها عملية المعالجة الآلية، التي قمنا بإجرائها من خلال تطبيق برنامج "برات" الحاسوبي، بعد القيام بتحميل التسجيلات الصوتية لآيات سور الطواسين بصوت الشيخ "سعود الشريم"، ضمن الفضاء المخصّص لمعاينة وتحليل المقاطع الصوتية في البرنامج.

وخلصتُ في نهاية المطاف إلى خاتمة، جاءت تذييلاً لهذا البحث، رصدتُ فيها أبرز النتائج التي تمّ التوصل إليها من خلال هذه الدراسة.

وقد جاءت الخاتمة متبوعة بملاحق تمثلت في نصوص سور الطواسين، إضافة إلى تقديم نبذة موجزة عن الشيخ "سعود الشريم"، ولحمة عامة حول برنامج "برات" الحاسوبي، والذي تمّ التفصيل في كيفية اشتغاله من خلال القرص المضغوط المرفق بهذا البحث.

إنّ طبيعة الدراسة تستدعي الاعتماد في مقارنتها على المنهج الوصفي، وذلك من خلال وصف الآيات وتحليلها استناداً على كتب التفاسير، ومحاولة الوصول إلى النقطة المشتركة بين معناها العام، وكيفية أدائها صوتياً، مع بيان أثر التنغيم في تحديد تلك المعاني وتوجيه الأغراض، حسب ما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال المختلفة.

ولعلّ أبلغ ما يمكن الاستشهاد به على أهمية هذا الموضوع، وقيّمته في الدرس اللغوي قوله تعالى في محكم

تنزيله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ [سورة البقرة، الآية: 129]، وقوله أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٠١﴾ [سورة الجمعة، الآية: 02]، وأيضاً: ﴿أَوْزِدْ

عَلَيْهِ وَرِزْقًا فَتَرَى الْفَرْقَ أَنْ تَرْيَلَا ﴿١٠٤﴾ [سورة المزمل، الآية: 04]،... الخ. فكلّ هذه الآيات وغيرها فيها دلالة على أهمية

الجانب الصوتي في تلاوة القرآن، وقيّمته في توضيح معانيه وتبيين دلالاته، ومع أنّ الله سبحانه وتعالى أكّد على أنّه

أنزل القرآن بلسان عربي مبين، إلا أنّ كثيراً ما تجد معانيه بعيدة أو صعبة على عدد من الناطقين بالعربية، فضلاً

عن الناطقين بغيرها، فليس من طريقةٍ أسهل للوصول إلى المعنى الحقيقي من قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة، مع

توظيف التنغيم توظيفاً مناسباً، تُراعَى فيه قواعد نطق العربية لحروفها وكلماتها، وأداء جملها وأساليبها من خبر

وإنشاء (الاستفهام، التمجّي، النداء، الأمر، التعجب،...)، وإظهار الأغراض المصاحبة للتراكيب من: تقرير وإنكار

وتوكيد وتعجب واستفهام، ونفي واستهزاء وزجر وتهديد وتحذير وتوبيخ واستغاثة... الخ.

بناءً على ما سبق ذكره فقد وقع اختياري لهذا الموضوع استناداً إلى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية:

فأمّا عن الدوافع الذاتية: فتتلخّص في شرف البحث في نصوص القرآن الكريم، وما أعدّه الله جلّ وعلا من ثواب

عظيم وأجر وفير لمن عكف على خدمة كتابه، وأقبل على تعلّمه وتعليمه، إذ أنّ أحسن ما يشتغل به الباحثون،

وأنتفع ما يتسابق عليه المتسابقون، وأفضل ما يتنافس فيه المتنافسون: مدارس كتاب الله ومداومة البحث فيه، فهو

صالح لكلّ زمان وفي كلّ مكان، كلّ ذلك قصد الكشف عن حقائقه وأسراره، وإظهار أوجه إعجازه وبيانه، وتحلية

محاسنه وجمالياته. هذا فضلاً عن رغبتني الشخصية في الخوض في مثل هذه المواضيع التي تجمع بين الجوانب الصوتية

والدلالية، بل وحتّى البلاغية في الدراسة القرآنية.

وأما عن الدوافع الموضوعية فنذكر منها:

1) المشاركة في مجال البحث اللغوي يمثل هذه الدراسات التي تجمع بين الجوانب الصوتية والدلالية والبلاغية في القرآن الكريم.

2) محاولة تبسيط المعلومة، ونقلها إلى القارئ بأسلوب سهل وواضح، وبشكل تدريجي من العام إلى الخاص.

3) رغم وجود ظاهرة الإيقاع الموسيقي في القرآن الكريم ووضوحها، إلا أنها لم تحظ بال العناية الكافية من لدن الباحثين، مع أنّ القدامى من علماء اللغة قد أدركوا العلاقة بين جرس الأصوات ومعانيها في اللغة العربية، ولأجل ذلك حاولت في هذا البحث أن أكشف الستار عن إعجاز النظم الإيقاعي، والتلوين التنغمي في سور الطواسين، وتناسب ذلك كله مع المعاني العامّة التي تدور حولها هذه السور.

4) أمّا عن سبب اختيار سور الطواسين تحديداً موضوعاً للبحث، فإنّ ذلك راجع لكون نصوصها تتوافر فيها من المميّزات ما يجعلها تصلح أن تكون موضوعاً خصباً للدراسة، إذ تتنوّع فيها الأساليب وتختلف الدلالات، وما التنغيم إلا وسيلة لإبراز هذه الأساليب والمعاني عن طريق الأداء النطقي لآيات سور الطواسين، وأمّا عن سبب اختيار لقب الطواسين تحديداً دون غيره من الألقاب الأخرى، التي أطلقت على هذه السور الثلاث على غرار: الطواسيم، آل طس، ذوات طس... الخ، لكونه اللقب الأكثر ذيوفاً من بقية الألقاب، فقد جاء في كتاب "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" لصاحبه "جلال الدين السيوطي" أنّ "أنس بن مالك" قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي السَّبْعَ مَكَانَ التَّوْرَةِ، وَأَعْطَانِي الرِّاءَاتِ إِلَى الطَّوَّاسِيْنَ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ، وَأَعْطَانِي مَا بَيْنَ الطَّوَّاسِيْنَ إِلَى الْحَوَامِيْمِ مَكَانَ الزَّبُورِ، وَفَضَّلَنِي بِالْحَوَامِيْمِ وَالْمَفْصَلِ مَا قَرَأَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»، ولأجل ذلك اختار البحث اللقب الأكثر استعمالاً وشهرة وهو: الطواسين، حيث جاءت اللفظة بصيغة الجمع للحرّفين المقطّعين الأوّلين (الطاء والسين)، اللذين يتصدّرا فواتح السور الثلاث.

لقد كان هدف الباحث جمع ما كان متفرّقا في الكتب والمصنّفات القديمة منها والحديثة، العربية والغربية، في بحث واحد، يضمّ بين دفتيه أكبر قدر ممكن من المعارف والمعلومات المتعلقة بظاهرة التنغيم، هذه الظاهرة التي لم تأخذ حظّها كما ينبغي من البحث والتنقيب - حسب ما اطّلت عليه - فلا نكاد نشهد كتاباً ألف حولها، وانفرد بدراستها سواء أكان من الناحية الصوتية أم الدلالية أم الوظيفية، أم من أيّ زاوية معرفية أخرى، كما حدث مع الظواهر الصوتية الأخرى على غرار: المقطع الصوتي، النبر، الفواصل القرآنية من وقفات وسكنات وغيرها، لذا حاولت أن أخصّصها بالدراسة دون سواها، مع إثبات وجودها في تراثنا العربي، رغم ما أثارته المسألة من اختلاف في وجهات النظر، كما حرصت على استنطاق بعض النصوص، وعرض أدلّة وشواهد من التراث، تؤكّد إدراك علمائنا الأوائل

للظاهرة، ووعيمهم العميق بوجودها ووظيفتها في اللغة، هذا فضلا على محاولة إبراز أهمية التنغيم بعدّه أداء خارجيا مصاحبا للكلام، ودوره في تحديد معناه وتغيير دلالاته، وذلك بوصفه سلوكا بشريا ولغويا، كما يهدف البحث أيضا إلى تبيان أثر التنغيم في إيضاح معاني القرآن الكريم وإجادة تلاوته، والتمييز بين أساليب وأغراض التراكيب الخيرية منها والإنشائية.

وبغية تحقيق هذه الأهداف وغيرها، كان لزاما عليّ الاستئارة بدراسات سابقة في ميدان بحثي، نذكر أبرزها:

* القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية لأحمد البايبي

* التنغيم اللغوي في القرآن لسفير العزّوي

* في علم الأصوات- الفونيمات فوق التركيبية في القرآن الكريم (المقطع، النبر، التنغيم)- سورة الواقعة أنموذجا لعطيّة سليمان أحمد

* علم الأصوات اللغوية (ظواهر علم الأصوات في القرآن الكريم)- الفصل الصوتي، اللفظة المركزية، الاستفهام الخبري، الخبر الاستفهامي، ظاهر استحضار الصورة لأحمد عبد التّوّاب الفيّومي

* في التنظيم الإيقاعي للغة العربية- نموذج الوقف لمبارك حنون

* التنغيم في القرآن الكريم دراسة صوتية لسناء حميد البياتي

إلى جانب هذه المؤلفات، استفدت من مجموعة من المقالات المنشورة في الجملات العلمية، أتت في

مقدمتها:

* أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا) لمزاحم مطر حسن

* أنواع التنغيم في سورة الزمر- دراسة تحليلية صوتية في تقويم مرتل للشيخ عبد الرحمن السديس لامرأة الحسيني

* دلالة التنغيم في القرآن الكريم: سورة الزمر أنموذجا لزهرة الدين رحمان

* مقومات التنغيم ودلالاته لعائشة خضر أحمد البدراني

* الظواهر التطريزية ودورها في المعنى- ظاهرة التنغيم أنموذجا لسليمان بوراس

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنوّه إلى بعض الدراسات التي استأنست بها، فمن خلال الاطلاع عليها

أضاءت لي بعض الجوانب، نحو:

* الإعجاز البلاغي في القصة القرآنية- دراسة في سور الطواسين لعبدان مهدي سلطان الدليمي [كتاب]

* دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم- النداء أنموذجا لسعاد زدام [أطروحة دكتوراه]

* أسلوب النهي في القرآن الكريم- دراسة في التركيب والدلالة لمحمد الأحمد الأشقر [أطروحة دكتوراه]

- * أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ليوسف عبد الله الأنصاري [رسالة ماجستير]
- * سورة الشعراء (دراسة بلاغية تحليلية) لفوزية بنت مسفر بن سلمى المطيري [رسالة ماجستير]
- * الاستفهامات ومعانيها في سورة الشعراء (دراسة تحليلية بلاغية) لمحمد أري وانطاقا [بحث للحصول على درجة سرجانا S1]

- * الأساليب الإنشائية في سورة النمل (دراسة بلاغية تحليلية) لخلود بنت سعد بن إبراهيم العقيل [رسالة ماجستير]
- * سورة النمل (دراسة تحليلية وموضوعية) لحسن محمد حسن البليسي [رسالة ماجستير]
- * أسلوب الأمر والنهي في سورة القصص (دراسة تحليلية معانية) لتشفوتونيا فريقي جوسيتنا
- * سورة القصص - دراسة تحليلية موضوعية لمحمود عبد الخالق خلّة [رسالة ماجستير]

إلى جانب الاطلاع على مختلف التفاسير القديمة والحديثة، والتي كانت عوناً لي في الجانب التطبيقي، وحثّة أستشير بها في كلّ خطوة من هذا الجانب، دون أن أنسى قطب الرحى الذي حوله يدور موضوع البحث، ألا وهو: القرآن الكريم؛ كتاب الله تعالى.

لعلّ الجديد المبتكر في هذا البحث وأخاله قد غاب في هذه الدراسات المذكورة أعلاه، ما قدّمه من منحنيات بيانية ورسومات مخبرية، كانت ولا شكّ خادمة للموضوع، مثمّنة لوظيفة الظاهرة المدروسة ومجسّدة لدورها، بشيء يمكن القارئ من استيعاب المقصود في أسرع وقت وأقلّ جهد.

ولقد صادفتني في تضاعيف هذه الأطروحة بعض الصعوبات والعراقيل، التي لا أحالها إلّا وقد واجهت كلّ باحث، عكف على جعل النصوص القرآنية مادّة بحثه ومجال دراسته، رغم أنّها هانت بمجرد إتمامه، ولعلّ أبرزها:

✓ صعوبة التعامل مع النصوص القرآنية التي تحتاج إلى الحيلة والحذر، تجنّباً للوقوع في التحريف، ففي مثل هذه المدوّنات لا يمكن للباحث أن يحلّل ويؤوّل مضمونها كما يشاء، وفقاً لما تملّيه عليه معطيات ومبادئ وأحكام من وضع البشر، كونها نصوصاً ربّانية لا تحتل قراءات متعدّدة ووجهات نظر مختلفة، الأمر الذي دفعني للاستعانة بجملة من التفاسير القرآنية، حتّى لا أخرج عن الإطار والسياق العام الذي تدور حوله آي سور الطواسين عمّنة هذه الدراسة.

✓ رحابة الموضوع واتّساع مجاله، إذ وجد الباحث نفسه أمام كمّ معرفي هائل، ومادّة علمية غزيرة، حيث مسّ الموضوع عدّة حقول منها: علم الأصوات، علم القراءات، علم التجويد، الإيقاع الموسيقي، علم الدلالة، علم البلاغة،... الخ، الأمر الذي استغرق منه وقتاً طويلاً في عملية الجمع والتبويب والتصنيف، فكلّما تمّ وضع هيكلية معيّنة للبحث، بدا للباحث نظرة أخرى مغايرة، تدفعه لإجراء تعديل في خطّة العمل، وأحياناً

إلى تغييرها، حيث استمر ذلك إلى غاية كتابة هاته الأسطر.

✓ عدم إمكانية إتباع كثير من النماذج التي ساقها البحث في مسألة خروج الأساليب الكلامية عن مقتضى الظاهر إلى أغراض بلاغية، بمخططات تمثيلية توضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي المتعلقة بمقاطع آيات سور الطواسين؛ أولا لكثرتها، وثانيا لأن عددا كبيرا منها يستغرق أداءه مدة طويلة، لطول الآيات خصوصا آيات سورتي النمل والقصص، الأمر الذي يمنع برنامج برات الذي اعتمد عليه في معالجة النصوص آليا، من إظهار مجمل القيم الأكوستيكية المصاحبة لعملية الأداء، على غرار: الرسوم الطيفية، ومنحنيات درجات وشدة الصوت والحزم الصوتية، فكلما تجاوز تزمين الأداء المدة المسموح بها في البرنامج لإظهار هذه القيم وهو عشر ثوان، تعدد عليه القيام بالعملية، وحينها يكفي فقط بإظهار مخطط الموجات الصوتية.

في الأخير يطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى ذوي الفضل بعد التوفيق أولا من المولى عز وجل، وعلى رأسهم الأستاذ المشرف، الدكتور: "بوزيد مومني"، الذي كان له الفضل في تقييم هذا العمل وتقويمه، فقد منحني من وقته وجهده، وسعة صبره ورحابة صدره، ما يدفعني دائما إلى المضي قدما، والتغلب على مشاق البحث، فلا ينكر إلا جاحد ما بذله من جهود مخلص، وتضحيات صادقة في سبيل إخراج البحث على هاته الصورة التي هو عليها الآن، فلم يخل علي بتوجيهاته الرشيدة، وملاحظاته المفيدة، وآرائه السديدة، فجزاه الله عني خير الجزاء، والشكر موصول أيضا إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة الكرام، الذين تكبدوا مشقة قراءة هذا البحث، وتحموا عناء تحكيمه، كما لا يفوتني في هذا المقام أن أجدد شكري إلى والدي العزيزين أطال الله في عمرهما، إذ كانا ولا يزالان الدافع الأول والمحفز الرئيس في قطعي لكل هذه الأشواط في سبيل الاستزادة من ينابيع العلم وضروب المعرفة، ولست أزعم ههنا أنني قد استجمعت في هذا البحث أجزاء الموضوع من شتى نواحيه، فذاك لا يدعيه إلا مغترر معجب بنفسه، فالكمال لله وحده، لكن حسبي أنني حاولت، فإن أصبت فإن ذلك من توفيق الله جل جلاله، وإن أخفقت فمئي ومن الشيطان، وآخر دعوانا أن الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبمنه وكرمه تدرك الغايات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

الفصل التمهيدي

التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

توطئة

المبحث الأول: مفهوم الفونيم

المبحث الثاني: تاريخ الفونيم في العصر الحديث

المبحث الثالث: الفونيم: مستوياته، أقسامه، وأنواعه

المبحث الرابع: وظيفة الفونيم في اللغة العربية

توطئة:

تعدّ نظرية الفونيم واحدة من النظريات اللغوية الجديدة بالدرس والاهتمام، فإليها يرجع الفضل في اختراع الأبجديات، وإنشاء الرموز الكتابية لكثير من اللغات الإنسانية المنطوقة، وعلى هذا الأساس يرى علماء اللغة في الدرس اللساني الحديث، أنّ مفهوم الفونيم هو فكرة قديمة تعود إلى ماضٍ بعيد، وذلك حين اهتدى الإنسان إلى الكتابة الأبجدية، التي استغني بها عن أسلوب التصوير، فقد تطوّر فكره بعد ذلك ليكون طريقة أسهل من سابقتها، يستطيع بواسطتها أن يستوعب حاجته المتزايدة للاتصال والتواصل، وكانت هذه الطريقة الجديدة بمثابة ترجمة لتصورات ذهنية للأصوات التي تشكّل الكلمات. وقدّمت الدراسات الحديثة بعد ذلك نتائج تدعّم هذا الرأي وتؤكدّه، فحروف الأبجديات المختلفة في اللغات البشرية ليست صورة كتابية، ولا أصواتا تنطق فقط، بل هي أقسام يشتمل كلّ منها على عدد من الأصوات، يجمعها نسب معيّن وتدخل في نطاق السمع والبصر، لذا فهي فكرة عقلية لا عملية عضلية، وبناء على هذا يكون المفهوم الذي تطرحه الدراسات الحديثة للحرف مساويا للمصطلح الغربي الجديد (الفونيم).⁽¹⁾

ربّما لم يختلف حول أيّ نظرية من نظريات علم اللغة، كما اختلف حول نظرية الفونيم، وربّما لم يوجد تطرّف في تأييد النظرية والدفاع عنها في جانب، والمجوم عليها والانتقاص منها في جانب آخر، كما وُجد بشأن هذه النظرية، وربّما لم تعدّد الآراء وتختلف المناهج بين مؤيدي النظرية الواحدة كما حدث بين مؤيدي نظرية الفونيم، فهناك إداً من تحمّس للنظرية ولفكرة وجود الفونيم في الدراسة اللغوية، إلى درجة أنّ هناك من أقرّ أنّ اكتشاف الفونيم يعدّ واحداً من أهمّ الإنجازات التي حقّقها علم اللغة؛ إذ أدّى اكتشافه إلى ثورة في التفكير اللغوي، بل إنّ ذلك يعادل تماماً اكتشاف الطاقة النووية التي أدّت هي الأخرى إلى ثورة في العلوم التقنية، في المقابل هناك من رفض وجود هذه النظرية، وكان أغلبهم من مدرسة لندن اللسانية وفي مقدّمهم الإنجليزي "جون فيرث" (John Rupert Firth)، إذ حاول أن يقدم بديلاً عنها، حيث أعلن في عام 1957م أنّنا قد أخذنا كفايتنا من التحليل الفونيمي ومن الفنولوجي التجزيئي، وتنبأ بأنّ السنوات العشر التالية سترتدّ إلى التركيب بدل التحليل.⁽²⁾

(1) - ينظر: تمام حستان: اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط4، 1421هـ/2001م، صص 91، 101.

(2) - ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر، دط، 1979م، صص 165، 167.

المبحث الأول: مفهوم الفونيم

الفونيم شأنه شأن سائر المفاهيم والمصطلحات الأخرى شغل فكر وتصوّر كثيرٍ من العلماء والدارسين الغربيين وحتى العرب منهم، فكلّ واحد نظر إليه من زاوية معرفية معيّنة، ليكتسب المصطلح بذلك مفاهيم متعدّدة باختلاف المذاهب والمشارب، وسنحاول فيما سيأتي الوقوف على أبرز هذه الاتجاهات التي عكفت على دراسة هذه الوحدة اللغوية، ووضع حدود ومعالم لمفهومها:

المطلب الأول: النظرة النفسية أو العقلية: يرى هذا الاتجاه أنّ الفونيم هو الصورة العقلية للصوت، أو هو صوت مثالي نحاول تقليده في النطق، ولكننا نفشل في إنتاجه تماماً كما نريد، أو بالصورة نفسها التي نسمعه بها، وقد استندت هذه النظرة إلى كون اللغة عند أصحاب هذا الاتجاه إطاراً ذهنياً وتصوّرات عقلية في الأصل، فكان الفونيم بنية ذهنية ذات وجود عقلي مثالي، وتتأتى مثاليته من كونه أنموذجاً غير منطوق، ومن كون هذا الأنموذج صورة واحدة في أذهان أبناء الجماعة اللغوية التي ينتمي إليها هذا الفونيم، وما يُنطق ويُسمع إنّما هو صور متعدّدة وتنوعات ألفونية لهذا الفونيم، وقد نحا هذا المنحى كل من "نيكولاي تروبتسكوي" (Nikolai Sergueievitch Troubetskoï) في إحدى مراحل تفكيره الأولى وكذا "بدوان دي كورتيني" مكتشف هذه النظرية، حيث عرّف الفونيم بأنّه: صورة ذهنية، وفرّق بهذا بين نوعين من علم الأصوات؛ أولهما علم الأصوات العضوي لدراسة الأصوات المنطوقة، وثانيهما علم الأصوات النفسي لدراسة الأصوات المنوية في النطق، وإلى جانبهما نجد كذلك كل من: "فان وويك" و"إدوارد ساير" وآخرون، ولعلّ أهمّ ما وُجّه لهذا الاتجاه من نقد في تعريفه للفونيم هو أنّ اختيار هذه الصورة العقلية وتصنيفها ليس بالأمر المتيسّر، وأنّ اتّباع هذا المنهج يجعل عبء القضايا اللغوية ملقى على غير اللغويين كعلماء النفس.⁽¹⁾

المطلب الثاني: النظرة الثنائية أو المادية: ترجع أصول هذه النظرة إلى العالم السويسري "فرديناند دي سوسير"، إذ يرى أنّه من الضروري في تحديد مفهوم الفونيم النظر إليه نظرة ثنائية: من حيث كونه حدثاً منطوقاً من جهة، وأثراً مسموعاً من جهة ثانية، هذه الثنائية للفونيم لا يمكن التغاضي عنها أثناء محاولة وضع حدٍّ له؛ فالفونيم بعدّه «حدثاً منطوقاً لا يستقلّ بوجوده العضوي النطقي عن الأثر السمعي الذي يحدثه عند المتلقّي؛ ذلك أنّنا عندما نسمع كلاماً، فإنّنا ندرك إن كان صوت ما ينطق بصفاته التي تمثّله أم لا، فإذا أحسسنا بتوافق هذه الصفات

(1) - ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 175، 177. وكذا: سمير شريف إستيتية: اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1429هـ/2008م، ص 64، 67. وكذا: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص 143. وكذا: تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1990م، ص 129.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيب (مدخل نظري)

المنطوقة مع ما هو مألوف من سماعنا له، كان الصوت المسموع ممثلاً للفونيم نفسه»⁽¹⁾، وعلى هذا الأساس وضع "فرديناند دي سوسير" تعريفاً للفونيم اعتمد فيه على أساسين هما: الأساس العضوي والأساس السمعي، فالفونيم عنده مفهوم مركّب وفيه يقول: «الفونيم هو الحصيصة النهائية للانطباعات السمعية وحركات النطق، وهو الأثر المتبادل للوحدات السمعية والوحدات المنطوقة، إذن فهو وحدة مركّبة لها جدر في السلسلة المنطوقة، وآخر في السلسلة السمعية. إنّ العناصر التي نحصل عليها أولاً عند تقسيم السلسلة المنطوقة تشبه الحلقات في السلسلة، فهي لحظات لا يمكن اختصارها، كما لا يمكن دراستها خارج الوقت الذي تشغله»⁽²⁾، فالفونيم إذاً «عنصر صوتي في اللغة المنطوقة يقوم على أساس عضوي (هو تكوينه بواسطة أعضاء النطق)، وعلى أساس سمعي (وهو الصفة الموضوعية أو الشخصية للسمع)»⁽³⁾.

إنّ مفهوم الفونيم من وجهة نظر "دي سوسير" لا يمكن تحديده - كما رأينا - اعتماداً على الحدث النطقي لوحده، بل لا بدّ من تضافره مع ما يخلفه الصوت من أثر سمعي بعد انتقاله من فم الباث إلى أذن المتلقّي، وكأنّه بهذا المعنى يعيب على أولئك الذين اعتمدوا في تحديد مفهوم الفونيم، على الجانب النطقي دون الجانب السمعي أو العكس، وفي هذا الصدد نجد يقول: «يقتصر عمل كثير من علماء النظام الصوتي على العملية الصوتية، أي إنتاج الأصوات عن طريق الأجهزة الصوتية (كالحنجرة والفم وغيرهما) ويهملون الجانب السمعي. إنّ هذه الطريقة غير صحيحة، فالانطباع السمعي يصلنا بصورة مباشرة كما تصل الصورة التي تنتجها الأعضاء الصوتية، أضف إلى ذلك أنّ الانطباع السمعي هو أساس أيّة نظرية صوتية (...)، إنّ الأذن تخبرنا عن الصوتين: "ت"، "ب" وغيرهما، فحتى لو استطعنا تصوير حركات الفم والحنجرة عند النطق بسلسلة من الأصوات، فإننا لن نستطيع أن نتميّز التقسيمات الفرعية لحركات النطق، فلن نستطيع أن نعرف أين يبدأ صوت ما، وأين ينتهي الصوت الآخر؟ ولولا الانطباع السمعي ما استطعنا أن نقول على سبيل المثال أنّ: Fal تتكوّن من ثلاث وحدات، وليس من وحدتين أو أربع وحدات...»⁽⁴⁾.

ولعلّ من أبرز الممثلين لهذا الاتجاه أيضاً العالم: "دانيال جونز"، إذ عرّف الفونيم بكونه: «أسرة من الأصوات - في لغة معيّنة - متشابهة الخصائص، متقاربة سماعاً ونطقاً، ومستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها

(1) - سمير شريف إستيتية: المجال والوظيفة والمنهج، ص 67.

(2) - فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، دط، 1985م، ص 58.

(3) - أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص 144.

(4) - فرديناند دي سوسير: المرجع السابق، ص 56-57.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

أن يقع في كلمة في نفس السياق الصوتي الذي يقع فيه الآخر»⁽¹⁾.

هذا، ويشرح "تمام حستان" المراد بتعريف "جونز" معقبا عليه قائلا: «إن أعضاء العائلة الواحدة متخارجون، فالتونات المختلفة متخارجة من حيث الموقع، ولهذا التخارج أهمية خاصة في نهاية الخطورة من جهة الدلالة؛ لأنّ الصوتين إذا انتميا إلى فونيمين مختلفين انتفت عنهما فكرة التخارج، وصحّ أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر، ليحدث تعديلا في الدلالة أو في المعنى المعجمي بخلق كلمة جديدة، فالمعروف مثلا أنّ التاء فونيم غير فونيم التاء، وأننا إذا وضعنا التاء موضع التاء في كلمة (تَاب) تغيّرت الكلمة، وتغيّر معناها وأصبحت (تَاب)، فإذا وضعنا فونيم العين بدل التاء أصبحت (عَاب)، فإذا استبدلنا ذلك بالخاء أصبحت (خَاب)، فإذا حلّت الراء محلّها أصبحت (زَاب)، والشين (شَاب)، والغين (غَاب) وهلمّ جزاء؛ فحلول أحد الصوتين محلّ الآخر دليل على أنّهما ينتميان لفونيمين مختلفين، وهذا أحد أوجه الكشف عن القيم الخلافية في اللغة»⁽²⁾.

المطلب الثالث: النظرة الوظيفية: وتمثّل هذه النظرة أهمّ اتجاه حدّد مفهوم الفونيم بكونه أصغر وحدة صوتية ليس لها دلالة في ذاتها، لكنّها قادرة على تغيير معاني الكلمات، ويمكن أن نقسّم هذا الاتجاه إلى قسمين:

1- عند الغرب: يعدّ العالم الروسي "نيكولاى تروبتسكوي" (ت: 1938م) أشهر من مثّل هذا الاتجاه في تحديد مفهوم الفونيم؛ إذ وصفه بكونه «أصغر وحدة فونولوجية في اللسان المدروس»⁽³⁾، حيث أكّد على وظيفته في اللغة على الرغم من كونه الوحدة الدنيا فيها، إذ يرى أنّ الأساس الذي يقوم عليه تعريف الفونيم ينبغي أن يكون مبنيا على الوظيفة التي يؤدّيها؛ أي دوره في تمييز معنى كلمة عن معنى كلمة أخرى، وقد وضع لهذا التمييز قواعد يمكن تطبيق بعضها على اللغة العربية هي:⁽⁴⁾

- القاعدة الأولى: إذا كان الصوتان من نفس اللغة، ويظهران في نفس الإطار الصوتي، وإذا كان من الممكن أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر، دون أن ينتج عن هذا التبادل اختلافا في المعنى العقلي للكلمة، حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين اختياريّتين لوحدة أصواتية واحدة.

ومن أمثلة ذلك أنّنا لو نظرنا إلى النطق القرآني للسين في كلمة {مسيطر} لوجدناه يرد أحيانا بالسين المرقّقة، ويرد أحيانا أخرى بالمقابل المفتّح للسين وهو صوت الصاد، وعلى هذا فإنّ هذين الصوتين هما صورتان

(1)- أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص177.

(2)- تمام حستان: مناهج البحث في اللغة، ص127.

(3)- أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص145.

(4)- ينظر: برتيل الملمرج: علم الأصوات، تر: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشهاب، دب، دط، دس، ص 238، 240. وكذا: محمد جواد النوري:

علم الأصوات العربية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، ط2، 2007م، ص122.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

أو تنوعان لفونيم واحد، مادام أنّ التغيير لم يترتب عليه اختلاف في المعنى الدلالي والعقلي للكلمة.

- القاعدة الثانية: إذا كان الصوتان يظهران تماما في نفس الموقع الصوتي، ولا يمكن أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر دون تعديل معنى الكلمة، أو دون أن تصير الكلمة إلى الغموض، حينئذ يكون هذان الصوتان صورتين واقعتين لفونيمين مستقلين لوحدين أصواتيتين مختلفتين.

ولو أنّنا طبّقنا هذه القاعدة على اللغة العربية، فسنجد أنّ ارتباط تعيّر المعنى بتغيير الفونيم يعدّ الفيصل في تحديد أشباح الكلمات، فالكلمتان: "سار وصار" لكلّ منهما معنى معيّن يختلف عن الآخر، لأنّ كلّاً منهما تتميزّ بفونيم خاص هو علامتها، فالسين والصاد هنا وحدتان أصواتيتان، وكذلك الحال في الأصوات الأولى من الكلمات: (باب، تاب، ثاب، جاب، خاب، ذاب، راب، ساب، شاب، صاب، طاب، عاب، غاب)، فإنّ هذه الأصوات تعدّ وحدات مستقلة، لأنّ مجرد اختلافها مع الاتفاق في بقية أحرف الكلمة يعني اختلاف المعنى.

- القاعدة الثالثة: إذا كان الصوتان من نفس اللغة، متقاربين فيما بينهما من الناحية السمعية أو النطقية، ولا يبرزان مطلقا في نفس الإطار الصوتي، فإنّهما يُعدّان تنوعين تركيبيين لنفس الوحدة الأصواتية.

إنّ لفونيم "النون" على سبيل المثال صوراً كثيرة، تظهر كلّ واحدة منها في موقع معيّن، فالنون الساكنة قبل صوت أسناني كالشاء في نحو: إن ثاب تنطق أسنانية، والنون الساكنة قبل صوت لهوي كالقاف في نحو: انقاد تنطق لهوية، وهكذا تتعدّد صور النون باختلاف الأصوات التالية لها، على نحو لا يمكن في بيئة معينة أن تحلّ صورة أسنانية محلّ صورة لهوية.

هذا، ولم يخرج عن الفكرة التي سقناها جلّ علماء الغرب فهاهو زميله الروسي "رومان جاكبسون" (Roman Jakobson) [1896 - 1982م] يقول فيه: «إنّ الفونيم عنصرٌ يساعد في إبراز المعنى، إلّا أنّه هو ذاته خلو من المعنى...»⁽¹⁾، وإلى الاتجاه ذاته يذهب الفرنسي "أندري مارتينييه" (André Martinet) [1908 - 1999م]، إذ يحدّده بكونه: «أصغر وحدة صوتية وظيفية يمكن بواسطتها التفريق بين المعاني في لسان ما».⁽²⁾

فكلّ التعريفات التي أتينا على ذكرها تؤكد على دور الفونيم والمتمثّل في الوظيفة التمييزية، فالفونيم وإن كان أصغر وحدة في اللغة، إلّا أنّه يملك القدرة على التمييز بين دلالات الكلمات، وذلك عن طريق استبدال فونيم بفونيم آخر، فيتبع هذا الاستبدال تعيّر في المعنى، وهذا ما سنوضّحه فيما سيأتي من هذا البحث إن شاء الله

(1) - رومان ياكبسون: محاضرات في الصوت والمعنى، تر: حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص143.

(2) - أندريه مارتينييه: وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، ص383.

تعالى.

2- عند العرب: كرس مفهوم الفونيم عديداً من الباحثين والدارسين العرب، المحدثين منهم والمعاصرين، كل حسب مذهبه ونمط تفكيره، بيد أنّ أغلبهم قد اتفق في معناه العام مع علماء الغرب، وسنورد فيما يلي بعض هذه التعريفات التي وُضعت لهذه الوحدة اللغوية:

• محمد جواد النوري: يعرفه بقوله: «الفونيم أصغر وحدة صوتية لا تحمل في ذاتها معنى، ولكنها تقدر بالتقابل مع وحدات صوتية أخرى في البنى اللغوية على تغيير المعاني»⁽¹⁾.

فونيم "النون" مثلاً في كلمة "نَهْرٌ" لا يملك دلالة في ذاته، ولكنه قادر على تغيير المعنى، في حالة ما إذا قوبل بفونيم القاف أو الجيم أو الميم... الخ، فإنّ هذا التقابل يُبرز الوظيفة التمييزية لوحدة الفونيم؛ فالمعنى الذي تحمله كلمة "نَهْرٌ" غير المعنى الذي تحمله كلمة "قَهْرٌ" أو "جَهْرٌ" أو "مَهْرٌ" وهلمّ جرّاً، فهذا الاختلاف الدلالي مردّه هو استبدال فونيم أول الكلمة بفونيم آخر، فيؤدّي هذا الاستبدال إلى تغيير المعنى.

• عبد القادر عبد الجليل: وهو من أبرز الباحثين العرب الذين وضعوا مصنفات عديدة في هذا الجانب من الدرس اللغوي، إذ نجده يعرف الفونيم بقوله: «كلّ صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي»⁽²⁾، ويضيف قائلاً: «الفونيم وحدة صوتية تملك القدرة التمييزية الوظيفية»⁽³⁾.

يؤكد "عبد القادر عبد الجليل" في التعريفين السابقين على الدور الوظيفي للفونيم، والمتمثل في تغيير معاني الكلمات والتمييز بينها، فهو بهذا المعنى ذو أثر دلالي بالدرجة الأولى.

• زيد خليل القرآلة: الفونيم عنده هو: «أصغر وحدة صوتية تغيّر معناها يغيّر المعنى مثل: سَبَحَ، صَبَحَ، فالصوت المتغيّر هو السين، تغيّر إلى الصاد وبذلك اختلف المعنى»⁽⁴⁾.

• عبد العزيز الصيغ: لا يبتعد "الصيغ" هو الآخر عن معنى سابقه، إذ يقول في تعريفه للفونيم: «الفونيم مصطلح حديث، يُطلق على أصغر وحدة صوتية لها وظيفة في بناء الكلمة...»⁽⁵⁾.

• سمير العزاوي: يعرفه بكونه: «أصغر وحدة صوتية تمييزية دلالية»⁽⁶⁾.

(1)- محمد جواد النوري: علم الأصوات العربية، ص98.

(2)- عبد القادر عبد الجليل: علم الأصوات الصربي، دار أزمّة، عمان، الأردن، دط، 1998م، ص96.

(3)- عبد القادر عبد الجليل: التنوعات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1430هـ/2009م، ص43.

(4)- زيد خليل القرآلة: الحركات في اللغة العربية- دراسة في التشكيل الصوتي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1425هـ/2004م، ص26.

(5)- عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 1427هـ/2007م، ص225.

(6)- سمير العزاوي: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1439هـ/2018م، ص138.

الفصل التمهيدي: التنعيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

إدًا، فقد اتفقت هذه التعريفات جميعها على كون الفونيم هو: الوحدة الدنيا في اللغة، تغيّره يؤدي لا محالة إلى تغيّر الدلالة، وهو المعنى ذاته الذي نجده أيضا عند الباحثة "هيام كريدية"، بيد أنّ هذه الأخيرة أشارت في مفهومها له إلى خاصية من خصائص اللسان البشري، لم يتعرّض إليها هؤلاء الباحثين في تعريفاتهم، تقول محدّدة آياها: «أما الفونيم فهو وحدة صغرى من وحدات الانبناء الثاني، لها وظيفة مميّزة أو فارقة؛ أي تفرّق بين معاني المونيمات»⁽¹⁾، فهي ههنا أكّدت شأنها شأن سابقها على كون الفونيم يمثّل أصغر وحدة وظيفية في اللغة، لكنّها أشارت إلى مبدأ من المبادئ التي تقوم عليها المدرسة الفرنسية لأندرى مارتيني ألا وهو: **التقطيع المزدوج**، حيث تندرج الفونيمات ضمن المستوى الثاني منه، وهذا يتّضح جليًا من خلال قولها "فهو وحدة صغرى من وحدات الانبناء الثاني"، وتقول "خولة طالب الإبراهيمي" في معرض حديثها عن الانبناء المزدوج: «اللسان ينقطع إلى وحدات صغيرة على مرحلتين، نحصل في كلّ واحدة منهما على نوع معيّن من الوحدات؛ وحدات المرتبة الأولى وهي الكلمات، أما وحدات المرتبة الثانية فهي الحروف التي لا تدلّ على معنى»⁽²⁾.

مما يعني أنّ الكلام البشري يتقطّع على مستويين: التقطيع الأوّل على مستوى الوحدات الدالة وهي الكلمات أو كما يُصطلح عليها بالمونيمات، والتي تُرجمت إلى العربية بمصطلح اللفاظم، وهي تلك الوحدات الصوتية التي تحمل في ذاتها معنى، وتقبل التحليل إلى وحدات دنيا أصغر منها عديمة الدلالة، هذه الأخيرة تمثّل التقطيع الثاني الذي يتمّ على مستوى الوحدات غير الدالة أي الفونيمات، والتي قوبلت في العربية بمصطلح الصواتم. وهذا الكلام تؤكّده بدورها "نور الهدى لوشن"، ففي هذا الإطار نجدها تقول متحدّثة عن وحدات التقطيع المزدوج: «وتعدّ وحدات التقطيع الأوّل علامات لسانية، إذ أنّ لها دالا ومدلولًا، وهي لا تُجزّأ إلى وحدات معنوية أصغر، وكُنّها - من حيث صيغتها الصوتية - يمكن أن تُجزّأ إلى وحدات صوتية لا معنى لها في ذاتها، وإمّا هي ذات وظيفة تمييزية»⁽³⁾.

و **Phonème** كما رأينا مصطلح غربي بامتياز، لكن حينما دخل المفهوم إلى درسنا العربي الحديث تلقّفته عدّة مصطلحات وتسميات، منها ما كان عن طريق الترجمة، ومنها ما كان عن طريق التعريب، ومن هذه المصطلحات نذكر: «وحدة صوتية، لافظ، صوت مجرّد، صوتية، صوت، مستصوت، صوتون، وعُزّب إلى صوتيم، صوتم، فونيم، وفونيمية»⁽⁴⁾.

(1)- هيام كريدية: الألسنية الفروع والمبادئ والمصطلحات، دون دار النشر، بيروت، لبنان، ط2، 1429هـ/ 2008م، ص22.

(2)- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، ط2، 2006م، ص ص25-26.

(3)- نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، دط، 2008م، ص364.

(4)- أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص142.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

يتّضح لنا من خلال التعريفات الوظيفية السابقة للفونيم أنّ له علاقة بالكلمة، أو كما يصطلح عليها علماء الأصوات بالمونيم (Monème)، هذا الأخير الذي يمثّل: «أصغر وحدة لغوية مجرّدة ذات معنى معيّن، تدعى كذلك (الوحدة المعنوية الصغرى) بالمقابلّة مع الفونيم، أو (الوحدة الصوتية الصغرى)»⁽¹⁾؛ فالمونيم بهذا المعنى وحدة لغوية ذات مغزى في الكلام، أي تملك - عكس الفونيم - دلالة في ذاتها، وهي قابلة للتجزئة إلى وحدات أصغر منها عديمة الدلالة هي الفونيمات، إذًا فالعلاقة التي تجمع الفونيم بالمونيم هي علاقة جزء من كل، فاجتماع فونيم مع آخر يشكّل لدينا ما يعرف بالمونيم، يقول "الغامدي" مشيرًا إلى طبيعة العلاقة التي تربط الفونيم بالمونيم: «الفونيم وحدة مجرّدة تمثّل أصغر جزء صوتي من الكلمة».⁽²⁾

والفونيم مصطلح صوتي منوط بالعملية النطقية، أمّا إذا تحوّل إلى رمز مكتوب صار يُطلق عليه مصطلح "الجرفيم" والذي هو: «وحدة خطيّة لها قابلية التمثيل النطقية الصحيحة».⁽³⁾

عرفنا سابقًا أنّ الفونيم إذا تمّ استبداله بفونيم آخر، أدّى ذلك إلى تغيير على مستوى المعنى، لكن السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان ههنا هو: ماذا لو تمّ هذا الاستبدال دون أن يتبع ذلك تغيير في الدلالة؟

قبل الإجابة عن هذا الإشكال لا بدّ أولاً من الفصل في مسألة قابلية الفونيم للتجزئة من عدمها، فالفونيم كما أشارت التعريفات السابقة يمثّل أصغر وحدة صوتية، فهل من المعقول إذًا أن تتجزأ الوحدة الدنيا إلى وحدات أصغر منها؟ وفي هذا الصدد يقول "عبد القادر عبد الجليل": «الفونيم هو أصغر وحدة صوتية غير قابلة للتجزئة»⁽⁴⁾، وربما يقصد أولئك الذين يميلون إلى قابلية الفونيم للتجزئة، أنّه يمثّل عائلة لغوية يضمّ مختلف الصور النطقية والتأدييات المتباينة له؛ فالفونيم إذًا هو «الوحدة الصوتية التي تتألّف من أصوات جزئية تسمّى الألفونات أو التنوّعات الفونيمية، حيث يمثّل الفونيم المفرد نوعًا يجمع تحته أفراد أسرته».⁽⁵⁾

ولعلّ هذا ما ذهب إليه أيضا الباحث "أحمد محمد قدّور"، حين يعترف بقابلية الفونيم للتحليل إلى صور مختلفة يجمعها الفونيم ذاته قائلا: «الفونيم: أي الوحدة الصوتية؛ قابل للتحليل إلى مكونات هي عناصره النطقية والسمعية، وأنّه يتحقّق عن طريق صوره السياقية».⁽⁶⁾

إلى شبيهه من ذلك يسلك "محي الدين رمضان" إذ يقول: «فالصوت بحسب اختلاف موقعه من الصيغة

(1) - حاتم صالح الضامن: فقه اللغة، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، العراق، دط، 1411هـ / 1990م، ص174.

(2) - منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ / 2001م، ص10.

(3) - عبد القادر عبد الجليل: التنوعات اللغوية، ص43.

(4) - عبد القادر عبد الجليل: علم الصرف الصوتي، ص96.

(5) - عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1418هـ / 1998م، ص113.

(6) - أحمد محمد قدّور: مبادئ اللسانيات، ص149.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

عدّة وجوه من النطق، يجمعها كلّها الصوت نفسه، ويعرف هذا في اصطلاح علم اللغة اليوم بالفونيم **phoneme**؛ أي وحدة الصوت أو الصوت ذو النطق المتعدّد»⁽¹⁾.

هذا، ويُطلق علماء الأصوات على هذه العناصر النطقية والسمعية التي يتباين استعمالها من سياق لغوي لآخر مصطلح "الألفون" (Allophone)، يقول "عبد القادر عبد الجليل": «يمكن أن تُطلق على الألفون (المتغيّر السياقي)، وذلك لتكّم السياق الصوتي أثناء تيار الكلام فيه، ويُطلق أيضا عليه بعض الأصواتيين المحدثين بـ المتغيّر غير الوظيفي، لأنّه لا يؤثّر في المعنى، بقدر ما يلحظ التلوّن النطقي في مثل التبادل الموقعي للأصل الثلاثي: ك + ت + ب = كَتَبَ، كَتَبَ، تَكَبَ، بَتَكَ، بَكَّتْ، فالباءات ألوان صوتية ذات مواقع متنوّعة لأصل واحد هو فونيم الباء»⁽²⁾.

إدّا، فالفرق بين الفونيم والألفون واضح وجليّ، فعند استبدال فونيمٍ بآخر ويؤدّي هذا الاستبدال إلى تغيّر في الدلالة، فنحن هنا نكون بصدد فونيمين اثنين، أمّا إذا لم تؤدّ هذه العملية إلى تغيّر على مستوى المعنى فهنا نكون أمام تنوّعين نطقيين لفونيم واحد؛ أي ألفونين، وعليه أمكن القول: إنّ كلّ فونيم صوت، وليس كلّ صوتٍ بفونيم. وفي هذا الإطار يقول "عاطف فضل محمد": «أمّا الألفون فهو أصغر وحدة صوتية في بيئة نطقية واحدة تغيّرها لا يؤدّي إلى تغيّر في المعنى، كقولهم: قلبي يؤلمني وألبي يؤلمني؛ فالكلمتان في بيئة لغوية واحدة، لكن أحدهم يقول قلبي بالقاف والآخر يقولها بالهمزة (ألبي)، وقد تتعدّد صور الفونيم الواحد مثل حرف النون الذي تتعدّد صورته، بمعنى أنّه قد تتغيّر الصفات النطقية أو الفيزيائية للنون، فمرّة يُنطق لثويا وأخرى أسنانيا وثالثة بالشفقتين، ومرّة تكون مفخّمة وأخرى مكرّرة وثالثة منحرفة إلى غير ذلك، وهذا التغيّر في الصفات الفيزيائية لا يؤثّر في المعنى»⁽³⁾.

هذا، وقد تحمّس لبيان الفروق القائمة بين الفونيم والألفون جمع كبير من الباحثين والدارسين منهم "سمير شريف إستيتية" الذي يقول: «أمّا إذا لم يؤدّ تغيير الصوت في الكلمة إلى تغيير المعنى، فإنّ الصوت الجديد ألفون من ضمن التنوعات الألفونية للفونيم...»⁽⁴⁾.

وهاهو "غازي طليمات" ينحو المنحى ذاته قائلا: «يُعرّفُ الفونيم في معناه الاصطلاحي بكونه أصغر وحدة صوتية يمكن عن طريقها التفريق بين المعاني، فإذا أسقطت القيد الأخير من التعريف الاصطلاحي وهو

(1)- محي الدين رمضان: في صوتيات العربية، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الأردن، دط، 1979م، ص 179.

(2)- عبد القادر عبد الجليل: التنوعات اللغوية، ص 52-53.

(3)- عاطف فضل محمد: الأصوات اللغوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 1434هـ / 2013م، ص 115-116.

(4)- سمير شريف إستيتية: اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، ص 71.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

(التفريق بين المعاني)، أمكنك أن تحطّم الفونيم لتصل إلى ما هو أصغر منه أو أبسط وهو الألفون، وكما حلّل علماء الفيزياء النووية الذرّة، فوجدوا فيها كهرباء موجبة وأخرى سالبة، وثالثة تخلو من الإيجاب والسلب، فقد وجد علماء اللغة أنّ الفونيم يتضمّن عنصرا خاليا من السلب والإيجاب، ولا أثر له في تحديد المعنى فسّموه الألفون⁽¹⁾. ويضرب كل من "عصام نور الدين" و"زيد خليل القرالّة" أمثلة توضيحية في إطار التمييز بين الفونيم والألفون، حيث يؤكّد الأوّل بأنّ الفونيم الواحد يتألف من عدّة ألفونات حسب تلوّن الفونيم في النطق، يقول: «واعلم أنّه عندما يحلّ صوت محلّ صوت آخر، ويؤدّي إلى تغيّر معنى الكلمة مثل: الـ /ع/ محلّ الـ /ب/ في ضرب التي تتحوّل إلى /ضرع/ فهما (فونيمان)، أمّا إذا لم يؤدّ هذا التغيير إلى أيّ اختلاف في المعنى فهما (فونان) لفونيم واحد، مثل نونات: /جنته، جُبنة، نهر، وسنّ/... الخ، فالنون /ن/ هي فونيم، وتلوّناتها الصوتية أو أفراد عائلتها لا يحلّ بعضها مكان بعض، ولا يغيّر شيئا في المعنى (فونات)»⁽²⁾، ويقول الثاني: «الألفون هو أصغر وحدة صوتية تغيّرها لا يغيّر المعنى، ومثال ذلك كلمة القدس بالقاف، حيث ينطقها أبناء بعض المناطق الكدس بالكاف دون أن يغيّر المعنى»⁽³⁾.

وكثير ما تظهر هذه التأديت المتنوعة للفونيم الواحد أثناء تلاوة آي الكتاب الحكيم، ومثال ذلك "لام" لفظ الجلالة التي تُفخّم حيناً وتُرَقّق حيناً آخر، فهي تُفخّم إذا سُبقت مثلاً بفتح أو ضمّ نحو: استغفرُ الله، أو قال الله تعالى، وتُرَقّق إذا كانت مسبوقه بكسر نحو: بسم الله، وما يقال عن اللام ينطبق على الراء أيضا، فهي في كلمة "راح" مفخّمة لأنّها مصاحبة بفتح، في حين أنّها في كلمة "ريح" مرَقّفة لمصاحبتهما الكسر. فالفونيم واحد وهو اللام أو الراء، لكن الاستعمالات النطقية المختلفة لهما تمثّل ألفونات لفونيم اللام أو الراء، أي تنوّعات فونيمية.

المطلب الرابع: النظرة التجريدية: يرى أصحاب هذه الوجهة أنّ الفونيم ليس واقعا مادّيا أو نفسيا، وأمّا هو وحدة مجرّدة خيالية، وأهمّ من مثل هذا الاتجاه العالم الياباني "جمبو" (Jimbo) والإنجليزي "بلمر" (Palmer)، وكذلك "جونز" (Jones) في آخر طور من أطوار صياغته لنظرية الفونيم، وقد قيل في شرح نظرية الأصوات التجريدية: أنّ بعض الأصوات لها ملامح مشتركة كثيرة، يمكن أن تلخّص في مثال أو صورة أو انطباع ذهني يعدّ صوتا تجريديا على المستوى الأوّل، وهناك مستوى ثانٍ من التجريد، حيث يستخلص المرء عائلة كاملة من هذه الأصوات التجريدية في شكل صورة عامة، هذه الأصوات التجريدية على المستوى الثاني هي الفونيمات.

(1) - غازي مختار طليمات: في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، سورية، ط2، 2000م، ص160.

(2) - عصام نور الدين: علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص60.

(3) - زيد خليل القرالّة: الحركات في اللغة العربية - دراسة في التشكيل الصوتي، ص26.

الفصل التمهيدي: التنعيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

وقد نقد "تروبتسكوي" هذه النظرية بقوله: (1)

- إنَّ التجريد على المستوى الأوّل يتمّ على أساس تماثل أكوستيكي نطقي، في حين أنّه على المستوى الثاني على أساس صلة الأصوات ببيئاتها، هذان الأساسان مختلفان لدرجة أنّه لا يمكن اعتبارهما مستويين لحركة التجريد الواحدة.

- إنَّ الأصوات الحقيقية إنّما تحيا ما دامت تحفقات للفونيمات، وعلى هذا فالمستوى الأوّل من التجريد هو الثاني. هناك من العلماء من فضّل النظر إلى الفونيم، وذلك بالمزج بين اتجاهين أو أكثر من الاتجاهات التي أتينا على ذكرها، هذا فضلا على وجود اتجاهات أخرى تبناها بعض العلماء كالاتجاه الاجتماعي والاتجاه السميائي والاتجاه البرجماتي والاتجاه التوليدي، في حين هناك من فضّل الاستفادة من جميع هذه الاتجاهات، فتبني بذلك اتجاهها أوسع هو الاتجاه التكاملي في تحديد مفهوم الفونيم.

المبحث الثاني: تاريخ الفونيم في العصر الحديث

بدأ الأساس الفونيمي يفرض نفسه مرّة ثانية على يد رواد عاشوا في أواخر القرن الثامن عشر، وعلى امتداد القرن التاسع عشر ومنهم: (2)

① عالم اللغة البولندي Jozef mrozinski (1784 - 1839م).

② وفي أوروبا الغربية برز اللغوي السويسري Jost winteler (1846 - 1929م).

③ وفي وقت واحد وُجد لغويان كبيران أحدهما في لندن وهو Henry sweet والآخر في Kazan في جنوب روسيا وهو Jan Baudouin de Courteney (1845 - 1929م)، وقد نشر الأوّل كتابه عام 1877م، ونشر الثاني كتابه عام 1873م، وليس هناك ما يدلّ على أنّ أحدهما قد اطّلع على دراسات الآخر، ولكن حتى الآن لم يكن قد ظهر مصطلح الفونيم.

أما أوّل من استخدم المصطلح "فونيم" فقد كان Defrich Desgenettes في اجتماع الجمعية اللغوية الفرنسية في ماي 1873م، وثاني من استعمله كان Louis Havet ومنه انتقل المصطلح إلى Ferdinand de Saussure. وإذا كان هؤلاء هم أوّل من استخدموا مصطلح فونيم، فقد كان Jan Baudouin هو أوّل من أعطى للفونيم تحديده الدقيق، لقد كان أوّل شخص يتعمّق في فحص طبيعة الفونيم، وكان واعيا بأهميّة هذا التصوّر، وربّما بالنتائج البعيدة التي تترتّب عليه، كما أسهم تلميذه Kruszewski في التمييز بين الفونيم والفون، ونشر بحثا عام 1880م عن المفردات السلافية، فضّل فيه المصطلح "فونيم" على

(1) - ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 181-182. وكذا: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص 148.

(2) - أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ص 168 - 169.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

المصطلح "وحدة صوتية" Phonetic unit تمّ في عام 1881م كتب Kruszewski قائلاً: أنا أقترح أن يطلق على الوحدة الصوتية مصطلح "الفونيم"⁽¹⁾.

وقدمت فكرة الفونيم إلى مدرسة لندن لأول مرّة عام 1911م حين قدّمها البروفيسور L. Scerba (1880-1940م) من مدرسة لنجراد إلى Daniel Jones، ثمّ عرفت في إنجلترا حوالي عام 1916م، وقد كانت أول مرّة يستعمل فيها "جونز" مصطلح "فونيم" في محاضرة عامة ألقاها عام 1917م، ولكن مع الأسف حُذف من هذه المحاضرة الجزء الخاص بتصوّره الفونيمي، حين نشرت الجمعية الفلولوجية Philological society محاضرات جلساتها. أمّا في علم اللغة الأمريكي فقد كان Edward Sapir أول لغوي أمريكي يُظهر اهتماماً بمصطلح "الفونيم"، ففي العشرينيات ظهر كتابه الشهير "اللغة" (Language) (1921م)، وهو وإن كان قد خلا من مصطلح الفونيم، فقد كان يحتوي على بعض التلميحات عنه، ثمّ ظهر الأساس الفونيمي بوضوح عنده في بحث عن الفونيم نشره عام 1933م، أمّا الاهتمام الكبير بنظرية الفونيم فلم يبدأ إلاّ منذ ظهور كتاب Bloomfield المسمى (Language) عام 1933م.⁽²⁾

إدّاء، الفونيم مصطلح لغوي حديث النشأة، وهو يقابل مصطلح الحرف أو الصوت في اصطلاح علمائنا العرب الأوائل، حيث يرى "أحمد قدور" أنّ مصطلح "الحرف" عند القدماء كانوا يدلّون به على الصوت وعلى الرمز المكتوب، وقد جاء استعمالهم للحرف شاملاً لمظهري اللغة المنطوق والمكتوب في آن واحد، لما لهذين المظهرين عندهم من اقتران وتلازم.⁽³⁾

ويشاطر "أحمد قدور" الباحث "عبد القادر الخليل" حيث يقول هذا الأخير: «وأما مصطلح الصوت اللغوي فقد استخدم علماء العربية القدماء مصطلح الحرف للدلالة عليه، إذ أنّ الحرف والصوت اللغوي عندهم شيء واحد، وهذا يتفق مع مفهوم علم اللغة الحديث للفونيم».⁽⁴⁾

المبحث الثالث: الفونيم: مستوياته، أقسامه، وأنواعه

المطلب الأول: مستويات الفونيم:

للفونيم مستويان: أحدهما ذهني مثالي، وتتأتى مثاليته من كونه المعيار الذهني المجرّد الذي يترجمه أبناء اللغة

(1) - أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 169.

(2) - المرجع نفسه، ص 170.

(3) - ينظر: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر آفاق معرفة متجدّدة، دمشق، سورية، ط3، 1429هـ/2008م، ص 153.

(4) - عبد القادر الخليل: المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية، دط، 1993م، ص 64.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

أو اللهجة في نطقهم، والآخر مادي عملي ذو وجهين متلازمين؛ فوجه يتمثل في النشاطات النطقية العضوية، وما يترتب عليها من تعيين موضع أصلي للنطق، وتحديد صفات أساسية للصوت كالاحتكاك أو التوقف أو غيرها من الصفات، ووجه آخر فيزيائي يتمثل في موجات الصوت، وما يترتب على ذلك من آثار سمعية مختلفة كالشدّة والعلو والضغط والزمن، ومستويات التردد المختلفة كالتردد الأساسي والأول والثاني.⁽¹⁾

المطلب الثاني: أقسام الفونيم في اللغة العربية:

الفونيمات في اللغة العربية ثلاثة أقسام هي:⁽²⁾

1- الصوامت (Consonants): وعددها سبعة وعشرون فونيمًا في اللغة العربية.

2- الصوائت (Vowels): وعددها ستة فونيمات في اللغة العربية.

3- أنصاف الصوائت (Semi vowels): وعددها فونيمان في اللغة العربية.

فأمّا الصوامت أو كما تُسمّى كذلك بالأصوات الساكنة أو الحبيسة فهي أصوات «مجهورة أو مهموسة، يحدث أثناء النطق بها اعتراض أو عائق في مجرى الهواء، سواء أكان الاعتراض جزئياً أم كلياً، من شأنه أن يسمح بمرور الهواء أثناء النطق به من الفم كالباء والتاء، أم ماراً من الأنف كالنون والميم، وكذلك الأصوات التي ينحرف هواؤها فلا يخرج من وسط الفم، وإنما يخرج من جانبيه كاللام».⁽³⁾

وأما الصوائت أو كما تُدعى أيضاً بالأصوات الطليقة أو حروف المدّ فهي الأصوات «التي يجري معها الهواء طليقاً، لا يعترض طريقه شيء حتى يخرج من الفم، وهي الفتحة والضمة والكسرة، وتُعرف بالحركات القصيرة، وما تولّد عنها: الألف والواو والياء وتُعرف بالحركات الطويلة».⁽⁴⁾

هذا، وتختلف الصوائت بعضها عن بعض «بعملية الرنين فوق المزمارية، أمّا معيار التمييز بين مختلف الصوائت، فإنّه يتمّ عن طريق موضع النطق وعن طريق درجة الانفراج والتأنيف والتشفية، والمدّة وشدّة توتّر الأعضاء الناطقة».⁽⁵⁾

في حين تنحصر أنصاف الصوائت في فونيمين اثنين هما الواو والياء الانتقاليين نحو: وَلَدٌ وَيَلْدٌ، وهذان الصوتان «قريباً الشبه بالصوائت من حيث موضع النطق، وبالصوامت من حيث ضيق ممرّ الهواء المزفور».⁽⁶⁾

(1)- سمير شريف إستيتية: اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، ص79.

(2)- بسام بركة: علم الأصوات العام- أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، دط، 1988م، ص111.

(3)- نجاة على: فن الإلقاء بين النظرية والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط3، 2003م، ص87.

(4)- صالح سليم عبد القادر الفاخرى: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 2007م، ص142.

(5)- بسام بركة: المرجع السابق، ص79.

(6)- المرجع نفسه، ص138.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

وبدوره يفترق "الغامدي" بين الصوامت والصوائت بكون الأولى «يصاحبها تقارب بين عضوي النطق، مما يؤدي إلى وقف تام للهواء الخارج من الرئتين أو اضطراب فيه، أما الصوائت فإنّ درجة اقتراب عضوي النطق من بعضهما أقلّ من ذلك الحاصل في نطق الصوامت»⁽¹⁾.

يتّضح لنا من خلال كل ما سبق ذكره بأنّ الصوامت في اللغة العربية أكثر عددا من الصوائت، فإذا كانت هذه الأخيرة خاصة بالحركات الثلاث القصيرة وما يقابلها من حركات طويلة، فإنّ الصوامت هي كلّ حروف الهجاء ما عدا الستة المذكورة، هذا فضلا على أنّ الصوامت منها ما هو مهموس كالفاء والتاء والسين وغيرها، وذلك بسبب عدم تذبذب الوترين الصوتيين أثناء النطق بما لتباعدهما، ومنها ما هو مجهور كالباء والداد والطاء وغيرها، حيث يكون الوترين الصوتيين في النطق بهذه الأصوات متقاربين، فينتج عن تذبذبهما صوت مسموع، في حين تنفرد الصوائت كلّها قصيرة كانت أم طويلة بصفة الجهر، لأنّ الهواء أثناء النطق بها يمرّ معها حرّاً طليقا لا حاجز ولا عائق يعترض مجراه، ولأجل ذلك أطلق عليها "الخليل بن أحمد الفراهيدي" مصطلح "الهوائية"، كونها لا مخرج لها ولا حيّز تنتمي إليه، على عكس الصوامت التي يحدث عند النطق بها اعتراض أو انسداد جزئي أو كليّ في موضعٍ من مواضع جهاز النطق، ويسمى ذلك الموضع؛ أي نقطة التقاء أعضاء النطق التي منعت جريان الهواء بحريّة: مخرج الحرف.

المطلب الثالث: أنواع الفونيم في اللغة العربية:

اتّفق علماء اللغة والأصوات على تصنيف الفونيمات إلى نوعين هما:

- 1- الفونيم الرئيسي (الفونيم التركيبي أو القطعي): هو تلك الوحدة الصوتية أو القطعية التي تكون جزءا من أبسط صيغة ذات معنى منعزلة عن السياق، أو هو ذلك العنصر الذي يكون جزءا أساسيا من الكلمة المفردة كالباء والتاء... وغيرها من الصوامت Consonants، علاوة على الحركات Vowels، وهي الفتحة والضمة والكسرة قصيرة وطويلة، وأنصاف الحركات وهي الواو مثل كلمة وُلِدْ، والياء في مثل كلمة يَدْعُ.⁽²⁾
- 2- الفونيم الثانوي (الفونيم غير التركيبي أو فوق القطعي): هو عبارة عن ظاهرة صوتية^(*) أو صفة صوتية^(**)

(1) - منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية، ص48.

(2) - ينظر: كمال بشر: علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2000م، ص496. وكذا: محمد جواد النوري: علم الأصوات العربية، ص129.

(*) - هي تطبيق عملي للمخارج والصفات في الكلام الإنساني، فنتيجة المجاورة الحاصلة بين صوت وصوت آخر، يكتسب الصوت صفات جديدة، تحكمها قوانين صوتية تمّ التعرف عليها، واصطلح على هذه التغيّرات الجديدة نتيجة انتظام الأصوات في وحدة كلامية، وانتظام هذه الوحدات في سلسلة كلامية بالظواهر الصوتية، كالإدغام والمدّ، والإخفاء والتفخيم والترقيق والنبر والتنغيم وغيرها. ينظر: محمد بن أبي بكر المرعشي: جهد المقل، تح:

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

أو ملمح صوتي ذي مغزى في الكلام المتّصل، أو هو بعبارة أخرى: ملمح صوتي تتأثر به وحدات صوتية قد تشتمل على أكثر من صامت أو حركة في المنطوق الكلامي، وهذا النوع من الفونيمات - على عكس من الفونيم الرئيسي - لا يكون جزءا من تركيب الكلمة أو المنطوق، وإنما يظهر ويلاحظ فقط حين تُستعمل الكلمة الواحدة بصورة خاصة، كأن تُستخدم جملة بذاتها، أو حين تُضْمُّ كلمة إلى أخرى، ومن أمثلة الفونيمات فوق التركيبية أو غير التركيبية: درجة الصوت، النبر، النغمة، التنغيم، المفصل، قصر الحركات وطولها وغيرها، ومعنى هذا باختصار أنّ الفونيمات الثانوية تكسو المنطوق كلّه، وتكسبه صفات أو سمات مميّزة، ولكنها في كلّ الحالات لا تكون أيّة عناصر من بنية هذا المنطوق أو مفرداته. (1)

ومراعاة لهذه الفروق بين الصنفين، وموقعهما في الكلام الإنساني، رأى بعضهم تسمية فونيمات النوع الأوّل (الرئيسي) Segmental phonèmes: الفونيمات التركيبية أو القطعية، والثاني (الثانوي) Suprasegmental phonèmes أي الفونيمات غير التركيبية أو فوق القطعية، وفي هذه التسمية الأخيرة «إشارة واضحة إلى ما بين الصنفين من فروق في الوظيفة والموقع، فالفونيمات الرئيسية عناصر تركيبية؛ أي عناصر أساسية في تركيب الكلمة ومواقعها محدّدة، يمكن قطعها أو فصلها بعضها عن بعض، أمّا الفونيمات الثانوية فليس لها نصيب في تركيب الكلمة أو بنيتها، إنّما فوق التركيب، أي تكسوه كلّه، فلا يمكن قطع أو تمزيق امتدادها». (2)

وبما أنّ موضوع هذا الفصل يدور حول التنغيم* بعدّه فونيميا غير تركيبى، فإنّ الذي يدقّق النظر في مفهوم الفونيم الثانوي، يجد ارتباط التنغيم به واضحا «فليس التنغيم جزءا من التركيب اللغوي في الجملة، بل هو حدث طارئ على التركيب يصاحبه، يتغيّر نتيجة تغيّره في السياق اللغوي الجاري فيه، إذ يربط التنغيم عناصر التركيب بعضها ببعض». (3)

= (***) - كيفية يُوصف بها الحرف عند حصوله في المخرج، وهذه كيفية قد تكون لازمة للحرف فلا يمكن النطق به بدونها، أو تكون عارضة له فتزول عنه بزوال السبب، هذا وسيتمّ التفصيل في الصفة الصوتية وما تعلق بها فيما سيأتي من البحث إن شاء الله تعالى. أحمد معبد: الملخص المفيد في علم التجويد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، دب، دط، 1997م، ص75. وكذا: مجدي إبراهيم محمد: في أصوات العربية دراسة تطبيقية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2011م، ص56.

(1) - ينظر: كمال بشر: علم الأصوات، ص496. وكذا: محمد جواد النوري: علم الأصوات العربية، ص129.

(2) - كمال بشر: المرجع السابق، ص497.

(*) - يُعرّف التنغيم بكونه تنوّع الصوت بين الارتفاع والانخفاض أثناء الكلام، نتيجة لتذبذب الوترين الصوتيين، فيتولّد عن ذلك نغمة موسيقية، ولذلك يُطلق على التنغيم أيضا (موسيقى الكلام) أو (اللحن). وسيأتي التفصيل في مبحث التنغيم لاحقا إن شاء الله تعالى. ينظر: عاطف مذكور:

علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1987م، ص135.

(3) - تحسين عبد الرضا الوزان: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن،

ط1، 2011م، ص397.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيب (مدخل نظري)

بناء على هذا، يعدّ التنغيم من الفونيمات الصوتية المنتمجة إلى فونولوجيا ما فوق التركيب، تميّز له عن الفونيمات المكوّنة لبنية الكلم، يتحكّم فيها الأداء، وهو بحكم ذلك لا يملك دلالة في ذاته، وإنّما يكتسب قيمته ومعناه من خلال انتسابه إلى بنية التركيب (السياق الكلامي).

المبحث الرابع: وظيفة الفونيم في اللغة العربية:

يُؤدّي الفونيم في نظام اللغة وظيفة جوهرية هي **الوظيفة التمييزية**، إذ يتمثّل دوره الرئيس في التمييز أساساً بين معاني ودلالات المونيمات، وتندرج ضمن هذه الوظيفة وظيفتين ثانويتين هما: الوظيفة الإيجابية والوظيفة السلبية؛ فأما الأولى فيؤدّيها الفونيم «حين يمتلك القدرة في عملية الاستبدال الموقعي للتركييب»⁽¹⁾، أو بعبارة أكثر دقة تتحقّق الوظيفة الإيجابية للفونيم «بتضامه وسائر عناصر الكلمة للدلالة على معناها»⁽²⁾، أمّا الثانية وهي الوظيفة السلبية «فتتحدّد في حفظ التباين بين هذه التراكيب بعضها عن البعض الآخر»⁽³⁾، وتعبير آخر «تكون حين يحتفظ بالفرق بين الكلمة التي هو فونيم فيها، والكلمات الأخرى»⁽⁴⁾.

إذاً، فالفونيم كأصغر وحدة صوتية في اللغة إنّما يُؤدّي وظيفة إيجابية، حينما يتضافر ويتداخل مع غيره من الفونيمات الأخرى لتكوين مونيم له دلالة وقيمة في اللغة، مادام أنّ العنصر الواحد في اللغة لا يملك قيمة في ذاته، وإنّما يكتسبها من خلال وجوده مع غيره من العناصر الأخرى ضمن النظام الواحد، فالنون فونيم مفرد لا قيمة له بمفرده، ولكن إذا اشترك مع فونيمات أخرى كالهاء والراء مثلاً، تمكّن من تشكيل مونيم "نَهْرٌ"، وهنا نقول عنه أنّه قد أدّى وظيفة إيجابية، لكن بمجرد إحلال محلّه أو محلّ صوت آخر مجاور له فونيمًا مغايرًا، فإنّ ذلك سيؤدّي لا محالة إلى تغير المعنى، فَنَهْرٌ يختلف في معناه عن: جَهْرٌ، وَهْرٌ، وشَهْرٌ، وظَهْرٌ، وقَهْرٌ، ومَهْرٌ... الخ.

فالفونيم في هذه الحالة قد أدّى وظيفتان ثانويتان: وظيفة إيجابية، لأنّه ساعد على تكوين مونيمات جديدة، وبالتالي إيجاد معاني مختلفة، وفي الوقت ذاته أدّى وظيفة سلبية لأنّه احتفظ بالفرق بين كلمة "نهر" وغيرها من الكلمات الأخرى السابق ذكرها، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: ما هي الآليات التي يتّخذها الفونيم للقيام بوظيفته الرئيسة في اللغة وهي الوظيفة التمييزية؟

يقوم الفونيم في العموم بوظيفته التمييزية عبر آليتين هما: الإبدال الصوتي والقلب المكاني

(1) - عبد القادر عبد الجليل: علم الصرف الصوتي، ص 96.

(2) - أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص 145.

(3) - عبد القادر عبد الجليل: المرجع السابق، ص س.

(4) - أحمد محمد قدور: المرجع السابق، ص س.

الفصل التمهيدي: التنغيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

المطلب الأول: الإبدال الصوتي: ومعناه: «إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة، وبذلك قد تشترك الكلمتان أو الصورتان بحرفين أو أكثر»⁽¹⁾، أو هو: «جعل حرف مكان حرف آخر مطلقاً، سواء كان في حروف صحيحة أو معتلة»⁽²⁾.

وهذا الإبدال يمسّ الحروف كما يمسّ الحركات القصيرة منها وكذا الطويلة، وعلى هذا الأساس يمكن أن نتميّز لهذا الإبدال بين معيارين هما:

1- إبدال صوت صامت بصوت صامت آخر على مستوى المونيم الواحد: ومثاله:

* **الخَضْمُ والقَضْمُ**: إبدال فونيم الحاء بفونيم القاف، فيؤدّي ذلك الإبدال إلى تعيّر في المعنى، يقول "ابن جني" (ت: 392هـ) في بيان معنى الكلمتين: «من ذلك قولهم: خَضَمَ وقَضَمَ، فالخَضْمُ لأكل الرطب كالبطيخ والقضاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقَضْمُ للصلب اليابس، نحو: قَضِمْتُ الدّابة شعيرها ونحو ذلك...»⁽³⁾.

فالحاء هنا صوت رخو مهموس ضعيف، يتناسب مع الأكل الرطب اللين كالفواكه وما شابه ذلك، في حين اجتمعت في القاف جملة من صفات القوّة كالجهر والشدّة والاستعلاء والقلقلة وغيرها، فهي لصلابتها تتناسب مع الأكل اليابس كالقمح والشعير وسائر المكسّرات.

* **القَدُّ والقَطُّ**: إبدال فونيم الدال بفونيم الطاء، تنتج عن هذا الإبدال تعيّر على مستوى الدلالة، يوضّح ذلك "ابن جني" في كتابه "الخصائص" باب "في إمساس الألفاظ أشباه المعاني" فيقول: «ومن ذلك القَدُّ طولاً، والقَطُّ عرضاً، وذلك أنّ الطاء أخصر للصوت وأسرع قطعاً له من الدال، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرّض لقربه وسرعته، والدال الماطلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولاً»⁽⁴⁾.

فالقَطُّ إذا كان في اتجاه طولي فهو قَدُّ، أمّا إذا كان اتجاهه عرّضيّ سُمّي حينئذٍ قَطُّ.

2- إبدال صوت صائت بصوت صائت آخر على مستوى المونيم الواحد: ومثاله:

* **الجَدُّ والجُدُّ والجُدُّ**: يميّز "الجوهري" (ت: 393هـ) بين المعاني اللغوية لهذه المواد، والناجئة أساساً عن تعيّر الحركات القصيرة المصاحبة لفونيم الجيم، وذلك في سياق تفسيره لمادة "جَدَدٌ" {فصل الجيم باب الدال}، فيقول:

(1)- أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي: كتاب الإبدال، ج1، تح: عزّ الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سورية، دط، 1379هـ/1960م، ص9.

(2)- أيمن أمين عبد الغني: الصرف الكافي، مراجعة: عبده الراجحي ورشدي طعيمة وآخرون، دار التوفيقية للتراث للطبع والنشر والتوزيع، ط5، 2010م، ص287.

(3)- أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ج1، تح: عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/2003م، ص509.

(4)- المرجع نفسه، ص ن.

الفصل التمهيدي: التنعيم فونيم غير تركيبية (مدخل نظري)

«الجُدُّ: أبو الأب وأبو الأمّ، والجُدُّ: الحظّ والبخت، والجمع: الجُدودُ (...)، والجُدُّ: نقيض الهزل (...)، والجُدُّ:

الاجتهاد في الأمور (...). والجُدُّ بالضمّ: البئر التي تكون في موضع كثير الكلاء...»⁽¹⁾

إدّا، الجُدُّ بفتح الجيم تعني والد الأب أو الأمّ، ويُطلق على الحظّ والرزق أيضا، وبكسرهما: الاجتهاد والمثابرة في العمل، وبضمّها: البئر المحيطة بمنطقة كثيرة العشب وفيرة المياه.

* **الدَّوَامُ والدَّوَامُ والدَّوَامُ:** جاء في كتاب "المثلث" في إطار تفسير صاحبيه للمواد الثلاث السابقة، وإبراز الخلاف الدلالي بينها كما يلي: «الدَّوَامُ بالفتح: البقاء والاتّصال، الدَّوَامُ بالكسر: مصدر دوامته إذا دمت معه، والدَّوَامُ بالضمّ: الدَّوَار الذي يعتري الرأس»⁽²⁾.

المطلب الثاني: القلب المكاني: ومعناه: «تبادل في المواقع، يحدث بين الأصوات المتجاورة في السلسلة الكلامية»⁽³⁾، ومثاله:

* **القَمَحُ والمَحَقُّ:** يقول صاحب معجم "العين" في شرح الكلمتين: «القَمَحُ: البُرُّ، وأقمح البُرُّ جرى الدقيق في السنبُل...»⁽⁴⁾، ويقول في موضع آخر: «مَحَقَهُ اللهُ فَمَحَقَ: أي ذهب خيره وبركته ونَقَصَ (...)، والمُحَاقُّ: آخر الشهر إذا مَحَقَ الهلال فلم يُرَ...»⁽⁵⁾.

إنّ اختلاف معنى القمح عن معنى المحق ناتج عن تبادل الأصوات نفسها مواقعها داخل الكلمة عن طريق التقديم والتأخير، وهذه من بين الآليات التي تتخذها اللغة قصد إثراء معجمها اللفظي.

* **اللَّعْنُ والنَّعْلُ:** يقول "الفراهيدي" (ت: 170هـ، وقيل أيضا سنة: 175هـ): «اللَّعْنُ: التعذيب، والمُلْعَنُ: المُعَذَّبُ، واللَّعِينُ: المشتوم المسبوب، لَعْنَتُهُ: سببته، ولَعْنَةُ اللهِ: باعده (...)، واللَّعْنَةُ في القرآن: العذاب...»⁽⁶⁾، ويضيف قائلا في موضع آخر: «النَّعْلُ: مَا جُعِلَتْ وقاية من الأرض (...)، ورجلٌ نَاعِلٌ: ذو خُفٍّ ونَعْلٍ...»⁽⁷⁾. وعليه فاللّعن هو الطرد من رحمة الله الواسعة، أمّا النّعل فهو الحذاء، فكلا الكلمتين تشتملان على

(1) - إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج2، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1990م، مادة "جَدَد".

(2) - أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيّد البطلوسي وأبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي: المثلث أو الألفاظ المثلثة المختلفة المعنى، ولبه المثلث ذو المعنى الواحد، تح: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص161.

(3) - عبد القادر عبد الجليل: علم الصرف الصوتي، ص63.

(4) - الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: داوود سلّوم وآخرون، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، مادة "قَمَح".

(5) - المرجع نفسه، مادة "مَحَقُّ".

(6) - نفسه، مادة "لَعْنُ".

(7) - نفسه، مادة "نَعْلُ".

الفصل التمهيدي: التنعيم فونيم غير تركيبى (مدخل نظري)

الفونيمات نفسها ، لكن الاختلاف بينهما يكمن في موقعها داخل المونيمات، والذي من شأنه أن يتدخل في تحديد الدلالات، وتغيير المعاني.

المباحج الأول

محددات أولية (بسط نظري)

توطئة

الفصل الأول: علم الأصوات وعلاقته بالعلوم الأخرى

الفصل الثاني: ظاهرة التنغيم في اللغة، وعلاقتها بالإيقاع الصوتي

الفصل الثالث: لمحة عامة حول سور الطواسين

توطئة:

مما لا شكّ فيه أنّ الاهتمام بدراسة الأصوات ومعالجتها ليس بالأمر الجديد، إنّما هو قدّم قدم النطق الإنساني، ولعلّ أهمّ الأقوام التي عُنيّت بدراسة الصوت: الهنود واليونان والعرب، وقد صنّف كلّ قوم من هذه الأقوام أصوات لغتهم حسب "مواضع النطق"، إذ كان السرّ من وراء هذا الاهتمام الكبير، كون الأصوات هي أصل مادة الكلام، وهي الأساس الذي يقوم عليه صرح بناء اللغة، إلّا أنّ اهتمام الهنود كان أوسع وأدقّ؛ وذلك لعنايتهم بنطق كتابهم المقدّس "الفيدا"، ووضع المعايير المستنبطة لذلك؛ من وصف الأصوات ومخارجها وبيان طبيعتها وخصائصها، ولم يضارع الهنود في ذلك إلّا العرب، فقد كانوا سبّاقين إلى دراسة أصوات لغتهم، فقدّموا في هذا الشأن بحوثاً قيّمة شهد لها المحدثون؛ إذ وصفوا لنا الصوت اللغوي وصفاً دقيقاً على الرغم من اعتمادهم فقط على الملاحظة الذاتية، وساعدهم في ذلك الحس الدقيق والأذن الموسيقية المرهفة، وعليه فقد نهض الأوائل بدراسة أصوات اللغة العربية منذ القرن الثاني الهجري، حيث كان "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (ت: 175هـ) رائد هؤلاء العلماء، وتبعه بعد ذلك تلميذه "سيبويه" (ت: 180هـ) وكذا "ابن جني" (ت: 392هـ) و"ابن سينا" (ت: 428هـ) و"ابن الجزري" (ت: 833هـ) وأمثالهم، كما أولى العرب شأنهم في ذلك شأن الهنود عناية فائقة بكتابتهم المقدّس، حيث اهتمّوا بالنص القرآني وكيفية أدائه وضبط مخارجه، وهذا ما عُرف عندهم بعلم التجويد، ولذلك ليس بالغريب أن يشيد بعض الباحثين الغربيين بجهود العرب في علم الأصوات، على الرغم من قلّة الإمكانيات وعدم وجود الآلات الحديثة التي توفّرت لدى المحدثين، وفي هذا الصدد يقول المستشرق الألماني "جوتهلّف براجشتراسر" (Gotthelf Bergsträßer): «ولم يسبق الغربيين في هذا العلم؛ أي علم الأصوات إلّا قومان من أقوام الشرق وهما: أهل الهند يعني البراهمة، والعرب».⁽¹⁾

والصوت كما هو معلوم أصغر عنصر في اللغة، ولعلّ أفضل تعريف استطاع أن يجمع بين الطبيعة الصوتية للغة، وبين وظيفتها الاجتماعية هو ذلك التعريف الذي وضعه "أبو الفتح عثمان بن جني" إذ قال: «وأما حدّها فهي أصوات يعرّب بها كلّ قوم عن أغراضهم».⁽²⁾

أشار "ابن جني" في هذا التعريف على الرغم من اختصاره إلى جميع أبعاد اللغة وهي: "البعد الفيزيائي" ويتضح ذلك جلياً من خلال لفظ "أصوات"، و"البعد النفسي" من خلال توظيفه لكلمة "يعرّب"، و"البعد الاجتماعي" ما دام أنّ اللغة واقعة اجتماعية، ويبرز ذلك من خلال استخدامه لعبارة "كلّ قوم"، وكذا "البعد

(1) - براجشتراسر: التطوّر النحوي للغة العربية، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1414هـ/1994م، ص11.

(2) - ابن جني: الخصائص، ج1، ص87.

الوظيفي التواصلي" من خلال استعماله لعبارة "أغراضهم".

ويسمى العلم الذي يهتم بدراسة اللغة بـ: علم اللغة/ اللسانيات، حيث تندرج ضمنه عدّة مستويات لغوية أشهرها: المستوى الصوتي وهو أصغر مستويات اللغة، يُعنى بدراسة الأصوات اللغوية من حيث تحديد مخارجها وصفاتها وكيفية النطق بها، ويُعرف الفرع الذي ينبثق عنه بعلم الأصوات (Phonétique/ Phonetics). أما المستوى الثاني فهو المستوى الصرفي، حيث يهتم هذا الفرع بدراسة صيغ الكلمات من حيث بنائها، والتغيّرات التي تطرأ عليها نقصا وزيادة، وأثر ذلك في الدلالة، ويسمى العلم الذي ينبثق عنه بعلم الصرف أو المورفولوجيا (Morphologie/ Morphology).

في المقابل يدعى المستوى الثالث بالمستوى النحوي، ويتناول هذا الأخير دراسة نظام بناء الجملة، ودور كلّ جزء من هذا البناء، وكذا علاقة أجزاء التركيب بعضها ببعض، وأثر كلّ جزء في الآخر مع العناية بالعلامة الإعرابية، ويسمى العلم الذي ينبثق عن هذا المستوى بعلم النحو (Grammer).

بينما يعالج المستوى الرابع - المستوى الدلالي - دراسة المعنى بكلّ جوانبه (المعنى الصوتي وما يتّصل به من نبر وتنغيم، المعنى الصرفي، المعنى النحوي، المعنى المعجمي، والمعنى السياقي)؛ ذلك لأنّ المعنى اللغوي إنّما يمثّل حصيلة هذه المستويات كلّها. إلى جانب دراسة المعنى وجوانبه يهتمّ البحث الدلالي بعدّة قضايا أخرى منها: تغيّر المعنى والبحث عن أسباب ومظاهر هذا التغيّر، دراسة العلاقات الدلالية بين الألفاظ، صناعة المعاجم بأنواعها، ويُعرف العلم المنبثق عن هذا المستوى بعلم الدلالة (Sémantique /Sémantics).

ولا يمكن البتّة الفصل بين هذه المستويات، لأنّ كلّ جانب يساهم في المستوى الذي يختصّ به الآخر، فالكلمات مثلا إنّما تتشكّل من خلال مجموعة من الأصوات، والأمر نفسه ينطبق على الجملة التي تتشكّل بدورها من سلسلة من الكلمات، وحتىّ تكون التراكيب اللغوية ذات فائدة، لا بدّ أن تحمل معاني ودلالات تحقّق التواصل والتفاهم بين أبناء اللغة وهكذا، فهذه المستويات خادمة لبعضها البعض، ثمّ إنّ تضافرها هو الذي يُنتج لنا نظاما لغويا متماسكا.

سنتعرّض في هذا الفصل إلى عقد علاقة بين علم الأصوات، وبعض العلوم الأخرى التي تُخدم هذا الموضوع، معرّجين في ذلك على ظاهرة من الظواهر الصوتية، وهي: ظاهرة التنغيم، لما لها من أثر بالغ في توضيح معاني التراكيب وتوجيه أغراضها البلاغية، مخصّصين مدوّنة قرآنية قصد الوقوف من خلالها على وظيفة هذه الظاهرة، والتي تمثّلت في سور الطواسين، حيث كانت لنا وقفة تعريفية موجزة حول هذه السور، اكتشفنا من خلالها مختلف الموضوعات المتناولة، والتي من دون شكّ ستكون خادمة بشكل أو بآخر للجانب التطبيقي.

تمهيد:

نظرا للتداخل الذي يشهده علم الأصوات مع غيره من العلوم الأخرى، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الإنسانية، ارتأيت في هذا الفصل أن أُجري له علاقة مع بعض العلوم التي تُخدم موضوعنا هذا، وهذه العلوم هي: علم القراءات القرآنية، علم التجويد، وعلم الدلالة، في المقابل أُجّلت الحديث عن علوم أخرى على غرار: علم الإيقاع والموسيقى، وعلم البلاغة إلى مباحث أخرى لغرض بحثي صرف.

المبحث الأول: ماهية علم الأصوات

المطلب الأول: مفهوم علم الأصوات وموضوع دراسته

وُضعت لهذا العلم تعريفات عديدة وحدودا شتى، لا يسمح لنا المقام ههنا بعرضها جميعا، إلا بما يخدم الموضوع ويبسّر فهمه، ولعلّ من بين علماء الغرب الذين اهتمّوا بهذا الجانب من الدراسة اللغوية "أندري مارتيني"، إذ نجده يقدم تعريفا شاملا لعلم الأصوات هذا نصّه: «هو دراسة الطبيعة الفيزيائية لأصوات اللغة الإنسانية، وهو فرع من علم اللغة، يُعنى بدراسة الخصائص المميزة للأصوات الإنسانية عند نطق المتكلم لها، وانتقالها عبر وسيط (كالهواء) وإدراك السامع لها، وذلك في ثلاثة فروع أساسية هي: علم الأصوات النطقي، وعلم الأصوات السمعي، وعلم الأصوات الفيزيائي، ويعنى علم الأصوات أيضا بتصنيف الأصوات وبعيوب النطق، وهو يرتبط بفروع أخرى من المعرفة كعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء، ويتخذ منها تجريبيا من خلال علم الأصوات التجريبي»⁽¹⁾.

ونجد المعنى ذاته عند علماء اللغة العرب، فهاهي الباحثة "هيام كريدية" تعرّفه قائلة: «علم الأصوات فرع من الألسنية، يُعنى بدراسة الخصائص المميزة للأصوات الإنسانية عند نطق المتكلم بها (علم الأصوات النطقي)، وانتقالها عبر وسط كالهواء (علم الأصوات الفيزيائي)، وإدراك السامع لها (علم الأصوات السمعي)»⁽²⁾، وإلى الاتجاه نفسه ذهب "عبد الله القواسمة" إذ عرّف العلم قائلا: «هو العلم الذي يبحث في إصدار الأصوات اللغوية، وفي عملية انتقال الأصوات واستقبالها في الأذن، وفي أعضاء النطق وحركاتها عند إنتاج كل صوت»⁽³⁾.

اتفقت جميع التعريفات التي أتينا على ذكرها في تحديد موضوع العلم ألا وهو: "الصوت الإنساني" بعدّه الوحدة اللغوية الصغرى في الكلام، كما أشارت التعريفات السابقة إلى مراحل إنتاج الصوت، والعلم الذي يقابل كل مرحلة من هذه المراحل، كونها فروعاً خاصة تندرج ضمن علم شامل هو علم الأصوات العام، وهذا ما سيتمّ

(1) - أندريه مارتينييه: وظيفة الألسن وديناميتها، ص382.

(2) - هيام كريدية: الألسنية الفروع والمبادئ والمصطلحات، ص10.

(3) - محمد عبد الله القواسمة: معالم في اللغة العربية، مكتبة المجتمع العربي للنشر، عمان، الأردن، ط2، 1424هـ/2003م، ص11.

التعرّض إليه تبعا خلال هذا المبحث.

إنّ المتنبّع لدلالات مادة "ص. و. ت" في المعاجم اللغوية يجدها لا تخرج عن معنى الأثر الذي يخلفه شيء ما - سواء أكان جامدا أم متحرّكا - في أذن المستمع، أمّا دلالاته الاصطلاحية فقد راح كثيرٌ من الباحثين يضعون حدودا لهذا المصطلح، لا تخرج في مجملها عن معنى واحد، فهاهو "حاتم صالح الضامن" يقول في سياق تعريفه للصوت كونه موضوعا للعلم: «الصوت ظاهرة فيزيائية وسمعية تنتج عن اهتزازات جسم معين، تُولّد تغيّرات في ضغط الهواء المحيط، وتنتقل من مصدرها إلى الأذن في تموجات متلاحقة»⁽¹⁾، وتضيف "فاتن خليل محجازي" في سياق ذي صلة معرّفة آياه بقولها: «الصوت هو الأثر السمعي الذي تحدّثه ظاهرة فيزيائية يحدثها اهتزاز جسم ما، يجعل الهواء المحيط به يهتزّ، وتنتشر الاهتزازات في كلّ الاتجاهات على شكل موجات مبتعدة عن المصدر، ولدى بلوغها آذاننا تنتقل إلى الدماغ الذي يترجمها إلى أصوات، وهكذا يحتاج الصوت إلى ثلاثة عناصر: مصدر مهتزّ ووسط ناقل ومستقبل»⁽²⁾.

يشير هذان التعريفان إلى أنّ الصوت إمّا هو ظاهرة فيزيائية قبل كلّ شيء، فهي حالة موجودة في الطبيعة، تنتج عن طريق اصطدام جسم بجسم آخر أو احتكاكهما، فيتولّد عن ذلك الاصطدام أو الاحتكاك موجات وذبذبات مشكّلة صوتا مسموعا، وعليه لا بدّ من قيام سبب معيّن ينشأ عنه صوتا طبيعيا، ولعلّ هذا ما نلمسه في كلام "ابن سينا" من خلال رسالته "أسباب حدوث الحروف"، إذ يقول مشيرا إلى هذه الفكرة: «أظنّ أنّ الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة بسرعة، وبقوّة من أيّ سبب كان»⁽³⁾، ويتابع قائلا: «... وللتموج علّتان: قرع وقلع؛ فالقرع وهو تقريب جرم ما إلى جرم مقاوم له لمزاحمته تقريبا، تتبعه مماسّة عنيفة لسرعة حركة التقريب وقوّتها، والقلع وهو تبعيد جرم ما عن جرم آخر مماس له، منطبق أحدهما على الآخر، تبعيّدا ينقلع عن مماسّته انقلاعا عنيفا لسرعة حركة التبعيد»⁽⁴⁾.

يتبيّن لنا من خلال هذا الكلام أنّ مصدر الصوت - حسب ابن سينا - يكون على نوعين، فإمّا أن يكون قرعا: ولا يحدث ذلك إلّا في حالة التقارب الشديد بين المواد، أو بين جسمين متلازمين؛ إمّا عن طريق الاصطدام أو عن طريق الاحتكاك، أو قلعا ولا ينتج ذلك إلّا في حالة التباعد، والتي من شأنها أن تفرّق وتقلع المواد تفريقا عنيفا، بسبب شدّة التباعد بين الأجسام، هذا في حالة ما إذا كان الصوت طبيعيا، لكن إذا كان الصوت المقصود

(1) - حاتم صالح الضامن: فقه اللغة، ص165.

(2) - فاتن خليل محجازي: محاضرات في علم الأصوات، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1429هـ/ 2008م، ص11.

(3) - أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا: رسالة أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حستان الطيّان، ويجي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سورية، دط، دس، ص57.

(4) - المرجع نفسه، ص58.

هو الصوت الإنساني فإنّه يصدر عن «أيّ شيء يسبّب اضطراباً أو اهتزازاً ملائماً في ضغط الهواء، مثل الشوكة الرنانة، والوتر المشدود كما في "العود"، ومثل الوترين الصوتيين الموجودين في حنجرة الإنسان، وكلّها يمكن أن تتحرّك في اتجاهات مختلفة ومتعدّدة، فتننتج أصواتاً تسبّب تنوعات في ضغط الهواء».⁽¹⁾

استناداً لما قيل نستشفّ أنّ للصوت نوعين: الأوّل الصوت الطبيعي الذي يصدر من ظواهر الطبيعة وموجوداتها، ويُعنى بدراسته علم الفيزياء، أمّا الثاني فهو ذلك الصوت الصادر عن الإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى؛ فالجهاز النطقي عنده قادر على إنتاج عدد غير متناه من الأصوات، والأصوات التي تصدر عن الإنسان عادة ما تكون ذات معنى، إذ تنقل رسالة محدّدة من عقل إنسان إلى آخر، ويهتمّ بهذا الشق من الأصوات علم الأصوات اللغوي، وهنا يمكن أيضاً أن نميّز للصوت الإنساني بين صنفين آخرين من الأصوات هي: الأصوات اللغوية، والأصوات غير اللغوية، وفي هذا الصدد يقول "محمود السعران": «ولمّا كان الصوت اللغوي يصدر عن جهاز النطق الإنساني، فهو يختلف عن سائر الأصوات التي تحدث عن أسباب أو أدوات أخرى؛ قد يحدث الصوت في العالم الطبيعي نتيجة لقرع جسم بجسم، أو احتكاك جسم بآخر، أو نفخ في جسم خاص أو لغير ذلك، ومعروف أنّ دراسة الصوت عامة موضوعه علم الطبيعة، أمّا الصوت اللغوي فهو موضوع علم الأصوات اللغوية».⁽²⁾

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: هل كلّ الأصوات الصادرة عن جهاز النطق الإنساني تصلح أن نطلق عليها أصواتاً لغوية؟

يجيب الباحث "غانم قدوري الحمد" عن هذا الإشكال بقوله: «الأصوات التي يسمعها الإنسان في حياته كثيرة ومصادرها متعدّدة، فمنها ما مصدره الطبيعة كالرعد وخرير المياه وحركة الرياح واصطدامها بالأشجار والجبال والمباني، ومنها ما مصدره الحيوانات أو الآلات والمكائن، ومنها ما مصدره الإنسان، وما يسمى بالأصوات اللغوية لا يشمل إلاّ الأصوات التي يُصدرها الإنسان، بل حتى هذه الأصوات لا تدخل كلّها ضمن الأصوات اللغوية، فأصوات الضحك والبكاء والتشاؤب والعطاس والتجشؤ والشخير والصفير والتصفيق، ليست من الأصوات اللغوية، وإن كانت تصدر عن الإنسان».⁽³⁾ ويردّف قائلاً: «إنّ الأصوات اللغوية هي الأصوات التي تصدر عن آلة النطق لدى الإنسان، واصطلحت المجموعة البشرية التي يعيش بينها ذلك الإنسان، على دلالة تلك الأصوات على المعاني حين تُنظم في كلمات وجمل، أمّا الأصوات الأخرى التي يسمعها الإنسان فيهتمّ بها علماء

(1) - عصام نور الدين: علم الأصوات اللغوية الفونيتيكا، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص96.

(2) - محمود السعران: علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص99.

(3) - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ / 2004م، ص43.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

الطبيعة، ويدرسها علم من علوم الطبيعة يعرف اليوم بعلم الفيزياء، ويمكن أن تكون الأصوات اللغوية موضع اهتمام علم الفيزياء، لكنّه يتعامل معها على أنّها ظاهرة تُدرّس كما تُدرّس أصوات الطبيعة الأخرى»⁽¹⁾.

يتحدّد الصوت اللغوي من خلال هذا التعريف بأنّ مصدره الإنسان أو جهاز النطق عنده، ويستبعد بذلك كلّ الأصوات التي تُحدثها أجسام ما عن طريق الاحتكاك أو القرع أو آلات معينة، لأنّ ذلك من اختصاص علم الطبيعة، فضلا عن هذا فإنّ الصوت اللغوي هو أثر سمعي يُصدره الإنسان طواعية (بإرادته)، ولو كان على غير ذلك لما سُمّي لغويا، تماما كما هو الحال مثلا مع السعال والتشوّب والشخير، ممّا يعني أنّ ليس كلّ ما يُصدره الإنسان من أصوات يصلح أن نقول عنها بأنّها أصوات لغوية، إنّما الصوت اللغوي هو الذي يحمل دلالة معيّنة؛ ويُنتج من ورائه تحقيق غاية محدّدة، يقول "رمضان عبد الله": «الصوت اللغوي هو الأثر السمعي المقصود الهادف الصادر عن أعضاء نطق الإنسان»⁽²⁾، إذّا، فالصوت اللغوي بهذا المعنى ليس مجرد عملية عضوية فسيولوجية فحسب، بل هو أيضا عملية نفسية إدراكية.

هذا، ويتمّ الصوت اللغوي على مراحل، حيث أنّه كغيره من الأصوات الطبيعية ينشأ باصطدام الهواء المندفَع من الرئتين بالأوتار الصوتية في الحنجرة؛ ثمّ يخرج عن طريق الفم أو الأنف حتى يصل إلى أذن السامع، فهو بهذا المعنى يمرّ عبر مراحل ثلاث هي:⁽³⁾

- **مرحلة الإصدار:** يمثّلها الجانب النطقي للمتكلّم، أي خروج الأصوات من فم المتكلّم، وهذا مجال علم الأصوات النطقي أو العضوي أو الفسيولوجي.
- **مرحلة الانتشار:** وتتمثّل في الذبذبات أو الموجات الصادرة من فم المتكلّم، والمنتشرة في الهواء ليصل إلى المستمع، وهذا مجال علم الأصوات الفيزيائي أو الأكوستيكي.
- **مرحلة الاستقبال:** وتتمثّل في الجهاز السمعي لدى السامع، وكيفية وصول الصوت الصادر عن المتكلّم والمنتشر في الهواء ليصل إلى أذنه، وهذا مجال اختصّ به علم الأصوات السمعي.

إذّا، فالعناصر الضرورية والتي بموجبها تتمّ العملية الصوتية تتمثّل في: "مصدر الصوت" وهو هنا الجهاز النطقي عند الإنسان، إضافة إلى "انتشار الصوت" وذلك عبر الوسط الهوائي الذي ينقل الصوت من مصدر الإنتاج والإرسال إلى مركز الاستقبال والتلقي، أمّا العنصر الثالث فهو: "استقبال الصوت وإدراكه" من خلال

(1) - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص 43.

(2) - رمضان عبد الله رمضان: أصوات اللغة العربية بين الفصحى واللهجات، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 2005م، ص32.

(3) - راضية بن عريبة: من آليات النطق إلى هندسة الخط قراءة في الموروث العربي، دار ألفا للوثائق، قسنطينة، الجزائر، ودار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ص43.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

العملية السمعية. وعلى هذا الأساس فإنّ عملية إصدار الصوت اللغوي تكون بدايتها من المرسل مرورا بالوسط الهوائي، ووصولاً إلى المتلقّي المستقبلي لرسالة المرسل، لتعود العملية عكسية من المستمع إلى المتكلّم. وعليه فإنّ الصوت اللغوي ينطلق من الأحداث النفسية والعمليات العقلية، التي تجري في ذهن المتكلّم قبل الكلام أو أثناءه، تليها عملية إصدار الكلام والمتمثّل في أصوات يُتجهها جهاز النطق، تنتقل بعد ذلك الموجات والذبذبات الصوتية عبر الوسيط الهوائي من فم المتكلّم إلى أذن المستمع، لتتشكّل الأحداث النفسية والعمليات الإدراكية في ذهن المستمع أثناء استقباله لتلك الموجات الصوتية؛ ثمّ إنّ آليتي الإنتاج والاستقبال ما هما إلّا: «عمليتان فسيولوجيتان؛ يساهم في الأولى المخ وجهاز النطق، وفي الثانية المخ وجهاز السمع، والمتكلّم والسامع هما طرفا حركة النشاط النطقي الموصوف»⁽¹⁾

المطلب الثاني: الفرق بين الصوت والحرف

قبل التعرف على الفروق القائمة بين الصوت والحرف، نقف أولاً على دلالة الحرف.

لا تخرج الدلالة المعجمية لمادة "ح. ر. ف" عن معنى طرف الشيء وحدّه وغايته، أمّا فيما يخصّ دلالته الاصطلاحية، فمن العلماء القدامى الذين عكفوا على تعريفه تعريفاً يقترب إلى حدّ كبير من دلالته اللغوية "ابن جني" إذ يقول: «الحرف حدّ منقطع الصوت وغايته وطرفه»⁽²⁾.

هذا، ويتّضح معنى الحرف أكثر من خلال قول "ابن جني" في موضع آخر في باب تمييزه بين الصوت والحرف قائلاً: «اعلم أنّ الصوت عرض يخرج مع النَّفس مستطيلاً متّصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفنتين، مقاطع تشبّه عن امتداده واستطالته، فيسمّى المقطع أيّما عُرض له حرفاً، وتختلف أحراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها»⁽³⁾.

يفهم من خلال كلام "ابن جني" أنّ هناك فرق واضح وحليّ بين الصوت والحرف من الناحية الفسيولوجية؛ فالصوت هو ذلك النَّفس الصافي - إن جاز هذا التعبير - الصاعد من الرئتين متّجهاً نحو مخرج الفم ممتدّاً مستطيلاً (مستمراً ومرتبطة) دون أن يعترض مجراه أيّ عائق، فأينما وجد حاجزاً امتنع عن امتداده وانفصل، لأنّ ذلك العائق قطع مجراه ووضع حدّاً له وهذا ما يعرف بالحرف، وقد أطلق علماء الأصوات على موضع العائق، وهي نقطة اتصال أعضاء النطق بـ: المخرج الصوتي، فإن كان العائق مثلاً على مستوى الشفتين سمّي

(1)- أحمد زرقة: أصول اللغة العربية- أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1993م، ص72.

(2)- أبو الفتح عثمان بن جني: سر صناعة الإعراب، ج1، تح: حسن هندواوي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 1413هـ/1993م، ص6.

(3)- المرجع نفسه، ص14.

حينها الحرف شفويا، وإن كان على مستوى الحلق سمي حلقيا، وهذا هو المقصود بقول "ابن جني" وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها. ونستدلّ على مذهبنا هذا بقول "مصطفى رجب" إذ يفرّق بين الصوت والحرف قائلا: «...وذلك أنّهم يسمّون الهواء الخارج من الرئة إن خرج بطبعه دون أن يحتكّ بأوتار الصوت (نفسًا)، فإن وجه الإنسان بإرادته هذا الهواء إلى أوتار الصوت الموجودة في الحنجرة فاحتكّ بها وحدث له تمّوج وتذبذب مسموع فإنّهم يسمّونه حينئذ (صوتًا)، ثمّ هذا الهواء المصحوب بهذه التموجات الصوتية يتوجّه إلى مقطع من مقاطع الفم أو الحلق، أي إلى حيز محدّد منها، فإذا قرّ به وانحصر فيه تولّد الحرف»⁽¹⁾، وقد اتّجه "الطيب البكوش" الاتجاه ذاته، حين عرّف الحرف مؤكّدا الفكرة التي سقناها قائلا: «الحرف هو الصوت الذي يحدث عندما يقوم في جهاز التصويت حاجز يعترض النّفس، ثمّ يجتاز النّفس ذلك الحاجز»⁽²⁾، ويقول "المارغني" في باب تعريفه للصوت: «الصوت هو الهواء الخارج من داخل الرئة متصعدًا إلى الفم»⁽³⁾.

فالنّفس حينما يرتبط بالحاجز يسمى حرفًا، أمّا إذا خرج حرًا طليقًا سميّ حينئذ صوتًا، هذا إذا نظرنا إليهما من زاوية عضوية محضة، وفي إطار تمييزه بين الصوت والحرف ينظر "السحيمي" إليهما من زاوية الكتابة والشفاهة فيقول: «فرّق المحدثون من علماء اللغة بين الحرف والصوت، فالحرف عندهم هو الرمز أو المكتوب، بينما الصوت يعني عندهم المنطوق»⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: فروع علم الأصوات

ينقسم علم الأصوات بعدّه علما مستقلّا قائما بذاته إلى علوم عامة، هذه الأخيرة التي تتفرّع بدورها إلى علوم خاصّة، وتتمثّل هذه الفروع العامة في علمي الأصوات العام أو كما يسمى "الفونيتيك" (Phonétique)، وعلم الأصوات الوظيفي/ علم وظائف الأصوات، أو كما يدعى أيضا "الفونولوجيا" (Phonologie).

في باب تفريقه بين العلمين يقول "بسام بركة" بأنّ: الفونيتيك /phonetics phonétique يهتمّ بالوجه المادي لأصوات اللغة البشرية، أي بدراسة العناصر الصوتية للسلسلة المتعبّرة في تحقيقها للموس وبمعزل عن وظيفتها اللغوية، أي عن استخدامها في التواصل، أمّا علم وظائف الأصوات أو الفونولوجيا /phonologie phonologie، فإنّه يبحث في وظائف الأصوات اللغوية من ناحية القوانين التي تعمل بموجبها، والدور الذي

(1) - مصطفى رجب: دراسات لغوية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دب، ط1، 2009م، ص254.

(2) - الطيب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، تقديم: صالح القرمادي، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992م، ص38.

(3) - سيدي إبراهيم المارغني: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقر الإمام نافع، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1415هـ/ 1995م، ص158.

(4) - سلمان بن سالم بن رجاء السحيمي: إبدال الحروف في اللهجات العربية، مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، ط1، 1415هـ/ 1995م، ص96.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

تقوم به في عملية التواصل اللغوي، فهو لا يهتمّ مثل علم الأصوات العام بالناحية النطقية أو السمعية للأصوات، ولا بالتغيّرات الفردية لها، بل يكرّس اهتمامه لدراسة (الفروقات الصوتية) من حيث عملها في فهم المرسلّة اللغوية.⁽¹⁾

ومثله يذهب "عصام نور الدين" حيث يميّز هو الآخر بين العلمين قائلاً: «الفوناتيک: هو العلم الذي يهتمّ بالأصوات أو بالحدث النطقي من زاويتين عضوية وفيزيائية، ولكن دون النظر إلى المعنى وإلى وظيفة الأصوات في السلسلة الكلامية، أمّا الفونولوجيا فهو الذي يدرس وظائف الأصوات ودورها في تغيير المعنى صرفياً ونحوياً ودلالياً، وذلك بدراسة (الفونيم) ودوره، وبدراسة التّنوّعات الصوتية كالمقطع والنبر والتنغيم».⁽²⁾

إذاً، فالفرق بين علم الأصوات العام (الفونيتيک) وعلم الأصوات الوظيفي (الفونولوجيا) واضح وجليّ؛ فالأوّل يدرس الوحدة الصوتية معزولة عن البنية اللغوية (الصوت المستقل) بهدف رصد خصائصه الفيزيائية وكذا الفسيولوجية، أمّا الثاني فيُعنى بدراسة الصوت اللغوي داخل بنية الكلمة، بهدف الوقوف على وظيفته ودوره في تغيير الدلالة على جميع مستويات اللغة (المستوى الصرفي، النحوي، الدلالي، المعجمي...)، وذلك من خلال دراسة "الفونيم" و"المقطع الصوتي" و"النبر" و"التنغيم" و"المفصل" و"الوقفة" وغيرها من التلّونات الصوتية الأخرى. هذا، ويندرج ضمن علم الأصوات العام فروعاً ثانوية نذكر أبرزها:

1- علم الأصوات النطقي أو الفسيولوجي:

يعدّ هذا العلم أقدم فروع علم الأصوات وأرسخها قدماً وأكثرها حظاً من الانتشار في البيئات اللغوية كلّها، ويرجع السّرّ في ذلك إلى وظيفة هذا العلم، وإلى طبيعة الميدان المخصّص له، إذ يُعنى بتناول الأصوات اللغوية ودراستها من حيث مخارجها وصفاتها وكيفية النطق بها، أو بعبارة أخرى فهو يدرس نشاط المتكلّم بالنظر في أعضاء النطق، وما يعرض لها من حركات، فيعيّن هذه الأعضاء ويحدّد وظائفها ودور كلّ منها في عملية النطق، منتهياً بذلك إلى تحليل ميكانيكية إصدار الأصوات من جانب المتكلّم.⁽³⁾

2- علم الأصوات الفيزيائي أو الأكوستيكي:

علم يدرس أصوات الكلام من حيث خصائصها المادية أو الفيزيائية أثناء انتقالها من المتكلّم إلى

(1)- بسام بركة: علم الأصوات العام- أصوات اللغة العربية، ص6.

(2)- عصام نور الدّين: علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، ص49.

(3)- ينظر: حسام البهنساوي: علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص11. وكذا: شرف الدين علي الراجحي: في علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، 2012م، ص57.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

السامع، وهو يبحث في تردّد الصوت وسعة الذبذبة وطبيعة الموجة الصوتية وعلوّ الصوت ودرجته (أي نغمته) ونوعه (أي جرسه)، وظاهرة التشريح وظاهرة الحزم الصوتية وتصنيف الأصوات على أساس فيزيائي، فالأصوات اللغوية تنقسم إلى أصوات موسيقية ذات ذبذبات منتظمة، وأصوات ضوضائية (أو نشازية أو غير موسيقية)، وينطبق هذا التقسيم بشكل تقريبي على الصوائت كأصوات موسيقية، والصوامت كأصوات ضوضائية، ويدعى هذا العلم أيضا: علم الأصوات الأكوستيكي.⁽¹⁾

تجدر الإشارة ههنا إلى أنّ "علم الأصوات الأكوستيكي"، يختلف عن نظيره "علم الأصوات النطقي"، في كون هذا الأخير يهتمّ بالصوت الإنساني فحسب، بينما يُعنى العلم الأول بدراسة كلّ الأصوات الطبيعية، بما فيها تلك الأصوات الصادرة عن الإنسان، فهو بهذا المعنى إنّما يركّز على كل ما من شأنه أن يُحدِث ذبذبة صوتية. قبل أن نتجاوز هذا الفرع إلى فرع آخر، وجب علينا أولاً الوقوف على بعض المصطلحات التي تقوم عليها الدراسة الفيزيائية للصوت المنطوق، منها:

*** التردّد:** يُعنى بالتردد "Frequency" عدد الدورات الكاملة في الثانية، ويكون بالهرتز. أمّا عن الدورة فهي عبارة عن كلّ تكرار كامل لنمط موجة، ويُطلق على الدورة كذلك اسم الفترة الواحدة "One period" أو الذبذبة المضاعفة "Double vibration".⁽²⁾

*** سعة الذبذبة:** تتمثل سعة الذبذبة "Amplitude" البعد بين نقطة الاستراحة وأبعد نقطة يصل إليها الجسم المتحرّك، وسعة الذبذبة هي المسؤولة عن التوتّر "Intensity"، فكلّما زاد الاتساع زاد التوتّر، ومصطلح العلوّ "loudness" هو الوصف الذي يُطلق على التوتّر المدرك، "Perceived intensity".⁽³⁾

*** الموجة الصوتية:** هي مجموعة من الذبذبات الصوتية المتعاقبة التي تنتج إحداها عن الأخرى، فمصدر الصوت يسبّب تحركات لأجزاء الهواء المجاورة له، وأنّ هذه الأجزاء تضغط على الذرّات الهوائية المجاورة لها، وتلك بدورها تضغط على الذرّات المجاورة لها وهكذا.⁽⁴⁾

*** درجة الصوت:** "Pitch" يصدر الصوت الإنساني نتيجة اهتزاز الهواء الخارج من الرئتين أو المتكوّن في الحنجرة، لارتباطه بعضو أو أكثر من أعضاء النطق، وتؤدّي الأوتار الصوتية أبرز الأدوار وأقواها أثرا، وكلّما كانت الاهتزازات الناشئة عنها كثيرة العدد، وُصفت النغمة المصاحبة للصوت بأنّها حادّة، أمّا إذا كانت قليلة نسبيا فإنّها

(1) - محمد علي الخولي: معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، دب، ط1، 1402هـ / 1982م، صص 114-115.

(2) - ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، صص 23، 26.

(3) - المرجع نفسه، صص 25.

(4) - ينظر: نفسه، صص 27.

تُوصف بالعِلْظُ، ووصف صوت ما بكونه غليظاً أو حادّاً يُعرف باسم درجة الصوت، وتتوقّف كميّة الذبذبات على كميّة الهواء المندفعة من الرئتين وعلى السيطرة عليها، كما تتوقّف على مرونة عضلات الحنجرة، وعلى طول الوترين الصوتيين أو قصرهما، ودرجة الصوت هذه هي إحدى العوامل الثلاثة إلى جانب شدّة الصوت ونوعه، الذي يتوقّف عليها الاختلاف بين النغمات الصوتية.⁽¹⁾

*** شدّة الصوت: "Intensity"** هي: «ضغط الهواء المستعمل في إنتاج الصوت اللغوي». ⁽²⁾، أو بعبارة أكثر تفصيلاً: يقصد بشدّة الصوت الخاصيّة التي نستطيع بها التمييز بين قوّة الأصوات وضعفها، وتتوقّف قوّة صوت ما على سعة الاهتزازة (الذبذبة)، وعلى درجة القرب أو البعد من مصدر الصوت، كما تتوقّف أيضاً على كتلة الهواء (الوسط الناقل للصوت) المهتزة، ومن هنا نرى أنّ اتجاه الرياح يؤثّر في شدّة الصوت، لأنّ ذلك يعمل على تغيير كثافة الهواء، فتزداد تبعاً لذلك شدّة الصوت عند اتجاه الرياح من مصدر إنتاجه إلى السامع والعكس، أمّا عن الوحدة المستعملة في قياس الشدّة المدركة نسبياً فهي الديسيبل.⁽³⁾

*** نوع الصوت:** ويسمّى أحياناً لون الصوت، ونعني به تلك السمة التي تميّز صوتاً بعينه عن صوت آخر، ولا تتوقّف هذه الخاصيّة على درجة الصوت أو شدّته؛ إذ ربّما وجدنا صوتين متّحدي الدرجة والشدّة، ولكنّهما مع ذلك يختلفان في النوع، ومردّد ذلك إلى مجموعة من النغمات الثانوية أو التوافقية الناجمة عن الاختلاف في صناديق الرنين، وبذلك نستطيع أن نميّز صوت العود عن صوت البيانو، أمّا في الصوت الإنساني فإنّ اختلاف سعة وحجم الفراغات الرنّانة المتمثّلة في تجاويف الحلق والفم والأنف، وكذلك اختلاف أعضاء النطق التي تؤثر بدورها على حجم هذه الفراغات، هي التي تجعل صوت شخص ما يختلف في النوع عن صوت الآخرين.⁽⁴⁾

*** الحزم الصوتية:** التردّدات أو مجموعة التردّدات "Groups of frequencies" التي تشكّل نوع الصوت "Timbre"، وتميّزه عن الأصوات الأخرى ذات الأنواع المختلفة تسمّى حزماً صوتية "Formants".⁽⁵⁾

*** التزمين "Tempo":** هي السرعة التي يتّخذها المتكلّم ويحسّها السامع نحو الكلام المنطوق، سواء أكان كلمة أم جملة، ويمكن وصف هذه السرعة بأنّها بطيئة أو سريعة أو متوسّطة، ويعدّ هذا النوع من الأداء الصوتي مرآة

(1) - ينظر: عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: مقدّمة في أصوات اللغة العربية وفنّ الأداء القرآني، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط3، 1424هـ/2004م، صص 56-57.

(2) - خلدون أبو الهيجاء: فيزياء الصوت اللغوي ووضوح السمع، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2006م، ص125.

(3) - ينظر: عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: المرجع السابق، ص 57. وكذا: خلدون أبو الهيجاء: المرجع السابق، ص105.

(4) - عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: المرجع السابق، ص 58.

(5) - أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص34.

عاكسة لعواطف المتكلّم وانفعالاته؛ لذلك فهو عنصر مهمّ من عناصر الأداء الصوتي، لأنّه يؤثّر في تحديد معنى الكلام المسموع وفهمه، ويُشعر المستمع بانفعالات المتكلّم أو الحالة النفسية المصاحبة للنصّ، أمّا التزمين في القرآن الكريم فيقصد به السرعة التي تُقرأ بها آي القرآن، والذي أشار إلى مراتبها علماء التجويد، وحصرها في: التحقيق والترتيل والتدوير والحد. (1)

3- علم الأصوات السمي أو الإدراكي:

هذا العلم له جانبان: (2)

- جانب فيسيولوجي خاص بأعضاء السمع التي تستقبل الصوت، فيبحث فيها من حيث طبيعتها ووظائفها وطريقة عملها وما يؤثّر فيها.

- جانب نفسي يتعلّق بآثار الذبذبات الصوتية في أعضاء السمع وإدراك السامع للأصوات، فيبحث هذا الفرع عن هذه الذبذبات الصوتية، وتأثيراتها وكيفية إدراك السامع لما تحمله من أصوات، لذلك يسمّونه أيضا: "علم الأصوات الإدراكي".

يُضاف إلى هذه الفروع الثلاثة فرع آخر لا يقلّ أهميّة عنها وهو "علم الأصوات التجريبي"، ويسمى أيضا علم الأصوات المعلمي أو الآلي، وهو فرع يعتمد عليه علماء الأصوات النطقي والفيزيائي اعتمادا كبيرا، وقد استُخدم هذا العلم في دراسة الأصوات منذ القديم، لكنّه كان يعتمد على الملاحظة الذاتية المباشرة، ومع التقدّم العلمي ظهرت المخترعات والآلات الدقيقة، التي مكّنت علماء اللغة من استخدامها، سواء في تسجيل الأصوات أو في تحليلها، وأفاد علماء اللغة في هذا السبيل من معامل الدراسات الفسيولوجية والفيزيقية والهندسة الكهربائية وفروع الطبّ المختلفة، ويقوم علم الأصوات التجريبي في الوقت الحاضر بأدوار خطيرة، لا في مجال الأصوات وحدها، بل وفي ميادين كثيرة ذات صلة بالإنسان وحاجاته المباشرة، كما يظهر ذلك - مثلا - في تقديم العون للمشتغلين بالصوت الإنساني في أية صورة، وللمهتمّين بعلاج عيوب النطق والصمم،... الخ، ويرجع الفضل في ذلك إلى التقدّم الكبير في الأجهزة المستخدمة في هذا الحقل. (3)

تعرفنا إذاً على الأقسام العامة لعلم الأصوات، وكذا مختلف الفروع الخاصة التي تندرج ضمنها، بقي لدينا

(1)- ينظر: حمدان رضوان أبو عاصي: "الأداءات المصاحبة للكلام وأثرها في المعنى"، مجلة الجامعة الإسلامية - سلسلة الدراسات الإنسانية، مجلة علمية محكمة ربع سنوية صادرة عن عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مج17، ع02، يونيو 2009، ص75.

(2)- حمدي بخيت عمران: علم اللغة دراسة نظرية وتطبيقية، أصوات للدراسات والنشر، دب، ط1، 1440هـ / 2019م، ص44.

(3)- ينظر: حسام البهنساوي: الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 2005م، ص ص 19-20. وكذا: عاطف فضل محمد: الأصوات اللغوية، ص 47.

الآن تحديد العلاقة التي تجمع بين الأقسام العامة للعلم؛ المسألة التي عرفت تضاربا شديدا في المواقف والتصورات، فمنهم من يرى بأنّ العلمين منفصلان انفصالا تاما، فكلّ فرع له مجاله واختصاصه، وهناك من يرى بأنّهما متصلان، بل يمكن إدراجهما تحت تسمية واحدة، فهاهو مثلا "فيرديناند دي سوسير" والذي يعدّ من أكبر الدعاة إلى ضرورة الفصل بين العلمين لكونهما - حسب رأيه - علمين متعارضين، وفي هذا المجال يقول: «إنّ علم الفونيتيك أول ما استخدم للدلالة على دراسة تطور الأصوات، وينبغي أن يبقى ضمن هذا المفهوم، فلا يجوز المزج بين علمين متميّزين باستخدام تسمية واحدة لكليهما. إنّ "الفونيتيك" علم تاريخي، يحلّل الأحداث والتغيّرات ويتحرّك من خلال الزمن، أمّا "فونولوجي" فيقع خارج الزمن، لأنّ عملية النطق لا تتغيّر أبدا، فالدراستان متميّزتان ولكنّهما تتعارضان. إنّ علم الصوت (فونيتيك) جزء أساس من علم اللغة، أمّا النظام الصوتي (فونولوجي) فهو علم مساعد يختصّ بالكلام فقط».⁽¹⁾

ومن علماء اللغة العرب الذين سلكوا اتّجاهها مخالفا لاتّجاه "دي سوسير" الباحث "أحمد مختار عمر"، إذ يرى هذا الأخير أنّ العلمين الواحد منهما يخدم الآخر، فلا مجال للفصل بينهما، بل إنّ لا حرج في وضع أحد العلمين تحت اسم الثاني، حيث نجده يقول معلّلا شدة رفضه لاستقلالية أحدهما عن الآخر: «وعلى هذا فالفرعان يعدّان من صميم علم اللغة، وإن دخل الأول تحت فروع علم اللغة التاريخي، والثاني تحت فروع علم اللغة الوصفي»⁽²⁾، ثمّ يتابع قائلا: «لأنّ أبحاث كلّ منهما تعتمد على الأخرى، ووُضِعَ الاثنان تحت مصطلح Phonitics أو تحت مصطلح Phonology».⁽³⁾ ويشاطر "أحمد مختار عمر" الباحث "عبد القادر شاکر" إذ يقول هذا الأخير: «الفونولوجيا والفونيتيك هما من صميم الألسنية، وعلم الفونولوجيا تُدرّس تحت الألسنية التاريخية، والفونيتيك تُدرّس تحت الألسنية الوصفية».⁽⁴⁾

في المقابل سلك آخرون موقفا معتدلا ومن هؤلاء "ماريو باي" الذي لم يرض بالفصل بين العلمين، إذ نجده يصرّح قائلا في مسألة العلاقة بين الفونيتيك والفونولوجيا: «وإنّنا في مجال الاصطلاح نختار هنا موقفا وسطا بين موقفين يفيد أحدهما الـ phonology بالدراسة التاريخية للتغيّرات الصوتية، والـ phonitics بوصف الأصوات عند نقطة معيّنة من الزمن».⁽⁵⁾

(1) - فرديناند دي سوسير: علم اللغة العام، ص51.

(2) - أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص66.

(3) - المرجع نفسه، ص67.

(4) - عبد القادر شاکر: علم الأصوات العربية "علم الفونولوجيا" دراسة تبحث في مستوى التشكيل الصوتي القديم الجديد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1971م، ص18.

(5) - ماريو باي: أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط8، 1419هـ / 1998م، ص47.

ومهما يكن فإننا لا يمكن أن نفصل بين العلمين خصوصا وأنهما يشتركان في مجال دراستهما، فموضوع اختصاصهما واحد وهو الصوت، فالفونيتيك يهتم بدراسة كيفية النطق بالصوت وانتشاره من فم المتكلم إلى أذن المستمع، في حين تُعنى الفونولوجيا بدراسة وظيفة هذا الصوت داخل السياق الكلامي قصد التععيد والتقنين، فالعلمان أحدهما يكمل الآخر.

المطلب الرابع: أهمية علم الأصوات

إذا كان علم الأصوات فرعا من علم اللغة، فمما لا شكّ فيه أولا أنّه ذو أهمية كبيرة بالنسبة إلى بقية المجالات في دراسة اللغة، فمن الصعب أن تكون لغويا دون أن تكون لديك معرفة متينة في علم الأصوات، ثمّ إنّ دراسة تاريخ اللغة تفرض بالضرورة توجّها طبيّا إلى دراسة علم الأصوات الوصفي والتطوّري، أمّا عالم اللهجات فإنّ علم الأصوات يعدّ بالنسبة إليه ضروريا، وأمّا في مجال النظرية اللغوية فقد كان علم الأصوات ذا أهمية رئيسة. إنّ المفهوم البنيوي الذي يكسب كلّ يوم أرضا في عالم اللغويين، والذي يقوم على النظر إلى اللغة على أنّها نظام، لا على أنّها ركام من الأجسام المتنافرة، هذا المفهوم قد طبّق أولا على دراسة الأصوات اللغوية من خلال علم الأصوات التشكيلي *Phonologie*، ثمّ حقّق تقدّم بوجه عام من الناحية المنهجية في الوصف البنيوي للأصوات، أكثر ممّا حدث في مجالات النحو بالمعنى الدقيق، كما تحقّق هذا التقدّم المنهجي في مجالات علم الدلالة *Sémantique* (مضمون اللغة)، حيث يبحث الآن بشكل متزايد على الإفادة من التجارب المنهجية التي تتمّ خلال تحليل التعبير اللغوي، بيد أنّ ذلك مثال على الفائدة العلمية المحضّة لعلم الأصوات.⁽¹⁾

وعليه فعلم الأصوات تستفيد من ثماره كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية؛ نستفيد منه في: تعليم اللغات للناطقين بها وغير الناطقين، في مجال الطب، في ميدان الإعلام والاتصال، في فنّ الموسيقى ونظم الشعر، في البلاغة (جانب الفصاحة والبيان)، في علم الفلك، في علمي القراءات والتجويد والتغنّي بأصوات القرآن... الخ.

المبحث الثاني: علمي القراءات والتجويد وصلتهما بعلم الأصوات

تعرفنا فيما سبق على علم الأصوات ومختلف الجوانب المتعلّقة به، وقبل التعرّض إلى علاقته بعلمي القراءات والتجويد، وجب علينا أولا الوقوف بإيجاز عند هذين العلمين.

المطلب الأوّل: علم القراءات

مثله مثل سائر العلوم الإنسانية الأخرى، عرف هذا العلم اختلافا وتضاربا كبيرا بين العلماء والباحثين حول مفهومه، ولا نريد ههنا الوقوف على كلّ التعريفات التي صاغها الدارسون له، لأنّ المقام لا يسمح لنا بعرضها جميعا، لذا سنكتفي بتعريف "ابن الجزري" (ت: 833هـ) الذي يقول فيه: «علم بكيفية أداء كلمات القرآن،

(1) - ينظر: برتيل الملبرج: علم الأصوات، ص268.

واختلافها معزّوًا لناقله»⁽¹⁾.

قياسا على هذا، فإنّ العلم يساعدنا على معرفة تلك الطرق المعتمدة في أداء الكلمات القرآنية، وكذا آليات النطق بها إمّا اتفقا وإمّا اختلافا، مع نسبة كلّ طريق أو وجه إلى صاحبه وأصله، وهذا هو موضوع العلم ومجال اهتمامه؛ لذا فقد عُدّ من أشرف العلوم الشرعية التي تدور حول القرآن الكريم؛ لتعلّقه تعلقا مباشرا بأشرف كتاب، ما دامت مادته هي حروف وكلمات هذا الكتاب.

هذا، ولكي تكون القراءة صحيحة لا بدّ من توافر ثلاثة شروط مجتمعة اتّفق عليها جمهور هذا الفن، ممّا يعني أنّه إذا سقط شرط واحد منها أدّى ذلك إلى انتفاء صحّتها، لتصبح بذلك قراءة شاذة لا يصحّ قراءة القرآن بها، وكأنّ العلماء يقولون: إنّ بهذه الشروط يُحكّم على قراءة ما أمّا قرآنية، أو يُحكّم بقرآنيّتها، وهذه الأركان أشار إليها "ابن الجزري" في "طيبة النشر" بقوله:⁽²⁾

فَكُلُّ مَا وَاَفَقَ وَجْهَ نَحْوِ ﴿﴾ وَكَانَ لِلرَّسْمِ اِحْتِمَالًا يَحْوِي

وَصَحَّ اِسْنَادًا هُوَ الْقُرْآنُ ﴿﴾ فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الْاَرْكَانُ

وَحَيْثُمَا يَخْتَلُ رُكْنٌ اَثْبِتِ ﴿﴾ شُدُوذَهُ لَوْ اَنَّهٗ فِي السَّبْعَةِ

فَكُنْ عَلٰى نَهْجِ سَبِيْلِ السَّلَفِ ﴿﴾ فِي مُجْمَعِ عَلَيْهِ اَوْ مُخْتَلَفِ

إذا، فقد وضع العلماء ثلاثة ضوابط أو أركان أساسية لصحّة القراءة القرآنية هي: التواتر أو صحّة السند، موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو كان ذلك احتمالا، وكذا موافقة وجه من أوجه اللغة العربية، وإليك تفصيل⁽³⁾ لهذه الأركان:

فأمّا الركن الأول وهو التواتر أو صحّة السند: فالتواتر هو نقل جماعة عن جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب من أوّل السند إلى منتهاه، أو بعبارة أخرى يقصد بصحّة إسناده القراءة بأن يرويها عدل ضابط عن مثله من أوّل السند إلى آخره، حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ من غير شذوذ ولا علة قادحة، وتكون القراءة مع ذلك

(1) - محمد بن محمد بن الجزري: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، تح: عارف الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1423هـ/2002م، ص9.

(2) - محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري: طيبة النشر في القراءات العشر، تح: محمد تميم ومصطفى الرّعبي، مكتبة دار الهدى، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ/1994م، ص32.

(3) - ينظر: أبو عبد الله محمد بن شريح الرّعيني الأندلسي: الكافي في القراءات السبع، تح: أحمد محمود عبد السميع الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م ص ص10، 12. وكذا: شعبان محمد إسماعيل: القراءات أحكامها ومصدرها، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1414هـ/1993م، ص95. وكذا: محمد أحمد مفلح القضاة وآخرون: مقدمات في علم القراءات، دار عمار للتوزيع والطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط1، 1422هـ/2001م، ص70.

كلّه مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، هذا وقد اشترط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتبوا فيه بصحة السند، وزعموا أنّ القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وأنّ ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به القرآن.

بيد أنّ الخلاف بين الفريقين خلاف مؤداه واحد؛ ذلك أنّ الفريقين يشترطان التواتر لاعتبار إثبات القراءة وبيان ذلك: أنّ القائلين بالتواتر يعدّون الشرطين الآخرين بمنزلة تحصيل الحاصل وتابع لتواتر الرواية، وكذلك الحال بالنسبة للقائلين بصحة السند مع الاشتهار، مع موافقة الوضع العربي والرسم العثماني، فإنّ هذين الشرطين يعطيان الرواية الصحيحة المشتهرة قوّة التواتر، فيأثف الكلام حينئذ ولا يختلف.

وأما الركن الثاني فهو أن تكون القراءة موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، نحو: قراءة ابن عامر ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ...﴾ [سورة البقرة، الآية: 116] بغير واو هكذا: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ...}، وقوله: ﴿... وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 184] قرأها هكذا: {وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} بزيادة الباء في الاسمين، فإنّ ذلك ثابت في المصحف الشامي، أي أنّ ذلك الحذف في (قالوا) ثابت في المصحف الشامي فقط، وفي بقية المصاحف (وقالوا)، فلو كانت القراءة مخالفة لرسم جميع المصاحف العثمانية حكم بشذوذها، ولا تسمّى قرآنا وتحرم القراءة بها، وذلك لمخالفتها الرسم المجمع عليه كقراءة.

وموافقة رسم المصحف قسمان:

● **الموافقة التحقيقية:** وهي الموافقة الصريحة نحو: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 160]، فكلّ كلمة في هذه الآية موافقة تحقيقا رسم المصاحف، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿...إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ [سورة الحجرات، الآية: 06]، فكلّ كلمة (فَتَبَيَّنُوا) بما اشتملت عليه من قراءتين موافقة لرسم المصاحف تحقيقا، لأنّ جميع المصاحف العثمانية كتبت مجرّدة من النقط والشكل، فكانت محتملة لأكثر من قراءة، وكانت كلّ قراءة موافقة الرسم تحقيقا فهي (فَتَبَيَّنُوا) و(فَتَشَبَّهُوا).

● **الموافقة التقديرية:** ويقال لها الموافقة الاحتمالية والموافقة غير الصريحة، وهي الموافقة في التقدير والاحتمال فحسب، وذلك مثل قراءة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة، الآية: 04] بإثبات الألف فيها، فإنّ هذه القراءة لا توافق الرسم تحقيقا وصراحة؛ لأنّ هذه الكلمة كتبت بحذف الألف في جميع المصاحف، ولكنّها توافقه في التقدير والاحتمال فحسب، إذ يقال على هذه القراءة: إنّ الألف قد حذفت من هذه الكلمة (ملك) في رسم المصحف اختصارا، مع ملاحظتها وتقدير وجودها في الكلمة فأصلها (مالك).

بينما يتمثّل الركن الثالث في موافقة وجه من وجوه اللغة العربية، بمعنى آخر أن تكون القراءة القرآنية موافقة لوجه من وجوه النحو (النصب، الرفع أو الجر)، سواء أكان فصيحاً أم أفصح، مجمعا عليه أم مختلفا فيه، مادامت القراءة صحيحة الإسناد، موافقة لأحد المصاحف العثمانية، كقراءة حمزة بخفض (والأرحام) من قوله تعالى

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

في مطلع سورة النساء: ﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ...﴾ عطف على الضمير المحرور في (به) على مذهب الكوفيين، أو أعيد الجار وحذف للعلم به، أو جرّ على القسم تعظيماً للأرحام وحقاً على صلتها، فمتى ثبتت القراءة وصحّت لا يردّها قياس عربية ولا فشو لغة، إذ القراءة هي الحكم.

وتختلف أحوال الناس عند قراءتهم للقرآن، فمنهم من يتأبّى في قراءته ويتمهّل، ومنهم من يسرع فيها ويتعجّل، بناء على هذا كانت للقراءة ثلاث مراتب حدّدها "ابن الجزري" في نظمه قائلاً: (1)

وَيُقْرَأُ الْقُرْآنُ بِالتَّحْقِيقِ مَعَ ﴿ ﴿ حَدْرٍ وَتَدْوِيرٍ وَكُلٌّ مُتَّبَعٍ
مَعَ حُسْنِ صَوْتٍ بِلُحُونِ الْعَرَبِ ﴿ ﴿ مُرْتَلًّا مُجَوِّدًا بِالْعَرَبِيِّ

يتضح جلياً من خلال هذين البيتين أنّ مراتب القراءة تتمثّل في التحقيق والحدر والتدوير؛ فأما «التحقيق» فهو إعطاء كلّ حرف حقه من إشباع المدّ وإتمام الحركة واعتماد الإظهار والتشديدات، وبيان الحروف وتفكيكها من غير إفراط، وأما الحدر فهو إدراج القراءة وسرعتها وتخفيفها مع مراعاة تقويم اللفظ، وتمكين الحروف بدون بتر ومن غير تفريط، في حين أنّ التدوير هو التوسّط بين المقامين؛ بين التحقيق والحدر». (2)

ويجعل بعض العلماء الترتيل مرتبة أخرى من مراتب القراءة القرآنية، غير أنّ الظاهر بأنّ الترتيل سمة ثابتة ومشتركة في كلّ قراءة تلتزم بأحكام التلاوة، ممّا يعني أنّ الترتيل قائم وحاصل في كلّ مراتب القراءة التي أسلفنا ذكرها من تحقيق وحدر وتدوير؛ ذلك أنّ القرآن الكريم نزل به وأمر أن يُقرأ كذلك مصداقاً لقول الله عزّ وجل: ﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [سورة المزمل، الآية: 04]، تقول الباحثة "سعاد عبد الحميد" في بيان مرتبة الترتيل: «والترتيل ليس له مرتبة خاصة، ولكنّه مع المراتب الثلاث السابقة؛ إذ هو يعني القراءة بفهم وتدبّر مع إعطاء الحروف حقه ومستحقّها من الصفات والمخارج، فإنّ القرآن نزل للعمل به وفهمه وتدبّره لقوله تعالى: ﴿...يُكْتَبَرُوا عَلَيْهِ...﴾ [سورة ص، الآية: 29]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَمٍّ وَزَلَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [سورة الإسراء، الآية: 106]». (3)

إنّ الترتيل بهذا المعنى شأنه شأن التحقيق، بيد أنّ هذا الأخير يكون للتعلّم ورياضة الألسن وصيانتها عن اللحن، وكذا منعها من الميل عن جادة الصواب أثناء قراءة آي القرآن الكريم، فضلاً عن هذا وذاك يساهم التحقيق في ترقيق الألفاظ الغليظة وإقامة القراءة، وذلك بإعطاء كلّ حرف حقه من المدّ والهمز والإشباع والتفكيك

(1) - ابن الجزري: طيبة النشر في القراءات العشر، ص 36.

(2) - عاشور خضراوي الحسني: أحكام التجويد برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق، مكتبة الرضوان، مصر، دط، 2005م، ص 11.

(3) - سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن في تجويد القرآن، تح: أحمد أحمد مصطفى أبو حسن ومحمد أمين طنطاوي، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط 1، 1430هـ / 2009م، ص 29.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

(بيان الأحرف وإخراج بعضها عن بعض بيسر وسهولة)، ويُؤمّنُ مَعَهُ تحريك ساكنٍ واحتلاس حركة متحرك، في حين يكون الترتيل للتدبر والتفكير والاستنباط.⁽¹⁾

ثمّ إنّ هذه الأنواع الأربعة؛ أي التحقيق والحذر والتدوير والترتيل، يتفاوت فيها زمن النطق حسب البطء والسرعة على التقابل، فما كان بطيئاً احتاج إلى زمن أطول، وما كان سريعاً إلى زمن أقلّ، والتوسط يحتاج إلى زمن على قدره بين بين. والتحقيق والحذر متباعدان كلّ منهما على طرف غير الذي عليه الآخر؛ فالتحقيق غاية البطء والحذر غاية السرعة، والتحقيق يشترك مع الترتيل في البطء، إلّا أنّ التحقيق زائد في ذلك على الترتيل، ولذلك فإنّ التحقيق أخصّ من الترتيل، ونظر بعضهم إلى أنّ التحقيق في البطء والترتيل نوع داخل فيه، فجعل التحقيق أعمّ من الترتيل.⁽²⁾

وهما نظرتان مختلفتان في الألفاظ متفقتان في المضمون، فإذا جعل التأنيّ هو الأساس والبطء زيادة في التأنيّ، فالترتيل أعمّ والتحقيق أخصّ منه، وإذا جعل البطء هو الأساس والتأنيّ نوع من البطء فالتحقيق أعمّ من الترتيل والترتيل أخصّ منه.⁽³⁾

خلاصة القول: إنّ المعيار المعتمد في تحديد مراتب القراءة هو معيار "التأنيّ والعجلة"، وعلى هذا الأساس يتمّ الحكم على القراءة من أي مرتبة هي؟ فالترتيل والتحقيق يُقاس كلّ منهما بمعيار التأنيّ، والحذر بمعيار السرعة أمّا التدوير فبمعيار الوسطية (بين البطء والعجلة)، غير أنّ هذه المراتب جميعها باختلاف معاييرها، تتفق في أهمّ مبدأ من مبادئ علم التجويد ألا وهو: "مراعاة أحكام قراءة القرآن الكريم"؛ بإعطاء جميع الحروف حقّها ومستحقّها.

المطلب الثاني: علم التجويد

يعرّف هذا الفن بكونه: «العلم الذي يُعنى بنطق ألفاظ القرآن نطقاً صحيحاً، وذلك بإعطاء كلّ صوت حقّه من المخرج والصفات، وما يلحقه في التركيب من أحكام». ⁽⁴⁾

(1) - ينظر: عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: ترتيل القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص10. وكذا: أبو عمر عثمان بن سعيد الدّاني الأندلسي: التحديد في الإتقان والتجويد، تح: غانم قدّوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ/ 2000م، ص70.

(2) - عبد الغفار حامد هلال: القراءات واللهجات من منظور علم الأصوات الحديث، دار الفكر العربي، مصر، ط3، 1426هـ/ 2005م، ص37.

(3) - المرجع نفسه، ص ن.

(4) - غانم قدّوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1423هـ/ 2003م، ص156.

وقد عبّر قديماً "ابن الجزري" عن هذا المعنى في نظمه قائلاً: (1)

وَهُوَ إِعْطَاءُ الْحُرُوفِ حَقَّهَا ۞ ۞ مَنْ صِفَةٍ لَهَا وَمُسْتَحَقَّهَا
مُكَمَّلًا مِنْ غَيْرِ مَا تَكَلَّفِ ۞ ۞ بِاللُّطْفِ فِي النُّطْقِ بِلا تَعَسَّفِ

إنّ للحرف في اللغة العربية حالتين: حالة الأفراد وحالة التركيب، فأما الحالة الأولى ففيها يكتسي الحرف الصفات اللازمة، أي الثابتة فيه والتي لا تنفك عنه سواء أكان مفرداً أم مركباً: كالجهر والشدة والاستفال والانحراف والتكرير والغنة... الخ، وإمّا يتحقق حكم التجويد في هذا الباب بإعطاء الحرف حقه من هذه الصفات المذكورة كاملاً غير منقوص، وأما الحالة الثانية ففيها تنشأ أحكام نتيجة تجاور حروف أو حركات معينة لحروف أو حركات أخرى كأحكام التزيق والتفخيم، الإظهار والإدغام والإخفاء والإقلاب، المدود ونحو ذلك، وإمّا يتحقق حكم التجويد في هذا الباب بإعطاء الحرف مستحقّه من الصفات العارضة، ثمّ عندما تتركب الكلمات مع بعضها تتشكّل أحكام الوقوف.

يعدّ علم التجويد إذاً من أجلّ العلوم وأشرفها، لتعلّقه بأجلّ الكتب وأقدسها ألا وهو القرآن الكريم، ولمّا كان الأمر كذلك فقد جُعِلَ «تعلّمه فرض كفاية والعمل به فرض عين، لإجماع الأمة علماءً وقراءً خلفاً عن سلف عن النبي ﷺ بالعمل به وعدم تركه». (2)

يقول "ابن الجزري" في "نظم الجزرية" موضحاً حكم العلم: (3)

وَالْأَخْذُ بِالتَّجْوِيدِ حَتْمٌ لَأَزِمَ ۞ ۞ مَنْ لَمْ يُصَحِّحِ الْقُرْآنَ آثِمٌ
لِأَنَّهُ بِهِ الْإِلَهُ أَنْزَلَا ۞ ۞ وَهَكَذَا مِنْهُ إِلَيْنَا وَصَلَا

الظاهر من خلال ما سبق أنّ موضوع العلم هو كلمات القرآن الكريم مثله مثل علم القراءات، وذلك من خلال إحكام حروفها وإجادة التلقظ بها، مع بلوغ الغاية في تحسينها وزخرفتها من غير تكلف ولا تعسف، ممّا يخرج بها عن القواعد الجمع عليها، أمّا عن موضوعات العلم فهو يُعنى بدراسة مخارج الحروف وبيان صفاتها المميزة لها. فما هو المقصود بالمخرج والصفة الصوتيين، وفيما تتجسّد العلاقة التي تجمعهما؟

يُوصف المخرج بأنّه النقطة التي يصدر الصوت فيها وينقطع عندها، وذلك عندما يكون هنالك اعتراض

(1) - ابن الجزري: طيبة النشر في القراءات العشر، ص36.

(2) - محمد نيهان بن حسين مصري: الإستبرق في رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق (الشاطبية)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدّة، السعودية، ط2، 1428هـ / 2007م، ص9.

(3) - محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف بن الجزري: منظومة المقدّمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، تح: أيمن رشدي سويد، دار نور المكتبات للنشر والتوزيع، جدّة، السعودية، ط4، 1427هـ / 2006م، ص3.

جزئي أو كليّ لجرى الهواء الصاعد من الرئتين، ولهذا يسمى مخرج الحرف بنقطة النطق، فالباء مثلا صوت شفوي، لأنّ الشفتين أثناء النطق به تكونان منطبقتين على بعضهما، فيمنعان خروج الهواء إلى الفم فترة معينة من الزمن. يقول "محمد حسن حسن جبل" في هذا الصدد: «مخرج الحرف هو الموضع الذي يتولّد فيه الحرف ويخرج»⁽¹⁾، ويضيف "سمير العزاوي" في السياق ذاته قائلاً: «فالنقطة التي يجري عندها اعتراض الهواء، وذلك عند التقاء عضوين من أعضاء النطق، أو اقترابهما وانغلاقهما يعرف بالمخرج»⁽²⁾.

من جهة أخرى يحدّد "عبد الفتّاح المرصفي" كيفية معرفة مخرج الحرف، وأنواع هذا الأخير قائلاً: «ويُعرف مخرج الحرف بأن يسكّن ويشدّد، ويدخل عليه همزة الوصل محرّكة بأيّ حركة كانت، فحيث ينتهي صوته فتّم مخرجه المحقّق، وحيث يمكن انقطاع الصوت فتّم مخرجه المقدّر، وهذا خاص بمخرج حروف المدّ الثلاثة، ثمّ اعلم أنّ مخارج الحروف نوعان: الأوّل المخارج العامة، والثاني المخارج الخاصة؛ أمّا المخارج العامة فهي ما اشتمل الواحد منها على مخرج واحد فأكثر، وأمّا المخارج الخاصة فهي ما اشتمل الواحد منها على مخرج واحد فقط، وقد يخرج منه حرف واحد أو حرفان أو ثلاثة ولا أكثر من ذلك»⁽³⁾.

والمخرج المحقّق كما يصفه "محمّد إبراهيم محمّد" يكون له: «طرفان يصطدم كلاهما بالآخر معتمدا عليهما الصوت، فإن خرج منه الحرف بتصادم الطرفين سميّ بالمخرج المحقّق، وسميّ الحرف بالحرف المحقّق، لأنّنا نستطيع معرفة موضع ولادة الحرف بدقّة لوجود حيز له في عضو النطق، يبدأ صوته منه وينتهي فيه، وجميع المخارج محقّقة ما عدا مخرج الجوف»⁽⁴⁾، أمّا **المخرج المقدّر** فهو أن يكون له «طرفان متباعدان، وسميّ الحرف بالحرف المقدّر، لأنّنا لا نستطيع معرفة ولادة الحرف إلّا تقديراً أو إجمالاً، فليس للحرف حيز يبدأ صوته منه وينتهي فيه، بل ينتهي صوته بانتهاء الهواء لا بانتهاء المخرج، لكونه مخرجا قابلا لامتداد الصوت فيه، ويخرج من الجوف ثلاثة أصوات مقدّرة هي الألف والواو والياء»⁽⁵⁾.

هذا بالنسبة للمخرج، أمّا الصفة الصوتية فهاهو "محمود خليل الحصري" يقدّم تعريفا لها قائلاً: «هي كيفية يوصف بها الحرف عند حلوله في مخرجه، وتوجب مراعاتها تحسين النطق بالحرف كالهمس والجهر والاستعلاء

(1) - محمد حسن حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية دراسة نظرية تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط4، 1427هـ/ 2006م، ص52.

(2) - سميّ العزاوي: التنعيم اللغوي في القرآن الكريم، ص98.

(3) - عبد الفتّاح السيّد عجمي المرصفي: هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، السعودية، ط2، دس، ص62.

(4) - محمّد إبراهيم محمّد: في أصوات العربية دراسة تطبيقية، ص43-44.

(5) - المرجع نفسه، ص44.

والاستفغال إلى غير ذلك، وبهذه الصفات تتميز الحروف المشتركة في المخرج بعضها من بعض»⁽¹⁾، أو هي تلك: «الأثر السمعي الناتج عن حركة من حركات عضو واحد أو عدد من أعضاء النطق»⁽²⁾.

تبيّن لنا من خلال هذين التعريفين مفهوم الصفة الصوتية والفائدة المرجوة منها، والتي سيتمّ التطرّق إليها فيما سيأتي من هذا البحث. وهنا كان لابدّ من الإشارة إلى أنّ الصفات الصوتية تنقسم إلى عدّة أقسام لعدّة اعتبارات، فإذا نظرنا إليها من ناحية مرافقتها لذاتية الحرف أو مفارقتها له، فإنّنا نميّز للصفة الصوتية بين قسمين بهذا الاعتبار هما:⁽³⁾

- الصفات الأصلية اللازمة (الثابتة)
- الصفات العرضية (غير الثابتة)

فأمّا الصفات الأصلية فهي الصفات المكوّنة لصوت الحرف، والتي لا يمكن إخراجها وولادته إلّا بها كالجهر والاستعلاء والإطباق والقلقلة. وأمّا الصفات العرضية فهي تعرض للحرف في بعض الأحوال، وتنفكّ عنه أحيانا لسبب من الأسباب، أو بعبارة أخرى هي تلك الصفات التي تنشأ من تجاور الحرف مع غيره من الحروف، بحيث إذا انفصل الحرف عن مجاوره زالت عنه تلك الصفة، وقد حصر العلماء هذا النوع من الصفات في إحدى عشرة صفة هي: التفتيح والترقيق، الإظهار والإدغام، القلب والإخفاء، المدّ والقصر، التحريك والسكون والسكت. وتنقسم الصفات الأصلية إلى قسمين أيضا: قسم له ضدّ وهو خمس وضدّه كذلك، وتسمى هذه الصفات ذوات الأضداد، وقسم لا ضدّ له وهو سبع؛ فأمّا الصفات ذوات الأضداد فهي: الجهر وضدّه الهمس، الرخو وضدّه الشدة والتوسط معا، الاستعلاء وضدّه الاستفغال، الإطباق وضدّه الانفتاح، الإذلاق وضدّه الإصمات، وأمّا الصفات التي لا ضدّ لها فهي: الصغير، القلقلّة، اللين، الانحراف، التكرار، التفشي، والاستطالة، ويضاف إلى السبعة صفة الغنة.

ثمّ اعلم أنّ «كلّ حرف من حروف الهجاء، لا يمكن أن تزيد صفاته المتضادة عن خمس، ولا يمكن أن تزيد صفاته غير المتضادة عن اثنين، كما لا يمكن أن تجتمع فيه صفتان متضادتان»⁽⁴⁾.

أمّا إذا نظرنا إلى الصفة الصوتية من ناحية القوّة والضعف، فإنّنا نميّز لها بهذا الاعتبار بين ثلاثة أنواع

(1) - محمود خليل الحصري: أحكام قراءة القرآن الكريم، دار البشائر الإسلامية، دب، 4، 1999، ص 80.

(2) - عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، مصر، ط 2، 1968م، ص 133.

(3) - ينظر: عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي: هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري، ص 79، 99. وكذا: مجدي إبراهيم محمد: في أصوات العربية دراسة تطبيقية، ص 57.

(4) - مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1434هـ / 2013م، ص 96.

هي: (1)

• الصفات القويّة: وهي إحدى عشر صفة تتمثّل في: الجهر، الشدّة، الاستعلاء، الإطباق، الصفير، القلقلة، الانحراف، التكرير، التفشي، الاستطالة، والغنة.

• الصفات الضعيفة: وهي ستّ صفات تتمثّل في: الهمس، الرخاوة، الاستفال، الانفتاح، اللين، والخفاء.

• الصفات المتوسطة: ثلاث صفات هي: الإصمات، الدلاقة، والبينية؛ أي التي بين الرخاوة والشدّة.

مثلاً يمكن تصنيف الصفات الصوتية حسب قوتها أو ضعفها، يمكن أيضاً تقسيم الحروف الهجائية إلى الأقسام نفسها، وذلك حسب ما يتّصف به الحرف من صفات القوّة أو الضعف أو التوسط، وهذه الأقسام هي: (2)

• الحرف الذي يجمع كلّ صفات القوّة يسمى حرفاً قوياً كالطاء المهملة.

• الحرف الذي يجمع كلّ صفات الضعف يسمى ضعيفاً كالهاء مثلاً.

• الحرف الذي يجمع بين صفات القوّة والضعف يسمى متوسطاً كاللام والغين.

وهنا تجدر بنا الإشارة عموماً إلى أنّ الحرف في اللغة العربية «لا تنقص صفاته عن خمس ولا تزيد عن سبع، وليس لنا ما له سبع صفات إلاّ الراء، ومثال ما له خمس صفات (الفاء) فهي: مهموسة، رخوة، مستفلة، منفتحة، مذلقة، وما له ستّ (الباء) فهي: مجهورة، شديدة، مستفلة، منفتحة، مذلقة، مقلقلة، وما له سبع (الراء) فهي: مجهورة، متوسطة، مستفلة، منفتحة، مذلقة، منحرفة، مكرّرة...» (3).

الحقيقة إنّ لمعرفة صفات الحروف فوائد كثيرة وجليّة، يمكن تلخيصها في ثلاث فوائد هي: (4)

1 - تمييز الحروف المشتركة والمتقاربة في المخرج، فمثلاً حروف {ث، ذ، ظ} مخرجها واحد، فلولا الاستعلاء والإطباق في الطاء لصارت ذالاً، ولولا الهمس في الثاء لصارت ذالاً.

2 - معرفة قوِّي الحروف من ضعيفها، ليُعلم ما يجوز أن يدغم في غيره وما لا يجوز.

3 - تحسين لفظ الحروف إذا اجتمعت في كلمة أو جاور بعضها بعضاً، كتصنيف الحرف المرقّق من التفخيم إذا جاور مفخّم والعكس، وتخليص الحرف من الغنة إذا جاوره حرف فيه غنة وغير ذلك.

أمّا عن علاقة الصفة بالمخرج الصوتي، فيوضّحها لنا "غانم قدوري الحمد" قائلاً: «إنّ تحديد مخرج الصوت

(1) - ينظر: عبد الفتاح المرصفي: هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري، ص92، وكذا: صلاح صالح سيف: العقد المفيد في علم التجويد، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1408هـ/1987م، ص ص74-75.

(2) - ينظر: عبد الفتاح المرصفي: المرجع السابق، ص س.

(3) - محمد الصادق قمحوي: البرهان في تجويد القرآن ويليّه رسالة في فضائل القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، دط، ص19.

(4) - ينظر: سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن في تجويد القرآن، ص ص69-70.

لا يكفي وحده لتوضيح خصائصه التي تميّزه عن غيره من الأصوات، وذلك لاشتراك أكثر من صوت في المخرج الواحد، وهناك عناصر أخرى في العملية النطقية تسهم في إعطاء الصوت خصائصه المميّزة له، ويشكّل المخرج أحد تلك العناصر، وهو بمثابة المكان الذي تحدث فيه تلك العملية المركّبة من عدد من الأنشطة لأعضاء آلة النطق، وقد اصطلاح علماء العربية والتجويد على تسمية ما يصاحب تكوّن الصوت في مخرجه، من أنشطة أعضاء النطق المختلفة بالصفات، ويعرّفون الصفة بأنّها كيفية عارضة للحرف عند حصوله في المخرج، وتتميّز بذلك الحروف المتّحدة بعضها عن بعض»⁽¹⁾.

إدّا، فبالمخرج تُعرّف ماهية الأصوات وتولّد أشكالها وتحدّد، وبالصفة يحصل التمييز بينها، خاصة بين تلك التي تتحدّد مخرجها أو تتقارب، وليس بعيدا عن هذا تذهب الباحثة "سعاد عبد الحميد"، إذ خصّصت حيزا كبيرا من بحثها تتحدّد عن علاقة الصفة الصوتية بالمخرج الصوتي، حيث ذكرت كثيرا من الأصوات التي تشترك في المخرج نفسه، وتحتاج إلى الصفة الصوتية للتمييز بينها، كما عرضت لنا أمثلة أخرى لبعض الأصوات المتقاربة من ناحية المخرج، واشتركت في بعض الصفات الصوتية، تقول محدّدة هذه العلاقة: اعلم أنّ كلّ حرف شارك غيره في مخرجه، فإنّه لا يمتاز عن مُشاركه إلا بالصفات، وكلّ حرف شارك غيره في الصفات، فإنّه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج، ومن الأمثلة التي اقترحتها: الهمزة والهاء، فهما صوتان اشتركا مخرجا وفي صفتي الانفتاح والاستفال، وانفردت الهمزة بالجهر والشدّة، فلولا الهمس والرخاوة في الهاء مع خفائها لكانت همزة، ولولا الشدة والجهر في الهمزة لكانت هاء، والقاف والكاف تقاربا مخرجا واشتركتا في صفتي الشدّة والانفتاح، وانفردت القاف بالجهر والاستعلاء والققلعة، فلولا هذه الصفات الثلاث واختلاف المخرج لكانت كافا... الخ.⁽²⁾

المطلب الثالث: الفرق بين علم القراءات وعلم التجويد، وعلاقتها بعلم الأصوات

يقول "أبو بكر المرعشي" في مسألة التمييز بين العلمين: «إن قلت: ما الفرق بين علمي التجويد والقراءات؟ قلت: علم القراءات علمٌ يعرف فيه اختلاف أئمة الأمصار في نظم القرآن في نفس حروفه أو في صفتها، فإذا ذُكر فيه شيء من ماهية صفات الحروف فهو تميم، إذ لا يتعلّق الغرض به، وأمّا علم التجويد فالغرض منه معرفة ماهيات صفات الحروف، فإذا ذُكر فيه شيء من اختلاف الأئمة فهو تميم»⁽³⁾.

يُفهم من خلال هذا الكلام أنّ العلمين مكملان لبعضهما البعض، فمن بين نقاط الاشتراك بينهما صفات الحروف، فعلم التجويد يهتمّ بالبحث فيها من حيث تحديد وظائفها وما يعترّ بها حال التركيب من

(1) - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، ص 96.

(2) - لمزيد من التوسع ينظر: سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن في تجويد القرآن، ص 119، 139.

(3) - محمد بن أبي بكر المرعشي: جهد المقل، ص 110.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

أحكام، في حين تُدرّس في علم القراءات من أجل الوقوف على ما يُنسب منها إلى قارئ دون سواه، يقول "عبد الغفار حامد هلال" معرّزا هذه الفكرة: «فقد يتداخل العلمان في مباحثهما، لكن لكلّ منهما مباحث أصلية تعدّ في العلم الآخر تميمًا للفائدة، ومع ذلك يعدّ كلّ واحد من العلمين متمّمًا للآخر»⁽¹⁾، ويواصل قائلا: «يتفقان في الهدف العام وهو صون كلام الله تعالى عن التحريف والتغيير، وبذلك يتّضح ما بينهما من وشائج القربى، فكلّ من العلمين يستند إلى ما في الآخر من بحوث، ولا يحتاج دارس التجويد إلى معرفة المنقول من القراءات، كما يحتاج دارس القراءات إلى معرفة أصول فنّ التجويد»⁽²⁾، وإلى الاتجاه نفسه ذهب الباحث "غانم قدوري الحمد" حيث يضيف في السياق ذاته قائلا: «وعلم التجويد مكملّ لعلم القراءات، لأنّه لا يمكن للقارئ تلاوة القرآن بصورة صحيحة ما لم يعرف قواعد التجويد، مهما كانت القراءة التي يتلو بها القرآن، ومن ثمّ كان واجبا على قارئ القرآن أن يعرف قواعد هذا العلم، وأن تكون له المقدرة على تطبيق تلك القواعد في القراءة، ليحري لسانه بالنطق الصحيح الفصيح، فيكون بذلك مستوفيا لشروط القراءة، راجيا ثوابها، متجاوزا لإثم التقصير فيها»⁽³⁾، ولئن جعل "غانم قدوري الحمد" العلمين أحدهما يكملّ الثاني، إلّا أنّهما - حسب رأيه - يختلفان في الموضوع كما يختلفان في المنهج: «فأمّا الموضوع: فإنّ علم التجويد لا يُعنى باختلاف الرواة، بقدر عنايته بتحقيق اللفظ وتجويده، ممّا لا اختلاف في أكثره بين القراء، وأمّا المنهج: فإنّ كتب القراءات كتب رواية، وكتب التجويد كتب دراية، تعتمد على مقدرة العالم في ملاحظة أصوات اللغة وتحليلها ووصفها»⁽⁴⁾.

بعد هذا العرض حول علم الأصوات وعلم القراءات وعلم التجويد أمكننا في الختام من عقد علاقة بين هذه العلوم الثلاثة بالقول: الحقّ، إنّ علوم العربية كالنحو والبلاغة والدراسات الصوتية، إنّما نشأت في ظلّ القرآن الكريم، فهو عصب اللغة العربية، عليه تأسست وبه انتشرت، ولما كان القرآن الكريم محور علوم اللغة العربية، فإنّ نوعا من التلاقح بين هذه العلوم أدّى إلى توزيع الدراسات الصوتية، وتفرّقتها في كتب ألفت أصلا في معارف أخرى غير علم الأصوات، ككتب القراءات والتجويد والنحو والصرف والبلاغة وفقه اللغة والمعاجم والعروض... الخ.⁽⁵⁾

(1)- عبد الغفار حامد هلال: القراءات واللهجات من منظور علم الأصوات الحديث، ص23.

(2)- المرجع نفسه، ص ص23-24.

(3)- غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، ص159.

(4)- غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1428هـ/2007م، ص21.

(5)- ينظر: نجيدة وهلاصي: الأصوات الذلّقية في اللغة العربية- دراسة تطبيقية مخبرية، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه تخصّص: لسانيات تطبيقية، إشراف: سيدي محمد غبيري، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)، السنة الجامعية: 1433هـ/1434هـ-2012م/2013م، ص1.

نستشفّ من خلال هذا البسط النظري أنّ العلاقة القائمة بين علم الأصوات وعلمي القراءات والتجويد علاقة عضوية تلازمية، لا يمكن فصل أحد العلوم عن الآخر، وحلقة الوصل بينهما تكمن في الصوت، هذا الأخير الذي يمثّل الوحدة اللغوية التي يُعنى بها الدرس الصوتي سواء أكان مفردا بسيطا؛ وذلك بالبحث عن خصائصه الفسيولوجية والفيزيائية، أم مركّبا وصولا إلى وظيفته وأثره الدلالي على مستوى نظام اللغة، كما يمثّل الصوت من جهة أخرى العنصر الذي يخضع للتقعيد، قصد استنباط جملة الأحكام التي يقوم عليها الأداء القرآني السليم في علم التجويد، في المقابل يمكّننا الصوت في علم القراءات من معرفة هوية القراءة القرآنية، وعزوها إلى صاحبها وأصلها سواء أكان قارئاً أم راوياً أم طريقاً.

المبحث الثالث: علم الدلالة وصلته بعلم الأصوات

يمثّل علم الدلالة مستوى من مستويات دراسة اللغة (المستوى الدلالي)، لأنّه يهتمّ بدراسة المعنى الذي تخلص إليه المستويات الأخرى، وهنا تكمن قيمة العلم وأثره في اللغة. يقول "أحمد سليمان" موضّحا أهمّية علم الدلالة في الدرس اللغوي: «يعدّ المبحث الدلالي في المفردات ودلالاتها من أهمّ الفروع التي يبحثها علم اللغة، وإذا كان علم اللغة يدرس الكلمة من جوانب أربعة هي: بناء الكلمة وبناء الجملة والأصوات والدلالة، فإنّ هذا الجانب الرابع هو الأكثر أهمّية من حيث إنّهُ يُجمّع الجوانب الثلاثة الأخرى في إطار واحد كي تكون خادمة له، من أجل إفراز معنى ما، يتمخّض عن تحليل البنية اللغوية للجملة».⁽¹⁾

هذا، وقبل التعرّض إلى علاقة علم الدلالة بعلم الأصوات والذي هو موضوع هذا المبحث، وجب علينا أوّلا الوقوف على ماهية هذا العلم، ومختلف المباحث النظرية المنوطة به. فما هو المقصود بعلم الدلالة إذًا؟ وما مجال اهتمامه؟ وفيما تكمن نقاط تواسجه مع علم الأصوات؟

المطلب الأوّل: مفهوم علم الدلالة

يعرّفه "محمد الخولي" قائلا: «إنّ علم الدلالة كما يدلّ عليه اسمه هو علم يبحث في معاني الكلمات والجمل، أي في معنى اللغة، ولعلم الدلالة اسم آخر شائع هو علم المعنى، لآحظ أنّ المرادف لعلم الدلالة هو علم المعنى وليس علم المعاني، لأنّ علم المعاني فرع من فروع علم البلاغة».⁽²⁾

يتّضح جليّا من خلال هذا التعريف أنّ موضوع العلم هو دراسة الدلالات والمعاني كما سيتمّ التفصيل لاحقا إن شاء الله تعالى، وهذه الدراسات لا تقتصر كما جاء في التعريف على المفردات لوحدها، بل تتعدّى ذلك لتشمل التراكيب أيضا، ولأجل ذلك نجد "الخولي" يُردف كلامه السابق بكلام يُثبت ذلك قائلا: «وعندما

(1) - فتح الله أحمد سليمان: مدخل إلى علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1412هـ / 1991م، ص5.

(2) - محمد علي الخولي: علم الدلالة (علم المعنى)، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2001م، ص13.

نتحدث في علم الدلالة عن المعنى، فإنّنا لا نقصد معنى الكلمة فقط، بل معنى الجملة أيضا؛ ذلك لأنّنا عندما نستخدم اللغة في واقع الحال بغرض الاتصال، فإنّ استخدامنا للجمل في الاتّصال لاشكّ أشيع من استخدامنا لكلمات منفصلة، وفي كلا الحالتين إنّ الهدف الرئيس للغة هو نقل المعاني من المتكلّم إلى السامع، أو من الكاتب إلى القارئ، إنّ علم الدلالة أو علم المعنى يتناول معاني الكلمات، ومعاني الجمل على حدّ سواء⁽¹⁾.

ولعلّ من أشهر التعريفات التي أعطيت لعلم الدلالة، ذلك المفهوم الذي قدّمه الباحث "أحمد مختار عمر"، وفيه يقول معرّفا العلم: «هو دراسة المعنى، أو العلم الذي يدرس المعنى، أو ذلك الفرع من اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى»⁽²⁾.

وعليه فإنّ كلا التعريفين اتفقا على أنّ موضوع العلم هو دراسة المعنى، سواء أكان ذلك على مستوى الكلمات أم الجمل، بيد أنّ هذا التعريف الأخير فضّل أكثر في مفهوم علم الدلالة، ففي محاولة منّا لاستنتاج فحواه، تبين لنا أنّ العلم لا يقتصر دوره فقط في دراسة المعاني، بل يُعني أيضا بدراسة مجمل الشروط التي ينبغي توفّرها في الرموز حتى تكون قادرة على حمل المعنى، ممّا يعني أنّ ليس كلّ رمز في اللغة يحمل معنى فيها، والرمز حسب تصوّر "أحمد مختار عمر" هو عبارة عن: «مثير بديل يستدعي لنفسه نفس الاستجابة التي قد يستدعيها شيء آخر عند حضوره، ومن أجل هذا قيل إنّ الكلمات رموز، لأنّها تمثّل شيئا غير نفسها، وعُرفت اللغة بأنّها نظام من الرموز الصوتية العرفية»⁽³⁾.

فالرمز بهذا المعنى هو: كلّ ما يشير إلى شيء آخر غير ذاته، وعلى هذا الأساس ميّز "أحمد مختار عمر" بين صنفين من الرموز هما:⁽⁴⁾

*** الرمز اللغوي:** مثل تجربة سائق السيارة والعائق (شخص يقود سيارة)، يجد أمامه لافتة مكتوب عليها: الطريق مغلق، إذا سار السائق ولم يعبأ بالرمز، فإنّه سيضطرّ إلى الاستدارة والعودة حين يصل إلى العائق، ولكن إذا عمل بما جاء في الرمز فيستدير بمجرد رؤيته ويعود، إذا اللافتة استدعت شيئا غير نفسها، وهي بديل استدعى لنفسه نفس الاستجابة التي قد تستدعيها رؤية العائق).

*** الرمز غير اللغوي:** ومثاله سماع الجرس في تجربة (بافلوف)، فالجرس قد استدعى شيئا غير نفسه، بديل أنّ الكلب حين يسمع الجرس لا يتوجّه إليه، ولكن إلى مكان الطعام.

(1)- محمد علي الخولي: علم الدلالة (علم المعنى)، ص14.

(2)- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5، 1998م، ص11.

(3)- المرجع نفسه، ص12.

(4)- نفسه، ص ن.

وهذين النوعان من الرموز أو العلامات من اختصاص علم شامل وأعمّ من علم الدلالة يدعى بالسميولوجيا (Sémiologie/ Sémiology)، حيث يتناول هذا الأخير دراسة الرموز (العلامات) بنوعيتها لغوية وغير لغوية، في حين يتناول علم الدلالة دراسة المعنى الذي تحمله الرموز (العلامات) اللغوية فقط، وبذلك فهو أخصّ من علم العلامات.

المطلب الثاني: مهاد تاريخي حول نشأة علم الدلالة

علم الدلالة وعلم الدلالة والدلالات والدلالية والسمانتيك... الخ، كلّها مصطلحات نجدها في الدرس الدلالي العربي الحديث، وهي جميعا تقابل ما يصطلح عليه في اللغة الفرنسية بـ: *Sémantique*، وهذه الكلمة الاصطلاحية هي من أصل يوناني مؤنث *Sêmantiké* مُدَكَّرُهُ *Semantikos* بمعنى: يدلّ، ومصدره كلمة *sêma* أي: إشارة، وقد نقلت كتب اللغة هذا الاصطلاح إلى الإنجليزية، وحظي بإجماع جعله متداولاً بغير لبس وهو مصطلح: *Semantics*.⁽¹⁾

في أوائل القرن التاسع عشر ظهر عمل لغوي ضخم للعالم السويدي "أدلف نورين" (*Adolf Noreen*) [1854-1925م] بعنوان "لغتنا"، خصّص قسماً كبيراً منه لدراسة المعنى مستخدماً المصطلح *Semiology*، بيد أنّ الدارسين المحدثين يُرجعون نشأة علم الدلالة الحديث إلى أواخر القرن التاسع عشر، وذلك حينما ظهر مصطلح *Sémantique* في مقال كتبه الفرنسي "ميشال بريال" (*Michel Bréal*) عام 1883م، وتبع ذلك كتاب لـ "دارمستتر" (*Darmesteter*)، تطرّق فيه إلى مسائل دلالية متعدّدة وهو كتاب "حياة الألفاظ" (*La vie mots*)، حيث صدر عام 1887م، وفي عام 1897م نشر "بريال" كتاباً له أسّس من خلاله لعلم الدلالة وسمه بـ: (*Essai de sémantique*)، وإليه يعود الفضل في الاهتمام العلمي بالدلالة ضمن إطار اللسانيات، إذ يجمع المؤرخون أنّ فضل "بريال" في مساهمته في ظهور علم الدلالة من خلال تخصيصه لهذا الكتاب، إنّما يرجع أساساً إلى بسط القول في ماهية علم الدلالة، إذ أبدع "بريال" منهجاً جديداً في دراسة المعنى، هو المنهج الذي ينطلق من الكلمات نفسها لمعاينة الدلالات، دون ربط ذلك بالظواهر اللغوية الأخرى.⁽²⁾

(1) - ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م، ص23. وكذا: فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق - دراسة تاريخية تأسيسية نقدية، دار الفكر، دمشق، سورية، ودار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ/ 1996م، ص6.

(2) - ينظر: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص388. وكذا: خليفة بوجادي: المرجع السابق، ص24. وكذا: منقور عبد الجليل: علم الدلالة: أصوله ومباحثه في التراث العربي - دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، دط، 2001م، ص21. وكذا: أحمد مختار عمر: علم الدلالة، ص23.

ويذكر عادة في مثل هذا السياق التاريخي ما تعرّض له الناقدان الإنجليزيان "أوجدن وريتشاردز" في كتابهما "معنى المعنى" (The meaning of meaning) الذي صدر عام 1923م، وما كتبه العالم "مالينوفسكي" في الكتاب نفسه من تعليقات على مباحث دلالية ذات أهمية بالغة.⁽¹⁾

ثمّة جهود كثيرة بُذلت في سبيل تطوير الدرس الدلالي واستقلاله، من ذلك ما كتبه "نيروب" عام 1913م، وما تعرّض له "فرديناند دي سوسير" عام 1916م، وما عمّقه دارسون تالون ك: "فيرث" و"أولمان" و"ليونز" و"المبر" و"غريمان" و"غيرو" وغيرهم حتى أيّامنا هذه.⁽²⁾

لم يكن اللسانيون وحدهم هم الباحثون المهتمّون بالدلالة، فقد شغل موضوع الدلالة أذهان الفلاسفة وعلماء النفس، وطوائف شتى من الباحثين في العلوم الإنسانية عامة قديما وحديثا، ويلاحظ الدارس أنّ الدرس الدلالي يتّصف بالتشعب وتداخل المسائل المتّصلة بالمعنى، إذ تعدّدت مجالات هذا الدرس مع كلّ ميدان يتطرّق للمعنى، كما تداخلت مسأله بين اختصاصات متعدّدة كالمنطق والفلسفة، حتى بات من الصعب أن يحدّد الباحث مصطلح (الدلالة) تحديدا دقيقا، أو يضع حدودا تفصل الدرس الدلالي في هذا المجال عن غيره من المجالات المعرفية، ولذلك نجد اللسانيين المحدثين يلحّون على جعل علم الدلالة خاصا بدراسة معنى الكلمات، أو بالمعنى اللغوي عامة، من دون التطرّق لمسائل منطقية أو نفسية، أو مسائل أخرى تتعلّق بعلم الأجناس أو السيمياء، وغير ذلك من العلوم التي تتناول أجزاء من دراسة المعنى.⁽³⁾

إنّ الاهتمام بالدلالة من أقدم اهتمامات الإنسان الفكرية، فقد اهتمّ الفلاسفة اليونان بعدّة قضايا دلالية، كما اهتمّ العلماء المسلمون في الحضارة العربية بجملة من القضايا الدلالية نظرا وتطبيقا، إضافة إلى اهتمام الهنود وبعض الشعوب القديمة بموضوع الدلالة وما يتفرّع عنه.⁽⁴⁾

المطلب الثالث: موضوع علم الدلالة

تعرفنا فيما سبق بأنّ موضوع علم الدلالة هو دراسة معاني المفردات ودلالة التراكيب على حدّ سواء، لذا فهو يمثّل أكبر مستويات اللغة، لأنّه يدرس المعنى الذي يخلص إليه المستوى الصوتي والصرفي والنحوي، يقول "عبد الكريم محمد حسن جبل" في سياق حديثه عن موضوع هذا العلم: «وأما بحوثه فإنّها تشتمل كلّ ما يتّصل بدراسة

(1) - أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص 338-339.

(2) - المرجع نفسه، ص 339.

(3) - ينظر: نفسه، ص ن.

(4) - نفسه، ص 340.

الدلالة، سواء أكانت هذه الدلالة خاصة باللفظ المفرد، أم كانت خاصة بالجملة العبارة»⁽¹⁾.

بناء على ذلك سنتعرّض في هذا العنصر إلى مفهوم الدلالة وأنواعها، كما ستكون لنا وقفة وجيزة عند أسباب التطوّر الدلالي وأشكاله وكذا أنواعه، فضلا عن إطلاقة سريعة على أهمّ النظريات الدلالية في دراسة المعنى.

1- مفهوم الدلالة:

1-1 لغة: الدلالة في عموم لفظها يحيل معناها المعجمي إلى الإبانة والإيضاح، ورد في تفسير مادة "دَلَّ" في معجم "مقاييس اللغة": «الدال واللام أصلان: أحدهما إبانة الشيء بأمانة تتعلّمها، والآخر اضطراب في الشيء، فالأول قولهم: دَلَّتُ فلانا على الطريق، والدليل: الأمانة في الشيء، وهو بين الدلالة والدلالة، والأصل الآخر قولهم: تَدَلَّدَ الشيء: إذا اضطرب (...). ومن باب دَلَّالُ المرأة، وهو جرأتها في تَغَنِّجٍ وشكْلِ، كأَنَّهَا مخالِفَةٌ وليس بها خلاف، وذلك لا يكون إلا بتمايل واضطراب...»⁽²⁾.

وليس يبعد عن هذا المعنى يذهب صاحب "تاج العروس"، مفسّرا مادة "دَلَّ" قائلا: «... الدليل: ما يُستدلُّ به، وأيضا: الدال، وقيل: هو المرشد، وما به الإرشاد، الجمع: أدلَّةٌ وأدلاءٌ (...). والدلائل: جمع دليّة أو دلالة، ويجمع الدلالة على دلالات...»⁽³⁾.

إذا، الدلالة لغة بمعنى الإجماع والإبانة، كما أنّها تحمل معنى التوجيه والإرشاد، مصداقا لقوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرِيقِ شُجْرِكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْبَرِّ﴾ [سورة الصف، الآية: 10]، بمعنى: أرشدكم وأهديكم وأبين لكم.

1-2: اصطلاحا:

الدلالة بوجه عام كما حدّدها "الكفوي" (ت: 1094هـ) هي: «كون الشيء بحيث يفيد الغير علما إذا لم يكن في الغير مانع، كمزاحمة الوهم والغفلة بسبب الشواغل الجسمانية (...). والدلالة أعمّ من الإرشاد والهداية»⁽⁴⁾.

وهي من منظور "الشريف الجرجاني" (ت: 816هـ): «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء

(1) - عبد الكريم محمد حسن جبل: في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضّليات، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، دط، 1997م، ص20.

(2) - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، ج2، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دب، دط، 1399هـ / 1979م، مادة "دَلَّ".

(3) - محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج28، تح: محمود محمد الطناحي، مراجعة: عبد السلام محمد هارون، دار التراث العربي للنشر، الكويت، دط، 1413هـ / 1993م، مادة "دَلَّ".

(4) - أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: الكلّيات - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، وضع فهرسة: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ / 1998م، ص439.

آخر، والشيء الأول هو الدال، والثاني هو المدلول»⁽¹⁾.

يتّضح من خلال التعريف الثاني أنّ الدلالة هي عبارة عن تلازم كلّ من الدال والمدلول، أو الاسم والمسمّى، حيث تُعَلِّم حالة الشيء (المسمّى أو المدلول) من حالة أخرى هو عليها وهي (الاسم أو الدال). وكلا التعريفين أيضا أشارا إلى ذلك الارتباط العضوي والعلاقة الوثيقة القائمة فيم بين الدال والمدلول؛ إذ أنّ كلّ واحد منهما يستدعي استحضار الآخر بالقوّة في الذهن، وكلاهما عبّرا كذلك عن الدال والمدلول بكلمة "الشيء" وليس "اللفظ"، ممّا جعلنا تعريفهما عاما يشمل ما هو لغوي (الدلالة اللغوية)، وما هو غير لغوي (الدلالة غير اللغوية) من أصناف العلامة، فالدخان مثلا ظاهرة طبيعية تتمثّل دلالته غير اللغوية في استحضاره لوجود النّار التي هو دال عليها، إذا فالدخان دال والنّار مدلوله، كما أنّ الأصوات دالة في انتظامها وفق الأعراف اللغوية، فالأصوات: {ك. ت. ب} إذا ورد ترتيبها على هذا النمط، فإنّها تستحضر في الذهن لا محالة عملية الخطّ بالقلم، فمادة "كُتِبَ" دال، والخطّ بالقلم مدلولها، وما يهتّمنا ههنا هو الدلالة اللغوية، لأنّها من اختصاص علم الدلالة، أمّا الدلالة غير اللغوية فهي من اختصاص السيمياء إلى جانب الدلالة اللغوية كما أسلفنا الذكر.

أمّا الدلالة بوجه خاص؛ أي الدلالة اللفظية الوضعية ففيها يقول "الرجحاني": «الدلالة كون اللفظ بحيث متى أُطلق أو تُخَيَّل فهم منه معناه للعلم بوضعه، وهي المنقسمة إلى المطابقة والتضمين والالتزام، لأنّ اللفظ الدالّ بالوضع يدلّ على تمام ما وُضع له بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمين إن كان له جزء، وعلى ما يلازمه في الذهن بالالتزام، كالإنسان فإنّه يدلّ على تمام الحيوان الناطق بالمطابقة، وعلى جزئه بالتضمين، وعلى قابل العلم بالالتزام»⁽²⁾.

ولا نريد أن نبرح هذا العنصر قبل أن نتميّر بين مصطلحي الدلالة والمعنى، ففي هذا الصدد يقول "خليفة بوجادي": «وقد يكون من المفيد الإشارة إلى تمييز لطيف بين (الدلالة) وبين (المعنى)؛ حيث يستطيع المتأمل الحصيف أن يحدّد (المعنى) في مقصود ثابت ساكن، في حين تكتسب الدلالة التوالد والحركة والنّماء في محور المعاني... وبذلك يكون المعنى (Sens) محطة ثابتة في محور الدلالة (Signification)»⁽³⁾.

بناء على ما ذكر يمكن القول: إنّ المعنى ثابت لا يقبل الحركة والتغيّر، على عكس الدلالة التي تكون عرضة للتحوّل والتطوّر عبر الزمن، حيث يقف وراء هذا التطوّر الدلالي عدّة أسباب وعوامل {الاستعمال (سوء الفهم،

(1)- علي بن محمد الشريف الرجحاني: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، دط، 2004م، ص91.

(2)- المرجع نفسه، ص92.

(3)- خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، ص23.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

بلى الألفاظ، الابتدال)، الحاجة إلى التطوّر وغيرها}، تتمظهر في عدّة أشكال وأنواع منها: تخصيص الدلالة أو تعميمها، رقيّ الدلالة أو انحطاطها... وغيرها.

2- أنواع الدلالة: نَمِيّز في هذا العنصر بين خمسة أنواع للدلالة هي:

1-2: الدلالة الصوتية: وهذا النوع هو الذي يعنينا في هذا البحث، ويقصد به ما تؤدّيه الأصوات المكوّنة للكلمة من دور في إظهار المعنى، وذلك في نطاق تأليف مجموع أصوات الكلمة المفردة سواء أكانت هذه الأصوات صوامت (Consonants)، أو حركات (Vowels)، وتسمّى بالعناصر الصوتية الرئيسية التي يتشكّل منها مجموع أصوات الكلمة التي ترمز إلى معنى معجمي، كما تتحقّق الدلالة الصوتية كذلك من مجموع تأليف كلمات الجملة وطريقة أدائها الصوتي ومظاهر هذا الأداء، وهذا ما يُعرف بالعناصر الصوتية الثانوية التي تصاحب الكلمة المفردة.⁽¹⁾

وعليه فالدلالة الصوتية هي تلك الدلالة المستمدّة من الأصوات، وذلك حال إبدال صوت بصوت آخر سواء أكان هذا الأخير صامت بصامت نحو: {الصالح والطالح}، أم صائت قصير بآخر مثله نحو: {الشعْر والشعْرُ}، أم صائت طويل بصائت طويل أيضا مثل: {بَاعَ وبيِعَ}، أو عن طريق تقديم وتأخير الأصوات داخل بنية الكلمة (القلب المكاني) نحو: {فَقَّرَ ورفُقُ} مثلا، فينجرّ عن كلّ هذه التغيّرات الصوتية تغيّرا على مستوى الدلالة.

بل حتى إذا أضيف إلى الكلمة صوتا آخر نحو: {نَهَرٌ ← نَهَارٌ}، أو أُسْقِطَ منها صوت نحو: {نَهَرٌ ← هِرٌّ}، فإنّ ذلك يؤدّي لا محالة إلى تغيّر في معناها تبعا لهذا التغيّر الصوتي، فكلّ زيادة في المبنى تعني زيادة في المعنى والعكس بالعكس، وهذه الدلالة لا تُسْتَمَدُّ فقط من الفونيمات التركيبية الرئيسية في اللغة والمتمثّلة في الصوامت والصوائت، بل تتعدّها حتى إلى ظواهر صوتية أخرى كالنبر والتنغيم والوقف، والتي تمثّل الفونيمات فوق التركيبية.

2-1-1: أنواع الدلالة الصوتية: يمكن أن نَمِيّز لها بين نوعين:⁽²⁾

2-1-1-1: الدلالة الصوتية المطرّدة: هي ما كانت لها دلالة تخضع لنظام معين أو قواعد مضبوطة، فهي التي تعتمد على تغيير مواقع الفونيمات، أي باستخدام المقابلات الاستبدالية بين الألفاظ حتى يحدث تعديل أو تغيير في معاني الألفاظ، لأنّ كلّ فونيم مقابل استبدالي لآخر، فتغيّره أو استبداله بغيره لا بدّ أن يعقبه اختلاف في المعنى، وقد يكون هذا الاستبدال استبدال حرف بحرف أو حركة بحركة في الكلمة الواحدة.

(1) - بوزيد ساسي هادف: "الدلالة الصوتية عند ابن جني من خلال كتابه الخصائص"، مجلة حوليات التراث- مجلة علمية محكمة سنوية، جامعة مستغانم، الجزائر، ع9، 2009م، ص135.

(2) - المرجع نفسه، ص136.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

2-1-1-2: الدلالة الصوتية غير المطّردة: هي تلك الدلالة التي لا تخضع لنظام معين أو قواعد مضبوطة، ومن صورها: الأصوات الثانوية، أو كما يطلق عليها: الأصوات فوق التركيبية (النبر والتنغيم والوقف)، وغيرها من الملامح الصوتية التي لا تدخل في تأليف البنية الصوتية للكلمة، ولكنها تظهر في الأداء فقط.

2-1-2: الدلالة الصوتية عند "ابن جني":

لقد كان "ابن جني" رائدا في مجال دراسته للدلالة الصوتية، أو كما يصطلح على تسميتها بالدلالة اللفظية، وذلك قبل أن يتوسّع فيها علم اللغة الحديث، حيث نجده قد عقد في كتابه الشهير "الخصائص" عدّة أبواب تناول من خلالها الدلالة الصوتية، وكان يتبع شرحه وتحليله بسلسلة من الأمثلة التوضيحية تماما مثلما فعل في القسم الذي أسماه "باب في الاشتقاق الكبير"، وكذلك القسم الذي عنوانه بـ "باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، وإلى جانب القسم الموسوم بـ "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، وغيرها ممّا جاء متفرقا في أبواب هذا الكتاب؛ إذ نجده في هذه الأبواب وغيرها يولي عناية بالغة بالدلالة الصوتية (اللفظية)، حيث كان يعدّها أقوى الدلالات مقارنة بالدلالة الصرفية أو كما يسمّيها الصناعية والتي تحلّ المرتبة الثانية، والدلالة النحوية أو كما يصطلح عليها بالدلالة المعنوية والتي تأتي في المرتبة الثالثة، وترجع علّة قوّة الدلالة الصوتية على مثيلاتها، إلى أنّ معرفتها متوقّعة على الأصوات المكوّنة للكلمة المفردة.

هذا، ويمكن تقسيم الدلالة الصوتية عند "ابن جني" إلى قسمين أيضا هما:⁽¹⁾

* **الدلالة الصوتية الطبيعية:** وهي ما تؤدّيه الأصوات الصادرة عن مظاهر الطبيعة المختلفة، كذلك أصوات الإنسان والحيوان من أدوار في تحديد المعنى، فهي ذات علاقة بنظرية المحاكاة (تقليد أصوات الطبيعة) في نشأة اللغة أو ما يعرف بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول.

* **الدلالة الصوتية التحليلية:** وهي تلك الدلالة التي تستنبط من:

- دلالة الفونيمات التركيبية: مثل: الحروف (الصوامت)، والحركات (الصوائت).

- دلالة الفونيمات غير التركيبية: مثل: النبر والتنغيم وغيرها من الأداءات الصوتية المختلفة.

2-1-2-1: **الدلالة الصوتية الطبيعية:** إنّ العربي بطبيعته كان يربط بين الصوت والمعنى، فكان يختار لكلّ لفظ حرفا ذات صفة تشاكل معناه، وتناسبه من حيث القوّة والضعف، ونجد في كتاب "الخصائص" عدّة لمحات في هذا الصدد، ومن هذه المواضع قول "ابن جني": «ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى من النضح؛ قال الله سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ [سورة الرحمن، الآية: 66]، فجعلوا الحاء - لرقّتها - للماء

(1) - بوزيد ساسي هادف: "الدلالة الصوتية عند ابن جني من خلال كتابه الخصائص"، ص 137.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

الضعيف، والحاء - لِعَلَّظِهَا - لما هو أقوى منه»⁽¹⁾، فلا يخفى ما في صوت الحاء من بحة تنسجم وشحّ الماء، وما في صوت الحاء من استعلاء يتفق والتعبير عن وفرته.

ويقول في موضع آخر في السياق ذاته: «ومن ذلك القسّم والقصم؛ فالقصم أقوى فعلا من القسّم، لأنّ القصم يكون معه الدقّ، وقد يقسم بين الشيتين فلا يُنكأ أحدهما، فلذلك خصّت بالأقوى الصاد، وبالأضعف السين»⁽²⁾، فالصاد صوت قويّ اجتمعت فيه صفات الشدة كالجهر والاستعلاء والإطباق، على عكس السين المهموسة المستقلة المنفتحة، فالصاد تتناسب لما هو قويّ، والسين تتلاءم مع ما هو أضعف منه.

ما يقال عن هذا المثال ينطبق على لفظتي: "الوسيلة والوصيلة"، وفيهما يقول مثبتا مرّة أخرى علاقة الصوت بالدلالة ومؤكّدا على حتميتها: «ومن ذلك قولهم: الوسيلة والوصيلة، والصاد - كما ترى - أقوى صوتا من السين لما فيها من الاستعلاء، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة، وذلك أنّ التوسّل ليست له عصمة الوصل والصلة؛ بل الصلة أصلها من اتّصال الشيء بالشيء ومماسته له، وكونه في أكثر الأحوال بعضا له، كاتّصال الأعضاء بالإنسان وهي أبعاضه ونحو ذلك، والتوسّل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسّل جزءا أو كجزء من المتوسّل إليه وهذا واضح، فجعلوا الصاد لقوّتها للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف»⁽³⁾.

ونختم سلسلة هذه النماذج بمثال آخر يحدّد من خلاله "ابن جني" نقلا عن "الفراهيدي" العلاقة التي تربط الدال بالمدلول بكونها علاقة طبيعية محاكية لأصوات الطبيعة فيقول: «اعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقّته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحّته، قال الخليل: كأثّم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّا فقالوا صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا صرّصر»⁽⁴⁾.

ف "ابن جني" هنا يقرّ بالمناسبة الطبيعية بين الدال والمدلول؛ أي بين اللفظ ومعناه، كما أنّه يعترف بأنّ الفكرة التي أوردتها حول التقابل بين الألفاظ وما تدلّ عليه من الأحداث، إنّما هي من ابتكار "الخليل" وتلميذه "سيبويه"، هذا وإن كان لكلّ منهما فضل سبق في وضع أسس نظرية العلاقة الطبيعية بين الدوال والمدلولات، فإنّ "ابن جني" قد تسلّم المشعل منهما وأكمل البناء بإحكام.

2-2-1-2: الدلالة الصوتية التحليلية: والمقصود بها تلك الدلالة الصوتية التي تتحقّق جرّاء الإحلال بين الصوامت والصوائت (الحروف والحركات) المختلفة، أو ما يعرف بالفونيمات التركيبية، أو تستنبط من خلال

(1)- ابن جني: الخصائص، ج 1، ص 509.

(2)- المرجع نفسه، ص 511-512.

(3)- نفسه، ص 510.

(4)- نفسه، ص 505.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

مختلف الأداءات الصوتية التي اصطُلح عليها بالفونيمات الثانوية كونها ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة، تمتدّ عبر أطوال متنوّعة في الأداء الصوتي، وتشارك في تنوّع معاني الكلام، مثلما تشارك فيه الأصوات التركيبية، وذلك مثل: النبر والتنغيم والوقف... الخ، هذا وقد تمّ التفصيل في هذا العنصر أثناء الحديث عن الوظيفة التمييزية لوحدة الفونيم، مع تقديم أمثلة توضيحية عن كلّ حالة.⁽¹⁾

2-2: الدلالة الصرفية: هناك نوع آخر من الدلالة يُستمدّ عن طريق الصيغ وبنيتها؛ فالأسماء لها دلالة صرفية عامة على المسمى، ومعنى ذلك أنّ التسمية هي وظيفة الاسم الصرفية، والأسماء تخلو من الدلالة على الزمن، ويدخل ضمن الأسماء: المصدر واسم المصدر واسم الممرّة واسم الهيئة، والدلالة الصرفية للصفات هي الدلالة على موصوف بحدث، ودلالة أسماء الإشارة وضمائر المتكلم والخطاب هي الدلالة على الحضور، وضمائر الغائب والأسماء الموصولة دلالتها الصرفية على الغياب، وتدلّ الظروف دلالة صرفية على الظرفية الزمانية أو المكانية، ويدلّ الفعل بصفة عامة دلالة صرفية على الحدث والزمن، وعند تقسيمه إلى ماض ومضارع وأمر، فإنّ الأفعال جميعها تشترك في الدلالة على الحدث، غير أنّها تختلف في الدلالة من حيث الزمان؛ فالماضي يدلّ على الانقطاع الزمني، والمضارع يدلّ على الحال حقيقة وعلى الاستقبال مجازاً، والأمر يدلّ على الاستقبال.⁽²⁾

2-3: الدلالة النحوية: يُحتم نظام الجملة العربية أو هندستها ترتيباً خاصاً، لو اختلّ لأصبح من العسير أن يفهم المراد منها، إذا فالدلالة النحوية إنّما تكتسبها الجمل عن طريق القواعد التي يقتضيها النظام النحوي للغة، هذا الأخير الذي يفرض ترتيباً معيناً للألفاظ وفق ترتيب المعنى المراد، نظراً لوجود تفاعل بين العناصر النحوية والعناصر الدلالية، فكما يمدّ العنصر النحوي العنصر الدلالي بالمعنى الأساسي في الجملة الذي يساعد على تحديده وتمييزه، يمدّ العنصر الدلالي العنصر النحوي كذلك ببعض الجوانب التي تساعد على تحديده وتمييزه؛ فبين الجانبين أخذ وعطاء وتبادل تأثيري مستمرّ، تصوّر لو أصبحت الجملة التالية: "هل يعقل أن تنضخ العين في وسط الصحراء في ثوان" على هذا النحو: "الصحراء في ثوان هل يعقل أن في وسط العين تنضخ"، ألا يؤثر ذلك على المعنى العام للتركيب اللغوي؟⁽³⁾

من هنا يمكن القول: إنّ المتكلم حينما يتحدّث يقوم بنظم كلامه بطريقة خاصة وعلى منوال معيّن، ترتبط فيه الكلمات بعلاقات نحوية معيّنة، كي يتسنى له التعبير عن غرضه، ويمكن سامعه من فهمه اعتماداً على القرائن

(1) - ينظر: بوزيد ساسي هادف: "الدلالة الصوتية عند ابن جني من خلال كتابه الخصائص"، ص140.

(2) - ينظر: فريد عوض حيدر: علم الدلالة - دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005م، ص35، 41.

(3) - ينظر: إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط3، 1976م، ص46، 48. وكذا: محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، مصر، ط1، 1420هـ/2000م، ص113.

التي تعينه على الإفصاح عن مقصوده، هذه الأخيرة إمّا أن تكون لفظية كالترتيب مثل: "سأل موسى عيسى"، حيث دلّت القرينة على أنّ موسى فاعل وعيسى مفعول به، وإمّا أن تكون معنوية نحو: "أرضعت الصغرى الكبرى"؛ فالكبرى فاعل والصغرى مفعول به، مع أنّها متقدّمة في الترتيب، لأنّه يستحيل أن ترضع الصغرى الكبرى.⁽¹⁾

2-4: الدلالة المعجمية: يُقصد بها ما تعنيه الكلمات والألفاظ في متون المعاجم، وقبل التغلغل أكثر في ثنايا وتفصيل هذا النوع، لا بدّ أولاً من الوقوف على مفهوم المعجم؛ إذ يعرفه "أحمد مختار عمر" بقوله: «كتاب يضمّ بين دفتيه مفردات لغة ما ومعانيها واستعمالاتها في التراكيب المختلفة، وكيفية نطقها وكتابتها، مع ترتيب هذه المفردات بصورة من صور الترتيب والتي غالباً ما تكون الترتيب الهجائي».⁽²⁾

والدلالة المعجمية تمثّل وحدانية المعنى وثبوت العلاقة بين الكلمة (الدال) والمسمى بها (المدلول)، فكلّ لفظ يقابل معنى مركزي، أو مسمى ثابت في المحيط الخارجي، فكلّ كلمة مدلول موجود في حياتنا تشير إليه هذه الكلمة وتعينه، وبها تتمّ عملية التواصل اللغوي بين الناس في حدودها وإمكاناتها وأغراضها الدنيا، وقد قال بهذه الدلالة علماءنا القدامى منذ بداية البحث اللغوي عندهم، وبنوا أغلب معاجمهم في ضوءها، ثمّ صارت هذه الدلالة نظرية من نظريات المعنى عند المحدثين، أطلقوا عليها نظرية مساواة معنى الكلمة بمدلولها **Denotation** **theory of meaning**، فمعنى الكلمة عند أصحاب هذه النظرية هو الشيء الذي تشير إليه في واقع الحال، وكما هو في العالم الخارجي، وبهذا المفهوم نعود إلى النشأة الأولى للغات، حين كانت الكلمة ذات مدلول فعلي واقعي، نراه ونحسّه في حياتنا كدلالة كلمات من نحو: رز، بادية، صحراء، تمر، نخلة، جمل، وغير ذلك من الكلمات ذات العلاقة الثابتة بمدلولاتها.⁽³⁾

صار واضح أنّ لكلّ كلمة من كلمات اللغة دلالة معجمية أو اجتماعية، تستقلّ عمّا يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة، على تلك الدلالة الأساسية التي يُطلق عليها تسمية: الدلالة الاجتماعية، ومع أنّ لكلّ كلمة دلالتها الاجتماعية المستقلّة، نلاحظ أنّه حين تتركّب الجملة من عدّة كلمات تتخذ كلّ كلمة موقفاً معيناً من هذه الجملة، بحيث ترتبط الكلمات بعضها ببعض على حسب قوانين لغوية

(1) - جلول دواحي عبد القادر: البحث اللغوي عند محمد الأمين الشنقيطي - مقارنة سيميائية، إشراف: مطهري صفية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي، تخصّص: لسانيات، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة السانية، وهران، (الجزائر)، 1434هـ / 1435هـ - 2013م / 2014م، ص 92.

(2) - أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط 6، 1988م، ص 162.

(3) - هادي نحر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، تقديم: علي الحمد، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط 1، 1427هـ / 2007م، ص ص 216 - 217.

خاصة بالنظام اللغوي، وفيه تؤدّي كلّ كلمة وظيفة معينة.⁽¹⁾

2-5: الدلالة السياقية: وهي تلك الدلالة التي تُدرك من خلال الإحاطة بمختلف الظروف والملابسات التي تلت بالحدث الكلامي، حيث كان البلاغيون العرب قديماً على وعي تام بأهميّة السياق، ودوره الجوهرية في تحديد المعنى والوصول إلى الدلالة المقصودة من الكلام، الأمر الذي دفعهم إلى القول: إنّ لكلّ مقام مقال، ولكلّ كلمة مع صاحبها مقام، ووقعوا بقولهم هذا على عبارتين تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللغات لا في العربية الفصحى فقط، بل في سائر اللغات البشرية على حدّ سواء، ولم يعلم الغربيون أنّهم مسبوقون إلى هذا المفهوم بألف سنة أو يزيدون، ولكن باستخدام مصطلح مغاير وهو المقام، فنحّاتنا العرب القدامى كان لهم فضل سبق في هذا المجال، ثمّ إنّ العالم "مالينوفسكي" (Malinoufaski) [1918-1976م]، لم يكن يعلم وهو يصوغ مصطلحه الشهير "Context of situation" {سياق الموقف}، أنّه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بعدة قرون؛ إنّ الذين عزّفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح المقام، ولكن كتبهم هذه لم تجد الدعاية على المستوى العالمي، ما وجده اصطلاحه من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كلّ المجالات.⁽²⁾

المطلب الرابع: أوجه تقاطع علم الدلالة مع علم الأصوات

يتواشج علم الدلالة مع علوم كثيرة، ولا يقتصر ذلك على فروع علم اللغة فحسب، بل يشهد العلم تداخلاً مع أغلب العلوم الإنسانية وغيرها من فروع المعرفة الأخرى، فكلّ علم يهتم بدراسة المعنى أو يسعى إلى الكشف عنه، إلّا ونجد لعلم الدلالة ارتباطاً به، ممّا يعني أنّ علم الدلالة موجود في كلّ العلوم التي تشترك في إنتاج المعنى على غرار: الفلسفة، علم المنطق، علم النفس، علم الاجتماع، النقد الأدبي، علم المعاجم، البلاغة، علم النحو، علم الصرف، الصوتيات،... الخ، ولا نسعى ههنا لعقد علاقة له بكلّ العلوم التي يجتمع معها، ولكن سنحاول أن نسلط الضوء فقط على صلته بعلم الأصوات، لأنّه المبحث الذي يعيننا ويهتّمنا في هذا البحث، فالعلاقة بين الدلالة والصوت؛ أي **الدلالة الصوتية** هي العلاقة بين «المدلول والمدلول»، باعتبار الصوت دالاً ينطوي في صورته السمعية الخطيّة على مضمون يعرف بالمدلول.⁽³⁾

إذاً تتّضح علاقة العلم - كما أشرنا سالفاً - من حيث استعانة علم الدلالة بقضايا علم الأصوات، نحو دلالة بعض الكلمات التي يمكن أن تتحدّد من صفات أصواتها، ممّا يجعل تغيير صوت مكان آخر مؤثراً في المعنى،

(1) - إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص48.

(2) - ينظر: تمام حستان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994م، ص372.

(3) - خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، ص89.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

نحو قولنا: "قَضَمَ وَخَضَمَ" في المثال المذكور آنفاً، فالأولى للشديد الصلب (وذلك مرتبط بصفة القاف المجهور الشديد)، والثاني للين الرطب (وذلك مرتبط بصفة الخاء المهموس).⁽¹⁾

كما أنّ ظاهري النبر والتنغيم تحكمان دلالة كثير من الكلمات والعبارات، نحو: كلمة [شهراب]؛ فإن كان النبر على الهمز كان معناها شهر {آب= أوث}، وإن كانت خالية منه كان اسم علم. أمّا التنغيم فهو يحدّد الدلالة أيضاً في كثير من المواضع؛ لاحظ كلمة {جَزَأُوهُ} في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَأُوهُ إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ﴾^(٧٥) قَالُوا جَزَأُوهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَأُوهُ، كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ^(٧٥)؛ فجزأؤه الأولى تتحدّد دلالة جملتها من تنغيمها الذي يكون بنغمة الاستفهام، وجزأؤه الثانية تتحدّد دلالة جملتها من تنغيمها الذي يكون بنغمة التوكيد، وجزأؤه الثالثة تتحدّد دلالة جملتها من تنغيمها الذي يكون بنغمة التقرير؛ فاختلاف تنغيم هذه الكلمة يجعل معناها قريباً من الأذهان، ودلالة الآيات مفهومة.⁽²⁾

(1)- ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، ص ص 89- 90.

(2)- المرجع نفسه، ص 90.

الفصل الثاني: ظاهرة التنغيم في اللغة، وعلاقتها بالإيقاع الصوتي

تمهيد:

من المعلوم أنّ الرسالة اللغوية حتى تكون مفهومة، ويصل معناها المقصود عند الباحث إلى ذهن المتلقّي، أن يضفي المتكلم على كلامه ما يحقّق هذا الغرض من عوامل وآليات، ولعلّ من أبرزها ما يعرف في وقتنا الحاضر بمصطلح التنغيم، فعلى الرغم من كون هذا المفهوم لا يظهر في شكل غرافي، ولا يمكن للصوت المفرد صامتاً أو صائتاً أو مقطعاً أو حتى الكلمة الواحدة أن يمثّله، لكونه لا يظهر إلاّ على مستوى التركيب (الجملة)، غير أنّه ومما لا شكّ فيه أنّ التنغيم يملك من المقدرة ما من شأنه أن يوضّح المعنى، ويعمل على توصيل الأفكار تماماً مثلما أرادها صاحب الكلام، وذلك بواسطة تسييق الكلام حسب الظروف التي تناسبه، والتي بدورها تفرض درجات تنغيمية معيّنة، وليس التنغيم طبعاً محصوراً فقط في درجات الأصوات من علوّ وانخفاض، بل تدخل فيه عدّة عوامل أخرى كما سنرى، منها: الوقف والسكت، وحتى للإيقاع الصوتي وتناوب التونات الموسيقية دورٌ في قيام التنغيم بوظيفته في اللغة.

هذا، وتعود بداية الاعتناء بالتنغيم كمصطلح ومفهوم في الدراسات اللغوية العربية إلى القرن العشرين، أين ازداد الاهتمام به بفضل ما توصّلت إليه نظرية علم اللغة النظامي، الذي وضع قواعدها العالم اللساني الإنجليزي "جون فيرث"، مؤكّداً على أهميّة التطرّيز في نظرية المعنى، ليأتي بعده "ماك هاليداي" متمّماً ما مهّد إليه "فيرث". من هنا صارت للمباحث الصوتية الأولوية القصوى في الدراسة اللغوية، حيث أكّد بدوره "فيرث" على أنّ أيّ وصف للغة أو للمعنى في أيّ لغة، يجب أن يمرّ بداية عبر وصف مكوّناتها الصوتية.⁽¹⁾

المبحث الأول: مفهوم التنغيم

المطلب الأول: الدلالة المعجمية

اتّفق جلّ اللغويين القدماء والمحدثين في تفسير مادة "نَعَم"، فالمتصّحّح في المعاجم اللغوية العربية قديمة كانت أو حديثة يجد أنّ الجذر اللغوي "نَعَم" لا يكاد يخرج عن دائرة المعاني التالية: الصوت الحسن في القراءة، الكلام المصحوب بالألحان والموسيقى، الكلام الخفيّ الضعيف، الامتناع عن الكلام (السكوت)، التقليل من تناول الشيء، وفيما يلي لمحة عن بعض هذه الدلالات في معاجم اللغة:

1- عند علماء اللغة القدامى:

يقول "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (ت: 170هـ أو 175هـ) في تفسير مادة "نَعَم": «النَّعْمَةُ: جَرَسٌ

(1)- ينظر: أحمد أبو اليزيد علي الغريب: "التنغيم في إطار النظام النحوي"، مجلة جامعة أمّ القرى للبحوث المحكّمة، مكّة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ع14، 1996م، ص284.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

الكلام، وحُسْنُ الصَّوْتِ من القراءة ونحوها، وتقول ما نَعَمَ بكلمة⁽¹⁾.

هذا، وقد ورد في معجم "الصّحاح" لـ "الجوهري" (ت: 393هـ) في تفسيره لمادة "نَعَمَ" باب الميم فصل النون أنّ: «النَّعْمُ: الكلام الخفيّ، تقول منه: نَعَمَ يَنْعَمُ وتَنْعَمُ نَعْمًا، وسكت فلان فما نَعَمَ بحرف، وما تَنْعَمَ مثله، وفلان حسن النَّعْمَةِ، إذا كان حَسَنُ الصوت في القراءة»⁽²⁾.

ولا يذهب "ابن منظور" (ت: 711هـ) بعيدا عن هذا المعنى الذي ساقه كل من "الفراهيدي" و"الجوهري"، إذ نجده يقول في "لسان العرب" مفسّرا مادّة "نَعَمَ": «النَّعْمَةُ: حَرْسُ الكلمة وحُسْنُ الصوت في القراءة وغيرها، وهو حَسَنُ النَّعْمَةِ والجمع نَعَمٌ (...) وكذلك نَعَمٌ (...)»، وقد تَنْعَمَ بالغناء ونحوه، وإِنَّه لَيَتَنَّعَمُ بشيء ويتنَسَمُ بشيء وَيُنَسِمُ بشيء أي يتكلّم به، والنَّعَم: الكلام الخفي، والنَّعْمَةُ: الكلام الحسن، وقيل: هو الكلام الخفي (...)، وسكت فلان فما نَعَمَ بحرف وما تَنْعَمَ مثله، وما نَعَمَ بكلمة، ونَعَمَ في الشراب: شرب منه قليلا كَنَعَبَ...»⁽³⁾.

2- عند علماء اللغة المحدثين:

جاء في معجم "الوسيط" في تفسير مادة "نَعَمَ" كما يلي: «نَعَمَ نَعْمًا: تكلم بكلام خفيّ، ويقال سكت فما نَعَمَ بحرف وفي الغناء طَرَبَ فيه وفي الشراب: شرب منه قليلا، نَاعَمَهُ: حادّته نَعْمًا، والنَّعَامُ: الكثير النَّعْمَةِ، والنَّعْمَةُ: حَرْسُ الكلمة، حُسْنُ الصوت في القراءة وغيرها، وصوت موقّع، (ج) أنغامٌ وأنغاميم (...) النَّعْمُ: يقال: رجلٌ نَعْمٌ: حَسَنُ النَّعْمَةِ...»⁽⁴⁾.

ونجد المعنى ذاته في معجم "محيط المحيط" لـ "البستاني" (ت: 1883م)، وفيه يقول: «نَعَمْتُ، أُنَعِّمُ مص: تنعيمٌ، نَعَمَ المُنشد: طَرَبَ في إنشاده، نَعَمَ المُلحِّنُ: وضع لحنا، نَعَمَ الرجل في الغناء ينعم وينعم، ونعم ينعم نَعْمًا: طَرَبَ وسكت فما نَعَمَ بحرف، أي لم ينطق بحرف، ونَعَمَ في الشراب كَنَعَبَ، ونَعَمَ نَفْسًا أي شرب قليلا جدًّا، نَعَمَ المغنيّ: طَرَبَ في الغناء، وناغمه مناغمةً: كلّمه كلاما ضعيفا، وتنعّم الرجل بمعنى نَعَمَ، ويقال سكت فما تَنْعَمَ، والمغنيّ بمعنى نَعَمَ، النَعَم والنَّعْمُ: الكلام الخفيّ والتطريبُ في الغناء ج أنغام، ومنه أنغام الموسيقى، النَّعْمَةُ والنَّعْمَةُ وَاحِدَةُ النَّعْمِ والنَّعْمِ وحسن الصوت في القراءة ج نَعَمَات، والنَّعْمَةُ: الجرعة ج نَعَمٌ...»⁽⁵⁾.

(1)- الفراهيدي: كتاب العين، مادة "نَعَمَ".

(2)- الجوهري: الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج5، مادة "نَعَمَ".

(3)- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري الإفريقي المصري: لسان العرب، ج7، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ / 2005م، مادة "نَعَمَ".

(4)- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1426هـ / 2005م، مادة "نَعَمَ".

(5)- بطرس البستاني: محيط المحيط، ج9، تح: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م، مادة "نَعَمَ".

إدّا، فالتنغيم لغة مصدر مشتق من الجدر اللغوي "نَعَم"، وهو مصطلح يطلق على النطق والأداء عموماً، إذ يقصد به الكلام أو القراءة مع تحسين الصوت وإظهاره ملحناً، كما يعني في مواضع: الامتناع عن الكلام مطلقاً، أو الكلام بصوت خفي خافت لا يكاد يُسَمَع.

المطلب الثاني: الدلالة الاصطلاحية

حظي هذا المصطلح بعدة تعريفات، ليس لأنه غير واضح الحدود والمعالم، كما أنّ ذلك لا يرجع إلى اختلاف العلماء والباحثين الذين عكفوا في دراسته على تحديد مفهوم واحد له، وإتّما مردّد ذلك هو تعدّد وجهات النظر واختلاف الرؤى والتصوّرات حوله، إذ نجد من الباحثين من عرّفه انطلاقاً من آليات إنتاجه وتشكّله، وهناك فريق آخر أخذ على عاتقه السياق والمقام أساساً يُحدّد من خلالهما طبيعة واتّجاه الأداء الصوتي، في المقابل اهتم طرف ثالث بتعريف التنغيم من خلال إبراز دوره الوظيفي داخل نظام اللغة، والذي له علاقة جدّ وطيدة بتحديد معاني الجمل وتوجيه أغراضها.

وفي محاولة منّا لتعريف التنغيم نقول: هو العنصر الموسيقي في السلسلة الكلامية، الناتج أساساً عن ارتفاع أو انخفاض في درجة الصوت. لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو: هل مثل هذا المفهوم كافٍ للتعبير عن هذا الشكل أو النمط الأدائي، وهل أنّ كلّ ارتفاع أو انخفاض على مستوى الصوت يدعى تنغيماً؟ هذا ما سنستشقه من خلال المواقف المختلفة التي سنعرضها بحول الله تعالى.

1- عند علماء الغرب والمستشرقين:

1-1: التنغيم باللغة الأجنبية:

لقد استقطب مصطلح "Intonation" بالفرنسية أو الإنجليزية كثيراً من الباحثين، حيث أثار تفكيرهم ودفعهم إلى الخوض في دراسته والبحث عن كنهه، وسنورد هنا بعض التعريفات الغربية التي أُعطيت للمصطلح كما يلي:

• **Ben crane, edward yeager and randal whitman:** «Intonation is described as a rising or falling pitch over a group of words.»⁽¹⁾

نظر صاحبها هذا التعريف إلى التنغيم من زاوية صوتية محضّة، حيث يريان أنّه يوصف بكونه مجرد صعود وهبوط في درجة مستوى الصوت لمجموعة من الكلمات.

• **Peter roach:** «What is intonation ? No definition is completely satisfactory, but any attempt at a definition must recognise that the

(1)- Crane,B., Yeager,E., & Whitman, R. (1981). An Introduction to Linguistics Canada : Little, Brown and Company. P: 69.

pitch of of the voice plays the most important part. Only in very unusual situations do we speak with fixed, unvarying pitch, and when we speak normally, the pitch of our voice is constantly changing.»⁽¹⁾

لقد اتخذ صاحب هذا التعريف المقام أساسا ينطلق منه في تحديده لمفهوم التنغيم، فنظرته إليه كانت سياقية صرفة، حيث استهلّ تعريفه هذا بسؤال: ما هو التنغيم الصوتي؟ وأتبعه بالإقرار بأنه لا يوجد تعريف مرضٍ تماما للمصطلح، إذ أشار في تعريفه إلى أنّ درجة الصوت تتغيّر باستمرار، ثمّ إنّ المتحكّم في هذا التغيّر إنّما هو الموقف والمقام الذي يقال فيه الكلام، والذي على أساسه يتّضح منحى الصوت واتّجاهه.

• **Carlos gussenhoven**: «Intonation is treated as the use of phonological tone for non-lexical purposes, or-to put it positively- for the expression of phrasal structure and discourse meaning.»⁽²⁾

يرى صاحب هذا التعريف أنّ التنغيم ظاهرة صوتية دلالية، لها دور أساسي في تحديد معاني التراكيب اللغوية، فتعريفه هذا تعريف وظيفي بحت، إذ أنّ التنغيم هو استخدام النغمة الصوتية لأغراض غير المعجمية، أو عبارة أخرى للتعبير عن بنية الجمل اللغوية ومعنى الخطاب.

2-1: التنغيم باللغة العربية:

يعرّف البريطاني "دانيال جونز" (Daniel Jones) التنغيم اعتمادا على آلية حدوثه فيقول: «التنغيم ربّما يُعرف بأنّه التغيّرات التي تحدث في درجة نغمة الصوت في الكلام والحديث المتواصل، هذا الاختلاف في النغمة يحدث نتيجة لتذبذب الأوتار الصوتية.»⁽³⁾

يُفهم أنّ التنغيم عند "جونز" مرتبط بالتباين في طبيعة الصوت بين صعود وهبوط واستواء، حيث أرجع "جونز" هذا التغيّر الصوتي إلى التذبذب الذي يحدث للأوتار الصوتية، ولكن حسب رأينا أنّ اهتزاز الوترين الصوتيين لا يمكن أن نعدّه سببا كافيا للحكم على أنّ الكلام فيه تنغيم؛ فهاهي الأصوات المجهورة مثلا يتمّ

(1)- Roach, P. (1991). English phonetics and phonology. Cambridge: Cambridge University Press. P: 133.

(2)- Gussenhoven, C. (2004). The Phonology of tone and intonation. Cambridge: Cambridge University Press. P: 12.

(3)- نقلا عن: مزاحم مطر حسن: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية- مجلة علمية محكمة فصلية (تصدر كلّ ثلاثة أشهر)، كليّة التربية، جامعة القادسية، العراق، العددان (3-4)، مج6، 2007م، ص 39-

تشكّلها عن طريق تذبذب الوترين الصوتيين نتيجة تقاربهما، وبسبب تباعدهما تحدث أصوات الهمس وغيرها من الحالات المماثلة، وبناء على هذا تصبح علاقة التنغيم بتذبذب الوترين الصوتيين على حدّ تعبير "دانيال جونز" علاقة ينقصها شيء من الدقّة العلمية، بل هي بحاجة أكثر إلى دراسات تجريبية من أجل إثباتها مخبرياً.

إلى جانب "جونز" يعرف المستشرق "ماريوباي" (Mario Pei) التنغيم قائلاً: «هو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين»⁽¹⁾، وليس ببعيد عن هذا المعنى يذهب العالم اللغوي السويدي "برتيل مالبرج" (Bertil Malmberg) إذ يعرف التنغيم بقوله: «هو عبارة عن جملة من العادات الأدائية المناسبة للمواقف المختلفة من تعجّب واستفهام وسخرية وتأكيد وتحذير، وغير ذلك من المواقف الانفعالية، وأنت تستطيع أن تنطق كلمة واحدة بأشكال مختلفة من التنغيم أو النبر الموسيقي، فتفيد في كلّ شكل معنى انفعالياً متميّزاً، كما نلاحظ ذلك في استعمالنا للتعبير (يا سلام) للإعجاب وللتهويل وللنداء وللسخرية».⁽²⁾

يتّضح جلياً من خلال هذين التعريفين أنّ التنغيم ظاهرة سياقية بالدرجة الأولى، فالمقام أو الظروف المحيطة بالكلام هي التي تتحكّم في درجة الصوت أثناء الأداء، فمما لا شكّ فيه أنّ طبقات الصوت يتفاوت بعضها عن بعض، وما يتناسب منها في موقف لا يناسب موقفاً آخر، كلّ ذلك مرتبط بالسياق والقالب الذي وُضع فيه الكلام.

2- عند العرب:

لقد أدلى العرب بدلوهم في مسألة التنغيم "Intonation"، وبما أنّ المصطلح قد نُقل من لغة أخرى، فإنّ الاختلاف في ترجمته أمر طبيعي ومتوقّع جدّاً، حيث عرفت الثقافة العربية جملة من المقابلات لهذا المصطلح، كلّها ترجمات تصبّ في القالب المفهومي ذاته، ومن خلال تصفّحنا لكتب اللغة وجدنا مصطلح: النبر الموسيقي والذي فضّل "عبد الصبور شاهين" وأمثاله استخدامه بدلاً عن مصطلح التنغيم، إلى جانب مصطلح "النغمة الصوتية" الذي وظّفه "فاضل السمرائي"، وكذا مصطلح "التلوين الصوتي" الذي آثر "غانم قدوري الحمد" استعماله في سلسلة مؤلفاته التي خصّصها لدراسة اللغة وما يتعلّق بها من قضايا، بيد أنّ أشهر المصطلحات العربية التي قوبلت بالمصطلح الغربي "Intonation" تلك الترجمة التي استخدمها "إبراهيم أنيس" في كتابه "الأصوات اللغوية" وهي: "موسيقى الكلام"، هذا الأخير الذي يرجع إليه الفضل في هذا المجال، إذ يعدّ "إبراهيم أنيس" أوّل باحث عربي أدخل هذا المفهوم إلى الدرس اللغوي العربي الحديث، وفي هذا السياق نجده يقول: «برهنت التجارب الحديثة على أنّ الإنسان حين ينطق بلغته، لا يتّبع درجة صوتية واحدة في النطق بجميع

(1) - ماريوباي: أسس علم اللغة، ص 93.

(2) - برتيل مالبرج: علم الأصوات، ص 209.

الأصوات، فالأصوات التي يتكوّن منها المقطع الواحد تختلف في درجة الصوت، وكذلك الكلمات تختلف فيها، ومن اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصوت أهميّة كبرى، إذ تختلف فيها معاني الكلمات تبعاً لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها، ومن أشهر اللغات اللغة الصينية، إذ قد تُؤدّي فيها الكلمة الواحدة عدّة معانٍ، ويتوقّف كلّ معنى من هذه المعاني على درجة الصوت حين النطق بالكلمة، ويمكن أن نسمّي درجة الصوت بالنعمة الموسيقية، ففي اللغة الصينية كلمة [فان] تُؤدّي ستّة معانٍ لا علاقة بينها هي: [نوم، يحرق، شجاع، واجب، يقسم، مسحوق]، وليس هناك من فرق سوى النعمة الموسيقية في كلّ حالة⁽¹⁾.

ف "إبراهيم أنيس" في هذا القول يشير إلى أنّ التنغيم ظاهرة صوتية، لأنّ أداء الكلام يفرض على المتكلّم اتجاهات متباينة لدرجات الصوت، تتراوح بين الصعود والهبوط والاعتدال؛ إذ أنّ «أداء الجمل يتطلّب تناوب فترات من الشدّة والارتخاء لأعضاء النطق، ممّا يؤدّي إلى تغيّر في المنحنى النغمي Courbe mélodique»⁽²⁾، فلا يمكننا أن نتصوّر كلاماً يسير وفق وتيرة صوتية واحدة من بدايته إلى نهايته، وهذا الكلام يقودنا إلى نقطة أخرى مفادها: أنّ التنغيم أيضاً ظاهرة سياقية؛ إذ أنّ الأداء منوط بالمقام الذي سيقال فيه، وعلى أساسه سيتحدّد معناه وغرضه، وهذا ما نستشفّه من خلال قول "إبراهيم أنيس" السالف الذكر.

وكما كثرت المصطلحات العربية التي قوبلت المصطلح الأجنبي "Intonation"، كذلك تعدّدت تعريفاته في الفكر اللغوي العربي قديماً وحديثاً، وهذا التعدّد كما أشرنا مرّده ليس لغموض المفهوم أو للبس، بقدر ما يرجع ذلك إلى تباين زوايا النظر إليه، فمنهم من حدّده من وجهة نظر صوتية، وآخرون اتّخذوا المقام أساساً لوضع مفهوم له، في حين فضّل بعضهم تحديده بالنظر إلى الدور الوظيفي الذي يؤدّيه داخل السياق، وفيما يلي لمحة عامة حول هذه الرؤى والتصوّرات:

2-1: من الناحية الصوتية الأدائية (النظرة الفسيولوجية):

من علماء العرب القدامى الذين عكفوا على دراسة التنغيم وإبراز حدوده: "الفارابي" (ت: 339هـ)، إذ نجده يقول أثناء تعريفه للتنغيم موظّفاً مصطلح النغم إحالة عليه: «وأعني بالنغم الأصوات المختلفة في الحدّة والنقل، التي تُنخّل كأثما ممتدّة»⁽³⁾.

استخدم "الفارابي" في هذا التعريف آليتين من آليات حدوث التنغيم ألا وهما الصعود والهبوط، حيث أشار

(1) - إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة نضرة مصر، مصر، دط، دس، ص 103.

(2) - مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، دب، دط، دس، ص 37.

(3) - أبو نصر محمد بن محمد بن طرحة الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير، تح: غطّاس عبد الملك خشية، مراجعة وتصوير: محمود أحمد الحفني، دار

الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دس، ص 86.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

إليهما بمصطلح "الحدّة" (*) والتي هي الارتفاع في درجة الصوت، ومصطلح "الثقل" (***) وهو الانخفاض في درجة الصوت.

أمّا علماء العرب المحدثين الذين عرّفوا التنغيم بالنظر إلى كيفية تشكّله فسيولوجيا فنجد منهم "محمود السعران"، الذي يقول في تحديد مفهومه: «إنّ التنغيم هو المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع (= الصعود) والانخفاض (= الهبوط) في "درجة" "الجهر" في الكلام، وهذا التغيّر في "الدرجة" يرجع إلى التغيّر في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين، هذه الذبذبة التي تحدث "نعمة" موسيقية، ولذلك فالتنغيم يدلّ على العنصر الموسيقي في الكلام، يدلّ على "الحن" الكلام». (1)

لا يذهب "البركاوي" بعيدا عن هذا المعنى، إذ نجده يقول في السياق ذاته: «المراد بالتنغيم: تنويع أداء النغمات من حيث الحدّة والغلظ، والحدّة والغلظ يتوقّفان على عدد الذبذبات الصوتية، إذ كلّما كان عدد الذبذبات كبيرا كانت النغمة حادّة، وكلّما قلّ وُصِفَت النغمة بأثما غليظة». (2)

ويهتدي الباحث "عطية سليمان أحمد" إلى المذهب نفسه، حيث يصرّح قائلا: «التنغيم هو درجة الصوت التي تصدر عن المتكلم، وتتحكّم فيها آلة داخله هي الأوتار الصوتية (شدة أو ضعفا)، فتجعل الصوت شديدا أو ضعيفا حسب كميّة الهواء الخارج عن تلك الأوتار، وشدّته أو ضعفه عند احتكاكه بها». (3)

من التعريفات الأخرى التي تصبّ في الإطار ذاته قول "بسام بركة" في سياق حديثه عن التنغيم والنغم: «كلمتان مترادفتان عند علماء الأصوات، وهما تُطلقان على منحني الجملة اللحني، أي على تغيّر ارتفاع الصوت في السلسلة الكلامية». (4)، وكذا قول "النوري": «التنغيم: هو نمط اللحن melodic pattern الذي ينشأ عن اختلاف درجة الصوت في أثناء الكلام». (5)

تتشترك جميع التعريفات التي أتينا على ذكرها في فكرة مفادها: أنّ التنغيم منوط بالاهتزازات والذبذبات التي تُحدثها الأوتار الصوتية، إذ كلّما زادت عدد الاهتزازات واشتدّت سرعتها، كان عدد التغيّرات في التنغيمات أوضح

(*) - الحدّة في الصوت هي تمديده العالي حتّى يحسّ كأنّه حادًّا رفيعا. ينظر: الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير، ص 170.

(**) - الثقل: هو انخفاض الصوت وهبوطه عمّا عليه الحال في التحديدات المتوسطة بين الحدّة والثقل. ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

(1) - محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 192.

(2) - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: مقدمة في علم أصوات العربية، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط 3، 1424هـ / 2004م، ص 197.

(3) - عطية سليمان أحمد: في علم الأصوات - الفونيمات فوق التركيبية في القرآن الكريم (المقطع - النبر - التنغيم) سورة الواقعة أمودجا، الأكاديمية الحديثة للكتاب للكتاب الجامعي، مصر، دط، دس، ص 291.

(4) - بسام بركة: علم الأصوات العام - أصوات اللغة العربية، ص 100.

(5) - محمد جواد النوري: علم الأصوات العربية، ص 273.

وأبين، غير أنّ التنغيم مفهوم عام، فهو أوسع من أن يُحصَر في حدود صعود النغمة أو هبوطها، بل إنّه يشمل كلّ ما يحيط بالنطق من طرق الأداء الكلامي على غرار: المقطع الصوتي، النبر، درجات النغمات، علو الصوت وطوله، الوقف والسكت، الإيقاع وهلمّ جرا. يقول "سمير العزّاوي" مثمّنا هذه الفكرة: «والضغط على مقطع من مقاطع الكلمة أو النبر، هو الذي يشكّل التنغيم، ولذلك فمن باب المجاز أن نُطلق مصطلحا على كلّ ظاهرة صوتية يتشكّل من مجموعها ما يسمّى بـ: (موسيقى الكلام) كالسكتة والوقفة وغيرها».⁽¹⁾

فكلّ المكوّنات المذكورة تمثّل عاملا من عوامل التنغيم، بل لها جميعا دور في تحديد وظيفته داخل الكلام، حيث تتضافر معا لتكسب الكلام تلوينا موسيقيا يتناسب مع معناه ومبناه، ويكون حسب مقاصده التعبيرية، ووفقا لسياق الحال أو المقام، لأجل ذلك كان التنغيم مورفيما صفريا، لاقتصاره على التراكيب الشفوية المسموعة المنطوقة، دون المكتوبة الخطيّة المرسومة، فهو عنصر مهمّ من عناصر الأداء، وعدم إتقانه يؤدّي لا محالة إلى عدم وضوح المعنى، وقد يحدث أن يتكلّم معك من لا يتقن اللغة ولا يجيد أداءها، فلا تفهم ما يريد قوله، والسبب في ذلك راجع أساسا إلى النطق غير السليم بما هو متعارف عليه من التنغيم «فالحون التي نسمعها من القراء الجوّدين لقراءات القرآن الكريم هي التنغيم، فإشباع الفتحة مثلا في مثل قوله تعالى: ﴿...وَتَطْمَئِنُّنَّ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 10] نوع من التنغيم فيه تأكيد على تأصيل الكفر، بل إنّ هاء السكت التي تلحق الكلمات المنتهية بياء المتكلم: "كتابه، حسابيه، سلطانيه" هي نوع من التنغيم، الذي يشير إلى استراحة النفس، وذلك بالوقف على هاء السكت».⁽²⁾

2-2: من الناحية السياقية والوظيفية:

مادام أنّ المقام هو الذي يتحكّم في وتيرة الأداء، فيفرض درجة صوتية بعينها في مقطع، وأخرى في مقطع آخر من سلسلة الكلام، فهو من جهة أخرى مرتبط بمعاني معيّنة، تفرضها الظروف والملابسات المحيطة بالكلام، فهذا السياق هو الذي يحدّد تلك التنويعات الصوتية والتلوينات الموسيقية، التي تتدخل بطريقة أو بأخرى في تحديد دلالات الكلام وتوجيه أغراضه البلاغية، لهذا السبب ارتأيت ههنا الجمع بين نظرة الباحثين الذين يعدّون التنغيم ظاهرة سياقية قبل كلّ شيء، وبين نظرة أولئك الباحثين الذين حدّدوا مفهوم التنغيم استنادا للدور الوظيفي الذي يؤدّيه ضمن السياق المُصاغ فيه.

(1) - سميّر العزّاوي: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، ص 148.

(2) - زهر الدين رحمان: "دلالة التنغيم في القرآن الكريم (سورة الزمر نموذجاً)"، مجلة الممارسات اللغوية - مجلة دولية علمية محكمة فصلية تصدر عن مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)، ع 20، ديسمبر 2013م، ص 9.

2-1: التنغيم مرتبط بالعوامل المحيطة به (النظرة السياقية):

إنّ التنغيم في الكلام ضروري لا اختياري، فهو أداء صوتي يحتكم إلى السياق الذي يحيط بالحدث الكلامي، والذي على أساسه يتحدّد المعنى وتنكشف الدلالة، فمن غير المعقول أن نتكلّم بوتيرة صوتية واحدة في أحوال نفسية متباينة، ومواقف اجتماعية مختلفة، بل إنّ التنغيم ضرورة لا بدّ منها حتى تستقيم اللغة، ويكون النطق سليماً لا عيب فيه، من أجل ذلك اهتمّ العلماء بهذا الشقّ من الدرس (فنّ الأداء)، وألّفوا فيه كثيراً من المصنّفات، تماماً مثلما فعل "كمال بشر"، إذ وضع كتاباً تحت عنوان "فنّ القول"، حيث عدّ تنغيم الجملة أحد أهمّ شروط الأداء السليم، ومثله فعل كل من "خالد توكال مرسي" في كتابه "فنّ الإلقاء والتحرير الكتابي"، وكذا "تحسين فاضل عباس" الذي وضع كتاباً وسمه بـ: "البحث الصوتي وجمال الأداء"، و"نجاة علي" في مؤلّفها "فنّ الإلقاء بين النظرية والتطبيق"، و"يوسف أبو العدوس" في مصنّفه "المهارات اللغوية وفنّ الإلقاء"، وغيرهم من الباحثين الذين أدركوا أهميّة الأداء، وجماليته في تحديد دلالة التراكيب ومقاصد الكلام.

بناءً على ما قيل فإنّ كلّ سياق يفرض نغمات معينة تتناسب معه، وما يقال عن اللغة العربية ينطبق كذلك على القرآن الكريم، يقول "غانم قدوري الحمد" موضّحاً هذه الفكرة: «ينبغي أن يُقرأ القرآن على سبع نغمات: فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فبالتعظيم والتوقير، وما جاء من المفتريات عليه فبالإخفاء والترقيق، وما جاء على ردها فبالإعلان والتفخيم، وما جاء في ذكر الجنة فبالشوق والطرب، وما جاء من ذكر النار والعذاب فبالخوف والرهبة، وما جاء في ذكر الأوامر فبالطاعة والرغبة، وما جاء من ذكر المناهي فبالإبانة والرهبة»⁽¹⁾، والمقصود بلفظ "النغم" هنا؛ إنّما هو التنغيم.

ومن تعريفات علماء اللغة العرب التي اتخذت السياق مبداءً لتحديد مفهوم التنغيم: "تمام حسّان"، يقول هذا الأخير بأنّ التنغيم هو: «الإطار الصوتي الذي تُقال به الجملة في السياق»⁽²⁾، ويقول في موضع آخر: «إذا سمع أحدنا شخصاً غيره يتكلّم، فسوف يلاحظ أنّ الكلام لا يجري على طبيعة صوتية واحدة، بل يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام أكثر ممّا يرتفع عند غيره، وذلك ما يعرف باسم التنغيم، وبه يرتبط معنى الجملة إثباتاً أو تأكيداً أو استفهاماً أو إنكاراً أو غير ذلك...»⁽³⁾، وفي سياق ذي صلة يضيف "كمال بشر" موضّحاً هذا المفهوم ومؤكّداً له قائلاً: «التنغيم هو الخاصية الصوتية التي تلفّ المنطوق كلّها، وتتخلّل عناصره المكوّنة له، وتكسبه

(1)- غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص480.

(2)- تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص226.

(3)- تمام حسّان: البيان في روائع القرآن - دراسة لغوية وأسلوبية للتصّ القرآني، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ/1993م، ص262.

تلوينا موسيقيا معينا حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التعبيرية، وفقا لسياق الحال أو المقام»⁽¹⁾.

يُفهم من خلال ما سبق أنّ التنغيم إنّما هو ظاهرة صوتية وسياقية في الوقت عينه، والسياق هو الذي يحدّد المسار الصوتي للأداء الكلامي، إذًا فالتنغيم يعني ذلك التنوع الصوتي المصاحب لأداء الكلام حسب المقام المناسب للمقال، لذلك يختلف الأمر عن النهي مثلا، والاستفهام عن التعجب، والتوبيخ عن الوعد، والوعيد وهكذا دواليك، وما يعزّز كلامنا هذا ويقوّيه أكثر قول "حسن جبل" في معرض حديثه عن التنغيم، مشيرا بأنّ التنغيم إنّما «يُقصد به التنوع في أداء الكلام بحسب المقام المُقُول فيه، فكما أنّ لكلّ مقام مقالا، فكذلك لكلّ مقال طريقة في أدائه تناسب المقام الذي اقتضاه، فالتهنئة غير الرثاء، والأمر والنهي سطوة وردعا غيرهما شفقة، وهما غير التأنيب والتوبيخ، والتساؤل والاستفهام غير النفي وهكذا»⁽²⁾.

ويشاطره الرأي الباحث "خليل إبراهيم العطية"، إذ يقول: «أما التنغيم Intonation فهو تغيّرات تتاب صوت المتكلّم من صعود إلى هبوط، ومن هبوط إلى صعود، لبيان مشاعر الفرح والغضب والنفي والإثبات والتهكّم والاستهزاء والاستغراب...»⁽³⁾.

إلى المذهب نفسه يتّجه أيضا "رفعت كاظم السوداني" معرّفاً التنغيم بأنّه: «تمكّن الصوت بكلمة مع رقة أو تفخيم لإرادة معنى التعظيم أو الاستخفاف، أو التعجب أو الاستفهام، مع قرينة صوتية أو تعبيرية من خلال تغيّير تعابير الوجه»⁽⁴⁾.

اتفقت جلّ التعريفات السابقة إن لم نقل كلّها في كون التنغيم ظاهرة سياقية مقامية بالدرجة الأولى؛ فالملايسات والظروف التي تلفّ الكلام المنطوق هي العامل الذي يحدّد درجة النغمة في مقطع صوتي، فالتنغيم بهذا المفهوم لا ينحصر كما أشرنا في طبقة الصوت ودرجته إن كانت عالية أو منخفضة، بل تتدخّل حتّى سلوكيات الفرد المتكلّم وتقاسيم وجهه، والإيقاع المصاحب للعملية النطقية في تحديد نوع التنغيم، وتبيان درجات نغماته المشكّلة له، وكلّ ذلك يندرج ضمن الظروف المحيطة بعملية التواصل اللغوي والبيئة، وكذا الملايسات الاجتماعية والإطار النفسي الذي يحكم سياق الكلام.

2-2-2: من الناحية الوظيفية الدلالية (النظرة الفونولوجية):

مثلما كان للسياق دور فاعل في تحديد الدرجات التنغيمية للسلسلة الكلامية، فهو أيضا من جهة أخرى

(1)- كمال بشر: علم الأصوات، ص531.

(2)- محمد حسن حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية- دراسة نظرية وتطبيقية، ص177.

(3)- خليل إبراهيم العطية: في البحث الصوتي عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية، دط، 1983م، ص63.

(4)- رفعت كاظم السوداني: المنهج التوليدي التحويلي (دراسة وصفية وتاريخية- منحنى تطبيقي في تركيب الجملة في السبع الطوال الجاهليات)، دار

دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 2009م، ص140.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

يتدخّل في تشكيل معناها وتوجيه أغراضها البلاغية، فلا نكاد نعثر على مفهوم للتنغيم في هذا الاتجاه لا يعترف بدور المقام في إبراز الوظيفة الدلالية للتنغيم، فهاهو "عبد التّوّاب الفيومي" يعبّر عن ذلك صراحة قائلاً: «وأما التنغيم (النبر الموسيقي) فهو نمط صوتي لأداء الجمل والعبارات مُعبّر ومرتبّط بالمقام؛ فالجملة الخبرية لفظاً ومعنى لها أدائها وقالبها الصوتي، والخبرية لفظاً الإنشائية معنى (الخبر الاستفهامي بالاستفهام الضمني) لها أدائها، والإنشائية لفظاً الخبرية معنى (الاستفهام الخبري) لها أدائها وأسلوب ونمط تأديتها، ومقام التعجّب والاستنكار يخالف مقام الإعجاب والإشادة والإكبار».⁽¹⁾

ومن الباحثين العرب أيضاً الذين يرون أنّ السياق من المحدّدات التي تبرز البعد الوظيفي للتنغيم "تمام حسّان"، إذ نجده يعرّف التنغيم بكونه: «ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام، وربما كان له وظيفة نحوية هي تحديد الإثبات والنفي، في جملة لم تستعمل فيها أداة الاستفهام...».⁽²⁾ فالجملة قد تكون خبرية تقريرية، ولكن عن طريق التنغيم يتحوّل معناها إلى الاستفهام مثلاً وإن كان التركيب خالياً من أداة الاستفهام، وقد يحدث أن يصير عكس ذلك، كلّ هذا منوط بالسياق وما يصاحبه من درجات صوتية مختلفة، ولعلّ ذلك ما دفع "رمضان عبد التّوّاب" إلى تعريف التنغيم بقوله: «أما التنغيم فهو رفع الصوت وخفضه في أثناء الكلام، للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة».⁽³⁾

فالتركيب الواحد قد يحمل عدّة معانٍ، تبعاً لطرق أدائه وإن لم يختلف رسماً، كلّ ذلك مرتبط بالمقام الذي وُضع فيه، وما يفرضه هذا المقام من تلوّنات موسيقية متباينة.

بدوره "حازم علي كمال الدّين" يؤكّد على وظيفة النبر الموسيقي قائلاً: «التنغيم يؤدّي وظيفة دلالية كالمورفيمات تماماً، مثل علامة جمع المذكر السالم، والمثنى، وعلامة جمع المؤنث السالم».⁽⁴⁾

في الإطار ذاته يشير "بن زروق نصر الدّين" إلى هذا المعنى قائلاً: «وعلى الرغم من أنّ هذه الظاهرة لا وجود لها على المستوى الخطّي أو الكتابي، إلّا أنّها تعدّ إحدى العوامل التي تؤدّي إلى تغيير المعاني سواء أكان ذلك على مستوى الألفاظ أم الجمل والتراكيب».⁽⁵⁾

(1) - أحمد عبد التّوّاب الفيومي: علم الأصوات اللغوية (ظواهر علم الأصوات في القرآن الكريم)، المكتبة الأزهرية للتراث والجزيرة للنشر والتوزيع، مصر، دط، 2009م، ص84.

(2) - تمام حسّان: مناهج البحث في اللغة، ص164.

(3) - رمضان عبد التّوّاب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1417هـ/ 1997م، ص106.

(4) - حازم علي كمال الدّين: دراسة في علم الأصوات، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1420هـ/ 1999م، ص103.

(5) - بن زروق نصر الدّين: دروس ومحاضرات في اللسانيات العامة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص52.

يتّضح ممّا سبق أنّ التنغيم ظاهرة دلالية تُؤدّي وظيفة في اللغة، وهذا ما يشكّل نقطة فصل بينها وبين غيرها من الظواهر التطريزية الأخرى، لارتباط التنغيم أساساً بأداء معنى محدّد، يقول "أحمد البايبي" في هذا الصدد: «إنّ للتنغيم بالكاد عدداً من المميّزات التي تميّزه عن الملامح التطريزية الأخرى، ففي المقام الأوّل إنّ التنغيم له معنى، وأمّا الملامح الأخرى التطريزية وغير التطريزية ليس لها في ذاتها معنى، ولكنّها تفيد فقط في التمييز بين المفردات اللسانية المختلفة على مستوى المعنى، إذن قد يكون للملامح من قبيل النبر والنغم تنوّع في الوظائف الصوتية، لكنّها في واقع الأمر تتقاسم مع الملامح القطعية أمّا لا تحمل معنى بصورة ملازمة، إنّ التنغيم يحمل من خلال نطاقاته معانٍ...»⁽¹⁾.

يُفهم من خلال كلام "البايبي" أنّ التنغيم ليس مجرد تلك التغيّرات والتلوّنات الصوتية المصاحبة للكلام المنطوق فقط، لأنّ ذلك هو حال الظواهر التطريزية، ولكنّ التنغيم هو تلك التنوّعات الصوتية والموسيقية التي يترتّب عنها توليد معنى للكلام الذي قيل في مقام معيّن، وتوجيه أغراضه حسب ما يقتضيه السياق.

هذا، وإن اختلفت كلّ التعريفات التي أتينا على ذكرها، فهي لازالت إلى اليوم تسعى إلى وضع مفهوم جامع مانع للتنغيم؛ هذه التعريفات وإن قصدت تحديد الظاهرة والكشف عن أبعادها، فهي لم تُوفها حقّها من الشرح والتحليل، فعلى قدر ما شرحت أبعثت كثيراً من التصوّرات، كلّ ذلك يرجع أساساً إلى تشعّب الآراء واختلاف الرؤى؛ إذ طرق كل باحث جانباً معيّن من الظاهرة واشتغل على تحليله وشرحه، فمنهم من نظر إليها - كما رأينا - من الناحية الصوتية، ومنهم من اعتبرها ظاهرة سياقية، في المقابل هناك من اعتمد في تحديد مفهوم التنغيم على أساس أنّه يمثّل قضية نحوية، تساهم في إبراز معاني الجمل والتراكيب وتوجيه أغراضها البلاغية.

المبحث الثاني: التنغيم: آلية إنتاجه، حقيقته وجوهره، وأسس تحديده

المطلب الأول: كيفية تشكيل التنغيم فسيولوجياً

يُرجع أغلب الدارسين والباحثين مصدر اللحن والتنغيمات المصاحبة للأداء الكلامي إلى الوترين الصوتيين، فالارتفاع أو الانخفاض في درجات الصوت حسب هؤولاء مردّه هو عدد الاهتزازات وشدّة سرعة الأوتار الصوتية، ممّا ينتج عن ذلك موسيقى وإيقاعاً متبايناً في الطبقات الصوتية من مقطع إلى آخر ضمن سلسلة الكلام، يقول "محمود فهمي حجازي" منوّهاً إلى آلية إنتاج التنغيم من الناحية العضوية النطقية: «التنغيم مرتبط بالارتفاع والانخفاض في نطق الكلام، نتيجة لدرجة توتّر الوترين الصوتيين، ممّا يؤدّي إلى اختلاف الوقع السمعي، ومن هنا

(1) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية (دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية)، ج1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1،

نجد كلمات كثيرة تتعدّد طرق تنعيمها لتؤدّي وظائف دلالية مختلفة⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس يُرجع علماء اللغة حدوث التنعيم إلى عوامل هي: العلوّ أو الارتفاع، الدرجة، الشدّة، الموقعية، والنوع، يقول "سمير العزاوي" في هذا الصدد: «إنّ علوّ الصوت وشدّته وموقعيته هي التي تخلق نوعا من التنوع في التنعيم، وهذا التنوع يؤدّي في النهاية إلى تداعي نوع من الدلالة، تناسب بشكل كبير الجانب النفسي الذي يصاحب عملية التواصل اللغوي، وسياق الحال وبيئته»⁽²⁾.

المطلب الثاني: حقيقة التنعيم وجوهره

1- حقيقة:

يرى اللغويون من الذين درسوا التنعيم ظاهرة صوتية، أنّ ثمة ثلاثة مظاهر يمكن استعمالها بشكل أساسي في الأهداف اللغوية في الكلام المنطوق المتّصل، وهذه تستعمل بشكل منفرد أو جماعي وهي: طبقة الصوت، والطول والنبر، ومهمّة النغمة أن تستعمل هذه المظاهر بشكل متتابع لنصل إلى تنعيم الجملة أو الكلام⁽³⁾. هذا يعني أنّ التنعيم لا يقتصر على درجات الصوت فقط، هذه الأخيرة التي لا تستطيع لوحدها أن تلون الأداء دون وجود عوامل سياقية أخرى، على غرار: نبر المقاطع، الطول، الوقف، وكذا السكت... الخ.

2- جوهره:

يُحدّد "غازي مختار طليمات" جوهر التنعيم انطلاقا من السياقات النفسية والفكرية المحيطة بالمتكلم، فضلا عن الأداء النطقي الذي يساير فيه المتكلم الغاية التي يرمي تحقيقها من وراء الكلام الذي ينتجه، فيقول: «وجوهر التنعيم أن يُعطي المتكلم العبارة نغمات معيّنة، تنجّم نفسيا عن عاطفة يحسّها، وفكريا عن معنى يختلج في ذهنه، وعضويا عن تغيير في عدد الهزّات التي تسري في وترى الحنجرة، فيزيد الاهتزاز أو ينقص، وفق الغرض الذي يتوجّه إليه الكلام»⁽⁴⁾.

المطلب الثالث: أسس التنعيم (مقاييسه ومعايره)

أجمع المحدثون على أنّ هناك معيارين لتحديد درجة التنعيم هما:⁽⁵⁾

① يعتمد على نغمة الحرف الأخير، وهي إمّا هابطة تصدر من أعلى إلى أسفل، وتظهر في الإثبات والاستفهام

(1)- محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، دس، ص 82.

(2)- سميّر العزاوي: التنعيم اللغوي في القرآن الكريم، ص 186.

(3)- تحسين عبد الرضا الوزان: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، ص 399.

(4)- غازي مختار طليمات: في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سورية، ط2، 2000م، ص 154.

(5)- سهل ليلي: "التنعيم وأثره في اختلاف المعنى ودلالة السياق"، مجلة كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية- مجلة دولية علمية محكمة

نصف سنوية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، (الجزائر)، مج3، ع7، جوان 2010م، ص 6.

والنفي والشرط والدعاء، وإما صاعدة تتّجه من أسفل إلى أعلى، وتظهر في الاستفهام بالهمزة وهل فقط والعرض، ويظهر الفرق بين النغمتين في الجملتين (هل جاء زيد؟) فتتطرق (زيد) بنغمة هابطة، بينما (متى جاء زيد؟) تكون بنغمة صاعدة، لكونه استفهاما بغير أدواته وإثما بالظرف، وإثما مسطّحة وتظهر عند التوقّف دون تمام المعنى، كالوقوف على البصر والقمر الأولى والثانية في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۗ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۗ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّ الْمَقْرُ ۖ﴾ [سورة القيامة، الآيات: من 07 إلى 10]، في حين تنطق المفرّ بنغمة صاعدة.

② يعتمد على المدى بين أعلى نغمة وأخفضها في الصوت، وهي إما واسعة وتكون باندفاع قويّ في عمود الهواء المتّجه من الرئتين إلى الخارج عبر أعضاء النطق فيحدث صوتا عاليا، ويستخدم في الخطابة والتدريس لمجموعات كبيرة من الطلاب، أو متوسطة وتكون باندفاع أقلّ في الهواء وتستخدم في الكلام العادي، أو تكون ضيّقة وهي أقلّ من سابقتها وتستخدم في العبارات البائسة والحزينة.

إذًا، فدرجة التنغيم تُحدّد حسب النقطة الأخيرة التي يصل إليها اتّجاه الأداء الصوتي صعودا أو هبوطا، إلى جانب تلك المسافة الزمنية الفاصلة أو الموجودة بين النغمة الصاعدة والنغمة الهابطة داخل السلسلة الكلامية المنطوقة، والذي يتحكّم فيها الظرف المحيط بالكلام، وكذا الجمهور المستهدف وطبيعته، هذا وسيتمّ التفصيل في هذا العنصر في أكثر من موضع ممّا سيأتي من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

المبحث الثالث: التنغيم واللغات

قد تكون اللغات غير نغمية، وقد تكون نغمية؛ أي أنّ اختلاف درجة الصوت فيها يساعد في تمييز دلالة كلمة عن أخرى تماما كما هو الحال مع اللغة الصينية، ففي المثال السابق الذكر نجد فيه أنّ كلمة [فان] تؤدّي ستة معاني مختلفة لا علاقة بينها وهي: نوم، يحرق، شجاع، واجب، يقسم، مسحوق، وليس هناك من فرق سوى في النغمة الموسيقية في كلّ حالة، أمّا اللغات التي لا تعتمد على النغمة في التفريق بين معاني الكلمات فتسمّى لغات غير نغمية، بناء على هذا الكلام يمكن تقسيم اللغات على هذا الأساس إلى قسمين: (1)

1- لغات نغمية "Tone langages": وهي لغات يتحدّد معنى الكلمة فيها عن طريق النغمة، حيث إنّ الاختلاف في درجة الصوت على الكلمة المنطوقة هو المسؤول عن تحديد معناها، ويظهر هذا في اللغة الصينية، فاللفظ ينطق بنغمات مختلفة، وبها يتحدّد المعنى.

2- لغات تنغيمية "Intonation langages": وتمثّلها اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية، إذ أنّ الجملة تتعدّد دلالتها باختلاف التنغيمات التي تنطق بها، فطرق الأداء التي يتمّ بها نطق الجملة له أثر كبير في المعاني المراد

(1)- ينظر: عبد الفتّاح عبد الكريم البركاوي: مقدمة في علم أصوات العربية، ص ص 198-199.

إبلاغها. هذا وتصنّف لغتنا العربية ضمن هذا القسم لاعتمادها على قرينة التنغيم في التمييز بين معاني تراكيبيها.

المبحث الرابع: علاقات التنغيم

يدخل التنغيم في علاقات تواشج مع كثير من الأداءات النطقية والصوتية كاللحن والنغمة والترتيل والإيقاع وغيرها، فضلاً على ارتباطه العضوي بجملة من الظواهر الصوتية على غرار: المقطع الصوتي والنبر والوقف... الخ، هذا وسنورد فيما يلي بعض هذه العلاقات:

المطلب الأول: صلة النغمة باللحن: يمكن وصف العلاقة التي تجمع النغمة باللحن في فنّ الأداء الكلامي بعلاقة الجزء من الكل؛ فالنغمة بكلّ مستوياتها عنصر من عناصر اللحن، هذا الأخير الذي يتشكّل من مجموع تلك النغمات ضمن السلسلة الكلامية، إذ يصدق أن نطلق عليه بقولنا هو الترتيب الأفقي للنغمات، وهو بهذا المعنى شديد الاقتراب من دلالة التنغيم، يقول "محمود السعران" في باب التمييز بين المصطلحين، مشيراً إلى هذا المعنى قائلاً: «الفرق بين النغمة واللحن أنّ النغمة يتّصف بما مقطوع من المقاطع، فيوصف المقطع الفلاني من الكلمة الفلانية بأنّه ينطق بنغمة صاعدة، وكذلك بأنّه ينطق بنغمة هابطة أو مستوية، أمّا اللحن فهو ما ينشأ عن ترتيب النغمات المتتابعة في المجموعة الكلامية».⁽¹⁾

المطلب الثاني: بين النغمة والتنغيم: قبل التعرّض إلى تلك العلاقة التي تربط النغمة بالتنغيم نشير بداية إلى أنّ درجة الصوت أثناء النطق إنّما تتعلّق أساساً بالذبذبات الصوتية، أو بتعبير أكثر دقّة بسرعة وكميّة هذه الذبذبات «فكلّما كانت الذبذبات أسرع، وعددها في الثانية أكثر كانت الدرجة أعلى، ويوصف الصوت حينئذ بأنّه دقيق، أمّا حين يقلّ عدد الذبذبات فإنّ الصوت الناتج يكون سميكاً، وتسمّى درجة الصوت نغمة الصوت أو طبقة الصوت».⁽²⁾

هذا، وتشارك النغمة "Tone" والتنغيم "Intonation" في كونهما ظاهرتين سياقيتين تقومان بوظيفة تمييزية على مستوى الأداء، بيد أنّ الاختلاف بينهما دقيق؛ فالنغمة هي: «درجة العلوّ في الكلمة»⁽³⁾، وبفضلها «تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميّز على مستوى الكلمة، ولذا تسمّى تونات الكلمة».⁽⁴⁾

أمّا التنغيم فيعني: «الارتفاع والانخفاض المميّز في العبارة، وهو يتعلّق بالجملة، وينقل معلومات في اللغات حول المكونات القواعدية في التعبير»⁽⁵⁾، وبفضله «تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميّز على مستوى

(1) - محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، ص 192.

(2) - فاتن خليل محجازي: محاضرات في علم الأصوات، ص 25.

(3) - تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1437هـ/ 2016م، ص 62.

(4) - صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن، توزيع مكتبة الآداب، دب، دط، 2006م، ص 102.

(5) - تحسين فاضل عباس: المرجع السابق، ص س.

الجملة، فهو وصف للجمل وأجزاء الجمل، وليس للكلمات المختلفة المنعزلة»⁽¹⁾.

إذًا، فالنغمة لا تكون إلا على الكلمة أو على مقطع من مقاطعها، في حين يمثّل التنغيم المنحنى اللحني الناتج عن متتاليات نغمية؛ تتراوح بين الصعود والهبوط والاستواء.

المطلب الثالث: بين النغم والتنغيم: يقول "عبد الرحمن أيوب" متحدّثًا عن الفرق بين النغم والتنغيم وعلاقتها مع بعضهما: «النغم هو هذه الصور المختلفة من الدرجات التي تكوّن النغمات»⁽²⁾، ويقصد بالدرجات: الدرجة العليا والمتوسطة والسفلى، والتي تتحكّم في نوع النغمة لتحصّل وفقها على النغمة الصاعدة والمستوية والهابطة.

ويضيف قائلاً: «أمّا التنغيم فهو الصورة العامة التي تتمثّل في مجموعة النغمات التي يشتملها نوع خاص من أنواع الحدث اللغوي»⁽³⁾، فالتنغيم بهذا المعنى هو سلسلة أفقية من النغمات تتراوح بين: الصعود والهبوط والاعتدال، وهذا ما يمكن أن يضفي على الكلام لونا إيقاعيا، ونمطا موسيقيا معينًا.

المطلب الرابع: علاقة التنغيم بالإيقاع الصوتي والموسيقى

إنّ للتنغيم أثرا عجيبا في النفس البشرية، فالعربي بطبيعته كان ميّالا إلى النغم والإيقاع، فَشَعَفَ بحسن التوزيع؛ توزيع الأصوات في الكلمات، وتوزيع الكلمات في الجمل، وتوزيع الجمل في سياق كلامه، ذلك التوزيع المتقن على فترات زمنية متساوية في أغلب الأحيان، مستجيبا بذلك لكلّ ما يتحسّسه في حياته من إيقاعات سببها الانتظام أو التعاقب على فترات زمنية محدّدة، فضربات القلب تشكّل إيقاعا متعاقبا منتظما، ووحدات التنفس تتعاقب بانتظام، والليل والنهار يشكّلان إيقاعا ثنائيا، والفصول الأربعة تشكّل إيقاعا رباعيا منتظما.⁽⁴⁾

يصرّ أهل الفنّ على أنّ هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل، بما يدرك ما في الصورة من جمال، وما في الموسيقى من سحر، كما يتذوّق بها ما في الشعر من حسن الخيال وجودة التصوير، وقد تساعد البيئة على نموّ هذه الحاسة وإرهافها، كما قد تعمل على ذوبها وانكماشها، فالطفل الذي يولد في بيئة تُعنى بالموسيقى، ينشأ وهو أكثر استعدادا لتذوّق الموسيقى وفهم جمال الإيقاع فيها، من طفل آخر لم تُتخّ له الظروف نفسها، وليس أدلّ على تأثير الموسيقى في النفس من استجابة الطفل للإيقاع، تلك الاستجابة التي تتمثّل في نوع من التمايل

(1)- عبد الحميد السيّد: دراسات في اللسانيات العربية، المشكلة، التنغيم، رؤى تحليلية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ/2004م، ص51.

(2)- عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة، ص155.

(3)- المرجع نفسه، ص ن.

(4)- سناء حميد البياتي: التنغيم في القرآن الكريم- دراسة صوتية، مركز إحياء التراث العلمي العربية، جامعة بغداد، العراق، ومركز الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية، جامعة كالمبرج، دط، 2007م، ص 2.

أو الرقص البسيط على إيقاع الأنغام.⁽¹⁾

وإذا كانت الموسيقى في حدّ ذاتها تؤثر في نفس الإنسان، فيظهر تأثير الإيقاع على حركاته، وتأثير النغمات على إطلاق خياله، فإنّ اللغة الغنيّة بالموسيقى يفوق سحرها وتأثيرها سحر الموسيقى وتأثيرها، لأنّ اللغة معاني مؤثّرة أولاً، فإذا انتظمت بطريقة تنغيمية أو موسيقية، صار التأثير مضاعفاً لوجود عاملين مؤثّرين: المعاني أولاً، والتنغيم ثانياً، والكلام الذي يتوقّف فيه الإيقاع والتنغيم يثير في السامع انتباهها عجيبا، لما فيه من توقّع لمقاطع تنسجم مع ما سبق سماعه، فتتحفّز النفس وتتهيأ لاستقبال المعاني والاستجابة لها، أيّا كانت تلك المعاني.⁽²⁾

يعود السبب في هذا الاهتمام الكبير بموسيقى اللغة إلى أنّ العرب لم يكونوا أهل كتابة وقراءة، بل كانوا أهل سماع وإنشاد، وأدبهم أدب أذن لا أدب عين، فلجأوا إلى الأصوات والأنغام والإيقاع في إظهار البراعة، واعتمدوا على مسامعهم في الحكم على النّص اللغوي.⁽³⁾

إنّ الدور الذي تقوم به الألوان في اللوحة، هو الدور ذاته التي تقوم به الأصوات في النّص، فإذا كان النّص عملة: وجهها الأوّل هو الشكل، ووجهها الآخر الدلالة، فإنّ الأصوات معدن هذه العملة، بصفتها الوحدات الأولى التي تتكوّن منها النصوص، ومن شأن الفنّ أن يحمل خصائص الأصل، ليكون للأصوات بذلك التأثير الأوّل في شكل النّص ومضمونه، ومن ثمّة في المتلقّي.⁽⁴⁾

هذا، وقبل التعرّض إلى العلاقة التي تجمع التنغيم بالإيقاع والموسيقى، نكتشف أولاً المقصود بالإيقاع الصوتي والموسيقى.

1- مفهوم الإيقاع:

يقول "عبد الملك مرتاض" متحدّثاً عن الإيقاع بصفة عامة: «سيرة الحياة إيقاع: مظهرها، طبيعتها، ونظامها؛ فالليل والنهار وتعاوُرهما، والصبح والمساء وتعاوُبهما، والشمس والقمر وتلازمُهُما، والأنثى والذكر وتقابُلُهُما... كلّها مظاهر إيقاعية لسيرة الطبيعة وعطائها وسخائها، ولعلّ من ارتعاشة الورد حين يُهزّهزها النسيم العليل جاء الرقص، ولعلّ من انتفاضة الجناحين حين يحركها الطائر السعيد جاءت الحركة، ولعلّ من خرّخرة الجدول الرقراق يَجُودُهُ الغيث المدرار جاء الغناء، وكلّ الأصوات الرّخيمة الرّخيّة، وكلّ النغمات الجميلة النديّة

(1)- ينظر: سناء حميد البياتي: التنغيم في القرآن الكريم- دراسة صوتية، ص5. وكذا: إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط2، 1952م، ص2.

(2)- سناء حميد البياتي: المرجع السابق، ص س.

(3)- المرجع نفسه، ص ن.

(4)- ينظر: المرجع نفسه، ص ن. وكذا: إبراهيم أنيس: المرجع السابق، ص6.

أساسها الطبيعية في حافرتها...»⁽¹⁾.

فالإيقاع ظاهرة فنيّة لا يقوم فنّ ولا أدب دونها، بل لا يقوم فعل في هذا الوجود دون أن يتخلّله إيقاع يتواءم وطبيعته ويتناسب مع شكله وهيئته، ونظرا لاتّساع مفهوم الإيقاع وتشعّب مجالاته، أصبح من الصعوبة بمكان أن نعثر على تعريف دقيق واضح للمصطلح، يحيط بجوهره ويقف عند حدود ملامحه، لا لشيء آخر إلاّ لكونه مصطلحا عام تشمل صورته معظم جوانب الحياة، ففي تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر إيقاع، وفي توالي الأيام والشهور والسنوات إيقاع، وفي ضربات القلب ووحدات النّفس إيقاع، وفي أصوات الحيوانات والجودات إيقاع، وغيرها من مظاهر الإيقاع التي من شأنها إذا تكرّرت أحدثت انسجاما واثلافا خاصّا، وتوافقا حركيّاً أو نغما موسيقيا متميّزا، كلّ هذه الجوانب جعلت من المصطلح صعوبة في التحديد، فمنذ عهد الإغريق الذين كانوا أوّل من اجتهدوا في تحديد معالم المصطلح، لا يزال مفهوم الإيقاع محلّ نزاع في الرأي بين الباحثين والمحدثين، ومع ذلك سنحاول ههنا أن نحصر بعض هذه المفاهيم التي قدّمت لهذا المصطلح، ونحاول أن نكتشف نقطة الاشتراك فيما بينها.

1-1: الإيقاع في اللغة:

ورد في معجم "القاموس المحيط" لـ "الفيروزآبادي" (ت: 817هـ) في تفسير مادة "وَقَعَ" {فصل الواو باب العين}: «الإيقاع: إيقاع ألحان الغناء، وهو أن يُوقَعَ الأَلْحَانَ وَيُنَبِّهَهَا...»⁽²⁾، بمعنى إيقاع جزء الشيء على أجزاء شيء آخر، كتوقيع أصابع العازف على بعض أوتار الآلة الموسيقية دون الأوتار الأخرى مثلا، فيولّد نتيجة هذا التوقيع لحنا موسيقيا.

2-1: الإيقاع في الاصطلاح:

أتضح لنا من خلال التعريف المعجمي لمصطلح الإيقاع، وكذا التعريفات الاصطلاحية التي سيأتي عرضها، ارتباطه الوثيق بفن الموسيقى، غير أنّ أوّل من استخدم هذا المصطلح من علماء العرب بعيدا عن هذا الفن: "ابن طباطبا" (ت: 348هـ)، إذ ربطه هذا الأخير بفنّ الشعر، وفي ذلك يقول: «وللشعر الموزون إيقاعٌ يطربُّ الفهم لصوابه، ويرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه، فإذا اجتمع للفهم مع صحّة وزن الشعر صحّة المعنى وعدوبةً اللفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر، تمّ قبوله له واشتماله عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها

(1)- عبد الملك مرتاض: نظام الخطاب القرآني- تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2001م، ص263.

(2)- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ/ 2005م، مادة "وَقَعَ".

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

وهي: اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ، كان إنكار الفهم إيّاه على قدر نقصان أجزائه، ومثال ذلك غناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمعه، المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألقانه، فأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطرب»⁽¹⁾.

لقد جمع "ابن طباطبا" (ت: 322هـ) في هذا التعريف بين الإيقاع والوزن وحسن التركيب واعتدال الأجزاء، وكما هو معلوم فإنّ الشعر لا بدّ أن يكون موزوناً، فلا تقوم له قائمة إذا سقط منه شرط الوزن، ولعلّ هذا ما دفع "ابن طباطبا" إلى الجمع في التعريف السابق بين إيقاع الصوت وإيقاع المعنى.

هذا، ويعرّف "الفارابي" الإيقاع الموسيقي قائلاً: «إنّ الإيقاع هو النقلة على النغم في أزمنة محدودة المقادير والنسب»⁽²⁾، ولا يتعد عن هذا المعنى كلّ من جاء بعده، وعكف على تحديد مفهوم للإيقاع، فهاهو "سيد بحراوي" يعرّف الإيقاع قائلاً: «تنظيم لأصوات اللغة، بحيث تتوالى في نمط زمني محدّد، ولا شك أنّ هذا التنظيم يشمل في إطاره خصائص هذه الأصوات كافة»⁽³⁾، ومن جهته يصفه "الحسن الكاتب" قائلاً: «الإيقاع: قسمة زمان اللحن بنقرات، وهو النقلة على أصوات مترادفة في أزمنة تتوالى متساوية»⁽⁴⁾، وإلى المعنى ذاته يتّجه "محمد الأنطاكي" الذي يقول عنه بأنّه: «نظام تتوالى بموجبه المقاطع المنبورة بعضها خلف بعض، فمن الألسن ما لا يسمح بأكثر من أربعة مقاطع غير منبورة بين كل مقطعين منبورين، ومنها ما لا يسمح بأكثر من وجود ثلاثة غير منبورة بين كلّ نبرين، ومنها ما يسمح بأقلّ من ذلك أو بأكثر منه»⁽⁵⁾.

وحتى علماء الغرب الذين اهتمّوا بالمصطلح لم يتعدوا كثيراً عن المعنى الذي ألفيناه عند العرب، سواء القدامى منهم أو المحدثين، فهذا "جان كانتينو" (Jan Cantineau) يعرّف الإيقاع بكونه «تردد ارتسامات سمعية متجانسة بعد فترات ذات مدى متشابه»⁽⁶⁾.

يُلاحظ أنّ الزمن هو العنصر المشترك بين كلّ هذه التعريفات، فهو يلعب دوراً مهمّاً في تحديد معنى الإيقاع؛ ذلك أنّ تتابع النغمات يكون وفق الزمن، ثمّ إنّ المسافة الفاصلة بين نغمة وأخرى إنّما تنشأ بفضل الزمن

(1) - محمد أحمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ/ 2005م، ص21.

(2) - الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير، ص436.

(3) - سيد بحراوي: العروض وإيقاع الشعر العربي - محاولة لإنتاج معرفة علمية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1993م، ص112.

(4) - الحسن بن أحمد بن علي الكاتب: كمال أدب الغناء، تح: غطّاس عبد الملك خشية، مراجعة: محمد أحمد الحفني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1975م، ص92.

(5) - محمد الأنطاكي: دراسات في فقه اللغة، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1389هـ/ 1969م، ص210.

(6) - جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية، تر: صالح القرمادي، نشرات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، تونس، دط، 1966م، ص197.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

أيضا، هذه المسافة عادة ما تكون متساوية تحقيقا للنظام النغمي، والذي من شأنه أن يوَلد لدى المتلقّي لَدّة في الاستماع ومتعة في الإنصات، وبالتالي يخلق لديه روح التفاعل مع اللحن، فلو قمت مثلا ونقرت أربع نقرات، ثم أتبعته الرابعة بأخرى أقوى من سابقتها، وكررت عملك هذا مرارا، تولّد الإيقاع من خلال تردّد النقرة الخامسة القويّة بعد كلّ أربع نقرات، كما أنّ الإيقاع قد يتولّد بمجرد الصمت بعد عدد معيّن من النقرات، بحيث إذا اكتمل ذلك العدد تهيأ المستمع لوجود تلك الفسحة أو لاستقبال تلك السكّنة الموسيقية، وهذا ما يدفعه إلى التفاعل مع الألحان، فالإيقاع بهذا المعنى يسعى إلى إنتاج شيء من الائتلاف، ولو كان ذلك عن طريق الاختلاف (الاختلاف في النغمات من حيث درجاتها مثلا)، يقول "مجدي إسحاق" في هذا الإطار: «لو تأملنا مفهوم الإيقاع لرأينا مرتبطين بالزمن، والمادة العلمية التي تستعمل الزمن بصفة أساسية هي علم الحركة، وعلم الحركة يربط بين الزمن والمسافة، فالجسم الذي يتحرّك في الفضاء له مسار معين وموقعه متعلّق بالزمن، وتحديد سرعته يقتضي معرفة المسافة والزمن، والتسارع له معادلة مبنية على المسافة والزمن، أمّا الإيقاع فإنّه مرتبط بالزمن وحده لا يستعمل الفضاء أو المسافة؛ القلب الذي يدقّ لا يقطع أيّ مسافة، والنفس الذي يدخل الرئتين لا تهمنا منه إلاّ علاقته بالزمن، وكذلك الشأن بالنسبة لتعاقب الليل والنهار وتوالي الفصول، ودقات الطبول في الموسيقى».⁽¹⁾

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أنّ الإيقاع لا يتولّد بالضرورة من اتّساق النغمات وانتظامها على مسافات متساوية دائما، بل يمكن أن يتحقّق من خلال تنوّع في هذه المسافات بين الطول والقصر، كسرا لهذا النظام. يقول "أحمد البايبي" مشيرا إلى هذه الفكرة: بأنّ الإيقاع ظاهرة عامة تقوم أساسا على الانتظام والاطراد لوحداث البروز اللسانية على مسافات متقايمة، تقايما متساويا أو متقاربا لإحداث الانسجام، وعلى مسافات غير متقايمة أحيانا لتفادي الرتابة وتحقيق التنوع.⁽²⁾، ويضيف قائلا: «والواقع أنّ الإيقاع يتحقّق من خلال آلية التكرار التي تتوالى فتشبع التوقّع عند المستمع وتسمّر، ولكن حتى لا يتحوّل الإشباع إلى رتابة مملّة، لابدّ من تدخّل آلية جديدة على نسب متقايمة هي آلية التغيير، ولا يعتبر توالي القانونين خرقا للإيقاع، بل هو في حدّ ذاته شكل إيقاعي».⁽³⁾

كما يقوم الإيقاع أيضا على مكوّن أساسي يساهم في إنتاجه ألا وهو: النقرة، هذه الأخيرة هي: «مدّة زمنية يُسمع من خلالها صوت، أكان صادرا من الحنجرة أو من الآلات الوترية أو النغمية أو من القرعية التي تحدّد

(1)- مجدي إسحاق: فن الإيقاع (التاريخ، الأوزان الشرقية، الآلات الإيقاعية)، بورصة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2016م، ص16.

(2)- ينظر: أحمد البايبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج2، صص 130، 132.

(3)- المرجع نفسه، ص132.

(1) «الزمن».

هذا، وتتراوح هذه النقرات بين: (2)

- النقرة الساكنة: هي النقرة التي تعقبها وقفة.

- النقرة المتحركة: هي النقرة التي لا تعقبها وقفة.

- النقرة الثقيلة: هي النقرة التي زمانها ضعف زمان النقرة الخفيفة.

- النقرة الخفيفة: هي النقرة التي زمانها نصف زمان النقرة الثقيلة.

- النقرة اللينة: هي النقرة التي تشغل زمان سكوت الفاصلة.

إلى جانب عنصري الزمن والنقرات، أشارت التعريفات السابقة إلى عنصر آخر لا يقل أهمية عن الزمن، إذ لا يمكن لحدوث الإيقاع في ظلّ غيابيه، ألا وهو عنصر التكرار، هذا الأخير الذي يعدّ آلية من آليات الإيقاع، تقول الباحثة "نعيمّة زواخ" في هذا الصدد: «الإيقاع لا يستقيم بغير آلية التكرار، وبعبارة أخرى لا وجود لبنية إيقاعية تواجه تكرار وحداتها، ولو كانت لا تتكرر بالتمام».(3)

أشرنا في السابق إلى أنّ استعمال مصطلح الإيقاع لا يقتصر على الشعر والموسيقى فحسب، بل نجده في كلّ المجالات الفنيّة والجمالية، فهو يستعمل في فنون الرقص والرسم وحتى النحت وغيرها من الميادين، ولو أردنا أن نؤصّل للمصطلح فإننا نجده مأخوذاً من «الترجمة العربية للمصطلح الأوروبي Rhythm في الفرنسية، وهما مشتقان من Rhuthmos اليونانية، وهي في الأصل معناها الجريان والتدفّق، والمقصود به عامة هو التواتر بين حالتي الصوت والصمت، أو النور والظلام، إذ الإيقاع هو عبارة عن رجوع ظاهرة صوتية ما على مسافات زمنية متساوية».(4)

2- علاقة الإيقاع بالوزن والموسيقى (إشكالية المصطلح):

وظّف كثير من الدارسين مصطلحات: الإيقاع، الوزن، والموسيقى، على أساس كونها مترادفة لا فرق بينها، صحيح أنّها مصطلحات تنتمي إلى الحقل المعرفي نفسه، وتتداخل في عديد من العناصر والنقاط، إلا أنّ التباين بينهما يظلّ قائماً، فالإيقاع ليس هو ذاته الوزن أو الموسيقى، وقس على ذلك مع مصطلحي الوزن والموسيقى،

(1) - نقلاً عن: مبارك حنون: في التنظيم الإيقاعي للغة العربية- نموذج الوقف، دار الأمان، الرباط، المغرب، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، والدار

العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ/2010م، صص 48-49.

(2) - المرجع نفسه، ص 49.

(3) - زواخ نعيمّة: البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني (دراسة أسلوبية صوتية لسورة الواقعة)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1،

1433هـ/2012م، ص 19.

(4) - مجدي إسحاق: فن الإيقاع (التاريخ، الأوزان الشرقية، الآلات الإيقاعية)، ص 15.

وقبل التعرّف على العلاقة التي تجمع الإيقاع بالوزن والموسيقى، نصرّح بداية بأنّ الوزن ما هو إلاّ عنصرا من عناصر الإيقاع، هذا الأخير الذي يمثّل هو الآخر عنصرا من عناصر الموسيقى.

2-1: الفرق بين الإيقاع والوزن، والعلاقة القائمة بينهما:

اقترن لفظ الوزن بالشعر، إذ يعدّ ركنا أساسيا من أركانه، ففي سياق حديثه عن الوزن قال "القرطاجني" (ت: 684هـ) واصفاً أيّاه: «أن تكون المقادير المقفّاة تتساوى في أزمنة متساوية لا تفارقها في عدد الحركات والسكنات والترتيب»⁽¹⁾، حيث يحيل المصطلح إلى «سلسلة السواكن والمتحركات المستنتجة من البيت، مجزأة إلى مستويات مختلفة من المكوّنات: الشطران، التفاعيل، الأسباب والأوتاد، وفي العروض العربي يقترن كلّ بيت بوزنه»⁽²⁾.

فواضح بأنّ مصطلح الوزن غير مصطلح الإيقاع، وإن كان كثير من الباحثين يجعلهما شيئا واحدا، ومن هؤلاء "شكري محمد عياد" الذي استنتج أنّ «تعريف الوزن يتضمّن الإيقاع أيضا، والاصطلاحان لا يفهم أحدهما بدون الآخر»⁽³⁾.

في المقابل نجد "محمد مندور" يفرّق بين المصطلحين بقوله: «إننا حين نتحدّث عن (الوزن) فإننا نقصد كم التفاعيل، إذ أنّ (الوزن) يستقيم إذا كانت التفاعيل متساوية كما هو الحال في الكامل والرجز وغيرهما، أو متجاوبة كما هو الحال في الطويل والبسيط وغيرهما (...). أمّا (الإيقاع) فهو عبارة عن تردّد ظاهرة معيّنة على مسافات زمنية متساوية أو متقابلة داخل الوحدة الموسيقية، وقد تكون هذه الظاهرة صمّتا خفيفا أو مكّونا أو حركة معيّنة...»⁽⁴⁾.

وعلى هذا الأساس فإنّ الوزن ما هو إلاّ عنصرا أو جزءا من الإيقاع، فالعلاقة التي تجمعهما هي علاقة جزئية، ف «رغم أنّ المصطلحين يُستعملان بمعنى واحد أحيانا، فإنّ الإيقاع لا يرادف الوزن، بل علاقتهما هي علاقة الكلّ بالجزء؛ حيث يعتبر الوزن - موسيقيا كان أم شعريا أم نثريا - مكّونا إيقاعيا من جملة المكوّنات الأخرى ذات الطبيعة الصوتية»⁽⁵⁾.

في هذا الإطار ميّز "شكري محمد عياد" بين ما يُعرف بالإيقاع الشعري والإيقاع الموسيقي والذي يهّمنا في

(1) - أبو الحسن حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008م، ص263.

(2) - مصطفى حركات: أوزان الشعر، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1418هـ/ 1998م، ص7.

(3) - شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي (مشروع دراسة علمية)، دار المعرفة للنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1978م، ص62.

(4) - محمد مندور: الأدب وفنونه، نخصّة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط5، 2006م، ص39.

(5) - أحمد البيبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج2، ص127.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

هذا البحث بقوله: «وعلينا إذا أردنا أن نصوغ نظرية عامة عن الإيقاع الشعري، أن نبني هذه النظرية على عدّة أنواع معروفة من هذا الإيقاع لا على نوع واحد، وأن ننتبه في الوقت نفسه إلى أن الإيقاع الشعري بوجه عام قد يتمييز عن الإيقاع الموسيقي مثلاً، فالنبر في الإيقاع الموسيقي يلعب الدور الرئيس». (1)، ويضيف في الإطار ذاته: «إنّ الموسيقى أكثر ارتباطاً بحركة الجسم - الرقص وغيره - من الشعر، فطبيعي أن تحتفظ بالأساس الفسيولوجي لهذه الحركة، وهو تتابع الحركات القويّة الضعيفة بنظام، وبما أنّ هذا التابع يتضمّن عنصر الزمن، فإنّ انتظام النسب الزمنية بين الحركات يصبح ضرورياً أيضاً كانتظام النبر» (2)، ويتابع قائلاً: «أمّا الإيقاع الشعري فيجب ألاّ ننسى أنّه يتبع خصائص اللغة التي يقال فيها الشعر، وقد لعب طول المقاطع وقصرها دوراً هاماً في بعض اللغات، فاق أهمية النبر - في الأصل - من أهمّ أسباب الطول، ففي مثل هذه اللغات يصبح العامل الأهمّ في الإيقاع هو مراعاة النسب العددية بين الأصوات». (3)

2-2: الفرق بين الإيقاع والموسيقى، والعلاقة القائمة بينهما:

الموسيقى علم يبحث عن طبيعة النغم من حيث الاتفاق والتنافر وأحوال الأزمنة المتخلّلة بين النغم، من حيث الوزن وعدمه لتحصل معرفة كيفية تأليف اللحن. (4)

إذاً، فالموسيقى تشمل على مبحثين: الأول: البحث عن أحوال النغم من حيث كونها ملائمة وغير ملائمة، والثاني: البحث عن الأزمنة من حيث كونها موزونة وغير موزونة، وهو موضوع علم الإيقاع.

بالعودة إلى مصدر الكلمة يتضح أنّها: «يونانية الأصل، تُشتقّ من لفظة (موسا) ومعناها الملهمّة، ويروي لنا التاريخ أنّ (جوبيتير) كان يصحب معه في تجولاته تسع فتيات يلقبهنّ (موساجيت)، كلّ فتاة منهنّ تزاوّل فتناً من الفنون الجميلة، فكان منها الغناء والرقص والرسم والدراما والكوميديا والخطابة والتاريخ والفروسية وعلم الفلك، ثمّ أضيف فيما بعد حرف (قى) إلى لفظ (موسا)، فأصبحت موسيقى (وتلفظ أيضاً موسيقاً)، وعلى ذلك فالمعنى القديم لكلمة موسيقى هو الفنون بصورة عامة، ولكن التسمية انفردت فيما بعد بمعنى لغة الألحان والعواطف». (5)

الإيقاع والموسيقى مصطلحان متلازمان غير مترادفين كما يعتقد كثيرٌ من الدارسين؛ إذ أنّ الزّمن نقطة

(1) - شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي (مشروع دراسة علمية)، ص 62.

(2) - المرجع نفسه، ص 63.

(3) - نفسه، ص ن.

(4) - معروف محمد رشاد الشريف: التغني بالقرآن وعلاقته بالأنغام، إشراف: عبد الرحيم الرزقة، رسالة مكتملة لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير في القرآن الكريم وعلومه، كليّة الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل بيت، المملكة العربية السعودية، 2003م، ص 39.

(5) - مجدي إسحاق: فن الإيقاع (التاريخ، الأوزان الشرقية، الآلات الإيقاعية)، ص 11.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

التقاطع بينهما، تقول "فضيلة مسعودي" معرّفة الموسيقى: «إنّها تناسب وتزواج بين الصوت والزّمن، فالصوت الذي هو الأثر السمعي الناتج عن حركة معيّنة، لا يمكنه اكتساب صفة الموسيقى إذا لم يخضع لعامل الزمن الذي يستوعبه، لإعطائه هذه الصفة»⁽¹⁾، بيد أنّ زمن الإيقاع غير زمن الموسيقى؛ فالإيقاع مصطلح يُطلق على ذلك التابع الزمني المطّرد للأصوات نتيجة تكرارها بصفة منتظمة، حتى إذا سقط عنصر الزمن تحقّق التشويش وانتفى النظام، وبالتالي فسد الإيقاع ونتج عن ذلك ما يعرف بالموسيقى، بمعنى أنّه كلّما حدث خلل في انتظام الوحدة الزمنية للإيقاع، كان ذلك أقرب إلى توليد الموسيقى، وعليه فانتظام الزمن من سمات الإيقاع، بينما الاختلال الزمني من سمات الموسيقى.

بناءً على ما قيل فإنّ اللحن في الموسيقى قائم على تمييع الصوت وتناوبه ما بين الحدة والتسفل، أو التقصير والتطويل دون انتظام، فهذا النشاط (الخلل في الانتظام) من شأنه أن يحدث لحنا موسيقيا، وهذا الانتظام الذي يُحدث الموسيقى لا ينطبق فقط على أصوات البشر، بل يتعدّاه إلى أصوات الآلات وكلّ الموجودات الطبيعية التي تُصدر أصواتا معيّنة.

الموسيقى تحتاج إلى إيقاع ولا تقوم إلّا عليه، إذ تتولّد نتيجة الانتظام في المسافات الزمنية بين الأصوات المشكّلة للإيقاع، ممّا يعني أنّه بالضرورة يتولّد عن الموسيقى إيقاع معيّن ولكن العكس غير صحيح، فالإيقاع ليس من الضروري أن تتولّد عنه موسيقى، لاعتماده أساسا على الانتظام في وحدة الزمن.

نشير أخيرا إلى أنّ الموسيقى صوت، لكن ليس كلّ صوت يصدر عن الإنسان يدعى صوتا موسيقيا، ولذلك فإنّ هناك ثلاثة أنواع من الأصوات البشرية:⁽²⁾

① **صوت الكلام:** وهو الصوت الذي يكون هادئا لطيفا، كالصوت الذي نتحدّث به مع أهلنا وأصدقائنا (ويسمى الصوت المحكي)، وهو غير منغم.

② **صوت التعبير:** وهو الصّوت الذي يعبّر عن الحالة الانفعالية التي يمرّ بها الإنسان مثل: صوت الخطابة، وصوت الحالات العصبية.

③ **الصوت الغنائي أو اللحني:** وهو كلّ صوت ترتاح لسماعه الأذن ويؤثّر لحنه في النفس ويطلق عليه النغم، وهو صوت الجمال والهدوء والعاطفة، والذي يتميّز عن غيره من الأصوات البشرية الأخرى بصفات أساسية، جعلته يكون ضمن الأصوات الموسيقية من **درجة الصوت** (حدّته وغلظه)، التي تعتمد على عدد الذبذبات التي

(1) - فضيلة مسعودي: التكرارية الصوتية في القراءات القرآنية - قراءة نافع أنموذجا، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص44.

(2) - معروف محمد رشاد الشريف: التغني بالقرآن وعلاقته بالأنغام، ص40.

يحتويها الصوت الغنائي، لأنّ لكلّ صوت أو لكلّ نغمة عدد محدود من الذبذبات في الثانية الواحدة، والصفة الأخرى: شدة الصوت، وهي خاصيّة القوّة والضعف في الأداء الغنائي، والتي تعتمد على سعة الاهتزازات التي تحدثها أوتار الحنجرة البشرية أثناء الأداء، وهناك صفات أخرى ميّزت الصوت الغنائي عن غيره من الأصوات البشرية، وأعني صوت الكلام وصوت الخطابة، فالأصوات البشرية إمّا محكية غير منغمّة كالكلام العادي، أو أصواتا موسيقية غنائية.

3- أنواع الإيقاع:

اتّفق جلّ العلماء والدارسون القدامى والمحدثون أنّ للإيقاع نوعين هما: الإيقاع الداخلي والإيقاع الخارجي، يقول "الجاحظ" (ت: 255هـ): «الإيقاع قسمان: إيقاع خارجي: ويعرف بالوزن العروضي، وإيقاع داخلي: ويعرف بالتناسق النغمي بين أصوات الحروف والكلمات».⁽¹⁾

ويذهب "أحمد عزّوز" إلى التقسيم نفسه، فالإيقاع عنده داخلي وخارجي أيضا؛ «فالإيقاع الخارجي وهو التفعيلة والبحر والوزن في القصيدة الشعرية، أي ما يحسّ به في ظاهر الجملة، والإيقاع الداخلي ويصطلح عليه بوحدة الإيقاع أو حدة النغم التي يكون مبعثها عناية الكاتب بانتقاء واختيار ألفاظ خاصة مرتفعة عن السوقي ومبعدة عن الحوشي، وتعبّر تعبيرا دقيقا عن انفعالاته وعواطفه أو تكرار أصوات داخل التراكيب، والإيقاع الداخلي هو جرس اللفظة ووقعها على السمع الناشيء من تأليف أصوات حروفها وحركاتها وسكناتها، ومدى توافقه مع دلالة اللفظة، لأنّ للحرف في اللغة العربية إجماء خاصا، فهو إن لم يكن يدلّ دلالة قاطعة على المعنى، فإنّه يوحي به».⁽²⁾

إذاً، فالإيقاع الخارجي يتمثّل في الوزن والقافية، في حين يتمثّل الإيقاع الداخلي في التركيب الجواني للتّص، وله عدّة مكوّنات منها: التكرار، الجرس، السجع، المماثلة والتضاد، الكميّة، المقطع الصوتي، النبر وكذا التنعيم... الخ. وهما "سيّد قطب" يحدّد مواطن هذا النوع الأخير من الإيقاع في القرآن الكريم فيقول: «وحيثما تلا الإنسان القرآن أحسّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه؛ يبرز بروزا واضحا في السور القصصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة، ويتوارى قليلا أو كثيرا في السور الطوال، حتى تنفرد الدقّة دونه في آيات التشريع، ولكنه - على كل حال - ملحوظ دائما في بناء النظم القرآني».⁽³⁾

(1) - أبو عثمان بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، مج1، ج1، تح: موقّق شهاب الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/ 2003م، ص81.

(2) - أحمد عزّوز: علم الأصوات اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية (المطبعة الجهوية)، وهران، الجزائر، دط، دس، ص68.

(3) - سيّد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط17، 1425هـ/ 2004م، ص103.

هذا، بالنسبة لأنواع الإيقاع في كلام العرب الموزون، ولكن ما يعنينا نحن في هذا البحث هو نوع آخر من الإيقاع والمتمثّل في: الإيقاع القرآني فهاهو "صبحي الصّالح" يذهب إلى أبعد من ذلك، حيث يرى أنّ القرآن الكريم قائم أساسا على الإيقاع، فلا يكاد يخلو منه موضع إلّا وكان الإيقاع فيه حاضرا، يقول: «إنّ هذا القرآن - في كلّ سورة منه وآية، وفي كلّ مقطع منه وفقرة، وفي كلّ مشهد منه وقصّة، وفي كلّ مطلع منه وختام - يمتاز بأسلوب إيقاعي غنيّ بالموسيقى، مملوء نغما، حتى لا يكون من الخطأ الشديد في هذا الباب أن نفاضل فيه بين سورة وأخرى، أو نوازن بين مقطع ومقطع...»⁽¹⁾.

وعليه فلقد وظّف القرآن الإيقاع الصوتي ونوّع فيه، ومرّد ذلك الجوّ العام لسوره ومضمونها الذي تحمله، فالإيقاع الذي يناسب سورة، قد لا يناسب سورة أخرى؛ إذ نجد آيات يناسبها إيقاع سريع، وأخرى يلائمها إيقاع بطيء هادئ وحزين وهكذا دواليك.

4- علاقة الإيقاع الموسيقي بالتنغيم الصوتي:

يعدّ التنغيم إلى جانب النبر عنصرا من عناصر الإيقاع الموسيقي في الكلام، إذ أنّ تتابع النغمات وتداولها بشكل منتظم بين الارتفاع والانخفاض والاستواء من شأنه أن يولّد لنا إيقاعيا متميّزا، يقول "خالد قاسم بني دومي" في تحديد علاقة الإيقاع بالتنغيم: «إنّ للتنغيم صلة وثيقة بالإيقاع وموسيقى الكلام، وعليه يمكن القول: إنّ التنغيم ظاهرة صوتية تنتظم التركيب عن طريق إطلاق نغمات موسيقية منتظمة ومتنوّعة في حدث كلامي معيّن، وذلك لأداء دلالات معينة»⁽²⁾، وفي شأن ذي صلة يضيف "مبارك حنون" قائلا: «إنّ الإيقاع إذن يستمدّ تعريفه من ائتلاف أو تأليف الأنغام، فالأنغام تتألّف فتتوالى مشكّلة بذلك لنا شريطة أن تتخلّل النغم المتوالية أزمنة، وإذا قسّم زمان اللحن بنقرات أو بمدد زمنية منعمّة وفق مقادير متساوية ومتناسبة، بحيث ترتّب عن ذلك أوزان للأزمنة النغمية المتوالية وفق مقادير ونسب محدودة، حدث الإيقاع وبذلك يكون الإيقاع تقسيما لمُدّة الصوت، والنغم تقسيما متناسبا»⁽³⁾.

المطلب الخامس: بين التنغيم والترقيم

إنّ التنغيم أعمّ من الترقيم، فهما يشتركان في توظيف علامات الترقيم من فواصل ونقاط وعلامات استفهام وتعجّب وغيرها، لتوضيح المعنى وبيان المقصود من الكلام، بيد أنّ التنغيم لا يقف عند حدود ذلك، فهو يتجاوز

(1)- صبحي الصّالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط10، 1977، ص334.

(2)- خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2006م، ص149.

(3)- مبارك حنون: في التنظيم الإيقاعي للغة العربية- نموذج الوقف، ص49.

الترقيم في اعتماده فضلا عن الوسائل السابقة الذكر على تلك التنويعات النطقية والتلوّنات الموسيقية، إلى جانب الإيماءات والإشارات الجسدية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة في تحديد الدلالة وتوجيه غرض الكلام، وهذا ما يمكن أن نستشقه من خلال كلام الباحثين "فرحان جلال عزيز وآمال محمود عبيد" اللذان يقولان: «والتنغيم في الكلام يقوم مقام الترقيم في الكتابة، غير أنّ التنغيم أوضح من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة، لأنّ ما يستعمله التنغيم من نعمات أكثر ممّا يستعمله الترقيم من علامات كالنقطة والفاصلة والشرطة، وعلامة الاستفهام وعلامة التأخير، فمثلا يمكن أن نفهم معنى الدعاء من قولهم: "لا وشفاك الله" بدون الواو اتكالا على ما في تنغيم الجملة من وقفة»⁽¹⁾، والمعنى ذاته نجده عند "عبد الكريم مجاهد"، حيث يعكف هذا الأخير على وصف الترقيم مفرقا بينه وبين التنغيم بقوله: «الترقيم إشارات في حالات جامدة، ليس لها تأثير التنغيم الذي يصاحب الحديث فيه، ويشير ويتطلّب حالة من الانتباه والمتابعة لما يجري، فهو يقوم بوظيفة دلالية بما يصاحب أيضا من قرائن كإشاحة الوجه وتجهّمه، أو إقباله وانفراج أساريره»⁽²⁾.

وكما سبقت الإشارة فإنّ التنغيم أوضح وأجلى من الترقيم، لأنّ النغمات التي يستخدمها هذا الأخير في الكلام المكتوب، أقلّ نسبيًا من تلك النغمات التي يستعملها التنغيم في الكلام المنطوق، بيد أنّ الباحث "سمير العزّاوي" يُرجع السبب في هذا الوضوح إلى كون «التنغيم أسبق من علامات الترقيم، لأنّ المنطوق أسبق من المكتوب»⁽³⁾.

المطلب السادس: علاقة التنغيم بالظواهر السياقية الأخرى (المقطع الصوتي، النبر، والوقف)

قبل الخوض في غمار العلاقة التي تجمع بين هذه الظواهر غير التركيبية، لابدّ أولاً من الوقوف على ماهية كلّ من: المقطع الصوتي، النبر، وكذا الوقف.

1- المقطع الصوتي:

إنّ المتصقّح في المعاجم العربية يجد أنّ الدلالة اللغوية للمقطع لا تخرج عن معنى المنع وحدّ الأشياء ونهايتها، أمّا في معناه الاصطلاحي فهو عبارة عن: «كتلة صوتية يمكن أن تنطق منفصلة أو مستقلة عمّا قبلها وما بعدها، أي أنّه يمكن من الناحية العملية أن تُسبق بصمت تام، وأن تُتبع كذلك بصمت تام، ومن الطبيعي أن تكون هذه الكتلة مؤلّفة من صوتين على الأقلّ، أوّلهما: صوت صامت متلو بحركة، وهذه الحركة قد تكون طويلة وقد تكون

(1)- فرمان جلال عزيز وآمال محمود عبيد: "أثر أسلوب التنغيم الصوتي في الفهم القرائي لمادة المطالعة والنصوص عند طالبات الصف الثاني

المتوسّط"، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية- مجلة علمية محكمة نصف سنوية، العراق، مج7، ع7، 2007م، ص176.

(2)- عبد الكريم مجاهد: الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، دس، ص178.

(3)- سمير العزّاوي: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، ص201.

قصيرة، وقد تتبع بعد ذلك بصوت صامت آخر، وقد لا تُتبع». (1)

وفي إطار تعريفه للمقطع يسلّط "غانم قدوري الحمد" الضوء على الدور الذي تقوم به مكوّنات المقطع قائلا: «المقطع مجموعة أصوات تُنتجُ بضغطة صدرية واحدة، تبدأ بصوت جامد يتبعه صوت ذائب (قصير أو طويل)، وقد يأتي متبوعا بصوت جامد أو اثنين، ويكون الصوت الذائب فيه قَمّة الإسماع بالنسبة إلى الأصوات الأخرى التي يتألّف منها المقطع». (2)

يفهم من خلال هذين التعريفين أنّ المقطع عنصر صوتي يتركّب في أبسط أشكاله من صوتين اثنين؛ الأول منهما صوت ساكن، أو كما يطلق عليه بعضهم اسم: الحبيس أو الجامد (صامت)، والثاني حركة، أو كما تسمّى كذلك بالصوت الطليق أو الذائب (صائت)، ممّا يعني أنّ المقطع في العربية لا يبدأ بحركة، أي أنّه لا يبدأ بصوت صائت، ولا تسبق الحركة فيه الصامت، ثمّ إنّ الأصوات الصائتة سواء أكانت قصيرة أم طويلة إنّما تتمثّل نواة المقطع، أي هي التي تقع عليها قَمّة الوضوح السمعي، أو كما يُعرف في اصطلاح علماء الأصوات بالنبر، إذ لها القدرة على التحكّم في درجة الارتكاز أكثر من غيرها من الأصوات الصائتة، التي تدخل في تشكيل المقطع كوحدات مساعدة. يقول "الشنبري" مؤكّدا ما قلناه: «ومنه نرى أنّ المقطع الصوتي بصفة عامة يعتمد على كونه دفقة أو دفقة هوائية، تشكّل صوتا أو عدّة أصوات في نطقها، يقع النبر في وسطها، أي على الحركة منها». (3)

إذاً، فعناصر المقطع منها ما هو أساسي يقع عليه النبر، ومنها ما هو ثانوي مساعد، يقول "العاني" في باب تصنيفه لمكوّنات المقطع: «ومن المناسب أن نقسّم الفونيمات المفردة Segmental phonèmes في العربية إلى فونيمات مركزية Syllabicity وغير مركزية Non-syllabic، وتشكّل الحركات القصيرة الثلاث مع نظائرها الطويلة نواة المقطع دائما، وتمثّل دائما جميع السواكن والصوتان الجهوران الياء والواو الفونيمات المساعدة في بنية المقاطع». (4)

هذا، وتنقسم المقاطع من حيث موضع الطليق (الصائت) فيها إلى ثلاثة أقسام هي: (5)

1 مفتوح: وهو المقطع الذي ينتهي بالطليق مثل: ب، ب، ب، ب، ب، ب، ب، ب، ب، ب.

(1) - محمد جواد النوري: علم الأصوات العربية، ص 237.

(2) - غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم الأصوات العربية، ص 193-194.

(3) - حامد بن أحمد بن سعد الشنبري: النظام الصوتي للغة العربية - دراسة وصفية تطبيقية، مركز اللغة العربية، القاهرة، مصر، دط، 1425هـ / 2004م، ص 202.

(4) - سلمان حسن العاني: التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية، تر: ياسر الملاح، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1403هـ / 1983م، ص 131.

(5) - محمد الأنطاكلي: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، ج 1، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط 3، 1391هـ / 1971م، ص 21.

② مغلق: وهو ما انتهى بالحبيس مثل: عَن، مِّن، نُّل، بَاب، عِيد، عُوذ.

③ مضاعف الإغلاق: وهو ما تلا الطليق فيه حبيسان مثل: بَحْر، فِرْد، نُكَل.

ويمكن أن نجمع الأقسام الثلاثة المذكورة ضمن قسمين هما: **المقطع المتحرك**: والذي ينتهي بصوت صائت قصير أو طويل، ويندرج ضمنه المقطع المفتوح، و**المقطع الساكن**: والذي ينتهي بصوت ساكن، ويندرج ضمن هذا النوع المقطع المغلق، وكذا مضاعف الإغلاق.

كما تنقسم المقاطع الصوتية من حيث **الطول والقصر** إلى ثلاثة أقسام أيضا هي: (1)

① **المقطع القصير**: وهو ما تألف من طليق قصير مع حبيس واحد، مثل: ب، ك، ث.

② **المقطع المتوسط**: وهو ما تألف من طليق طويل مع حبيس واحد، مثل: با، فو، في، أو من طليق قصير مع حبيسين، مثل: عَن، مِّن، قُم.

③ **المقطع الطويل**: وهو ما تألف من طليق طويل مع حبيسين، مثل: باب، كيس، عُوذ، أو من طليق قصير مع ثلاثة حبيسات، مثل: بَدْر، قُرْب، عِنْد.

نلاحظ أنّ المقطع القصير لا يكون إلاّ مفتوحا، أما المقطع المتوسط فقد يكون مفتوحا وقد يكون مغلقا، في حين أنّ المقطع الطويل فلا يكون إلاّ مغلقا.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نميّز للمقطع الصوتي في لغتنا العربية عموما بين خمسة أشكال من المقاطع هي: (2)

① صامت + حركة قصيرة (ص ح) مثل: د، ف.

② صامت + حركة طويلة (ص ح ح) مثل: با، في.

③ صامت + حركة قصيرة + صامت (ص ح ص) مثل: بل، هل.

④ صامت + حركة طويلة + صامت (ص ح ح ص) مثل: عاش، صال (بالسكون).

⑤ صامت + حركة قصيرة + صامت + صامت (ص ح ص ص) مثل: أمر (بالسكون).

وأما معيارا التصنيف فهما: (3)

① طبيعة الصوت الأخير في المقطع، وعليه فالأول والثاني من نوع المقطع المفتوح بعدها صائت، على العكس من الثالث والرابع والخامس، فهي من نوع المغلق لانتهائها بصامت.

(1) - محمد الأنطاكي: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، ج1، ص ص21-22.

(2) - عبد الرحمن الوجي: الإيقاع في الشعر العربي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1989م، ص ص53-54.

(3) - المرجع نفسه، ص54.

② طول المقطع: فالأول قصير، والثاني والثالث طويل، والرابع والخامس مغرقان في الطول.

بعد هذا العرض، يمكن رصد خصائص وشروط المقطع الصوتي في اللغة العربية في النقاط التالية:⁽¹⁾

① لا بدّ من وجود صائت في المقطع؛ ممّا يعني أنّ المقطع في اللغة العربية لا يتكوّن من الصوامت فقط.

② المقطع يبدأ بصامت واحد، مثل: عَلِمَ، دَرَسَ، أو بنصف صائت، مثل: وَلَدٌ، يَوْمٌ؛ ممّا يعني أنّ المقطع في العربية لا يبدأ بحركة مهما يكن موقعه في الكلمة، كما أنّه لا يبدأ بصامتين متواليين (ص + ص).

③ يمكن أن يكون المقطع مفتوحاً؛ أي ينتهي بصامت، أو مغلقاً؛ أي ينتهي بصامت أو صامتين.

④ من الملاحظ في الكلمات العربية أنّ الحرف الساكن يتبع المقطع الذي يسبقه، أمّا إذا حُرِّكَ فإنه يكون مقطوعاً مستقلاً، مثال ذلك عند تحريك آخر الفعل "كَتَبَ"، فإنّ عدد المقاطع يكون ثلاثة: [ك، ت، ب]، أمّا إذا سُكِّنَ فإنّ عددها اثنان: [ك، ت ب]، وكذلك الحال بالنسبة للحروف المشدّدة، كما في كلمة "عَدَّاد"، فإنّ الدال الأولى تعدّ اثنتين، الأولى منهما ساكنة فتلحق بالمقطع الأول، والثانية متحرّكة فتلحق بالمقطع الثاني.

⑤ ينتهي المقطع في اللغة العربية إمّا بصائت قصير أو طويل، وإمّا بصامت واحد.

نشير ختاماً قبل أن نتجاوز هذا العنصر إلى غيره، إلى أنّ النسيج المقطعي للكلمة في اللغة العربية عموماً،

وفي القرآن الكريم على وجه الخصوص يتكوّن من ثمانية مقاطع هي:⁽²⁾

① أحادية المقطع مثل: {مَنْ، عَن، لَمْ، ...}.

② ثنائية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ﴾ [سورة النازعات، الآية: 17]، و﴿جَاءَ نَصْرُ﴾ [سورة النصر، الآية: 01].

③ ثلاثية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿قَائِمٌ﴾ [سورة آل عمران، الآية: 39].

④ رباعية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿مُؤْمِنَةٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: 221]، و﴿مُشْرِكَةٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: 221].

⑤ خماسية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿يُدْبِحُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية 39]، و﴿شَيْطَانِيهِمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 221].

(1) ينظر: منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية، ص78. وكذا: عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية- رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1400هـ/1980م، ص41. وكذا: عصام نور الدين: علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، ص ص94-95.

(2) مناع عبد الله شداد: المقطع في بنية الكلمة العربية- دراسة لغوية تطبيقية في القرآن الكريم، إشراف: عباس السر محمد علي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات اللغوية والنحوية، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2009م، ص ص196-197.

[14]، و﴿تُدِيرُونَهَا﴾ [سورة البقرة، الآية: 282].

⑥ سداسية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿يَقْلُوبُنَا﴾ [سورة البقرة، الآية: 190].

⑦ سباعية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [سورة هود، الآية: 28]، و﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ [سورة البقرة، الآية: 137].

⑧ ثمانية المقطع مثل قوله تعالى: ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 144].

2- النبر:

تتفق جلّ المعاجم اللغوية في كون النبر لغة يحيل على معنى الهمز، وارتفاع الأشياء وعلوّها، بما فيها الأصوات حال النطق بها بدرجة من الارتكاز والضغط، ممّا يجعلها قويّة في السمع، أمّا في معناه الاصطلاحي فهو يقترب إلى حدّ كبير من دلالة المعجمية، فهاهو "بسم بركة" يعرفه قائلا: «يراد بالنبر Accent / Stress الضغط على أحد المقاطع وإبرازه بالنسبة للمقاطع الأخرى المجاورة له، والتي يكون معها (الوحدة النبرية) Unité accentuelle، ويتمّ ذلك بتغيّر في قوّة المقطع المعني و/ أو ارتفاعه، و/ أو مدّته، فعند النطق به يُلاحظ أنّ جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط، بحيث يصبح الصوت عاليا واضحا في السمع»⁽¹⁾.

يشير هذا التعريف إلى أنّ النبر معناه الضغط أو الارتكاز على مقطع من مقاطع الكلمة، أو السلسلة الملفوظة دون غيره من المقاطع الأخرى المشكّلة لها، هذا الضغط الذي يجعل المقطع المعني متفاوتا في درجته الارتكازية عن غيره من المقاطع، الأمر الذي يساهم في بروزه نطقا وسمعا عمّا سواه من المقاطع المجاورة له، ممّا يسمح للمستمع الاهتداء إلى موضع النبر وبالتالي فهم المقصود، وإدراك الأسباب التي دفعته إلى هذا النبر.

وما دام أنّ النبر هو ذلك الضغط على مقطع من مقاطع السلسلة الكلامية، مع الحرص على أن تكون درجة هذا الضغط أكبر على المقطع المقصود بالنبر، حتى لا تتساوى جميع المقاطع من ناحية الوضوح السمعي، فإنّ هذا يؤدّي بنا إلى فكرة أخرى وهي علاقة النبر بالمقطع الصوتي، علما أنّ النبر وإن كان ضغطا إلا أنّ الضغط يعدّ عاملا من عوامله وليس هو ذاته، يقول "فوزي الشايب" موضّحا طبيعة العلاقة التي تربط بين النبر والمقطع الصوتي: «هناك علاقة قويّة بين النبر وطول المقطع، ففوق النبر على مقطع ما قد يزيد في حجمه وكميّته، وانتقاله عنه يؤدّي إلى تقليصه وانكماشه، وزيادة كميّة المقطع قد تتمّ بإطالة حركته، وهذا ما حصل بالنسبة لـ (فُعَلِل) و(فُعَلِل)، ففوق النبر على المقطع الثاني زاد في كميّة حركته، فتحوّل البناءان بذلك من (فُعَلِل) إلى (فُعَلِل)، فكانت عُكّالط وُعُجالط، وكذلك بالنسبة إلى (فُعَلِل) تُحوّل إلى (فُعَلِل) فكانت جُنَادل»⁽²⁾.

(1) - بسم بركة: علم الأصوات العام - أصوات اللغة العربية، ص 101.

(2) - فوزي الشايب: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط 1، 1425هـ / 2004م، ص 169.

هذا، ويمكن أن نتميّز للنبر في لغتنا العربية بين نوعين أساسيين هما: نبر الكلمات ونبر الجمل، «فالنبر في الكلمة ذو موقعية تشكيلية صرفية، كصيغة اسم فاعل في كلمة: كاتب وقارئ وعالم؛ فالنبر هنا يخصّ حرفاً معيّناً من الكلمة، وهو فاء اسم الفاعل للكلمات المذكورة، أي على: ك، ق، ع، أمّا النبر في السياقات الكلامية أو الجمل أو المجموعات الكلامية، فهذا النوع من النبر لا علاقة له بالناحية الصرفية وإتّما يخصّ وظيفة المعنى العام، فهو نبر دلالي يهدف إلى تمييز الكلمة عن غيرها من كلمات الجملة والسياق»⁽¹⁾.

كما ينقسم نبر الكلمة أو ما يعرف بالنبر الصرفي بدوره إلى قسمين هما: النبر الرئيسي والنبر الثانوي، وهناك من اللغويين من جعله على ثلاثة مستويات: «النبر الأوّلي والثانوي والضعيف»⁽²⁾؛ فأما النبر الأوّلي أو الرئيسي فـ «يكون في الكلمات والصيغ جميعاً لا تخلو منه واحدة»⁽³⁾، وأمّا النبر الثانوي فـ «يكون في الكلمة أو الصيغة الطويلة نسبياً، بحيث يمكن لهذه الكلمة أن تبدو للأذن كما لو كانت كلمتين، أو بعبارة أكثر دقّة عندما تشتمل الكلمة على عدد من المقاطع، يمكن أن يتكوّن منه وزن كلمتين عربيتين، فكلمة {مستحيل} مثلاً يمكن في مقاطعها أن تكون وزن كلمتين عربيتين هما: {بَعْدَ مَيْلٍ}، ومن ثمّ تشتمل على نبر أوّلي على المقطع الأخير، ونبر ثانوي على المقطع الأوّل منها، ويبقى المقطع الأوسط وهو ما يقابل الدال المفتوحة دون نبر»⁽⁴⁾.

ولا يمكن للنبر الثانوي حينما يجتمع مع النبر الأوّلي أن يقع قبل هذا الأخير، بل لابدّ أن يسبقه دائماً سواء أكان متّصلاً به مباشرة أم تفصلهما مسافات محدّدة، ممّا يعني أنّ النبر الثانوي إمّا يبدأ من حيث ينتهي النبر الأوّلي في اتجاه عكسي مجرى ترتيب الكلمة؛ أي من اليسار إلى اليمين، ولعلّ هذا ما يمكن أن نلمسه من خلال كلام "تمام حسّان" في باب تمييزه بين النبر الأوّلي والثانوي قائلاً: «وينقسم النبر الصرفي إلى قسمين بحسب قوّة النطق ودرجة الدفّعة: أوّلي وثانوي، وإتّما سمّي الأوّل كذلك لسببين؛ أولاً لأنّه أقوى من الثانوي، وإنّ استعمال كلمة أوّلي بهذا المعنى يقتضي كلمة ثانوي بالضرورة، وثانياً: لأنّ موضع النبر الثانوي إمّا تقاس مسافته في المقاطع بالنسبة للأوّلي، فإذا وضعت قاعدة المسافة بين الأوّلي والثانوي بعدد من المقاطع، ظهر الإيقاع اللغوي الخاص باللغة العربية»⁽⁵⁾.

(1) - عبد القادر شاكّر: علم الأصوات العربية (علم الفونولوجيا) - دراسة تبحث في مستوى التشكيل الصوتي القديم الجديد، ص 70-71.

(2) - عبد القادر عبد الجليل: الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1417هـ/1997م، ص74.

(3) - عطية سليمان أحمد: في علم الأصوات - الفونيمات فوق التركيبية في القرآن الكريم (المقطع - النبر - التنغيم) (سورة الواقعة أمّودحجا)، ص52.

(4) - المرجع نفسه، ص 52-53.

(5) - تمام حسّان: مناهج البحث في اللغة، ص161.

أما فيم يخصّ قواعد وشروط النبر، فإنّه يُجرى في لغتنا العربية على ما يلي: ⁽¹⁾

① إذا كانت الكلمة مؤلّفة من مقطع واحد، فالنبر عليه إطلاقاً أيّاً كان شكل هذا المقطع، مثل: عُذٌّ، نَمٌّ، صِلٌّ... إلخ.

② إذا كانت الكلمة مؤلّفة من مقطعين؛ فالنبر على ثانيهما إطلاقاً (ويجري العدّ بصورة عكسية، أي من الشمال إلى اليمين)؛ لأنّ الأوّل لا يُنبر في العربية مطلقاً أيّاً كان شكله، إلّا إذا كان هو المقطع الوحيد في الكلمة، ومثال ذات المقطعين: {قَامَ = قَا - مَ} أو {عُودًا = عُو - دَا}، أو {بِهَا = بَ - هَا}، أو {لَكُمْ = لَ - كُمْ}،... إلخ.

③ إذا كانت الكلمة مؤلّفة من ثلاثة مقاطع فأكثر، وكان الثاني منها من الأشكال المقطعية المتوسطة أو الطويلة، كان النبر عليه مثل: {يَسْتَهْدِي = يَسْ - تَهْ - دِي}.

④ إذا كانت الكلمة مؤلّفة من ثلاثة مقاطع فأكثر، وكان الثاني منها قصيراً، فالنبر على الثالث أيّاً كان شكله، مثل: {اسْتَعْفَرَ = اسْ - تَعْ - رَ}.

⑤ لا يتعدّى النبر المقطع الثالث أبداً.

في العموم يُجمل "الغامدي" قواعد النبر في العربية بقوله: «النبر في العربية له وتيرة شبه ثابتة، فهو يقع على الصائت الأوّل في الكلمة، إذا كانت بقيّة الصوائت قصيرة، وعلى الصائت الطويل إذا كان هناك صائت طويل واحد في الكلمة، وعلى الصائت الطويل الأخير إذا كان هناك أكثر من صائت طويل في الكلمة» ⁽²⁾.

فـ "الغامدي" ههنا وظّف مصطلح "الصائت" لا المقطع، والذي هو جزء منه، وعلة ذلك كما أسلفنا أنّ الصائت يمثّل نواة المقطع، وعليه يقع النبر لا على الصامت.

هذا، ويجب الانتباه إلى ثلاثة أمور: ⁽³⁾

① لا تحسب (ال) التعريف في مقاطع الكلمة.

② كلّ ما يلحق الكلمة من ضمائر متّصلة، أو ما يسبقها من حروف المضارعة داخل فيها أثناء عدّ المقاطع.

③ يحدّد موقع النبر على أساس أنّ الكلمة منطوقة في حالة الوصل، وبعد التحديد لا يهّم أن تنطقها موصولة أو موقوفاً عليها بالسكون، لأنّ موقع النبر لا يتغيّر بين وصل ووقف.

ويستثنى من ذلك أن يكون النبر على المقطع الثالث من الكلمة وهو قصير، فحين الوقف على مثل هذه

الكلمة يتأخّر النبر إلى المقطع الرابع، وذلك نحو: (المدرسة، فالمقطع المنبور في هذه الكلمة في حالة الوصل هو:

(1) - محمد الأنطاكي: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرّفها، ج 1، ص 52.

(2) - منصور الغامدي: الصوتيات العربية، ص 80.

(3) - محمد الأنطاكي: المرجع السابق، ص 53.

"ر": [أل - مَد - ر - س - ة]، وأما في حالة الوقف فينتقل النبر إلى "مَد": [أل - مَد - ر - س - ة].

إنّ الكلمات تتفاوت مواطن ومواقع نبرها، واختلاف هذه الأنبار يُنتج جرسا موسيقيا يُطلَق عليه تسمية "التنغيم"، ممّا يعني أنّ علاقة النبر بالتنغيم علاقة تلازمية، وإن كان بعضهم يميّز بين المصطلحين في الطرح والاستعمال، على أساس أنّ النبر خاص باللفظ المفرد (الكلمة الواحدة)، في حين أنّ التنغيم خاص بالسلسلة الكلامية (الجملة والتركيب)، يقول "الوزان" محددًا طبيعة العلاقة التي تربط النبر بالتنغيم: «إنّ صلة التنغيم بالنبر صلة وثيقة، فكلاهما يمكن أن يعدّ ملمحا تمييزيا للمعاني الدقيقة، أحدهما على مستوى الكلام، والآخر على مستوى الكلمة، فحينما يكون الضغط على الكلمة المفردة أو في سياقها هذا هو النبر، أمّا حينما يكون الضغط بمستوى ما في تشكيل صوتي معين للجملة (السلسلة الكلامية المتصلة) أو العبارة كلّها فهو التنغيم، والرابط بينهما يكمن في أنّ النبر وإن كان ضغطا على مقطع من مقاطع الكلمة المنفردة، النبر يتتابع على مستوى نسيج كلامي، وحصيلة هذا الإنبار تشكّل التنغيم»⁽¹⁾ والمعنى ذاته نجده عند الباحث "إبراهيمي بوداود" إذ يقول: «يرتبط التمظهر الصوتي للتنغيم بالبنية التركيبية للجملة ومسارها اللحني، فلن كانت خصوصية الضغط التي تسم النبر تتكشف من خلال البنية المقطعية للكلمة، فإنّ المستوى الذي يتأتّى من خلاله حضور التنغيم يستشرف الأفق التركيبي للجملة، وبذلك انساق التوصيف العلمي للتنغيم صوب اعتباره نمطا لحنيا»⁽²⁾.

في نهاية هذا العرض يمكن القول: إنّ العلاقة التي تربط التنغيم مع المقطع الصوتي والنبر علاقة وثيقة، فلا يمكن للتنغيم أن يحدث دون النبر على المقطع الأخير من الجملة التي تقع ضمنها الكلمة المنبور أحد مقاطعها؛ إذًا «هناك علاقة بين التنغيم والنبر والمقطع الصوتي في تحديد مستوى النغمة، فتسمّى صاعدة إذا تمّ صعودها من أسفل إلى أعلى على المقطع الذي وقع عليه النبر، وتسمى النغمة هابطة إذا تمّ نزولها من أعلى إلى أسفل على آخر مقطع وقع عليه النبر، وكذلك لا يحدث تنغيم من دون نبر للمقطع الأخير في الجملة، وأنّ النوعين يتفقان على كشف الحالة الشعورية والنفسية عند منشئ النص، أو القصدية في إثبات أمر ما، ولكنهما يختلفان في أنّ النبر لا يؤثّر في تغيير المعنى، على حين أنّ التنغيم له وظائف دلالية متعدّدة»⁽³⁾.

وبدوره أبرز اللساني "عبد السلام المسدي" العلاقة القائمة بين هذه الظواهر الثلاث بقوله: إنّ الحجم الكمي والتكثيف النوعي هما اللذان يبرزان الحدث الكلامي، بمعنى أنّ كثافة النبرات تسعى إلى خلق استطالة نغمية

(1) - تحسين عبد الرضا الوزان: الصوت والمعنى في درس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، ص 397.

(2) - إبراهيمي بوداود: "فونولوجيا التنغيم والنبر في بنية المنطوق العربي"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب - مجلة علمية محكّمة نصف سنوية صادرة عن المركز الجامعي لتمنراست، الجزائر، مج 08، ع 05، ديسمبر 2019م، ص 211.

(3) - تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، ص 88.

في المقطع.⁽¹⁾

3- الوقف:

من المسلمّ به أنّ النطق والأداء يعتمدان على التَّنَفُّس، والوقف استراحة يلجأ إليها القارئ أو المتكلّم، ليعاود استئناف قراءته أو كلامه فيما بعد، وما بين استمرار الكلام والوقف والاستئناف؛ نغمات وتسلسل صوتي يدركها السامع وتعيها الأذن المدرّبة، لذا فرّق العلماء بين الوقف والسكت؛ فالوقف قطع الصوت على الكلمة زمناً يُتَنَفَّسُ فيه عادة بنيّة استئناف القراءة، لينشأ عنه ما يسمّى بـ: **النغمة المنحدرة** في أغلب الأحيان، وعلى هذا لا يمكن تصوّر وقف لا يلازمه نطاق تنغيمة ما، ومن هنا نستطيع إدراك أنّ الوقف يُسهّم في تقطيع المركّبات التنغيمية، ومن ثمّ في تحديد دلالة الجملة، بينما السكت هو قطع الصوت من غير تَنَفُّسٍ زمناً دون زمن الوقف عادة، وهذا ما ينشأ عنه النغمة المستوية، كما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ سُبُوحًا ۝ قِيمًا لِيُنذِرَ...﴾ [سورة الكهف، الآيتين: 1 و2]، فالسكت الذي على {قِيمًا} أنتج نغمة مستوية، ترتفع بعد معاودة القراءة.⁽²⁾

يفهم من هذا الكلام أنّ الوقف لا يتحقّق إلّا عند تمام الكلام في مبناه ومعناه، ما دام أنّ النغمة المصاحبة له نغمة منحدرة؛ إذ أنّ هذه الأخيرة لا تكون إلّا حينما يكون الكلام مكتملاً، ويرمز للوقف كتابة بنقطة (.)، وعادة ما نجدها في الجمل التقريرية والخبرية لأنّها تامّة المعنى، ولا يجوز وقوعها في مواضع يكون فيها المبنى والمعنى غير كاملين.

يقول "أبو بكر الأنباري" (ت: 328هـ) متحدّثاً عن أهمية الوقف في أداء الآيات القرآنية وتحديد معانيها: «...فهو يوضّح كيف وأين يجب أن ينتهي القارئ لأي القرآن الكريم بما يتفق مع وجوه التفسير، واستقامة المعنى وصحّة اللغة، وما تقتضيه علومها من نحوٍ وصرفٍ ولغةٍ، حتى يستتمّ القارئ الغرض كلّ من قراءته، فلا يخرج على وجه مناسب من التفسير والمعنى من جهة، ولا يخالف وجوه اللغة وسبل أدائها، التي تعين على أداء ذلك التفسير والمعنى، وبهذا يتحقّق الغرض الذي من أجله يُقرأ القرآن ألا وهو الفهم والإدراك، فإذا ما استطاع القارئ أن يفعل ذلك، وتمكّن من مراعاته في وقفه عند نهاية العبارة، فإنّه لا شك سوف يبدأ العبارة على النحو الذي توفّر له في وقفه، فهو لا يبدأ إلّا من حيث يتمّ به المعنى من جهة، وبما لا يباين اللغة وعلومها من جهة أخرى، وهو ما

(1)- ينظر: عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، ط2، 1986م، ص264.

(2)- ينظر: زهر الدّين رحمان: "دلالة التنغيم في القرآن الكريم (سورة الزمر نموذجاً)"، ص10. أحمد البايي: القضايا التطريزية في القراءات

القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص356. وكذا: صلاح سيف: العقد المفيد في علم التجويد، ص81.

حرصت عليه العرب في أداء عباراتها، واهتمت له في كلامها شعره ونثره»⁽¹⁾.

أمّا السكت فتصاحبه نغمة مستوية أو صاعدة أحياناً، دليلاً على ارتباط الكلام السابق باللاحق وعدم اكتمال معناه بعد، ويُرمز للسكت كتابةً بفاصلة (،)، وليس المقصود من هذه العلامة دلالة الفصل بين أجزاء التركيب، وإمّا هي فاصلة نطقاً فقط، واصلة مبنا ومعنا، وإذا كان الوقف يأتي بعد تمام الكلام واكتمال مبناه ومعناه، فإنّ السكت يقع بين الجمل ذات الشقين المتكاملين، مثلما هو الحال مع الجمل الشرطية.

قياساً على ما قيل يعدّ الوقف والسكت عاملين مهمّين يتدخلان في إنتاج التنغيم، إذ من المسلمّ به أنّ عملية النطق تستدعي إدخال الهواء على دفعات وإخراجه على دفعات أيضاً، وفق مقاطع متعاقبة يتناوب فيها النطق مع الصمت، ممّا ينتج عن هذه الميكانيزمات النطقية موسيقى إيقاعية وسلسلة تنغيمية تستهوي أذن السامع وتثير انتباهه، ولعلّ هذا ما دفع "محمد الخولي" إلى وصف التنغيم بأنّه: «إعطاء القول الأنغام المناسبة والفواصل المناسبة، وقد يكون القول كلمة أو جملة أو جزءاً من جملة، والقول كلام مسبوق بصمت ومتبوع بصمت»⁽²⁾.

كما أنّ الوقف يؤدّي دوراً جوهرياً في تحديد اتجاه النغمة (نوع التنغيم)، فهو جزء من التنغيم، يقول أحد الباحثين: «التنغيم أوسع من أن يُحصَر في ما يسمّى بهبوط النغمة أو صعودها، ولكن كلّ ما يحيط بالنطق من طرق الأداء، هذه الطرق تشمل الوقف والسكت وعلوّ الصوت ونبر المقاطع وطول الصوت وغير ذلك...»⁽³⁾، ويضيف آخر في ذات الصدد مصرّحاً بقوله: «وهناك عنصراً آخر يُسهّم في تنوّع النمط التنغيمي وهو الوقف "Pause" (...)، وصلته بالتنغيم أصيلة، لأنّه من العناصر المهمّة التي يستند عليها التنغيم»⁽⁴⁾.

إذاً، فالتنغيم إمّا يتشكّل من تضافر جملة من العوامل الأدائية المحيطة بالسلسلة الكلامية، ومن بين هذه العوامل: الوقف، فلا يُعقل أن نحصر مفهومه في صعود النغمة أو هبوطها أو استوائها فقط.

مثلما يتدخل الوقف في تحديد منحني النغمة، يساهم التنغيم هو الآخر في تحديد طبيعة الوقف، فالعلاقة بينهما متبادلة، وعلى الأساس الصوتي والأداء التنغيمي تمّ التمييز بين ضربين من الوقف هما:⁽⁵⁾

(1) - أبو بكر محمد بن القاسم بن بشر الأنباري النحوي: كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ، ج1، تح: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، دط، 1390هـ / 1971م، صص 21-22.

(2) - محمد علي الخولي: معجم علم الأصوات، ص47.

(3) - حيدر جبار: "التنغيم في الدرس اللغوي بين القدامى والمحدثين"، مجلة دراسات نحوية، كليات الآداب - مجلة علمية فصلية محكمة، جامعة الكوفة، العراق، ع5، دس، ص313.

(4) - عائشة خضر أحمد البدراني: "مقومات التنغيم ودلالاته"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلة علمية محكمة تصدر كلّ شهرين عن كليات التربية، جامعة تكريت، العراق، مج18، ع02، نيسان 2011م، ص108.

(5) - سلمان حسن العاني: التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية، ص140.

- الوقف النهائي "Final"، ويرمز له بـ /↑/ عندما يكون التنغيم صاعداً "Rising"، ويرمز له بـ /↓/ عندما يكون التنغيم هابطاً "Falling".

- الوقف غير النهائي "Non-final"، ويرمز له بـ /←/.

المطلب السابع: صلة التنغيم بالترتيل

تبدو صلة التنغيم بالترتيل جدّ وثيقة؛ إذ تقتضي القراءة المرتلة أن يُوقَّع القارئ بصوته ملامح العلوّ الموسيقي، أي النغم والتنغيم، فالترتيل ليس فقط تجويد الحروف، بل هو أيضاً مراعاة المستوى اللحني، بل لا يمكن لهذا الأخير أن يتأتّى ويكون كاملاً إلاّ بحفظ هذه الملامح.⁽¹⁾

من المعلوم أنّ لأساليب القرآن الكريم عدّة أغراض منها: الأمر والنهي، الاستفهام والتعجب، السخرية والتهكم، الوعد والوعيد، وصف الجنة والنار، والردّ على الملحدين والكافرين، فليس من الطبيعي أن تُقرأ موضوعات هذه الأغراض كلّها بتنغيم واحد، ذلك لأنّ قراءة القرآن تتخذ أشكالاً تنغيمية متنوّعة، احتراماً للأغراض التي يرمي إليها، ولعلّ هذا ما تنبّه إليه الإمام "بدر الدّين الزركشي" (ت: 794هـ) حين نجده يقول في مصنّفه الشهير "البرهان في علوم القرآن": «فمن أراد أن يقرأ القرآن بكامل الترتيل فليقرأه على منازله، فإن كان يقرأ تهديداً لفظاً به لفظاً المتهدّد، وإن كان يقرأ لفظاً تعظيماً لفظاً به على التعظيم».⁽²⁾

على هذا الأساس فأداء كلمات القرآن ليس مجرد أصوات يختصّ علم التجويد بإتقان مخارجها، وإعطائها حثّها ومستحثّها فحسب، إنّما هي ملامح نغمية وتنغيمية ينبغي أن تُصان وتُحفظ، ممّا يوحي بوجود صلة وثيقة بين تحقيق الصوامت والمصوّتات تحقيقا مجوّداً، وتوظيف ملامح العلوّ الموسيقي⁽³⁾. يقول "القرطبي" (ت: 671هـ) مشيراً إلى هذا المعنى: «القراءة هي أصوات القراء ونغماتهم».⁽⁴⁾

ومّا يدلّ دلالة واضحة على علاقة التنغيم بالترتيل أحاديث الرسول الأكرم ﷺ، حيث روى "أبو هريرة" عن النبي ﷺ أنه قال: «لَمْ يَأْذَنْ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ».⁽⁵⁾

(1) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص187.

(2) - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، دط، ص450.

(3) - أحمد البايبي: المرجع السابق، ص س.

(4) - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه في السنة وآي الفرقان، ج1، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ / 2006م، ص9.

(5) - أخرجه: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزّزّبة البخاري الجعفي: صحيح البخاري، مج3، ج6، كتاب "فضائل القرآن"، باب "من لم يتغنّ بالقرآن"، شركة الشهاب، الجزائر، دط، 1991م، ص107.

وجاء في سنن "أبي داود" قال رسول الله ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»⁽¹⁾، وقال أيضا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَعَنَّ بِالْقُرْآنِ»⁽²⁾.

المطلب الثامن: التنعيم والفاصلة القرآنية

كما جرت العادة، وقبل الخوض في تبيان صلة التنعيم بالفاصلة القرآنية، لا بدّ أولاً من الوقوف على ماهية هذه الأخيرة، من أجل اكتشاف نقاط الالتقاء بينهما.

ورد في المعجم "الوجيز" لمجمع اللغة العربية في تفسير مادة "فَصَلَ": «فَصَلَ الْقَوْمُ عَنِ الْبَلَدِ: خَرَجُوا، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [سورة البقرة، الآية: 249]، وبين الشيعين فَصَلًا وفُصُولًا: فَرَّقَ، وَالْحَاكِمُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ: قَضَى، وَالشَّيْءُ عَنِ غَيْرِهِ فَصَلًا: أَبْعَدَهُ، وَالشَّيْءُ: قَطَعَهُ، وَالْمَوْلُودُ عَنِ الرِّضَاعِ فَصَلًا: فَطَمَهُ (...). فَصَلَ الشَّيْءُ: جَعَلَهُ فُصُولًا مَتَمَيِّزَةً مُسْتَقَلَّةً، وَالْأَمْرُ: بَيَّنَّهُ (...). وَيَقَالُ فَصَلَ الْخَيْطُ الثَّوْبَ: قَطَعَهُ عَلَى قَدِّ صَاحِبِهِ (...). انْقَطَعَ الشَّيْءُ: انْقَطَعَ (...). الْفَاصِلَةُ: حَرَزَةٌ خَاصَّةٌ تَفْصِلُ بَيْنَ الْحَرَزَتَيْنِ فِي الْعَقْدِ وَنَحْوِهِ، وَالْعَلَامَةُ فِي حِسَابِ الْكُسُورِ الْعَشْرِيَّةِ تَكْتُبُ بَيْنَ الْكُسْرِ وَالْعَدَدِ (...). الْفَصْلُ: الْفَرْجَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَالْحَاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ (...). وَالْفَيْصَلُ: الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ...»⁽³⁾.

إذًا، فالفاصلة في معناها المعجمي تحيل على معنى التفريق، وجعل الشيعين أحدهما مستقلاً عن الآخر، وهو معنى لا يتعد كثيرا عن المعنى الاصطلاحي كما سنرى، لأنّ الفاصلة في القرآن هي التي تفصل آية عن أخرى داخل السورة الواحدة.

من أشهر العلماء القدامى الذين عكفوا على تعريف الفاصلة القرآنية "أبو بكر الباقلاني" (ت: 402هـ)، حيث نجده يحدّها قائلاً: «وَأَمَّا الْفَوَاصِلُ فَهِيَ حُرُوفٌ مَتَشَاكِلَةٌ فِي الْمَقَاطِعِ، يَقَعُ بِهَا إِفْهَامُ الْمَعَانِي، وَفِيهَا بِلَاغَةٌ، وَالْأَسْجَاعُ عَيْبٌ، لِأَنَّ السَّجْعَ يَتَّبِعُهُ الْمَعْنَى، وَالْفَوَاصِلُ تَابِعَةٌ لِلْمَعَانِي»⁽⁴⁾، وهاهو بدوره صاحب "الإتقان" جلال الدين السيوطي "يعرّفها بقوله: «الفاصلة كلمة آخر الآية، ككفاية الشعر وقرينة السجع»⁽⁵⁾.

ومن المحدثين الذين عرّفوا الفاصلة "أحمد بدوي"، إذ يرى بأنّ الفاصلة القرآنية «نعني بها تلك الكلمة التي

(1) - أخرجه: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، دس، ص227.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

(3) - مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، دار التحرير للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية، دط، 1989م، مادة "فَصَلَ".

(4) - أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، دط، دس، ص409.

(5) - جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، ط1، 1429هـ/ 2008م، ص609.

تُختم بها الآية من القرآن، ولعلّها مأخوذة من قوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ فَضَّلْتَ آيَاتُهُ وَقُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فضّل، الآية: 03]»⁽¹⁾، ويضيف قائلاً في بيان علّة تسميتها بهذا الاسم: «وربّما سمّيت بذلك، لأنّ بها يتمّ بيان المعنى، ويزداد وضوحه جلاء وقوّة، وهذا لأنّ التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [سورة فضّل، الآية: 44]».⁽²⁾

إنّ المتمعّن في التعريفات السابقة للفاصلة، وغيرها من التعريفات المثبوثة هنا وهناك في ثنايا المصنّفات القديمة والحديثة، يجدها تتفق عموماً في أنّ موقع الفاصلة آخر الآية، إذ تساهم في توضيح الدلالات وتحسين المعاني والاستراحة من الكلام، بيد أنّ هناك من اختلف مع هؤلاء وهو "أبو عمرو الداني" (ت: 444هـ)، إذ عدّ الفاصلة كلمة آخر الجملة، وفي هذا الصدد يعقّب "محمد الصغير" على كلام "الداني" مبطلاً اتجاهه جملة وتفصيلاً قائلاً: «إذ قد تشتمل الآية الواحدة على عدّة جمل، وليست كلمة آخر الجملة فاصلة لها، بل الفاصلة آخر الكلمة في الآية، ليعرف بعدها بدء الآية الجديدة، بتمام الآية السابقة لها».⁽³⁾

وبالعودة إلى التعريفات السابقة أيضاً نجد أنّها قابلت مصطلح الفاصلة بمصطلحي القافية في الشعر والسجع في النثر، وهذه النقطة بالذات أسالت كثيراً من الخبر قديماً وحديثاً، حيث استنكر كثير من العلماء والباحثين تشبيه القرآن الكريم بكلام البشر شعراً أو نثراً، فـ "محمد الصغير" واحد من هؤلاء الذين انتصروا للقرآن الكريم مستهجنين هذا الصنيع، إذ يقول متحدّثاً عن الفاصلة المسماة قافية: «وقد تكون هذه التسمية [ويقصد الفاصلة] اقتباساً من قوله تعالى: ﴿الرَّكْبُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ وَقُرْآنُكَ خَيْرٌ﴾ [سورة هود، الآية: 01]، ولا يجوز تسميته قوافي إجماعاً، لأنّ الله لما سلب عن القرآن اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً، لأنّها منه وخاصة في الاصطلاح».⁽⁴⁾، ومن جانبها استنكرت الباحثة المعاصرة "سناء حميد البياتي" هذه المسألة قائلة: «وقد اختصّت لفظة الفاصلة بالقرآن الكريم، ولم يكن مناسباً أن تطلق لفظة السجع أو القافية على الكلمة التي تختم بها الآية القرآنية، تنزيهاً للقرآن الكريم من أن يكون شبيهاً بحديث الكهّان الذي ارتبطت به لفظة السجع، أو أن يكون ضرباً من الشعر الذي ارتبطت به لفظة القافية، وهذا فضلاً عن أنّها - أي الفاصلة - تجمع الصفات الفنيّة التي تحملها القافية والسجعة، وتزيد عليهما بشحنة المعنى ووفرة النغم والسعة في الحركة، ولقد عدّ علماء البلاغة الفاصلة ركناً من أركان السجع، فهذا الأخير أعجم من الفاصلة، والتي تعدّ من أهمّ أركانه، فإليها تنحدر موجات

(1) - أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، شركة تحضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دط، 2005م، ص 64.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

(3) - محمد حسين علي الصّغّير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ / 2000م، ص 143.

(4) - المرجع نفسه، ص ن.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

النغم وبها يحتتم الإيقاع، وعليها يتوقف جلاء المعنى، فهي في موقع يجعلها تحمل طاقة هائلة في دلالتها وفي جرسها ونغمها»⁽¹⁾.

يُفهم من خلال هذا الكلام أنّ النغمة الأخيرة التي تُحتتم بها السلسلة الكلامية المنطوقة، تصاحبها عادة فاصلة صوتية مناسبة لها وللمقام الذي يتحكم في طبيعة المنطوق، وهذا ما يعزّز الفكرة التي سبقت الإشارة إليها أثناء عقد علاقة بين التنغيم والوقف، فالسكت تصاحبه نغمة مستوية أو صاعدة تدلّ على أنّ الكلام لم يتم بعد بل لا يزال مستمرّاً، في حين أنّ الوقف تصاحبه النغمة الهابطة دلالة على تمام الكلام وكمال المعنى.

هذا، فيما يتعلّق بمفهوم الفاصلة القرآنية وعلّة تسميتها، فأما عن أنواعها فقد اختلفت الرؤى وتعدّدت الاتجاهات حول تحديد أصناف الفواصل، ولا بأس هنا أن نكتفي بتقسيم الفواصل إلى قسمين اثنين اعتماداً على معياري: حرف الروي والوزن، وعليه نتحصّل على الأضرب التالية:

1- الفاصلة حسب الحرف الأخير من الآية^(*): يمكن أن نميّز للفاصلة القرآنية بالنظر إلى الحرف الأخير من الآية بين الأنواع التالية:⁽²⁾

1-1: الفواصل المتماثلة: وتسمّى كذلك الفواصل المتجانسة أو ذات المناسبة التامة، فهي التي تماثلت حروف رويها كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الانفطار، الآيتين: 13-14]، وقد تتفق الفاصلتان لا في الحرف الأخير فحسب، ولكن في حرف قبله أو أكثر من غير أن يكون في ذلك كلفة ولا قلق، بل تنساب في لين وجمال وسلاسة. مثال التزام حرفٍ قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُفِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة التكوير، الآيتين: 15-16]، ومثال التزام حرفين قبل الروي قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِعِزَّةٍ رَيْكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [سورة القلم، الآيتين: 2-3]، ومثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الأعراف، الآيتين: 201-202].

(1) - سناء حميد البياتي: التنغيم في القرآن الكريم- دراسة صوتية، ص24.

(*) - يطلق الباحثون على هذا النوع الفاصلة بحسب حرف الروي؛ غير أنّ هذه التسمية سنتحفظ عليها في هذا البحث، نظراً لاختصاص حرف الروي بمجال الشعر وكلام العرب، وكما هو معلوم أنّ القرآن الكريم منزه عن مثل هكذا كلام، لأنّ سبحانه وتعالى لمّا نفى عن القرآن اسم الشعر، فإنّه بذلك قد سلب عنه تلقائياً كل ما يمتّ له بصلة، لذا ارتأينا أن نجعل أقسام الفواصل المذكورة أعلاه (الفواصل المتماثلة، الفواصل المتقاربة، والفواصل المنفردة) تحت اسم: الفاصلة حسب الحرف الأخير في الآية.

(2) - ينظر: محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1421هـ/2000م، صص 145، 148. وكذا: أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، صص 73-74.

1-2: الفواصل المتقاربة: وتسمى ذات المناسبة غير التامة، فهي التي تقاربت حروف رويها كتقارب الميم من النون في قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ۝﴾ [سورة الفاتحة، الآيتين: 3-4]، أو تقارب الدال مع الباء نحو قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝﴾ [سورة ق، الآيتين: 1-2].

هذان النوعان غالبان على الفواصل، لا يكاد أحدهما يزيد عددا على الآخر، لكن الملاحظ أنّ الفواصل المتماثلة تشيع في الآيات والصور المكيّة، على حين تغلب المتقاربة على الآيات المدنية.

وقد استقلّت الفواصل المتماثلة بإحدى عشر من سور المفصّل (السور القصار) ومعظمها مكّي هي:

① سور {القمر+ القدر+ العصر+ الكوثر} التي تماثلت فواصلها في حرف الراء.

② سورتا {الأعلى والليل} اللتان تماثلت فواصلهما في حرف الألف المقصورة.

③ سورة الشمس على فواصل الألف الممدودة بعدها (ها).

④ سورة الإخلاص على الدال.

⑤ سورة الناس على السين.

⑥ سورة المنافقون على النون.

⑦ سورة الفيل على اللام.

1-3: الفواصل المنفردة: وهو نوع نادر، وهذا الضرب من الفواصل لم تتماثل حروف رويها ولم تتقارب، كالفاصلة التي خُتمت بها سورة الضحى (سورة مكيّة): ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ [سورة الضحى، الآيات: 9-11].

2- الفاصلة بحسب الإيقاع^(*): الفاصلة أقسام من حيث توافر الوزن أو عدمه، ومن حيث اجتماع الوزن مع عنصر آخر أو انفراده، وعلى هذا الأساس نميّز بين الأنواع الآتية:⁽¹⁾

1-2: المُطْرَفُ أو المعطوف: هو ما اتفق في حروف الروي لا في الوزن نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝﴾ [سورة نوح، الآيتين: 13-14].

(*)- يطلق الباحثون على هذا النوع: الفاصلة بحسب الوزن، غير أنّ هذه التسمية أيضا ستحتفظ عليها في بحثنا هذا، نظرا لاختصاص مصطلح الوزن بمجال الشعر وكلام العرب عموما، فكما هو معلوم أنّ القرآن الكريم منزّه عن مثل هكذا كلام، لأنّ سبحانه وتعالى لمّا نفى عن القرآن اسم الشعر أو الكلام المسجوع، فإنّه بذلك قد سلب عنه تلقائيا كلّ ما يمتّ لهما بصلة، لذا ارتأينا أن نجعل كلّ أقسام الفواصل التي تمّ الوصول إليها على أساس هذا المعيار تحت تسمية: الفاصلة بحسب الإيقاع.

(1)- ينظر: محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، ص ص 149، 151.

2-2: المتوازي: وهو رعاية الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي، واشترط بعض العلماء ألا يقابل ما في الفقرة الأولى لما في الثانية في الوزن والتقفية، ومثاله قوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الغاشية، الآيتين: 13-14].

2-3: المتوازن: وهو ما راعى في مقاطع الكلام والوزن وحسب كقوله تعالى: ﴿وَمَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَرِزَابٌ مَبْنُوءَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الغاشية، الآيتين: 15-16].

2-4: المُرْصَع: وهو أن يكون المتقدم من الفقرتين مؤلفا من كلمات مختلفة، والثاني مؤلفا من مثلها في ثلاثة أشياء وهي: الوزن والتقفية وتقابل القرائن، قيل ولم يجيء هذا القسم في القرآن العظيم لما فيه من التكلف، وزعم بعضهم أنّ منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الانفطار، الآيتين: 13-14]، وليس كذلك لورود لفظة (إنّ) و(لفي) في كلّ من التركيبين، وهو مخالف لشرط التصريح، لأنّ شرطه اختلاف الكلمات في التركيبين جميعا، واحتجّ آخرون بشاهد أوفى شروطا فوطّدوا القاعدة، وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الْيَتَامَىٰ إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ تُعْرَبُونَ عَلَيْتَابِحَسَابُهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الغاشية، الآيتين: 25-26].

2-5: المتماثل: وهو أن تتساوى الفقرتان في الوزن دون التقفية، وتكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية، فهو بالنسبة إلى المرصع كالموازن بالنسبة إلى المتوازي، قال تعالى: ﴿وَأَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٣٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة الصافات، الآيتين: 117-118]، فالكتاب والصراط يتوازنان، وكذا المستبين والمستقيم، واختلفا في الحرف الأخير.

3- بين التنغيم والفاصلة:

بعد هذا الاستطراد حول مفهوم الفاصلة القرآنية وتحديد أنواعها نصل في النهاية إلى بيان طبيعة العلاقة التي تربطها بالتنغيم، يقول "كمال بشر" محددا إيّاها: «والتنغيم إنّما يتحدّد إطاره وتدرّك أنماط نغماته في نهايات الجمل بالفواصل الصوتية، ونعني بها الوقفات والسكتات والاستراحات، فهما (التنغيم والفواصل) متلازمان، وهما معا الأمارات الأساسية الدالة على أنماط التراكيب وكيفيات تكوينها، وبهما أيضا يمكن تصنيف هذه التراكيب إلى أجناسها النحوية، وتحليلها تحليلا لغويا سليما»⁽¹⁾.

المبحث الخامس: أنواع التنغيم ومستوياته

من منطلق أنّ العرب لا تُنتج كلامها على استقامة ووتيرة صوتية واحدة؛ أي أنّ الكلام العربي لا يكون على نسق واحد من النغمات، بل تشكيلات موسيقية مختلفة تتراوح بين الصعود والهبوط والاستواء، تعبيرا عن

(1)- كمال بشر: علم الأصوات، ص532.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

الأفكار والمشاعر والانفعالات، حسب ما تقتضيه السياقات وتستدعيه المقامات المحيطة بالحدث الكلامي، لذا فقد وضع علماء اللغة للتنعيم عدّة أنواع أو درجات حسب النغمة التي ينتهي بها كلّ نوع منها. هذا وقبل الخوض في عرض هذه الأنواع ارتأيت بداية أن أسلّط الضوء على تلك المصطلحات التي وقف عليها "تمام حستان"، والتي على أساسها يمكن تحديد أنواع التنعيم هي: (1)

① **شكل النغمة:** وهو إمّا صاعد وإمّا هابط وإمّا ثابت.

② **المدى:** وهو تلك المسافة التي تفصل بين أعلى نغمة وأخفضها سعة وضيقاً.

③ **اللحن:** هو مجموع النغمات التي في المجموعة الكلامية؛ أي الترتيب الأفقي للنغمات التي يشتمل النموذج أو الميزان عليها، مع نظرة خاصة إلى النغمة المنبورة الأخيرة من هذا الترتيب.

④ **الميزان:** هو أعمّ من اللحن والمدى، ويشملهما جميعاً في الفهم.

وعلى أساس المصطلح الأوّل والثاني صنّف علماء اللغة التنعيم إلى الأنواع التالية:

1- التنعيم بحسب اتجاه وشكل النغمة:

إنّ كلّ كلمة أو جملة يتمّ النطق بها لا بدّ أن تشتمل على درجات متباينة من طبقات الصوت؛ ما بين عالية ومنخفضة ومعتدلة، تتناغم مع بعضها البعض لتشكّل الكلمة والجملة، باختلاف درجة الصوت في الكلمة وتباينها من مقطع إلى مقطع آخر تخضع له جميع لغات العالم، فلا يمكن أن نتصوّر لغة ما تستعمل نغمة واحدة على طول شريط الأداء، لذا فقد قسّم علماء اللغة التنعيم بالنظر إلى اتجاه النغمة إلى ثلاثة أقسام هي: **التنعيم الصاعد، التنعيم الهابط، والتنعيم المستوي**؛ فحسبما تنتهي السلسلة الكلامية صوتاً ودلالة يأخذ التنعيم شكله ونمطه. يقول "كمال بشر" في بيان هذه الأنواع: «ونغمات الكلام دائماً في تغيّر من أداء إلى آخر، ومن موقف إلى موقف، ومن حالة نفسية إلى أخرى، وللنغمات مدى من حيث الارتفاع والانخفاض تحسّسه الأذن المدريّة، فعندما ترتفع درجة التلوين الموسيقي نحصل على تنعيم مرتفع **Rising tone**، وعندما تنخفض هذه الدرجة نحصل على تنعيم منخفض **Falling**، أمّا إذا لزمّت هذه الدرجة مستوى واحداً، فالحاصل إذن نغمة مستوية **Level**». (2)

وهو المعنى ذاته الذي اهتمت إليه "فضيلة مسعودي" محدّدة أنواع التنعيم قائلة: «يمكننا تعريف التنعيم بالتغيّرات التي تطرأ على درجة الأصوات، أو بمعنى آخر التغيّرات في درجة التونات الموسيقية التي تنتجها الأحبال الصوتية، ففي الكلام العادي نلاحظ أنّ درجة الصوت في تغيّر مستمر، فعندما تكبر نقول أنّ هناك تنعيم متزايد،

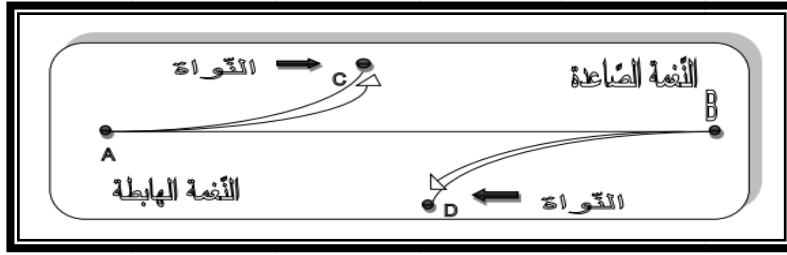
(1)- ينظر: تمام حستان: مناهج البحث في اللغة، ص ص 165-166.

(2)- كمال بشر: علم الأصوات، ص ص 533-534.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

وعندما تكون درجة الصوت منخفضة يكون التنغيم منخفضاً، وعندما تأخذ درجة الصوت مساراً أفقياً خلال فترة زمنية معيّنة نقول أنّ هناك تنغيم متوازن»⁽¹⁾.

نلاحظ أنّ المعيار المعتمد في تحديد أنواع التنغيم هو "نوع النغمة التي ينتهي بها الكلام المنطوق"، فإذا انتهى بنغمة مرتفعة سمّي تنغيماً صاعداً، وإن كانت آخر النغمات في اتجاه نازل سمّي حينئذ تنغيماً هابطاً، حتى وإن تحلّل التنغيم تلوّنات نغمية داخلية؛ بمعنى أنّه ليست بالضرورة أن تكون كلّ النغمات المشكّلة للسلسلة الكلامية من بدايتها إلى نهايتها متّجهة في اتجاه واحد، لأنّ العبرة بالنغمة النهائية التي يُختم بها الكلام. وهذا ما يوضّحه الشكل أسفله:



الشكل - 02 - (2)

تمثّل النقطتان A C النغمة الصاعدة في التيار الكلامي، حيث تشكّل النقطة C نواة المقطع الذي يقع عليه أثر التنغيم لتحقيق الغرض القصدي، أمّا النقطتان B D فيمثّلان النغمة الهابطة في التيار الكلامي، إذ تشكّل النقطة B ابتداءها و D نواة المقطع الذي يحمل درجة التنغيم.

بناءً على هذا، أضاف بعض اللغويين أنواعاً أخرى للتنغيم عدا الأنواع الثلاثة المذكورة آنفاً، وذلك بدعوة اختلاف اتجاه النغمات التي تتحلّل الكلام المنطوق، فهاهو "البركاوي" يصوغ للتنغيم خمسة أضرب هي:⁽³⁾

- ① **التنغيم الصاعد:** ويكون بأن يبدأ الكلام (الكلمة) بنغمة هابطة تتلوها أخرى صاعدة.
- ② **التنغيم الهابط:** وذلك حين يبدأ المتكلم بنغمة صاعدة تعقبها نغمة هابطة.
- ③ **التنغيم المستوي:** وذلك يكون باستواء النغمتين صعوداً أو هبوطاً.
- ④ **التنغيم الصاعد الهابط:** وذلك بأن تكون البداية هابطة يعقبها صعود يليه هبوط في النغمة.
- ⑤ **التنغيم الهابط الصاعد:** ويتمثّل ذلك في أن يبدأ الكلام بنغمة صاعدة، تليها نغمة هابطة ثمّ نغمة صاعدة

(1) - فضيلة مسعودي: التكرارية الصوتية في القراءات القرآنية - قراءة نافع أمّودجا، ص 40.

(2) - عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، ص 257-258.

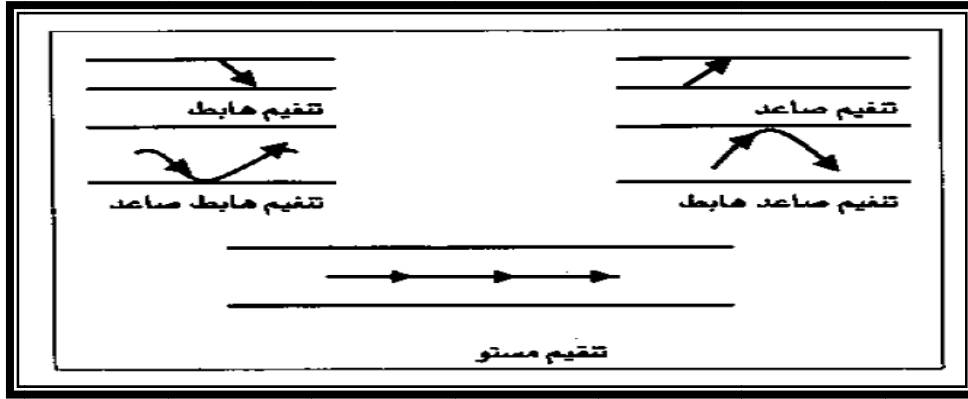
(3) - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي: مقدمة في أصوات اللغة العربية وفن الأداء القرآني، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط3، 1424هـ/

2004م، ص 204.

وهكذا.

هذا، ويُرمز للنغمة الصاعدة بالخطّ المائل ناحية اليمين هكذا: { / }، ويُوضع فوق المقطع ذي النغمة الصاعدة، أمّا النغمة الهابطة فيُرمز لها بالخطّ المائل ناحية اليسار هكذا: { \ }، ويُوضع فوق المقطع ذي النغمة الهابطة، في حين يُرمز للنغمة المستوية بخطّ أفقي هكذا: { - }، ويُوضع أعلى السطر أو أسفله أو وسطه، بحسب كون النغمة: مرتفعة أو منخفضة أو متوسطة، كما يُرمز للنغمة الهابطة الصاعدة بالرمز الذي يناسب درجة النطق وهو: { / \ }، حيث يوضع فوق النغمة الهابطة الصاعدة، في المقابل يُرمز للنغمة الصاعدة الهابطة هكذا: { \ / }، ويوضع الرمز فوقها مباشرة.⁽¹⁾

والشكل أسفله يوضّح مسار الأضرب الخمسة المذكورة أعلاه كما يلي:



الشكل - 03 - (2)

2- التنغيم بحسب المدى:

يحيل مفهوم المدى كما أشرنا آنفاً إلى تلك المسافة الفاصلة بين أعلى نغمة وأخفضها داخل الكلام سعة وضيقاً، حيث قام "تمام حسّان" بتقسيمه تقسيماً ثلاثياً، ففي محاولة منه لتفكيك نغمي لموسيقى العربية، رأى أنّ النغمات العربية تقوم على ثلاثة مديات هي: المدى الإيجابي، المدى السلبي، والمدى النسبي، وقع على هذا التقسيم من خلال دراسته للهجة عدن، حيث حاول "تمام حسّان" بعد ذلك أن يطبّقه على اللغة العربية الفصحى فوجده وافيًا بالعرض، ويرى من زاوية أخرى أنّ التقسيم المذكور يختلف عن التقسيم التقليدي الذي يستعمله الباحثون اللغويون، والذي يبنونه على قسمين أحدهما مؤكّد والآخر غير مؤكّد، ولكن التأكيد من وجهة نظره من الأفكار الذهنية، إذ يجب أن تقيّم الدراسة اللغوية على أساس الشكل والوظيفة، والتأكيد كفكرة ذهنية

(1)- ينظر: حسام البهنساوي: علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/ 2004م، صص 165-166.

(2)- عبد العزيز أحمد غلام وعبد الله ربيع محمود: علم الصوتيات، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1430هـ/

2009م، ص320.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

يكون في المدى الإيجابي كما يكون في السلبي من المديّات، فكما يؤكّد المرء بالصوت العالي يؤكّد أيضا بالصوت المنخفض جدّا.⁽¹⁾

بالنسبة للمدى الإيجابي فإنّه يُستعمل في الكلام الذي تصحبه عاطفة مثيرة، وأمّا المدى النسبي فيستخدم في الكلام الخالي من أيّة إثارة عاطفية، في حين يوظّف المدى السلبي في الكلام الذي تصحبه عاطفة تمبّط بالنشاط الجسمي العام كالخزن مثلا، وكلّ مدى من هذه المديّات يستعمل نمطين من النغمات، بحسب علوّ الصوت وانخفاضه أو صعوده وهبوطه، ليصير عدد النماذج التنغيمية ستّة هي: المدى الإيجابي الهابط، المدى الإيجابي الصاعد، المدى النسبي الهابط، المدى النسبي الصاعد، المدى السلبي الهابط، وال المدى السلبي الصاعد.⁽²⁾

هذا، ويستعمل النموذج الإيجابي الهابط في تأكيد الإثبات، وكذا في تأكيد الاستفهام بكيف وأين ومتى وبقية الأدوات فيما عدا هل والهمزة، أمّا إذا كان الاستفهام بهل أو الهمزة فإنّ النموذج المستعمل في التنغيم هو الإيجابي الصاعد، وللايثبات غير المؤكّد يستخدم النسبي الهابط، ومن ذلك التحيّة والكلام التام والاستفهام بغير هل والهمزة، أمّا إذا كان الاستفهام بهل والهمزة أو بلا أداة أبدا فالمستعمل النسبي الصاعد، ويوظّف السلبي الهابط في تعبيرات التسليم بالأمر نحو: "لا حول ولا قوّة إلّا بالله"، وعبارات الأسف والتحقّر وكلّ ذلك مع خفض الصوت، فإذا كان الكلام تمّنيا أو عتابا فالمستعمل السلبي الصاعد المنتهي بنفحة ثابتة أعلى ممّا قبلها. والفرق بين الثلاثة مديّات (الإيجابي والنسبي والسلبي) فرق في علوّ الصوت وانخفاضه؛ فالإيجابي أعلاها، والسلبي أخفضها وبينهما النسبي.⁽³⁾

إجمالا فإنّ التنغيم هو الصورة العامة التي تتمثّل في مجموعة النغمات التي يستعملها نوع خاص من أنواع الحدث اللغوي، ولذا كان لجملة الاستفهام نظام خاص للنغمات يختلف عن نظام جملة الشرط، أو التقرير أو الاختيار، وفيما يأتي مستويات التحليل التنغيمي من جهة نوع الأنماط التركيبية:⁽⁴⁾

❶ النغمة الصاعدة: تتمثّل في الأمر والترغيب والتعجّب والاستفهام والإثارة والغرابة والإهانة والنهي المحض.

❷ النغمة الهابطة: نجدها في سياق التمتّي والتهمك وإظهار الأسف والحزن.

❸ النغمة المستوية: وتتمثّل في التقرير والأساليب الخبرية والتذكير والنصح والإرشاد والنداء المحض، وكذا طلب

الانتباه.

(1) - ينظر: تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص ص165-166.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص ص166-167.

(3) - ينظر: نفسه، ص169.

(4) - ينظر: كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 2009م، ص ص53-54. وكذا:

تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، ص64.

- ④ النغمة المستوية الصاعدة: تغلب على السياقات ذات طابع التهديد والسخط والغضب والتأنيب.
- ⑤ النغمة المستوية الهابطة: وتتمثّل في: الإنكار والتوبيخ والعتاب والتعجيز والإهانة والسخرية.
- ⑥ النغمة الصاعدة الهابطة: وتتمثّل بالانتقال من موقف إظهار الفرح إلى موقف إظهار الحزن.
- ⑦ النغمة الهابطة الصاعدة: وتتمثّل في: الانتقال من موقف إظهار الحزن إلى موقف إظهار الفرح.

هذا، إلى جانب أغراض كثيرة أخرى سيتمّ التعرّض إلى النمط المناسب لها في الجانب التطبيقي بحول الله تعالى.

المبحث السادس: خصائص التنغيم وقيّمته في الاستعمال اللغوي

المطلب الأول: سيمات التنغيم: للتمييز خواصّ يتميّز بها هي:⁽¹⁾

① النغمة: ونعني بها حركة النغمة في العبارة التي يكوّنها ارتفاع جرس الصوت الأساسي أو انخفاضه، فالنغمة مكوّن نغمي.

② الشدّة: وهي المكون الإيقاعي الحركي.

③ الطول والسرعة: وهو المكوّن الزمني.

④ الوقف: أي القطع في النطق بأطوال مختلفة.

⑤ الحدّة: أي تلوّانات الكلام الشعورية والانفعالية.

⑥ يعتمد على المنطوق دون المكتوب، وإن كان اللغويون قد وضعوا علامات لترقيم تعبّر عن تلك النغمات مثل: (النقطة، الفصلة، علامة الاستفهام والتعجّب، ...)، وإن كان التنغيم يتميّز عن علامات الترقيم بأمرين:
- أولهما: أنّ النغمات متعدّدة ومتنوّعة وغير محدودة، بخلاف علامات الترقيم المحدودة.

- وثانيهما: أنّ التنغيم حياة وحركة واستحضارا للسياق الكلامي والموقف الاجتماعي، خاصة بعد ظهور الأجهزة الحديثة.

⑦ التنغيم ظاهرة صوتية تشترك فيها معظم اللغات؛ لكونها تؤثّر في تغيّر الدلالة دون أن تتغيّر المفردات.

وهذه الخصائص التنغيمية لا بدّ من وجودها جميعا في العبارة المنطوقة، وذلك لكون أيّ نطق لا يمكن أن يتمّ بمعزل عن قوّة الصوت أو شدّته أو سرعته، ومن ثمّ فهي تشارك جميعا في أداء وظيفتها، وعلى ذلك يصعب الفصل بينها.

(1) - نادية رمضان التّجار: اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، مراجعة وتقديم: عبده الراجحي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر،

المطلب الثاني: أهميّة التنعيم وقيّمته في اللغة

يقول "الجاحظ" مشيراً إلى أهميّة موسيقى الكلام في بيان المعنى كما يلي: «والصوت هو آلة البيان والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلاّ بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلاّ بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدّل والشكل والتّقلّ والتّثني واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور»⁽¹⁾.

الظاهر من خلال هذا القول وعي "الجاحظ" بكون الأداء التنغيمي قادراً على إجلاء المعاني التي تعجز عن إيضاحها الكتابة، بما في ذلك الإشارات والإيماءات المختلفة الصادرة عن الإنسان، كما اشترط "الجاحظ" من أجل الوصول إلى بيان المعنى المقصود من الكلام أن يكون مقروناً بما أطلق عليه بمصطلح: الدّل والشكل والتّقلّ والتّثني، ممّا يضفي على السياق الذي وُضع فيه الكلام حسناً في السمع، وقوّة في إبلاغ الدلالة، وسرعة في الإفهام.

إلى جانب تدخّل التنعيم في تحديد المعاني وبيّانها، فهو أيضاً يساعد على تمييز الأصوات والتفريق بين متكلميها، دون أن يستدعي ذلك النظر إلى الشخص المتكلّم أصلاً، يقول "ماريو باي" مبرزاً ذلك: «إنّ كيفية تنعيم الصوت هي التي تعيننا على التمييز بين الأشخاص»⁽²⁾.

مثلاً للتنعيم قيمة في الاستعمال اللغوي، فهو أيضاً ذو أهميّة بالغة في القرآن الكريم، ومن النماذج الدالة على دوره في قراءة القرآن على سبيل المثال، وجود عديد المواضيع التي لا تتبيّن منها دلالة التركيب إلاّ من خلال التنعيم، ففي مثل قوله تعالى على لسان سيدنا "إبراهيم" عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [سورة الأنعام، الآية: 77] بالاستفهام الذي لا يُدرك إلاّ من خلال التنعيم، ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿لَا تَسْخُدُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّي أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: 01] في: ﴿تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ التي تُنعم استفهاماً⁽³⁾.

المبحث السابع: ظاهرة التنعيم في تراثنا اللغوي العربي: بين الحضور والغياب

أثارت قضية وجود التنعيم من عدمه في التراث الفكري واللغوي عند العرب جدلاً واسعاً، وخلافاً حاداً بين الدارسين والعلماء؛ إذ انقسمت آراؤهم إلى ثلاثة مذاهب، فريق من الباحثين يرى بأنّ العرب الأوائل لم يلتفتوا إلى

(1)- الجاحظ: البيان والتبيين، مج1، ج1، ص63.

(2)- ماريو باي: أسس علم اللغة، ص92.

(3)- رضا زلاقي: "التنعيم في اللغة العربية- رؤية فيزيائية"، مجلة الممارسات اللغوية- مجلة علمية دولية محكمة فصلية تصدر عن مخبر الممارسات اللغوية بجامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)، مج5، ع4، ديسمبر 2014م، ص70.

هذه الدراسة مطلقا، ولم تتناولها مصنفاتهم، بينما يرى فريق آخر بأنّ القدامى قد أدركوا هذا الجانب الصوتي من الدراسة اللغوية، وحتّتهم في ذلك وجود بعض الإشارات واللمحات المبتوثة هنا وهناك في كتب هؤلاء، والتي توحى بوعيهم لهذه الظاهرة، في المقابل نجد فريقا ثالثا قد أمسك العصا من الوسط، فهو لم ينكر وجود الظاهرة في التراث، ولكنه أكّد على شحّ وقلة الدراسات حولها.

من الدارسين العرب الذين يمثّلون الفريق الأوّل الباحث المصري "تمام حسّان"؛ إذ نجده يقول في كتابه "مناهج البحث في اللغة": «إنّ دراسة النبر ودراسة التنغيم في العربية الفصحى يتطلّب شيئا من المجازفة، ذلك لأنّ العربية الفصحى لم تعرف هذه الدراسة في قديمها، ولم يسجّل لنا القدماء شيئا عن هاتين الناحيتين، وأغلب الظنّ أنّ ما ننسبه للعربية الفصحى في هذا المقام، إنّما يقع تحت نفوذ لهجاتها العامية...»⁽¹⁾، ف "تمام حسّان" ينكر إنكارا تامّا وجود ظاهرة التنغيم في اللغة العربية الفصحى، وإنّ أمكن حسبه الإقرار بوجودها، فإنّ ذلك يرجع إلى اللهجات التي تندرج ضمنها. هذا، وقد ذهب مذهب "تمام حسّان" المستشرق الألماني "برجشتراسر" الذي يرى بدوره هو الآخر انعدام الظاهرة عند العرب القدامى، بيد أنّه يُفصّر نفيه في تناول هذه الظاهرة في تراثنا العربي على علماء النحو والقراء القدامى، دون أهل الأداء والتجويد، وفي هذا الصدد يقول: «نتعجّب كلّ العجب من أنّ النحويين والمقرئين القدماء لم يذكروا النغمة ولا الضغط أصلا، غير أنّ أهل الأداء والتجويد خاصة رمزوا إلى ما يشبه النغمة، ولا يفيدنا ما قالوه شيئا؛ فلا نصّ نستند عليه في إجابة مسألة: كيف كان حال العربية الفصيحة في هذا الشأن»⁽²⁾.

ولكن ما يثير التساؤل في الكلام الذي ساقه "برجشتراسر" هو تمييزه اللامنتقي بين المقرئين القدامى وأهل الأداء والتجويد هذا من جهة، وكذا فصله بين المقرئين وأهل التجويد من جهة ثانية، وبينهم وبين النحويين من جهة ثالثة، خاصة وأنّ جلّ النحويين القدامى كانوا قراء وأهل أداء، ألا ترى أنّ الإمام "أبو عمرو بن العلاء" (ت: 154هـ) من أشهر نخّاة البصرة، وهو أيضا قارئ من القراء السبعة، في المقابل "أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي" (ت: 189هـ) إمام نخّاة الكوفة وهو أيضا أحد القراء السبعة، والقائمة طويلة.

هذا، وقد فتّد من جهته "سمير العزّاوي" ما ذهب إليه "برجشتراسر" مصرّحا بقوله: «كان نخّاة العرب على وعي بأهمية التنغيم في تحليل النصّ اللغوي، خلافا لما ذهب إليه "برجشتراسر" في كتابه "التطوّر النحوي للغة العربية" و"هنري فليش" في كتابه "العربية الفصحى"»⁽³⁾.

(1) - تمام حسّان: مناهج البحث في اللغة، ص ص163-164.

(2) - برجشتراسر: التطوّر النحوي للغة العربية، ص72.

(3) - سمير العزّاوي: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، ص201.

وإلى اتجاه "برجستراسر" يذهب المفكر "جان كانتينو" الذي ينفي بدوره وجود الظاهرة في تراثنا العربي، إذ نجده يقرّ بعدم إمكانية التعويل على التراث العربي في مسألة التنغيم، لأنّ النحاة العرب لم يسجلوا هذه الظاهرة، مستثنياً في ذلك دراسة الوقف، وفي هذا الإطار يقول: «لا يمكن أن نعول على النحاة القدامى فيما يخصّ التطريز^(*)، فهم لم يهتموا بكمية الحركات والإيقاع الشعري المبني على هذا الكمّ، فإنهم لم يهتموا لا بنبرة الكلمة ولا بتنغيم الجملة، واختصرت دراستهم على الوقف»⁽¹⁾.

من الباحثين العرب أيضاً الذين أنكروا وجود ظاهرة التنغيم في التراث، وعلى وجه التحديد في النحو العربي "محمد الأنطاكي"، حيث يصرّح هذا الأخير بوضوح أنّ نحاة العرب لم يشيروا إلى قواعد قيام الظاهرة قائلاً: «إنّ قواعد التنغيم في العربية قديماً مجهولة تماماً، لأنّ النحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم»⁽²⁾.

إنّ الردّ على هذه المزاعم لا يكون إلاّ بالرجوع إلى اللغة العربية الفصيحة، تلك اللغة التي ورثناها مع القرآن الكريم، فإذا ما تأملنا النصّ القرآني وجدنا فيه كثيراً من النماذج التي يتدخل التنغيم في تحديد دلالتها وضبط معانيها، بيد أنّنا نلتمس العذر لهؤلاء المنكرين، كون التنغيم ظاهرة أدائية (نطقية) موسيقية بالدرجة الأولى، لا يمكن للكتابة أو الخطّ إثباتها إلاّ في حدود ضيقة جداً، ولذا يبدو أنّ الأمر قد اختلط على هؤلاء، فحينما لم يجدوا دراسة منفردة واضحة للتنغيم وغياب تام للمصطلح، توهموا أنّ الظاهرة منعدمة في اللغة، وكأهمّ بهذا قد اطمأنوا إلى أنّ ظاهرة متميّزة مثل هذه كانت لتخفى على علماء العربية الأفاضل.

هناك من الباحثين العرب الذين لم ينكروا وجود التنغيم في العربية، إلاّ أنّهم يعترفون في المقابل بقلة اهتمام السلف بهذا الجانب من الدرس اللغوي خاصة، الأمر الذي حال دون بلوغه درجة التقعيد، ولعلّ من بين هؤلاء "عبد السلام المسديّ"؛ إذ نجده يقول: «إنّ التنغيم في العربية له وظائف نحوية، لأنّه يفرّق بين أسلوب وآخر من أساليب التركيب، ومع هذا فإنّه لم يحظ لدى أجدادنا ببحث مستفيض أو تطبيق مستند إلى قواعد محدّدة»⁽³⁾.

(*) - يُطلَق اسم الظواهر التطريزية على كلّ ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى أو قيمة في الكلام المتّصل، وهذه الظواهر تكسو المنطوق كلّهُ، وتكسبه صفات مميّزة، وسمّيت بالظواهر التطريزية لأنّها أشبه بالظواهر أو السمات التطريزية التي قد تلحق بالثوب أو تضاف إليه، فتكسبه جودة ودقّة، وتجعله أكثر قبولا، ويقصد بها ظواهر التلوين الصوتي مثل: النبر والتنغيم والمقطع والوقف، وقد تسمّى أيضاً بالفونيمات الثانوية أو البروسوديات. ينظر: حامد الظالمي وسهير كاضم حسن: الدراسة التاريخية للظواهر التطريزية والظواهر الصوتية في اللغة العربية عند المستشرقين، مجلة آداب البصرة -

مجلة علمية فصلية محكمة، العراق، ع78، 2016م، ص94.

(1) - سامي عوض وعادل علي نعام: "دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية"، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية - سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية - مجلّة علمية فصلية محكمة، اللاذقية، سورية، مج28، ع1، 2006م، ص96.

(2) - محمد الأنطاكي: دراسات في فقه اللغة، ص197.

(3) - عبد السلام المسديّ: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص178.

ويسلك "رمضان عبد التّوّاب" طريقاً مماثلاً؛ إذ يرى هو الآخر بأنّ التنغيم لم يجد العناية الكافية من لدن القدماء، الأمر الذي يبرّر وجود شذرات متفرّقة حوله في بطون كتب هؤلاء، حيث يقول: «ولم يعالج أحد القدماء شيئاً من التنغيم ولم يعرفوا كنهه، غير أنّنا لا نعدم عند بعضهم الإشارة إلى بعض آثاره في الكلام، للدلالة على المعاني المختلفة، وكان ابن جني أحد الذين التفتوا إلى ذلك...»⁽¹⁾.

في الواقع أنّ التنغيم لم يحظ بدراسة مستقلة لدى علمائنا العرب القدامى، فهذه مسألة لا غبار عليها ولا خلاف حولها، لكن هذا لا يعني البتّة أنّهم لم يكونوا على دراية به، وبدوره في تحديد المعاني وتوجيه الأغراض، صحيح أنّ الحديث عن كنهه وأنواعه وآليات إنتاجه تكاد تكون منعدمة، لكنّه في المقابل لا يحقّ لأيّ عاقل أن ينكر تلك الإشارات الموثّقة هنا وهناك سواء أكان ذلك في كتب النحو العربي، أم في مختلف المصنّفات التي وُضعت في علمي القراءات والتجويد عموماً، هذه الأخيرة التي تحوي كثيراً من الشطحات إن جاز لنا هذا التعبير، والتي يكون للأداء التنغيمي فيها حكماً فاصلاً في تحديد الدلالات وتوجيه الأغراض، ومن الباحثين العرب الذين تحمّسوا لهذه الفكرة وانتصروا للظاهرة، مدافعين على الرأي القائل بوجود ظاهرة التنغيم في التراث اللغوي العربي الباحث "أحمد كشك"، إذ يرى أنّ القدماء قد أدركوا هذا الجانب لاحتواء كتبهم ما يثبت معرفتهم بالتنغيم، وما يدلّ على صدق تناولهم للظاهرة، هذا وإن أغفلوا في مقاربتهم تحديد القواعد التي تستند عليها قيام الظاهرة، حيث خصّص في كتابه "من وظائف الصوت اللغوي" فصلاً لدراسة التنغيم على أنّه ظاهرة نحوية، يقول فيه: «لو حاولنا أن نبحث عن إدراك يبيّن أنّ التنغيم جزء قاعدي من نظام نحوي أو صرفي محكم فلن نظفر بشيء ما، وعدم وجود قاعدة محدّدة له أمر لم يمنع من وجوده حقيقة نطقية في أقوال العرب القدامى وفي تراثنا اللغوي»⁽²⁾، ويضيف قائلاً في الإطار نفسه: «وقدامى العرب وإن لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغوية، وهم إن تاه عنهم تسجيل قواعد لها، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكيّة لمّاحة تعطي إحساساً عميقاً بأنّ رفض هذه الظاهرة تماماً أمرٌ غير وارد، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد...»⁽³⁾.

من المثبتين لوجود التنغيم في التراث العربي إلى جانب "أحمد كشك" الباحث المصري "كمال بشر"، إذ يؤكّد مصرّحاً بكون الظاهرة فطرية تولد مع الإنسان، فهو لا يكتسبها ولا يتعلّمها، يقول: «الرأي عندنا أنّ علماء العربية - شأنهم في ذلك شأن سائر النّاس - خبروا التنغيم ومارسوه في أدائهم الفعلي للكلام، إنهم فعلوا ذلك لا

(1)- رمضان عبد التّوّاب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص106.

(2)- أحمد كشك: من وظائف الصوت اللغوي- محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص56.

(3)- المرجع نفسه، ص ن.

بالتلقين أو التعليم المرسوم القواعد والقوانين، وإمّا كانوا يأتون به على وجهه الصحيح بالعادة والسليقة والدرية، كما كانوا يفعلون مع الأحداث اللغوية الأخرى، من أصوات وصيغ صرفية وتراكيب نحوية... الخ، فالتنغيم عنصر مكمل للمنطوق لا ينفك عنه، وأمانة صحته ووفائه بالمعنى المقصود، وفقا لنوعيات التراكيب ونوعيات مقامات الكلام»⁽¹⁾.

إذًا، يتّضح جليًا من خلال ما سقناه من آراء أنّ مرّد هذا الاختلاف راجع أساسا إلى كون العرب القدامى قد أغفلوا التنغيم ولم ينتبهوا له حسب زعم بعض الدارسين، أو أنّهم قد أدركوه وإن لم يكونوا قد خصّوه بمصطلح محدّد، أو أفردوه بدراسة منفصلة، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يتوهّم عدم معرفة القدامى للظاهرة.

سنورد فيما يلي بعض النصوص التي تثبت انتباه علماء اللغة الأوائل لظاهرة التنغيم، ووعيههم العميق بها: ولعلنا نستهلّ سلسلة الشواهد بتلك القصّة التي ساقتها المصنّفات اللغوية والنحوية، والمتمثّلة في استفسار ابنة "أبي الأسود الدؤلي" (ت: 69هـ)، وذلك حينما ألفت على مسامع والدها عبارتها الشهيرة: "ما أجمل السماء؟"، فقال: نجومها، فقالت: ما إلى هذا قصدت، وإمّا أردت أن أتعجّب من جمالها، فقال الرجل: فقولي إذن: ما أجمل السماء.⁽²⁾

يبدو لنا من جملة القصّة أنّ البنية لم تُوفّق في أداء العبارة باللون الموسيقي المناسب لأسلوب التعجّب، وأتت به على وجه يناسب الاستفهام، ومن ثمّة كانت إجابة الوالد بقوله: نجومها، وهي الإجابة المناسبة للسؤال، ولمّا أدرك مقصودها أدّى العبارة - تصحيحا لها - بلون موسيقي مختلف، وهو اللون الذي يمتاز به أسلوب التعجّب، ومعنى هذا - بكلّ وضوح - أنّ هناك فرق في التلوين الموسيقي، أي التنغيم بين خطاب الاستفهام وأسلوب التعجّب، وأنّ أبا الأسود بذوقه اللغوي الأصيل، وحسّه المرهف كان يدرك هذا الفرق ففعل ما فعل، توجيها لابنته وتأكيدا لهذا التلوين المختلف باختلاف الأنماط التركيبية ومقاماتها الاتّصالية، ومعناه في النهاية أنّ لأسلوب التعجّب نمطا خاصا من التنغيم ينفرد به، ولا يمكن فهمه أو استيعابه على وجهه الصحيح إلاّ بتحقيقه نطقا وأداءً.⁽³⁾

من العلماء القدامى الذين تنبّهوا للظاهرة أيضا، وتفتّطوا إلى دورها في تحديد الدلالة، هذا وإن لم يحظ التنغيم عندهم - كما أسلفنا - بدراسات مكثّفة واهتمام بالغ: "الجاحظ"، ففي القول السابق الذي سقناه لبيان أهمّية التنغيم وقيّمته في اللغة، يبرز بوضوح إدراك صاحبه لهذه الظاهرة، إذ يرى فيه أنّه من تمام الكلام ضمّ الحروف

(1)- كمال بشر: علم الأصوات، ص 547.

(2)- كمال بشر: فن الكلام، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2003م، ص 271.

(3)- المرجع نفسه، ص ن.

والتأليف بينها وحسن التعبير عنها، سواء أكان ذلك عن طريق تقاسيم الوجه كرفع الحواجب وتغيير ملامح الوجه عن طريق التشحيب أو الابتسامة أم بواسطة حركة الرأس وهز الكتف، أم بمختلف الإيماءات والإشارات التي يمكن أن يعبر بها الفرد من خلال استخدام اليدين، ممّا يضع القول في سياق عام، يساعد على توضيح دلالاته وإبلاغ المقصود منه.

ونجد هذا عند "ابن جني" حاضرا، إذ أثبت هو الآخر دور التعابير الإيحائية في الوجه التي قد تغني عن الألفاظ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مدى وعي الرجل بظاهرة التنغيم في العربية، ودورها الوظيفي والمتمثّل في تحديد معاني ودلالات الكلام وتوجيه أغراضه البلاغية، إذ عقد الأخير في كتابه "الخصائص" بابا في "نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها"، وفيه فصلّ القول في خروج أسلوب الاستفهام إلى التعجّب ومنه إلى الخبر، وكذلك تحوّل الخبر بعد دخول همزة الاستفهام التقريرية عليه إلى خبر منفي، يقول في هذا الصدد مؤكّدا من جهة أخرى وجود الظاهرة في اللغة العربية: «من ذلك لفظ الاستفهام إذا ضامه معنى التعجّب استحاله خبرا، وذلك قولك: مررت برجل أيّ رجل، فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل ولست مستفهما، وكذلك مررت برجل أيّما رجل؛ لأنّ ما زائدة، وإيّا كان كذلك لأنّ أصل الاستفهام الخبر، والتعجّب ضرب من الخبر، فكأنّ التعجّب لمّا طرأ على الاستفهام إيّا أعاده إلى أصله من الخبرية»⁽¹⁾، ويضيف في السياق ذاته قائلا: «ومن ذلك لفظ الواجب إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيا، وإذا لحقته لفظ النفي عاد إيجابا، وذلك كقول الله سبحانه: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ المائدة: 116، أي ما قلت لهم، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِ الْكُفْرَ﴾ يونس: 59، أي لم يأذن لكم، وأمّا دخولها على النفي كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف: 172، أي أنا كذلك...»⁽²⁾.

إذا كان "ابن جني" في هذا القول لم يوظّف مصطلح التنغيم، إلّا أنّ كلامه يتضمّن ما يشير إليه، لأنّ تضامّ الاستفهام والتعجّب لا يتحقّق إلّا بواسطة التنغيم، فإذا قال أحدهم متسائلا متعجّبا: كيف ترتكب هذا الذنب، فالتكلّم هاهنا لا يريد الإجابة عن سؤاله من السامع، ولكنّه يتعجّب من صدور مثل هذه الخطيئة من إنسان بعينه، عُرف مثلا بحسن التزامه وطيب خلقه، وهذا الكلام يتناسب وقول "ابن جني": "مررت برجل أيّ رجل".

من المؤشّرات اللطيفة التي تدلّ على تناول "ابن جني" للظاهرة، وتثبت مرّة أخرى مدى إدراكه لمفهوم التنغيم بمعناه الحالي، على الرغم من أنّه لم يأت على ذكره هذا من جهة، كما أنّه من جهة أخرى لم يستخدم مصطلح النبر، ولكن نجد في كلامه ما يوحي على مفهومهما، وذلك أثناء حديثه عن حذف الصفة قائلا: «وقد

(1) - ابن جني: الخصائص، ج2، ص470.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

حُدِّثَت الصفة ودلّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سِيرَ عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنّ هذا إنّما حذفت فيه الصفة لمّا دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم، ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك، وأنت تحسّ هذا في نفسك إذا تأملتّه، وذلك أنّ تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلاً! فتزيد في قوّة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها (وعليها) أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك، وكذلك تقول: سألتناه فوجدناه إنساناً! وتمكّن الصوت بإنسان وتفخّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سمّحاً أو جواداً أو نحو ذلك، وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت: سألتناه وكان إنساناً! وتزوي وجهك وتقطّبه، فيعني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو حُرّاً أو مبخلاً أو نحو ذلك»⁽¹⁾.

في هذا القول دلالة جازمة على أنّ "ابن جني" قد تمكّن بفكرة الثاقب من إدراك التنغيم، وأنّ تعبيرات الوجه التي تُصاحب كلام القائل تلعب دوراً دلالياً محورياً؛ إذ تساعد على فهم كثير من القضايا النحوية، وأنّ العاقل لا يمكنه البتة أن ينكر مثل ما ذُكر من مصطلحات على غرار: التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ومطل الصوت؛ أي رفع الصوت وخفضه والذهاب به كلّ مذهب، وهي كلّها مصطلحات لا تخرج عن كونها وسائل تنغيمية تساعد على فهم المعنى في السياق؛ أي أنّ "ابن جني" وظّف الدلالة اللفظية التي تعادل الدلالة الصوتية في فهمنا المعاصر للدلالة على المعنى المقصود، وهذه الوسائل التنغيمية المذكورة تمثّل ههنا الحال الذي تدلّ على حذف الصفة، أو بتعبير أكثر دقّة سياق الكلام والسمات الصوتية التي تنوب عن المحذوف وتدلّ عليه، إلى جانب هذه المصطلحات الدالة على التنغيم وظّف "ابن جني" في المقابل عبارات أخرى تدلّ على معنى النبر، نحو قوله: "تزيد في قوّة اللفظ" و"تمكّن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها"، وغيرها من العبارات والإشارات التي توحى بوعي الرجل بالظاهرتين في الدرس اللغوي، إذ أنّ العمل على تمطيط الصوت اللغوي أثناء عملية الكلام من شأنه أن يستغرق مدّة من الزمن، كما أنّه في المقابل يأخذ منحىً نغمي معيّن يتناسب تماماً والقالب الذي وُضع فيه، وسياق الحال ومختلف الظروف المحيطة بالكلام. يقول "كوليزار كاكل عزيز" معقّباً على كلام "ابن جني" السالف ذكره: «...فقريئة التنغيم تغنينا عن التصريح بصفات المذكور في مدحه أو ذمّه، أو هي أبلغ في الدلالة من التصريح بالأوصاف، ويشير هذا المعنى إلى أنّ التنغيم يتعاون مع الموقف أو السياق حال المتكلم لتوضيح المعنى، فيحذف بعض الصفات ويعتمد على التنغيم، يتعاون مع الموقف أو سياق حال المتكلم لتوضيح المعنى، فيسترجع المحذوف حينما يرفع الصوت ويخفض في بعض المقاطع تارة، ويضغط على بعضها تارة أخرى، فيجمع

(1) - ابن جني: الخصائص، ج2، ص150.

بين التنغيم والنبر والسياق الموقفى أو الحالى للمتكلّم». (1)

الحقيقة أنّه قد سبق "ابن جني" في هذا الباب "سيبويه"، فالمتصّحح في "الكتاب" يجد لصاحبه إشارات لمّاحة لظاهرة التنغيم مبثوثة في أجزاء المصنّف، ومن ذلك قوله: «ما أنت عبدُ الله، وكيف أنت وعبدُ الله، كأنك قلت: ما أنت وعبدُ الله، وأنت تريد أن تحقّر أمره أو ترفع أمره» (2)، فهذه العبارة { ما أنت وعبدُ الله } قد تُؤدّي معنى التحقير أو دلالة التعظيم، وذلك يرجع أساسا إلى نوع النغمة التي تُصنَعُ بها.

ويقول في موضع آخر محلّلا بيتا شعريا لجرير، ملّمحا من خلال تحليله هذا أنّ درجة الصوت هي التي تتحكّم في انتقال سياق الكلام من دلالة النداء إلى معنى الاستفهام.

يقول "جرير" في قصيدة له تحت عنوان: "ألوم واغتراب؟":

أَعْبَدًا حَلَّ فِي شُعْبَى غَرِيْبًا ۞ أَلُومًا، لَا أَبَا لَكَ، وَاغْتِرَابًا (3)

يعقّب "سيبويه" على هذا البيت مشيرا إلى الأثر الدلالي للآداء التنغيمي فيه، فيقول: «وأما عبداً فيكون على ضربين: إن شئت على النداء، وإن شئت على قوله: أُنْفَتَخِرُ عبداً، ثم حذف الفعل». (4)

لعلّ من المواضع الأخرى التي تثبت تفضنّ "سيبويه" بالتنغيم ووعيه العميق بالظاهرة، قوله في باب الندبة: «اعلم أنّ المندوب مدعوٌ ولكنّه متفجّع عليه، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف، لأنّ الندبة كأهم يترون فيها، وإن شئت لم تُلحِق كما لم تُلحِق في النداء». (5)، وفي استخدام "سيبويه" لمصطلح التفجّع والترنيم لدليل قاطع وواضح على إشارته للآداء التنغيمي المصاحب للكلام، وهذا تماما ما نجده أيضا عند "ابن يعيش" (ت: 643هـ) الذي يقول هو الآخر: «اعلم أنّ المندوب مدعو ولذلك ذكر مع فصول النداء، لكنّه على سبيل التفجّع، فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنّه لا يستجيب كما تدعو المستغاث به، وإن كان بحيث لا يسمع كأنّه تعدّه حاضرا، وأكثر ما يقع في كلام النساء لضعف احتمالهنّ وقلة صبرهنّ، ولمّا كان مدعوا بحيث لا يسمع أتوا في أوّله بيا أو واوا لمدّ الصوت، ولمّا كان يسلك في الندبة والنوح مذهب التطريب زادوا الألف آخرا للترنم». (6)

ويضيف في موضع آخر في سياق ذي صلة قائلا: «وأقاموا فمختصّ به الندبة، لأنّ الندبة تفجّع وحرز،

(1) - كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 2009م، ص49.

(2) - سيبويه: الكتاب، ج1، ص301.

(3) - جرير بن عطية الخطفي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1406هـ / 1986م، ص56.

(4) - سيبويه: المرجع السابق، ص339.

(5) - المرجع نفسه، ج2، ص220.

(6) - موقّق الدّين بن علي بن يعيش النحوي: شرح المفصل، ج2، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، دط، دس، ص13.

والمراد رفع الصوت ومدّه لإسّماع الحاضرين»⁽¹⁾.

فهنا نلاحظ أنّ "ابن يعيش" ذكر في نصّيه السابقين كلمات مثل: مدّ الصوت، التطريب، الترتّم، ورفع الصوت، وهي كلّها وسائل تنغيمية وصور واضحة للقول بالتنغيم، والتي تحمل دلّالته في الدرس اللساني الحديث. لا نريد أن يطيل بنا المقام ههنا أكثر ممّا طال، لكنّ حسبنا أن نشير إلى فئة أخرى من العلماء الأوائل الذين نلمس في مصنّفاتهم بعض الخطرات الموحية بوعي هؤلاء بالظاهرة على سبيل الذكر لا الحصر، ومنهم: "ابن خالويه" (ت: 370هـ) في مصنّفه "إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم"، و"عبد القاهر الجرجاني" (ت: 471هـ) صاحب كتاب "دلّائل الإعجاز"، و"أبو العلاء الهمداني العطار" (ت: 596هـ) في رسالته "التمهيد في التجويد"، و"بدر الدين الزركشي" (ت: 794هـ) في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، وكذلك "جلال الدين السيوطي" (ت: 911هـ) من خلال مصنّفه "معجم الهوامع في شرح جمع الجوامع" وغيرهم. هذا غيض من فيض، ونزر من بحر، وقليل من كثير، ممّا تحدّث عنه علماء العربية القدامى بشأن ظاهرة التنغيم ووجوها في تراثنا اللغوي.

خلاصة لما قيل: إنّ العرب الأوائل وإن لم يُفردوا - فعلا - لظاهرة التنغيم أبحاثا مستقلّة، فهذا لا يعني أنّهم قد أغفلوا الحديث عنها مطلقا وتركوها طيّ النسيان، ولعلّ خير دليل على ذلك إدراكهم لمدى تأثير الظاهرة في العملية الكلامية، فالنبر والتنغيم شأنهما شأن الصرف في بداية النحو العربي؛ إذ كانت مسأله تُدرس مع النحو، وبقيا توأمين لصيقين إلى أن انفصلا وصار كلاهما علما قائما بذاته، له أسسه وقواعده وعلماؤه وتصانيفه. وعلى هذا الأساس لا يمكننا بأيّ حال من الأحوال أن نصرف الاهتمام عن التنغيم، فلا تكاد تخلو منه أيّة لغة من لغات العالم، حيث تكتسب اللغات الحيّة رونقها وجمالها إذا اتخذته أساسا في التواصل بين الأفراد خطابا ومحادثّة؛ فالتنغيم يميّز اللغة المنطوقة الشفوية عن اللغة المرسومة المكتوبة، فهو في الأولى شأنه شأن الترتيم في الثانية، كلّ منهما يقوم بوظيفة دلالية تُساهم في تحديد المعنى وتوجيه الغرض.

ختاما يمكن أن ندحض رأي المنكرين القائلين بعدم وجود ظاهرة التنغيم في تراثنا العربي، لارتباطها أساسا بالمنطوق دون المكتوب، الأمر الذي حال دون وضع قواعد محدّدة له، برأي الباحث "أحمد مختار عمر" الذي يقول فيه: «ومعظم أمثلة التنغيم في العربية (ولهجاتها) من النوع غير التمييزي الذي يعكس إمّا خاصّة لهجية، أو عادة نطقية للأفراد، ولذا فإنّ تعقيده أمر يكاد يكون مستحيلا، وكلّ المحاولات التي قدّمت حتّى الآن لدراسة التنغيم في اللغة العربية، قامت على اختيار مستوى معيّن من النطق، وعلى اختيار نغمات الصوت بالنسبة لفرد

(1) - ابن يعيش: شرح المفصل، ج2، ص120.

معين داخل هذا المستوى، ولكن التنوع بين الأفراد في هذه الناحية يحول بين الباحث وبين تعميم النتائج»⁽¹⁾.
ورأي الباحثة "آمنة بن مالك" التي تقول فيه: «أنّ التنغيم قد أدرك إجمالاً عند القدماء، ممّا جعلهم يتركون دلالات نحوية تنبئ عنه مصطلحات اتخذت معاني مختلفة للتعبير عنه مثل: السكنة والوقفة، والنغمة، والتطويح، والتطريح، والتفخيم، والتعظيم، والترّم، والتطريب، وهو إن لم يكن قرين الرؤية القديمة للغة العربية وفهم نحوها، ففي هذا عذر يُذهب عن القدماء مظنة التقصير، لأننا ألفينا من كان يُلمح بتواجده دون أن يُصرّح أنّ هناك أساليب فصاحة أخرى، يمكن فهمها من خلال الظاهرة الصوتية المسماة بالتنغيم، كأساليب المدح والذم، والاستثناء، والقسم»⁽²⁾.

المبحث الثامن: وظائف التنغيم في اللغة (مساهمة التنغيم في تحديد معنى الكلام، وتوجيه غرضه البلاغي)

يؤدّي التنغيم في نظام اللغة عدّة وظائف يمكن تلخيصها إجمالاً في الوظائف التالية:

المطلب الأول: الوظيفة الأدائية

المقصود بها تلك الطريقة الصوتية في أداء الكلام، إذ أنّ الكلام العربي لا يكون على نسق واحد من النغمات، وإنّما يكون حال المتكلم أن يلوّن كلامه بموسيقى مختلفة صعوداً وهبوطاً على طريقة العرب في التعبير عن أفكارهم وانفعالاتهم بواسطة الكلمات. والحقيقة أنّ ذلك هو جوهر اللغة، وإذ نقول هذا الكلام، فإننا نستحضر مفهوم "ابن جني" للغة بكونها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم، وتلك إشارة ذكيّة منه إلى أنّ الصوت يعبر عن الغرض ويناسبه، أو بعبارة أخرى أنّ لكلّ غرض معيّن صوتاً محدّداً يفى بالتعبير عنه، وأنّ اللغة أصوات قبل أن تكون كلمات أو تراكيب⁽³⁾.

إذاً، فالتنغيم يعبر عن أداء سليم للغة، فنغمات الكلام دائماً في تعبير من أداء إلى آخر، ومن موقف إلى موقف، ومن حالة نفسية إلى أخرى، وللنغمات مدى من حيث الارتفاع والانخفاض تحسّنه الأذن المدرّبة، فعندما ترتفع درجة التلوين الموسيقي تحصل على تنغيم مرتفع، وإمكانات التنويع في النغمات واسعة إلى حدّ كبير وفقاً لنوع الكلام وظروفه، وفي الواقع فإنّ الطريقة التي تُقرأ بها قصيدة، تختلف عن تلك التي تتلو بها آية، وهكذا يمكننا القول: إنّ لكلّ نوع من النصوص طريقة مختلفة في الأداء، تتناسب مع طبيعة النصّ وسياقه وشكله وأسلوبه، بل

(1) - أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص 366.

(2) - آمنة بن مالك: "ظاهرة التنغيم في البحث الصوتي بين القديم والحديث"، مجلة الآداب - مجلة علمية دولية محكمة سنوية، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة 01 (الجزائر)، مج 2، ع 1، جوان 1995م، ص 43.

(3) - ينظر: رياض بوزنية: "نمطية الوظائف التنغيمية في اللغة العربية"، مجلة الناص - مجلة علمية محكمة نصف سنوية، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيجل (الجزائر)، ع 13، جوان 2013م، ص 174.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

إنّ النّصّ الواحد أحيانا قد يقتضي أساليب مختلفة من الألحان والنغمات وتلاوة القرآن الكريم وترتيبه خير دليل على ذلك؛ إذ أنّ سياق الترهيب يختلف عن سياق الترغيب، ويختلف عن سياق الوعيد، ومن المؤكّد أنّ القراء يحترمون هذا الاختلاف في الأداء، رغم أنّه ليس مسجلا في كتابة النّصّ، أعني ليس مسجلا في المصحف، وينسحب هذا الحكم على كلّ النصوص في العربية.⁽¹⁾

وليست مسألة التنغيم اختيارية في الأداء، بل هي ضرورية واجبة، وهي وظيفة أدائية يتمّ بها نطق الجملة حسب نظم الأداء فيها، وحسب ما يقتضيه عرف أهل اللغة، ولا نتحدّث هنا عن إفادة المعنى، فحتى بدونه يكون من سلامة اللغة سلامة النطق والأداء، ونتيجة لذلك اهتمّ العلماء والباحثون بالتأليف في هذا المجال.⁽²⁾

المطلب الثاني: الوظيفة الصرفية

لقد ثبتّ للقدماء أولا وللمحدثين ثانيا أنّ لقوالب الألفاظ وصيغ الكلمات في العربية أوزانا موسيقية، وكلّ بناء من هذه الأبنية ذو نغمة موسيقية ثابتة، فالعربية تمتاز في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة تنوعها وسعتها، ومن جهة أخرى تمتاز بتوزيعها في هذا المدرج توزيعا عادلا يؤدّي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات، أي الجمع بين الانسجام الصوتي والتآلف الموسيقي في البنية الواحدة. فالفرق بين الكلمة ومشتقاتها نحو: الفعل، اسم الفاعل، اسم المفعول، الصفة المشبهة،... الخ، فنقول: يحمّد، حامد، محمود، حميد، حماد، حمد، حمدون، وما يتفرّع عنها هو فرق بين الأفعال والأسماء والمصادر والصفات وأفراد ومجموع، وهو كلّ قائم على الفرق بين وزن ووزن وقياس صوتي وقياس مثله، يتوقّف على اختلاف الحركات والنبرات أي اختلاف النغمة الموسيقية، فلكلّ وزن من الأوزان الصرفية نغمة موسيقية محدّدة تختلف باختلاف الصيغة ودلالاتها، وتعكس هذه التنوّعات التنغيمية في الارتباط المتناسق بين الألفاظ ومعانيها، حيث يتلاقى جرس حروفها مع إيحاء مدلولها، ممّا يسهم في مطابقة الصورة للكلام، ويظهر أثر التنغيم بجلاء في الأوزان المزيدة والمجرّدة، والقرآن الكريم يعدّ مجالا رحبا لهذه الدراسة، ومثاله الصيغتين {تذكرون، تتذكرون}، إذ وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 80]، وبغير التاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 152]، وهذا دليل على أنّ الصيغ التي حذفت منها تاء الفعل، كان يُراد من وراء حذفها الإشارة إلى أنّه يكفي في هذا الموطن أدنى حدّ من التذكرة ولو على وجه خفيّ، وإثبات التاء دليل على أنّ هذا الموطن

(1) - ينظر: رياض بوزنية: "نمطية الوظائف التنغيمية في اللغة العربية"، ص 175.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص ن.

ليطلب أعلى حدّ من التذكّرة.⁽¹⁾

المطلب الثالث: الوظيفة النحوية

وهي الوظيفة الأساسية للتنعيم؛ إذ يقوم فيها ببيان اكتمال الجمل أو عدمه، إلى جانب ذلك تصنيف التراكيب إلى أنماط مختلفة من تقريرية واستفهامية وتعجّبية وما إلى ذلك، والتمييز بين أجناسها النحوية، ليمثّل التنعيم بهذا «ظاهرة صوتية هامة تؤثر تأثيرا كبيرا في الملفوظ، ليتحوّل معناه من باب إلى باب آخر، وهذه الصفة لا تكون مقترنة بجزء صغير من الملفوظ، بل إنّها ترتبط بالعبارة كاملة».⁽²⁾ وقبل الخوض في هذه المسألة ارتأيت ههنا أن أمهد لهذه الوظيفة بنقطتين أساسيتين هما:

① خروج التركيب من معنى حقيقي إلى معنى مجازي يواكبه تغيّر في نمط التنعيم:

يقول "أحمد البايبي" موضّحا ذلك: «ما من شكّ أنّ كلّ خروج دلالي يواكبه تغير على مستوى الأداء والتنعيم، فما جاء بصيغة الاستفهام ومعناه التقرير له أنماط تنعيمية تختلف عمّا جاء بالصيغة التركيبية ذاتها، ولكن بمعنى التعجّب أو التوبيخ (...) فلكلّ معنى خاص أنماط خاصة»⁽³⁾، وفي شأن ذي صلة يضيف قائلا: «إنّ الكثير من أساليب الاستفهام والخبر والتوكيد والنداء والإثبات والنفي (...)، تخرج عن معانيها الأصلية لتتلبّث نطاقات تنعيمية جديدة استجابة لمعاني جديدة...».⁽⁴⁾

② المعوّل عليه في تحديد الدلالة هو التنعيم لا الأدوات أو شكل التركيب:

نسوق ههنا سلسلة من النصوص تثبت كلّها أنّ الآلية المعوّل عليها في تحديد دلالة الجمل، وفهم كثير من الأساليب اللغوية إنّما تنحصر في الأداء التنعيمي لها، ولا دخل للأدوات أو أشكال التراكيب في ذلك. حيث نجد "الفيومي" في كتابه "أبحاث في علم أصوات اللغة العربية" يشير إلى ذلك صراحة قائلا: «إنّ التنعيم ينهض وحده دليلا على المعنى، ومفصّحا عن الغرض ومبيّنا المقصود من الكلام، ومن خلالها يوقف على الدور الذي يؤدّيه التنعيم في هذه اللغة العربية، إذ لولا التنعيم لكان في ذلك لبسا وتعمية».⁽⁵⁾

ويشاطره الرأي الباحث "عبد العزيز الصيغ" الذي نجده هو الآخر يقول: «فالكلمة الواحدة تدلّ على أكثر من معنى دون تغيير يلحق بفونيماتها، ولكن بسبب الاختلاف في التنعيم، حيث تختلف الطرق التي يسلكها

(1)- ينظر: كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، ص 61، 63.

(2)- سليمان بوراس: "الظواهر التطريزية ودورها في المعنى-ظاهرة التنعيم أنموذجا"، مجلة حوليات الآداب واللغات- مجلة علمية محكمة دوليّة نصف سنوية صادرة عن كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف- مسيلة، الجزائر، ع08، جويلية 2017، ص12.

(3)- أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوتة الإيقاعية، ج1، ص282.

(4)- المرجع نفسه، ص284.

(5)- أحمد عبد التّوّاب الفيومي: أبحاث في علم أصوات اللغة العربية، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1991م، ص195.

الإنسان في إخراج هذه الكلمة أو تلك في درجات الحدّة ارتفاعا وانخفاضا»⁽¹⁾.

ولم يذهب "عبد الحميد السيّد" بعيدا عمّا ذهب إليه كل من "الفيومي" و"عبد العزيز الصيغ"، فهاهو يثبت مجدّدا بأنّ التنغيم من أهمّ العوامل التي تساهم في تحويل معاني الجمل، من خلال التغيير في طبقات الصوت، يقول: «أمّا التنغيم فتستخدمه معظم اللغات بطريقة تمييزية تفرق به بين المعاني؛ إذ يمكن في معظم اللغات أن نغيّر الجملة من خبر إلى استفهام أو توكيد أو انفعال أو تعجّب، دون تغيير في شكل الكلمات المكوّنة...»⁽²⁾.

الحقيقة أنّ التنغيم لا يُؤدّي هذا الدور أثناء وجود الأدوات داخل التركيب فحسب، بل يقوم بوظيفته التمييزية حتى في حالة ما إذا كان هناك حذف لبعض عناصر الجملة كأدوات مثلا، يقول "أحمد البايي": «التنغيم هو الذي يبرز خصائص بعض الأساليب والتراكيب التي تكون محذوفة بعض عناصرها، فمثلا هناك التراكيب التي تحتوي على أدوات استفهام وليست استفهامية، وتلك التي لا تحتويها والسياق يشير إلى الاستفهام فيها»⁽³⁾، ويضيف مستخلصا ومصرّحا: «إنّ من يحمل الدلالة هو التنغيم لا الأداة»⁽⁴⁾.

من جهتها تؤكّد الباحثة "فاتن خليل محجازي" فكرة "البايي" قائلة: «التنغيم يلعب دورا في تحديد دلالة الجمل التي يحدث فيها حذف كحذف أداة النداء أو أداة الاستفهام، فيكون التنغيم مورفيما يبيّن دلالة الجملة»⁽⁵⁾.

ويشاطرها الرأي "محمد الجبوري"، ففي شأن ذي صلة يسوق لنا الباحث كلاما يعرّز من خلاله دور التنغيم في تحديد المعنى، ولو كان ذلك في ظلّ غياب الأدوات ومختلف القرائن. يقول: «والتنغيم ذو وظيفة دلالية يمكن من خلالها تحديد النفي والإثبات والاستفهام والإخبار والتعجّب في الجمل الخالية من القرائن اللفظية أو علامات الترقيم، ففي قولك (أنتَ محمد) تحدّد نغمات الصوت الصاعدة والهابطة معنى الجملة، إذا كان استفهاما أو إخبارا أو توكيدا أو تحقيرا أو غير ذلك...»⁽⁶⁾.

يُنهم من هذه النصوص أنّ الوصول إلى معاني التراكيب إنّما يتوقّف ذلك أساسا على الطريقة الصوتية؛ أي على الأداء التنغيمي أو التلوين الموسيقي الذي يُؤدّي دورا في التفريق بين الجمل الخبرية والإنشائية؛ فقد تكون الجملة خبرية معنا، بيد أنّها تحتوي على أداة الاستفهام لفظا، في المقابل قد تكون استفهامية دون أن تحتوي أداة

(1) - عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، ص 265.

(2) - عبد الحميد السيّد: دراسات في اللسانيات العربية: المشكلة - التنغيم - رؤى تحليلية، ج 1، ص 52.

(3) - أحمد البايي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 374.

(4) - المرجع نفسه، ص 278.

(5) - فاتن خليل محجازي: محاضرات في علم الأصوات، ص 149.

(6) - محمد يحيى سالم الجبوري: مفهوم القوّة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006م، ص 155.

استفهامية، وللتنغيم - في هذه الحالة - أهمية عظيمة في دراسة الأساليب، وذلك حسب اختلاف قراءة القراء، وهكذا نرى أنّ التنغيم في نطق الجملة ينقلها من باب نحوي إلى آخر، يتجلى ذلك من خلال ارتفاع في درجة الصوت أو انخفاضها أثناء النطق للتعبير عن معانٍ مختلفة في نفس الإنسان، والجملة قد تعتمد على التنغيم المصاحب لنطقها لبيان معناها، دون أن يكون في تركيبها ما يدلّ على هذا المعنى، الأمر الذي يُظهر لنا حقيقة مفادها: أنّ للتنغيم دوراً مهماً في تحديد معنى الجملة العربية، وتوجيه أغراضها البلاغية وذلك من خلال:

1- إسهام التنغيم في بيان اكتمال الجمل أو عدمه:

إنّ التنغيم بأنماطه المتنوّعة عامل أساسي في بيان أنّ المنطوق مكتمل في مبناه ومعناه أم غير مكتمل، يظهر ذلك بوضوح في الجمل الشرطية كما في قولنا مثلاً: إن تأت، تجد ما يسرك. حيث تنتهي جملة الشرط بنغمة صاعدة دليلاً على عدم تمام الكلام، فتمامه يحصل بجواب الشرط الذي ينتهي بنغمة هابطة، دليلاً على الاكتمال في المبنى والمعنى معاً، فالتنغيم هنا يُؤدّي دوراً يشبه دور علامات الترقيم في الكتابة، فالفاصلة الموجودة في الجزء الأوّل من المثال المذكور دليلاً على استمرارية المنطوق، كما تعني ارتباط هذا الجزء من المنطوق وتعلّقه بما يكمله، لتكون النقطة في النهاية دليلاً على الاكتمال.⁽¹⁾

وكم كان جميلاً من العرب القدماء أن يدركوا هذا الارتباط بين شطري الجملة الشرطية، فأشاروا إلى ذلك بعلامة أخرى تُؤدّي هذا الدور، هذه العلامة هي "الفاء"، التي أوجبوا دخولها على جملة جواب الشرط، إذا كانت هذه الجملة من تلك الأنماط التركيبية التي يمكن تصنيفها جملاً مستقلة، لولا وجود الفاء التي تربطها بجملة الشرط، فكأنّ الفاء هنا قامت مقام الفاصلة، ودلّت على تعلّق الشطرين بعضهما ببعض، وأنّ الشرط الثاني (الجواب) متمّم للسابق (الشرط)، وبهما معاً يتمّ المنطوق في بنيته ودلالته.⁽²⁾

من الجدير بالذكر أن ننبّه هنا إلى أنّ الفاصلة [،] في هذه الأساليب ونحوها هي فاصلة واصله في آن واحد؛ فهي فاصلة في النطق والأداء الفعلي للكلام، ولكنّها في الوقت نفسه واصله؛ أي دليل الربط بين أطراف الكلام وأخذه بعضه بحجز بعضه الآخر في البناء والدلالة، ودليل هذا الوصل أنّه لا يجوز الوقوف على الشرط الأوّل وحده.⁽³⁾

2- إسهام التنغيم في تنميط الجمل والتراكيب اللغوية:

لعلّ من أهمّ الوظائف النحوية للتنغيم تصنيفه للجمل في اللغة إلى أنماط مختلفة: تقريرية، استفهامية،

(1)- كمال بشر: فنّ الكلام، ص 268.

(2)- المرجع نفسه، ص ن.

(3)- نفسه، ص 269.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

تعجيبية... وكل نوع من الجمل يناسبه نمط معين من التنعيم، يقول "مزامح مطر حسين" متحدّثا عن هذا التصنيف التي تكون للنغمة فيه دورا فاصلا في تحديد اتجاه ودلالة الجملة: «إنّ الجمل الخبرية تختلف عن الجمل الإنشائية في طبيعة تلفظ الأولى عن الثانية؛ لأنّ الجمل الخبرية تكون نبرتها العامة ميّالة إلى قطعية الحدوث، وإلى الصرامة في تقرير الأحداث، ولذا فهي قد تتضمن بعض المؤكّدات التي تعزّز للسامع وقوع ذلك الحدث، وهذا ما نلاحظه تماما في الجمل الخبرية التي يطلق عليها (الجمل ذات الأخبار الطليبة والإنكارية)، وأمّا الجمل الإنشائية فإنّ نبرتها الصوتية تميل إلى نوع من التلطّف، لأنّها يقصد من ورائها التأثير في السامع، وحمله على التزام وتنفيذ الحدث المطلوب والاستجابة له»⁽¹⁾.

ويضيف قائلا في السياق ذاته: «فتمّة فارق بين تنعيم الجمل التي يراد منها تقرير الحقائق والجزم بها وهي الجمل الخبرية، وبين تلك الجمل التي يراد منها التأثير في وجدان السامع وشعوره، وحمله على الاستجابة والتفاعل مع المتكلّم وهي الجمل الإنشائية»⁽²⁾.

وفي مبحث الاستفهام مثلا يكتسب التنعيم أهميّة خاصة، فقد يكون في بعض النصوص أهمّ من وجود الأداة، حيث نجد عدیدا من النماذج التي حوت على أدوات الاستفهام، وهي في الوقت نفسه لم تحكم على تلك النصوص بأنّها استفهامية، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَوِ كُنَّ سَجًّا مَّذْكُورًا﴾ [سورة الإنسان، الآية: 01]؛ لأنّ حرف الاستفهام (هل) لا يشير إلى الاستفهام هنا، ودلالة التنعيم تقتضي أن يكون معنى الآية تقريرا، ويكون الحرف (هل) بمعنى "قد"، وهذا ما أكّده جمع من المفسّرين والباحثين القدامى الذين وقفوا على هذا النصّ⁽³⁾.

ما يقال عن الاستفهام ينطبق على الأساليب البلاغية الأخرى، فالمتصفّح لآيات القرآن الكريم يجد كثيرا من المواضع التي استعملت فيها أدوات الاستفهام، ولكن ليس بمعناها الحقيقي وهو طلب الفهم أو الاستجواب، بل بمعاني مجازية أخرى تُفهم من خلال السياق والأداء التنغيبي لها، ولعلّ من ذلك قوله جلّ علاه في سورة الزمر: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الزمر، الآية: 09]، فالآية الكريمة كما هو واضح جاءت في قالب استفهامي، والاستفهام فيها لا يحتاج إلى إجابة وإمّا الغرض منه النفي، ونستخدم ذلك كثيرا في لغتنا المعاصرة، فنقول مثلا: كيف تعادي أباك.. بلفظ الاستفهام، ونحن نريد التعجّب والاستنكار، وهو المعنى الذي يؤدّيه التنعيم ويتوقّف عليه فهم الدلالة في حالات كثيرة، ومن هنا تبرز أهميّة دراسة اللغة المنطوقة، مثلما هو

(1) - مزامح مطر حسين: "أثر التنعيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، ص 41.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

(3) - ينظر: نفسه، ص 42.

الاهتمام باللغة المكتوبة، لأنّ لكلّ منهما نظاما خاصا.

وكما أنّ هناك أمثلة تحتوي على أداة استفهام وهي ليست كذلك، على العكس من ذلك توجد نماذج أخرى تخلو تماما من أداة الاستفهام، وهي في الواقع جمل استفهامية، حيث استفيد هذا المعنى من الموسيقى التي صاحبت نطقها.

لعلّ من أشهر النماذج التي تمثّل هذا النوع في الشعر العربي قول "عمر بن أبي ربيعة" في إحدى قصائده:

ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا قُلْتُ بِهِرًا ﴿٥١﴾ عَدَدَ النَّجْمِ وَالْحَصَا وَالْتُرَابِ (1)

فالعامل الفاعل في الحكم على أنّ جملة (تُحِبُّهَا) جملة استفهامية إنّما هو التنغيم، الذي جاء في صورة نغمة صاعدة، دليلا على الاستفهام دون ذكر الأداة الصرفية، وقد يعتمد بعضهم جريا على التقاليد الموروثة إلى تقدير همزة محذوفة في هذا المثال ونحوه، كما فعلوا ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمُبَشِّرٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتُّغِي مَرَضَاتٍ أَزْوَاجِكَ﴾ [سورة التحريم، الآية: 01]، ففيها يرى بعض المفسّرين أنّ جملة (تبتغي) جملة استفهامية، وتقدير الكلام (أتبتغي؟) بحذف الهمزة، والحكم بأنّها استفهامية إنّما يرجع في حقيقة الأمر إلى تلوين النطق بصورة توائم الأنماط التنغيمية للجمل الاستفهامية من هذا النوع، وليس هناك من داع البتّة إلى تقدير محذوف؛ إذ الكلام مفهوم بدون هذا التقدير، ولأنّ هذا التقدير عمل افتراضي، لا حاجة لنا به على الإطلاق. (2)

والنماذج المشابهة لهذه الحالة كثيرة ومتعدّدة في القرآن الكريم، فمن الآيات القرآنية الجليلة والتي يكون التنغيم فيها دليلا على كونها استفهامية قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 22]، وتقدير المفسّرين لها [أو تلك نعمة تمنّها عليّ؟...]، فالنعمة هنا دليل على الاستفهام دون وجود الأداة، وأيضا قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَأُولِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [سورة الممتحنة، الآية: 01]، فجملة [تلقون إليهم بالمودّة] جملة استفهامية تقديريها {أتلقون؟}، حُذفت فيها الهمزة وتُرك المجال للتنغيم من أجل إظهار الاستفهام.

ومثلها قوله تعالى أيضا: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [سورة الأنعام، الآية: 76]، وتقدير الآية كما يذهب جمهور المفسّرين هو [أهذا ربّي؟] بحذف أداة الاستفهام على سبيل الإنكار تبرئة لسيدنا إبراهيم عليه السلام من الكفر.

كلّ هذه المعاني إنّما تُستشفّ من خلال الأداء التنغيمي للنص، وبفضله يتمّ تحديد نمط الجملة الاستفهامية ولو كانت خالية من الأداة، وما يقال عن الاستفهام ينسحب على أسلوب التعجّب، ولعلّ أنسب مثال يبرز دور

(1) - عمر بن أبي ربيعة: الديوان، تح: فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2، ط، 1416هـ/ 1996م، ص73.

(2) - ينظر: كمال بشر: علم الأصوات، ص613.

التنغيم في إبراز الدلالة المقصودة تلك القصّة التي وقعت بين "أبي الأسود الدؤلي" وابنته، والتي سبق الإشارة إلى نصّها فيما مرّ من هذا البحث.

ما يقال عن الاستفهام ونظيره التعجّب ينطبق على النداء كذلك، بل على كلّ أغراض الإنشاء، فقد تكون قرينة التنغيم في كثير من الأحيان أعظم أثراً من القرينة اللفظية (الأداة)، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [سورة يوسف، الآية: 29]، فالمحذوف ههنا هو حرف النداء، وتقدير الكلام (يا يوسف)، حيث استُبدل حرف النداء (يا) بالتنغيم قصد التفخيم والتعظيم والمبالغة.

ونختّم هذه الوظيفة بعامل من عوامل التنغيم ألا وهو "الوقف"، الذي يقف هو الآخر كأساس لبيان بعض المسائل النحوية، ويمكن أن نستدلّ على ذلك بالقصّة التي حكاها "السيوطي" في "الأشباه والنظائر"، حيث يرى بأنّ التنغيم حقيقة نطقية لها دورها في إبراز المعنى، يقول: «وجدت المرزبان عن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب قال: سأل اليزيديّ الكسائي بحضرة الرشيد فقال: انظر في هذا الشعر عيب؟ وأنشده:

لَا يَكُونُ الْعَيْرُ مُهْرًا لَا يَكُونُ الْمُهْرُ مُهْرًا

فقال الكسائيّ: قد أقوى الشاعر، فقال له اليزيدي: انظر فيه، فقال: أقوى، لا بدّ أن ينصب "المهر" الثاني على أنّه خبر كان، فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض وقال: أنا أبو محمّد، والشعر صواب، إنّما ابتداء فقال: المهرُ مهرٌ، فقال له يحيى بن خالد: أتكتنني بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك، فقال: لذّة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن⁽¹⁾.

لم يفطن "الكسائي" لِمَا رآه "اليزيدي" الذي استخدم أسلوباً جديداً في تفسير البيت، وهو: الوقف المرتبط بالتنغيم، إذ جعل الجملة (لا يكون) نعمة مميّزة، كان لها الأثر الواضح في الدلالة على المعنى.

المطلب الرابع: الوظيفة الدلالية السياقية

يقوم التنغيم بوظيفته الدلالية حينما يستخدم المتكلّم أنماطاً نغمية تتناسب والموقف الاجتماعي الذي يُلقى فيه الكلام، حيث يفرض هذا الموقف وجهات نظر شخصية تجاه المتلقّي تتراوح بين الرضا والقبول، التعجّب والدهشة، الاستهزاء والتهمكّم، الزجر والغضب، الدعاء والتهديد وما إلى ذلك، كلّ هذه المعاني وغيرها يتكفّل التنغيم بتأديتها بمعونة السياق العام المتعلّق بالظروف المحيطة بالكلام. يقول "سمير العزّاوي": «التنغيم جرس صوتي للوحدة الصوتية والمفردة والسياق، وصولاً إلى دلالة معيّنة، ففي كثير من الأحيان لا يمكن الوصول إلى دلالة

(1) - جلال الدين السيوطي: الأشباه والنظائر في النحو، ج6، تح: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ / 1985م، ص ص 213-214.

السياق إلّا من خلال نمطه التنغمي المتشكّل في طول الزمن المستغرق وشدّة الصوت والتنوّع التنغمي»⁽¹⁾، وفي الإطار ذاته يضيف "أحمد البايبي" قائلاً: «يبد أنّ التنغم - مع ذلك - يؤدّي وظيفة دلالية في الجملة العربية، حيث لاحظ أسلافنا أنّ الأسلوب الواحد يخرج إلى معان عديدة ودلالات مختلفة، ولاشكّ أنّ التنغم هو العامل الوحيد المتحكّم في هذا التنوّع الدلالي، مع ما يرافقه من ملامح تطريزية أخرى أو ملامح اللسانيات الخارجية، أي ما سماه القدماء القرائن الحالية»⁽²⁾، وبدوره يحدّد "كوليزار كاكل عزيز" الأثر الدلالي للتنغم فيقول: «فالتنغم يقوم بعمل دلالي كبير يهدي إلى تفسير الجملة تفسيراً صحيحاً، أو ينوّع هذا التفسير مع تنوّعه من نعمة إلى أخرى وفقاً للمستويات التنغمية، كاشفاً بذلك عن نفسية المتكلّم ومراميه، ولما كان للتنغم أثر في دراسة الأساليب، أخذ بعض الدارسين يجمع بين التنغم والإسناد من حيث الأهميّة في بناء الجملة، فإنّ هاتين الظاهرتين والتنغم في المقام الأوّل تكوّنان الجملة، إذ تصلح كلّ جملة وفقاً للون موسيقي معيّن عكس نمط تركيبّي محدّد، على الرغم ممّا تحتوي عليه الجملة من أدوات من شأنها أن تساعد على تحديد نوعها، كأدوات الاستفهام وصيغتي التعجّب، فمن خلال البحث في المستويات التنغمية ووظيفتها اللغوية نتوصّل إلى دلالات لغوية متباينة لها، منها دلالات نحوية وأخرى صرفية وإلى جانبيهما دلالة نفسية، يعوّل عليها لتفسير الحالة النفسية للمتكلّم وما يروم إيضاحه»⁽³⁾.

فالسّياق والظرف العام الذي تُسجّح حوله الكلام، وكذا نفسية المتكلّم والأهداف المتوخاة منه، كلّها تتداخل مع بعضها لتفرض نمطاً خاصاً للتنغم، يتناسب معه ومع من يتوجّه إليه الكلام، وإذا أردنا الوقوف على الدوافع التي كانت وراء توظيف المتكلّم لنمط معيّن من التنغم دون سواه من الأنماط الأخرى، يكفي هنا العودة إلى تلك الملاحظات ومختلف العوامل التي تلفّ المنطوق، وتفرض عليه لونا موسيقياً وأنماطاً نغمياً بعينه، وهما هو "تمام حسّان" يوضّح هذه الفكرة بمثال فيقول: «ومن هذا القبيل ما يحدث من أن يحيي المرء شخصاً يكرهه هو، ويودّ أن لو اختفى عن ناظره فيحتفظ بالعبرة العرفية "التحيّة"، ولكنّه يغيّر وظيفتها ويحملها من نعمة الكراهية وتعبيرات الملامح التي تصاحبها، ما يجعل التنغم هنا ظاهرة سياقية، وذلك كأن يجعل المتكلّم شقّته على صورتها التي ينطقان بها (الكسرة) ويضيق عينيه، ويقلّص ما بين حاجبيه حين ينطق التحيّة بنعمة الكراهية قائلاً: (كيف حالك يا عزيزي)»⁽⁴⁾.

ويردّ قائلاً: «ومن المواطن التي يصير فيها التنغم ظاهرة موقعية في السّياق، أن يعتمد المتكلّم إلى التظاهر

(1)- سمير العزاوي: التنغم اللغوي في القرآن الكريم، ص 24.

(2)- أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوابة الإيقاعية، ج 1، ص 267.

(3)- كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، ص 55.

(4)- تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 309-310.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

بأمر هو عكس ما يتطلّب الموقف من تنعيم، كأن يقصّ المتكلّم أمر حادثة مات فيها عدد من أصحابه وأقربائه، ولكن يريد أن يبدو هادئاً في سرد القصة؛ لئلاّ يشير أحزان السامعين بصورة أشدّ، فيصطنع لهذا الكلام الذي يحتمل نعمة الحسرة والجزع نعمة أخرى فيها هدوء وتماسك، فهنا تُعطى الجملة وظيفة جديدة ونعمة غير نغمتها التي في النظام، ويكون التنعيم ظاهرة سياقية»⁽¹⁾.

يُنهم من خلال ما سبق ذكره أنّ التنعيم في سياق الكلام يساهم في إثراء المقام وخدمته، وذلك كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [سورة الفاتحة، الآية: 02]، تقال في سياق الثناء على الله تعالى، وفي سياق الرضا الكامل بشيء ما، وفي سياق الرضا مرغماً... الخ، وفي كلّ سياق للعبارة تنغيماً خاصاً يوحى بدلالاتها؛ وعلى هذا الأساس «فالسّياق له دور رائد في إنحاض المعنى، وإعطاء المفهوم الصحيح للكلام، حسب ما تقتضيه الأحوال والمناسبات، سواء أكانت لغوية أم غير لغوية»⁽²⁾.

هذه هي أبرز الوظائف التي يقوم بها التنعيم في اللغة العربية، وقد تُضاف إليها وظائف أخرى على غرار الوظيفة الاجتماعية التي تتعلّق بطبقات المجتمع ومستواهم الثقافي، إذ له دور بارز في التعرّف على هذه الطبقات بحكم اختلافها في الأداء النطقي، وتباين تأديتها لموسيقى الكلام. هذا ولا تشتمل اللغة العربية على الوظيفة المعجمية، لأنّ التنعيم فيها لا يفرّق بين معاني الكلمات خلافاً لبعض اللغات التي يكون للنغمة فيها دور حاسم في التمييز بين دلالات الألفاظ، تماماً مثلما هو الحال مع اللغة الصينية في المثال السابق الذكر، فكلمة [فان] في هذه اللغة تؤدّي سنّة معانٍ لا علاقة بينها هي: [نوم، يحرق، شجاع، واجب، يقسم، مسحوق]، والسبيل الوحيد لاستحضار هذه الدلالات هو: النغمة الموسيقية؛ أي تغيير أداء الكلمة في كلّ عملية نطقية.⁽³⁾

(1) - تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص310.

(2) - محمد بشير ومحمد زبير عباسي: "السياق التنغييمي ودوره في تحديد دلالات الأصوات المكتوبة"، مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب- لاهور، باكستان، ع21، 2014م، ص131.

(3) - أنور طراد: "الفونيمات فوق التركيبية ووظائفها النحوية والدلالية عند كمال بشر"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية- مجلة علمية محكمة دولية نصف سنوية، جامعة محمد ملين دباغين- سطيف02، الجزائر، مج17، ع02، جويلية 2020م، ص374.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

الفصل الثالث: لمحة عامة حول سور الطواسين

تمهيد:

سور الطواسين ثلاث سور قرآنية جاءت متتالية من حيث النزول والترتيب في المصحف، شغلت هذه السور ما يُقارب ثلاثة أرباع الجزء التاسع عشر وثلاثة أرباع أخرى من الجزء العشرين؛ أي ما يُقارب الجزء ونصفه من القرآن الكريم، وهذه السور هي: سورة الشعراء، سورة النمل، وسورة القصص، تشترك سورة الشعراء مع سورة القصص بأثما تبتدآن بـ: "طسم"، في حين تستهلّ سورة النمل بـ: "طس" لذا جُمعت السور الثلاث تحت اسم [الطواسين] بالنون تغليبا، وكذا [الطواسيم] لابتدائها بحرفي الطاء والسين، جاء في "الجامع لأحكام القرآن" للإمام "القرطبي": «والطواسيم والطواسين سور في القرآن جمعت على غير قياس»⁽¹⁾، فضلا عن هتين التسميتين عُرفت هذه السور بألقاب أخرى أبرزها: آل طس، ذكرها "الحريري" (ت: 516هـ) في معرض حديثه عن هذه السور الثلاث قائلا: «ويقولون قرأت الحواميم والطواسين، ووجه الكلام فيهما أن يقال قرأت آل حم وآل طس»⁽²⁾، وكذا ذوات طس، يقول "الجوهري" في صحاحه: «... والطواسيم والطواسين: سور في القرآن جُمعت على غير قياس. وأنشد أبو عبيدة:

وبالطَواَسِيمِ الَّتِي قَدْ نُثِّثُ **طس** وبالحوَامِيمِ الَّتِي قَدْ سُبِّعَتْ

والصواب أن تجمع بذواتٍ وتضاف إلى واحد، فيقال: ذوات طسم، وذوات حم»⁽³⁾.

على اختلاف هذه التسميات فإنّ ما هو متفق حوله أنّ لهذه السور فضلا عظيما وشأنا كبيرا، يتّضح ذلك جليًا من خلال الحديث التالي: عن الحسن بن الحسين بن أبي العلاء عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سور الطواسين الثلاثة في ليلة الجمعة، كان من أولياء الله وفي جوار الله وكنفه، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبدا، وأُعطي في الآخرة من الجنة حتى يرضى وفوق رضاه، وزوجه الله مائة زوجة من حور العين»⁽⁴⁾.

هذا، وسيتمّ فيما يأتي التفصيل في هذه السور الثلاث.

(1) - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تح: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، ج13، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1384هـ/1964م، ص89.

(2) - أبو محمد القاسم بن علي الحريري: درة الغواص في أوهام الخواص، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1، 1299م، ص9.

(3) - الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج5، مادة "طَسَمَ".

(4) - الشيخ الصدوق أبو جعفر محمد بن علي: ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تح: السيد محمد مهدي السيد حسن الخراسان، منشورات الشريف الرضي - قم، دب، ط2، 1368هـ/1952م، ص109.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

المبحث الأول: سورة الشعراء

المطلب الأول: التعريف بالسورة الكريمة

تعدّ سورة الشعراء أول سور الطواسين، وهي سورة «مكيّة»، إلّا أربع آيات من آخر السورة من قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾⁽¹⁾، وهي مائتان وسبع وعشرون آية، وألف ومائتان وتسع وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وخمسمائة وأربعون حرفاً⁽²⁾. إذاً فواضح أنّ سورة الشعراء من السور المكيّة، على اختلاف جمهور العلماء في المعايير المعتمدة في التفريق بين ما هو مكّي وما هو مدني، على غرار أنّ المكّي ما نزل بمكّة والمدني ما نزل بالمدينة، المكّي ما نزل قبل الهجرة سواء أكان ذلك بمكّة أم بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن لم يكن بالمدينة وهذا هو أشهر الآراء، المكّي ما وقع خطاباً لأهل مكّة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة وغيرها من الاعتبارات، بيد أنّ سورة الشعراء لا خلاف حول مكّيّتها باستثناء أواخر آياتها، جاء في "الدر المنثور": «أخرج "ابن مرّذويه" عن "عبد الله بن الزبير" قال: "أنزلت سورة الشعراء بمكّة"⁽³⁾، وقال صاحب "مجمع البيان في تفسير القرآن" مؤكداً ما قلناه: «سورة الشعراء مكّيّة كلّها غير قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾⁽⁴⁾ الآيات إلى آخر السورة، فإنّها نزلت بالمدينة...»⁽⁵⁾.

هذا، وقد اختلف في عدّ آيات سورة الشعراء كغيرها من السور القرآنية، فهي «مائتان وسبع وعشرون في الكوفي والمدني الأوّل والشامي، وستّ وعشرون في المدني الأخير والبصري والمكّي»⁽⁶⁾.

وقد نزلت سورة الشعراء في "حسن بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، وهم شعراء رسول الله ﷺ واستثنى بعضهم غير ذلك»⁽⁷⁾.

- (1) - علاء الدّين علي بن محمّد بن إبراهيم البغدادي المشهور بالخازن: تفسير الخازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، ج3، تح: عبد السلام محمّد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/2004م، ص321.
- (2) - جلال الدين السيوطي: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، ج11، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد السيد حسن بمامة، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ/2003م، ص237.
- (3) - أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ودار المرتضى، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، ص232.
- (4) - أبو الحسن علي بن محمّد بن عبد الصمد المعروف بعلم الدّين السّخاوي: جمال القراء وكمال الإقراء، مج2، تح: عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، دس، ص535.
- (5) - عبد الرزاق علي إبراهيم موسى: المحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز - شرح وتوجيه أرجوزة العلامة الشيخ محمّد المتولّي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ/1988م، ص119.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

المطلب الثاني: علة التسمية

مما لا شكّ فيه أنّ أسماء سور القرآن الكريم إنّما هو توقيفي من الرسول الأكرم محمد صلوات الله وسلامه عليه، وهذا الأمر أجمع عليه جمهور العلماء؛ إذ جعل الرسول ﷺ لكلّ سورة اسما أو أكثر خاصة بها، أخذ مما عاجلته من معانٍ أو مما تحدّثت عنه سواء أكان إنسانا أم حيوانا أم جمادا، أو كان اسمها كلمة من الكلمات الواردة في متنها. تقول الباحثة "منيرة الدوسري" في هذا السياق: «لكلّ سورة من سور القرآن الكريم اسم يميّزها عن غيرها، مثل: الفاتحة، البقرة، آل عمران، وهكذا... وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير مثل (النساء، الأعراف، هود، الفرقان، الحديد، نوح، القارعة، ... الخ، وربما كان لها اسمان مثل: سورة النحل تسمى (سورة النعم)، وسورة فاطر تسمى (سورة الملائكة)، وقد يكون لها ثلاثة أسماء مثل: سورة المائدة وتسمى (سورة العقود، وسورة المنقذة)، وسورة الإسراء وتسمى (بني إسرائيل، وسورة سبحان)، وقد يكون للسورة أكثر من ذلك للتعريف والتأكيد، كما ثبت في سورة الفاتحة (فهي أمّ القرآن، وأمّ الكتاب، والسبع المثاني، وقد عدّ من أسمائها أيضا: سورة الصلاة والحمد والشكر والشفافية والأساس... الخ»⁽¹⁾.

وسورة الشعراء واحدة من السور القرآنية التي عرفت تعددا في أسمائها، فقد اشتهرت بهذا الاسم لكونها السورة الوحيدة التي تفرّدت بذكر لفظ "الشعراء"، وقد سُمّيت كذلك لأنّ الله عزّ وجلّ «ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للردّ على المشركين في زعمهم أنّ محمدا كان شاعرا، وأنّ ما جاء به من قبيل الشعر، فردّ الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٥١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾»، وبذلك ظهر الحقّ وبان»⁽²⁾، وفي هذه التسمية أيضا دليل قاطع على مفارقة القرآن للشعر لما فيه من «علوّ مقامه واستقامة مناهجه وعزّ مرامه وصدق وعده ووعيده، وعدل تبشيره وتهديده»⁽³⁾، وتسمى فضلا عن الشعراء بسورة "طسم" لاستهلاكها بهذه الحروف المقطّعة، وفي هذه التسمية الأخيرة يقول "ابن خالويه": «ومعنى طسم: أنّ كلّ حرف اسم

(1) - منيرة محمد ناصر الدوسري: أسماء سور القرآن وفضائلها، تقدّم: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرّومي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ / 2005م، ص72.

(2) - محمد على الصّابوني: صفوة التفاسير، مج2، المكتبة التوفيقية ودار الصابوني، السعودية، ط12، 2015م، ص342.

(3) - برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: نظم الدرر في تناسّب الآيات والسّور، ج14، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، 1404هـ / 1984م، ص1.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

من أسماء الله الحسنى، فالطاء من الطيّب، والسين من السيّد، والميم من المَلِكِ». (1)، وإلى جانب هتين التسميتين عرفت السورة تسميات أخرى من قبيل "الظُّلَّة" (*)، حيث ذكر "المخلّلاتي" (ت: 1311هـ) في شرحه للسورة الكريمة هذه التسمية قائلاً: «وتسمّى سورة الظلّة...» (2)، هذا ويفسّر صاحب "نظم الدرر" التسمية ذاتها بقوله: «وكذا تسميتها بالظُّلَّة إشارة إلى أنّه [ويعني القرآن] أعدل في بيانه وأدلّ في جميع شأنه من المقادير التي دلّت عليها قصّة شعيب عليه السلام بالمكيال والميزان، وأحرق من الظلّة لمن يبارزه بالعصيان» (3)، وهناك تسمية أخرى عُرفت بها السورة الكريمة، فقد ورد في "تفسير القرآن العظيم" لـ "ابن كثير" (ت: 774هـ) أنّ سورة الشعراء تسمى أيضاً بالجامعة (4)، ويفسّر "ابن عاشور" (ت: 1394هـ) هذه التسمية بقوله: «ولعلّها أوّل سورة جمعت ذكر الرسل أصحاب الشرائع المعلومة إلى الرسالة الحمدية» (5).

المطلب الثالث: فحواها

موضوع هذه السورة الرئيس هو موضوع السور المكيّة جميعاً: العقيدة ملخّصة في عناصرها الأساسية: توحيد الله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (٣١)، والخوف من الآخرة: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٤٨) ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٤٩)، والتصديق بالوحي المنزّل على محمد رسول الله ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٣) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٥٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٥٤)، ثمّ التخويف من عاقبة التكذيب، إمّا بعذاب الدنيا الذي يدمّر المكذبين، وإمّا بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦١) و﴿...وَسَيَعْلَمُ﴾

(1) - أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمداني التحوي الشافعي: إعراب القراءات السبع وعللها، ج2، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ/1992م، ص131.

(*) - الظُّلَّة: سحابت أضلَّتْهُم من الشمس وجدوا لها برداً، فاجتمعوا تحتها مستحجرين بما نالهم من حرّ ذلك اليوم، حيث نادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا كلّهم تحتها أطبقت عليهم، حيث أرسل الله عليهم نارا فكان ذلك أعظم يوم في الدنيا عذاباً. ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن السري الرّجّاج: معاني القرآن وإعرابه، ج4، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ص98. وكذا: محمّد شكري أحمد الزاويتي: تفسير الصّحّاك، مج1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ/1999م، ص638.

(2) - أبو عبيد رضوان بن محمّد بن سليمان المخلّلاتي: شرح العلامة المخلّلاتي المسمّى بالقول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة الزهر للإمام الشاطبي رضي الله عنه، تح: عبد الرزاق بن علي بن إبراهيم موسى، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، السعودية، ط1، 1412هـ/1992م، ص249.

(3) - البقاعي: نظم الدرر في تناسّب الآيات والسور، ج14، ص2.

(4) - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، مج3، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1423هـ/2002م، ص2101.

(5) - محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1404هـ/1984م، ص89.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

الَّذِينَ ظَاهَرُوا أَنَّهُمْ يُقْبَلُونَ ﴿١٧﴾، ذلك إلى تسليّة الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ
فَقَسَّكَ الْآيَاتُ كَذُوبًا وَمَا يُغْنِي عَنْكَ كِبَارُكَ﴾، وإلى طمأنة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين، وتثبيتهم على
العقيدة مهما أودوا في سبيلها من الظالمين، كما ثبت من قبلهم من المؤمنين.⁽¹⁾

إدًا، فقد ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، وبلسما شافيا لأمراض
الإنسانية، وذكرت موقف المشركين منه، فقد كذبوا به مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير
القرآن الكريم عنادا واستكبارا، ثم تحدثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام الذين بعثهم الله لهداية البشرية، فبدأت
بقصّة الكليم (موسى) مع فرعون الطاغية الجبار، وما جرى من المحاورّة والمداورّة بينهما في شأن الإله جلّ وعلا، وما
أيد الله به موسى من الحجّة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل، وقد ذكرت في القصّة حلقات جديدة، انتهت ببيان
العظة والعبرة من الفارق الهائل بين الإيمان والطغيان. ثم تناولت قصّة الخليل إبراهيم عليه السلام، وموقفه من قومه وأبيه في
عبادتهم للأوثان والأصنام، وقد أظهر لهم بقوة حجته، ونصاعة بيانه، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا
ينفع، وأقام لهم الأدلّة القاطعة على وحدانية ربّ العالمين، الذي بيده النفع والضّرّ، والإحياء والإماتة. ثم تحدثت
السورة عن المتّقين والعاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كل من الفريقين يوم الدين. وبعد أن تابعت السورة في ذكر
قصص الأنبياء (نوح، هود، صالح، لوط، وشعيب عليهم الصلاة والسلام)، وبيّنت سنة الله في معاملة المكذّبين لرسله،
عادت للتنبؤ به بشأن الكتاب العزيز تفخيما لشأنه، وبيانا لمصدره: ﴿وَأَنزَلْنَا نَزِيلًا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٣﴾ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿١٣٤﴾ عَلَيَّ
قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٣٦﴾﴾، ثم ختمت السورة بالردّ على افتراء المشركين في زعمهم أنّ القرآن من
تنزيل الشياطين، لينسجم البدء مع الختام في أروع تناسق والتّمام.⁽²⁾

هكذا تبدو بنية السورة قائمة على أساس:⁽³⁾

- الإشارة إلى الآيات قبل إيرادها.

- تعليق إنزال الآية على مشيئة الله.

(1) - سيّد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط32، 1423هـ / 2003م، ص2584.

(2) - الصّابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص342.

(3) - تمام حستان: البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، ص594.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

- إيراد ثماني آيات من ظواهر الطبيعة وقصص الأنبياء^(*) بعد كلّ آية منها. يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَاتَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣١﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 190-191].

- إيراد آية الآيات وغاية الغايات وهي القرآن الكريم، ثمّ السؤال التقريري: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَنِينَ سَوِيِّاتٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 197].

المطلب الرابع: فضلها

جاء في "مجمع البيان في تفسير القرآن": «عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد من صدّق بنوح الطيّب، وكذّب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم عليهم السلام، وبعدد من كذّب بعيسى الطيّب، وصدّق بمحمد ﷺ»⁽¹⁾.
هذا، ولعلّ أهمّ ما ورد في شأن هذه السورة أمران:⁽²⁾

أولهما: يتعلّق بقوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 214]، وقد وردت في هذا الشأن روايات لعلّ أهمّها: «عن عائشة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: "يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبد المطلب إني لا أملك لكم من الله شيئا؛ سلوني من مالي ما شئتم".⁽³⁾، وعن أبي هريرة قال: «لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جمع رسول الله ﷺ قريشا فخصّ وعمّ فقال: "يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا

(*)- الآية الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَخْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 07] المقصود بالزوج هنا الصنف من أصناف النبات، الآية الثانية: قصّة موسى مع فرعون، الآية الثالثة: نبي إبراهيم، الآية الرابعة: خبر نوح، الآية الخامسة: قصّة عاد قوم هود، الآية السادسة: آية قوم صالح وناقة الله، الآية السابعة: ما حدث لقوم لوط، الآية الثامنة: آية شعيب وأصحاب الأيكة، الآية التاسعة: آية الآيات التي هي غاية في ذاتها، وما سبق فهو وسيلة إليها هي آية القرآن الكريم. ينظر: تمام حسان: البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، ص 589، 592.

(1)- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، ص232.

(2)- ينظر: محمد عابد الجابري: فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2009م، ص 312-313.

(3)- أخرجه: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي: سنن الترمذي، تح: صدي جميل العطار، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة "الشعراء"، رقم الحديث: 3195، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م، ص913.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

أملك لكم من الله ضرّاً ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمّد أنقذي نفسك من النار فإنّي لا أملك لك من الله ضرّاً ولا نفعاً، إنّ لك رجماً وسأبئها ببلاها». ⁽¹⁾

ثانيهما: يتعلّق بقوله تعالى في هذه السورة: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 224]، قيل: كان الشعراء بمكّة يهجون النبي ﷺ منهم النضر بن الحارث والعمراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات الشعراء.

المطلب الخامس: مرتبتها في النزول والمصحف

يقول "ابن عاشور" في معرض حديثه عن مرتبة سورة الشعراء من حيث نزولها على الرسول ﷺ: «وهي السورة السابعة والأربعون في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل...» ⁽²⁾، فهذه السورة الكريمة نزلت قبل سورة النمل، ورُتبت في المصحف الشريف قبلها أيضاً، حيث ورد في "نظم الدرر" في سياق تحديد رقم ترتيبها في المصحف: «السادسة والعشرون من سور القرآن الكريم، مكّية مع ورود استثناء بعض الآيات، وعدة آياتها مائتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والشامي والمدني الأول، ومائتان وست وعشرون في الباقي». ⁽³⁾

المطلب السادس: تصنيفها

قسم العلماء سور القرآن الكريم إلى أربعة أقسام، جعلوا لكلّ قسم منها اسماً خاصاً به، ففي الحديث الذي أخرجه الإمام "أحمد بن حنبل" في مسنده: «حدّثنا سليمان بن داود أبو داود الطّبالسيّ قال: أنبانا عمران القطان عن قتادة عن أبي المليح الهذليّ عن وائلة بن الأسقع، أنّ النبي ﷺ قال: أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ المِئِينَ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الإنجِيلِ المِثَاثِي، وَفُضِّلَتْ بالمُفْصَلِ» ⁽⁴⁾، إذا يتّضح من خلال هذا الحديث بأنّ سور القرآن على أربعة أقسام: الطّوال، المئون، المِثَاثِي، والمُفْصَلِ؛ فالطّوال سبع سور هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام والأعراف، وهذه ست سور، واختلفوا في السابعة على مذاهب شتى، فقيل: إنّها الأنفال والتوبة معا لعدم الفصل بينهما بالبسملة، وقيل: سورة يونس، أمّا المئون فهو القسم الذي يلي الطّوال، وإنّما سمّيت كذلك لأنّها تجمع السور التي تزيد آياتها مائة آية أو تقاربها، والمِثَاثِي هي التي تلي المئون في عدد الآيات، بمعنى أنّ آياتها أقلّ من مائة،

(1) - أخرجه: الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة "الشعراء"، رقم الحديث: 3196، ص 914.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 19، ص 90.

(3) - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 14، ص 1.

(4) - أخرجه: أبو عبد الله أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، ج 4، رقم الحديث: 17107، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية،

دط، 1419هـ / 1998م، ص 107.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

وعلة تسميتها يعود إلى تثنى آياتها، أي أنّها تتكرّر أكثر ممّا هو واقع مع الطّوال والمثون. أمّا القسم الرابع فهو المفصّل وهو أواخر القرآن، جاء في "البرهان في علوم القرآن" أنّ المفصّل: «ما يلي المثاني من قصار السور، سمي مفصّلاً لكثرة الفصول التي بين السور بيسم الله الرحمن الرحيم، وقيل: لقلة المنسوخ فيه [ولهذا يسمّى بالمحكم أيضاً]، وآخره ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، وفي أوّله اثنا عشر قولاً: أحدها: الجاثية، ثانيها: القتال، ثالثها: الحجرات، رابعها: ق، الخامس: الصافات، السادس: الصفّ، السابع: تبارك، الثامن: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، التاسع: الرحمن، العاشر: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، الحادي عشر: ﴿سَبِّحْ﴾، الثاني عشر: ﴿وَالصُّحَىٰ﴾،... والصحيح عند أهل الأثر أنّ أوّله: ق...»⁽¹⁾، وعليه فقد اختلف العلماء في تعيين أوّل هذا القسم، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى كما رأينا، بيد أنّ ما هو متفق حوله أنّ سورة النَّاس هي آخر هذا القسم بلا منازع.

والمفصّل ثلاثة أقسام: طوال وأوساط وقصار، فطواله من أوّل الحجرات إلى سورة البروج، وأوساطه من سورة الطارق إلى سورة "لم يكن"، وقصاره من سورة "إذا زلزلت" إلى آخر القرآن.⁽²⁾

بناء على ما قيل تصنّف سورة الشعراء ضمن القسم الثاني من الأقسام المذكورة سلفاً، أي المثون، فرغم أنّ سورة الشعراء هي ثاني أطول سورة بعد سورة البقرة من حيث عدد الآيات، إلّا أنّها لم تصنّف في مجموعة الطوال، وذلك نظراً لحجمها الصغير لقصر آياتها، مقارنة مع السور السبع الأولى.

المطلب السابع: الهدف من السورة

من بين الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة: التنويه بالقرآن، والتعريض بعجزهم عن معارضته، وتسليّة النبي ﷺ على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن، وفي ضمنه تهديدهم على تعرضهم لغضب الله تعالى، وضرب المثل لهم بما حلّ بالأمم المكذبة رسلها والمُعْرِضَة عن آيات الله.⁽³⁾

المطلب الثامن: أوجه التناسب والتباين بينها وبين ما قبلها (المناسبة بين خاتمة الفرقان و فاتحة الشعراء)

علم المناسبات بين سور القرآن الكريم، أو بين الآيات ضمن السورة الواحدة من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهم مضبوط لمقاصد القرآن الكريم، وتذوق مرهف لنظمه وبيان إعجازه وإلى معايشة جوّ التنزيل، وكثيراً ما تأتي إلى ذهن المفسّر على شاكلة إشراقات فكرية أو روحية. فما المقصود بهذا العلم؟ فيم تكمن فائدته؟، وما هي مختلف

(1) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص246.

(2) - محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، ج1، تح: فوز أحمد زمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1995م، ص287.

(3) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص90.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

مظاهره؟

يحدّد الإمام "الزركشي" مفهوم العلم قائلاً: «واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحزُّرُ به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول»⁽¹⁾، ويبسِّط "متاع القَطَّان" مفهوم العلم فيقول: «والمراد بالمناسبة هنا: وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعدّدة، أو بين السورة والسورة»⁽²⁾، هذا وتكمن فائدة علم المناسبات في جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء⁽³⁾، وفي شأن ذي صلة يضيف "متاع القَطَّان" كلاماً يوضّح فيه قيمة وأهمّية معرفة المناسبات قائلاً: «ولمعرفة المناسبة فائدتها في إدراك اتّساق المعاني، وإعجاز القرآن البلاغي وإحكام بيانه، وانتظام كلامه، وروعة أسلوبه ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ وَتُفْصِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [سورة هود، الآية: 01]»⁽⁴⁾، ومعنى هذا الكلام أنّ آيات القرآن الكريم مرتبطة ببعضها البعض بمثابة الكلمة الواحدة، ملتئمة المبني والمعنى، وهذا ما يذهب إليه "الزركشي" في "البرهان" إذ نجده يقول: «وإذا ثبت هذا [أي التناسب] بالنسبة إلى السّور، فما ظنّك بالآيات وتعلّق بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أنّ القرآن كلّه كالكلمة الواحدة»⁽⁵⁾.

هذا، وقد تكون المناسبة ضمن الآية الواحدة أو بين الآيات، كما قد تكون ضمن السورة الواحدة أو بين السور، وهذا المظهر الأخير هو الذي يعنينا هنا في هذا المطلب، والمقصود به الرابطة التي تجمع بين السورة والسورة التي سبقتها في الترتيب، وهو على عدّة أوجه نحو مناسبة فاتحة السورة لخاتمة سابقتها. يقول الإمام "الزركشي": «إذا اعتبرت افتتاح كلّ سورة وجدتها في غاية المناسبة لما ختمت به السورة قبلها»⁽⁶⁾، ويضيف في السياق ذاته: «ومن أسرارها مناسبة فاتحة السورة لخاتمة التي قبلها»⁽⁷⁾.

وكذا المناسبة بين السورة وسابقتها من حيث الموضوع، كأن تأتي السورة اللاحقة مقابلة للسورة السابقة كما هو الحال مثلاً مع سورة الكوثر، فهي مقابلة للتي قبلها وهي سورة الماعون، أو تأتي السورة اللاحقة شارحة لما قبلها وهذه

(1) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص35.

(2) - متاع خليل القَطَّان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط7، 1995م، ص92.

(3) - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص631.

(4) - متاع خليل القَطَّان: المرجع السابق، ص س.

(5) - الزركشي: المرجع السابق، ص39.

(6) - المرجع نفسه، ص38.

(7) - نفسه، ص186.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

مناسبة معظم سور القرآن، كما قد تكون هذه المناسبة بين فاتحة السورة وفحواها، وقد تأتي فاتحة السورة مناسبة لخاتمها، وهذه المناسبة بين الآيات والسور تجعلها متعلّقة ببعضها البعض، حتّى يظهر أنّ القرآن الكريم كلّهُ كالكلمة الواحدة.⁽¹⁾

بالعودة إلى أوجه التناسب القائمة بين سورتي الفرقان والشعراء، يذكر "أحمد مصطفى المراغي" بعض نقاط التشابه بينهما كالآتي:⁽²⁾

1 - إنّ كليهما قد بُدئت بمدح الكتاب الكريم.

2 - إنّ كليهما خُتمت بإيعاد المكذّبين.

3 - إنّ فيها [أي سورة الشعراء] بسطا وتفصيلا لبعض ما ذُكر في موضوعات سالفها [أي سورة الفرقان].

انطلاقا من هذه النقطة الثالثة، يمكن تحديد المناسبة بين سورة الفرقان وسورة الشعراء كما يتصوّرهما "السيوطي" كما يلي:⁽³⁾

* وجه اتّصالها بسورة الفرقان أنّه تعالى لما أشار فيها إلى قصصٍ مجملّةٍ بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ وَآخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا لِنَاسٍ آيَةً ﴿٣٧﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّيْسِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الفرقان، الآيات: 35-38]، شرح هذه القصص وفصلها أبلغ تفصيل في الشعراء التي تليها، ولذلك رُتبت على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة؛ فبدئ بقصة موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى...﴾ [الآية: 10] وما بعدها من سورة الشعراء، ثمّ نوح في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: 105] وما بعدها، ثمّ عاد من قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: 123]، وهكذا على ترتيب آيات الفرقان، ولو رُتبت على الواقع لأُخرت كما في الأعراف.

* ولما كان من الآيات المذكورة قوله: ﴿...وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 38] زاد في الشعراء تفصيلا لذلك قصة إبراهيم، وقوم لوط وقوم شعيب، ولما ختم الفرقان بقوله ﴿...وَإِذَا حَاطَبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 63]، وقوله: ﴿...وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 72]، ختم هذه السورة

(1) - ينظر: منصور كافي: الوجيز في علوم القرآن الكريم عرض ونقد وتحقيق لطلبة العلوم الإسلامية (ليسانس - ماستر - دكتوراه)، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة (الجزائر)، دط، 1432هـ/2011م، صص 113، 116.

(2) - أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 19، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1421هـ/2001م، ص 30.

(3) - جلال الدّين عبد الرحمن السيوطي: تناسق الدُّرر في تناسب السُّور، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1406هـ/1986م، صص 106-107.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

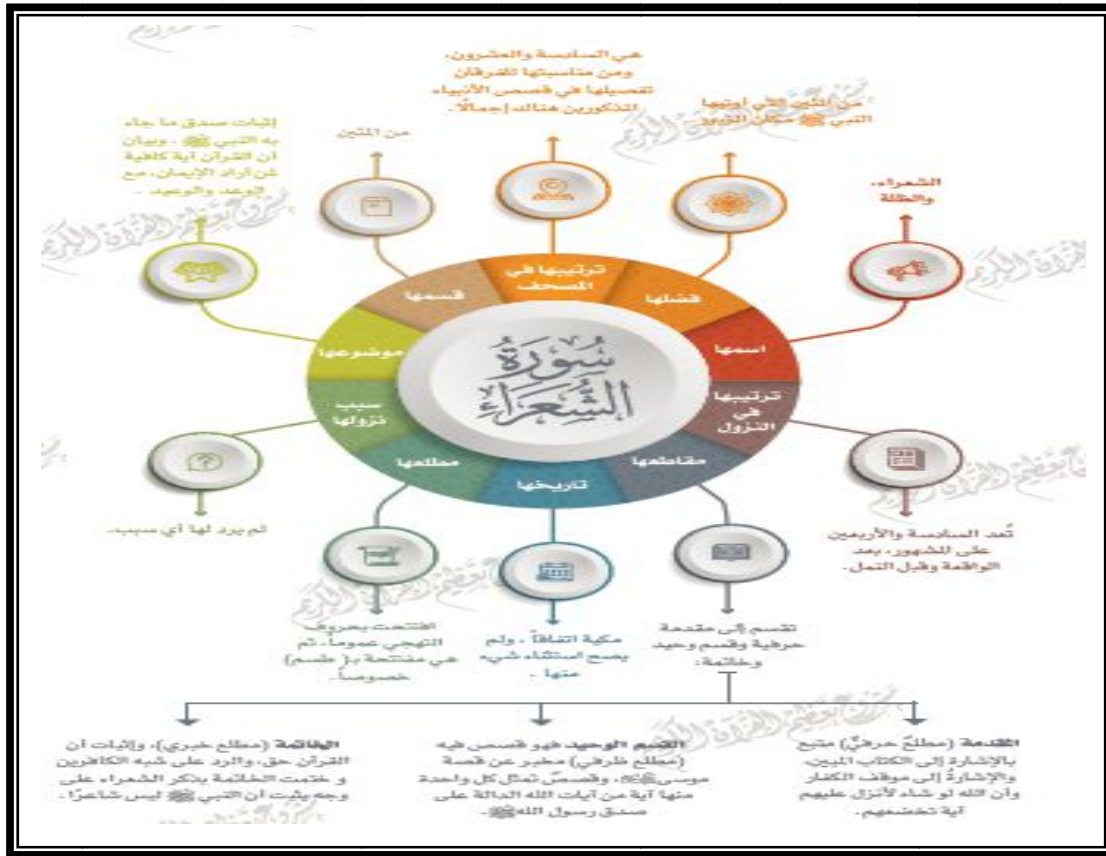
(أي الشعراء) بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك، وبين ما يمدح من الشعر ويدخل في قوله (سلاما)، وما يذمّ منه ويدخل في اللغو.

ومن أوجه المناسبة أيضا بين خاتمة الفرقان، وفتحة الشعراء:⁽¹⁾

* لمّا عرّفت سورة الفرقان بشنيع مرتكب الكفرة المعاندين وختمت بما ذكر من الوعيد، كان ذلك مظنة لإشفاقه عليه الصلاة والسلام وتأسفه على فوت إيمانهم، لما جُبل عليه من الرحمة والإشفاق، فافتتحت السورة الأخرى بتسليته عليه الصلاة والسلام، وأنه سبحانه لو شاء لأنزل عليهم آية تُبهرهم وتذلّ جبارتهم.

* ذكر الله سبحانه في محتتم سورة الفرقان تكذيبهم بالكتاب، وذكر في مفتتح هذه السورة وصف الكتاب.

والمخطّط أسفله يلخّص كلّ المعلومات المتعلقة بسورة الشعراء:



الشكل 04- (2)

(1) - ينظر: البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج14، ص ص 3-4. وكذا: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، ص232.

(2) - محمد بن عبد العزيز بن عمر بن نصيف: بطاقات التعريف بسور المصحف الشريف، جمعية تحفيظ القرآن بجدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1440هـ/2019م، ص111.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

المبحث الثاني: سورة النمل

المطلب الأول: التعريف بالسورة الكريمة

سورة النمل هي ثاني سور الطواسين؛ سورة «مكّية»، وهي ثلاث وتسعون آية، وألف وثلاثمائة وسبع عشر كلمة، وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفاً⁽¹⁾. إذًا، فواضح من خلال هذا الكلام أنّ سورة النمل سورة مكّية وذلك بإجماع العلماء، ورد في مصنّف "الدرّ المنتور في التفسير بالمأثور": «أخرج ابن الضّريس، والنحاس، وابن مرزُويّه والبيهقي في "الدلائل" عن ابن عباس قال: "أنزلت سورة (النمل) بمكّة"⁽²⁾. وإلى الاتجاه نفسه يذهب "السيوطي" في "الإتقان" متحدّثًا عن مكّية بعض السور ومنها سورة النمل، مستثنيًا في الوقت ذاته ما هو مدني منها قائلاً: «وسورة النمل والقصص والعنكبوت والزّوم ولقمان، سوى ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة...»⁽³⁾.

أمّا عن آياتها فتختلف باختلاف العدّد، فقد جاء في "مجمع البيان في تفسير القرآن" أنّ عدد آياتها «خمس وتسعون آية حجازي، أربع بصري شامي، ثلاث كوفي»⁽⁴⁾، وقال صاحب "التحرير والتنوير": «وقد عدّت آياتها في عدد أهل المدينة ومكّة خمسًا وتسعين، وعند أهل الشام والبصرة والكوفة أربعًا وتسعين»⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: علّة التسمية

ذكرنا فيما سبق أنّ السورة الكريمة قد تتفرّد باسم واحد تميّز به، كما قد تتجاوز أسماءها أكثر من ذلك، وسورة النمل واحدة من السور القرآنية التي شهدت هي الأخرى تعدّدًا في أسماءها، فقد عُرفت بسورة النمل وهو أشهر أسمائها، وتكمن علّة تسميتها كذلك حسب رأي "ابن عثيمين": «... لذكر النمل فيها، وتسمية السور يكون بأدنى مناسبة، ولهذا البقرة سمّيت سورة البقرة فيها، ولا يمتنع أن تسمّى سورة بعدّة أسماءٍ لعدّة مناسبات»⁽⁶⁾، ويذهب "الصابوني" إلى أبعد من ذلك حينما يقول: «سمّيت سورة النمل، لأنّ الله تعالى ذكر فيها قصّة النملة، التي وعظت بني جنسها، وذكرت ثمّ اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبيّ الله كلامها وتبسّم من قولها، وشكر الله على

(1) - الخازن: تفسير الخازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 3، ص 338.

(2) - السيوطي: الدرّ المنتور في التفسير بالمأثور، ج 11، ص 333.

(3) - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص 33.

(4) - الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 7، ص 263.

(5) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 19، ص 215.

(6) - محمّد بن صالح العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة النمل، مؤسسة الشيخ محمّد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، ط 1،

1436هـ / 2014م، ص 7.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

ما منحه من الفضل والإنعام، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان، وأنّ ذلك من إلهام الواحد الديّان». (1)

فضلا عن تسمية النمل، عرفت السورة الكريمة تسميات أخرى على غرار: سورة الهدهد، وكذا سورة سليمان وغيرها، «ووجه الأسماء الثلاثة أنّ لفظ النمل ولفظ الهدهد لم يذكر في سورة من القرآن غيرها، وأمّا تسميتها (سورة سليمان) فلا أنّ ما ذكر فيها من ملك سليمان مفضلا لم يذكر مثله في غيرها». (2)

المطلب الثالث: فحواها

هذه السورة مكّية - كما أسلفنا - نزلت بعد الشعراء، وهي تمضي على نسقها في الأداء: مقدمة وتعقيب، يتمثّل فيهما موضوع السورة التي تعالجها، وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع، ويؤكد ويرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكّة، ومواقف الغابرين قبلهم من شتّى الأمم، للعبرة والتدبّر في سنن الله وسنن الدعوات. (3)

السورة كسائر السور المكّية الأخرى موضوعها الرئيس أصول العقيدة "التوحيد والرسالة والبعث"، وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية، ووُضعت في المصحف متتالية، وهي: الشعراء، النمل، والقصص، ويكاد يكون منهاجها واحدا، في سلوك مسلك العظة والعبرة عن طريق قصص الغابرين. هذا وقد تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى وحقّته البالغة إلى يوم الدين، فوضّحت أنّه تنزيل من حكيم عليم، ثمّ تحدّثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض وإسهاب في البعض، فذكرت بالإجمال قصّة "موسى" وقصّة "صالح" وقصّة "لوط" وما نال أقوامهم من العذاب والنكال بسبب إعراضهم عن دعوة الله، وتكذيبهم لرسوله الكرام. بعد ذلك تحدّثت بالتفصيل عن قصّة سيدنا "داود" وولده "سليمان" عليهما السلام، وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصّهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والمُلك الواسع، ثمّ ذكرت قصّة "سليمان مع بلقيس" ملكة سبأ، وفي هذه القصّة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان والعظماء والملوك، فقد اتّخذ سليمان المُلك وسيلة للدعوة إلى الله، فلم يترك حاكما جائرا ولا مَلِكا كافرا إلاّ دعاه إلى الله، وهكذا كان شأنه مع "بلقيس" حتى تركت عبادة الأوثان، وأتت مع جندها خاضعة مسلمة، مستجيبة لدعوة الرحمن. كما تناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه، وسأقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة التي يراها النَّاس يوم الحشر الأكبر، حيث يفزعون

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص367.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص215.

(3) - سيّد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، ص2624.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

ويرهبون وينقسمون إلى قسمين: السعداء الأبرار، والذين يكتبون على وجوههم في النار.⁽¹⁾

المطلب الرابع: فضلها

عن النبي ﷺ أنّه قال: «من قرأ طس كان له من الأجر عشرُ حَسَنَاتٍ، بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به، وهدوا وصالحًا وإبراهيمَ وشعبيًّا، ويخرُجُ من قبره وهو ينادي: لا إله إلاّ الله».⁽²⁾

المطلب الخامس: مرتبتها في النزول والمصحف

يقول "ابن عاشور" في معرض حديثه عن مرتبة سورة النمل من حيث نزولها على الرسول الأكرم محمد ﷺ: «وهي السورة الثامنة والأربعون في عداد نزول السور، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص».⁽³⁾

وما دام أنّ سور الطواسين قد نزلت متتالية كما ذكرنا آنفاً، ورُتبت في المصحف كذلك؛ أي حسب نزولها، فإنّ مرتبتها فيه هي السابعة والعشرين بعد سورة الشعراء وقبل سورة القصص أيضاً.

المطلب السادس: تصنيفها

المثون هو القسم الثاني من القرآن الكريم الذي يلي الطوال، وسورة النمل تندرج ضمن هذا القسم، لأنّ عدد آياتها ثلاث وتسعون آية، وهو عدد يقارب المائة ويؤهلها لأن تتنزل ضمن هذا الصنف.⁽⁴⁾

المطلب السابع: الهدف من السورة

يسرد لنا "ابن عاشور" جملة من الأغراض التي يشتمل عليها نصّ هذه السورة الكريمة كما يلي:⁽⁵⁾

* أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمته وعلوّ معانيه، بما يشير إليه الحرفان المقطّعان في أوّلها، والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن يُيسّر الله الاهتداء به دون من جحدوا أنّه من عند الله، والتّحدّي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء، والاعتبار بملك أعظم ملك أوتيّه نبيء وهو مُلك داود ومُلك سليمان عليهما

(1)- ينظر: الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص367.

(2)- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، مج2، ج20، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، سورية، ومؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، ص577-578.

(3)- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص215.

(4)- ينظر: محمّد محمّد أبو شهبه: المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط3، 1407هـ/1987م، صص327-328.

(5)- المرجع نفسه، صص215-216.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

السلام، وما بلغه من العلم بأحوال الطير، وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة.

* وأشهر أمة من العرب أوتيت قوّة وهي أمة ثمود، والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ، وفي ذلك إيماء إلى أنّ نبوءة محمد ﷺ تقارنها سياسة الأمة، ثمّ يعقبها ملك، وهو خلافة النبي ﷺ، وأنّ الشريعة المحمّديّة سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لبني إسرائيل ملك سليمان.

* ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزيف آهتهم وإبطال أخبار كهّانهم وعزّافهم وسدنة آهتهم، وإثبات البعث وما يتقدّمه من أهوال القيامة وأشراتها.

* وأنّ القرآن مهيمن على الكتب السابقة، ثمّ مؤدعة المشركين وإنباؤهم بأنّ شأن الرسول الاستمرار على إبلاغ القرآن، وإنذارهم بأنّ آيات الصدق سيّشاهدونها والله مُطّلع على أعمالهم.

المطلب الثامن: أوجه التناسب والتباين بينها وبين ما قبلها (المناسبة بين خاتمة الشعراء وفتحة النمل)

يذكر "المراغي" بعض أوجه التشابه القائمة بين سورتي الشعراء والنمل كما يلي: (1)

* إنّ كليهما قد اشتمل على نعت القرآن، وأنّه منزل من عند الله.

* تسليّة رسوله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وعنتهم، وإصرارهم على الكفر به والإعراض عنه.

ويضيف صاحب "نظم الدرر" وجهاً آخر من أوجه التقابل بين السورتين قائلاً: «المقصود الأعظم من سورة النمل إظهار العلم والحكمة [كما] كان مقصود التي قبلها إظهار البطش والنقمة، وأدّل ما فيها على هذا المقصود ما للنمل من حسن التدبير وسداد المذاهب في العيش». (2)

هذا، ويمكن إجمالاً تحديد مواطن التناسب بين سورة النمل والسورة التي قبلها حسب تصوّر "جلال الدّين السيوطي" كما يلي: (3)

* وجه اتّصالها (النمل) بما قبلها (الشعراء): أنّها كالتيّمة لها في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان وداود في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ إلى: ﴿وَأَسْمَأْتِ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآيات: 15-44]، وبسط فيها قصّة لوطٍ أبسط ممّا هي في الشعراء في قوله: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ إلى: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الآيات: 54-58].

(1) - أحمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 19، ص 77.

(2) - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج 14، ص 122.

(3) - السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، ص 107-108.

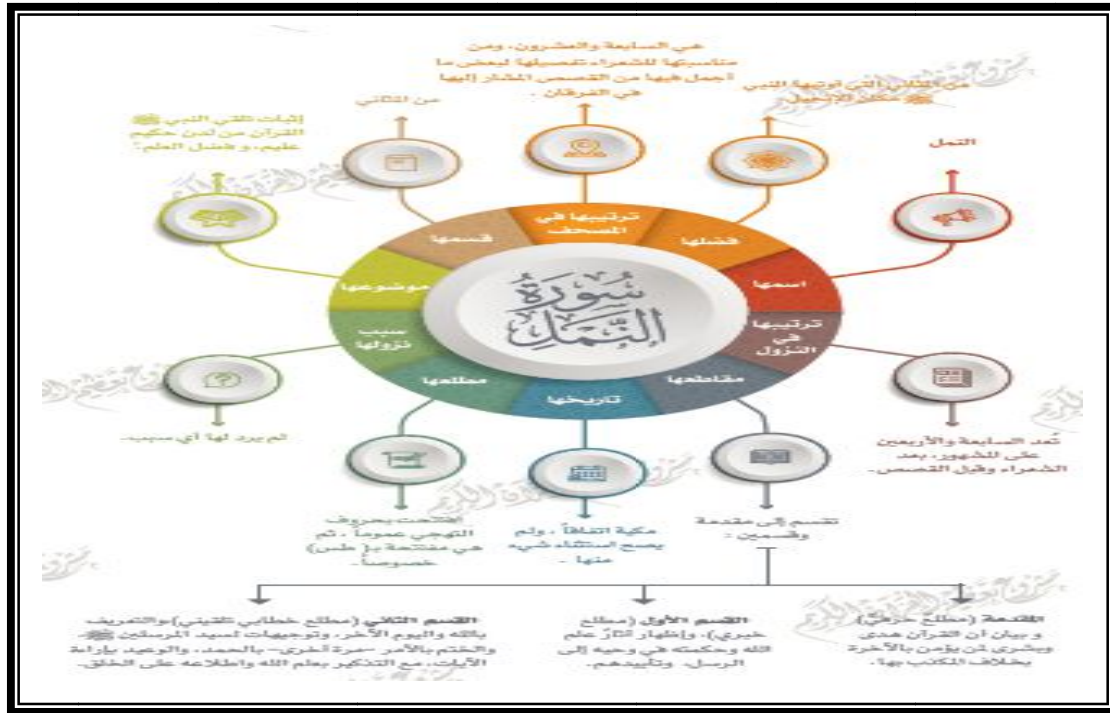
الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

* الحقيقة أنّ قصّة لوط هنا أبسط منها في الشعراء مخالف للواقع، فهي في الشعراء أطول، ولكنّها ذكرت في النمل مع بيان أقصى ما وصلوا إليه من الانحلال الخلقي والانتكاس العقلي، إذ عدّوا طهارة لوطٍ من الشذوذ الجنسي جريمة يستحقّ عليها النفي من البلاد، ولم يردّ هذا التعليل في الشعراء، فلعلّ البسط المقصود في النمل في المعاني لا في المقدار.

* أيضا فقد وقع فيها: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنستُ نَارًا﴾ [سورة النمل، الآية: 07]، وذلك تفصيل قوله في الشعراء: ﴿وَهَبْ لِي رِبِّي حُكْمًا وَجَعَلْنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 21].

ويعرض بدوره "الطبرسي" (ت: 548هـ) وجهها آخر من أوجه التناسب والتماثل، يثبت من خلاله أنّ السورتين متممتان لبعضهما البعض وكأتهما سورة واحدة لا يفصل بينهما فاصل، فيقول: «لَمَّا ختم الله سبحانه سورة الشعراء بذكر القرآن، افتتح هذه السورة بذكره أيضا. قال تعالى: ﴿طَسَّ تَلَكَّ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (1)».

والمخطّط أسفله يلخّص كلّ المعلومات المتعلقة بسورة النمل:



الشكل - 05 - (2)

(1)- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، ص263.

(2)- محمد بن عبد العزيز بن عمر بن نصيف: بطاقات التعريف بسور المصحف الشريف، ص114.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

المبحث الثالث: سورة القصص

المطلب الأول: التعريف بالسورة الكريمة

سورة القصص ثالث وآخر سور الطواسين، لها ثمان وثمانين آية باتّفاق جمهور العلماء، وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف وثمانمائة حرف، وهي سورة مكّية كلّها سوى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الآية: 52]، إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [الآية: 55]، وفي هذه السورة آية ليست بمكّية ولا هي بمدنية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [الآية: 85]، قيل نزلت هذه الآية بين مكّة والمدينة، ورسول الله ﷺ بالجحفة، وهو منزل من المنازل، وذلك حين هاجر النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة تسليّةً له على مفارقة بلده. (1) وفي رواية قيل أنّ الآيات 52 إلى 55 من هذه السورة قد «نزلت مع آخر سورة الحديد في أصحاب النجاشي حين قدموا وشهدوا وقعة أحد». (2)

نزلت السورة الكريمة إذاً والمسلمون في مكّة قلةً مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان؛ نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيّم؛ نزلت تقرّر أنّ هناك قوّة واحدة في هذا الوجود هي قوّة الله، وأنّ هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوّة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرداً من كلّ مظاهر القوّة، ومن كانت قوّة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كلّ، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً. (3)

المطلب الثاني: علّة التسمية

لم تعرف هذه السورة اسماً آخر غير القصص، ووجه تسميتها كذلك: وقوع لفظ "القصص" فيها عند قوله تعالى: ﴿...فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ...﴾ [الآية: 25]، ففي هذه السورة ذكر الله تعالى قصّة موسى مفصّلة موضّحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلّى فيها بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه، فكانت هذه السورة ذات قصص لحكاية قصص، إذ كان القصص متوعّلاً فيها، وجاء لفظ

(1) - ينظر: أبو المظفر السمعاني؛ منصور بن محمّد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي: تفسير القرآن من الفرقان إلى الزمر، مج4، تح: أبو بلال غنيم بن عبّاس بن غنيم، دار الوطن للنشر، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ/1997م، ص120. وكذا: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنته من السنّة وآي الفرقان، ج16، ص228. وكذا: ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص61. وكذا: علاء الدّين علي بن محمّد بن إبراهيم البغدادي المشهور بالخازن: تفسير الخازن المسّعى لباب التأويل في معاني التنزيل، ج3، ص356.

(2) - عبد الرزاق علي إبراهيم موسى: المحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز، ص122.

(3) - سيّد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج20، ص ص 2673-2674.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

القصص في سورة يوسف أيضا، ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة.⁽¹⁾

المطلب الثالث: فحواها

سورة القصص هي الأخرى من السور المكيّة التي تهتمّ بجانب العقيدة (التوحيد، الرسالة، والبعث)، وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي النمل والشعراء، كما اتّفقت في جوّ النزول؛ فهي تكملّ أو تفصّل ما أُجمل في السورتين قبلها.

أمّا عن محور هذه السورة فهو يدور حول فكرة الحقّ والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصوّر قصّة الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان، وقد ساقّت في سبيل ذلك قصّتين:⁽²⁾

* أولاهما: قصّة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثّلة في قصّة فرعون الطاغية المتجبرّ الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، فذبح الأبناء واستحيا النساء، وتعالى على الله حتّى تجرّأ على ادّعاء الربوبية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنَ الْإِلَهِ غَيْرِي﴾ [سورة القصص، الآية: 38].

* والثانية: قصّة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثّلة في قارون مع قومه، وكلا القصّتين رمزٌ إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة، سواء بالمال أو الجاه أو السلطان.

ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوّه وفساده في الأرض، ومنطق الطغيان في كلّ زمان ومكان، ثمّ انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أمّه عليه من بطش فرعون، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معزّزا مكرّما في حجر فرعون، كريحانة زكيّة تنبت وسط الأشواك والأوحال، بعدها تحدّثت عن بلوغ موسى سنّ الرشد، وعن قتله للقبطي، وهجرته إلى أرض مدين وتزوّجه بابنة شعيب، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله، كما تحدّثت أيضا عن كفّار مكّة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمّدية، وبيّنت أنّ مسلك أهل الضلال واحد، لنتنقل السورة إلى الشق الثاني حين تحدّثت عن قصّة قارون، وبيّنت الفارق العظيم بين منطق الإيمان ومنطق الطغيان. إذّا فلقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان، كما بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال، وكانت النهاية واحدة؛ هذا خُصِف به وبداره، وذلك أخذه اليمّ هو وجنوده، ولم تكن هناك قوّة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة، إمّا تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدّا للبغي والفساد، حينما عجز النَّاس عن الوقوف للبغي والفساد، ودلّت هذه وتلك على

(1) - ينظر: ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص61. وكذا: الصابوني: صفة التفاسير، مج2، ص388.

(2) - الصابوني: المرجع نفسه، ص ن.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

أنّه حين يتمحض الشرّ ويُسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيّرا؛ ويخشى من الفتنة باليأس والفتنة بالمال، عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية بلا ستار من الخلق، ولا سبب من قوى الأرض لتضع حدّا للشرّ والفساد، لتختتم السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعا إليه الرسل الكرام.⁽¹⁾

إدّا، يمكن وصف مسار سورة القصص من حيث موضوعاتها على الترتيب كآتي: آيات الميلاد، آيتا المبعث، آيات العقاب، آيات التصديق.⁽²⁾

المطلب الرابع: فضلها

ورد في كتاب "بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز" في حديثٍ عن «أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "ومن قرأ "طسم" القصص كان له من الأجر بعدد من صدّق بموسى وكذّب، ولم يبق ملك في السموات والأرض إلاّ شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقا، وأنّ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 88]». ⁽³⁾

المطلب الخامس: مرتبتها في النزول والمصحف

هي السورة التاسعة والأربعون في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل وقبل سورة الإسراء، فكانت هذه الطواسين الثلاث متتابعة في النزول كما هو ترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام، ولعلّ ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة، وهي ثمان وثمانون آية باتّفاق العادّين.⁽⁴⁾

وعليه فسورة القصص نزلت قبل سورة الإسراء، بل إنّ سورة الإسراء نزلت بعدها مباشرة، ومن المعروف أنّ سورة الإسراء نزلت بعد رحلة الإسراء والمعراج، وأيضا فإنّ سورة القصص نزلت - حسب ترتيب النزول - بعد سورة الجن بعدة سور، ممّا يثبت أمرًا مهمًّا هو: أنّ سورة القصص نزلت ما بين الرجوع من الطائف وبين حادثة الإسراء والمعراج.⁽⁵⁾

(1) - ينظر: الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص388. وكذا: سيّد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج20، ص2674.

(2) - تمام حستان: البيان في روائع القرآن - دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، ص598.

(3) - بحجت عبد الواحد الشبخلي: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز، مج7، مكتبة دنديس، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1422هـ/2001م، ص397.

(4) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص61.

(5) - محمود عبد الخالق حلّة: سورة القصص دراسة تحليلية وموضوعية، إشراف: محمد أبو زور، بحث تكميلي لنيل شهادة الماجستير، كلية أصول الدّين، قسم التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 1423هـ/2002م، ص7.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

أمّا عن مرتبتها في المصحف الشريف فهي السورة الثامنة والعشرين في عِدَاد سور القرآن، بعد سورة النمل وقبل سورة العنكبوت كما أسلفنا.

المطلب السادس: تصنيفها

المثون هو القسم الثاني من القرآن الكريم الذي يلي الطوال، وسورة القصص تندرج ضمن هذا القسم، لأنّ عدد آياتها ثمان وثمانون آية، وهو عدد يقارب المائة ويؤهلها لأن تتنزّل ضمن هذا الصنف.⁽¹⁾

المطلب السابع: الهدف من السورة

يمكن إجمال أبرز الأغراض التي تشتمل عليها السورة الكريمة في النقاط التالية:⁽²⁾

* اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن، والتعريض بأنّ بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله، وعلى تفصيل ما أُجمل في سورتي الشعراء والنمل؛ إذ فصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون، وكيف سار موسى وأهله وأين أنس النَّار ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي، إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون، ويبيّن سبب زوال ملكه؛ فكانت هذه السورة أوْعَبَ لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة، ثمّ أُجملت ما بعد ذلك لأنّ تفصيله كان في سورتي الأعراف والشعراء، والمقصود من التفصيل ما يتضمّنه من زيادة المواعظ والعبر.

* وإذا كان سَوَق تلك القصة إنّما هو للعبرة والموعظة، ليعلم المشركون سنّة الله في بعثه الرسل ومعاملته الأمم المكذّبة لرسولها، وتحذّي المشركين بعلم النبي ﷺ بذلك وهو أمّي لم يقرأ ولم يكتب، ولا خالط أهل الكتاب، ذبّل الله ذلك بتنبية المشركين إليه، وتحذيرهم من سوء عاقبة الشرك وأنذرهم إنذارا بليغا، وقد قولهم ﴿أَوَلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [الآية: 48] من الخوارق كقلب العصا حية، ثمّ انتقاضهم في قولهم إذ كذبوا موسى أيضا، وتحذاهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة، وأبطل معاذيرهم ثمّ أنذرهم بما حلّ بالأمم المكذّبة برسول الله، وساق لهم أدلّة على وحدانية الله تعالى، وفيها كلّها نعم عليهم وذكّرهم بما سيحلّ بهم يوم الجزاء.

* وأعقب سبحانه كلّ هذا بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى، وتخلّص من ذلك إلى التذكير بأنّ أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة، وأنّ العاقبة للمتقين، وتخلّل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة، وإيماء إلى أنّ الله مُظهرهم على المشركين بقوله: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: 05]، وختم الكلام بتسليّة النبي ﷺ، وتثبيتته ووعده بأنّه يجعل بلده في قبضته ويمكّنه من نواصي الضالين.

(1)- ينظر: محمّد محمّد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص 327-328.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، ص 63.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

المطلب الثامن: أوجه التناسب والتباين بينها وبين ما قبلها (المناسبة بين خاتمة النمل وفتحة القصص)

يمكن إجمال أوجه التناسب القائمة فيما بين السورتين، أو بين مستهلّ القصص ومختتمها في النقاط التالية:⁽¹⁾

* إنّه سبحانه وتعالى لمّا حكى في الشعراء قول فرعون لموسى ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِتْنًا وَوَلَدْنَا وَلَدًا وَرَبَّبْنَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ ۝۱۸﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝۱۹﴾ [الآيتين: 18-19] ، إلى قول موسى ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝۲۱﴾ [الآية: 21]، وقال في "طس" النمل قول موسى لأهله ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ [الآية: 07]، إلى آخره؛ الذي هو في الوقوع بعد الفرار، ولمّا كان على سبيل الإشارة والإجمال، بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين، وفصّل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبها. فبدأ بشرح تربية فرعون لموسى، وذبح أبناء بني إسرائيل الأمر الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليمّ خوفاً عليه من الذبح، وبسط القصّة في تربيته، وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قُتِلَ القبطي، وهي الفعلة التي فعل، ثمّ لفراره إلى مدين^(*) وما وقع له مع شعيب من زواجه بابنته، إلى أن سار بأهله وأنس من جانب الطور نارا فقال لأهله ﴿أَمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَ نَارًا﴾ [الآية: 29] إلى ما وقع له فيها من المناجاة لرّبّه، وبعثه آياه رسولا، وما استتبع ذلك إلى آخر القصّة، فكانت السورة شارحة لما أُجْمِلَ في السورتين قبلها معا على الترتيب، وبذلك عرف وجه الحكمة في تقدّم (طس) على هذه (أي القصص) وتأخيرها عن الشعراء.

* إنّه أجمّل في السورة السالفة (أي النمل) توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة، وبسطه هنا أمّ البسط.

* إنّه فصّل هناك (أي في سورة النمل أيضا) أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط، وأجمله هنا في قوله: ﴿وَكُرْهُلِكُمْ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [الآية: 58].

* بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة، وأوجز ذلك هنا.

وفي موضع آخر يقول "السيوطي" في سياق ذي صلة متحدثا عن مناسبة الاستهلال بالختام في نصّ سورة القصص: «وانظر إلى سورة القصص: كيف بدئت بأمر موسى ونصرته، وقوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِمَنْ كَفَرَ﴾ [سورة القصص، الآية: 17]، وخروجه من وطنه، وحثّمت بأمر التّبيّ^(*) بالألا يكون ظهيرا للكافرين وتسليته عن إخراجهم من

(1) - ينظر: السيوطي: تناسق الدرر في تناسب السور، ص 108-109. وكذا: المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 20، ص 116.

(*) - مدين (أصحاب الأيكة): اسم قبيلة من العرب القدماء تقع في شمال غرب الجزيرة العربية؛ مدينة قوم شعيب عليه السلام، وهي تجاه تبوك الواقعة شمال غرب المملكة العربية السعودية على بحر القلزم، كان أهل مدين رعاة غنم وتجار يفسلون في الأوزان ويعبدون شجرة الأيك، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب. ينظر: محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، مج 7، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ودار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، سورية، ط 3، 1412هـ / 1992م، ص 298.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

مكة ووعدته بالعود إليها، لقوله في أول السورة: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ﴾ [سورة القصص، الآية: 07]». (1)

فضلا عن هذا يمكن أن نلاحظ تناسبا عدديا بين مقدمة السورة وخاتمتها، يتمثل ذلك في: (2)

* ذكر الله تعالى خمس صفات للطغاة في مقدمة السورة هي:

1. العلو في الأرض: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة القصص، الآية: 04].
2. عدم العدل في الرعية: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [سورة القصص، الآية: 04].
3. استضعاف المؤمنين: ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [سورة القصص، الآية: 04].
4. قتل النفس البريئة: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [سورة القصص، الآية: 04].
5. الإفساد في الأرض: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 04].

* وقد قابلها الله تعالى أيضا في الافتتاحية بخمس صفات للمؤمنين:

1. يمن عليهم من فضله وكرمه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا﴾ [سورة القصص، الآية: 05].
2. سيجعلهم أئمة للهدى: ﴿وَجَعَلَهُمْ آيَمَةً﴾ [سورة القصص، الآية: 05].
3. يورثهم مكان وديار الظلمة: ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 05].
4. يمكنهم في الأرض: ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة القصص، الآية: 06].
5. يجعله أدواته لتحقيق وعده في الكافرين: ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَلْمَنَ وَجُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 06].

* وجاء في خاتمة السورة خمس صفات لأهل الهدى، وجه بها ربنا رسوله ﷺ:

1. عدم مناصرة المجرمين أو معاونتهم: ﴿فَلَا تَكُونُوا لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 86].
2. الثبات والالتزام بشرع الله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة القصص، الآية: 87].
3. الدعوة إلى الله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [سورة القصص، الآية: 87].
4. عدم الإشراك بالله [ربوبية وألوهية]: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 87].
5. أن لا يتخذ لها آخر مع الله [ألوهية]: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [سورة القصص، الآية: 88].

(1) - أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، مج 1، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1408هـ/ 1988م، ص 51.

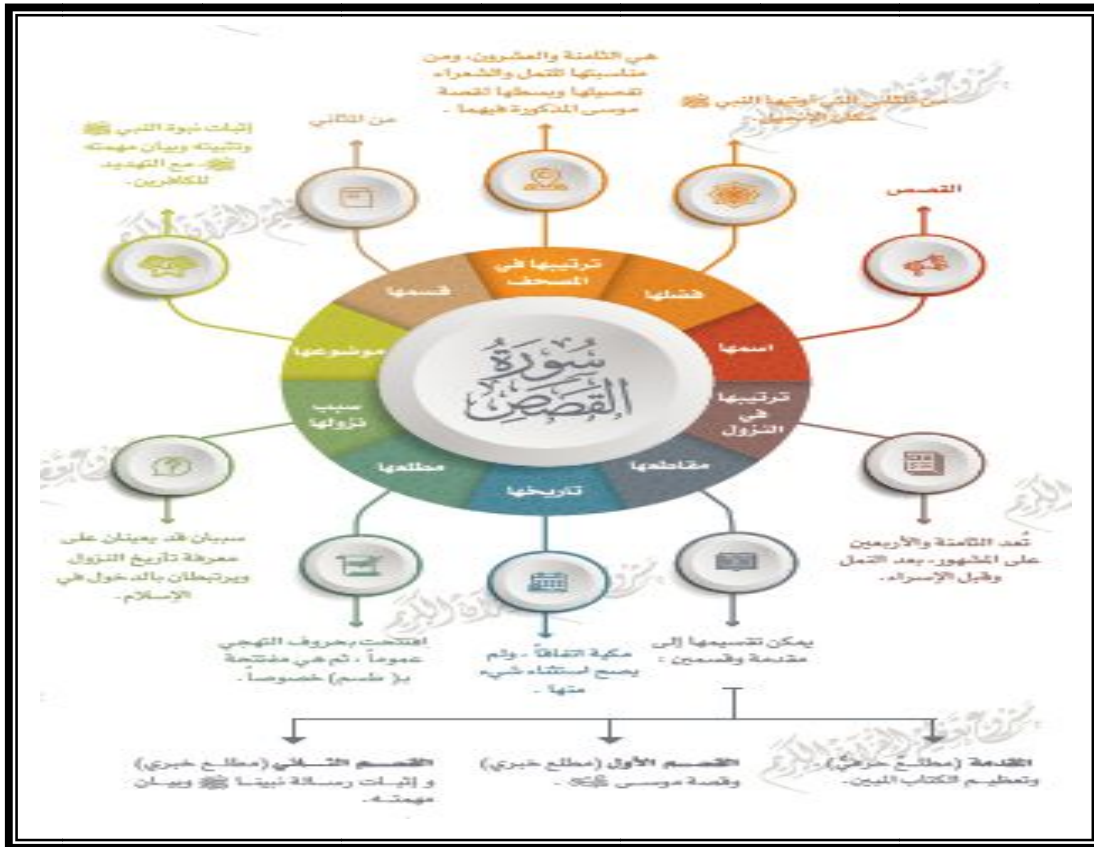
(2) - محمود عبد الخالق خلّة: سورة القصص دراسة تحليلية وموضوعية، ص 57-58.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

* وجاءت بالنهي - ضمنا - عن خمس خصال من خصال المشركين:

1. يخرجون أهل الإيمان من ديارهم ويغنون عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [سورة القصص، الآية: 85].
2. إنهم في ضلالة وبعد عن الهدى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة القصص، الآية: 85].
3. يكفرون بالله تعالى ولا يحفظون نعمه: ﴿فَلَا تَكُونُوا لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 86].
4. الصدّ عن سبيل الله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [سورة القصص، الآية: 87].
5. يشركون بالله آلهة أخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 87] و﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة القصص، الآية: 88].

والمخطّط أسفله يلخّص كلّ المعلومات المتعلقة بسورة القصص:



الشكل -06- (1)

(1) - محمد بن عبد العزيز بن عمر بن نصيف: بطاقات التعريف بسور المصحف الشريف، ص 118.

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

المبحث الرابع: أنواع الفواصل القرآنية، وأثر إيقاعها الصوتي بموضوعات ومعاني آي سور الطواسين

يمكن تصنيف الفواصل القرآنية في سور الطواسين إلى صنفين اثنين هما:

المطلب الأول: الفواصل القرآنية حسب الحرف الأخير في الآية: ورد منها في سور الطواسين ما يلي:

1- الفواصل المتماثلة (الفواصل المتجانسة ذات المناسبة التامة): مثال ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿...وَأَعْرَضْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ رِجَالَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨١﴾ وَلَا نُخْزِي بِيَوْمٍ بَعَثُونَ ﴿٨٧﴾...﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 86 و 87].

وقد تتفق الفاصلتان (أو الفواصل) لا في الحرف الأخير فقط، بل في حرفٍ قبله أو أكثر من غير كلفة. مثال الحرف الواحد قوله عزّ وجلّ في سورة الشعراء أيضا: ﴿...الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٨﴾...﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 78 - 81]. والاتفاق هنا حدث مع الفاصلة وهي حرف النون، والحرف الذي يسبقها مباشرة، وهو حرف المدّ "الباء".

ومثال الاتفاق في حرفين قوله في سورة النمل: ﴿... فَأَجْجَيْتَ لُؤْلُؤًا مِثْلًا نَضُفُّهُ أَمْرًا تَدْرُسُ فَذَنْجَرْنَاهَا مِن ذُرِّيَّتِهِ ﴿٣٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا مَطَرًا غَسَّاءً مَطَرًا مُنْذِرِينَ ﴿٣٨﴾...﴾ [سورة النمل، الآيتين: 57 و 58].

والاتفاق هنا حدث مع الفاصلة وهي حرف النون أيضا، والحرفين اللذين يسبقانها مباشرة، وهما: الراء، وياء المدّ، هذا ولا وجود لفواصل يتجاوز عدد الحروف المتفقة قبلها عن حرفين في سور الطواسين.

2- الفواصل المتقاربة (الفواصل ذات المناسبة غير التامة): كتقارب الميم والنون في قوله جلّ وعلا: ﴿...قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرْتَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٧﴾...﴾ [سورة القصص، الآيتين: 16 و 17].

3- الفواصل المنفردة: لم يُستعمل هذا النوع من الفواصل في سور الطواسين إلا نادرا. مثال الحالة قوله تعالى: ﴿...وَاللَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣١﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٢﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٣٣﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُجُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٤﴾ أَوَّلُو يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٧﴾...﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 192 - 197]. فجميع فواصل الآيات الخمس الأولى متفقة (حرف النون)، إلا فاصلة الآية السادسة (حرف اللام) فقد خرجت عن النمط المؤلف.

المطلب الثاني: الفواصل القرآنية بحسب الإيقاع: ورد منها في سور الطواسين ما يلي:

1- المتوازي: وفيه تتفق الكلمتان الأخيرتان (أو الكلمات الأخيرة) في الآيتين المتتاليتين (أو الآيات المتتالية) في الإيقاع ذاته، وفي آخر حرف منها مثل قوله تعالى في سورة النمل: ﴿... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ [سورة النمل، الآيتين: 73 و74].

حيث نلاحظ أنّ فاصلة الآيتين تماثلت في الإيقاع اللحني والحرف الأخير؛ فأخر حرف هو: النون، وأما الإيقاع فقد اشتملت الكلمة الأخيرة من كلّ آية على المقاطع ذاتها؛ عددا ونوعا وترتيبا كما يلي:

يَشْكُرُونَ يُعْلِنُونَ

ص ح ص + ص ح ح + ص ح ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح

مقطع متوسط مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع متوسط مفتوح + مقطع قصير مفتوح

هذا عند الوصل، أمّا عند الوقف فإنّ ذلك لا يغيّر في القاعدة شيئا:

يَشْكُرُونَ يُعْلِنُونَ

ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

مقطع متوسط مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مغلق

2- المتوازن: وفيه تتفق الكلمتان الأخيرتان (أو الكلمات الأخيرة) في الآيتين المتتاليتين (أو الآيات المتتالية) في الإيقاع دون أن تتماثلا في آخر حرف، وهذا النوع من الفواصل أقلّ شيوعا من سابقه في سور الطواسين، ومن نماذجه قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿... فَأَخْرَجْنَا لَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾...﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 57-58].

فأخر حرف في الآيتين كما نلاحظ مختلف (حرف النون في الآية 57، وحرف الميم في الآية 58)، ومع ذلك يظلّ الإيقاع واحدا، فقد اشتملت الكلمة الأخيرة من كلّ آية على المقاطع الصوتية نفسها بالترتيب ذاته كما يلي:

عُيُونِن كَرِيمِن

ص ح ص + ص ح ح + ص ح ص ص ح ص + ص ح ح + ص ح ص

مقطع قصير مفتوح + مقطعين متوسطين الأول مفتوح والثاني مغلق

3- المتطرّف: وفيه تتفق الكلمتان الأخيرتان (أو الكلمات الأخيرة) في الآيتين المتتابعين (أو الآيات المتتابعة) في حرف واحد آخر كلّ آية، وتختلف في الإيقاع اللحني. مثال الحالة قوله تعالى: ﴿... وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

الباب الأول: محددات أولية (بسط نظري)

صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لِّكُرْبَعِضِ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾... [سورة النمل، الآيتين: 71 و72].

فعلى الرغم من اتفاق الكلمتين في آخر حرف (النون)، إلا أنه واضح أنهما مختلفان من الناحية الإيقاعية، فكلمة "صادقين" يمكن تقطيعها وفقا لا وصلا إلى ثلاثة مقاطع صوتية كالاتي:

صَادِقِينَ

مقطع متوسط مفتوح + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مغلق

ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح

أما كلمة "تستعجلون" فهي قابلة للتقطيع وفقا لا وصلا أيضا إلى أربعة مقاطع صوتية على النحو التالي:

مقطعين متوسطين مغلقين + مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مغلق

تَسْتَعْجِلُونَ

ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح + ص ح ح

4- المتماثل: وفيه تتساوى الآيتين (أو الآيات) في الإيقاع دون آخر حرف فيهما (أو فيهما)، وهذا النوع من الفواصل لا وجود له في سور الطواسين الثلاث.

إذًا، فقد حَقَّقَت الفواصل القرآنية في سور الطواسين انسجاما دقيقا، أضفى على الآيات إيقاعا متناغما، ساهم في إجلاء المعاني والدلالات التي تتحدَّث عنها السور الكريمة، ولعلَّ ذلك راجع أساسا إلى توظيف حروف الإذلاق لما تميَّز به هذه الأخيرة من حَقَّة وسلاسة في النطق. يقول "ابن الجزري" متحدثًا عنها: «الحروف المذلقة: سميت بذلك إذ هي من طرف اللسان وهو: ذلقه، وهي أخفَّ الحروف على اللسان، وأكثرها امتزاجا بغيرها».⁽¹⁾

فالمتممَّ في فواصل سور الطواسين، يجد فيها من التناسق البديع الذي يجمع بين دلالة الآية وإيقاعها الصوتي، فقد حُتِّمَت معظم فواصل سورة الشعراء بصوت النون [193 موضع]، وفي بعض الآيات حُتِّمَت بالميم [30 موضع]، أما صوت اللام فقد تكرر فيها أربع مرَّات، في حين بُنيت سورة النمل على فاصلتين فقط هما: صوت النون الذي احتلَّ الصادرة بـ [84 موضع]، وكذا صوت الميم الذي كان أقلَّ دورانا من النون، إذ تكرر تسع مرَّات.

وهذا التناغم لصوت النون امتدَّ إلى السورة الثالثة أيضا وهي سورة القصص، حيث شهد الصوت دورانا في أغلب آيات السورة الكريمة [81 موضع]، يليه صوت الميم [03 مواضع]، أما صوتي اللام والراء فقد تكرر كل واحد منهما مرتين فقط.

مَّا لا شكَّ فيه أنَّ لتوظيف فواصل سور الطواسين أثرا في كشف المعاني، ودورا في إبراز الدلالات العامة، فالحَقَّة

(1) - محمَّد بن محمَّد بن الجزري: التمهيد في علم التجويد، تح: علي حسين البوّاب، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1405هـ/ 1985م، ص98.

الباب الأول: محدّدات أولية (بسط نظري)

والامتزاج اللتان تتميّز بهما فواصل السور الكريمة، تتناسب مع الغرض العام التي تدور حوله هذه السور الثلاث، وهو تسليّة المولى عزّ وجلّ لأنبيائه ورسله، وفي مقدّمهم نبيّ الرحمة محمّد ﷺ، وتخفيفاً عنهم ما كان يصيبهم من الحزن والاعتمام؛ إذ كان ﷺ شديد العناية بإيمان قومه، حيث حمّل نفسه في تبليغ رسالة ربّه فوق ما تطيق، وأكثر ممّا هو مُطالب به، حرصاً منه على هداية النَّاس، ليستحقّوا بذلك الخلافة في الأرض، ولعلّ في تواتر الآية من سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ والتي اشتملت على عدّة مؤكّدات [إنّ، لام الابتداء، ضمير الشأن، أسماء الله الحسنى] تقريراً لتمكينه وتأييده سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، وتصبيراً له بذكره لقصص الأنبياء الذين سبقوه، حتّى تكون له في قصصهم عبرة وحكمة، وكذا نصرته على أعدائه الكافرين ورحمته بالمؤمنين المتّقين، وانعكاس هذا التأكيد على نفسية الرسول، الذي لا محالة سيقوّي من عزيمته ويشعره بالنصر القريب.

الباب الثاني

وظيفة الأداء التنغي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب،

وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

توطئة

الفصل الأول: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب الخبر في سور الطواسين

الفصل الثاني: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوبي الأمر والنهي في سور الطواسين

الفصل الثالث: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب الاستفهام في سور الطواسين

الفصل الرابع: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوبي التمني والنداء في سور الطواسين

توطئة:

تزخر اللغة العربية بسلسلة من العلوم المتنوعة، كل علم منها له وظيفة على مستوى هذه اللغة، منها ما يكون مجال اهتمامه أصوات اللغة، ومنها ما يُعنى ببنية كلماتها، إلى جانب ذلك تختص علومٌ أخرى بطرائق التركيب اللغوية ودلالاتها، وكذا آليات استعمال اللغة والشقّ التواصلية منها، فضلا عن عناية علوم بالجوانب الجمالية لها، ولعلّ أبرز هذه الفنون التي تهتمّ بجمال اللغة: **البلاغة**. فما المقصود بها؟، وما هي الجوانب التي تعنى بدراستها قصد إبراز هذه الجمالية؟

1- حدّ البلاغة: إنّ المتصّحّ لمعاجم اللغة يجد أنّ البلاغة تُحيل في دلالتها اللغوية على معنى الوصول والانتهاء، ومن معنى بلوغ المراد اشتقّ لفظ البلاغة، أمّا في معناها الاصطلاحي: «فالبلاغة في الكلام مُطابقتُهُ لمقتضى الحال مع فصاحته؛ وهو مختلفٌ، فإنّ مقامات الكلام متفاوتةٌ، فمقام كلّ من التنكير والإطلاق والتقديم والذكر يُبين مقامَ خلافه، ومقامُ القَصْلِ يُبين مقامَ الوَصْلِ، ومقامُ الإيجاز يُبين مقامَ خلافه، وكذا خطابُ الذكّي مع خطابِ الغيبي، ولكلّ كلمةٍ مع صاحبيتها مقامٌ، وارتفاع شأنِ الكلام في الحُسن والقَبُول بمطابقتِهِ للاعتبارِ المناسبِ وانحطاطُهُ بِعَدَمِهَا؛ فمقتضى الحال هو الاعتبارُ المناسبُ؛ فالبلاغة راجعةٌ إلى اللَّفْظِ باعتبارِ إفادتهِ المعنى بالتركيب، وكثيرا ما يسمّى ذلك فصاحةً أيضا، ولها طرفان: أعلى وهو حدّ الإعجاز وما يُقْرَبُ منه، وأسفلٌ وهو ما إذا عُيِّرَ الكلامُ عنه إلى ما دُوّنَه التحق عند البلغاءِ بأصواتِ الحيوانات، وبينهما مراتبٌ كثيرةٌ، وتتبعها وجوهٌ آخرٌ تُورثُ الكلامَ حُسْنًا»⁽¹⁾.

وأما البلاغة في المتكلم فهي: «ملكةٌ يُقتدر بها على تأليفِ كلامٍ بليغٍ، فعَلِمَ أنّ كلّ بليغٍ فصيحٌ ولا عكس، وأنّ البلاغةَ مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييزِ الفصيح من غيره، والثاني منه ما يُبين في علم مَثَنِ اللغةِ أو التصريفِ أو النحوِ أو يُدركُ بالحسِّ، وهو ما عدا التعقيدَ المعنويّ، وما يُجترزُ به عن الأوّل علم المعاني، وما يُجترزُ به عن التعقيدِ المعنويّ علم البيان، وما يُعرَفُ به وجوهُ التّحسينِ علم البديع...»⁽²⁾.

هذا، وسيكون محور اهتمامنا في هذا البحث الفنّ الأوّل من فنون البلاغة وهو **علم المعاني**. فما المقصود به؟، وما هي أقسامه الرئيسة والفروع التي تنبثق عنها؟، وكيف يشترك التنغم مع هذا الفنّ في إبراز دلالات التركيب، وتوجيه الأغراض البلاغية؟

(1)- جلال الدّين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب: التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، دب، ط1، 1904م، ص ص33، 35.

(2)- المرجع نفسه، ص ص36-37.

2- علم المعاني وعلاقته بالتنعيم: هو قواعد يُعرف بها ما به يطابق الكلام مقتضى الحال أي المقام، وهو الأمر الداعي لإيراد خصوصية في الكلام، وتلك الخصوصية هي مقتضى الحال، مثلا: إذا خاطبت منكرا، فإنكاره حال يقتضي أن تؤكد له الكلام، والتأكيد هو مقتضى الحال، وإذا كان بينك وبين مخاطبك عهد برجل معين، فالعهد حال يقتضي إيراد الرجل معرّف، والتعريف مقتضى الحال وهكذا، فمعنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال: اشتماله على تلك الخصوصية.⁽¹⁾

ينقسم الكلام البشري إلى قسمين: خبر وإنشاء، حيث يدرس علم المعاني كلا القسمين؛ فيحدّد مفهومهما وأنواعهما، وكذا الأغراض البلاغية التي يخرج إليها كلّ منهما، حسب ما يقتضيه السياق ويستدعيه المقام. وفي هذا يقول "الخطيب القزويني" محدّدا أصناف الكلام: «ووجه الحصر أنّ الكلام إمّا خبر أو إنشاء؛ لأنّه إمّا أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو يكون لها خارج؛ الأوّل الخبر والثاني الإنشاء».⁽²⁾

ثمّ إنّ التعرّف على نوع الكلام ونمطه لا يتوقّف بالضرورة عند حدود ألفاظه فحسب، بل إنّ لعملية النطق وطريقة أدائه دورا بارزا في تحديد نوعه إن كان خبرا أو إنشاء، بل يمكن للأداء أيضا أن يذهب أكثر من ذلك حينما يميّز بين أنواع الخبر إن كان حقيقيا أو مجازيا، وكذا بين أغراض الإنشاء عموما إن كانت قد وُضعت لمعناها الأصلي أو لمعاني بلاغية أخرى، تكون لقرائن الأحوال ومختلف السياقات المحيطة بها، دخل في تحديد المعاني وتوجيه الأغراض إلى جانب الأداء النطقي المصاحب للكلام، ولعلّ من أبرز الأداءات النطقية التي لها أثر صوتيا وداليا بالغا: التنعيم. فعلى الرغم من اجتهاد علماء البلاغة في محاولة حصر جميع تراكيب اللغة ضمن الصنفين السابق ذكرهما، ووضعهم قصد التمييز بينهما آليات ومحدّدات تكفل بالعملية، إلّا أنّ المتمعّن في هذا الباب سيجد فرقا بيّنا بين الخبر والإنشاء، يكمن أساسا في طريقة نطق كلّ نوع منهما، فالخبر يميل إلى التحقيق والجزم، والإنشاء يجنح نحو التأثير، وهذا تماما ما أشرنا إليه سابقا في العنصر الموسوم بـ: إسهام التنعيم في تنميط الجمل والتراكيب اللغوية، وبهذا يكون التنعيم أسلوبا من أساليب الفصاحة، ما دام أنّه مرتبط بالشفاهة واللغة المنطوقة أولا، وكونه معوّلا يُعتمد عليه في تحديد المعاني ودلالات التراكيب ثانيا. يقول الباحث "عبد القادر بن فطّة" متحدثا عن مكانة التنعيم في الدرس البلاغي: «... ولم يقتصر التنعيم على المستوى النحوي، بل انتقل إلى المستوى البلاغي، فهو يُستعمل في أغراض كثيرة، ويفضّل المواضع حسب ما يحتمله السياق، ويشكّل ظاهرة في

(1)- هارون عبد الرزّاق: حسن الصياغة في فنون البلاغة، مركز الراسخون للتأصيل الشرعي ودار الطاهرية، الكويت، ط1، 1439هـ/ 2018م، ص8.

(2)- جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م، ص24.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

استقراء تراكيب الجمل، ويوجّه طبيعة القراءة مع توضيح معانيها وأغراضها، كما يحكم على نوعية التغيرات داخل المقام، ويحدّد الوجه الصحيح للمعنى إذا كان مناسباً للسياق»⁽¹⁾.

في شأن ذي صلة يسوق لنا "الأزهر الزناد" كلاماً يبيّن فيه الوظيفة الإيقاعية للتنغم، ودورها في تحديد الدلالات قائلًا: «والتنغم Intonation ضروري في كلّ كلام وظيفي، به يتحدّد المعنى العام في التركيب، وهو يتجاوز المقطع والكلمة المفردة، فتحمله الجملة كاملة، ووجود حرف الاستفهام أو اسمه في الجملة، لا ينفي وجود تنغم الاستفهام فيها، وعلى هذا قس التعجّب والأمر وغيرهما، وللتنغم دور هام جدًّا في تبيين المعنى الذي يخرج إليه الإنشاء»⁽²⁾، ويضيف قائلًا: «فالكلام يمكن أن يخرج في شكل واحد ويتحدّد نوعه -خيرًا أو إنشاء- وفق التنغم، فإذا أخذنا مثلاً (خرج الرجل) أمكن إجراؤها على الخبر بتنغم الخبر، حيث يكون خطّ التنغم نازلًا في نهاية الكلام: "خرج الرجل"، وأمكن إجراؤها على الإنشاء (التعجّب، الاستفهام) بتنغم الإنشاء، حيث يكون خطّ التنغم صاعدًا في آخر الكلام، ويمكن تأويل ذلك التنغم على أنّه تعجّب أو استفهام يفيد التعجّب أو اللوم أو غيره من المعاني»⁽³⁾.

وشبيهه بـ "الأزهر الزناد" "أحمد البايبي" الذي يرى هو الآخر أنّ: «المنحنيات التنغمية الموظّفة في الخبر تختلف عن المنحنيات التنغمية المستعملة في الاستخبار، وتلك الواردة في الأمر لا تطابق نظيرتها في النهي وهكذا...، وبهذا فالتنغم حكمٌ في دلالات التراكيب والجمل، إذ يغيّر الجملة من تركيب إلى آخر ومن باب إلى باب»⁽⁴⁾.

كخلاصة عمّا قيل فقد صار واضحاً للعيان أنّ العلاقة التي تجمع التنغم بعلم المعاني علاقة جوهرية عضوية؛ فكلاهما معيّنان بإظهار المعاني الإضافية التي لا تكون مذكورة في بنية الكلام الأصلية، وإنّما تُفهم ضمناً بمعونة السياق والقرائن المحيطة بالمنطوق؛ إذ أنّ الكلام كثير ما يتضمّن معاني يُرشد إليها سياق الحال الذي قيل فيه، ولا يبدو الأمر مقتصرًا على ذلك فقط، إذ أنّه يقف مع بعض العناصر الأخرى وراء جملة من الأمور المتحكّمة في تبويب هذا العلم وتقسيمه، ممّا يعني أنّ التنغم يشكّل ملمحاً أساسياً في الدرس البلاغي، حيث يسير جنباً إلى جنب مع علم المعاني في تحديد أطره وتمييز تراكيب جملة للوصول بها إلى أمن اللبس الذي قد

(1) - عبد القادر بن فطحة: "أصالة التنغم في القرآن الكريم"، مجلة حوليات التراث، جامعة عبد الحميد بن باديس - مجلة علمية محكمة سنوية، مستغانم، الجزائر، ع18، 2018م، ص76.

(2) - الأزهر الزناد: دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص111.

(3) - المرجع نفسه، ص ن.

(4) - أحمد البايبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، صص 261-262.

يعتريها، أو للمساهمة في تحديد تنوع الجملة التي تُؤدَّى بأكثر من لون موسيقي للدلالة على المعاني البلاغية المتضمَّنة، وفق ما يتطلبه المخاطب.⁽¹⁾

وهذا ما سنوضِّحه فيما سيأتي من هذا البحث، مخصِّصين سور الطواسين الثلاث مدوَّنة لاستعراض مختلف الحالات الواردة فيها، ولما كان محور هذا البحث هو الصوت كونه شيئاً مادياً قابلاً للملاحظة والقياس، فقد ارتأيت في الجانب التطبيقي الاستعانة بالتحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي، من أجل التحديد الدقيق لنمط التنغيم، والتعرُّف على المنحنى الإيقاعي الناتج أساساً عن توالي سلسلة من النغمات، لذا فقد ذُيِّلت أغلب النماذج التي وقفت على الوظيفة التمييزية للتنغيم فيها - وذلك نظراً لكثرتها أولاً؛ فلا يسع البحث لتمثيل كلِّ النماذج آلياً، واجتماع أكثر من أسلوبٍ فيها ثانياً - بعرض مبسَّط عن مخطَّط موجاتها الصوتية، مرفوقاً بالرسم الطيفي المزوَّد بمختلف الخصائص الأكوستيكية المرتبطة بها على غرار: الدرجات الصوتية، شدَّة وتواتر الصوت، وسلاسل الحزم الصوتية... الخ، هذا كلُّه لم يكن ليحصل لولا برنامج برات^(*) الذي اعتمدت عليه في معالجة مقاطع الآية آلياً، وذلك من خلال عملية التسجيل الصوتي لآيات سور الطواسين بصوت الشيخ "سعود الشريم"؛ حيث تمَّ اختياره دون غيره لاعتماده في تلاوته على مرتبة الحدر، وهي أفضل مرتبة تتناسب مع برنامج برات، هذا الأخير الذي لا يسمح لنا بعرض مختلف الخصائص الفيزيائية المذكورة سابقاً، في حالة ما إذا تجاوز الأداء عشر ثوانٍ، ليكتفي حينها بإظهار مخطَّط الموجات الصوتية للصوت اللغوي فحسب، وهذا سبب آخر وقف حاجزاً أمام إمكانية المعالجة الآلية لجميع الآيات، والنماذج المختارة للتطبيق عليها في هذا البحث.

(1) - ينظر: مزاحم مطر حسين: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)"، ص 41.

(*) - للمزيد من التوسع: ينظر صفحة الملاحق، وكذا الملفات التي يتضمنها القرص المضغوط المرفق، إذ يحتوي على ملفات تعريفية بالبرنامج، إلى جانب تضمَّنه لفيديو يوضِّح كيفية اشتغال البرنامج، وفيديوهات أخرى مطبَّقة على سور الطواسين بصوت القارئ "سعود الشريم".

الفصل الأول: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب الخبر في سور الطواسين

المبحث الأول: الخبر: مفهومه، أركانه، أغراضه، وأضرابه

المطلب الأول: تعريف الخبر لغة: يقول "الزمخشري" (ت: 538هـ) في أساسه مشيراً إلى دلالة الخبر في اللغة على أنه يحمل معنى العلم والخبرة والإلمام وكذا الإحاطة قائلاً: «خَبَرْتُ الرجلَ واختَبَرْتُهُ خُبْرًا وخِبْرَةً (...) وَمَالِي بِهِ خُبْرٌ أَي عِلْمٌ (...) واستَخْبَرْتُهُ عن كذا فَأَخْبَرَنِي بِهِ وخَبَّرَنِي، وخرج يَخْبُرُ الأخبار: يتتبعها، وأعطاه خِبْرَتَهُ، أي نصيبه، ونهى رسول الله ﷺ عن المخابرة وهي المجازفة...»⁽¹⁾

وجاء في "المصباح المنير": «خَبَرْتُ الشيءَ (أَخْبَرْتُ) من باب قَتَلَ (خُبْرًا) عَلِمْتُهُ فَأَنَا (خَبِيرٌ بِهِ) واسم ما يُنْقَلُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ (خَبْرٌ) والجمع (أخبارٌ) و(أَخْبَرِي) فلانٌ بالشيءِ (فَخَبَرْتُهُ) و(خَبَرْتُ) الأرضَ شقققتها للزراعة فأنا (خَبِيرٌ)، ومنه (المخابرة) وهي المزارعة على بعض ما يخرج من الأرض، و(اختبرته) بمعنى امتحنته و(الخبرة) بالكسر اسمٌ منه»⁽²⁾.

المطلب الثاني: تعريف الخبر اصطلاحاً: الخبر في أبسط مفهوم له هو: «ما يحتمل الصدق والكذب لذاته»⁽³⁾. بمعنى يُنظر في احتمالية الصدق والكذب إلى الكلام نفسه لا إلى القائل والمخبر عنه، وعليه فإنّ الخبر بهذا المعنى هو «ما يصحّ أن يُقال لقائله إنّه صادق فيه أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقاً للواقع كان قائله صادقاً، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذباً»⁽⁴⁾.

أمّا "الجاحظ" فلم يقف بالخبر عند حدّ الصدق والكذب، فهو ينكر انحصاره في هذين المظهرين، حيث يزعم أنّ الخبر ثلاثة أقسام هي: صادق، وكاذب، وغير صادق ولا كاذب كما يلي:⁽⁵⁾

- فالخبر الصادق في رأيه هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنّه مطابق، والخبر الكاذب عنده هو الذي لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بأنّه غير مطابق.

- أمّا الخبر الذي ليس بصادق ولا كاذب فليس نوعاً واحداً، وإتّما هو أربعة أنواع، وهذه هي:

● الخبر المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنّه غير مطابق.

(1)- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري: أساس البلاغة، ج1، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/ 1998م، مادة "خَبَر".

(2)- أحمد بن محمد بن علي المقرئ القتيبي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تح: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دس، مادة خَبَر.

(3)- السيّد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دس، ص55.

(4)- علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة- البيان، المعاني، البديع، دار المعارف، دب، 1999م، ص139.

(5)- عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية- علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/ 2009م، ص43.

- الخبر المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا.
- الخبر غير المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق.
- الخبر غير المطابق للواقع بدون اعتقاد أصلا.

المطلب الثالث: ركنا الجملة الخبرية: كل جملة من جمل الخبر لها ركنان:⁽¹⁾

محكوم عليه وهو المسند إليه، و**محكوم به** وهو المسند، وما زاد على ذلك في الجملة غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو قيد، وقبوع الجملة هي: أدوات الشرط، أدوات النفي، والمفاعيل الخمسة، والحال، والتميز، والأفعال الناسخة، والتوابع الأربعة: النعت، والعطف، والتوكيد، والبدل.

فإذا قلنا (سافر الصديق) و(الناجح مسرور)، فإنّ الذي حُكم عليه بالسفر أو أُسند إليه السفر في الجملة الأولى هو (الصديق)، والذي حُكم به للصديق أو أُسند له هو (السفر)، وعلى هذا يكون (الصديق) هو المحكوم عليه أو المسند إليه، ويكون (سافر) هو المحكوم به أو المسند.

وركنا الجملة الثانية هما (الناجح) و(مسرور)، والذي حُكم عليه بالسفر أو أُسند إليه السرور هنا هو (الناجح)، والذي حُكم به للناجح أو أُسند له هو (السفر)، وعلى هذا يكون (الناجح) هو المحكوم عليه أو المسند إليه، ويكون (مسرور) هو المحكوم به أو المسند، والمسند إليه عادة هو: الفاعل أو نائب الفاعل أو المبتدأ الذي له خبر، أو ما أصله مبتدأ كاسم كان وأخواتها، والمسند هو: الفعل التام، أو المبتدأ المكتفي بمرفوعه، أو خبر المبتدأ، أو ما أصله خبر المبتدأ، كخبر المبتدأ، أو أخواتها، أو المصدر النائب عن فعل الأمر.

المطلب الرابع: غرضا إلقاء الخبر: للخبر غرضان أصليان هما:⁽²⁾

الأول: فائدة الخبر: ومعناه إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة أو الكلام، وهذا هو الأصل في كلّ خبر؛ لأنّ فائدته تقديم المعرفة أو العلم إلى الآخرين.

الثاني: لازم الفائدة: وهذا الغرض لا يقدّم جديدا للمخاطب، وإمّا يفيد أنّ المتكلم عالم بالحكم، ومن ذلك قولك لصديق: "زارك محمدٌ أمس"؛ فالمخاطب يعلم ذلك، ولكن الغرض من هذه الجملة إخباره أنّ المتحدث أيضا عارف بذلك.

يُنهم مّا سبق بأنّ الخبر لا يلقي إلاّ في حالتين: إمّا أن يُلقى على من يجله تماما، وإمّا على من يعرفه ولا وجود لحالة ثالثة؛ ففي الحالة الأولى يكون الغرض منه الفائدة، وفي الثانية لازم الفائدة. مثال الأولى قوله تعالى:

(1)- عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية- علم المعاني، ص48.

(2)- ينظر: أحمد مطلوب: أساليب بلاغية- الفصاحة، البلاغة، المعاني، وكالة المطبوعات للنشر، الكويت، ط1، 1980م، ص ص99-100.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ آخَاهُمْ صَلِيحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 45]. فقد أخبر الله نبيه محمد ﷺ نبأ يجمله، ولم يكن يعلم به، إلا بعد إخباره سبحانه وتعالى بفحواه. وهذه الآية تُؤدّي كلّها بنغمة واحدة وهي النغمة الهابطة، لأنّ الخبر فيه غرضه الإعلام وهو الأصل، ودليل ذلك قول "أحمد البايبي" متحدثاً عن المنحنى النغمي للكلام الذي يُقصد منه مجرد الخبر: «...بينما الجملة الخبرية ينخفض فيها الصوت...»⁽¹⁾.

ومثال الحالة الثانية قوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 117-118]. فالمخاطب ههنا لا يقصد من إلقاء الخبر إلى المخاطب إعلامه بشيء يجمله، ففوح الكلام في هذه الآية أخبر ربّه بأنّ قومه كذبوه، وهو عارف تمام المعرفة أنّ الله تعالى يعلم ذلك، لكنّه جعل من هذا التكذيب وسيلة يطلب من خلالها ربّه النجاة من قومه، يقول صاحب "تفسير الكشّاف": «ليس هذا بإخبار بالتكذيب لعلمه أنّ عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكن أراد أيّ لا أدعوك عليهم لما غاظوني وآذوني، وإنّما أدعوك لأجلك ولأجل دينك، ولأنّهم كذبوني في وحيك ورسالتك فاحكم»⁽²⁾، وفي سياق ذي صلة يضيف "سيد قطب" موضّحاً هذا الكلام بقوله: «وربّه يعلم أنّ قومه كذبوه، ولكنّه البث والشكوى إلى الناصر والمعين وطلب النصفة، وردّ الأمر إلى صاحب الأمر "فافتح بيني وبينهم فتحة"، يضع الحدّ الأخير للبغي والتكذيب "ونجّني ومن معي من المؤمنين" واستجاب الله لنبيه الذي يتهدّده الطغيان بالرجم، لأنّه يدعو النّاس إلى تقوى الله وطاعة رسوله، لا يطلب على ذلك أجراً، ولا يبتغي جاهاً ولا مالاً»⁽³⁾، والآيتان من الناحية الأدائية تُستهلّان بنغمة هابطة تتناسب وحالة التحسّر التي أصابت نوح عليه السلام، تليها نغمة هابطة أخرى لما فيها من أمر غير حقيقي خرج هو الآخر هنا إلى معنى الدعاء والضراعة، لأنّه صادر من الأدنى إلى الأعلى.

المطلب الخامس: أضرب الخبر

لقد تحدّث علماءنا القدامى في عدّة مواضع من مصنفاتهم عن أضرب الخبر، والتي هي من صميم كلام العرب، فهاهو "عبد القاهر الجرجاني" (ت: 471هـ، وقيل: 474هـ) من خلال كتابه "دلائل الإعجاز" يسوق لنا ذلك الحوار الذي دار بين "الكندي" و"أبي العباس"، محدّداً من خلاله أنواع الخبر الذي يخرج إليها الكلام العربي قائلاً: «رؤي عن ابن الأنباري أنّه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إنّي لأجد في كلام

(1) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص263.

(2) - أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّبخشري الخوارزمي: تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: خليل مأمون شيجا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ / 2009م، ص765.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، ص2608.

العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أيّ موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: "عبد الله قائم"، ثمّ يقولون: "إنّ عبد الله قائم"، ثمّ يقولون: "إنّ عبد الله لقائم"، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، وقولهم: "إنّ عبد الله قائم"، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: "إنّ عبد الله لقائم" جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرّر المعاني، قال فما أحرار المتفلسفُ جواباً⁽¹⁾.

وفي السياق ذاته يضيف "ابن الناظم" (ت: 686هـ) متحدّثاً عن أضرب الخبر، فيقول: «من المعلوم أنّ حكم العقل حال النطق هو أن يكون قصد المتكلّم بكلامه إفادة المخاطب بقدر الحاجة، فإذا ألقى الجملة إلى خالي الذهن عنها ليحضر طرفيها عنده كفى فيه حكمه، ويتمكّن لمصادفته إيّاه خالياً، وإذا ألقاها إلى طالب لها متردّد في الإسناد استحسّن تقويته بإدخال اللام أو إنّ، فإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار، فتقول: إيّ صادق لمن ينكر صدقك، وإيّ لصادق لمن يباليغ في إنكار صدقك...»⁽²⁾.

إذاً، تختلف صور الخبر في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطب، ولأجل ذلك قال "عبد الرحمن الأخصري" (ت 953هـ وقيل: ت 983هـ) في نظمه:⁽³⁾

فِيخْبِرُ الْخَالِي بِلَا تَوَكُّدٍ مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُكْمِ ذَا تَزْدِيدِ
فَحَسَنٌ، وَمُنْكَرُ الْأَخْبَارِ حَتَّمْ لَهُ بِحَسَبِ الْإِنْكَارِ

من خلال ما سبق، يمكن حصر هذه الصور عموماً في ثلاث حالات كما يلي:⁽⁴⁾

1- أن يكون المخاطب خالي الذهن من الخبر، غير متردّد فيه ولا منكر له، في هذه الحالة يُلقى إليه الخبر خالياً من أدوات التوكيد لعدم الحاجة إليه، ويسمى هذا الضرب من الخبر ابتدائياً.

يُلجأ إليه حين يكون المخاطب خالي الذهن من مدلول الخبر، فيتمكّن فيه لمصادفته إيّاه خالياً تحقيقاً لقول

(1) - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي: كتاب دلائل الإعجاز، تح: أبو فهد محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، دس، ص 315.

(2) - بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم: المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، مصر، دط، دس، ص 9.

(3) - عبد الرحمن بن صغير الأخصري: الجوهر المكون في صدف الثلاثة الفنون، تح: محمد بن عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي، دب، دط، دس، ص 24.

(4) - ينظر: محمد أحمد قاسم ومحيي الدّين ديب: علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط 1، 2003م، ص 276-277.

الشاعر:

عَرَفْتُ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى ۞ ۞ فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

ومثاله ما ورد في كتاب "معاوية" لأحد عمّاله: "لا ينبغي لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعا فيمرح الناس في المعصية، ولا نشدد جميعا فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرفقة والرحمة".

الخبر في هذه الجمل خالٍ من التوكيد، لأنّ المخاطب خالي الذهن من مضمون الخبر، ولذلك لم ير المتكلم حاجة إلى توكيد الحكم له.

مثال الحالة في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مَمَّنْ يُكَذِّبُ بَيِّنَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝﴾ [سورة النمل، الآية: 83]. وقوله أيضا: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَقْوَامٍ دَاخِرِينَ ۝﴾ [سورة النمل، الآية: 87].

فهذا الخبر ابتدائي لا يتضمّن تأكيدا، لأنّ المخاطب لا علم له به، فهو خالي الذهن من الأحداث الواقعة فيه، كما أنّه لا يشكّ في مدى صحتها.

2- أن يكون المخاطب مترددا في الخبر، طالبا الوصول إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحالة يُستحسن توكيد الكلام ليتمكّن من نفس المخاطب، وي طرح الخلاف والتردد وراء ظهره، ويسمى هذا الضرب من الخبر طلبيا، ويتضمّن وسيلة توكيد واحدة. مثاله قول أحدهم: إنّه قد نجح المجتهدون، فالمخاطب يشكّ في صحّة الخبر، لذلك ألقى إليه الخبر مؤكّدا بـ (إنّ) وبـ (قد).

ومن أمثلة هذه الحالة في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمَكِّنَ لِكَ مِنْ التَّصْحِينَ ۝﴾ [سورة القصص، الآية: 20].

الخبر هنا جاء بمؤكّد واحد وهو (إنّ)، وذلك لتنزيل موسى عليه السلام منزلة الشاك، وبغرض دفع التردد في قبول الخبر ألقى إليه هذا الأخير بما يتناسب ومقتضى الحال، مؤكّدا بأداة واحدة لإزالة شكّه وتردده، يقول "جعفر الحسني": «لم يكن موسى عليه السلام شاكّا في الخبر أو مرجّحا لخلافه، وإنّما كان طالبا الوصول لمعرفة، والوقوف على حقيقته، فاستحسن تأكيد الكلام الملقى إليه بـ (إنّ)». (1)

3- أن يكون المخاطب منكرا للخبر معتقدا خلافه، في هذه الحال يجب أن يُؤكّد الخبر بمؤكّد أو أكثر على حسب إنكاره قوّة وضعفا، ويسمى هذا الضرب إنكاريا، ويتضمّن أكثر من وسيلة توكيد واحدة. مثاله قولنا: إنّ

(1) - جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، مؤسسة بوستان كتاب، دب، ط1، 1427هـ/ 2006م ص ص 23-24.

أحاك لقادم، فالتأكيد هنا بـ (إِنَّ واللام)، أمّا إذا شعرنا بأنّ إنكار المخاطب أقوى فيمكن تأكيد الخبر له بثلاث أدوات فنقول: والله إنّ لقادم (القسم + إنَّ + اللام). وكما يكون التأكيد في الإثبات، يكون في النفي أيضا نحو: ما الكريم بنادم على بذله، والله ما المستشير بنادم.

ومثاله في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 103]. وردت هذه الآية في سورة الشعراء في أكثر من موضع، حيث جاءت مؤكّدة بأداتين هما (إنَّ، ولام التوكيد)، فمع ظهور كلّ تلك الآيات الباهرة الدالة على وحدانية الله وقدرته، إلّا أنّ أكثرهم أبوا تصديقها واستمروا في كفرهم وجحدهم، أي أنّ جماعة المخاطبين هنا قد تنزلوا منزلة المنكرين، لذا أكّد لهم الخبر بأكثر من أداة حتى يُزيل شكّهم وتردّددهم.

تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ الحكم على الخبر بأنّه ابتدائي أو طليبي أو إنكاري، إنّما هو على حسب «ما يخطر في نفس القائل من أنّ سامعه خالي الذهن أو متردّد أو منكر».⁽¹⁾

هذا، ولتوكيد الخبر ألفاظ عديدة أهمّها: إنّ، أنّ، لام الابتداء، حرفا التنبيه (ألا وأما)، أحرف القسم (الواو، الباء، التاء)، نونا التوكيد، الحروف الزائدة (من والباء الجازتان، إنّ، أنّ، تفعل واستفعل) والسين وسوف، تكرار اللفظ، قد، لن، أمّا الشرطية، إنّما، اسمية الجملة، ضمير الفصل، تكرار النفي، تقديم ما حقّه التأخير، وهلمّ جرّاً. يمكن تصنيف هذه الألفاظ كما يلي:⁽²⁾

أ/ الحروف: إنّ، أنّ، قد، لام التوكيد، إنّما، أمّا، بعض حروف الجرّ في استعمالات خاصة (من، الباء)... الخ.

ب/ أفعال: ترد في تركيب الإنشاء، ولكنها تؤكّد مضمونا خبريا: أكّد، أُقسِم، حَلِف،... الخ.

ج/ تراكييب إنشائية: من قبيل القسم مثل: والله، لعمرى،... الخ.

رأينا فيما سبق أنّ المخاطب إذا كان ذهنه خالٍ من الخبر أُلقي إليه هذا الأخير من غير تأكيد، أمّا إذا كان متردّدا حول مضمونه طالبا معرفته، حَسُنَ حينئذٍ توكيده له بمؤكّد واحد كافٍ لإزالة تردّده، وإن كان منكرا له شاكاً في محتواه وجب تأكيده له بما يتناسب ودرجة إنكاره، وإلقاء الكلام على هذا النحو أو النمط هو ما يقتضيه الظاهر، بيد أنّه توجد اعتبارات أخرى تدعو إلى مخالفة هذا الظاهر، ولعلّ هذا ما نلمسه في كلام "السكاكي" (ت: 626هـ) حينما يقول: «هذا ثمّ إنّك ترى الملفّقين^(*) السحرة في هذا الفنّ ينفثون الكلام لا

(1) - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 54.

(2) - محمّد أحمد قاسم ومحيي الدّين ديب: علوم البلاغة (البيدع والبيان والمعاني)، ص 278.

(*) - أفلق فلان إذا أتى بشيء عجيب خارج عن المألوف.

على مقتضى الظاهر كثيرا...»⁽¹⁾.

ونستطيع أن نحصر هذه الحالات في النقاط التالية:⁽²⁾

1- تنزيل العالم بفائدة الخبر أو لازمها أو بهما معا منزلة الجاهل، لعدم جريه على موجب علمه، فيلقى إليه الخبر كما يُلقى إلى الجاهل، كقولك لمن يعلم وجوب الصلاة وهو لا يصلّي {الصلاة واجبة} تويخا له على عدم عمله بمقتضى علمه، وكقولك لمن يؤذي أباه: هذا أبوك.

2- تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد، إذا تقدّم في الكلام ما يشير إلى حكم الخبر كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾ [سورة يوسف، الآية: 53]، فدخل "إِنَّ" مؤكّد لمضمون ما تقدّمه لإشعاره بالتردد فيما تضمّنه مدخولها، وكقوله تعالى: ﴿...وَلَا تُخَلِّطُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة هود، الآية: 37]، لما أمر المولى نوحا أولا بصنع الفلك، ونهاه ثانيا عن مخاطبته بالشفاعة فيهم، صار مع كونه غير سائل في مقام السائل المتردد: "هل حكّم الله عليهم بالإغراق؟" فأجيب بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

3- أن يُنزل غير المنكر منزلة المنكر، إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار. مثل قوله تعالى في خطاب المصطفى ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا وَتَوْأَمُدِّيرِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 80].

لما كان ﷺ شديد الحرص على هدايتهم، مجهدا نفسه في إبلاغهم ما أنزل إليه، متطلعا إلى استجابتهم وقبولهم الحق، وإقلاعهم عن الضلال والكفر، لما كان كذلك نُزل منزلة من يعتقد أنه يستطيع إسماع الصمّ وهداية العمي، وينكر عدم قدرته على إسماعهم وهدايتهم، فألقى إليه الخبر مؤكّدا: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾.

4- تنزيل المتردد منزلة الخالي، كقولك للمتردد في قدوم مسافر مع شهرته (قدم الأمير).

5- تنزيل المتردد منزلة المنكر: كقولك للسائل المستبعد لحصول الفرج {إنّ الفرج لقريب}.

6- تنزيل المنكر منزلة الخالي، إذا كان لديه دلائل وشواهد، لو تأملها لارتدع وزال إنكاره، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: 163]، وكقولك لمن يُنكر منفعة الطبّ: {الطبّ نافع}.

7- تنزيل المنكر منزلة المتردد، كقولك لمن ينكر شرف الأدب إنكارا ضعيفا: {إنّ الجاه بالمال، إنّما يصحبك ما صحبك المال، وأما الجاه بالأدب فإنّه غير زائل عنك}.

(1)- أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ/2000م، ص259.

(2)- ينظر: السيّد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: يوسف الصميلي، ص ص58، 60. وكذا: جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص 45.

المبحث الثاني: أغراض الخبر البلاغية

لما كانت سور الطواسين من السور المكّية، فقد امتازت بالطابع القصصي أكثر من الطابع الفقهي من: أحكام وعقائد وشرائع، فقد تناولت قصص عديد من الأنبياء والرسل، وما حلّ بهم وبأقوامهم أمثال: موسى، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، سليمان، داود، محمد ﷺ وغيرهم، الأمر الذي أكسب السور طابعا خبريا أكثر منه إنشائيا، إلا أنّ هذا الأخير جاء مصاحبا للخبر في مواضع كثيرة.

مما يعني أنّ الخبر لا يُلقى في جميع الأحوال بهدف إعلام المخبر بشيء مجهله لا علم له به، بل في كثير من الأحيان ما يلقي لغرض مجازي آخر، غير الغرض الحقيقي الذي وُجد من أجله، يتمّ الاهتداء إليه من خلال الأداء، فضلا عن السياق والمقام الذي تُسج فيه الكلام، ومختلف الظروف والملابسات المحيطة به، ولعلّ أبرز هذه الأغراض الذي يخرج إليها الخبر نجد: إظهار الضعف، الاسترحام، تحريك الهمة، إظهار التحسّر، المدح، الفخر، التوبيخ، التحذير، الأمر، النهي، الوعد، الوعيد، الدعاء، الإنكار والتبكيّة، التميّ، النفي، التعظيم، الإرشاد والنصح، الحثّ على السعي والجدّ، البشارة، التهويل، والزجر،... الخ، منها ما ورد في سور الطواسين، ومنها ما لم يرد، وفيما يلي تفصيل ذلك:

• **الخبر للتقرير:** التقرير أو الإقرار هو التلقظ بالحقّ مع انصياع النفس له، وقول الحقّ دون غيره يسمّى في اللغة اعترافا، حتّى ولو لم تدعن النفس إليه، وهو يكون باللسان دون غيره من الجوارح، عكس الإقرار الذي يمكن أن يكون بدون كالتلقظ مثلا، بل بطرائق وقرائن أخرى كالإشارات والإيماءات المختلفة. يقول "أبو هلال العسكري" (ت: 395هـ) مثمنا هذه الفكرة: «الإقرار هو التكلّم بالحقّ اللازم عن النفس، مع توطين النفس على الانقياد والإذعان (...). والاعتراف: هو التكلّم بذلك، وإن لم يكن معه توطين، أو إنّ الاعتراف هو ما كان باللسان، والإقرار قد يكون به وبغيره، بل بالقرائن، كما في حقّ الأخرس، وينطبق على الوجهين تسمية الشهادة بالتوحيد إقرارا، لا اعترافا...»⁽¹⁾.

وذهب بعضهم إلى أنّ الاعتراف مثل الإقرار ومنهم "أبو هلال العسكري" حين قال «إلا أنّه يقتضي تعريف صاحبه الغير أنّه قد التزم ما اعترف به، وأصله من المعرفة، وأصل الإقرار من التقرير، وهو تحصيل ما لم يصرّح به القول، ولهذا اختار أصحاب الشروط أقرّ به، ولم يختاروا اعترف به»⁽²⁾.

بناء على ما قيل نستنتج أنّ الاعتراف هو الإقرار الذي صحبته المعرفة بما أقرّ به مع الالتزام بما أعترف به،

(1) - أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص 48.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل، إذ كلّ اعتراف إقرار، وليس كلّ إقرار اعتراف، وضدّ الاعتراف: الجحد، وأمّا نقيض الإقرار فهو الإنكار.

لعلّ من مواطن الخبر الذي خرج إلى غرض الاعتراف باللسان في سور الطواسين قول المولى عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 15].

في الآية اعتراف واضح من نبيّ الله داود وسليمان على نعمة العلم التي منّ بها الله عليهما، وميّزهما على كثير من خلقه. يقول "سيد قطب" محدداً هذا الغرض: «خبر تقريرى على أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان - عليهما السلام - نعمة العلم...»⁽¹⁾.

ونجد المعنى ذاته يتكرّر في الآية الموالية عند قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [سورة النمل، الآية: 16].

فالخبر هنا في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ اعتراف من سليمان بفضل الله سبحانه وتعالى، وبنعمه الكثيرة التي أغدقه بها، فقد ورث سليمان عن أبيه داود النبوة والعلم والملك، إلى جانب ذلك إنعامه سبحانه وتعالى عليه بنعمة خصّه وفضّله بها دون سائر الأنبياء والرسل، وهي: فهم لغة الطير وسائر الحيوانات، فما كان من سليمان إلّا أن يشكر ربّه ويعترف بنعمه؛ إذ جاء اعترافه مؤكّداً بعدّة مؤكّدات (إنّ، لام الابتداء، ضمير الفصل)، دليلاً على حرصه الشديد على شكر النعم والإقرار بأفضال الله عزّ وجلّ عليه. قال الإمام "الصابوني": «أي إنّ ما أُعطيّناه وما خصّنا الله به من أنواع النعم هو الفضل الواضح الجليّ، قاله على سبيل الشكر والمحمدة، لا على سبيل العلوّ والكبرياء»⁽²⁾، وقال "مأمون حمّوش" في السياق ذاته: «اعتراف من سليمان عليه الصلاة والسلام لله تعالى بهذه النعم الجليلة، وشكره له جلّ ثناؤه على تلك العطايا والمواهب الجميلة»⁽³⁾.

والآيتان معا تؤدّيان بنعمة واحدة على طول مقاطعهما الصوتية، وهي النعمة التقريرية المستوية، بيد أنّ الآية 16 تشهد في آخرها ارتفاعاً ملحوظاً في درجة الصوت موضع التأكيد، لا يلبث طويلاً حتى يعود النمط إلى الاعتدال مجدداً.

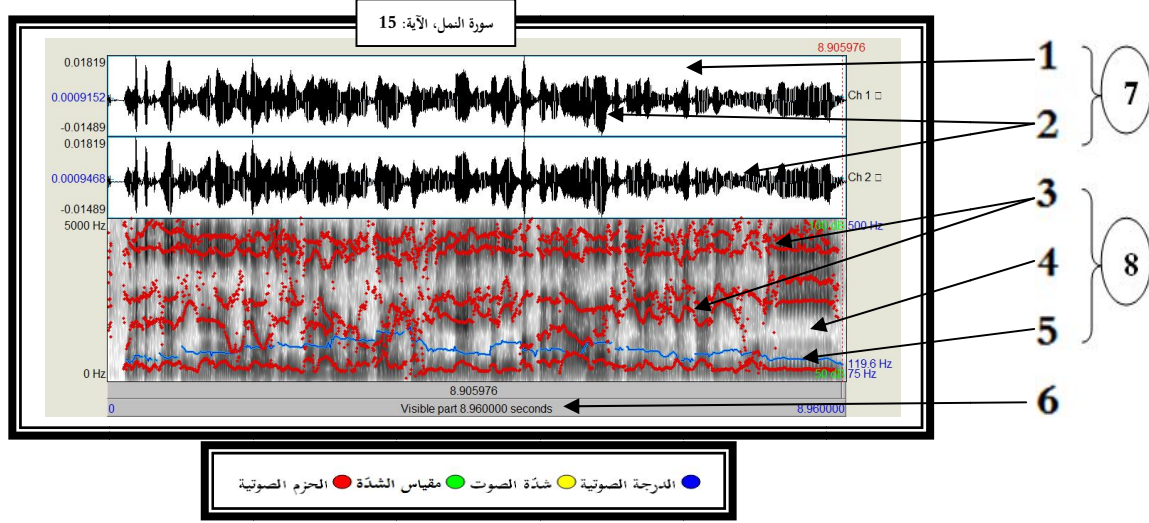
لتوضيح نعمة الأداء أكثر تقدّم فيما يلي عرضاً مبسطاً لموجات الصوت اللغوي في الآية 15 من سورة

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، ص2633.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص371.

(3) - مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، تح: أحمد راتب حمّوش، وزارة الإعلام، دمشق، سورية، ط1، 1428هـ/2007م، ص535.

النمل، مرفوقا برسم طيفي محمّلا بمختلف الخصائص الفيزيائية لهذه الموجات:



الشكل رقم: 07

تمثل الأرقام أعلاه ما يلي:

الرقم 1: التخلّلات الهوائية داخل الموجة الصوتية المسؤولة على إكساب الصوت للطابع المبحوح. (يُفترض أن تكون خلفية مخطّط الموجات في النافذة الأولى ذات اللون الأزرق الداكن، وهذا ما سنلحظه في بعض النماذج اللاحقة).

الرقم 2: الموجات الصوتية التي تبدأ بتنغميم مستوٍ، ينحدر في نهاية الآية (اللون الأسود في النافذة الأولى من المخطّط).

الرقم 3: سلسلة الحزم الصوتية (اللون الأحمر في النافذة الثانية من المخطّط)، حيث تكشف لنا هذه الحزم صفات الأصوات.

الرقم 4: التحليل الطيفي للصوت اللغوي (المساحة الرمادية التي تغطّي النافذة الثانية من المخطّط).

الرقم 5: منحني بياني يوضّح درجة الصوت واتّجاهه منذ بداية الآية إلى نهايته (اللون الأزرق في النافذة الثانية من المخطّط).

الرقم 6: المدّة المستغرقة لتلاوة الآية الكريمة (التزمين). فقد توصف بالطول أو التوسط أو القصر.

الرقم 7: رسم بياني يوضّح المنحنى الإيقاعي للموجات الصوتية مصحوبة بتخلّلات هوائية؛ علماً أنّ الإيقاع في الآية الكريمة إنّما يتولّد من خلال مجموع النغمات، أي سلسلة النغمات المتتابعة هي التي تمنح للآية طابعا لحنيا.

الرقم 8: الرسم الطيفي للموجات الصوتية مزوّد بالقيم الأكوستيكية.

ملاحظة: الأرقام المكتوبة باللون الأخضر، الموجودة على يمين المخطّط تمثل درجات شدة الصوت، حيث تكون منعدمة هنا، لأنّ أداء الآية بدأ مستويا باتجاه الانخفاض، وهذا لا يحتاج إلى قوّة في النطق أو شدة في الصوت، لذا

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

لم تتجاوز شدة الصوت هنا 50 ديسيبل وهو الحد الأدنى لنطق الصوت اللغوي.

إذاً، يعكس لنا الشكل أعلاه الوتيرة الصوتية التي يسير وفقها أداء الآية الكريمة، حيث نلاحظ أنّها تأخذ - عموماً - نمطاً واحداً وهو التنغم المستوي، يظهر ذلك جلياً من خلال النافذة الأولى التي تجسّد لنا حركة الموجات الصوتية، إلى جانب ذلك ظهور المنحنى الأزرق في النافذة الثانية وهو يأخذ شكلاً شبه مستقيم دلالة على أنّ النطق مسطّح ولا يحتاج إلى علو موسيقي أو شدة في الأداء، لذا لم نلاحظ وجوداً للمنحنى الأصفر. هذا ويمكن تلخيص القيم الفيزيائية لمقاطع الآية في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
119.465 هرتز	155.278 هرتز	217.379 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
8.97 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 15 من سورة النمل

● **الخبر للاستفهام:** كثيرة هي الحالات التي يرد فيها الكلام على أساس كونه خبراً، ولكن إذا أمعنا النظر فيه أكثر، وقلّبنا تركيبه في أذهاننا اتّضح لنا أنّ ظاهر الكلام يختلف تماماً عن باطنه؛ كأن يكون اللفظ خبراً والمعنى استفهاماً، وهذا ما يسمّى بـ: **الاستفهام الضمني**، ومما لا شكّ فيه أنّ للأداء التنغمي أثراً بالغاً في تحديد الدلالة المقصودة وتوجيه غرض الكلام، حتّى وإن غابت الأدوات؛ فالتنغم هو الحامل للمعنى لا الأداة ذاتها، وهنا يكون التنغم قد أدّى وظيفته النحوية وكذا الدلالية في اللغة. يقول الباحثان "سامي عوض" و"علي عادل نعامة" في هذا الصدد: «فللمتكلم دور كبير في تحديد معنى الجملة بوضعها في إطارها الصوتي الملائم، فالتنغم أو التلوين الموسيقي يؤدّي دوراً مهماً في التفريق بين معاني الجمل كالخبرية والإنشائية، فقد تكون الجملة خبرية في المعنى وهي تحتوي على أداة استفهام في اللفظ، وقد تكون استفهامية دون أن تحوي أداة استفهام، بيد أنّ للتنغم أهمية عظيمة الأثر في دراسة الأساليب»⁽¹⁾ ويضيفان في موضع آخر: «وثمة أمثلة كثيرة لتراكيب تخلو من أداة للاستفهام، ولكنّها في حقيقة الاستعمال تراكيب استفهامية، يستقبلها السامع بإدراك واضح، ويتعيّن الاستفهام في مثل هذه الصياغات بالتنغم، كما يتعيّن به التفريق بين الأساليب المختلفة»⁽²⁾.

الحقيقة أنّ مثل هذه التراكيب لا تخلو منها سور الطواسين الثلاث، ولعلّ من مواطنها في سورة الشعراء قوله

تعالى: ﴿وَتَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُوتَاقِرُهَا مِنْ قَبْلِهَا﴾ [سورة الشعراء، الآية: 149].

(1) - سامي عوض وعادل علي نعامة: "دور التنغم في تحديد معنى الجملة العربية"، ص 91-92.

(2) - المرجع نفسه، ص 92.

فظاهر الآية خبر، لكنّ معناها يحيل إلى شيء آخر غير الإفادة وهو: الاستفهام، ولا سبيل للتوصل إلى ذلك إلاّ من خلال الأداء، إلى جانب القرائن السياقية المحيطة بنصّ الآية، فتقدير الكلام: "أوتنحتون من الجبال بيوتا فارهين"؛ أي أتتخذون من البيوت المنحوتة من الجبال دون الحاجة إليها سكنًا لكم، فصرتم بما فارهين في حصانة ومنعة وقوة، وإنّ هذه لنعمة منّها الله عليكم، وجب في المقابل أن تشكروه عليها، ولا تكفروه حتّى لا يمستكم عذابه الشديد.

وهمة الاستفهام هنا لن تكون ظاهرة في الأداء - طبعاً - غير أنّ تأديتها بالطريقة المناسبة توحى للسامع وكأنّها موجودة فعلاً، وإنّما حُذفت من التركيب لقيام قرينة لفظية دالة عليها، تمثّلت في وجود همزة سابقة تحيل على معنى الاستفهام، فقد أجاز النحاة حذف همزة الاستفهام شريطة «وجود قرينة لفظية أو معنوية تدلّ على المحذوف لأمن اللبس»⁽¹⁾.

والقرينة اللفظية ههنا - كما ذكرنا - وجود همزة الاستفهام في الآية 146 قبلها؛ أي في قوله تعالى: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ تَاءٌ آمِينَ﴾، فحذف همزة الاستفهام في الآية 149 راجع إلى عطف هذه الآية على ما قبلها.

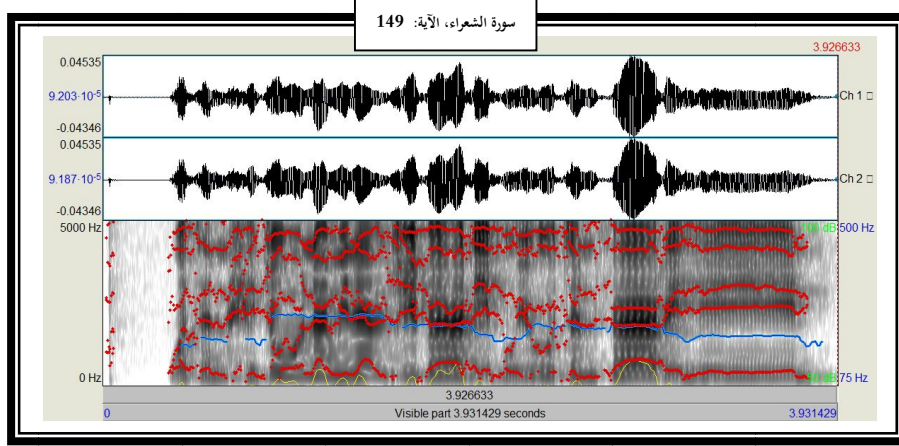
ما يقال على هذه الآية ينسحب على قوله عزّ وجلّ في السورة ذاتها: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَنْتُمْ بِهَا كَافِرُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 166]، والتقدير: "وتذرون" عطفاً على "أنتأتون" الواردة في الآية قبلها عند قوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 165].

فمعنى الآية: أتتركون ما قدره الله لكم، وارتضى التمتع به من النساء؟! أتتركون ما طاب لكم وتعطلون عنه إلى ما خبث وقبح التمتع به؟!⁽²⁾

والخبر في الآيتين من مواضع الخفض، لكن هذا إذا كان الغرض منه الإعلام والإخبار، أمّا وأنّه خرج إلى غرض الاستعلام والاستخبار، فإنّ نمطه التنغمي سيتغيّر وفق تعيّر غرضه، أو بعبارة أكثر دقّة أنّ نمط التنغم هو الذي يحدّد المقصود بالكلام إن كان خيراً أم استفهاماً؛ وعليه تُؤدّى كلتا الآيتين بنغمة استفهامية صاعدة (مدى نسبي صاعد) متدرّجة نحو الهبوط أو آخر مقاطعهما الصوتية. ولعلّ في التحليل الفيزيائي لمقاطع الآية 149 مثلاً توضيح للمنحنى النغمي أكثر:

(1) - الحسين بن قاسم المرادي: الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدّين قِبارة ومحمد ندم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/ 1992م، ص 34-35.

(2) - ينظر: أحمد عبد التّوّاب الفيومي: علم الأصوات اللغوية (ظواهر علم الأصوات في القرآن الكريم) - الفصل الصوتي، اللفظة المركزية، الاستفهام الخبري، الخبر الاستفهامي، ظاهرة استحضار الصورة، ص 240-241.



الشكل رقم: 08

ليس أدلّ على رفع الصوت أثناء قراءة هذه الآية الكريمة، من تلك القيمة التي سجلتها أعلى درجة صوتية وصل إليها مستوى النطق؛ إذ بلغت 260.550 هرتز، بل إنّها لم تسجّل أقل من 174 هرتز، وما يقال على الدرجة ينطبق على شدة الصوت كذلك، والذي وصلت في أعلى قيمتها إلى 57.67 ديسيبل، وهذه النتائج كلّها تؤكّد أن الغرض من الآية ليس هو الإعلام والإفادة، ولو كان الأمر كذلك لما شهد المنحنى الأزرق هذا الارتفاع، ولا ظهر المنحنى الأصفر في التحليل الفيزيائي أصلاً. أما عن تفصيل النتائج فيمكن توضيحها كما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
174.311 هرتز	222.084 هرتز	260.550 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.15 ديسيبل	57.67 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
3.93 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 149 من سورة الشعراء

ومن المواضيع الأخرى التي خرج فيها الخبر إلى دلالة الاستفهام، وكان الغرض فيها ضمناً لا يتطابق مع قوّتها الإنجازية قوله عزّ وجلّ في سورة النمل: ﴿وَرَىٰ الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 88].

تبدو الآية من الوهلة الأولى أنّها جملة خبرية صرفة، خلّوها من أيّ أداة إنشائية، غير أنّ المحدّد الأساس للدلالة كما أسلفنا ليس هو الأداة، بل هو التنغيم أو الأداء الصوتي، والذي يمثّل هنا قرينة معنوية تتكفل لوحدها بإيصال الغرض المقصود من التركيب وهو: الاستفهام الواقع في الآية عند موضعين، وكأنّ تقدير الكلام: «أتحسبها جامدة، أو: أليست تحسبها جامدة»، والموضع الثاني: (أليس هذا صنع الله، بلى إنّهُ لصنع الله الذي أتقن كلّ

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

شيء». (1)، فعلى الرغم من خلق الجملتين من أداة الاستفهام، إلا أنّهما في حقيقة الاستعمال جملتان استفهاميتان.

قياسا لما قيل فإنّ الآية تعرف في أداؤها تذبذبا إيقاعيا متعدّد النغمات، تُستهلّ بنغمة مستوية في قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾، تليها نغمة صاعدة تشمل موضعي الاستفهام الضمني، أي قوله عزّ وجلّ: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمْرٌ مَّرَّ السَّحَابِ﴾ و﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، يتخلّل الاستفهامين سكتة خفيفة لأخذ النَّفْسِ، وأخرى قبل أداة التوكيد، لتبدأ النغمة بالانحدار شيئا فشيئا بعد أداة التوكيد مباشرة، حيث يستمرّ منحنى الخفض إلى غاية المقطع الختامي من الآية الكريمة.

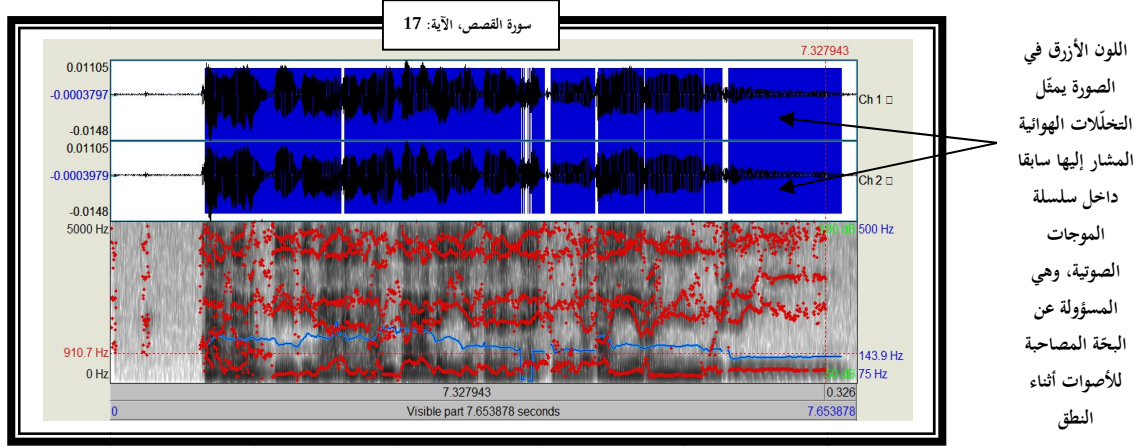
• **الخبر للاسترحام والاستعطاف:** عندما تكون القوّة الإنجازية للكلام المنطوق غير مطابقة للمعنى الذي يقصده صاحب الكلام، فمما لا شكّ في ذلك أنّ الغرض من الكلام هنا سيكون لا محالة مخالفا لما يقتضيه ظاهره، وكثيراً ما يحدث هذا حينما يخرج الخبر مثلا إلى معاني أخرى غير الإفادة، ولعلّ من هذه المعاني الاسترحام والاستعطاف. قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 17].

تضمّن هذا الخبر معاهدة سيّدنا موسى عليه السلام ربّه ألاّ يكون عوناً لأحد من المجرمين الكفرة، نظير إنعامه سبحانه وتعالى عليه بالقوّة، وإكرامه بالجاه والعزّ، والحقيقة أنّ هذا الخبر الذي جاء خالٍ من أيّ أداة توكيد، لم يقصد من خلاله المخاطب وهو موسى عليه السلام نقل مضمونه إلى المخاطب وهو الله تعالى، لأنّه عالم بفحواه، فالخبر هنا لا يراد به الفائدة، كما أنّه لا يراد به لازم الفائدة؛ كون موسى في هذا الحوار لم يكن يقصد أن يُوصِل إلى الله بأنّه هو الآخر يعلم مضمون الخبر، وإتّما كان غرضه من إلقاء الخبر: طلب الرحمة والعطف. يقول صاحب "تفسير الكشّاف" مبيناً هذا الغرض الذي خرج إليه الخبر: «فلن أكون ظاهراً للمجرمين: استعطافاً؛ كأنّه قال: ربّ أعصمني بحقّ ما أنعمت عليّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتني ظاهراً للمجرمين». (2)

إدّا، فالتركيب في الآية جاء خبيراً لفظاً، استرحاماً معني، وهنا يكمن دور التنغم في توجيه الغرض. إنّ الاستعطاف من مواضع الخفض، لما فيه من تدلّل وطلب للرحمة، خصوصاً إذا كان ذلك مع المولى عزّ وجلّ، لذا فإنّ الآية تُؤدّي بنغمة مستوية في بدايتها، لكنّها سرعان ما تتراجع نحو الانخفاض بشكل تدريجي إلى غاية آخر مقطع صوتي فيها، والشكل أسفله يوضّح النمط التنغمي للآية:

(1) - أحمد عبد التّوّاب الفيومي: علم الأصوات اللغوية (ظواهر علم الأصوات في القرآن الكريم) - الفصل الصوتي، اللفظة المركزية، الاستفهام الخبري، الخبر الاستفهامي، ظاهرة استحضار الصورة، ص 227.

(2) - الزمخشري: تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 20، ص 796.



الشكل رقم: 09

هذا، ويمكن ترجمة نتائج التحليل الفيزيائي في الآية 17 من سورة القصص على شكل أرقام في الجدول

التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
70.075 هرتز	173.056 هرتز	235.610 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	معدمة	معدمة	شدة الصوت (Intensity)
7.65 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 17 من سورة القصص

والمعنى ذاته نجده أيضا في الآية التي تسبقها عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة القصص، الآية: 16]، غير أنّ الخبر فيها جاء مؤكداً بعدة مؤكّدات دلالة على بلوغ شدة ندم موسى عليه السلام ذروتها، لأنّه ظلم نفسه لقتله النفس التي حرّم الله قتلها إلاّ بالحقّ، وهذا ما دفعه إلى طلب العطف والرحمة من خالقه عزّ وجلّ.

وقال تعالى في موضع آخر من السورة نفسها: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة القصص، الآية: 23].

الآية تروي قصة سيدنا موسى مع الفتاتين، حينما توجه إلى مدين هروبا من جبروت فرعون الطاغية، حيث وجد الناس يسقون أغنامهم، ومن دونهم امرأتين تكفّان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاة، فلمّا استفسر عن السبب فهم أنّ لهما أباً شيخاً ضعيفاً لا يقدر على هذه المهمة، فتكفّلا هما بالعملية؛ إذ ينتظران في كلّ مرّة فراغ هؤلاء من السقي حتّى يتجنّبا الإذابة والاختلاط بالرجال، لتشرب بعد ذلك مواشيهم ما تبقى من الماء. فطريقة

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

حديثهما مع موسى والحال الذي وجدتهما عليه دفعاه إلى مساعدتهما وسقي أغنامهما. ثم إنَّ الفتاتين لم تقصدا بهذا الخبر حقيقة الإعلام؛ أي إفادة المخاطب بشيء يجمله حتى وإن كان الواقع كذلك، لأنَّ موسى عليه السلام يجهل فعلا سبب تواجد الفتاتين وسط جمع غفير من الرجال دون غيرهما، بل أرادت أن تستعطف موسى عليه السلام حتى يرق قلبه عليهما، وطمعا في تقديم يد العون لهما بسقي الغنم، وهذا ما حدث فعلا.

إنَّ الخبر هنا ألقى على المخاطب خالٍ من أدوات التوكيد، لأنَّ موسى يجمله، وبالتالي لا يملك حجة للتردد فيما تضمنه أو إنكاره بالمطلق. يقول "أبو حيان الأندلسي" (ت: 745هـ) مفسرا هذه الآية، ومبينا الغرض من الخبر فيها: «اعتذار موسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما، وتنبه على أنَّ أباهما لا يقدر على السقي لشيوخه وكبره، واستعطف لموسى في إعانتهم».⁽¹⁾

والآية من الناحية التنغمية تُؤدّي بعدة نغمات متباينة: تبدأ بالنغمة المستوية لما فيها من تقرير وإخبار، تمتد إلى غاية لفظ "تذوذان"، تقع وسط هذه الآية سكتة خفيفة بعد كلمة "يسقون"، بعدها ترتفع درجة المنحنى النغمي موضع الاستفهام (ما خطبكما)، لتعود النغمة إلى الاستواء من جديد متدرجة شيئا فشيئا نحو الهبوط إلى غاية المقطع الختامي من الآية، تماشيا ودلالة العجز والضعف.

• الخبر لإظهار الضعف:

قال تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 24]. في الآية خبر، لكن لم يُقصد منه الفائدة ولا لازمها، بل خرج إلى معنى بلاغي هو التوسل إلى الله وإظهار الضعف. قال "السعدي" (ت: 1956م): «لما في ذلك من إظهار التضرع والمسكنة، والافتقار لله الذي هو حقيقة كلِّ عبد».⁽²⁾

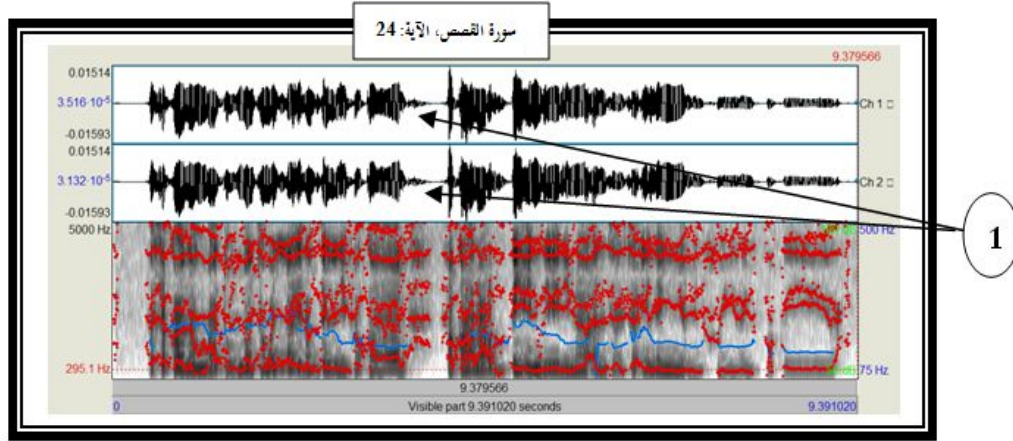
وقد جاء الخبر هنا في قالب الدعاء، والدعاء كما هو معلوم من مواضع الرفع؛ هذا إذا كان دافعه الإصرار والإلحاح، أما إذا كان المراد منه إظهار المسكنة والتذلل وقلة الحيلة كما هو الحال في الآية أعلاه، فهو هنا يُؤدّي بتنغميم هابط، فموسى عليه السلام جائع، حتى قيل أنه مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما إلا بقل الأرض، ومعلوم أنَّ الطعام يقوِّي الجسم، والجائع لا يقوى على الإصرار في السؤال والإلحاح في الإجابة عن طريق رفع الصوت لكونه في حالة ضعف. جاء في "تفسير القرآن العظيم" لـ "ابن كثير": «سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام

(1) - محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي: البحر المحيط في التفسير، ج8، مراجعة: صديقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1432هـ / 2010م، ص297.

(2) - عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير اللطيف المئان في خلاصة تفسير القرآن، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ / 2001م، ص228.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

إلاّ البقل وورق الشجر، وكان حافيا فما وصل مدين حتى سقطت نعل قدمه وجلس في الظلّ، وهو صفوة الله في خلقه، وإنّ بطنه لاصق بظهره من الجوع، وإنّ خضرة البقل لثرى من داخل جوفه، وإنّه لحتاج إلى شقّ تمرّة»⁽¹⁾.
 بناء على ما قيل تُؤدّي هذه الآية بنغمتين متقاربتين: تُفتتح بنغمة تقريرية مستوية تشمل أسلوب الخبر الذي جاء في قالب سردي عند قوله عزّ وجل: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ﴾، تليها نغمة مستوية إلى هابطة تشمل قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾⁽²⁾ تتناسب ودلالة الضعف والتضرّع إلى المولى جلّ وعلا بأن يرزقه ما يقتات ويسدّ به فورة جوعه، وما يزيد هذا المعنى تأكيدا توقيع النبر أثناء القراءة على كلّ من كلمة (ربّ)، و(إني) تمنيما للغرض، وتعزيزا للدور الذي قام به التنغم في تحديد المعنى المقصود. والشكل رقم 10 يوضّح ذلك:



الشكل رقم: 10

نلاحظ من خلال الصورة أعلاه وجود سكتة صوتية خفيفة (ينظر رقم 01)، ناتجة عن الوقف والابتداء، فالقارئ وقف هنا على كلمة "فقال"، ثم استأنف القراءة مرّة أخرى من خلال رجوعه إلى الكلمة ذاتها لارتباطها بما بعدها معنًا، كما نلاحظ في هذا المثال أيضا غياب المنحنى الأصفر الذي يمثّل شدّة الصوت، والسبب يكمن في عدم حاجة القارئ إلى جهد عضلي أو طاقة أكبر، قصد إبراز الغرض من الآية وهو إظهار الضعف، إذ تُؤدّي الآية كلّها بنغمتين تُغنيان القارئ عن رفع طبقة الصوت، وهما النغمة المستوية تليها أخرى هابطة، أي أنّ المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية يأخذ اتجاهًا تنازليًا ↘ وعلى العموم يمكن تلخيص القيم الفيزيائية للصوت اللغوي في هذه الآية من خلال الجدول أسفله:

(1) - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، مج3، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ومكتبة دار الريان، الجزائر، ط1، 1423هـ/ 2002م، ص2168.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
77.185 هرتز	176.969 هرتز	267.071 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبيل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
9.39 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية للصوت اللغوي في الآية 24 من سورة القصص

• الخبر للافتخار والابتهاج:

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا صَنَامًا فَظَلُّوا عَن كَيْفِيَّتِهِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 71].

هذا ردّ قوم سيّدنا إبراهيم عليه السلام لما خاطبهم متسائلا على الأصنام التي كانوا يعكفون على عبادتها. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 70]، فكان ردّهم يشوبه شيئا من الاستهزاء واللامبالاة، إذ ضربوا مواظبه لهم ضرب الحائط «...وقولهم ذلك على سبيل الاستخفاف، وعدم المبالاة بما خوّفهم به...»⁽¹⁾، كما نلمس في قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا عَن كَيْفِيَّتِهِ﴾ شيئا من الافتخار والابتهاج، وكأنّهم يفعلون المعصية ويفرحون بفعلهم، وهذا أشدّ أنواع المنكر، فالخبر الابتدائي هنا لا يُقصد به تقديم الفائدة لإبراهيم عليه السلام، لأنّه عالم بفحواه، فقد كان يعيش بينهم ويعرف نواياهم وخبائهم حقّ المعرفة، فلا يُنتظر منه تكذيب للخبر أو تصديق له، كما لا يقصد به لازم الفائدة؛ لأنّ القوم هنا أرادوا أن يُظهروا افتخارهم بهذه المنحوتات التي كانت تصنعها أيديهم، والتي يقيمون على عبادتها في أغلب أوقاتهم لا يكادوا يفارقونها ليلا أو نهارا. يقول "الصابوني" مشيرا في تفسيره للآية السابقة إلى هذا المعنى: «أي نعبد أصناما فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، وكان يكفيهم أن يقولوا: نعبد الأصنام، ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع»⁽²⁾.

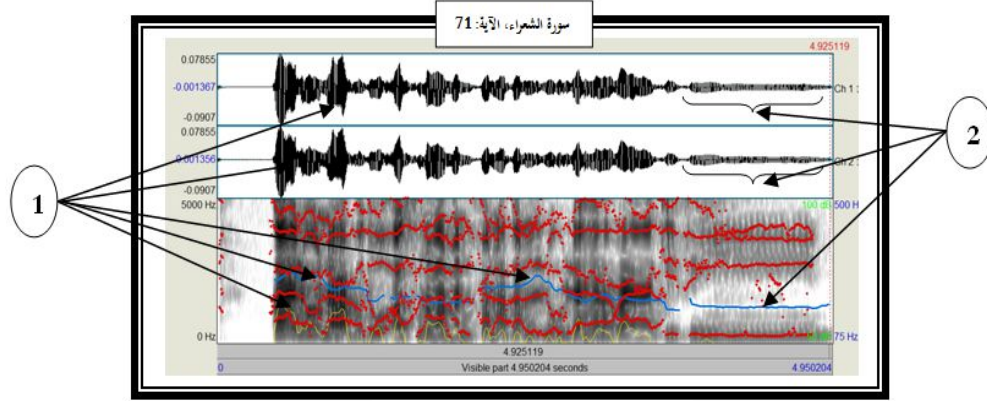
والآية تُؤدّي في العموم بنغمة واحدة، وهي النغمة الصاعدة، لغلبة طابع الغلّو والمبالغة على مضمونها العام، لتتخفّف طبقة الصوت أو آخر مقاطع الآية، دليلا على تمام الكلام.

ثمّ إنّ ما يميّز النطاق النغمي للآية توالي الأنبار فيها، والتي تشكّل قمّة الإسماع الصوتي، نلمس ذلك في المقطع المتوسط المغلق بداية كلمة "أصناما"، والمقطع القصير المفتوح آخر كلمة "نظّل"، والمقطع الطويل آخر كلمة "عاكفين"، ومما لا شكّ فيه أنّ نبر العلوّ الموسيقي هنا من شأنه أن يساعد التنغم في وظيفته التمييزية، وأثره في إبراز معنى الافتخار والابتهاج، حيث «يوجد دائما داخل الوحدة النغمية جزء معيّن يكون له بروز خاص (...)

(1) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج8، ص180.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، ج19، ص352.

ويقع عبء تحمّل حركة الطبقة الصوتية داخل الوحدة النغمية على المقطع المنبور⁽¹⁾.
والشكل رقم 11 يوضّح المنحنى الإيقاعي للآية الكريمة:



الشكل رقم: 11

يمثّل الرقم 1 في هذه الصورة موضع الافتخار الذي يشهد ارتفاعاً في عدد الذبذبات الصوتية كما يشير إليه السهمان الأولان، ممّا يترتّب عن ذلك ارتفاع في الدرجة الصوتية، وهذا واضح من خلال السهمين الثالث والرابع، وكما سبق وأن أشرنا، فإنّ رفع طبقة الصوت بحاجة إلى جهد عضليّ وشدّة في النطق، ولأجل ذلك نلاحظ ارتفاعاً واضحاً في بداية المنحنى الأصفر، لينحدر شيئاً فشيئاً نحو التسقّل في نهاية الآية، دليلاً على اكتمال معناها مشكلاً مع المنحنى الأزرق نمطاً إيقاعياً تنازلياً ↘ .

أمّا الرقم 2 فيبيّن شكل النغمة الهابطة أواخر مقاطع الآية، وذلك النمط المستوي الذي يميّز نهايتها ناتج أساساً عن تمطيط الصوت وإطالته لما في كلمة (عاكفين) من نبر على آخر مقطع صوتي منها (المقطع الطويل). هذا، ويمكن استثمار النتائج المتوصّلة إليها من خلال تحليل هذه الآية في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
172.316 هرتز	204.240 هرتز	283.747 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	57.37 ديسيبل	63.30 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
4.95 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 71 من سورة الشعراء

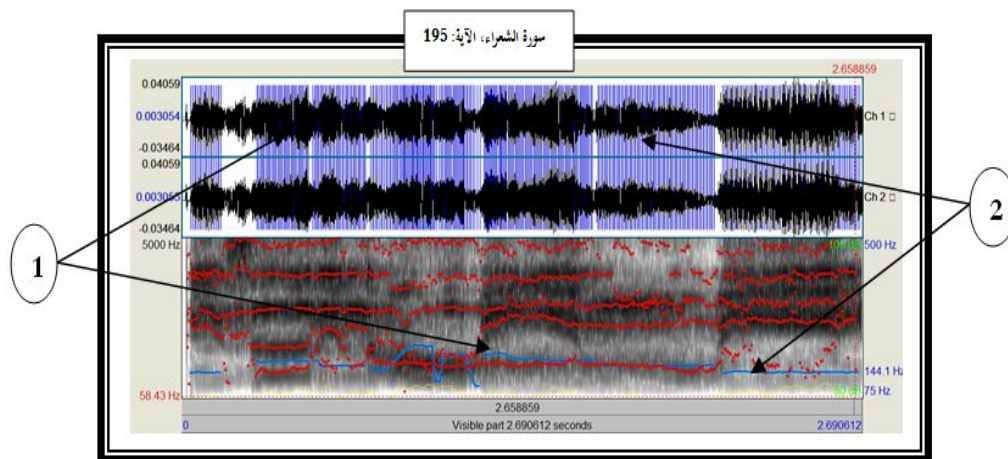
• الخبر للتوبيخ: هو الذي يتضمّن «كلاماً خرج مخرج التهزّل والتّهافت، ومن ذلك قولنا لتارك الصلاة:

(1) - جوليان براون وجورج بول: تحليل الخطاب، تر: محمّد لطفي الزليطني ومنير التركي، جامعة الملك سعود للنشر العلمي والمطابع، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1418هـ / 1997م، ص186.

{الصلاة ركن من أركان الإسلام} (1).

ومن نماذجه في سور الطواسين قول المولى عزّ وجلّ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 195]. في الآية إخبار عن اللغة التي أنزل بها القرآن، وهي اللغة العربية الفصيحة الواضحة، وهذا لئلا يبقى لقريش أيّ عذر فتقول: ما لنا وهذا الكلام الذي لا نفهمه؟، فالآية هنا جاءت في قالب إخباري، لا يُقصد منه مجرد الإخبار؛ أي الإفادة أو لازمها، بل يحمل في طياته دلالات من قبيل: التوبيخ والتبكيث لكفار قريش على عنادهم وإصرارهم على عدم فهم لغة القرآن، مع أنّه نزل بلغتهم. ولأجل ذلك جاءت الآية الموالية: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُرُورِ الْأُولِينَ﴾ [١٣٦] مؤكدة بمؤكدين هما: {إنّ ولام التوكيد} على سبيل الخبر الإنكاري، والتأكيد لهم مرّة أخرى بأنّ ذكر القرآن كان موجوداً من قبل في كتب الأنبياء السابقين، حتى لا تكون لهم حجّة بعد هذا. يقول "المراغي" في تفسير الآية موضّحاً دلالة التوبيخ فيها: «وفي قوله "بلسان عربيّ مبين"؛ تفرّيع لمشركي قريش، بأنّ الذي حملهم على التكذيب هو الاستكبار والعناد لا عدم الفهم؛ لأنّه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه» (2).

والآية من الناحية التنغمية تُؤدّي بنغمة مستوية هابطة؛ استحضاراً لدلالة التوبيخ، وعتاباً لمشركي قريش على استمرارهم في عنادهم وتماديهم في التكذيب، رغم البيّنات الواضحة؛ المقيمة للحجّة، الدالة على المَحجّة، مصداقاً لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿... لِنَآئِلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...﴾ [سورة النساء، الآية: 165]. ولتوضيح الأداء التنغمي للآية أكثر ينظر الشكل أسفله:



الشكل رقم: 12

يشير الرقم 1 على يسار الصورة إلى النطاق النغمي الذي تمثّله النغمة المستوية التي تبدأ بها الآية، أمّا

(1) - إنعام فوّال عكاوي: المعجم المفصّل في علوم البلاغة- البديع والبيان والمعاني، تح: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ/ 1996م، ص558.

(2) - المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص68.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

الرقم 2 فيشير إلى النطاق النغمي الذي تتمثله النغمة الهابطة والتي تختتم بها مقاطع الآية، وهو اتجاه نغمي مناسب لغرض التوبيخ الخارج إليه أسلوب الخبر وهنا. ونظرا لكون الغرض لا يحتاج أداءه لأيّ جهد عضلي، نلاحظ شبه اختفاء للمنحنى الأصفر الذي يمثّل شدّة الصوت، حيث بلغ أقصى حدّ له 54.42 ديسيبل، وهذه الدرجة ليست بعيدة كثيرا عن الحدّ الأدنى لإنتاج الأصوات اللغوية. ويمكن تلخيص هذه النتائج في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
107.102 هرتز	162.464 هرتز	225.904 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	51.33 ديسيبل	54.40 ديسيبل	شدّة الصوت (Intenisy)
2.69 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 195 من سورة الشعراء

وقال أيضا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 83].

صحيح أنّ ظاهر هذا التركيب هو عبارة عن خبر، غير أنّ باطنه يحمل دلالة أخرى غير الإعلام، فلا يُقصد بالخبر هنا الفائدة أو لازم الفائدة، بل المراد هو تأنيب المكذّبين بآيات الله وتوبيخهم على إنكارهم لوجود يوم الحساب. يقول "ابن كثير" في تفسيره للآية الكريمة مشيرا فيه إلى هذه الدلالة: «يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذّبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عزّ وجلّ، ليسألهم عمّا فعلوه في الدار الدنيا تقريبا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا...»⁽¹⁾.

التوبيخ في الأداء - كما رأينا - من مواضع الخفض، لكونه مصحوبا بدلالة العتاب، لذا فإنّ الآية تُؤدّي على طول مقاطعها الصوتية بنغمة هابطة (المدى السلبي الهابط)، تبكيها للمنكرين، وتصغيرا لشأنهم.

• الخبر للزجر والردع:

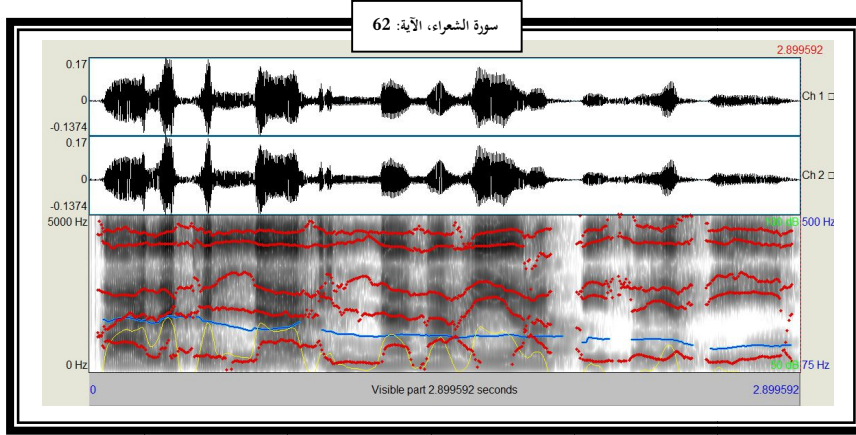
قال تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 62].

الخبر وهنا جاء إنكاريا مؤكّدا بأداتين هما: "إنّ" وحرف الزيادة "السين"، وذلك لدفع الشكّ، واستبعاد لسوء الظنّ، فأصحاب موسى لمّا رأوا فرعون وجنوده وراءهم والبحر أمامهم ساءت ظنّوهم، فجاء الخبر من موسى مؤكّدا بأنّ الله سبحانه وتعالى سيرعاهم، ويتكفّل بحفظهم ونصرتهم على عدوّه وعدوّهم، وكان دافع موسى للتأكيد هو زجر هؤلاء وردعهم على سوء الظنّ بالمولى عزّ وجلّ. يقول "الصابوني" في بيان هذا المعنى: «أي قال موسى: كلاًّ لن يدرككم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا، إنّ ربّي معي بالحفظ والنصرة، وسيهديني إلى

(1)- ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2159.

طريق النجاة والخلاص...»⁽¹⁾.

والخبر يلائمه نغمة هابطة، إلا أنّ الأداء قد يؤثر في هذا المنحنى، ويغيّر اتجاهه حسب ما يحمله من معنى، لذا فإنّ من المناسب لمثل هكذا أغراض أن تكون نغمة الأداء صاعدة شديدة، وبتزمين وإيقاع سريعين، تأنيباً للمزجور، وردعا له للوقوع في مثل هذه التصرفات (الأفعال)، فضلا عن حاجة التوكيد لشحنة موسيقية مرتفعة. يقول "أحمد البايبي" في بيان المقصود: «ويؤظّف منحنى الرفع كذلك لإثبات الخبر وتأكيدّه»⁽²⁾، وقال في موضع آخر في السياق ذاته: «إنّ صور التوكيد عموما تعتمد على منحنى الرفع»⁽³⁾، لينتهي المنحنى التنغمي بنغمة هابطة تشمل أواخر المقاطع الصوتية للآية. وهذا ما يوضّحه الشكل التالي:



الشكل رقم: 13

يبدو جليا من خلال الشكل أنّ هناك جهد نطقي مبدول أثناء أداء هذه الآية، بغرض إظهار دلالة الزجر والردع الذي خرج إليها الأسلوب الخبري فيها، وخير دليل على ذلك ما شهدته المنحنيين الأزرق والأصفر من ارتفاع ملحوظ في بداية الآية، دليل على علو درجة الصوت وزيادة شدّته، ليتدرّجا شيئا فشيئا نحو الانخفاض نهاية الآية مشكلان إيقاعا تنازليا ↘ ، وهذا ما سنوضّحه أكثر في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
137.930 هرتز	174.640 هرتز	227.272 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	58.62 ديسيل	67.18 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
2.90 ثانية			التزمين (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 62 من سورة الشعراء

(1)- الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص351.

(2)- أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوابة الإيقاعية، ج1، ص290.

(3)- المرجع نفسه، ص292.

وفي موضع آخر من سور الطواسين يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَهُوَ﴾

الْحِكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ [سورة القصص، الآية: 70].

هذا الخبر إنكاري أيضا اشتمل على أداة توكيد وهي ضمير الشأن (هو)، إلى جانب اسمية الجملة، والتي تعدّ هي الأخرى من المؤكّدات التي يستعملها المخاطب قصد إثبات حجّته وتقويتها، فالخطاب في الآية موجّه للكفرة والمشركين، وفيه تأكيد على استحقاق العبادة لله وحده لا شريك له فيها، وذلك بعد التأكيد على أنّه سبحانه هو الخالق، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، لا اعتراض لأحد على حكمه، ينتقل الخطاب بعدها للتأكيد على تنزّهه سبحانه بأن ينازعه أحد في ملكه، أو يشاركه في اختياره، وهو وحده عالم بما تخفيه قلوب الكفرة من عداوة للرسول والمؤمنين كافّة، وهذا كلّ من باب الزجر والردع أيضا. يقول "الرازي" (ت: 604هـ أو 605هـ أو 606هـ) مفسّرا الآية ومشيرا إلى هذا الغرض: «وفيه تنبيه على كونه قادرا على كلّ الممكنات وعالما بكلّ المعلومات، منزّها عن النقائص والآفات، يجازي المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم، وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة، ونهاية تقوية القلب للمطيعين...»⁽¹⁾.

والآية تُتلى مثل سابقتها بنغمة مرتفعة، لأنّ غرض الزجر يحتاج إلى قوّة في النطق وجهد في الأداء، لكنّها سرعان ما تتّجه نحو الهبوط في نهاية الآية لتشمل المقاطع الصوتية الأخيرة منها عند قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح]، وهو موضع التسليم؛ أي مهما قدّمتم فمصيركم إلى الله لا محالة.

ومثل هذه الحالة قوله جلّ وعلا في السورة ذاتها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ

وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصّٰدِقُونَ ﴿٨٠﴾ [سورة القصص، الآية: 80].

هذه الآية جاءت في قالب إخباري، لكن لا يُقصد أيضا من ورائها لا الفائدة ولا لازمها، كما لا يُطلب من المخاطب بها تصديق فحوى الخبر الوارد فيها أو تكذيبه، بل يُراد منها الزجر، ولفظة "ويلكم" التحذيرية تكفي للدلالة على ذلك. يقول "الزخشري" في بيان المقصود: «وَيْلَكَ أصله الدعاء بالهلاك، ثمّ استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يُرتضى، كما استعمل لا أبا لك، وأصله الدعاء على الرجل»⁽²⁾.

والآية من الناحية التنغيمية إيقاعها متذبذب؛ إذ تُستهلّ بنغمة تقريرية مستوية تمتدّ لتشمل قوله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، ثمّ تتّجه نحو الصعود موضع الزجر، أي عند قوله تعالى: ﴿وَيْلَكَ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن

(1) - محمد الرازي فخر الدّين بن ضياء الدّين عمر: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ/ 1981م، ص11.

(2) - الزخشري: تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج20، ص810.

ءَأَمَّنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٥٦﴾، ثم تعود من جديد إلى الاعتدال متّجهة نحو المهبوط أواخر المقاطع الصوتية ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا
الضَّيُّورُ﴾.

• الخبر للتهديد والتهويل:

من جملة المعاني التي يخرج إليها الخبر دلالة التهديد والتهويل. يقول المولى عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿فَقَدْ
كَذَّبُوا فَسِيئَتِهِمْ أَلْبَسُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 06].

نلمس في الآية وعيدا وإنذارا بالهلاك لهؤلاء المشركين المكذّبين لرسالة محمد ﷺ، يظهر ذلك جلياً من خلال ما تحمله عبارة "فسياؤتيكم" من تهديد بشدّة العذاب في الدنيا والآخرة، لذا فإنّ الخبر هنا جاء مؤكّدا على هول هذا العذاب، وأنّه سيحلّ عليهم إن عاجلا أو آجلا. يقول "الألوسي" (ت: 1270هـ) في بيان هذا الغرض: «وفيه تهويله له، لأنّ النّبأ يُطلق على الخبر الخطير الذي له وقع عظيم، أي فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزئون به قبل، من غير أن يتدبّروا في أحواله ويقفوا عليها».⁽¹⁾

في شأن ذي صلة يقول "مأمون حمّوش" مفسّرا الآية، وموضّحا الغرض فيها من الخبر: «وعيد وإنذار وتهديد بالهلاك والدمار لأولئك المتمادين في تكذيبك يا محمد».⁽²⁾

هذا، وقد يُحافظ الخبر على نمطه التنغمي (النعمة المنخفضة)، وقد تتحوّل نعمته إلى مستوية أو عالية، أو مزيجا من هذه الأنماط، مشكّلة في ذلك منحني إيقاعيا متذبذبا، كلّ ذلك منوطٌ بالسياق الذي يوجد فيه.

عموما وفي سبيل استحضار دلالة الوعيد في الآية، فإنّ تأديتها تكون بنعمة مستوية صاعدة، لأنّ الوعيد والتهديد من مواطن الرفع في الأداء، شأنه في ذلك شأن كثير من الدلالات الأخرى على غرار النفي المحض، والتعجّب والأمر والنهي وهلمّ جراً. قال "أحمد البايبي": «إنّ الصوت يرتفع مع كلّ الأدوات التي حملها النّحاة معنى النفي أو الجحد، أو قُل مع كلّ المعاني الدالة عليهما، إلّا أنّ الصوت يرتفع عند تحقيق جمل أخرى تشترك مع النفي والجحد في الانتساب إلى الجمل الخبرية وهي: التعجّب والوعد والوعيد...».⁽³⁾

وفي موضع آخر من السورة عينها يقول الله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَمْنُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَأَذْنَ لَكَ ءِأَنَّهُ لَكَ كِبْرُ الَّذِي ءَعَمَّكَ السِّحْرَ
فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَجْزُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَتُّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 49].

تُحدّثنا الآية التي بين أيدينا عن توعّد فرعون الطاغية للفته التي آمنت بالآية العظيمة، التي أظهرها الله عزّ

(1)- شهاب الدّين السيّد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج19، تح: محمود شكري الألوسي

البغدادي، إدارة الطباعة المنيرية ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دس، ص 61.

(2)- مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصّحيح المسنون- تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص 459.

(3)- أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص 289.

وجلّ على يد نبيّه موسى عليه السلام، إذ أنّهم آمنوا بموسى دون أن يستأذنوا فرعون في ذلك وهو الذي علّمهم السّحر، فلا يخفى على أحد ما تحمله عبارة "فلسوف تعلمون" من تهديد شديد لهؤلاء المخالفين. هذا ويمكن تقسيم الآية أعلاه قسمين من ناحية ما فيها من إخبار؛ الخبر في كليهما جاء إنكارياً، تضمّن الأول خمس أدوات توكيد هي: {الحرف الزائد "أن"، إنّ التوكيدية، لام التوكيد في موضعين، سوف}، وحوى الثاني على أداتين هما: {لام التوكيد في موضعين}، ومّا لا شكّ فيه أنّ التوكيد ههنا خادم للغرض الذي خرج إليه الخبر في الآية، ألا وهو التهديد؛ وذلك على مستويين: الصوتي والدلالي؛ فأما الصوتي فإنّ التأكيد شأنه شأن التهديد من مواضع الرفع في الأداء امتثالاً لقول "أحمد البايي": «ويوظّف منحنى الرفع كذلك لإثبات الخبر وتأكيدّه»⁽¹⁾، وأما الدلالي فإنّه يحيل هنا على حتمية وقوع العذاب لا محالة. يقول الإمام "الرازي" مبيناً خروج الخبر إلى غير ما وُضع لأجله: «فلسوف تعلمون: وهو وعيد مطلق وتهديد شديد»⁽²⁾، ويضيف في هذا الصدد: «لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبناكم أجمعين، وهذا هو الوعد المفصل، وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والطلب معلوم، وليس في الإهلاك أقوى من ذلك...»⁽³⁾.

يكون الأداء في هذه الآية بتنغميم مستوٍ صاعد على طول مقاطعها الصوتية، ليشهد المنحنى اللحني في النهاية انخفاضاً محسوساً موضع اكتمال المعنى، غير أنّ ما يميّز أداء هذه الآية وجود سكتة إيقاعية خفيفة في موضعين تستدعي إليهما الدلالة الصوتية التي تحمها الآية، الأولى بعد كلمة (لكم)، والثانية بعد كلمة (تعملون). من الأمثلة الأخرى التي خرج فيها الخبر إلى غرض التهديد أيضاً في سورة الشعراء قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 88].

الظاهر من خلال سياق الآية إلى جانب كيفية أدائها أنّ الخبر فيها لا يُراد به الإعلام بشيء مجهول لدى المخاطب، بل المقصود منه التهويل والوعيد. يقول "الألوسي" موضحاً سبب هذا الخبر: «جاء به تأكيداً لتهويل ذلك اليوم، وتمهيداً لما يعقبه من الاستثناء»⁽⁴⁾ الوارد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَّنْ أَلَّهِ بِقَلْبِ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 89]، فلا ينفع الإنسان المفرط والمقصر في جنب الله يوم ذاك لا مالٌ ولا ولدٌ، وكلّ ما ينفعه أن يكون سجلاً خالياً من الذنوب والمعاصي، خالصاً من حبّ الدنيا وشهواتها.

والآية مثل سابقاتها تُؤدّي هي الأخرى بنغمة مستوية صاعدة من بدايتها إلى نهايتها، لتبدأً بالانخفاض بعد

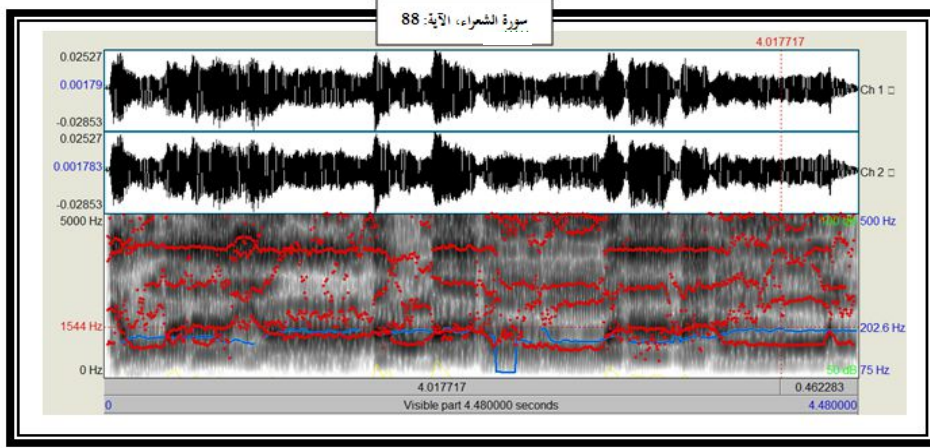
(1) - أحمد البايي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوتية الإيقاعية، ج1، ص290.

(2) - الرازي: تفسير الفخر الرازي، ج24، ص135.

(3) - المرجع نفسه، ص ن.

(4) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج19، ص100.

الاستثناء الوارد في الآية التي تليها، دليل على اكتمال المعنى. والشكل رقم 14 يوضح ذلك:



الشكل رقم: 14

إذاً، فالصورة أعلاه توضح الوتيرة التي يسير وفقها المنحنى النغمي الخاص بالآية 88 من سورة الشعراء، يبدو ذلك جلياً من خلال مخطط الموجات الصوتية، ويتجلى أكثر من خلال المنحنى الأزرق، الذي يبدأ في وضعية معتدلة ثم يرتفع نسبياً عن المستوى الذي بدأ به، هذا ويمكن تلخيص نتائج التحليل كما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
88.557 هرتز	184.089 هرتز	204.295 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.20 ديسيبل	55.02 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
4.48 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 88 من سورة الشعراء

وقال أيضا في آخر آية من هذه السورة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرٍ وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 227].

في الآية كما هو واضح خبير واستفهام، وكلاهما خرجا إلى غير ما وُضعا له من معاني أصلية إلى غرض التهديد والوعيد. قال "الألوسي": «تهديد شديد ووعيد أكيد لما في (سيعلم) من تحويل متعلقه، وفي (الذين ظلموا) من الإطلاق والتعميم»⁽¹⁾، وقال "الصابوني" في تفسير الآية ذاتها: «وعيد عام في كل ظالم تفتت له القلوب، وتتصدع له الأكباد، أي وسيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاؤون أي منقلب ينقلبون؟ أي أي مرجع يرجعون إليه، وأي مصير يصيرون إليه؟ فإن مرجعهم إلى العقاب، وهو شر مرجع،

(1) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 19، ص 152.

ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير». (1)، وفصل بدوره "سيد قطب" متحدّثا عن هذه الدلالة قائلا: «وتُختم السورة بهذا التهديد الخفيّ الجمل (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون) السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم واستهتارهم بالوعد واستعجالهم بالعذاب، كما اشتملت على مصارع المكذّبين على مدار الرسالات والقرون، تنتهي بهذا التهديد المخيف الذي يلخص موضوع السورة، وكأنّه الإيقاع الأخير المرهوب، يتمثل في صور شتى، يتمثلها الخيال ويتوقّعها، وتزلزل كيان الظالمين زلزالا شديدا». (2)

إنّ الآية من الناحية الأدائية تُقرأ في بدايتها بنغمة هابطة هادئة موضع استثناء تلك الفتنة من الشعراء التي تطابق أقوالها أفعالها، أي تشمل قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾، ليرتفع الصوت بعدها موضع التهويل والتهديد الذي خرج إليه كلّ من الخبر والاستفهام كما ذكرنا آنفاً، أي عند قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، حيث تُؤدّي هذه المجموعة المقطعية كلّها بتنغيم مستوٍ صاعد.

قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 37].

يبدو من الوهلة الأولى أنّ الخبر هنا جاء لأداء الغرض الذي وُضع له في الأصل وهو الإعلام والإفادة، لكن إذا ما أمعنا النظر أكثر، وقلّبنا الآية في أذهاننا لاّتضح لنا أنّ الخبر قد خرج إلى معنى مجازي هو: الوعد والوعد؛ فالخبر الذي جاء بأكثر من مؤكّد {إنّ، ولام الابتداء} فيه تنبيه الله لعباده على سعة جوده وكثرة أفضاله، وكان الواجب عليهم في مثل هكذا حالة شكره على نعمته، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن شكره، واشتغلوا بالنعم وتناسوا المنعم، وهذا علّة ما في الآية من وعيد. يقول صاحب "تفسير الميزان" متحدّثا عن الغرض الذي خرج إليه الخبر في الآية، ومفسّرا معناها: «معنى الآية في نفسها ظاهر، ووقوعها في سياق التهديد والتخويف يفيد أنّ تأخيرها تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك، إنّما هو فضل منه عليهم، يجب عليهم شكره عليه، لكنّهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله». (3)

والآية تُفتّح من الناحية الصوتية مثل سابقتها بالنغمة المستوية الصاعدة، لتُسجّل انخفاضاً في المقطع الختامي منها.

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، ج19، ص365.

(2) - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، ص2623.

(3) - السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج15، تح: السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، دب، دط، دس، ص389.

في آخر آية من سورة النمل يقول الله جلّ وعلا: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ أَيَّتِيهِم فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 93].

تضمّنت الآية خبراً، ولكنّه ليس للإفادة ولا للازمها، ولا يُراد من صاحبه تصديق فحواه أو إبطاله، بل هو على سبيل المجاز لا الحقيقة، حيث خرج لِيُؤدّي معنى آخر هو: التهديد، ألا ترى ما في عبارة: (سيريكم آياته) من وعد، وفي قوله: (وما ربك بغافل عمّا تعملون) من وعيد. قال "الثعالبي" (ت: 875هـ) في هذا الباب: «سيريكم آياته: توعدّ بعذاب الدّنيا كبدر ونحوه، وبعذاب الآخرة، وما ربك بغافل عمّا تعملون: فيه وعيد». (1)، وأضاف "الصابوني" قائلاً: «سيريكم آياته فتعرفونها: تهديد ووعيد؛ أي سيريكم آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الأنفس والآفاق، فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة، وما ربك بغافل عمّا تعملون: أي وما ربك بغافل عن أعمال العباد، بل هو على كلّ شيء شهيد، وفيه وعدٌ ووعيدٌ». (2)

كما سبقت الإشارة فإنّ التراكيب التي تحمل دلالة التهديد والوعيد، تُصنّف ضمن مواطن الرفع في الأداء، وعلى هذا الأساس فإنّ الآية تُستهلّ بنغمة عالية موضع الأمر الحقيقي: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، تليها نغمة مستوية صاعدة مع باقي المقاطع الصوتية، لتشهد هذه النغمة هبوطاً وأخر مقاطع الآية.

• الخبر للجحد:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ نُهُمَآ إِلَيْنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة النمل، الآية: 13].

إنّ الكلام الذي تحمله ألفاظ الآية الكريمة، قابل للحكم عليه وعلى قائله بالصدق أو الكذب، لأنّه ببساطة يندرج ضمن دائرة الخبر، ففي الآية تصويرٌ لردّة فعل فرعون وقومه تجاه الآيات البيّنة^(*)، التي أظهرها المولى عزّ وجلّ على يد موسى عليه السلام، والتي قُوبلت بالرفض القاطع والنفي المطلق من فرعون الطاغية وقومه التابعين له، والحقيقة أنّ ما ورد في هذه الآية من خبر لا يُراد به الفائدة ولا لازم الفائدة أيضاً، بقدر ما يُراد به إبراز مدى إنكار هؤلاء لآيات الله وجحدهم لها، فالمعنى الذي خرج إليه الخبر الابتدائي هو: الجحد والنفي، بدليل قوله تعالى في الآية الموالية: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 14]. لذا فإنّ الآية تُقرأ صوتياً تماشياً مع هذه الدلالة بنغمة صاعدة على حدّ قول "أحمد البايبي": «رفع الصوت

(1) - عبد الرحمن بن محمّد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المالكي: تفسير الثعالبي المسمّى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج4، تح: علي محمّد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وعبد الفتاح أبو سنّة، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م، ص262.

(2) - الصابوني: صفة التفاسير، مج2، ج20، ص387.

(*) - فالآيات عشرة هي: اليد، والتسع: القلْبُ (انفلاق البحر وهو أعظمها)، والعصا، والجراد، والثَّمَل، والطوفان، والدّم، والضفادع، والسّنين (القحط)، والطمس. ينظر: ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص232. وكذا: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته

من السّنة وآي والنشر والتوزيع، ج6، ص111.

إذا يكون في جملة النفي وجملة الجحد...»⁽¹⁾.

إذاً، فدلالة الجحد دلالة خاصّة تنطوي ضمن دلالة أعمّ هي النفي، بيد أنّ بينهما اختلافا طفيفا. يقول "السيوطي" مبيّنا أوجه التباين بين الدالّتين: «والفرق بينه وبين الجحد أنّ النافي إن كان صادقا سمّي كلامه نفيا ولا يُسمّى جحدا، وإن كان كاذبا سمّي جحدا ونفيا أيضا، فكلّ جحد نفي وليس كلّ نفي جحدا»⁽²⁾.

ففرعون هنا يدرك جيّدا مدى صدق موسى في دعوته، والدليل على ذلك ما رآته عيناه، ولكنه كاذب في نفيه (الإنكار مع العلم بالأمر)، لذا فإنّ الخبر في قوله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ خرج إلى غير ما اقتضاه ظاهر الكلام إلى معنى الجحد، وعليه فإنّ الآية تُثلي بنغمتين متباينتين؛ الأولى تقريرية مستوية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ نَهْرًا يَلْتَنِيْنَا مُبْصِرَةً﴾، والثانية صاعدة عند قوله: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تماشيا مع الدلالة المقصودة، وغير خاف أنّ التركيب ههنا لم يستند على أيّ أداة نحوية لأداء هذا المعنى، بل قام التنغيم عن طريق رفع الصوت بهذه المهمة. يقول "مزاحم مطر" في بيان مساهمة التنغيم في تحديد معنى الكلام وتوجيه غرضه: «يعدّ عنصر التنغيم ركنا أساسيا في الأداء، يتحكّم على نحو واضح في تحديد المعنى وتوجيهه، اعتمادا على كيفية نطق الجملة وتنغيمها، إذ أنّ تغيير النغمة قد يتبعه تغيير في الدلالة في كثير من اللغات»⁽³⁾، ويتابع قائلا: «إنّ الجملة تتعدّد دلالتها باختلاف التنغيمات التي تنطق بها، فطرق الأداء التي يتمّ بها نطق الجملة له أثر كبير في المعاني المراد إبلاغها»⁽⁴⁾.

يتضافر مع التنغيم كظاهرة تطريزية في هذه الآية فونيم ثانوي آخر لا يقلّ شأنًا عنه في بيان المعنى، ليقف معرّزا للفكرة التي سقناها، ألا وهو: فونيم النبر، هذا الأخير الذي وقع في قوله تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ في أكثر من موضع كما يلي:

هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ
 ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح
 السر الثانوي السر الأوّل (الرئيسي)

فالمقطع المنبور هنا نبرا ثانويا يُكوّن مع الذي يفصله عن المقطع المنبور نبرا أوليا (رئيسيا) النسق التالي:

مقطع متوسط مغلق + مقطع قصير مفتوح

- (1) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 263.
- (2) - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص 572.
- (3) - مزاحم مطر حسين: أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)، ص 40.
- (4) - المرجع نفسه، ص 42.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

وقد ورد النبر الرئيسي في الآية في شكل مقطع طويل ناتج أساسا عن الوقف، وهذا ما يُطلق عليه علماء التجويد بنبر المدّ العارض للسكون^(*)، يسبقه مباشرة مدٌّ آخر جاء في شكل مقطع قصير مفتوح، توسّط النبرين الثانوي والرئيسي يُطلق عليه: نبر مدّ الغنة للإدغام الناقص^(**)، ومما لا ريب فيه أنّ توالي ثلاثة أنبار كلّها وردت في موضع الجحد، من شأن ذلك أن يقوّي هذه الدلالة ويزيدها تثبيتا في الذهن أكثر، خصوصا إذا علمنا أنّ ما يميّز النبر من الناحية الفسيولوجية حاجته إلى مسافة زمنية تُخْتَزَل في ذلك الارتكاز على مقطع معيّن من الكلمة قصد إبرازه أكثر، هذا الضغط يصاحبه زمن معيّن، كالزمن الذي يُرافق أداء الغنة، أو تطويل الصوت والاستمرارية في الأداء على التّفسّ ذاته أثناء اللجوء إلى الوقف على كلمة، يكون حرف المدّ فيها واقعا قبل آخر حرف يقع عليه القارئ بالسكون، وهذه الاستمرارية من شأنها أن تشترك مع دلالة الجحد، لأنّ فرعون على الرغم ما رآه من معجزات على يد موسى ~~عليه السلام~~، إلاّ أنّه كفر وطغى، بل واستمرّ في نفيه لنبوة موسى، وإنكاره لحقيقة وجود إله سواه.

والشكل رقم 15 يبيّن أثر التنغيم والنبر في تحديد المعنى وتوجيه الغرض من خلال المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية:

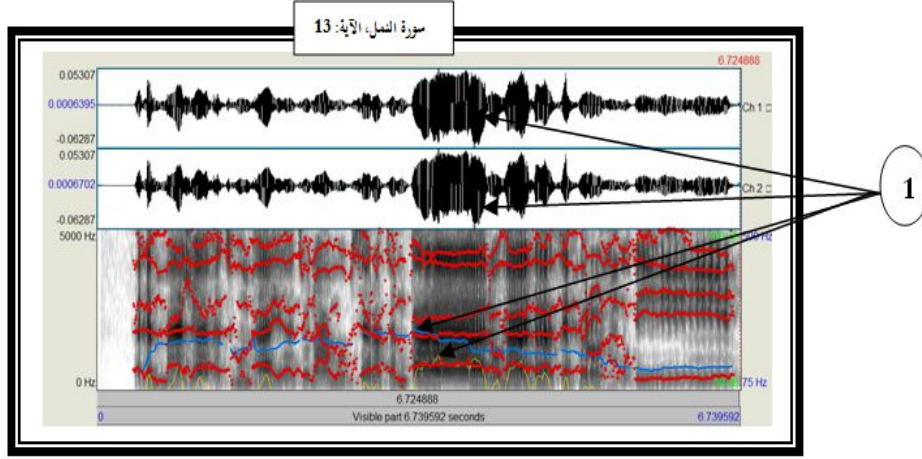
(*)- المدّ العارض للسكون هو: المدّ الحاصل من وقوع حرف ساكن سكونا عارضا بعد حرف المدّ، ويجوز الوقف على هذا النوع بالقصر (حركتان)، والتوسّط (أربع حركات)، والمدّ أو الإشباع (ست حركات)، ويبرز النبر في هذا النوع أكثر أثناء التوسّط، ويزداد بروزا في حالة الإشباع. ينظر: محمّد عصام مفلح القضاة: الواضح في أحكام التجويد مع أسئلة للمناقشة وتمريبات، تح: أحمد خالد شكري، وأحمد محمّد القضاة، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، دط، ص 94.

(**)- الإدغام هو: التقاء حرف ساكن بحرف متحرك بحيث يصيران حرفا واحدا مشددا، يرتفع اللسان عند النطق بهما ارتفاعا واحدة. وحروف الإدغام ستة، يجمعها لفظ (يرملون)، وعلى أساسها ينقسم إلى قسمين: إدغام تامّ (بغير غنة) خاص بحرفي اللام والراء، وإدغام ناقص (بغنة)، خاص بالأحرف الأربعة المتبقية التي يجمعها لفظ (ينمو) أو (يومن) وهو ما يهتمنا في هذا الموضوع.

ومعنى الإدغام الناقص: إدخال النون الساكنة أو الناجحة عن التنوين في الحرف الثاني، مع بقاء الغنة في قلب النون أو التنوين، ثمّ تنتهي من الغنة بنطق الحرف التالي والذي يجب أن يكون أحد الأحرف الأربعة المذكورة، وإتّما سميّ ناقصا لعدم اكتمال تشديده بسبب الغنة الملازمة له، أو لذهاب الحرف وهو النون والتنوين وبقاء صفته فقط وهي الغنة، على عكس الإدغام التام الذي ذهب فيه الحرف المدغم وصفته معا، أو لعدم وجود الغنة التي تتمتع من كمال التشديد فيه.

هذا، ويتجج النبر في الإدغام الناقص من خلال غنته التي تحتاج إلى مسافة زمنية مقدّرة بحركتين. ينظر: أحمد محمود عبد السميع الشافعي: الوافي في كيفية ترتيل القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم الكوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م، ص31. وكذا: فهمي علي سليمان: المنير الجديد في أحكام التجويد، دار النصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1990م، ص ص17-18.

وكذا: الحصري: أحكام قراءة القرآن الكريم، ص ص 174، 177.



الشكل رقم: 15

يمثل الرقم 1 في الصورة أعلاه المساحة الصوتية التي تعرف ارتفاعا في طبقة الصوت، وهو موضع الجحد الذي خرج إليه الخبر في هذه الآية، يتضح ذلك جليًا من خلال الموجة الصوتية التي عرفت كثرة في عدد ذبذباتها الصوتية وشهدت سرعة أكبر في حركتها مقارنة مع مواضع أخرى متفرقة في الآية، إلى جانب ذلك ارتفاع المنحنى الأزرق (الدرجة الصوتية)، وكذا ظهور المنحنى الأصفر (شدة الصوت) دليلا على وجود مجهود عضلي مبذول أثناء قراءة هذا الموضع. وقد كانت هذه المساحة مسبقة بنغمة مسطحة كما هو موضح في المخطط، ومتبوعة بنغمة مسطحة إلى هابطة آخر الآية، ويمكن تلخيص هذه النتائج في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
181.755 هرتز	122.790 هرتز	237.610 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54.74 ديسيل	60.46 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
6.74 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 13 من سورة النمل

• الخبر للتعجب:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 19].

الآية تخبرنا عن الواقعة التي حدثت لسليمان عليه السلام وجنوده مع النمل، وذلك لما صاحته نملة أمرة رفيقاتها بأن يعجلوا في الدخول إلى مساكنهم، خوفا من تحطيم سليمان وجنوده لهم وهم لا يشعرون بذلك، وهذه نعمة من النعم التي مَنَّها المولى عزَّ وجلَّ على سيدنا سليمان؛ إذ سمع كلامها وأدرك مقصودها، وهذا ما دفعه للتبسم

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

تعجبا وسرورا بما سمعه منها، من ثناء عليه وعلى جنوده، إذ وصفتهم بالتقوى والتحفّظ من إلحاق الضرر بالحيوان، فشكر الله على نعمه وفضله عليه. يقول "أبو السعود" (ت: 982هـ) مفسرا الآية وموضحا هذا المعنى: «تعجبا من حذرهما واهتدائهما إلى تدبير مصالحتها ومصالح بني نوعها، وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشّفقة، فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدها من إدراك أمثال هذه الأمور، وابتهاجا بما خصّه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم مرادها».⁽¹⁾

وما ورد في الآية من أفعال الأمر، هو في الحقيقة ليس المراد منها إلزام المخاطب القيام بالفعل وجوبا، لأنّ ذلك يكون على وجه الاستعلاء، وهذا لا يصلح مع الخالق عزّ وجلّ، لذا فإنّ الأمر هنا خرج عن معناه الأصلي إلى غرض الدعاء: {أوزعني: أي ألهمني ووقّفتني يا رب لشكر نعمتك عليّ} و{أدخلني: أي اجعلني يا رب من عبادك الذين يدخلون الجنّة دار الرحمة}.

من المعلوم أنّ دلالة الأمر المحض من مواضع الرفع في الصوت، وخروجه ههنا إلى غرض الدعاء لا يغيّر من نمط الأداء في شيء، لأنّ الدعاء هو الآخر من مواطن الرفع، لاسيما إذا كانت الغاية منه الإصرار في الطلب، وفي هذا الصدد يقول "أحمد البايبي": «يُستثمر منحنى الرفع في التعبير عن الدعاء».⁽²⁾

وعليه فإنّ الآية التي بين أيدينا تُؤدّي في عموم لفظها بنغمة صاعدة ابتداء من موضع الخبر التعجّبي، الذي هو من مواطن الرفع في الأداء أيضا، أي عند قوله: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ﴾، وذلك مصداقا لكلام الباحثة "حسنية عزاز" الذي تقول فيه: «ويُحدّدُ التنغيم بحسب طبيعة الجملة أو نوعها، فنجد مثلا أنّ الجملة المثبتة تكون ثابتة التنغيم، في حين أنّه يرتفع في الجملة الطلبية، ويرتفع أكثر نسبة في الجملة التعجّبية...».⁽³⁾، ليُتبع هذا المنحنى بالنغمة ذاتها في الأجزاء المتضمّنة لأفعال الأمر الدالة على الدعاء، إلى أن تشهد هذه النغمة انحدارا ملحوظا نهاية الآية، أين يكون موضع الوقفة، وبالتالي تمام المعنى واكتماله، مع وجود سكتات خفيفة ذات انتقال سلس، الغرض منها أخذ النّفَس برهة من الزمن بعد كلّ من الكلمات التالية: (وقال، والديّ، ترضاه).

• الخبر للتحذير والتخويف: هو الذي يفيد تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنّب، ومثاله قول النبيّ

(1)- أبو السعود محمّد بن محمّد العمادي: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دس، ص279.

(2)- أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوابة الإيقاعية، ج1، ص292.

(3)- عزاز حسينة: دلالة البنية ما فوق المقطعية في اللغة العربية (النبر والتنغيم)، مجلة التعليمية- مجلة علمية دوليّة محكّمة نصف سنوية، تصدر عن مخبر تجديد البحث في تعليمية اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية، كآية الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي لياس، سيدي بلعباس، (الجزائر)، ع2، ديسمبر 2011م، ص107.

محمد ﷺ: {أبغض الحروب عند الله (الفرق)}⁽¹⁾.

ومن أمثله في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَدْ لُوْطٌ لَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِيْنَ ۗ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 167].

إنّ مثل هذا الخطاب يفتح المجال للمخاطب أو السامع الحكم على صدق فحواه أو كذبه، لكونه جاء في قالب إخباري، يضع المعني باستقباله موضع الشكّ حتّى في قائله، فهذا الخطاب موجّه من قوم لوط للوط، والمعنى: «لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنخرجتك من بين أظهرنا وننفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك؛ توعدّوه بالنفي والطرْد». ⁽²⁾

فواضح أنّ الخبر هنا خرج عن معناه الأصلي الظاهر، إلى غرض ضمني آخر هو: التحذير والتخويف، بل بلغ درجة الوعيد؛ فدلالة التحذير وما يصاحبها من وعيد يمثّلان الفعل الإنجازي الذي عُقد الكلام من أجله، بحكم أنّها معاني إضافية كامنة خلف المعنى السطحي للصيغة اللغوية.

إنّ الخبر كما نلاحظ جاء إنكارياً تضمّن أداتين للتوكيد هما: لام ونون التوكيد في كلمة (لتكونن)، وهذا إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على بلوغ قوم لوط أشدّ درجات الإنكار، فقد اشتهروا بفعالتهم الشنعاء التي لم يسبقها إليهم قوما من الأقسام وهي: إتيان الذكور التي حرّمها الله عليهم، وترك النساء اللائي أحلّهنّ الله لهم، يستمتعون بهنّ ويستمتعن بهم، فلمّا دعاهم لوط إلى ضرورة العدول على فعالتهم، وأنّه بريء ممّا يعملون، أنكروا عليه دعوته واستمرّوا على خطّهم، بل حدّروه من نصحه لهم، وهدّوه إن ظلّ يدعوهم إلى ترك ما يفعلون سيكون مصيره الطرد والنفي، فلم ينفذ فيهم لا وعظ ولا نصيحة، لذا عاقبهم الله من فوق سبع سموات بأن أمطر عليهم حجارة من السماء، وأنزل عليهم الكبريت والنّار وأحرقهم، وأحدث بأرضهم زلزالاً عنيفاً جعل عاليها سافلها.

والخبر قد يحافظ على نطاقه النغمي الخاص به وهو المستوى الهابط، وقد يتغيّر حسب الغرض الذي يفرضه السياق الموجود فيه. هذا ولاستدعاء غرض التحذير الذي خرج إليه الخبر في الآية، يقتضي أن تكون نغمة الأداء صاعدة، تتناسب مع الغرض وكذا مع السبب الذي أدّى إليه وهو الإنكار.

ما يزيد دلالة التحذير إيضاحاً وتمكيناً وقوع النبر الرئيسي (نبر المدّ العارض للسكون) كملمح تطريزي على آخر مقطع في الآية (المقطع الطويل = ص ح ح ص)، الوارد في الكلمة التي اختارها قوم لوط لتحذير لوط وهي: الإخراج (المُخرجين)، وذلك من شأنه أن يُكسب المعنى دقّة، ويمنحه بعداً جمالياً خاصّاً.

(1) - إنعام فوّال عكّاوي: المعجم المفصّل في علوم البلاغة - البديع والبيان والمعاني، ص 557.

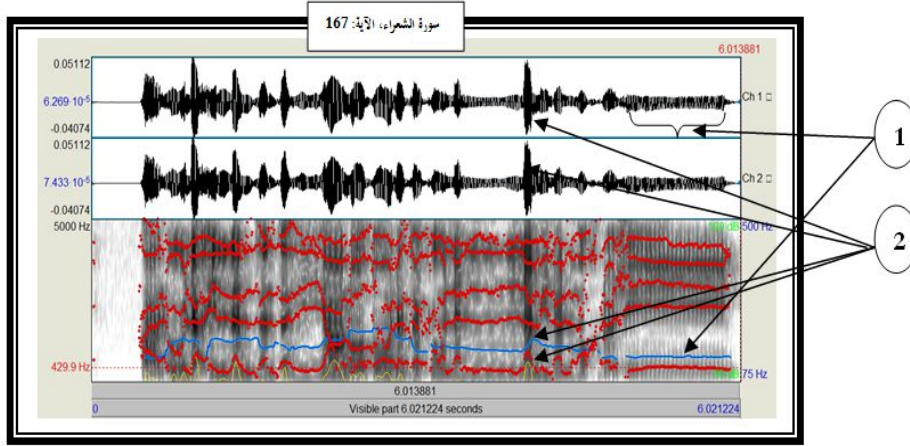
(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ج 19، ص 360.

مِنَ لُحْرِ جِي نَ
 ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ص
 السر الثانوي السر الرئيسي

النبر الثانوي هنا يمثل مع المقطع الذي يفصله عن المقطع المنبور نبرا رئيسيا أيضا الصيغة التالية:

مقطع متوسط مغلق + مقطع قصير مفتوح

ولتوضيح المنحنى الإيقاعي للآية أكثر نقدّم الشكل رقم 16:



الشكل رقم: 16

إنّ هذا الشكل يؤكّد ما ذهبنا إليه، حيث نلاحظ أنّ المنحنى الإيقاعي لغرض التحذير قد أخذ اتجاهها تنازليا، استهلّ بنغمة صاعدة وانتهى بنغمة هابطة وهي التي يمثلها الرقم 1 في المخطّط أعلاه، وهو الموضع ذاته الذي شهد نبرا على آخر مقطع في الآية (نبر المدّ العارض للسكون)، أمّا الرقم 2 فيوضّح عودة ارتفاع الصوت مجدّدا بعدما شهد اعتدالا في الطبقة الصوتية وهو موضع التأكيد باللام والنون، يظهر ذلك جليّا في الصورة الخاصة بالموجة الصوتية، وكذلك المنحنيين الأزرق (درجة الصوت)، والأصفر (شدة الصوت).

ثمّ إنّ ظهور المنحنى الأصفر في بداية الآية للدليل على أنّ القارئ قد قام ببذل جهد عضليّ أثناء قراءة المقاطع الأولى منها، واختفاؤه في النهاية للدليل آخر على انخفاض في طبقة الصوت، وبالتالي لا يكون القارئ حينئذ بحاجة إلى أيّ جهد في الأداء. وعلى العموم سنحاول أن نلتصّ النتائج التي أسفر عليها التحليل الأكوستيكي لمقاطع هذه الآية في الأرقام التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
124.314 هرتز	164.271 هرتز	215.974 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54 ديسيل	57.94 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
6.02 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 167 من سورة الشعراء

ويقول المولى عز وجل في موضع آخر: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآهَآ أَذًى وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 34].

قالت بلقيس ملكة سبأ إنه من عادة الملوك إذا استولوا على بلد ظلما، ودخلوه بالقوة عملوا على تخريبه، وإهانة أشرافه إما بالأسر أو بالتشريد أو حتى بالقتل، وكلامها هذا يُخفي في طياته معنا مبطنًا، فهي هنا لا تقصد إخبار قومها بفحوى ما تلفظت به، بل تحذّرهم مع توظيف أسلوب التوكيد (إنّ الملوك) من بأس سليمان عليه السلام حينما أشاروا عليها قتاله. يقول "المراغي" مشيرا إلى هذه الدلالة في سياق تفسيره للآية الكريمة: «وفي هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم».⁽¹⁾

وعليه فإنّ الآية تُفتتح بنغمة مرتفعة، لتتحوّل بعد ذلك إلى النغمة الهابطة نهاية الآية؛ أي عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أين يتمّ المعنى ويكتمل المراد.

في السورة ذاتها يقول المولى سبحانه وتعالى في موضع آخر: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 93].

إنّ الأصل في الخبر - كما رأينا - أن يُلقى إما لغرض الفائدة لأنّ المخاطب يجهل فحواه، وإما لغرض لازم الفائدة، وفيه يحاول المخاطب أن يُعلم المخاطب أنّه هو الآخر عارف بفحوى الخبر مثله تماما، لكن عادة ما يخرج الخبر لأغراض أخرى تُفهم من السياق وقرائن الأحوال وطرائق الأداء، بل بواسطة بعض الإشارات والإيماءات وتقاسيم الوجه، ومختلف التغيّرات الطارئة على ملامحه، لتتضافر جميع هذه العوامل قصد توجيه المعنى وتحديدّه، والآية التي بين أيدينا موضع من المواضع التي خرج فيها الخبر أيضا إلى معنى بلاغي هو التحذير، إلى جانب ما فيه من التسلية لمحمد عليه السلام. يقول "ابن عثيمين" في هذا الصدد: «هذه الجملة المقصود بها التحذير والتسلية؛ تحذير هؤلاء المكذّبين، وتسلية الرسول عليه السلام...».⁽²⁾

وهذه الآية تبدأ مثل سابقاتها بتنغيم عالٍ، ينخفض مستواه نهاية التركيب.

(1)- المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص89.

(2)- ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة النمل، ص542.

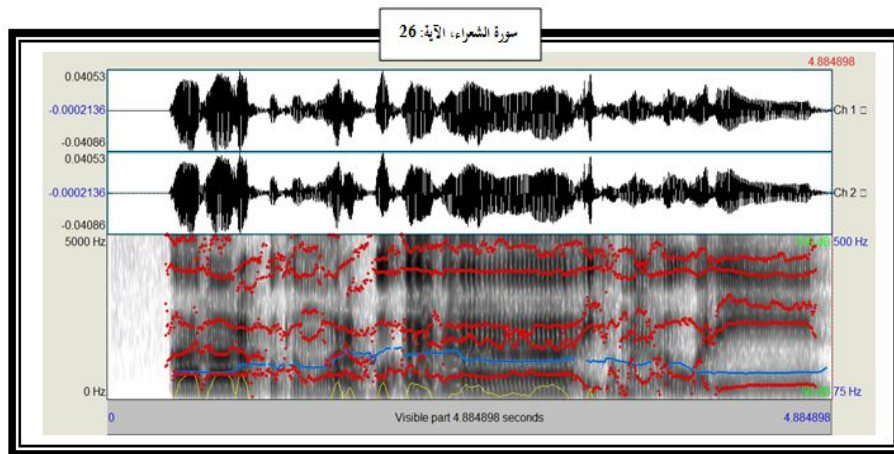
• الخبر للتنبيه:

من مواضع الغرض في سور الطواسين قوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 26].

هذا كلام سيّدنا موسى عليه السلام لفرعون وقومه، وهو خطاب جاء بعد استهزاء فرعون بموسى لما نقل له خبر وجود إله في السماء، لأنّه كان يدّعي الربوبية لنفسه فقط، فجاء موسى بهذا الخبر ليؤكد لفرعون مرّة أخرى بأنّ الله وحده هو خالقكم وخالق آبائكم من قبلكم، وأنّ وجودكم دليل قاطع على وجود أسلافكم، بل على وجود إله قادر أوجدكم كما أوجدهم، وهذا الخبر ورد من دون توكيد، لأنّ المنكر فيه تنزل منزلة خالي الذهن، لما في الخبر من أدلّة محسوسة وشواهد ملموسة، لو تأملها المنكر لارتدع وعدل عن إنكاره، فقد «انتقل بهم موسى من النظر في الآفاق وما فيها من باهر الأدلّة، إلى النظر في الأنفس وما فيها من عجيب الصنع، فإنّ التناسل المستمرّ في النبات والحيوان والإنسان، وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر في الآفاق»⁽¹⁾.

فالخبر هنا تجاوز فيه موسى عليه السلام الإفادة، بل كان يهدف من خلاله تنبيه هؤلاء على ضلالهم، ومع ذلك قابلوا الأدلّة بالنكران. يقول "أبو حيّان" في بيان خروج الخبر إلى غرض التنبيه: «حيث نبّههم بأنّه سبحانه هو منشئهم وخالقهم، وهو منشئ وخالق آبائهم أيضا»⁽²⁾.

والتنبيه في الأداء من مواطن الرفع، لذا فإنّ الآية تُتلى على مستوى جميع مقاطعها الصوتية بنغمة عالية، يُرشدنا النمط التنغمي فيها إلى الأثر الدلالي الذي أحدثه في التركيب، والذي أدّى إلى توجيه غرضه من الخبر إلى التنبيه. (انظر الشكل التوضيحي رقم: 17):



الشكل رقم: 17

(1)- المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص37.

(2)- أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج8، ص150.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

تُبيّن هذه الصورة النمط النغمي للآية 26 من سورة الشعراء، حيث نلاحظ أنّ أغلب مقاطع الآية شهدت علوا موسيقيا، يتناسب والغرض الذي خرج إليه الخبر ههنا وهو التنبيه عن الضلال، يظهر ذلك خصوصا في المساحة التي تمثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكُمُ الرَّبُّ وَرَبُّ آبَائِكُمْ﴾، ففي هذه المساحة يشتدّ الصوت، وهذه علّة ظهور المنحنى الأصفر عند هذا الموضع بالذات، وغيابه في الموضع الذي يليه، أي عند كلمة "الأولين". والجدول أسفله يبيّن الخصائص الفيزيائية المصاحبة لأداء الآية، ومختلف القيم التي تقابلها أثناء عملية القراءة على مستوى النطاق النغمي الذي يشملها.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
141.427 هرتز	165.006 هرتز	208.955 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.41 ديسيبل	57.29 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
4.88 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 26 من سورة الشعراء

وفي أواخر سورة النمل يقول المولى تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ بِإِنْمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ [سورة النمل، الآيتين: 91-92].

الخبر في الآيتين جاء مؤكداً بأداة "إنّما"، هذه الأخيرة التي تكرّرت على مستوى هذا النصّ ثلاث مرّات، إلى جانب تكرار حرف الزيادة (أنّ) الذي شهد هو الآخر ظهوراً في ثلاثة مواضع، هذا فضلاً على أنّ تكرارهما يمثّل وجهاً من أوجه التأكيد في الكلام، وواضح أنّ هذا الخبر لم يُقصد منه الإفادة فحسب، بل تنبيه خاتم الأنبياء سيّدنا محمد ﷺ قومه على ضرورة الإقلاع عن مختلف أنواع الفجور والمنكرات، إذ أنّهم تركوا عبادة ربّ مكّة، ونصبوا الأوثان فيها، ثمّ عكفوا على عبادتها، ومن دون شكّ أنّ هذا التنبيه فيه دعوة لهم إلى سبيل الرشاد، فالرسول ﷺ قام بأداء رسالته كما أمر بها، وأمّا عن مسألة الاهتداء والاستجابة للدعوة، أو الاستمرار على الضلال فمرجعه إليهم، فهي واقعة على مسؤولياتهم لا على الرسول. يقول "أبو السعود" في بيان هذا المعنى، وتحديد الغرض الذي خرج من أجله الخبر في الآيتين المذكورتين: «أمر ﷺ أن يقول لهم ذلك بعدما بيّن لهم أحوال المبدأ والمعاد، وشرح أحوال القيامة تنبيهاً لهم على أنّه قد أمّم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه، ولم يبق له ﷺ بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عزّ وجلّ، والاستغراق في مراقبته غير مبالٍ بهم، أضلّوا أم رشدوا، صلحوا أم فسدوا، ليحملهم ذلك على أن يهتمّوا بأمور أنفسهم، ولا يتوهّموا من شدّة اعتناؤه ﷺ بأمر دعوتهم أنّه ﷺ يُظهر لهم ما يلحّهم إلى الإيمان لا محالة، ويشغلوا بتدارك أحوالهم، ويتوجّهوا نحو التدبّر فيما شاهدوه من الآيات

الباهرة...»⁽¹⁾.

هذا، وتشهد الآيتان في أدائها تلوّنا إيقاعيا ومنحنا نغميًا متذبذبا بين الاستواء والصعود، وكذا الهبوط؛ إذ تُستهلّ بنغمة صاعدة تمتدّ لتشمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، لتفصل هذه النغمة عن النغمة التي تليها سكتة لطيفة ذات انتقال سلس، يغتنمها القارئ لأخذ النَّعْس، تليها مباشرة نغمة مسطّحة تشمل قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ، تُشَطّر هذا التركيب إلى نصفين سكتة أخرى، لتشهد النغمة بعد ذلك ارتفاعا بعض الشيء في الجزء المتبقي من الآية 92، لكنّها سرعان ما تعود إلى الانخفاض نهاية الآية دليلا على اكتمال المعنى، وتمام المقصود من الخبر.

ولعلّ من أشهر أنواع التنبيه في القرآن: التنبيه عن الخطأ، ورد منه في سورة القصص قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِأَلْمِيسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَ لَا يَقْلِحُ الْكٰفِرُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 82].

فالآية تصوّر لنا مشهد قوم قارون لما خسف الله به الأرض، بعدما كانوا يتمنون أن يزقهم الله بمثل ما رزق به من كثرة الأموال، غير أنّهم اكتشفوا بعد الواقعة أنّهم كانوا على ضلال وخطأ؛ فكثرة المال ليس علامة من علامات رضا الله سبحانه وتعالى على صاحبه، فالله وحده هو الذي يُعطي ويمنع، وهو الذي يوسّع على عباده وهو الذي يضيّق عليهم، وله في كلّ هذا الحكمة التامة ولا معقّب لحكمه، فهؤلاء القوم نادمون على التكذيب برسول الله وإنكار دعوتهم، ولولا لطفه سبحانه لأصابهم ما أصابه، لذا جاء الخبر ههنا موضّحا تنبّههم على خطئهم في تمنيههم منزلة قارون، وخير دليل على ذلك لفظ "ويكأنّ"، التي تكرّرت مرتين في الآية. يقول الإمام "الرازي" في معرض تفسيره للآية، وبيان توظيف اللفظة في التنبيه: «فاعلم أنّ (وي) كلمة مفصولة عن (كأنّ)، وهي مستعملة عند التنبيه للخطأ وإظهار التندّم»⁽²⁾.

وعليه فإنّ الآية تُفتتح بنغمة تقريرية ذات مدى نغمي مستوٍ، تشمل قوله ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِأَلْمِيسِ يَقُولُونَ﴾، تليها نغمة صاعدة موضع التنبيه، والتي تمتدّ لتشمل قوله: ﴿وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَ لَا يَقْلِحُ الْكٰفِرُونَ﴾، بيد أنّ هذه النغمة تتميز حاشيتها بنمط تنازلي، يبلغ حدّه إلى فاصلة الآية، أين تنتهي هذه الأخيرة بتنعيم هابط دلالة على تمام المعنى واكتماله.

(1) - أبو السعود: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 6، ص 306.

(2) - الرازي: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 25، ص 20.

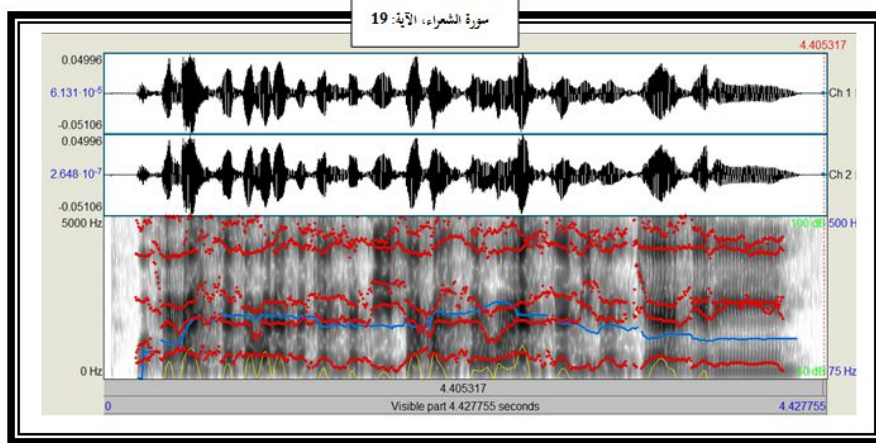
• الخبر للتعظيم والتهويل:

من أكثر الأغراض شيوعاً تلك التي يخرج إليها الخبر عن مقتضى ظاهره إلى معنى التعظيم والتهويل، ولعلّ من مواطنه في سور الطواسين قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 19].

الآية تحكي قصة سيدنا موسى عليه السلام قتله للقبطي، حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه، فما كان من فرعون إلا أن يردّ عليه تعظيماً لفعلة قائلاً: رَبِّينَاكَ بَيْنَنَا وَأَحْسَنَّا رِعَايَتِكَ، ثُمَّ قَابَلْتِ كُلَّ هَذَا بِأَنْ قَتَلْتِ رِجَالَنَا، وَجَحَدْتِ نِعْمَتَنَا عَلَيْكَ، أَهَكَذَا يَكُونُ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ؟ وفي هذا السياق يشير "الصابوني" في معرض تفسيره للآية إلى دلالة التعظيم والتهويل التي خرج إليها الخبر بقوله: «أي فجازيتنا على أن ربّيناك أن كفرت نعمتنا، وقتلت منا نفساً؟ والتعبير بالفعلة لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر».⁽¹⁾

في سبيل استحضار دلالة التعظيم كان لابدّ من رفع الصوت في الأداء، ولعلّ هذا النمط اللحني هو الذي يقف هنا محمّداً؛ يشكّل النقطة الفارقة بين الخبر الحض الذي يُؤدّي بنغمة مستوية قريبة إلى الانخفاض، وبين الخبر للتعظيم الذي يحتاج من دون شكّ إلى جهد عضلي أكبر، تعبيراً عن الاستنكار والزجر، لذا فإنّ الآية تُقرأ كلّها بتنغيم صاعد، مع إظهار ملامح الوجه لصور الاستنكار والتهويل. قال "مزاحم مطر": «وغرض التعظيم من الأغراض التي يناسبها ذلك التنغيم الصاعد، حيث يُؤدّي معنى الإشعار بعظمة ذلك الأمر».⁽²⁾

والشكل رقم: 18 يوضّح المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية:



الشكل رقم: 18

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص345.

(2) - مزاحم مطر حسن: أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)، ص45.

إذاً، صار واضح جداً أنّ التهويل من مواضع الرفع في الأداء، وما يزيد هذا الكلام تثبيتاً ما نلاحظه على المنحنى الأزرق، الذي يشهد في أغلب مساره ارتفاعاً في الدرجة الصوتية، وهاهو بدوره المنحنى الأصفر يعرّز هذه الفكرة، من خلال تردّد موجاته المستمرة خصوصاً في بداية الآية موضع التفضيع وتعظيم المسألة. وهذا ما سنثبته بالأرقام في الجدول أسفله:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
66.024 هرتز	214.426 هرتز	275.956 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54.49 ديسيل	60.12 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
4.43 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 19 من سورة الشعراء

وقال أيضاً في موضع آخر من السورة نفسها: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 87، 89].

أسلوب النفي ضرب من أضرب الخبر، الذي خرج هنا عن معناه الأصلي لبيان دلالة التهويل والتفضيع، بنبرة تحسّرية حزينة، ملؤها الخوف من الخزي والخسران في ذلك اليوم العظيم. يقول "سيد قطب" مصوراً مشاهد هذا اليوم، ومؤكّداً في الوقت ذاته التوجّه الدلالي الذي آل إليه التركيب الخبري هنا: «ونستشفّ من قول إبراهيم **الطَّالِبِ** ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ مدى شعوره بحول اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من التقصير وهو النبيّ الكريم، كما نستشفّ من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم...»⁽¹⁾.

إنّ المناسب لأداء هذه الآيات أن تكون نغمة الأداء عالية أيضاً، تتواءم والمشاعر التي تتخلّلها من: خوف وتهويل وتعظيم، لتتحوّل النغمة بعدها إلى هابطة آخر الآية، موضع الاستثناء وما بعده.

وفي مطلع سورة النمل يقول سبحانه وتعالى: ﴿طَسَّ تَلَكَّ تَلَكَّ ءَأَيْدُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 01].

تضمّنت الآية إخباراً عن عظمة القرآن، وما فيه من آيات بيّنة ظاهرة. يقول "السعدي" موضّحاً ذلك: «ينبّه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالّة على التعظيم، فقال (تَلَكَّ ءَأَيْدُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ)؛ أي هي: أعلى الآيات وأقوى البيّنات وأوضح الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، خير الأعمال وأزكى الأخلاق؛ آيات تدلّ على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كلّ عمل وخيم وخلق

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، ص2604.

ذميم...»⁽¹⁾.

ولما كانت الآية تحمل دلالة التعظيم المرتبطة بقدسية القرآن الكريم، فإنّ الملائم لها أن تُؤدّى بتنغميم عالٍ، يمتدّ ليشمل جميع مقاطعها الصوتية.

أما في سورة القصص، فيقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 68].

أي أنّ الله سبحانه وتعالى هو الخالق المتصرّف، يخلق ما يشاء وعلى الهيئة التي يشاء، يفعل ما يريد، ولا أحد يمكنه الاعتراض على حكمه، فالاختيار اختياري وحده، فهو جليل منزّه أن ينازعه أحد في ملكه، أو يشاركه فرد في اختياره، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عظّمته وقدرته جلّ وعلا.

بناء على هذا الكلام يتّضح جلياً أنّ الخبر الوارد في الآية لا يُقصد منه مجرد الإعلام والإفادة بفحواه، بل خرج هنا عن أصله إلى معنى باطني، تمثّل في تعظيم الخالق عزّ وجلّ. يقول "مأمون حمّوش" في بيان هذا الغرض: «تنزيه الله وتقديس وتمجيد، فهو المتفرد بالخلق والتدبير، لا ما يشرك به المشركون من الأنداد والأوثان والطواغيت»⁽²⁾.

والآية هي الأخرى تُقرأ في جميع مقاطعها الصوتية بنغمة واحدة وهي: النغمة الصاعدة، تمييزاً للكلام الخارج لمعنى التعظيم والتنزيه، عن نظيره الذي يكون فيه الخبر صرفاً، قصد الإفادة لا غير.

• الخبر للتحقير:

يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 60].

لا يُراد بهذا الكلام مجرد الخبر فحسب، بل إنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يصوّر لنا مدى حقارة الدنيا؛ هذه الدار الفانية الزائلة، في المقابل هي دعوة إلى التفكير وإعمال العقل والمقارنة بينهما وبين الدار الباقية، فالخبر هنا خرج عن معناه الحقيقي، وهو الإعلام إلى معنى التحقير. يقول "ابن كثير" مفسّراً هذه الآية: «يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم»⁽³⁾.

(1)- عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المئان، تح: عبد الرحمن بن مغللاً اللويحي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص571.

(2)- مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص639.

(3)- ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2184.

ومّا لا شكّ فيه أنّ للتنغم أثره في توجيه المعنى وتحديد الغرض المقصود منها، يبرز ذلك من خلال وضع الآية في إطارها الصوتي المناسب لها؛ فمعلوم أنّ التحقير من شأنه أن يُنقص من قيمة الشيء، بل من شأنه أن يزيله من الوجود، ولمّا كان الأمر كذلك، فإنّ النمط التنغمي المناسب لأداء هذه الآية هو المستوى الهابط، حيث تُتلى في أغلب مقاطعها بنغمة هابطة، مع تحلّل هذا الجزء لسكتتين خفيفتين، تجديداً للنفس؛ الأولى بعد كلمة "زينتها"، والأخرى بعد كلمة "أبقى"، ليأخذ المنحنى النغمي اتجاهها مخالفًا موضع الاستفهام المجازي عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والذي خرج هنا إلى دلالة الأمر بمعنى: "اعقلوا"، حيث تُؤدّي المجموعة المقطعية المشكّلة لهذا الاستفهام بنغمة صاعدة، تماشياً مع دلالة وجوب استعمال العقل للتمييز بين الصحيح والخطأ، بين الخير والشرّ، بين الجميل والقيح،...

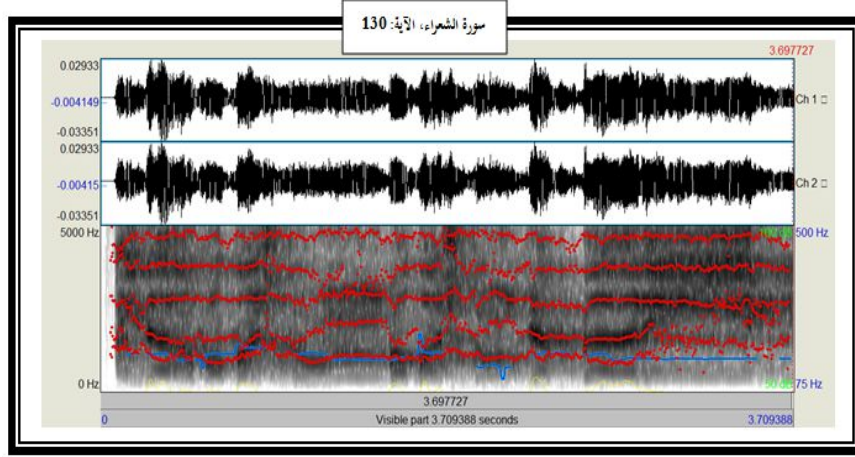
• الخبر للإرشاد والوعظ:

من المواضع التي خرج فيها الخبر عمّا يقتضيه ظاهره إلى معنى آخر باطني وهو: الإرشاد والموعظة في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 130].

خبر ابتدائي خالٍ من أدوات التوكيد، خرج هنا عن أصله، فما كان الغرض منه الفائدة ولا لازمها، بل التنبيه والإرشاد؛ فالتجبر فعل مذموم يدلّ على حبّ البقاء والخلود، بل يدلّ على حبّ التفرد بالعلوّ، والبطش من صفات الجبارين، وهي سمة تتنافى مع الرأفة والرحمة، وكلّ ذلك يشير إلى أنّ حبّ الدنيا قد استولى على قلوبهم، ودفعهم إلى الاستغراق في البطش والعدوان إلى حدّ ادّعاء الربوبية، لذا جاء الخبر هنا تنبيهاً لهم على ضرورة التراجع عن هذا السلوك، وتذكيراً ووعظاً لهم بأنّ هذا التصرف خاطئ ولا ينبغي الاستمرار عليه. يقول "ابن العربي" مفسراً الآية ومستحضراً هذه الدلالة: «في نزولها خبرٌ عمّا تقدّم من الأمم، ووعظ من الله لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمّهم به وأنكره عليهم (...). والبطش يكون باليد، وأقلّه الوكز والدفع، ويليه السوط والعصا، ويليه الحديد، والكلّ مذموم إلّا بحقّ».⁽¹⁾

الإرشاد والوعظ في الأداء من مواطن الاعتدال، لذا فإنّ الآية تُقرأ كلّها بنغمة مسطّحة مستوية كما هو موضّح في الشكل رقم: 19

(1) - أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي: أحكام القرآن، ج3، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/ 2003م، ص460.



الشكل رقم: 19

نادرا ما نجد الآية تُتلى كلها بوتيرة واحدة، لا ينتابها أيّ تغير في اتجاه نغماتها، تماما مثلما هو الشأن في الآية 130 من سورة الشعراء، قد لا يبدو الأمر كذلك حينما نلاحظ منحنى ذبذباتها الصوتية، ولكن ما يعزّز كلامنا هذا النمط الذي يسير عليه المنحنى الأزرق في الشق الثاني من المخطّط أعلاه، والذي في أغلبه قد أخذ خطا مستقيما مسطّحا يتناسب ودلالة الإرشاد والنصح، وقَلما نجده ينحرف نحو الهبوط أو الصعود، وهذا ما ستزيد الأرقام في الجدول التالي إيضاحا وتأكيدا:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
103.713 هرتز	160.366 هرتز	229.584 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	52.06 ديسيل	54.42 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
3.71 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 130 من سورة الشعراء

وفي موضع آخر من السورة ذاتها يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٩﴾ ذَكَرْتُمْ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 208 – 209].

يخبرنا الله في هاتين الآيتين على كمال عدله سبحانه في إهلاك المكذّبين، فالمولى جلّ وعلا لم يهلك قوما ولا أمّة، إلّا بعدما أرسل إليهم الرسل مبشّرين ومنذرين، حتّى إذا كذّبوهم وأعرضوا عن رسالتهم ودعوتهم، كان إهلاكه لهم بعد إقامة الحجّة عليهم، تذكّرة وعبرة لغيرهم.

الظاهر أنّ ما جاء في الآيتين من إخبار أنّه لا يُقصد منه الإفادة أو لازمها، بقدر ما يُراد به التذكير والوعظ. يقول "المراغي" في هذا الصدد: «أي وما أهلكنا قرية من القرى، إلّا بعد إرسالنا إليهم رسلا يندروهم بأسنا على كفرهم، تذكّرة لهم وتنبيهها إلى ما فيه النجاة من عذابنا، وما كنّا ظالمين في إهلاكهم، لأنهم جحدوا

نعمتنا، وعبدوا غيرنا، بعد الإعذار إليهم، ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد»⁽¹⁾.

والآية تُؤدّي كلّها بالنعمة ذاتها وهي النعمة المستوية، لتتجه نحو الانخفاض مع المقاطع الصوتية الثلاثة الأخيرة، التي تمثلها كلمة {ظالمين = ص ح ح + ص ح ح + ص ح ح ح ح}.

• الخبر للتبشير:

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 08].

في الآية خبر، معناه لما وصل موسى عليه السلام إلى النار نودي بأن بورك من كان في مكانه أو حول ذلك المكان على سبيل البشارة، ومكانها هي البقعة المباركة الذي جاء ذكرها في سورة القصص الآية 30. مما يعني أنّ الخبر ههنا خرج عن مقتضى الظاهر أيضا، ليدلّ على معنى بلاغي يُستشفّ من خلال قرائن الأحوال، فضلا عن دور التنغيم الذي كان له أثرا هاما في توجيه الغرض من خلال عملية الأداء. يقول "ابن عاشور": «وهذا الكلام خبرٌ هو بشارة لموسى عليه السلام ببركة النبوة»⁽²⁾.

يُستهلّ أداء هذه الآية بنغمة تقريرية مستوية، تكون متبوعة بنغمة أخرى هابطة في الجزء الأخير منها.

وقال أيضا: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النمل، الآية: 11].

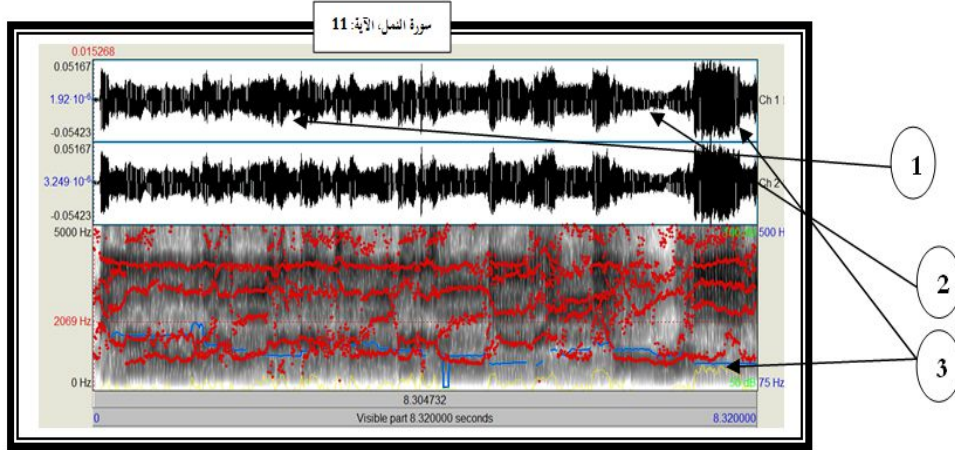
في هذه الآية خبر طليبي جاء لإشعار المتردّد بضرورة الثقة في الله عزّ وجلّ، فمن كان على معصية ثمّ تاب بعد ذلك وأتاب إلى ربّه، فإنّ الله سيغفر له - بدون شكّ ولا ريب - ما تقدّم من ذنبه، وفي هذا تبشير له بالرحمة الإلهية. يقول "ابن كثير" موضّحا هذا المعنى: «هذا استثناء منقطع، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك من كان على عمل شيء، ثمّ أقلع عنه ورجع وأتاب، فإنّ الله يتوب عليه»⁽³⁾.

الآية من الناحية التنغمية تُقرأ بنغمة مستوية، تليها نغمة هابطة موضع البشارة، مع إمكانية رفع الصوت قليلا في الموضع المصاحب لتمطيط آخر مقطع في الآية (نبر المدّ العارض للسكون بسبب الوقف). والشكل رقم: 20 يوضّح هذا المنحنى:

(1)- المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص70.

(2)- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص226.

(3)- ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2134-2135.



الشكل رقم: 20

تمثل الأرقام أعلاه ما يلي:

الرقم 1: النغمة المتوسطة

الرقم 2: انخفاض المنحنى النغمي

الرقم 3: ازدياد عدد الذبذبات أدى إلى توتر في شدة الصوت، هذه الأخيرة التي سجلت في هذا الموضع أعلى قيمة قدرت بـ: 57,32 ديسيبل من أصل 100 ديسيبل، كل هذا كان سببه الرئيس تمطيط المقطع الطويل الأخير من لفظ "رحيم".

أما عن نتائج التحليل، فيمكن توضيحها من خلال الأرقام التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
72.365 هرتز	178.210 هرتز	248.200 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.04 ديسيبل	57.32 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
8.32 ثانية			الترمين (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 11 من سورة النمل

• الخبر للتحسّر:

من الأغراض الأخرى التي يخرج إليها الخبر إظهار الندم والحسرة، ولعلّ من مواطن هذا الغرض في سور الطواسين، قوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 100-101].

فالآيتان يمكن تأديتهما بنغمتين متباينتين؛ نغمة صاعدة على أساس أنّ قالب الآية إنشاء خرج فيه الاستفهام إلى معنى النفي، أو بنغمة هابطة قياسا على ما في الآية من إخبار، يصوّر لنا مدى تلّهف المخاطبين، وتأسّفهم عن الحال الذي وصلوا إليه؛ فلا شفيع اليوم يخلصهم من العذاب بشفاعته، ولا صديق يهّمهم أمرهم

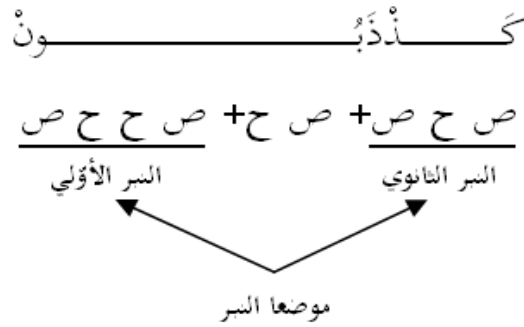
الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

فيحَنّ عليهم ويشفق على حالهم. يقول "المراغي" موضّحاً هذا الغرض الذي خرج إليه الخبر في الآيتين السابقتين: «وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيح والصديق النافع، وقد نفوا أولاً أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته، ثمّ ترقّوا ونفوا أن يكون لهم من يهّمه أمرهم، ويشفق عليهم ويتوجّع لهم، وإن لم يخلصهم».⁽¹⁾

وقوله في موضع آخر من سورة الشعراء على لسان سيدنا نوح **الطَّيِّلَاتِ**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 117].

معنى الآية: قال نوح وهو متأسّف وعلامات الحزن، وملامح اليأس بادية على وجهه: يا ربّ إنّ قومي كذّبوني ولم يؤمنوا برسالتي، وإنيّ دعوتهم ليل نهار، ولم ينفعهم دعائي في شيء. يقول "ابن عاشور" في بيان دلالة الحسرة: «إنّ قومي كذّبوني تمهيد للدعاء عليهم، وهو خير مستعمل في إنشاء التحسّر من إقلاعهم عن التكذيب».⁽²⁾

وفي تمطيط آخر مقطع من الآية، واستطالة النطق به تقريب لمعنى التحسّر وتثبيت له، لأنّه موضع النبر الأوّلي (نبر المدّ العارض للسكون)، فنبرة الصوت في آخر كلمة جعلت الآية أكثر التصاقاً بالمعنى، وذلك كلّه من شأنه أن يتفاعل مع فونيم التنغيم لأداء هذه الدلالة، وتوجيه غرض التركيب:



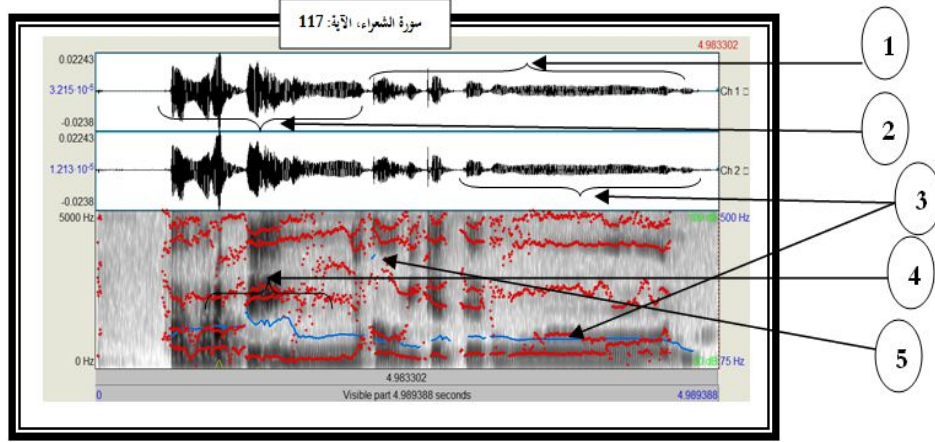
النبر الثانوي هنا يُكوّن مع الذي يفصل بينه وبين النبر الأوّلي الصيغة التالية:

مقطع متوسط مغلق + مقطع قصير مفتوح

ولتوضيح نخط التنغيم في هذه الآية تقدّم الشكل التالي:

(1) - المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص52.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص163.



الشكل رقم: 21

تُبيّن الصورة أعلاه المنحنى الإيقاعي لأداء الآية 117 من سورة الشعراء، والتي خرج فيها الخبر إلى دلالة التحسّر، حيث تبدأ الآية بنغمة مستوية إلى عالية كما يوضّحه الرقم 2، تتبعها نغمة هابطة كما هو موضّح بالرقم 1، إذ أخذت هذه النغمة الأخيرة مجال صوتي أطول لوقوع النبر على آخر مقطع من الآية (المقطع الطويل)، حيث يوضّح الرقم 3 تمطيط النطق على هذا المقطع، أما الرقم 5 فيشير إلى أعلى قيمة وصلت إليها درجة الصوت، والرقم 4 يميل إلى المساحة الصوتية التي شهدت علوا موسيقيا في الدرجة الصوتية (موضع النداء والتأكيد بأنّ). كما نلاحظ في الصورة أعلاه أنّ المنحنى الأصفر والذي يمثّل شدّة الصوت لا يكاد يظهر إلّا في موضع الرفع المذكور آنفا. وعليه يمكن تلخيص نتائج هذا التحليل في الجدول أسفله:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
122.320 هرتز	157.260 هرتز	381.027 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	50.23 ديسيبل	52.53 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
4.99 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 117 من سورة الشعراء

ومن المواضيع الأخرى التي يبدو فيها الندم والتحسّر جليّا قوله تعالى في سورة النمل: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 44].

فواضح أنّ ملكة سبأ هنا قد ندمت على ما اقترفته من ذنوب، بل ندمت أشدّ الندم على شركها بالله عزّ وجلّ؛ إذ كانت تعبد الشمس من دون الله، فعاتبها سليمان عليه السلام حين أظهر لها آية من آيات الله، استطاع من خلالها أن يقنعها بأنّ ما يملكه أعظم وأعزّ ممّا تملكه، إذ اتّخذ لها قصرا عظيما من الزجاج، ليثبت عظمة سلطانه،

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصّرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم ومملك عظيم، وأسلمت لله عزّ وجلّ.⁽¹⁾

ما زاد معنى التحسّر والندم تأكيدا وتثبيتا: وقوع النبر الرئيسي على المقطع ما قبل الآخر (المقطع المتوسط المغلق) من كلمة "ظلمت"، وعموما تُؤدّي مقاطع الآية بنغمة هابطة استدعاء لدلالة التحسّر، وإبداء للندم. وقال أيضا في سورة القصص: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِأَلَامٍ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 82].

الظاهر من خلال سياق الآية إلى جانب النمط اللحني المصاحب لقراءتها، أنّ الخبر فيها خرج إلى غير ما وُضع لأجله، لبيان معنى إظهار الندم والحسرة «أي يقولون ندما وأسفا على ما صدر منهم من التمني: أُعْجِبُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ مِنْ صَنَعِ اللَّهِ، كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ يُوسِّعُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه، ويضيّق الرزق على من يشاء - لحكمته وقضائه ابتلاء - لا لهوانه عليه».⁽²⁾

والآية تُفتتح بنغمة مستوية تشمل قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِأَلَامٍ يَقُولُونَ﴾، لتتحدّر بعد ذلك موضع التحسّر إلى غاية آخر مقطع صوتي منها.

• الخبر للشرط:

الشرط ضرب من أضرب الإنشاء، وهذا هو مذهب الأكرية من علماء البلاغة، لكون جوابه في الأغلب الأعمّ يدلّ على الطلب، ومع ذلك قد يرد في قالب إخباري بحت، وكأنّه أسلوب خبري لفظا إنشائي معنًا. مثال ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْزُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 116]، وقوله أيضا: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 167]، هذا في مقام الخبر الشرطي المشوب بمعنى التهديد، وأمّا في مقام الخبر الشرطي المشوب بمعنى التحدي نجد قوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 154].

فمن جملة ما يتّضح للناظر المتفحص للآيات الثلاث، يجد أنّ قاسما مشتركا يجمعها، ألا وهو: دلالة الشرط فيها؛ والشرط كما هو معلوم: «وقوع الشيء لوقوع غيره».⁽³⁾ أي اقتتان أمر بأمر آخر، بحيث لا يتحقّق الثاني إلاّ بتحقّق الأول، هذا الأخير الذي يكون شرطا لجواب الثاني وسببا لوقوعه.

(1) - ينظر: ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، صص 2144-2145.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص411.

(3) - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: المقتضب، ج2، تح: محمد عبد الخالق عزيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي،

القاهرة، مصر، دط، 1415هـ / 1994م، ص45.

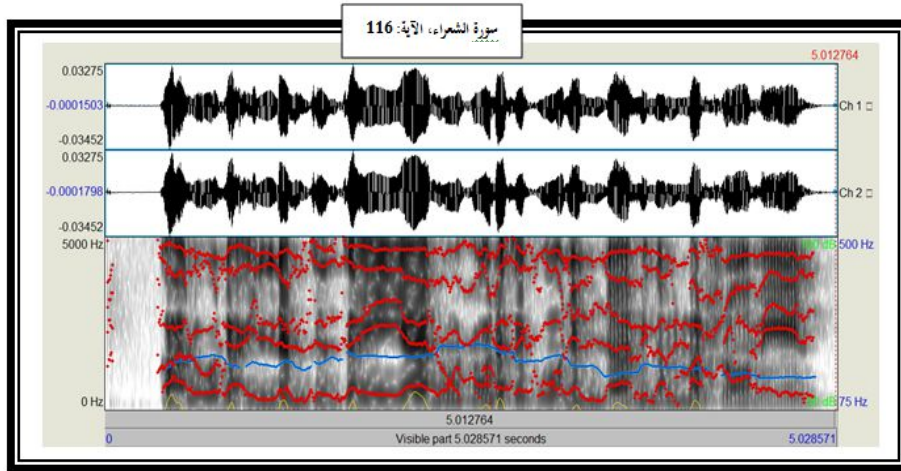
الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

بالعودة إلى النصوص القرآنية المذكورة، نجد أنّ انتفاء تهديد قوم نوح له بالرحم وقوم لوط له بالطرد، مرهون بإقلاعهما عن دعوة قومهما، كما أنّ تصديق قوم صالح لرسالته وعدم إنكار نبوّته، إنّما هو منوط أساسا بقدرته على الإتيان بمعجزة تبهرهم وتبدّد شكوكهم، وهذا كلّ من باب الشرط الذي خرج إليه الخبر كما نلاحظ.

وكما سبقت الإشارة، فإنّ الخبر الذي خرج إلى الشرط هنا لم ينفرد كغرض لوحده في الآيات أعلاه، بل امتزج حيناً مع النداء الخارج لمعنى التهديد، وحيناً آخر مع الأمر الخارج لمعنى التعجيز، لذا صارت لكلّ آية من الآيات المذكورة خصوصية في الأداء.

ثمّ إنّ استحضار دلالة الشرط تستدعي بالضرورة قوّة في النطق، وعلوّاً في الأداء، فهو من مواضع الرفع. يقول "أحمد البايبي" مصرّحاً بذلك: «...إذن يمكن أن نضيف الشرط إلى النفي والجمد فيما يتعلّق برفع الصوت»⁽¹⁾.

قياساً على ما قيل تتلى الآيتين 116 و 167 بنغمة تقريرية مستوية تتبعها نغمة النداء للتهديد المرتفعة، خصوصاً أنّ الشرط الثاني من الآيتين شهد تأكيداً بأداتين (لام الابتداء، ونون التوكيد) في لفظ واحد، ممّا ساهم أكثر في تقوية المعنى، وتكريس دلالة التهديد. والشكل رقم: 22 يوضّح ذلك:



الشكل رقم: 22

يبين المنحنى الأزرق اتجاه النطاق التنغمي لمقاطع الآية الكريمة، إذ يبدأ بنغمة شبه مسطّحة (الدرجة المتوسطة)، مسجّلاً بعد ذلك ارتفاعاً (أقصى درجة) موضع الشرط وجوابه المتضمّنان لغرض التهديد وأدوات التأكيد، ليأخذ بعدها نحو الانخفاض (أدنى درجة) التدريجي نهاية الآية، وفيما يأتي كشفٌ لهذه النتائج:

(1) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 294.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
153.095 هرتز	190.183 هرتز	236.369 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	52.66 ديسيل	55.17 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
5.03 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 116 من سورة الشعراء

أما الآية 154 فلما كان الشرط فيها أقوى من الناحية الأدائية من التعجيز، فإنّ النمط الصوتي للغرض الذي يحتاج إلى قوّة في النطق، سيتغلّب حتما عن نظيره الذي يكون بحاجة إلى مستوى أقلّ في حدّة الصوت، وعليه فإنّ هذه الآية هي الأخرى تُفتتح بنغمة التقرير المستوية، تليها مباشرة نغمة عالية تشمل جواب الشرط كلّه. من الآيات الأخرى التي جاءت في قالب إخباري لفظا تحمل معنى الشرط، قوله تعالى في سورة النمل:

﴿فَلَمَّا جَاءَ هَانُودِي أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 08].

فجملة "فَلَمَّا جَاءَ هَانُودِي" تبدو من الوهلة الأولى أنّها أسلوب خبري، ولكن إذا أمعنا النظر فيها أكثر تبين لنا وجود الشرط فيها؛ فالأداة "لَمَّا" في الآية: أداة شرط جاءت بمعنى حينما، فعل الشرط فيها "جاءها"، وجوابه "نودي أن بورك من في النار"، وأكد أنّ الأداء الصحيح للآية من شأنه أن يوجّه الدلالة من معنى الإخبار إلى معنى الشرط، عن طريق وضعها في إطارها الصوتي الملائم لها، وهنا يبرز أثر التنغيم ودوره الوظيفي في اللغة؛ إذ لا يمكن قراءة الآية بنغمة توحى بأننا بصدد أسلوب خبري، حتى لا نُخرجها من سياقها التي وُضعت فيه. وعلى هذا الأساس تُقرأ الآية بنغمة الشرط الصاعدة تشمل قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ هَانُودِي أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، لتدرج النغمة بعد ذلك في الانخفاض عند قوله: ﴿وَسَبَّحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، حتى تصل إلى أدنى مستويات الهبوط.

● الخبر للتسلية والتصبير:

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَلِّغَ نَفْسِكَ الْآيِكُونُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 03].

ومعناه لعلك يا محمد مهلك نفسك ومحمّل أياها فوق ما تطيق، حرصا منك على هداية العباد، وهذا الكلام جاء للتخفيف عن الرسول ﷺ بعض ما كان يصيبه من غمّ وحزن، وذلك على سبيل تسليته وتصبيره، لا على سبيل إعلامه بخبر يجهره، لأنّه عارف به، ودليل ما في الآية من تسلية قوله عزّ وجلّ في الآية التي تليها: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَؤُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 04]، فلا يخفى ما في هذه الآية من معاني الإشفاق على الرسول الأكرم محمد ﷺ. قال "ابن عطية" (ت: 541هـ) مشيرا إلى خروج الخبر إلى معنى التسلية: «الآية تسلية لمحمد ﷺ لما كان من القلق والحرص على إيمانهم، فكان من شغل البال في حيّز الخوف

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

على نفسه (...)، ومعنى الآية: أي لا تهتمّ يا محمد بهم، وبلغ رسالتك وما عليك من إيمانهم، فإنّ ذلك بيد الله لو شاء لآمنوا...»⁽¹⁾؛ فالخبر جاء لفظاً، تسليّة ونهياً عن تحميل النفس أكثر ممّا تطيق معنا.

إنّ التسليّة هنا كانت نتيجة لسببٍ هو: حزن وأسف الرسول ﷺ على قومه، وخوفه الشديد ألا يؤمنوا، وتبعاً لهذا المعنى الذي ترتّب عليه غرض التصبير، تُثقل الآية بنغمة هابطة، ليسجّل بعده المنحنى الإيقاعي خطفة سريعة تتسم بالعلو الموسيقي مع المقطعين الصوتيين المشكّلين لأداة التحضيض (ألاً)، ليعود المنحنى من جديد إلى المستوى الذي كان عليه، مستمراً على الإيقاع ذاته إلى غاية المقطع الختامي.

وقال في موضع آخر من سورة الشعراء: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 15].

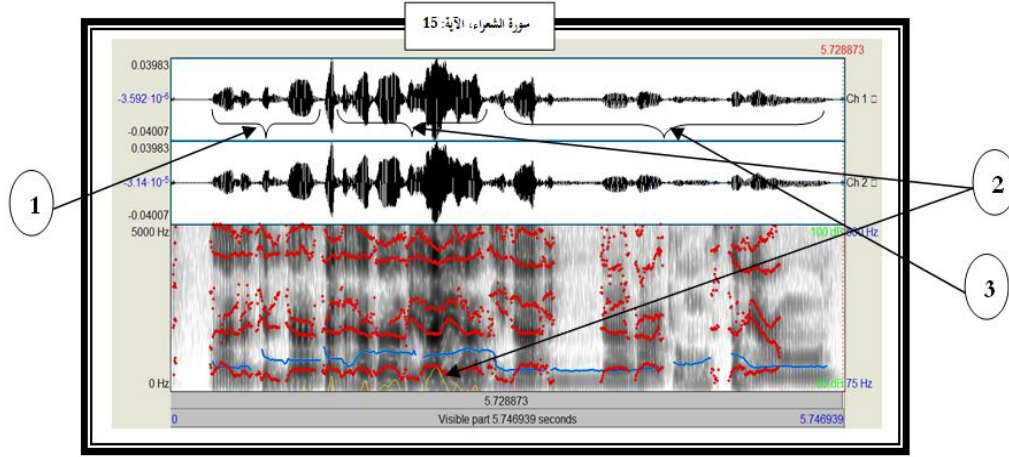
تخبرنا الآية الكريمة عن قصّة سيّدنا موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية وقومه، إذ أرسله ربّه إليهم ليذكّرهم بضرورة العدول عمّا هم فيه، حتّى لا يحيق بهم ما حاق بأولئك المكذّبين من قبلهم، ولخوف موسى من جبروت فرعون جرّاء قتله للقبطي حَبّاز فرعون، طلب من ربّه أن يرسل معه أخاه هارون، كونه طليق اللسان وأكثر منه فصاحة، والحقيقة أنّ هذا الكلام وما فيه من خبر لا يُقصد منه إفادة المخاطب بشيء، إنّما المراد هو تسليته، وخير دليل على ذلك قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، والمعنى: لا تخف يا موسى من شيء، فاذهب وأخوك إلى ما أمرتكما به، مؤيّدَيْن بآياتنا الدالة على صدق دعوتكما، وإنّي لناصركما ومعينكما عليه، وهذا المعنى يستدعي استحضر قوله عزّ وجلّ في سورة طه تسليّة لموسى وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ آسَمِعُ وَأَرَى ﴿٦١﴾﴾ [سورة طه، الآية: 46]. يقول "أبو السعود" مفسّراً الآية، موضّحاً الغرض من الخبر فيها: «إنا معكم مستمعون: تعليل للردع عن الخوف، ومزيد تسليّة لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة»⁽²⁾.

والتسليّة هنا كانت نتيجة لسببٍ هو: قلّة حيلة موسى، وخوفه من طغيان فرعون وتسلّطه، وتبعاً لهذا المعنى الذي ترتّب عليه غرض التصبير، تُستهلّ الآية بنغمة تقريرية مستوية عند قوله: ﴿قَالَ كَلَّا﴾، لتشهد بعد ذلك ارتفاعاً ملحوظاً موضع الأمر الحقيقي عند قوله تعالى: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾، تعود بعدها للانخفاض موضع الإيناس، أي عند قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.

والشكل أسفله يوضّح هذا المنحنى:

(1) - أبو محمّد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسي: الحزب الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، تح: عبد السلام عبد الشافي محمّد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ / 2001م، ج4، ص224.

(2) - أبو السعود: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج6، ص237.



الشكل رقم: 23

يمثل الرقم 1 في هذا المخطط النغمة المتعددة التي تميّز مقاطع قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا﴾، في حين يمثل الرقم 2 النطاق النغمي الذي عرف علوا في طبقة الصوت، لما في الآية من أمر الغرض منه الطلب على وجه الاستعلاء والاستعلام؛ أي في قوله ﴿فَأَذْهَبَ أَيْدِيَنَا﴾، ودليل رفع الصوت ههنا ظهور تموجات المنحنى الأصفر عند هذه المساحة الصوتية بالذات، بينما يمثل الرقم 3 عودة النغمة إلى الانحدار بعدما عرف المنحنى صعودا في الدرجة الصوتية، وهو موضع التسلية الذي خرج إليها الخبر في الآية؛ أي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ﴾. أما عن نتائج القراءة الأكوستيكية لمقاطع الآية، فيمكننا إبرازها في هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
126.086 هرتز	141.477 هرتز	188.096 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.97 ديسيبل	57.13 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
5.75 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 15 من سورة الشعراء

وقال أيضا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 67، 103، 121، 139، 174، و190].

في الآية خبر إنكاري جاء مؤكداً بياناً ولام الابتداء، والتأكيد فيها كان نتيجة تبادلي فرعون وقومه في تكذيب رسالة موسى إليهم، فعلى الرغم ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة، لم يمنع ذلك فرعون والفئة الغالبة من قومه الاستمرار في إنكارهم، والكفر بما شاهدوه. والحقيقة أنّ هذا الخبر ليس المقصود منه الإفادة والإعلام، بل هو تنبيه للرسول ﷺ وتسلية له بذكر قصص موسى مع قومه حتى تكون أنيساً وعبرة، ولا يغتم بتكذيب قومه له؛ وكأنّ المعنى: وكذلك أنت يا محمّد: لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك، واصبر على إذابتهم،

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

لعلهم يُصلحوا أحوالهم بالعودة إلى طريق الرشاد، فيكون صبرك عليهم تأكيد الحجّة عليهم. قال "الطبرسي" متحدثاً عن موضوع الآية: «فيها تسليّة للنبي ﷺ، وإعلام له بأنّ الشرّ قاسم». (1)

والتسليّة هنا كانت نتيجة لسببٍ هو: اغتمام الرسول ﷺ، وخوفه على قومه أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، وهذا المعنى يقتضي أن تكون نعمة الأداء ذات مدى سلبي (تنعيم هابط)، إلا أنّ غرض التسليّة ههنا قد صُبع بمعنى آخر تدخّل بطريقة أو بأخرى في تغيير منحى التنعيم وهو غرض التهديد، الذي يتّضح جلياً عند قوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، يضيف "الصابوني" مفسّراً الآية قائلاً: «أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر، وفيه تسليّة للنبي ﷺ، ووعيد لمن عصاه». (2)

بناء هذا الأساس فإنّ الآية تُؤدّي كلّها بالنعمة ذاتها؛ لما فيها من تأكيد، والتسليّة المصبوغة بالطابع التهديدي وهي: النعمة الصاعدة.

وقوله تعالى في الآيات التالية مخاطباً رسوله الأكرم محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُجُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ أَوْ لَوْ يَكُن لَّهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٣٣﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿٣٤﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 196، 201].

في الآيات أعلاه خبر، لكنّه خرج عن أصل ما وُضع له إلى غرض مجازي هو التسليّة والإيناس، يمكن لمس هذه الدلالة البلاغية عن طريق السياق والأداء معاً. قال الإمام "الطبرسي" (ت: 310هـ) موضحاً ذلك: «وهذا تسليّة من الله نبيّه محمداً ﷺ عن قومه، لئلاّ يشنّد وجده بإدبارهم عنه، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن، لأنّه كان ﷺ شديداً حرصه على قلوبهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتّى عاتبه ربّه على شدّة حرصه على ذلك منهم...». (3)

إذاً، صار واضح من خلال كلام "الطبرسي" أنّ التسليّة ههنا، جاءت نتيجة حزن الرسول ﷺ، وخوفه على مخالفة قومه لرسالته، وعلى هذا فإنّ الآيات تُؤدّي كلّها بنعمة مستوية إلى منخفضة، ما عدا الآية 196 فإنّها تُؤدّي بنعمة عالية، لما فيها من توكيد، الذي يفرض علوّاً موسيقياً داخل الهيكل التنغيي، والذي به تتواجد مقاطع الآية.

ومن مواضع الخبر الذي خرج أيضاً إلى دلالة التسليّة في سور الطواسين، قول المولى عزّ وجلّ في سورة

(1)- الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، ص247.

(2)- الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص351.

(3)- أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد الطبري: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مج5، تح: بشار عواد معروف وعصام

فارس الحمرستاني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1415هـ/1994م، ص535.

القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 56].

هذا كلام الله موجّه لنبيّه ﷺ، ليس الغرض منه إعلامه بفحواه، لأنّه يعيش واقعه، وإنما هو لغرض تصبيره على فشله، وعدم توفيقه في هداية كلّ من يحبّ من قومه، فجاء الخطاب تسليية وحثّاً له على ألاّ يجزن عليهم، فكلّ ما عليك يا محمّد البلاغ؛ فمهما بدلت من مجهود في سبيل إقناع قومك برسالتك، فإنّ المصبر على ما هو عليه سيظلّ كذلك مهما فعلت، ومهما أظهرت من الآيات والمعجزات، فلن تقدر على هدايته، وكلّ ما عليك فعله أن تسلّم أمرك لله، فهو العالم بالمستعدّ للهداية فيوفقه إليها، وله في ذلك الحكمة البالغة والحجّة الدامغة. لذا جاء الخبر متصدّراً بأداة التوكيد {إنّ}، تأكيداً على عدم مقدرة الرسول ﷺ في خلق الهداية في أنفسهم، وإتّما يرجع ذلك إلى الخالق وحده جلّ وعلا. قال "الألوسي" موضّحاً هذه الدلالة: «ووجهه أنّ مساق الآية لتسليته ﷺ، حيث لم ينجح في قومه الذين يحبّهم، ويجرّص عليهم أشدّ الحرص إنذاره عليه الصلاة والسلام إياهم، وما جاء به إليهم من الحقّ، بل أصروا على ما هم عليه»⁽¹⁾.

التسليية هنا كانت نتيجة لسببٍ هو: حزنه ﷺ لعدم قدرته على هداية كلّ من أحبّ من قومه، وهذا المعنى يستدعي أن تكون نعمة الأداء هابطة، ومن ثمة فإنّ الآية تُقرأ بهذا النمط التنغيي (النعمة ذات الاتجاه المنخفض)، في عموم مقاطعها الصوتية، هذا باستثناء المقاطع التي تُستهلّ بها الآية بنعمة عالية موضع التأكيد.

• الخبر للدعاء:

من المواضع التي شهدت خروج الخبر فيها إلى معنى الدعاء قوله تعالى في سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية، 17].

الدعاء هنا صادر على وجه التسفّل لا الاستعلاء، من موسى عليه السلام (الأدنى) إلى المولى عزّ وجلّ (الأعلى)؛ فيه تضرّع لله وترجي عفوّه، وكأنّ تقدير الكلام قول موسى عليه السلام: يا ربّ أنعم عليّ برحمتك الواسعة لقتلي النفس، ولو أنّك عفوت عني لأمتنع عن مثل هذا الفعل ما حييت، ولن أكون معيناً للمشركين فأسأهم في كثرتهم. يقول "أبو عبد الله بن العدوي" في بيان هذا المعنى: «... وقيل ليس هذا خبر، بل هو دعاء؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهيراً؛ أي فلا تجعلني يا ربّ ظهيراً للمجرمين...»⁽²⁾.

ويضيف "محمود عبود زوين" في ذات الصدد، موضّحاً ما سقناه قائلًا: «فقد تكون (لن أكون) على هذا

(1) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج20، ص96.

(2) - أبو عبد الله مصطفى بن العدوي: التسهيل لتأويل التنزيل - تفسير سورة القصص في سؤال وجواب، مكتبة مكة، طنطا، مصر، ط1، 1423هـ/

المعنى دعاء من موسى: اللهم لن أكون ظهيرا فيكون دعاء، والظاهر أنّ (لن) قد يأتي للدعاء إذا سبقت بسياق دعائي، يحتّم خروجها من معنى الإخبار إلى الطلب - الدعاء - وبالنتيجة: يمكن حملها على الدعاء من هذا الجانب...»⁽¹⁾.

ولا أدلّ على معنى الدعاء والتضرّع ما في لفظ "المجرمين" من تمطيط؛ لوقوع النبر الأوّلي على آخر مقطع صوتي منها (المقطع الطويل = ص ح ح ص)، وهذا ما يسمّيه علماء التجويد كما أسلفنا بـ: نبر المدّ العارض للسكون.

في العموم تُقرأ الآية بنغمة واحدة استحضارا للتضرّع والتوسّل والرجاء وهي: نغمة الأداء الهابطة، من أوّل مقطع في الآية، إلى المقطع الختامي منها.

• الخبر للاستهزاء والاستخفاف (الخبر التهكمي):

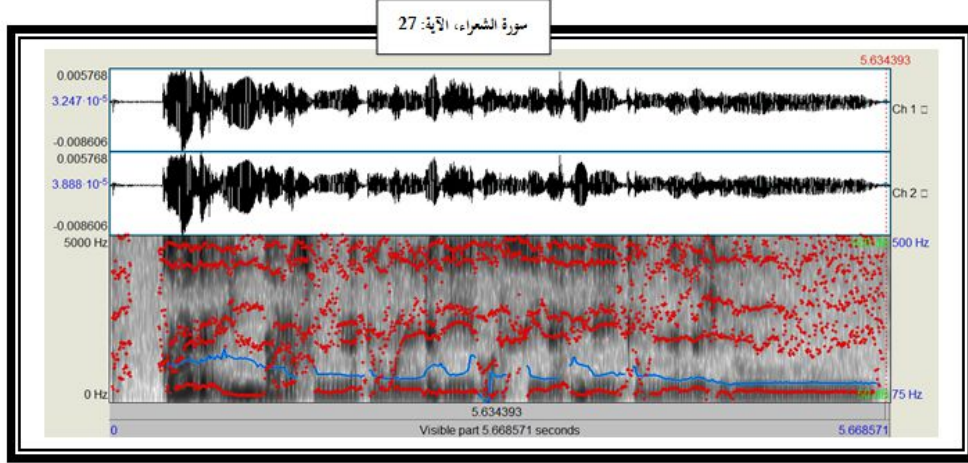
يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 27].

هذا خطاب فرعون الطاغية لقومه، جاء بعد سؤاله لموسى عن حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى؛ هذه الحقيقة التي كان فرعون ينكرها جملة وتفصيلا، والدليل على ذلك أنّه ردّ على موسى حينما أجابه بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 24]، ردّا فيه إنكار شديد، حيث حوى خطابه على أكثر من أداة توكيد {إنّ ولام التوكيد}، فكان الكلام خيرا إنكاريا لغرض الاستخفاف بإجابته، والازدراء بموسى، خصوصا وأنّه كان قد وصفه بالمجنون. قال "الصابوني": «سمّاه رسولا استهزاء، وأضافه إلى المخاطبين استنكافا من نسبته له، أي إنّ هذا الرسول لمجنون لا عقل له، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء...»⁽²⁾.

تندرج معاني الاستهزاء والسخرية ضمن مواضع الخفض في الكلام، لذا فإنّ الآية تُؤدّي كلّها بنغمة واحدة، هي: النغمة الهابطة، ذات المدى الإيجابي الهابط، وتزمن بطيء وهادئ، تماما مثلما هو موضّح في الشكل رقم: 24.

(1) - محمود محمود عبّود زوين: الدّعاء: المعاني والصيغ والأنواع، مركز الرسالة، دب، ط1، 1432هـ/ 2011م، ص90.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص346.



الشكل رقم: 24

إنّ ما تحمله الصورة أعلاه يؤكّد بأنّ غرض الاستهزاء والاستخفاف من مواضع الخفض في الأداء، دليل ذلك الإيقاع المتذبذب الذي يتّجه نحو التسقّل، وهذا ما توضحه الموجات الصوتية في الشقّ الأوّل من المخطّط، وكذا المنحنى الأزرق في الشقّ الثاني من المخطّط ذاته، فضلا على غياب المنحنى الأصفر، وهذا لدليل قاطع على عدم وجود أدنى جهد عضلي أثناء عملية القراءة. ولعلّ الجدول التالي يوضّح هذه الفكرة أكثر:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
66.567 هرتز	142.195 هرتز	211.338 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	متعدمة	متعدمة	شدة الصوت (Intensity)
5.67 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 27 من سورة الشعراء

في موضع آخر من السورة نفسها، يقول تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 136].

إنّ قراءة الآية بتنغمين متباينين من شأنه أن يضعنا أمام أسلوبين مختلفين: هما الخبر والاستفهام، اللذان خرجا كذلك عن أصلهما لبيان غرض مجازي آخر، يُتوصّل إليه عن طريق الأداء، إلى جانب السياق الذي وُضع فيه الكلام؛ فالاستفهام ههنا حمل معنى التسوية بين الوعظ وعدمه، وأما الخبر فيحمل معنى الاستخفاف من هود **الطواشين**، والسخرية من دعوته ونصائحه لقومه. قال "أبو حيان": «وقولهم ذلك على سبيل الاستخفاف، وعدم المبالاة بما خوّفهم به...»⁽¹⁾، وقال الخازن: «أي أنّهم أظهرها قلة اكتراثه بكلامه، واستخفافهم بما أورده من

(1) - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج8، ص180.

المواعظ والوعظ...»⁽¹⁾.

قياسا على ما قيل أصبح واضحا أنّ المعوّل عليه في مثل هكذا حالات هو: الأداء التنغمي، فبواسطة هذه القرينة يمكن معرفة أيّ الأغراض يقصدها المتكلّم، إذًا فالتنغم يلعب دورا جوهريا في التمييز بين ما هو خبري، وبين ما هو إنشائي، وهنا تظهر وظيفته وأثره في اللغة، من خلال وضع الآية في إطارها الصوتي المناسب لها؛ فإذا أراد القارئ أن يوصل للسامع أنّ المقصود بالكلام الوارد في الآية هو التسوية، كان عليه حينئذ أن يُؤدّبها كلّها بنغمة مستوية، أمّا إذا أراد إظهار معنى الاستخفاف والتهمك، كان كافيا لافتتاح القراءة بنغمة مسطّحة في قوله: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾، تتبعها نغمة مسطّحة إلى هابطة عند قوله: ﴿أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾.

• الخبر للتشهير:

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْ تَقُولُوا هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمَبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 16].

ذكر سليمان عليه السلام في هذه الآية النعم الجليلة التي أنعمها الله عليه؛ إذ وقّعه لفهم لغة الطير وسائر الحيوانات، ومنحه من خيرات الدنيا ما ييسّر له تدبير الملك، ويعينه على أموره الدينية والدنيوية، وحثمت الآية بخبر جاء مؤكّدا بعدّة مؤكّدات هي: إنّ، ولام الابتداء، واسمية الجملة، وهذا الكلام ساقه سليمان على سبيل شكر نعم الله عليه والتشهير بها، لا على سبيل التكبر والعلوّ، إلى جانب ذلك هو خبر لإزالة إنكار من يشكّ في حقيقة هذه الآيات العظيمة كمحاورة الحيوانات، وضرورة التصديق بها، لأنّ الواقع يثبت ذلك ويؤكّده.

يقول الإمام "البيضاوي" مفسّرا هذه الآية، ومبيّنا خروج الخبر فيها إلى دلالة التشهير: «تشهيرا لنعمة الله وتنويها بها، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطلق الطير، وغير ذلك من عظام ما أوتيته»⁽²⁾.

والتشهير من مواطن الاعتدال في الأداء، ومن ثمة فإنّ النغمة ههنا تكون مستوية في أغلب مقاطع الآية، مع تسجيل ارتفاع في طبقة الصوت موضع التأكيد، لتأتي إلى الانخفاض أواخر الكلام، أين يتمّ المعنى ويكتمل المقصود (موضع الوقفة).

• الخبر للتسليم:

كثيرٌ ما يخرج الخبر عن مقتضى الظاهر ليتلبّث قوالب دلالية غير تلك التي وُضع من أجلها، وهنا تكمن

(1) - الحازن: تفسير الحازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، ج3، ص329.

(2) - البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، ج19، ص562.

فاعلية الأداء التنغمي في تحديد ما خُفي من المعاني بمعونة السياق والقرائن الأخرى المحيطة بنسيج الكلام، تماما مثلما هو حاصل مع قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ رَبِّيَ عَلَّمَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 188 - 189].

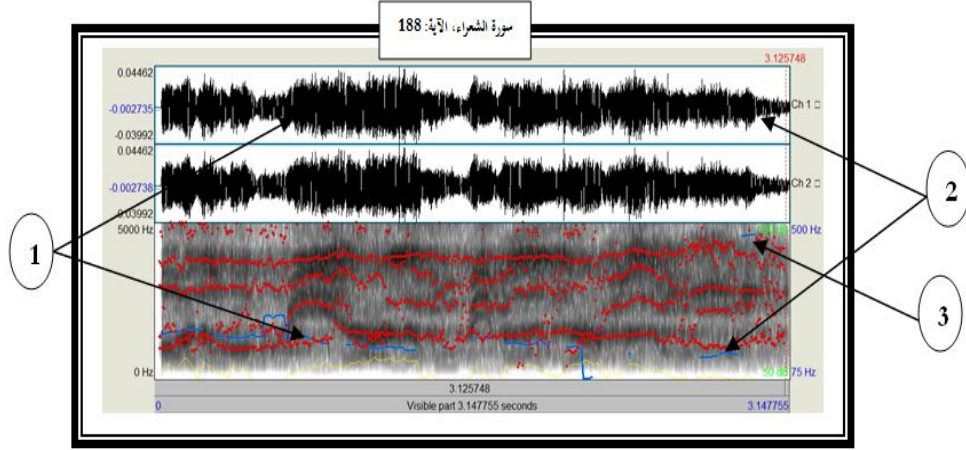
الخبر هنا جاء مؤكداً بأداة واحدة وهي: "إنّ التوكيدية"، لأنّ جماعة المخاطبين أصرّوا على تكذيب دعوة ورسالة نبيّهم شعيب عليه السلام، إلى درجة أنّهم أرادوا اختبار صدق نبوّته، وطلبوا منه أن يُنزل عليهم من السحاب قطعاً تكون عذاباً لهم، وإنّما جاء التأكيد هنا حتّى يدفع ترددهم وشكّهم بنبوّة شعيب، فلمّا استكبروا وبالغوا في التكذيب، جزاهم الله بجنس ما طلبوا من العذاب، حيث أرسل إليهم حرّاً شديداً لم ينفع فيه ظلّ ولا شراب، فخرجوا من بيوتهم هرباً إلى البرية، أين استظلّوا بسحابة وجدوا لها برداً، حتّى إذا نادى بعضهم بعضاً، واجتمعوا كلّهم تحتها، بعث الله عليه نارا، فاحترقوا بها جميعاً.

فشعيب عليه السلام لم يتبع مع قومه طريق الجدال، كونه أدرك أنّهم معاندين له لا محالة، منكبين لما جاءت به رسالته، لذلك سلّم أمره لله سبحانه وتعالى، فإليه الحكم والمشية.

يقول "الرازي" مبيناً هذا المعنى، ومشيراً إلى خروج الخبر إلى التسليم والتفويض: «فلم يدعّ عليهم، بل فوّض الأمر فيه إلى الله تعالى، فلمّا استمرّوا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظلّة، إن أرادوا بالسماء السحاب، وإن أردوا الظلّة فقد خالف بهم عن مقترحهم، يروى أنّه حبس عنهم الريح سبعا، وسلّط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظلّ ولا ماء، فاضطّروا إلى أن يخرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها، فأمرت عليهم نارا فاحترقوا»⁽¹⁾.

إنّ التسليم والتفويض يأتي بعد استنفاد جميع الحلول الممكنة، وقطع الأمل في الوصول إلى الغاية المرجوة؛ لذا يُؤدّي هذا الغرض من الناحية الصوتية بنغمة مستوية إلى هابطة، تميّز جميع مقاطع الآيتين السابقتين، مع مدى نغمي سلبي هابط، يتلاءم مع هكذا أغراض، بيد أنّ هذا المنحنى يشهد خطفة عالية وسريعة موطن التأكيد بأنّ، والشكل رقم: 25 يوضّح ذلك:

(1)- الرازي: تفسير الرازي، ج24، ص164.



الشكل رقم: 25

يوضح الرقمان 1 و2 النمط التنغمي بداية الآية وآخرها، فكما يظهر في الصورة أنّ النغمة المعتدلة تأخذ مساحة كبيرة من عمر الأداء، لتتخفّض في أواخر المقاطع الصوتية، وهذا ما يبيّنه كذلك المنحنين الأزرق والأصفر، غير أنّ الرقم 3 يشير إلى قمة درجة الصوت، فعلى الرغم من أنّ أداء غرض التسليم لا يحتاج إلى علو موسيقي إلا أنّ درجة الصوت عرفت ارتفاعاً غير طبيعي بلغت قمّتها 468.771 هرتز من أصل 500 هرتز، وهذا لا يعني أنّ الغرض بحاجة إلى رفع الصوت لاستدعائه، بل إنّ سبب الارتفاع يعود ربّما إلى عاطفة القارئ، حيث كان يؤدّي الآية وهو يبكي، وهذا ما يوضّحه الفيديو المرفق ضمن القرص المضغوط. وفي جميع الأحوال يمكن رصد مختلف النتائج المتحصّلة عليها على شكل أرقام في الجدول أسفله:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
68.126 هرتز	178.792 هرتز	468.771 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	5464 ديسيل	56.94 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
3.15 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 188 من سورة الشعراء

ويقول المولى عزّ وجلّ في موضع آخر: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 91].

هذا كلام خاتم الأنبياء محمد ﷺ، جاء في قالب إخباري، واضحا أنّه لا يُقصد منه مجرد الخبر، بل خرج هذا الأخير إلى معنى الانقياد والانصياع لله تعالى، يبدو ذلك جلياً من خلال قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَدَ...﴾، وهو خبر جاء مؤكداً بأداتين هما: {إنّما، وحرف الزيادة "أنّ" مرتين}، وقوله أيضاً في الآية ذاتها: ﴿...وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وهذا كلّ تسليم وتفويض للخالق؛ «أي وأمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد، المنقادين لأمره،

المستسلمين لحكمه». (1)

وخروج الخبر عن مقتضى الظاهر يستدعي تأدية تركيبه بما يتناسب والغرض الذي خرج إليه، وهو هنا: التسليم، وبناء على ذلك تُؤدَّى الآية على طول مقاطعها الصوتية بالنغمة ذاتها، وهي النغمة المستوية الهابطة، استحضرنا هذه الدلالة في ذهن السامع أو المتلقي.

• الخبر لإظهار التواضع:

من سلسلة النماذج الأخرى التي كان ظاهر الكلام فيها مخالفا لما تستلزمه ألفاظه من معانٍ ودلالات، قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنَّ حِسَابَهُمْ لِأَعْلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا لَإِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 112، 115].

يُظهر لنا نوح عليه السلام في هذه الآيات مدى تواضعه في كيفية التصرف مع قومه؛ إذ يخبرنا فيها بقصوره - على الرغم من نبوته وهنا مكنم التواضع - عن معرفة ما كان يعمل أتباعه، فقد اختار أن يتعامل معهم بحسب ظاهريهم، فمن أظهر منهم حسنا ظنَّ به حسنا، ومن أبدى السوء صُنّف ضمن المسيئين وهكذا، حيث لم يكلف نفسه مشقة العلم بأعمالهم، حتى لا يجيد عن رسالته التي أرسل إليهم من أجلها، ولعلَّ من مواطن تواضعه أيضا أنه أوكل هذه المهمة لله وحده، فهو المطلع على سرائرهم، المبصر لأسرارهم، وهو الوحيد القادر على محاسبتهم بالعدل، فنوح عليه السلام كما تخبرنا الآيات السابقة، لم يُرسل إلا نذيرا ومخوفا من بأس الله وعقابه الشديد، فمن أطاعه وآمن برسالة ربه، وصدّق بما جاء في دعوته، صار من التابعين ولا يمكن صدّه أو طرده، وأما من عصاه وكفر برسالته، وكذّب بما جاء فيها، فعليه أن يتبرأ منه ومن أعماله، هذا هو خطابه سبحانه وتعالى لنبية نوح عليه السلام. يقول "سليمان بن عمر العجيلي" (ت: 1204هـ) في هذا الصدد: «كناية عن التواضع واللفظ بالمؤمنين، فهذا في قوة قوله: فبعد الإنذار من آمن منهم فتواضع له، ومن خالفك فتبرأ منه، ومن عمّله، وقُل له إني بريء...». (2)

من أجل استحضرنا دلالة التواضع والتبري يكفي أن تكون نغمة الأداء معتدلة ميّالة نحو الهبوط قليلا، لذا فإنّ الآيات تُتلى كلّها بهذه النغمة (النغمة المستوية)، لتشهد في آخر آية انخفاضاً محسوساً في درجتها الصوتية، متّجهة نحو النغمة الهابطة أكثر، غير أنّ المنحنى التنغمي للآيات يشهد من حين لآخر خطفات صوتية عالية

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ص386.

(2) - سليمان بن عمر العجيلي الشافعي: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الحفّية، ج5، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 5، 2018م، ص413.

موضع أدوات التوكيد الخمس التي تشتمل عليها الآيات.

• الخبر لبيان هيمنة القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُذُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة النمل، الآيتين: 76-77].

في الآيتين خبر إنكاري فيه تأكيد على عظمة القرآن وهيمنته على باقي الكتب السماوية، وأنه أعظم حجّة على صدق محمد ﷺ وعلى صدق رسالته، فهو هداية لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم من العذاب. يقول "السعدي" في بيان هذه الدلالة: «وهو خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها، وما قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقصّ هذا القرآن قصّاً زال به الإشكال وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها، وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح، وإزالة كلّ خلاف، وفصل كلّ مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كلّ أحد يُقابل النعمة بالشكر»⁽¹⁾.

ودلالة الهيمنة والعظمة ومعهما أسلوب التوكيد، يُناسبها منحنى الرفع، وعليه فإنّ الآيتين تُؤدّيان بنعمة صاعدة، تُختم الثانية منهما بنعمة هابطة أواخر المقاطع الصوتية.

ليست هذه الأغراض فقط التي يمكن للخبر الخروج إليها، بل توجد أغراض أخرى لم يشهد الخبر في سور الطواسين الخروج إليها على غرار: الحثّ على السعي وتحريك الهمّة، الخبر للإنكار، الخبر للمدح، الخبر للتمنّي، الخبر للأمر، الخبر للنهي، الخبر للوعد، وغيرها.

(1) - السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المّان، ص580.

الفصل الثاني: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوبية الأمر والنهي في سور الطواسين

قبل التعرّض لمعرفة الأغراض التي خرج إليها كل من أسلوب الأمر والنهي في سور الطواسين، والتي فضّلتُ الجمع بينهما في مبحث واحد، نظرا للعلاقة الوطيدة التي تربطهما مع بعضهما البعض كما سنرى لاحقا، كان لا بدّ أولا من تمهيد حول الإنشاء وأقسامه، مادام أنّ الأسلوبين ينتميان إلى هذا الصنف من الكلام، وليس إلى الأسلوب الخبري.

المبحث الأول: مفهوم الإنشاء وأقسامه

المطلب الأول: تعريف الإنشاء لغة: تحمل مادة "نَشَأَ" في دلالتها المعجمية عدّة معاني لغوية منها: الأصل والإحداث والابتكار والابتداع، ورد في "المصباح المنير" في باب تفسيره لهذه المادة: «نَشَأَ الشَّيْءُ (نَشَأًا) مَهْمُوزٌ مِنْ بَابِ نَفَعٍ: حَدَثَ وَتَجَدَّدَ، وَ(أَنْشَأْتُهُ): أَحَدَيْتُهُ، وَالاسْمُ (النَّشْأَةُ) وَ(النَّشَاءَةُ) وَزَانُ التَّمَرَةِ وَالضَّلَالَةَ، وَ(نَشَأْتُ) فِي بَنِي فُلَانٍ (نَشَأًا) زُبَيْتٌ فِيهِ وَالاسْمُ (النُّشَيْ) مِثْلُ قُفْلٍ...»⁽¹⁾

ومن المعاني اللغوية الأخرى للإنشاء: الخلق والإيجاد والابتداء، وكذا الارتفاع، يقول صاحب "مختار الصحاح": «أَنْشَأَهُ اللهُ: خَلَقَهُ، وَالْأَمَمُ (النَّشْأَةُ) وَ(النَّشَاءَةُ) بِالْمَدِّ أَيْضًا، وَ(أَنْشَأَ) يَفْعُلُ كَذَا أَيْ ابْتَدَأَ، وَ(نَشَأًا) فِي بَنِي فُلَانٍ: شَبَّ فِيهِمْ (...) وَ(نَاشِئَةُ) اللَّيْلِ: أَوَّلُ سَاعَاتِهِ، وَقِيلَ مَا يَنْشَأُ فِيهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَ(نَشَأَتِ) السَّحَابَةُ: ارْتَفَعَتْ وَ(أَنْشَأَهَا) اللهُ، وَ(الْمُنْشَأَاتُ) السَّفِينُ الَّتِي رُفِعَ قَلْعُهَا»⁽²⁾.

المطلب الثاني: تعريف الإنشاء اصطلاحا: الإنشاء هو: «كلّ كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ لأنّه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه، وهذا ما اعتمد عليه القدماء حينما فصلوا بين الخبر والإنشاء»⁽³⁾، وفي تعريف آخر للإنشاء هو: «ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، نحو: اغفر وارحم، فلا يُنسب إلى قائله صدق أو كذب، وإن شئت فقل في تعريف الإنشاء ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقّق إلّا إذا تَلَفَّظَ بِهِ، فَطَلَبُ الْفِعْلِ فِي (افْعَلْ) وَطَلَبُ الْكُفِّ فِي (لَا تَفْعَلْ)، وَطَلَبُ الْمَحْبُوبِ فِي (الْتَمَيِّ) وَطَلَبُ الْفَهْمِ فِي (الاسْتِفْهَامِ) وَطَلَبُ الْإِقْبَالِ فِي (النَّدَاءِ)، كُلٌّ ذَلِكَ مَا حَصَلَ إِلَّا بِنَفْسِ الصِّيغِ الْمَتَلَفِّظِ بِهَا»⁽⁴⁾.

وفيما يخصّ علاقة الدلالة المعجمية للإنشاء بالمعنى الاصطلاحي ترى "إنعام عكاوي" أنّ الإنشاء في علم

(1) - الفَيَّومِي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، مادة "نَشَأَ".

(2) - مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ الْقَادِرِ الرَّازِيِّ: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، دط، 1986م، مادة "نَشَأَ".

(3) - أحمد مطلوب: أساليب بلاغية: الفصاحة، البلاغة، المعاني، ص 107.

(4) - السيّد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 69.

البلاغة يخالف هذا المذكور؛ أي دلالة الإنشاء على الابتداء والابتداء... الخ.⁽¹⁾

بيد أنّ هناك صلة وطيدة بينهما؛ فالطلب هو ما يستدعي أمراً غير حاصل في ذلك الوقت، في حين أنّ الطالب حينما يريد أن يطلب فإنّه يستهلّ كلامه بأمر لم يكن موجوداً من قبل.

المطلب الثالث: أقسام الإنشاء: ينقسم الإنشاء إلى قسمين هما:

1- الإنشاء الطلبي: وهو: «ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب».⁽²⁾

بمعنى أنّه لا يتحقّق مراد الطالب، إلّا بعد التلقّف بالطلب، وهذا لا يحصل إلّا بعد وقت الطلب.

وينقسم الإنشاء الطلبي بدوره إلى قسمين: «طلب سلبي وطلب إيجابي؛ فالطلب الإيجابي هو الأمر والتمني، والطلب السلبي هو النهي، وكلا الأمرين وارد في كتاب الله تعالى».⁽³⁾

2- الإنشاء غير الطلبي: وهو: «ما لا يستدعي مطلوباً، وأساليبه كثيرة منها: المدح، والذم، والتعجب، والرجاء، والقسم، وصيغ العقود، وكلمة الخبرية، وربّ».⁽⁴⁾

وللتفريق بين الإنشاءين: الطلبي وغير الطلبي، يُلاحظ في الإنشاء الطلبي أنّ «وجود معنى الجملة يتأخّر عن وجود لفظه، على عكس الإنشاء غير الطلبي؛ إذ يتحقّق وجود معناه في الوقت الذي يتحقّق فيه وجود لفظه، فإذا قال شخص لآخر: بعثك هذه السيارة، وقال الآخر: قبلت، فإنّ معنى البيع والقبول يتحقّق في وقت التلقّف بكلمتي بعثك وقبلت، أمّا إذا دعا رجل ربّه: ربّ اغفر لي، فإنّ معنى الغفران يتحقّق، أو يرجى تحقّقه بعد الدعاء».⁽⁵⁾

هذا، ويميل العلماء إلى إخراج الإنشاء غير الطلبي من حيّز البلاغة، لقلة الفوائد البلاغية في صيغته وأساليبه، ويرون أنّ ألوان الإنشاء غير الطلبي يمكن أن تُدرج في سلك الأخبار، اللهمّ إلّا أسلوب الرجاء فهو أقرب إلى الإنشاء الطلبي ويلحق ببحث التمني، ومن ثمّ فإنّ الإنشاء غير الطلبي أقرب إلى مباحث النحو من مباحث البلاغة.⁽⁶⁾

(1) - إنعام نوال عكاوي: المعجم المفصّل في علوم البلاغة - البديع والبيان والمعني، ص 236.

(2) - حفي ناصف وآخرون: دروس البلاغة، شرحه: محمد بن صالح العثيمين، مكتبة أهل الأثر وشركة غراس للطباعة والكمبيوتر، الكويت، ط 1، 1425هـ / 2004م، ص 41.

(3) - يحيى بن حمزة العلوي: كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، ط 1، 1914م، ص 280.

(4) - عبد العزيز بن علي الحريري: البلاغة الميسرة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط 2، 1432هـ / 2011م، ص 42.

(5) - شكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج 1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 6، 1999م، ص 75.

(6) - يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية - علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط 1، 1427هـ / 2007م، ص 63.

ولأجل ذلك سنهتّم في هذا البحث بالإنشاء الطلبي فقط، ومختلف الأغراض المنبثقة عنه، وسنبداً بحول الله مع أسلوب الأمر والنهي.

المبحث الثاني: الأمر

المطلب الأول: مفهومه وصيغته

1- تعريف الأمر: الأمر في اللغة يحيل على معنى طلب القيام بالفعل على سبيل الإيجاب، أمّا دلالته في الاصطلاح فهو: «طلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء والإلزام»⁽¹⁾.

2- صيغ الأمر: للأمر أربع صيغ تنوب كلّ منها مناب الأخرى في طلب أيّ فعل من الأفعال على وجه الاستعلاء، وهذه الصيغ هي:⁽²⁾

• فعل الأمر مثل أفعال من قبيل: اعمل، اذهب، امض،... نحو قوله تعالى: ﴿وَرَقِلَ الْقُرْآنَ أَنْ تَتِيَلًا﴾ [سورة المزمل، الآية: 04].

• المضارع المقترن بلام الأمر نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ...﴾ [سورة الطلاق، الآية: 07].

• اسم فعل الأمر نحو: رويدك، أمين، صه، وكذا "عليكم" بمعنى ألزموا في مثل قوله تعالى: ﴿...عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ [سورة المائدة، الآية: 105].

• المصدر النائب عن فعل الأمر نحو: سعيا إلى الخير، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ...﴾ [سورة محمد، الآية: 04]، بمعنى فاضربوا الرقاب ضرباً.

إذاً، الأصل في الأمر أن يُفيد طلب حصول الفعل على وجه اللزوم من الأعلى إلى الأدنى، وما عداه فإنّه يحتاج إلى قرائن أخرى تُستفاد من سياق الكلام، ممّا يعني أنّ الأمر في هذه الحالة يخرج عن معناه الأصلي الذي وُضع له إلى معاني مجازية أخرى، تُكتسب من خلال المقام، والحال التي يكون عليه المتكلم أو المخاطب.

المطلب الثاني: أغراض الأمر البلاغية: إذا تضمّن التركيب اللغوي أمراً، وكان هذا الأخير يفيد طلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء، فإنّه في هذه الحالة يكون أمراً حقيقياً [في الغالب]، أمّا إذا خرج عن هذا المعنى صار الهدف منه تحقيق غرض مجازي آخر غير الغرض الذي وُضع له في الأصل، هذا ويمكن الوقوف على الغرض

(1)- شكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج1، ص96.

(2)- ينظر: ابن عبد الله أحمد شعيب: الميسر في البلاغة العربية- دروس وتمارين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/ 2008م، ص154-155.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

المجازي من خلال الشكل الظاهري للبنية اللغوية، كما يمكن التعرف عليه من خلال الأداء كما أسلفنا؛ وعليه فـ «الأساليب تُحافظ على بنيتها التركيبية، ولكن دلالتها تتغير بتغير النطاقات التنغمية، حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تَسبب عنه تباين هذه المعاني، لأنّ هذه الحمل لم تتعرض في بنيتها ولم يُضف إليها أو يُستخرج منها شيء، ولم يتغير فيها إلاّ التنغيم، وما قد يصاحبه من تعبيرات الملامح وأعضاء الجسم ممّا يعدّ من القرائن الحالية، وبهذا تصبح المعاني تتلعب بالألفاظ، فيما يقوم التنغيم بخاصة والأداء بعامة دليلاً على الدلالات والمقاصد، ومن هنا يمكننا القول: إنّ التنغيم يقوم برفع اللبس الدلالي بين الجمل»⁽¹⁾. وقبل الوقوف عند أبرز هذه الأغراض البلاغية لأسلوب الأمر، والتي تُكتشف من خلال السياق والأداء، نورد ههنا بعض مواضع الأمر الحقيقي في سور الطواسين:

1- الأمر الحقيقي: اتفق اللغويون وعلماء البلاغة على معيار يميّزون من خلاله بين أضرب الأمر، إن كان حقيقياً أم مجازياً؛ فما كان الطلب فيه صادراً من الأعلى إلى الأدنى، أي على وجه الاستعلاء كان الأمر فيه حقيقياً، وما عدا ذلك؛ أي الطلب الصادر من الأدنى إلى الأعلى أو من طرفين متساويين، فالأمر حينئذ مجازياً، غير أنّ هذا المعيار ليس مطلقاً، ولا يتماشى مع كلّ التراكيب اللغوية [على قلتها]، فقد يكون الأمر صادراً على وجه الاستعلاء والوزوم، ولكن لا يُراد منه المعنى الحقيقي، بل يُقصد به المعنى الضمني الذي يستلزمه المقام ويكشفه الأداء.

هذا، وقد ورد في سور الطواسين الأمر بنوعيه: الحقيقي والمجازي، لذا فإنّ المعوّل عليه في التفريق بين الأضرب المذكورة للأمر، واكتشاف المعنى المراد إيصاله هو: السياق إلى جانب ما يلعبه الأداء التنغمي من دور فعّال في هذا المضمار، فهما معياران كفيّلان بتحسينا الوقوع في اللبس أو الزلل.

سنورد فيما يلي بعض مواضع الأمر الحقيقي الواردة في سور الطواسين:

- الفعل: "أيت": سورة الشعراء، الآية: 16
- الفعل: "اسر": سورة الشعراء، الآية: 52
- الفعل: "اضرب": سورة الشعراء، الآية: 63
- الفعل: "اتل": سورة الشعراء، الآية: 69، وبالجمع "اتلوا": سورة النمل، الآية: 92.
- الفعل: "قل": سورة الشعراء، الآية: 216، سورة النمل، الآيات: 65 + 72 + 92 + 93، وسورة

(1) - ينظر: تمام حستان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص228. وكذا: أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، صص284-285.

القصص، الآية: 85.

• الفعل: "الْقِي" (للمذكّر): سورة النمل، الآيتين: 10 + 28، و"الْقِي" (للمؤنث): سورة القصص، الآية: 07.

• الفعل: "أَدْخَلَ" (للمذكّر): سورة النمل، الآية: 12، و"أَدْخَلِي" (للمؤنث): سورة النمل، الآية: 44.

• الفعل: "تَوَكَّلْ": سورة النمل، الآية: 79.

• الفعل: "اعْبُدُوا" (للجماعة): سورة النمل، الآية: 45.

• الفعل: "نَكَّرُوا" (للمجمع): سورة النمل، الآية: 41.

• الفعل: "أَذْهَبْ": سورة النمل، الآية: 28.

• الفعل: "تَوَلَّ": سورة النمل، الآية: 28.

• الفعل: "انظُرْ": سورة النمل، الآية: 28.

• الفعل: "اسئلك": سورة القصص، الآية: 32.

هذا، وستعرّف فيما يأتي على أداء بعض هذه النماذج:

الموضع 01: قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 52].

في الآية أمر صريح صادر على وجه الاستعلاء من الله عزّ وجلّ إلى نبيّه موسى عليه السلام، الذي طالبه فيه على سبيل الإلزام والوجوب بأن يسير ليلا باتجاه البحر بيني إسرائيل، حتّى إذا اتبعوكم إليه كان حتفهم فيه. قال "المراغي" موضّحا دلالة الأمر الحقيقية في الآية: «أي وأوحينا إليه أن سرّ بعبادي ليلا، حتّى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدّم عليهم، فلا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر، بل يكونون على إثركم حتّى تلجونه، فيدخلون مدخلكم؛ فأطبقه عليهم فيغرقون»⁽¹⁾.

والأمر الحقيقي في الأداء من مواضع الرفع^(*)، لذا فإنّ الآية تُستهلّ بنغمة مستوية عند قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾، تتبعها نغمة الأمر الصاعدة، ثمّ إنّ ما يزيدتها تقوية وترسيخا ما في الآية من تأكيد، لتتحدّر بعدها النغمة في نهاية الآية، دليلا على اكتمال المعنى وتمامه ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾.

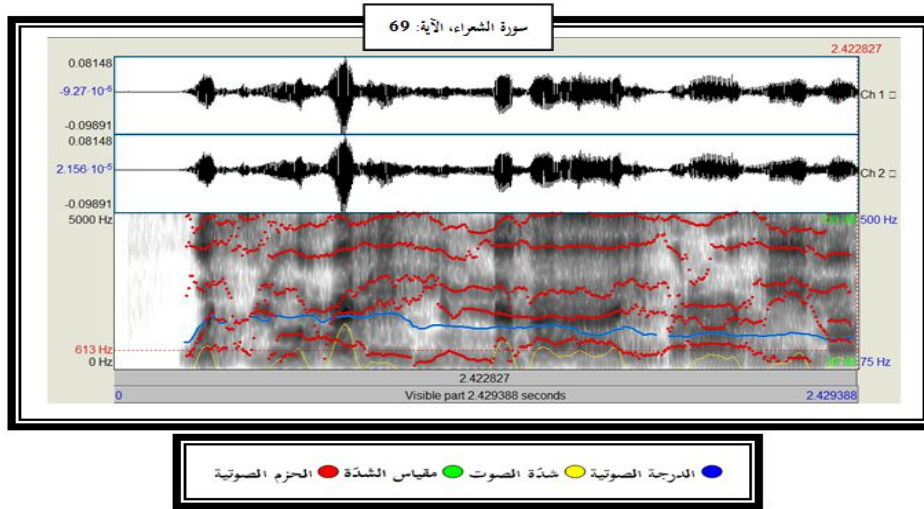
الموضع 02: وقال أيضا: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ آبَائِهِمْ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 69].

الأمر في هذه الآية صادر من الأعلى (الله تعالى)، إلى الأدنى (الرسول محمد صلى الله عليه وسلم)، وفيه يدعو إلى سرد

(1) - المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص43.

(*) - ينظر: تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، ص84.

أخبار إبراهيم عليه السلام على أمته، حتى تكون في قصته وقصص الأنبياء السابقين عبرة لهم يقتدوا بها، ويسيروا على نَحْجِهَا، وهذا أمراً صريحاً موجّه إلى النبي ﷺ، لذا فإن الآية تُتلى كلّها بالنعمة نفسها، هي: النعمة العالية، وتظلّ كذلك لعدم تمام المعنى واتّصاله بما بعده، وكأنّ الكلام ينتهي بفاصلة توحى بوجود كلام آخر يليها متّصل بما قبلها، وهنا يكمن دور التنغم في بيان اكتمال الدلالة من عدمها. ولتوضيح الفكرة أكثر نقدّم الشكل رقم: 26 الذي يتبيّن من خلاله المنحنى الإيقاعي للآية الكريمة:



الشكل رقم: 26

كما أشرنا فإنّ الأمر الحقيقي يحتاج إلى علوّ في درجات الصوت، وإلى جهد عضلي إضافي من أجل إنتاج الصوت، وهذا ما ترجمه الأرقام في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
147.786 هرتز	188.374 هرتز	226.604 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	56.02 ديسيبل	64.37 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
2.43 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 69 من سورة الشعراء

الموضع 03: وقوله: ﴿أَذْهَبْ بِكِ كَيْ هَذَا فَأَلْقِهَا إِلَيْهِنَّ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 28].

ضمّت هذه الآية أربعة أفعال للأمر، وهي الآية الوحيدة من سور الطواسين التي يجتمع فيها هذا العدد من أفعال الأمر، هذه الأخيرة التي جاءت متعاقبة حسب الترتيب الزمني لوقوع الأحداث؛ فالأمر في الآية صادر من العاقل إلى غير العاقل، إذ أمر فيه سليمان عليه السلام الهدهد بأربعة أوامر: الأول: الذهاب بالكتاب إلى ملكة سبأ

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

وجندها، والثاني: إيصاله للرسالة إليهم، والثالث: التنصت عنهم بعد التنحي جانبا إلى مكان قريب منهم متواريا ومستترا، لتأنيبي بالأمر الرابع وهو: ردّهم وجوابهم، دون أن يكون لهم علم بوصوله إليّ.

ونمط التنعيم في الآية هو: التنعيم الصاعد، نظير توالي أفعال الأمر الحقيقية في الآية، فلا يكاد المنحنى ينحدر حتى يعود للارتفاع مرّة أخرى، ليشهد في نهايته هبوطا موضع الوقف وتمام المعنى.

الموضع 04: ويقول أيضا في السورة ذاتها: ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 41].

الأمر في هذه الآية حقيقي أيضا، ليس بحاجة إلى تأويل أو البحث عن الغرض الذي صيغ من أجله، فالطلب فيه صادر من سليمان عليه السلام إلى جنده، حين أمرهم بتغيير عرش بلقيس وتبديل هيئته، حتى يختبر ذكاءها، هل ستعرفه أم يتشابه عليها؟

عموما فإنّ الآية تُفتتح بنغمة مستوية تمثل المقطعين المتصدّرين للآية: { قَالَ = ص ح ح + ص ح }، تليها نغمة الأمر المرتفعة، تشمل قوله: ﴿نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾، ليأخذ بعدها المنحنى التنغيي أبحاها معتدلا، متمثلا في النغمة المسطّحة، يجسدها غرض الاختيار الذي خرج إليه الاستفهام ههنا؛ أي عند قوله: ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، هذا الشطر الذي يُختتم بنغمة هابطة، لتمام المعنى واكتمال المراد.

2- الأمر المجازي: إلى جانب ورود الأمر على حقيقته (القوة الإنجازية الحرفية)، فإنّه قد يخرج في كثير من الأحيان عمّا يقتضيه الطاهر - كما ذكرنا آنفا -، فيصير الطلب فيه ليس على وجه الاستعلاء، بل يتحوّل من معناه الأصلي، إلى صيغ ومعاني بلاغية (القوة الإنجازية المستلزمة)، تُفهم من خلال السياق والأداء الصوتي، وسندكر فيما يلي بعض الأغراض المجازية التي خرج إليها أسلوب الأمر في سور الطواسين:

• **التقرير:** رأينا في السابق أنّ التقرير معناه: حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عنده، وقد ورد ذلك في سورة النمل عند قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 59]، وقوله أيضا في موضع آخر في آخر السورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۗ وَمَا رَبُّكَ بِعَظِيمٍ ۗ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 93].

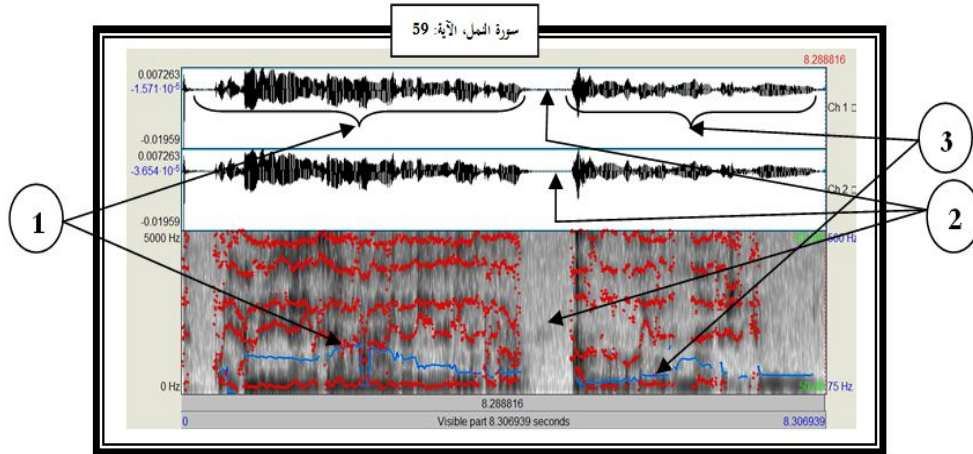
في كلا الموضعين أمر خرج عن معناه الأصلي إلى معنى مجازي، مفاده: إلزام المخاطب الاعتراف بالشيء المطلوب أو الإفصاح عنه، مع امتزاج هذا الغرض أحيانا بدلالة التبيكيت والسخرية، وأحيانا أخرى بالوعيد والتهديد؛ ففي الآية الأولى يقول "ابن عطية": «وهذا ابتداء تقرير، وتنبية لقريش، وهو بعد يعمّ كلّ مكلف من الناس جميعا، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتحميده، وبالسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوءة والإيمان، فهذا

اللفظ عامٌ لجميعهم من بني آدم، وكان هذا صدر خطبة للتقرير المذكور»⁽¹⁾.

وقول "الصابوني" في الثانية، مبينًا خروج فعل الأمر (قل) إلى معنى الاعتراف بالنعم: «أي قل يا محمد: الحمد لله على ما خصني به من شرف النبوة والرسالة، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام»⁽²⁾.
 إنَّ ما يميّز النطاق النغمي للآية 59 من سورة النمل هو: اتّجاه المنحنى الإيقاعي فيها نحو الأسفل ؛ إذ تُستهلّ الآية بنغمة التقرير المستوية، تشمل قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾، لتشهد النغمة بعدها انخفاضًا محسوسًا موضع السخرية والتهمك، اللذان خرجا إليهما الاستفهام؛ أي عند قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

بيد أنّ المنحنى الإيقاعي للآية 93 من سورة النمل، يبدأ بالمستوى ذاته الذي شهدناه في الآية السابقة، لكنّه ما يلبث أن يعرف اتّجاهًا مخالفًا للاتّجاه الذي سجّلناه في الشطر الثاني من الآية 59، وقياسًا على هذا، فإنّ النطاق النغمي لهذه الآية يميّزه اتّجاه منحنى التنغيم نحو الأعلى ؛ إذ تُستهلّ بنغمة تقريرية مسطّحة عند قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، لتشهد بعدها ارتفاعًا ملحوظًا، من شأن هذا العلوّ أن يستحضر دلالات التهديد والوعيد، التي تميّز ألفاظ ما تبقي من التركيب.

ونقدّم الآن مخطّطًا توضيحيًا للمنحنى الإيقاعي في الآية 59 من سورة النمل على سبيل التمثيل:



الشكل رقم: 27

الملاحظ أنّ المنحنى الإيقاعي في هذه الآية أيضًا يتّجه اتّجاهًا تنازليًا ، حيث يمثّل النطاق النغمي الذي يشير إليه الرقم 1 نغمة التقرير المستوية، أمّا الرقم 3 فيشير إلى ذلك النطاق النغمي الذي تمثّله النغمة

(1)- ابن عطية الأندلسي: المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص266.

(2)- الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص ص 386-387.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

المهابطة موضع الاستفهام للتهكم، يفصل بين النطاقين سكتة إيقاعية خفيفة لاسترجاع النفس، وهذا ما يشير إليه الرقم 2 في الصورة أعلاه.

يمكننا تلخيص ما ورد في هذه الصورة من نتائج من خلال الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
76.955 هرتز	138.007 هرتز	205.000 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
8.31 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 59 من سورة النمل

وقوله في سورة القصص: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَ كُفْرِهِمْ فَمَا يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَلَا أُولُوا الْعَذَابِ لِوَأَنَّهُمْ كَانُوا يَهِتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

[سورة القصص، الآية: 64].

يبدو أنّ الأمر الوارد في هذه الآية فيه طلب القيام بالفعل على وجه الإلزام والاستعلاء، لكونه صادرا من الأعلى (الله سبحانه وتعالى) إلى الأدنى (المشركون والكفرة)، غير أنّ السياق وحتى طريقة أداء الآية، من شأنهما توجيه المعنى وتحديد الغرض المقصود من الأمر، لأنّه هنا ليس على حقيقته رغم ما فيه من استعلاء، بل هو دعوة من الله جلّ وعلا للمشركين بضرورة الاعتراف بعملهم وتوبيخا لهم عليه، ومعنى الآية: ادعوا أيّها المشركون آلهتكم المعبودة، التي زعمتم - جهلا منكم - أنّها شريكة مع الله في الخلق والتدبير، ادعوا حتى تدفع عنكم العذاب، فلمّا دعوا غلبت عليهم الدهشة والحسرة، لكونها قد عجزت عن إجابتهم.

يقول "الرازي" في بيان الغرض المقصود من الأمر في الآية: «والأقرب أنّ هذا على سبيل التقرير، لأنّهم يعلمون أنّه لا فائدة في دعائهم لهم، فالمراد أنّهم لو دعوه لم يوجد منهم إجابة في النصرة، وأنّ العذاب ثابت فيهم، وكلّ ذلك على وجه التوبيخ، وفي ذكره ردع وزجر في دار الدنيا»⁽¹⁾.

والآية تُتلى لا بنغمة الأمر، بل بنغمة التقرير الذي خرج إليه المعنى، لذا فهي تُستهلّ بنغمة مستوية، محافظة على المستوى الصوتي نفسه، لتتدرّج شيئا فشيئا نحو انخفاض الدرجة نهاية الآية، موضع الوقف وتتمام المعنى.

• الأمر للدعاء: هو: «الطلب على سبيل الاستغاثة والتضرّع والعفو، ويكون من الأدنى إلى الأعلى»⁽²⁾.

والعلاقة بين الأمر والدعاء في: «الإطلاق والتقييد؛ لأنّ الأمر طلب على وجه الاستعلاء، فأطلق عن قيده، ثمّ

(1)- الرازي: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ص9.

(2)- حلمي علي مرزوق: في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني)، كلية الآداب، جامعة بيروت العربية، لبنان، دط، 1999م، ص255.

أريد منه الطلب على وجه التضرع، وهو معنى الدعاء، وسرّ بلاغة التعبير بالأمر في مقام الدعاء إظهار كمال الخضوع للمولى عزّ وجلّ، وبيان شدّة رغبة العبد في الغفران والتوبة، كأتهما أمران مطلوبان من الله جلّ وعلا»⁽¹⁾.
إدّا، فمن المسلمّ به أنّ الأمر في الدعاء، لا يمكن له أن يكون صادرا من الأعلى إلى الأدنى، سواء أكان ذلك في سور الطواسين أم في غيرها من سور القرآن الكريم، ممّا يعني سقوط شرط الاستعلاء في استدعاء مثل هكذا أغراض، يقول "التهانوي" (ت: 1158هـ) في هذا الصدد: «الدعاء طلب الفعل مع التسفّل والخضوع»⁽²⁾. هذا وقد شاع الدعاء في القرآن الكريم، وكثيرٌ ما ارتبط بتضرع الأنبياء لرّبهم، من أجل نصرتهم وإظهار الحقّ، فالدعاء يمكن أن يتجسّد في صورتين أساسيتين: إمّا أن تكون الغاية منه: إظهار الضعف والاحتياج، وإمّا أن تكون غايته: الإصرار والإلحاح في الطلب، وكلّ صورة من الصورتين المذكورتين تستدعي نمطا تنغميا خاصّا، من خلاله يمكن معرفة المعنى المقصود من الدعاء، وتحديد غايته بدقّة، لذا سنحاول فيما يأتي عرض بعض النماذج التي خرج فيها الأمر لغرض الدعاء في سور الطواسين، والوقوف على دلالتها انطلاقا من الأداء التنغمي لمقاطعها الصوتية:

يقول المولى عزّ وجلّ في سورة الشعراء على لسان نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِينَ ۝۸۳ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝۸۴ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝۸۵ وَأَعْفِرْ لِي إِنِّي إِلَهُهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝۸۶﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 83، 86].

اشتملت الآيات المذكورة على خمسة أفعال للأمر، كلّها جاءت للدعاء؛ فهي هنا صادرة من الأدنى (إبراهيم عليه السلام) إلى الأعلى (الله تعالى)، فلا يُعقل أن يأمر نبيّ ربّه، ويلزمه بضرورة القيام بالفعل المأمور به، إذا فواضح من خلال السياق أنّ الكلام لا يُراد به الأمر على حقيقته، بل هو موضوع على سبيل المجاز ليدلّ على معنى الدعاء، يقول صاحب "أيسر التفاسير" موضّحا هذا المعنى: «ثمّ دعا إبراهيم ربّه أن يؤتبه علما ورأيا سديدا (حُكْمًا- وقيل بل المراد بالحكم هنا النبوة)، وأن يوفّقه إلى العمل في طاعة ربّه، ليكون في زمرة المقرّبين إليه المطيعين له، المؤهلين ليحمل رسالته، وأن يجعل له ذكرا جميلا يذكّره به من يأتي بعده، وأن يكون قُدوة يُقتدى به، بما يُوفّقه إليه ربّه من عمل الخير، وأن ينعم عليه ربّه في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعده، وأن يُنعم عليه في الآخرة بأن يجعله ممّن يرثون

(1)- جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص53.

(2)- محمد علي التهانوي: موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ص785.

جنة النعيم، ودعا إبراهيم ربه ليغفر لأبيه، لأنه كان مشركاً بالله ضالاً عن طريق الهدى...»⁽¹⁾.

كما لا يخفى على أحد أنّ للتنعيم هو الآخر دخلاً في بيان هذا الغرض وإيضاحه؛ إذ يقف جنباً إلى جنب مع السياق في توجيه المعاني والدلالات، وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآيات تُتلى في العموم بتنغيم صاعد، وبعلوّ موسيقي معيّن يوحي بأنّ الداعي وهو إبراهيم عليه السلام يلجّ في دعائه ويصرّ على الطلب، استناداً لقول "أحمد البايبي": «يستثمر منحنى الرفع أيضاً في التعبير عن الدعاء»⁽²⁾.

لعلّ من القرائن الدالة على الإصرار: تكرار الدعاء في الآيات الأربع المذكورة، ولكن هذا لا يمنع من وجود بعض المواضع التي ينخفض فيها الصوت حيناً، ويعتدل حيناً آخر، ليشكّل الأداء منحنى إيقاعي متذبذب، يغلب عليه الطابع التنغيبي المرتفع.

وقوله في موضع آخر من السورة ذاتها على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 117 و118].

حوت الآية 118 على فعلين من أفعال الأمر هما: {افتح، ونجني}، يبدو أنّ الأمر فيهما صريحاً، غير أنّ المقام الذي وردا فيه هو مقام الضراعة، ممّا يعني أنّ الفعلين غير مباشرين، غرضهما ضمني لا يتطابق مع قوّتهما الإنجازية، فمن غير المنطقي أن يأمر نوح ربه، بل المراد من الأمر ههنا: إظهار الضراعة والضعف وشدّة الحاجة إلى الله عزّ وجلّ، فلم يجد نوح عليه السلام وسيلة أخرى غير طلب النصرة من ربه، فهو وحده كفيل بذلك، يقول صاحب "أيسر التفاسير": «دعا نوح عليه السلام عليهم، واستنصر ربه عليهم، وقال لرّبه: ربّ إنّ قومي كذّبوني، ثمّ رجا ربه أن يفرّق بينه وبين قومه، وأن يحكم بينهم بالحقّ، وأن ينجّه والذين آمنوا معه من العذاب الذي سيُنزله الله بهؤلاء الكافرين المكذّبين»⁽³⁾.

والدليل على فاعلية التنعيم في مثل هكذا مواضع، اختلاف اتجاه النغمة المرتبطة بأداء أسلوب الأمر، الذي خرج إلى الدعاء في هذه الآية، عن اتجاه النغمة في الآيات السابقة، على الرغم من أنّ الغرض واحد، إلّا أنّ الأداء مختلف؛ فالدعاء في الآيات الأولى كانت الغاية منه الإصرار والإلحاح، بيد أنّ الغاية من الدعاء في هذه الآية مختلف، كونه مشوباً بمعاني الضعف والتذلل للمولى عزّ وجلّ، ولا يناسب استحضار مثل هذه الدلالة، إلّا بأداء الآية بنغمة مستوية ميّالة إلى الهبوط أكثر، مع إضفاء لحن التحزين على القراءة.

(1) - أسعد محمود حومد: أيسر التفاسير (تفسير - أسباب نزول - أحاديث - نماذج إعراب)، ج2، تح: محمّد متوّلي الشعراوي وأحمد حسن مسلم، دون دار النشر، دب، ط4، 1419هـ / 2009م، ص911.

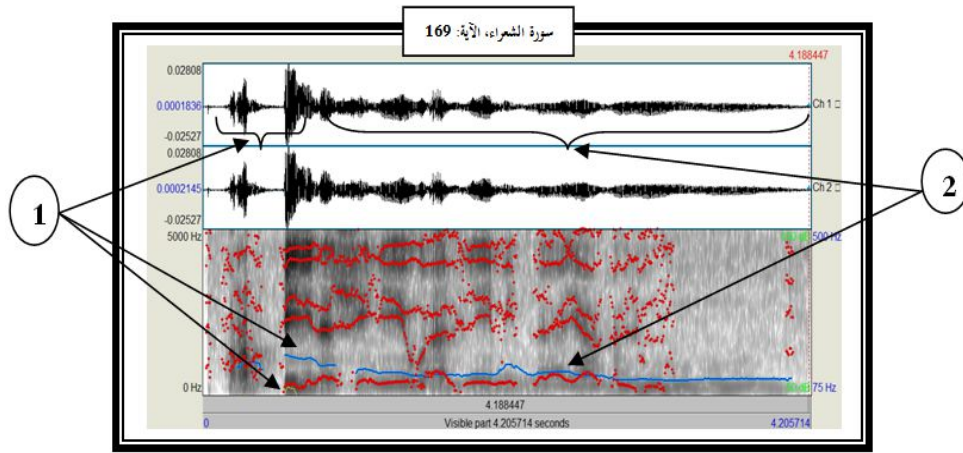
(2) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص292.

(3) - أسعد محمود حومد: المرجع السابق، ص915.

وفي الآية 169 من سورة الشعراء أيضا يقول الله جلّ وعلا على لسان نبيّه لوط **الطَّاسِلَاتِ**: ﴿رَبِّ يَنْجِنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 169].

أي بمعنى أنقذني وأهلي من العذاب الذي يستحقّه قومي جرّاء صنيعهم القبيح، فواضح أنّ كلام لوط ليس أمرا، لأنّه صادر من الأدنى إلى الأعلى؛ بل هو تضرّع ودعاء. قال "ابن عاشور": «وأقبل على الدعاء إلى الله أن ينجّيه وأهله ممّا يعمل قومه، أي من عذاب ما يعملونه...»⁽¹⁾.

وكان لجوء لوط **الطَّاسِلَاتِ** للدعاء بعد استنفاد كل طرق المعاملة وأساليب الدعوة إلى دين ربّه، فلم يجد بعد ذلك إلاّ الدعاء لنفسه وأهله، حتّى لا يمستهم العذاب الذي سيُسَلِّط على قومه، هذا يعني أنّ لوطا ههنا في مقام ضعف واحتياج، ودعاؤه كان على هذا الأساس. يقول "محمود عبّود زوين": «الدعاء: شعور القلب بالحاجة إلى عناية الله تعالى فيم يطلب، وصدق التوجّه فيما يرغب»⁽²⁾، ثمّ إنّ طريقة تنغم الآية تُظهر هذا الجانب المهمّ، وهنا يكمن أثره الصوتي ووظيفته الدلالية. وعلى هذا الأساس تُقرأ الآية بنغمة مستوية ميّالة نحو الهبوط إلى غاية المقطع الختامي منها، مشكّلة منحنى إيقاعيا تنازليا، تكون مسبوقة بنغمة أعلى نسبيا موضع النداء المحذوف أداته، تشمل المقطعين الصوتيين الأوّلين الذي يمثلهما لفظ (رَبِّ = ص ح ص + ص ح)، وذلك لما فيه من نبر على الصوت المشدّد. ولتقريب الصورة أكثر ينظر الشكل رقم: 28



الشكل رقم: 28

يمثّل الرقم 1 في هذه الصورة الخطفة الإيقاعية العالية التي تنتاب المقاطع الأولى من الآية موضع النبر على الحرف المشدّد، ودليل ذلك ظهور المنحنى الأصفر في هذا الموضع فقط دون غيره، أمّا الرقم 2 فيوضّح النمط

(1)- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص181.

(2)- محمود محمود عبّود زوين: الدّعاء: المعاني والصيغ والأنواع، ص13.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

التنغمي الذي يلي هذا العلو وهو النغمة المستوية الهابطة.

وأما الجدول التوضيحي أسفله، فيرصد لنا مختلف القيم المتعلقة بالخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي على مستوى هذه الآية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
112.591 هرتز	127.525 هرتز	179.135 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	51.99 ديسيل	52.48 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
4.20 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 169 من سورة الشعراء

وفي سورة أخرى من سور الطواسين يقول الله تعالى على لسان نبيّه سليمان **العليّة**: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 19].

فما ورد في هذه الآية من أفعال الأمر لم يكن نتيجة ضعف من الداعي، بقدر ما هو تضرّع منه وإصرار على طلب توفيق الله سبحانه وتعالى له على شكر النعمة، ودليل ذلك تكرار الأمر في الآية ثلاث مرّات، كما أنّ أداء الآية بنبرة قوية وعلو موسيقي من شأنه أن يُقوّي هذا الكلام ويعزّزه، يقول أحد الباحثين في بيان الغرض من الأمر في الآية: «في هذا السياق نلاحظ إثارة التعبير بقوله (أوزعني) لما يشي به من معاني وظلال تتناسب مع هذا الموقف، فهو يَصوّر رغبة سليمان **العليّة** في إخلاص الدعاء والشكر له؛ أي ألهمني وأجمع كلّ حوارحي ومشاعري ولساني وجميع طاقاتي، لتكون كلّها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديّ»⁽¹⁾.

هذا، وقد اجتمع في الآية ثلاثة أغراض كلّها تُؤدّي بتنغميم صاعد، وهي: التعجّب والنداء، إلى جانب الدعاء في ثلاثة مواطن كانت الغاية منه الإصرار؛ لذا صلّح له في هذه الآية رفع الصوت عملاً بقول "أحمد البايبي" السابق الذكر.

ومنحنى الرفع يتحكّم في السياق بطبيعة الحال، بل أنّ كليهما يخدم الآخر؛ فإذا كان الغرض من الدعاء الإلحاح كان الصوت مرتفعاً، أمّا إذا كان الهدف منه إظهار الضعف والاحتياج ناسبه حين ذاك خفض الصوت كما أشرنا سالفاً.

(1) - يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، إشراف: صباح عبيد دزاز، رسالة مقدّمة للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد، جامعة أمّ القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع البلاغة والنقد، المملكة العربية السعودية، 1410هـ/1990م، ص 114.

وعليه وبناء على ما قيل تُقرأ الآية كلّها بالنعمة ذاتها، وهي: النعمة الصاعدة استحضارا للدلالة المذكورة آنفا، أين تعرف هذه النعمة هبوطا آخر الآية، دليلا على تمام المعنى ووصولاً إلى موضع الوقف، مع تخلل النطاق النغمي للآية من حين إلى آخر سكتات إيقاعية خفيفة، يلجأ إليها القارئ لأخذ النفس قصد استئناف قراءته. وقد امتدّ الدعاء الذي خرج إليه الأمر في سور الطواسين إلى سورة القصص أيضا، وفيها يقول سبحانه وتعالى على لسان نبيّه موسى **الطَّيِّبَاتِ**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 16]، وقوله في موضع آخر: ﴿خَفَّجَ مِنْهَا خَافِقًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 21].

إنّ السياق الذي ورد فيه فعلا الأمر (اغفر) و(نجني)، يوحي بأنّ الصيغتين فيه غير صريحيتين، بل المراد منهما ما يخفيه ظاهر الكلام من دلالات باطنية، فالأمر فيهما صادر لا على وجه الاستعلاء، بل هو من الأدنى (موسى **الطَّيِّبَاتِ**) إلى الأعلى (الله تعالى)، لذا فقد خرج في كليهما إلى غرض الدعاء أيضا. ففي الآية 16 فيها تلميح إلى ندم موسى **الطَّيِّبَاتِ** ظلّمه لنفسه، إذ تجرأ على قتل النفس التي حرّم الله قتلها إلّا بالحقّ، الأمر الذي دفعه لطلب العفو، وهذا نتيجة ضعفه وحاجته الماسّة إلى الغفران. يقول "ابن عطية" في هذا الصدد: «ثمّ إنّ ندم موسى حمله على الخضوع لربه، والاستغفار عن ذنب باء به عنده تعالى، فغفر الله خطأه».⁽¹⁾

وأما في الآية 21، ففيها إخبار بخوف موسى **الطَّيِّبَاتِ** على نفسه نظير ما اقترفت يداه، حيث كان دائم الترقّب وانتظار وصول المكروه إليه، الأمر الذي دفعه أيضا إلى التضرّع للمولى عزّ وجلّ حتّى ينصره، ولجوءه إلى الدعاء كان نتيجة خوفه الشديد من فرعون وقومه، إلى جانب ضعفه وقلة حيلته تجاه جبروته وسلطانه. يقول "ابن عاشور" في معرض حديثه عن الآية: «وجملة (قَالَ رَبِّ نَجِّنِي) بدل اشتمال من جملة (يَتَرَقَّبُ)، لأنّ ترقّبه يشتمل على الدعاء إلى الله بأنّ ينجّيه».⁽²⁾

لمّا كانت نتيجة الدعاء في الآيتين واحدة، وهي: إظهار الضعف والاحتياج، فإنّ المناسب لاستدعاء غرض الدعاء ههنا هو: النعمة المستوية التي تجنح بأنّجاه الهبوط، وعليه فإنّ الآية 16 تُفتتح بنعمة التقرير المسطّحة، لما في النداء من اعتراف، تشمل هذه النعمة قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، وتستمرّ على المستوى ذاته، مع أنّجاهها نحو الانخفاض التدريجي شاملة باقي المجموعات المقطعية المشكّلة للآية الكريمة؛ أي

(1) - ابن عطية الأندلسي: المحرّز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص280.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص96.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ لِي فَعَفَرَ لِي ذَنْبَهُ وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

في حين تُستهلّ الآية 21 هي الأخرى بنغمة التقرير المستوية تشمل قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ﴾، تتبعها نغمة مستوية أخرى لعدم تمام الكلام، وارتباط الشطر الأول من الآية بالشطر الثاني؛ أي قوله: ﴿رَبِّ يَتَخَنَّى مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، هذا الأخير الذي يشهد انخفاضاً في الدرجة الصوتية أواخر مقاطع الآية، لتختتم بنغمة هابطة محلّ الوقفة، وتمام المعنى المراد إيصاله.

• الأمر للاستعانة:

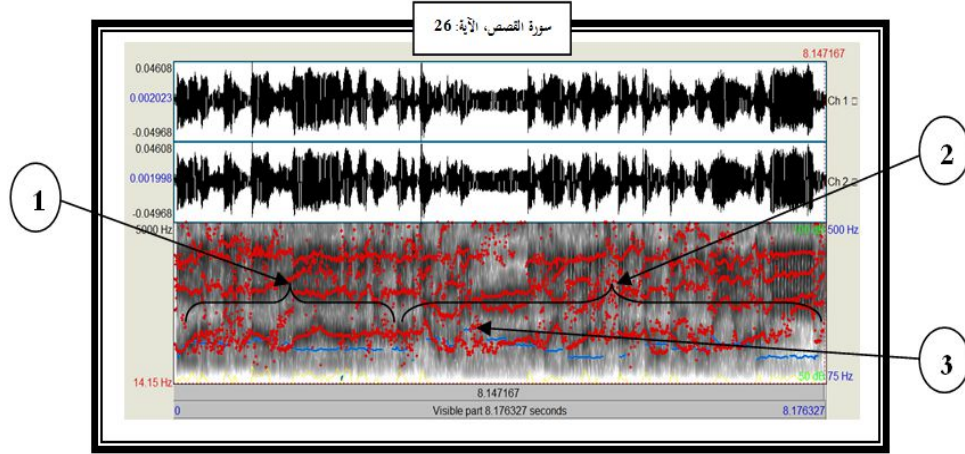
مثال ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْ لِي إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [سورة القصص، الآية، 26].

تضمّنت هذه الآية فعل أمر هو (استأجره)، ولكن واضح أنّه لم يُستخدم على سبيل الحقيقة، بل على سبيل المجاز، لسقوط شرط الاستعلاء في الطلب، فلا يُعقل للبنت أن تأمر والدها على وجه إلزامه القيام بالفعل المطلوب، وإتّما المقصود هنا: الطلب من والدها شعيب عليه السلام ونصحته، بأن يتخذ موسى عليه السلام أجيّراً له ليساعده في رعي الماشية وسقايتهما؛ فالآية تفيض بمعاني الرجاء والالتماس والرغبة، إلى جانب ما فيها من إشفاق على أبيهما كونه شيخاً ضعيفاً لم يعد يقوى على ذلك، إذ توسّمت البنت في موسى القوّة والأمانة، وهما شرطان كافيان للقيام بالأمر المقصود.

يقول "ابن عثيمين" في بيان خروج الأمر الوارد في هذه الآية إلى معنى طلب المعونة: «يا أبتِ استأجره: أي اجعله أجيّراً عندك، وهذا الأمر ليس بمعناه الحقيقي، فهو ليس طلباً للفعل على وجه الاستعلاء، لأنّ البنت لا يمكن أن تأمر أباًها أمراً، ولكنّه للاستعانة»⁽¹⁾.

إنّ الهدف الذي دفع البنت الإشارة إلى والدها بضرورة استئجار موسى عليه السلام للقيام بهذه المهمة، هو ضعفه على مباشرة رعي الغنم وسقايتهما لكبره، فلم يبق لأدائها إلاّ هي وأختها اللتان لم تعد لهما القدرة أيضاً على مزاحمة الأقوياء ومخالطة الرجال؛ إذا فالضعف والحاجة إلى السند القويّ كان نتيجتهم طلب المعونة، ولما كان المعنى كذلك، فإنّ المناسب لأداء الجزء الوارد فيه فعل الأمر هنا بنغمة هابطة منخفضة ﴿اسْتَجِرْ لِي إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، تسبقها نغمة التقرير المستوية تشمل قوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ﴾، والشكل رقم: 29 يوضّح المنحنى اللحني للآية الكريمة:

(1) - ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة القصص، ص 106.



الشكل رقم: 29

يمثل الرقم 1 في الصورة أعلاه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحَدَهُمَا يَتَأَتَّى﴾، حيث يكون هذا الشطر مصحوبا عموما بنغمة مسطحة كما نلاحظ، أما الرقم 2 فيمثل قوله: ﴿أَسْتَجِرُّهُ إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَجِرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وفي هذا الشطر يبدأ الأداء في الانخفاض لأنه موضع الأمر للاستعانة، غير أنه يعرف في بدايته خطفة إيقاعية عالية موضع التأكيد بيان والنبر على الحرف المشدد فيها، وهذا ما يشير إليه الرقم 3. وعموما يمكن عرض نتائج التحليل الفيزيائي في الآية من خلال الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
85.072 هرتز	168.808 هرتز	223.700 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.46 ديسيبل	54.98 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
8.18 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 26 من سورة القصص

• الأمر للدوام: يكون «حين تُستعمل الصيغة في مطلوب حاصل عند الطلب»⁽¹⁾.

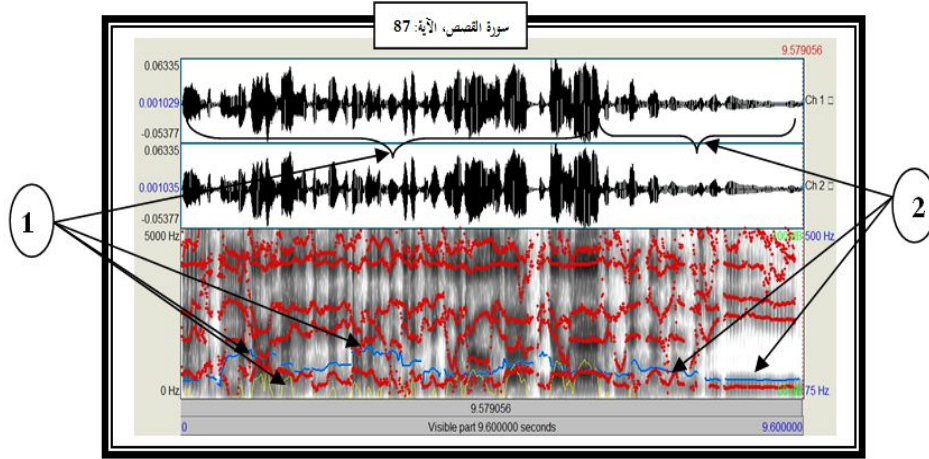
مثل قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 87].

معنى الآية: بلغ يا محمد رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم، واعبده وحده ولا تُشرك بعبادته أحدا غيره، ولا تترك الدعاء إليه، واستمر في تبليغ المشركين رسالتك، ولا تبال بمخالفتهم لك، فإن الله معك مؤيدك وناصرك عليهم، ولو أنك خالفت أمره وعصيته، ستكون ممن فعلَ المشركين.

(1) - جعفر السيد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص 62.

صحيح أنّ الأمر هنا صادر من الأعلى (الله تعالى) إلى الأدنى (الرسول ﷺ)، غير أنّ غرضه ليس هو إلزام المخاطب القيام بالطلب وجوبا، فالمتممّن في سياق الآية يُلاحظ مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه؛ إذ فيها دعوة من الخالق عزّ وجلّ لنبيه محمّد للمداومة والاستمرارية في دعوة المشركين لعبادة الله، وعدم الحياذ عن الطريق الذي رسمه له، فهو طلب لأمر حاصل وقت الطلب. يقول "الطاهر بن عاشور" في بيان هذا الغرض: «ادع إلى ربّك: مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله، لا إلى إيجاد الدعوة، لأنّ ذلك حاصل، أي لا يَصْرِفُكَ إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إغذارا لهم»⁽¹⁾.

والآية التي بين أيدينا تُتلى بنغمة صاعدة لاستهلالها بدلالة النهي، تستمرّ كذلك موضع الأمر للدوام، لتشهد بعدها انخفاضاً تدريجياً محسوساً في مستوى النغمة أواخر مقاطع الآية، حيث تنتهي بنغمة هابطة دليلاً على تمام المعنى وحصول المقصود. (ينظر الشكل التوضيحي رقم: 30)



الشكل رقم: 30

يمثّل الرقم 1 النطاق النغمي للنغمة الصاعدة، حيث يشهد هذا النطاق ارتفاعاً ملحوظاً في درجات الصوت وشدّته، وليس أدلّ على ذلك ما يعرفه المنحنين الأزرق والأصفر من علو، فعند هذا النطاق سجّل المنحنى الأزرق أعلى درجة صوتية بلغت حوالي 202 هرتز، في المقابل سجّل المنحنى الأصفر أعلى قيمة في شدّة الصوت تجاوزت 61 ديسيبل، أمّا الرقم 2 فيمثّل النطاق النغمي للنغمة الهابطة التي توحى بنهاية الآية. ولتفاصيل أكثر نورد ههنا جدولاً توضيحاً، لمختلف النتائج التي أسفر عليها التحليل الأكوستيكي لموجات الصوت اللغوي في هذه الآية الكريمة:

(1)- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص196.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
100.595 هرتز	145.870 هرتز	201.982 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	55.90 ديسيل	61.38 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
9.60 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 87 من سورة القصص

• الأمر للتسلية:

من المواضيع الأخرى التي نجد فيها مخالفة معنى الكلام لما يقتضيه ظاهر ألفاظه قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكْمُوسِي أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينِ﴾ [سورة القصص، الآية: 31].

في الآية فعالان من أفعال الأمر، ثم إن المتأمل فيهما يمكنه أن يميّز الغرض من كل فعل منهما، فعلى الرغم من صدور الأمر في كليهما من الأعلى (الله تعالى) إلى الأدنى (موسى عليه السلام)، إلا أنّ الأول منهما {أَلْقِ} يحمل دلالة حقيقية، تقتضي إلزام المخاطب القيام بالفعل المأمور به وجوبا، غير أنّ السياق الذي ورد فيه الفعل الثاني {أَقْبِلْ} مختلف كلّ المخالفة عن الأول، فلا يُراد منه طلب الإقبال بقدر ما فيه محاولة منه سبحانه وتعالى لتلطيف الجو، وإبعاد الخوف عن قلب موسى عليه السلام، ودليل ذلك ما جاء بعده (وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينِ)، وهذا كلّه يندرج ضمن ما يسمّى بـ: التسلية والتصبير. يقول "يوسف عبد الله الأنصاري"، متحدّثا عن الأسرار البلاغية للآية، وما تحمله من تسلية لموسى: «تكشف هذه الآية عن الحالة التي كان عليها موسى عليه السلام، حين رأى عصاه تهتزّ كأنّها جانّ، حيث سيطر عليه الخوف وتملّك جميع أعضائه، ففرّ هاربا ولم يعقّب، وهذا ما يتّضح من خلال التعبير بقوله: (وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)، فهو يصوّر حالة الخوف التي سيطرت على موسى، وجعلته يتصرّف هذا التصرف، لكنّ الحقّ سبحانه وتعالى سرعان ما يُطمئنه ويزيل عنه الخوف والهَمّ بقوله: (يَكْمُوسِي أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينِ)، فالأمر في قوله "أَقْبِلْ" للطمأننة والتثبيت...»⁽¹⁾.

إنّ الأمر الذي يخرج إلى غرض التسلية، يختلف أداؤه التنغمي عن الأمر إذا كان حقيقيا أصليا، فالأول يحتاج إلى خفض الصوت، والثاني يحتاج إلى رفعه، وعلى هذا الأساس تُستهلّ الآية بتنغيم عالٍ يشمل الأمر الحقيقي: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)، يليه تنغيم مستوٍ هابط متناسب مع ما في الآية من تقرير وإخبار يشمل قوله: (فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ)، بعدها يشهد المنحنى الإيقاعي حطفا صوتية سريعة تتسم بالعلو

(1) - يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص 270.

الموسيقي تشمل المنادى (يَكْمُوسَى)، ليعود من جديد التنغم إلى مستواه السابق، وهو المستوى الهابط مستمرا على الإيقاع ذاته إلى نهاية الآية الكريمة، مع تحلل الآية لسكتات خفيفة في عدة مواضع منها.

• الأمر للتحضيض:

التحضيض هو: طلب القيام بالفعل بقوة وشدة، ولعلّ هذا ما نلمسه في فعل الأمر "ايت" عند قوله تعالى:

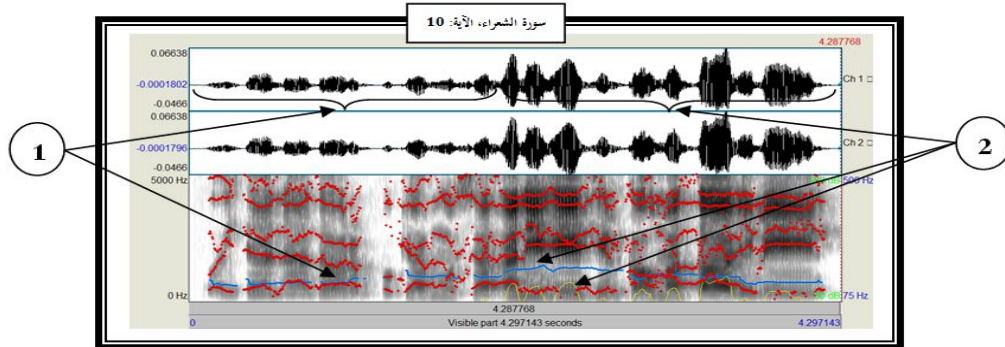
﴿وَأَذِّنْ لِقَوْمِكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 10].

يبدو من الوهلة الأولى أنّ صيغة الأمر الواردة في هذه الآية تدلّ على إلزام المخاطب القيام بالفعل المأمور به وجوبا؛ بحكم أنّ الأمر فيها صادر من الأعلى (الله تعالى) إلى الأدنى (الرسول ﷺ)، ومع ذلك فهو لم يأت على سبيل الحقيقة، وإمّا دلّ على غرض آخر هو: التحضيض؛ فالأمر يشترك مع التحضيض في كون كل واحد منهما طلبا، بيد أنّ الأول فيه إلزام ولا يستدعي تحقّقه القوة والصرامة، بل يمكن أن يكون بالرفق والليونة، في حين أنّ الثاني لا يتحقّق إلاّ بالشدة والحزم، فضلا على ما فيه من ترغيب للقيام بشيء محبوب أو ترك شيء مذموم، فهو يشمل الأمر والنهي معا. يقول "أحمد بن فارس" (ت: 395هـ) مشيرا إلى هذا الغرض في الآية: «فهذا من الحث والتحضيض، معناه: اتّهمهم ومُرهمم بالاتّقاء».⁽¹⁾

وتقدير الكلام: ذكر يا محمد قومك بما حاق بقوم موسى من العذاب، لما عرضوا عن رسالته، وأصروا على ارتكاب المعاصي واستعباد الناس وذبح أبنائهم، فأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم في اليمّ، جزاء اجتراحهم للسيئات، وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات، لعلّ تكون لهم في ذلك عبرة، فيرجعوا إلى رشدهم.

إنّ التحضيض من مواطن الرفع في الأداء، لما فيه من قوّة في الطلب، لذا فإنّ الآية الكريمة تُستهلّ بنغمة مستوية إلى هابطة تشمل قوله: ﴿وَأَذِّنْ لِقَوْمِكَ مُوسَى﴾، لترتفع بعد ذلك شاملة قوله: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

→ والشكل رقم: 31 يوضّح المنحنى الإيقاعي للآية



الشكل رقم: 31

(1) - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرّازي اللغوي: الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ / 1993م، ص193.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يمثل رقم 1 النطاق التنغمي الخاص بموضع التقرير والإخبار والذي تقابله النغمة المعتدلة الهابطة، أما الرقم 2 فيشير إلى النطاق التنغمي الخاص بموضع الأمر الذي خرج إلى دلالة التحضيض، والذي تقابله نغمة الأداء الصاعدة. فواضح أنّ القارئ في هذا النطاق قد بذل جهداً أثناء النطق، دليل ذلك ظهور المنحنى الأصفر أسفل الصورة الذي يمثل شدة الصوت، وغيابه في النطاق الأول أين تكون نغمة الأداء هادئة تميل نحو الاستواء والهبوط، هذا ويمكن ترجمة المنحنيات الموضحة في الصورة أعلاه على شكل أرقام كما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
127.382 هرتز	157.518 هرتز	196.480 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54.28 ديسيل	59.89 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
4.30 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 10 من سورة الشعراء

• الأمر للتحذير

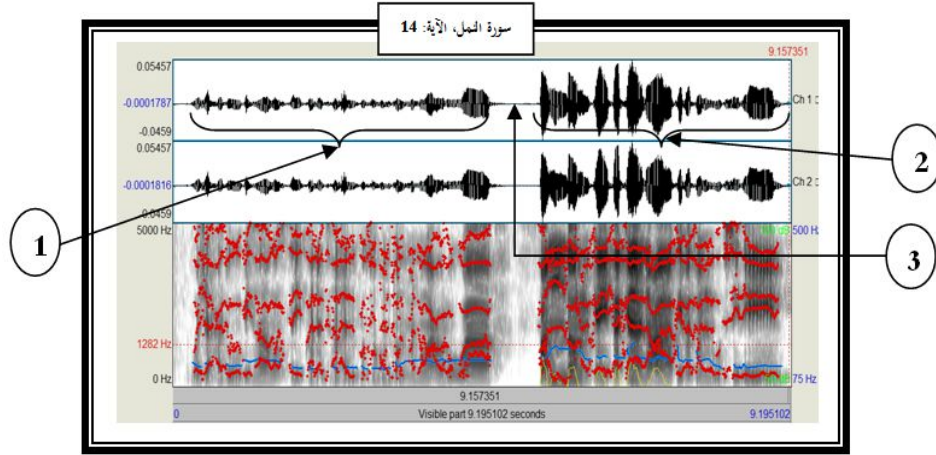
قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 14].

غالباً حينما يصدر الأمر من الأعلى إلى الأدنى يكون فيه الطلب حقيقياً، لكن هذه القاعدة كما سبق وأن أشرنا ليست عامة، لوجود حالات استثنائية تخرج فيها صيغة الأمر عن المعهود؛ أي من القوة الإنجازية الحرفية إلى القوة الإنجازية المستلزمة، حتى وإن كان الأمر فيها على وجه الاستعلاء، ولعلّ من هذه المواضع الآية التي بين أيدينا، فعلى الرغم من صدور فعل طلب النظر من الأعلى (الله عزّ وجلّ) إلى الأدنى (الرسول محمد ﷺ)، غير أنّ الأمر فيه لا يعني طلب القيام بالفعل وجوباً وبشكل إلزامي، بقدر ما فيه من تحذير من جهة، واعتبار من جهة أخرى، وكأنّ تقدير الكلام: انظر يا موسى ما آل إليه أمر فرعون وقومه، لما أصروا على عصيان ربهم والكفر برسالته إليهم، فكان الإغراق مصيرهم، ومما لا شكّ فيه أنّ في ذلك لعلبة للظالمين أمثالهم. قال "ابن كثير" مفسراً هذه الآية، ومقدّراً الأمر فيه على معنى التحذير: «...وفحوى الخطاب كأنّه يقول: احذروا أيّها المكذّبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربّه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى؛ فإنّ محمداً صلوات الله وسلامه عليه، أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدلّ وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ الموثيق له، عليه من ربّه أفضل الصلاة والسلام»⁽¹⁾.

(1) - ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج 3، ص 2135.

ويصرّح بدوره "المراغي" بخروج الأمر إلى التحذير في الآية السابقة قائلاً: «وفي هذا تحذير للمكذّبين بمحمّد ﷺ الجاحدين لما جاء به من عند ربّه، أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، لعلمهم يُقلعون عن عنادهم واستكبارهم، حتّى لا تنزل بهم القوارع، ويأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون»⁽¹⁾.

في سبيل الوصول إلى دلالة التحذير التي خرج إليها الأمر، كان لابدّ من رفع منحني الأداء، وتكرار موضع التحذير أكثر من مرّة لإظهاره بشكل أوضح، مع إكساب الوجه ملامح عدم الرضى، والتي تتناسب مع هذه الدلالة، وتميّزها عن الأمر الحقيقي، الذي يحتاج هو الآخر إلى علوّ موسيقي معيّن. وعليه فإنّ الآية تُستهلّ بنغمة تقريرية مسطّحة تشمل قوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، تليها نغمة الأداء العالية، تواكب النطاق النغمي الحامل لدلالة التحذير والتنبيه، مع توقيع نبرة صوتية على المقطع الأوّل من كلمة (فَانظُرْ) لاستدعاء الغرض أكثر، تفصل بينهما سكتة إيقاعية خفيفة، يستغلّها القارئ لأخذ التّفّس، وتحضيراً لاستكمال القراءة.



الشكل رقم: 32

الرسم الذي أمامنا هو عبارة عن تحليل فيزيائي لنصّ الآية 14 من سورة النمل، تمثّل النافذة الأولى منه الموجات الصوتية لمقاطع الآية، والنافذة الثانية مختلف القيم الأكوستية لهذه الموجات الصوتية. وفيه يمثّل الرقم 1 نمط الأداء الأوّل (النغمة المستوية)، أمّا الرقم 2 فيمثّل نمط الأداء الثاني (النغمة الصاعدة)، تفصل بين النمطين سكتة خفيفة تُستغلّ لاسترجاع التّفّس والتهيهؤ لاستئناف القراءة، وهذا هو الموضع الذي يشار إليه في الصورة بالرقم 3، ممّا يعني أنّ المنحنى الإيقاعي للآية مستوٍ صاعدٌ .

أمّا عن نتائج هذا التحليل فيمكن توضيحها في هذا الجدول على الشكل التالي:


(1)- المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص ص81-82.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
114.080 هرتز	142.792 هرتز	188.042 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54.02 ديسيل	58.18 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
9.19 ثانية			التزمين (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 14 من سورة النمل

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَاقَا عَلَىٰ وَادِ النَّعْمِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَأْتِيهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَلِكَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سَائِمَةٌ وَجُنُودُهُمْ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 18].

يبدو أنّ فعل الأمر (ادخلوا) الوارد في الآية ظاهره طلب القيام بفعل الدخول وجوباً، على أساس أنّه أمر حقيقي، إلا أنّ المتأمل في سياق الآية يلحظ أنّ المعنى الخفي لا يستقيم مع ما يحمل الأمر الأصلي من دلالة؛ فالأمر ههنا لم يصدر من الأعلى إلى الأدنى، فهو ليس على وجه الاستعلاء إذاً، كما أنّه ليس العكس، فلم يصدر من الأدنى إلى الأعلى، بل هو خطاب المساوي؛ خطاب النملة لصويجباتها من بني جنسها، وهو خطاب غير العاقل بخطاب العاقل. وعليه فإنّ فعل الأمر في الآية لم يُقصد منه الطلب حقيقة، بل هو على سبيل المجاز، ويمكن التوصل إلى الغرض المقصود من خلال: السياق والأداء التنغمي، مع بعض الإيماءات التي توحى للمستمع أنّ المراد ليس الأمر، إنّما هو التنبيه والتحذير، وكان الواجب على القارئ في سبيل إبراز الغرض أكثر، تكرير موضع التحذير عدّة مرّات للتأكيد عليه. يقول "محسن الجبوري": «ففعّل "ادخلوا" أمر، والمراد به التحذير، بدليل: (قَالَتْ نَمَلَةٌ)؛ أي أنّ القائل لم يكن الملك أو الملكة على النمل، فينبني عليه أنّ القائل لا سلطان له على النمل فيأمرهم بالدخول، وإنّما قال هذا الكلام محدّراً من أمر يقع عليهم، وهو الهلاك من غير أن يشعر المسبّب لذلك»⁽¹⁾، وما زاد الغرض إيضاحاً، ولمعناه في الذهن التصاقاً؛ وقوع النبر على الحرف المشدّد من كلمة "لا يَحْكَمَنَّكُمْ".

التحذير كما أسلفنا من مواضع الرفع في الأداء، وعليه تبدأ الآية بنغمة تقريرية مستوية تشمل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَاقَا عَلَىٰ وَادِ النَّعْمِ قَالَتْ نَمَلَةٌ﴾، تليها نغمة عالية بتزمين سريع موضع النداء وكذا التحذير، أي عند قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَلِكَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سَائِمَةٌ وَجُنُودُهُمْ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، حيث ينتهي هذا الجزء بنغمة الأداء الهابطة، لتمام المعنى الذي أرادت النملة إيصاله إلى رفيقاتها  .

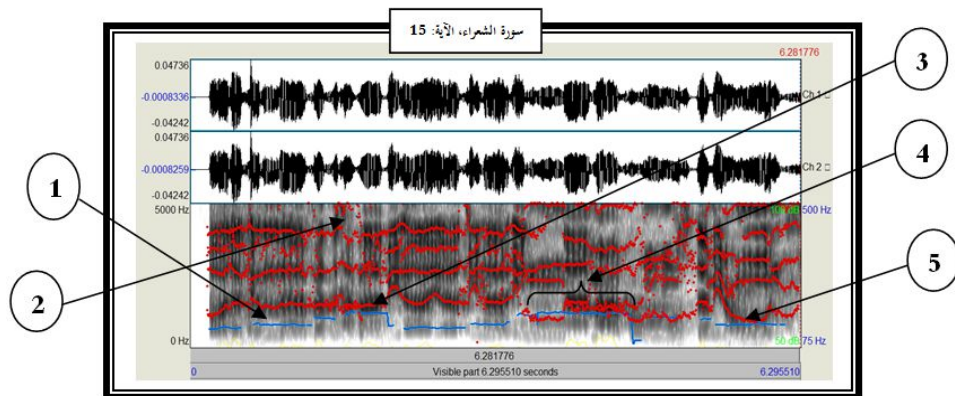
(1) - أحمد حمد محسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم- دراسة ووصف وتقويم وأمثلة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2017م، ص 686-687.

• الأمر للردع والزجر:

قال تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا يَتِيَّتَا إِنَّمَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 15].

ورد في الآية أمر، وهو هنا على وجه الاستعلاء، صادر من الأعلى (الله عز وجل)، إلى الأدنى (موسى وأخاه هارون عليهما السلام)، مما يفرض أن يكون أصليا، غير أنّ المقصود غير حقيقة الأمر، فهو في الآية كان نتيجة رهبة موسى عليه السلام من جبروت فرعون، وخوفه أن يقتله انتقاما منه على قتله للقبطي، فطلب من ربه أن يصطحب معه أخاه هارون لفصاحة لسانه، وليكون عوناً له على أداء رسالته إليهم، فخرج الأمر عن سياقه المعهود ليحمل دلالة الزجر؛ حيث أنّه لما تغلب الخوف على موسى نسي ثقته بالله، وساء ظنّه بقدرته تعالى، وكأنّ تقدير الكلام: يا موسى ثق بالله وانزجر عن خوفك من فرعون وجبابرته، فإنّهم لن يقدروا على قتلك أو إذاتك، وإنيّ معكما بالعون والنصرة، أسمع ما تقولان وما يجيبكما به، وفي هذا يقول "الزجاج" (ت: 311هـ) مبيّنا خروج الأمر إلى غرض الزجر: «قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا يَتِيَّتَا: الأمر بمعنى كلاً ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظنّ، كأنّه قال: ارتدع عن هذا الظنّ، وثق بالله»⁽¹⁾.

ودلالة الزجر لا تخلو من التأنيب، وكلاهما يحتاج الأداء لاستحضارهما إلى قوّة في الصوت، وعلوً في مستوى النمط التنغمي، وبناء على هذا، فإنّ الآية السابقة تُستهلّ بنغمة مسطّحة تشمل المقطعين المشكّلين للفظ {قَالَ = ص ح ح + ص ح}، تليها نغمة الردع المرتفعة عند قوله: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا يَتِيَّتَا﴾، ليشهد المنحنى بعدها اتّجاهاً نحو الانخفاض التدريجي أواخر مقاطع الآية، موضع تسليته سبحانه وتعالى لسيدنا موسى عليه السلام؛ أي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾، حيث تبدأ هذه العبارة بنغمة عالية لما فيها من تأكيد، تليها نغمة هابطة ↘، والشكل رقم: 33 يوضّح ما قلناه:



الشكل رقم: 33

(1) - أبو إسحاق بن السريّ الزّجاج: معاني القرآن وإعرابه، ج4، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/1988م، ص85.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

تعكس لنا الصورة أعلاه المنحنى الإيقاعي المتذبذب للآية 15 من سورة الشعراء، حيث تبدأ فيه النغمة معتدلة، ثم ترتفع بعدها موضع الردع، ليأتي المنحنى إلى الانخفاض آخر الآية، بيد أنه يشهد في هذا النطاق ارتفاعا ملحوظا موضع التأكيد.

تمثل الأرقام في المخطط أعلاه ما يلي:

الرقم 1: النغمة المسطحة

الرقم 2: قمة الدرجة الصوتية

الرقم 3: النغمة المرتفعة

الرقم 4: موضع التأكيد بيان وما ترتب عنه من علو موسيقي.

الرقم 5: النغمة الهابطة.

ويمكن عرض نتائج التحليل الفيزيائي كما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
81.482 هرتز	144.995 هرتز	463.117 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	52.03 ديسيل	54.23 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
6.29 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 15 من سورة الشعراء

● الأمر للتهديد: ويكون «حينما يريد المتكلم إظهار عدم رضاه عن أمر ما، فيوجه تحذيرا للمخاطب لكي يقلع عنه، نظرا لما يترتب على الإتيان به من عقاب شديد، وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التهديد: أن الله تعالى لشدة غضبه عليهم كأنه يأمرهم بما يوجب عقابهم، لينكل بهم أشد التنكيل»⁽¹⁾.

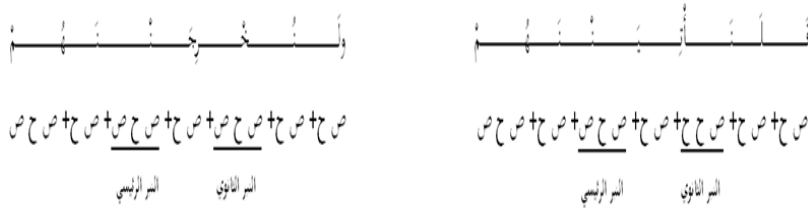
إذاً، فالأمر للتهديد إنما نلفيه في حالة ما إذا كان الأمر ساخطا عن المأمور، من ذلك قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُودٍ لَّأَقْبَلُ لَهُمْ بَهَاوُلًا يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا أَذَلَّةً وَمُهَضَّبُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 37].

إن فعل الأمر (ارجع) الوارد في هذه الآية يحمل معنا حقيقيا، دالا على إلزام القيام بالفعل، بيد أنه مشوب بمعنى ضمني آخر يكشفه لنا التنغم والأداء الصحيح للآية، إذ نجد مثقلا بجمولة دلالية، فيها من معاني التهديد والوعيد ما يُغني المأمور (رسول بلقيس لسليمان)، عن محاولة إصراره على قبول سليمان لهديّة ملكته، وما يزيد المعنى ترسيخا في النفس، ما ورد في الآية من مؤكّدات تعزز هذا الغرض وتقربه إلى الذهن أكثر. يقول الطاهر بن عاشور " في بيانه: «وتوعدهم وهدهم بأنه مُرسِلٌ إليهم جيشا لا قبيل لهم بحربه، وضمائر جمع الذكور الغائب في

(1) - جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص 53-54.

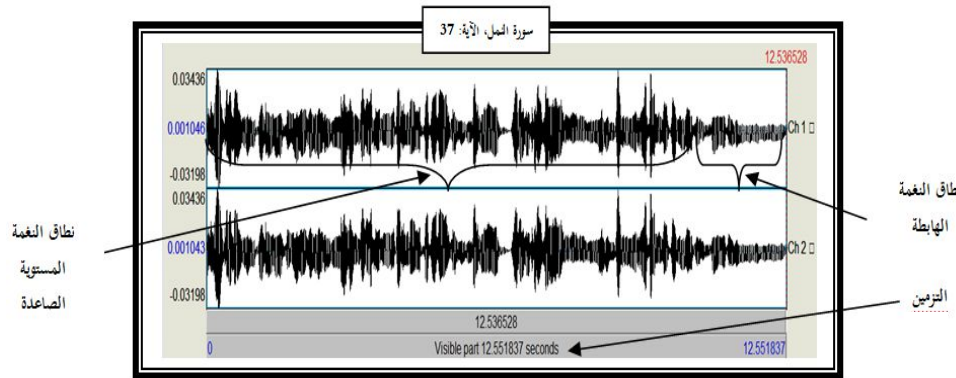
قوله (فَلَمَّا تَبَيَّنَهُمْ) و(وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ) عائدة إلى القوم؛ أي لنخرجنّ من نخرج في الأسرى». (1)

من المؤكد أنّه لا سبيل للوصول إلى دلالة التهديد والوعيد، إلاّ عن طريق إضفاء النغمة المناسبة للغرض، مع توقع نبرات صوتية متتابعة على لفظ "لَمَّا تَبَيَّنَهُمْ"، و"لَنُخْرِجَنَّهُمْ" خدمة للغرض المقصود، وتمييزا له عن الغرض الظاهر وهو الأمر:



إذ يكوّن النبر الثانوي - في الحالتين - مع المقطع الذي يفصله عن النبر الرئيسي الصيغة التالية: **مقطع متوسط + مقطع قصير مفتوح**؛ في الكلمة الأولى المقطع المتوسط مفتوح، وفي الكلمة الثانية مغلق. ففوق النبر في الموضع ذاته من كلّ كلمة، من شأنه أن يُؤكّد أكثر غرض التهديد، لكونه يمثّل هنا قمة إسماع صوتي، إلى جانب ما فيه من ارتكاز وضغط، يساهم بشكل أو بآخر بمصاحبة فونيم التنغيم، في تثبيت المعنى في الذهن.

وعموما فإنّ الآية تُفتتح بنغمة مستوية صاعدة، حيث يستمرّ المنحنى الإيقاعي المرتفع ليمتدّ إلى أواخر الآية، مستندا في ذلك على ما فيها من توكيد وضغط، ليشهد المنحنى انخفاضاً في نهاية الآية، دليلاً على بلوغ موضع الوقف وتمام المعنى. وهذا ما يمكن توضيحه من خلال مخطّط الموجات الصوتية أسفله:



الشكل رقم: 34

ملاحظة هامة: تعدّ على برنامج برات، وهو البرنامج الذي نعتمد عليه في التحليل الفيزيائي لموجات الصوت

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 19، ص 269.

اللغوي في آيات سور الطواسين، تعدّر عليه ههنا عرض مختلف الخصائص الأكوستيكية للموجات الصوتية؛ يتعلّق الأمر بكلّ من: الرسم الطيفي، منحني الدرجات الصوتية، منحني شدّة الصوت، سلسلة الحزم الصوتية،... الخ، والسبب يرجع إلى ما يُعرف بمصطلح التزمين، حيث تجاوزت المدّة المستغرقة في أداء الآية 37 من سورة النمل المدّة المسموح بها في البرنامج وهي عشر ثوانٍ، فإذا كان التزمين أصغر أو يساوي المدّة المذكورة ظهرت القيم الفيزيائية السابقة الذكر، أمّا إذا تجاوزتها كما هو الحال مع هذه الآية حيث بلغ التزمين فيها: 12 ثانية و55 جزء منها، فإنّ القيم لا يمكن لها أن تظهر، وفي مثل هكذا حالات يكفي البرنامج بعرض مخطّط الموجات الصوتية فقط.

في موضع آخر من السورة ذاتها يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 69].

معنى الآية: قل للكفرة بالله، المكذّبين برسالة أنبيائه، سيروا في الأرض وانظروا إلى مساكن من سبقوكم وكانوا على نهجكم، فقد دمّرناهم وأهلكنا أهلها، وكأثمّ لم يكن لهم وجودا من ذي قبل في الحياة الدنيا، وهذه هي سنّة الله في كلّ من اقتدى بهم وسار على دربهم، وأصرّ على تكذيب رسله، رغم المعجزات والعظات، فمّمّا لا شكّ فيه أنّ مصيركم سيكون ممثالا لمصيرهم، لو أنكم استكبرتم ولم تبادروا إلى التوبة والإنابة عن الخطأ.

إذاً، صار واضح أنّ أفعال الأمر الواردة في هذه الآية: {قُلْ، سِيرُوا، انظُرُوا}، قد استعملت استعمالا مجازيا لا حقيقيا، وسياق توظيفها يثبت ذلك، فليس المراد منها حقيقته، بل المقصود من وراء استخدامها هو غرض آخر متمثّل في: التهديد والوعيد. يقول "محي الدّين الدرويّش"، في توضيح هذا الغرض الذي خرج إليه الأمر ههنا: «سيروا: فعل أمر معناه التهديد لهم على التكذيب والتحذير من أن ينزل بهم ما حاق بالمكذّبين من قبلهم، وانظروا معطوف على سيروا...»⁽¹⁾.

إنّ التهديد كما أشرنا فيما سبق من مواضع الرفع في الكلام، فهو في هذه الآية: «تهديد شديد من الله سبحانه وتعالى للكفرة الملحدين، وليس المقصود حقيقة الأمر، والنمط التنغمي بعد ذلك مستوٍ صاعد»⁽²⁾.

على هذا الأساس، وبغرض التوصل إلى دلالة الوعيد التي خرجت إليها أفعال الأمر الثلاثة، وكذا أسلوب الاستفهام التهديدي في آخر الآية، فإنّ هذه الأخيرة تُقرأ كاملة بنغمة واحدة، متمثلة في: النغمة المستوية الصاعدة، يصاحبها تزمين وإيقاع سريعين.

● الأمر للتعجيز: من المعاني الأخرى التي يخرج إليها الأمر من دلالاته الحقيقية التي وُضع لها في الأصل، إلى

(1)- محي الدّين الدرويّش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، مج7، ج20، ص245.

(2)- عائشة خضر أحمد البدراني: "مقومات التنغم ودلالاته"، ص113.

دلالات أخرى مجازية؛ تفهم من السياق والأداء الصوتي للتراكيب: الأمر بشيء لا يطيقه المأمور، أو ما يدعى بدلالة التعجيز، وذلك من خلال مطالبة المخاطب بعملٍ لا يقوى عليه، إظهارا لعجزه وضعفه، وهذا كله من قبيل التحدي. يقول "شكري شيخ أمين" معرِّفاً أياه بكونه: «الطلب من المخاطب تنفيذ أمر أشبه بالمستحيل، ليظهر عجزه ويبيّن ضعفه تحدياً واستضعافاً، مثل ذلك تحدي القرآن الكريم لأفذاذ العرب الذين يرتابون فيه، ويشكّون في نزوله على حضرة الرسول الكريم ﷺ». (1)

لقد كان لهذه الدلالة حضور في سور الطواسين، ومن بين هذه المواضع قوله عزّ وجلّ في سورة الشعراء:

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُقْتُلُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 43].

لا يمكننا أن نحكم على فحوى الآية بصدق الخبر فيها أو كذبه، لأنّ الكلام خرج من هذا الحيز إلى ضرب آخر هو: الإنشاء متمثلاً في أسلوب الأمر، ثمّ إنّ خطاب الأمر هنا صادر على وجه الاستعلاء؛ أي من موسى عليه السلام (الأعلى)، إلى سحرة فرعون الطاغية (الأدنى)، ومع ذلك فإنّه لا يُراد منه طلب القيام بالفعل على وجه الإلزام، لأنّ السياق وطريقة الأداء تتنافى مع هذه الدلالة؛ ففعل الأمر الصادر من موسى، إنّما وظّفه لكونه شديد الثقة برّبّه، ويعلم علم اليقين أنّه سينصره ويظهر الحقّ، إذا غرضه منه هو تحقير حبالهم، وتحديهم بأن يقدروا على صنع ما سيصنعه هو. قال "أبو علي الطبرسي" موضّحاً هذه الدلالة: «هذا بصورة الأمر، والمراد به التحدي». (2)

معلوم أنّ فونيم التنعيم يملك من المقوّمات ما يخوّله لأداء وظيفته اللغوية كما ينبغي، وعلى هذا الأساس فإنّ الآية التي بين أيدينا يمكن تأديتها بطريقتين مختلفتين، تبعاً لاختلاف الغرض منها.

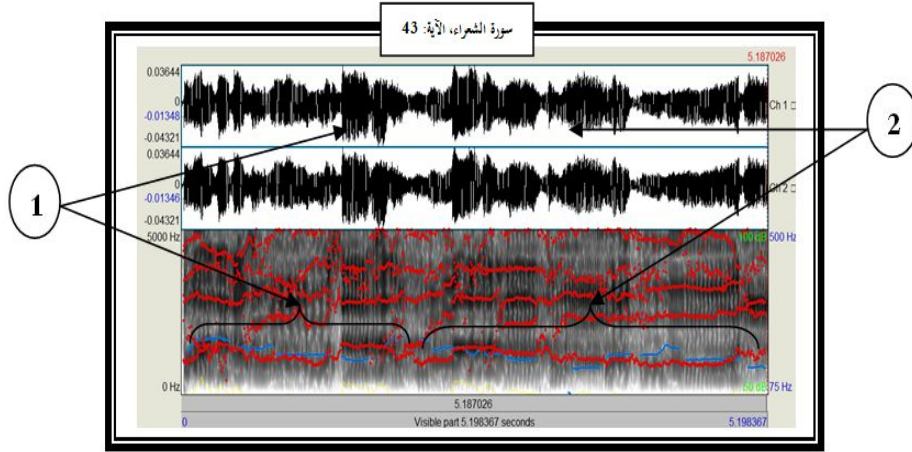
فهناك من يحمل الأمر فيها على معنى التحدي، وهي حين ذاك لا بدّ أن يكون نطاقها النغمي مناسباً لهذا الغرض، لذا تُفتتح الآية بنغمة التقرير المستوية تشمل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ﴾، تليها نغمة التحدي، وهي هنا نغمة مستوية هابطة عند قوله: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُقْتُلُونَ﴾.

أما إذا حُمِّلَ فعل الأمر (أَلْقُوا) دلالة التحقير، فإنّ الآية تُستهلّ أيضاً بالنغمة ذاتها، أي النغمة المسطّحة في قوله: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ﴾، تليها مباشرة النغمة الهابطة موضع التحقير؛ أي قوله: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُقْتُلُونَ﴾ إنقاصاً لشأن عصيهم، وتحقيراً لها.

من خلال المعالجة الآلية لمقاطع الآية الكريمة، تُبَيَّن لنا أنّ قراءة الشيخ "سعود الشريم" قد وافقت الصيغة الأدائية الأولى، وهذا ما يشير إليه الشكل رقم: 35

(1) - شكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج 1، ص 99.

(2) - الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 7، ص 239.



الشكل رقم: 35

يمثل الرقم 1 في هذا المخطّط النطاق النغمي لنغمة التقرير المستوية، أما الرقم 2 فيمثل النطاق النغمي لنغمة التعجيز، والتي تُستهلّ بالاعتدال ثمّ تنخفض في النهاية. وهذه هي نتائج التحليل ملخّصة في الجدول أسفله:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
77.260 هرتز	178.028 هرتز	244.504 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.72 ديسيبل	55.20 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
5.20 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 43 من سورة الشعراء

وقال في موضع آخر: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأَنْتَ بِعَايَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١٥٩﴾ [سورة الشعراء، الآية: 154]. ومثال الحالة الآية 31 من السورة ذاتها.

هذا خطاب قوم صالح لصالح **عليه السلام**، فجلب أنّ الأمر الوارد فيه لا على وجه الاستعلاء، فقد كان صادراً من الأدنى (قوم صالح) للأعلى (النبيّ صالح **عليه السلام**)، وهو بهذا خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي، يمكن اكتشافه من خلال سياق الآية، وكذا طريقة أدائها؛ فالتعجيز الواضح هنا في هذه الآية ناتج أساساً عن استهزاء قوم صالح به، وتكذيبهم لرسالته، وكأنّ لسان حالهم يقول: ما أنت يا صالح إلا رجلاً مثلنا، فلماذا إذاً تزعم أنّك رسول من عند الله إلينا؟ ولماذا أنت أحقّ بها دون غيرنا؟ فلا يميّزنا عنك شيء؟ أمّا وأنت تدّعي النبوة والرسالة، فعليك أن تأتينا بآية باهرة تدلّ على صدق دعوتك؛ قالوا هذا الكلام ظناً منهم أنّه لا يقوى على الإتيان بما طالبوه، فكان ما طلبوا بقدرة الله جلّ في علاه، بأن أخرج لهم من الصخر الأصمّ ناقة عشراء تلد أمامهم.

بناء على هذا المعنى تُؤدّي الآية كلّها بنغمة مسطّحة هابطة، مستمرّة في الاتجاه الهابط إلى غاية المقطع الختامي منها \rightarrow .

أما في الآية 187 من سورة الشعراء فيقول الله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 187].

واضح أنّ فعل الأمر "أَسْقِطْ" الوارد في هذه الآية لا يُراد به حقيقة الأمر، لانتفاء شرط الاستعلاء فيه، هذا الأخير الذي لا يكون - أيضا - هو المعيار الفيصل دائما في الحكم على أنّ الأمر يُراد به حقيقة الطلب أو عدمها، ولكن بمجرد أن يكون الأمر صادرا من الأدنى إلى الأعلى، أو بين متساويين، ففي الأغلب الأعمّ يخرج حينها الطلب عن مقتضى الظاهر.

وبالعودة إلى الآية السابقة نلاحظ أنّ الأمر فيها صادر من الأدنى (قوم شعيب) إلى الأعلى (شعيب عليه السلام)، ومعنى الكلام: إنّنا يا شعيب نعتقد أنّك ممّن يتعمّد الكذب فيما يقول، وأنّ الله لم يرسلك نبياّ إلينا، فإن كنت صادقا فيما تقول، أنزل علينا العذاب قطعاً من السماء، «وهذا اقتراح تحته كلّ أنواع الإنكار»⁽¹⁾؛ قالوا ذلك اعتقاداً منهم تعجيزه، وأنّه لن يقدر على القيام بمثل هذا الطلب، وهو في الوقت ذاته تحدياً له ولرّبّه الذي أرسله إليهم، كلّ هذا كان دافعه كما رأينا المبالغة في التعنّت والعناد والتكذيب. قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِیْنَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 186].

قال "الطباطبائي" (ت: 1402هـ) في بيان هذا الغرض: «الكِسْف بالكسر فالفتح - على ما قيل - جمع كسفة، وهي القطعة، والأمر مبني على التعجيز والاستهزاء»⁽²⁾.

ومّا لا شكّ فيه أنّ للتنغيم فاعلية في توجيه الغرض وتحديد المعنى المقصود، فلو أردنا أن نظهر معنى الاستبعاد فإنّ الغرض يقتضي رفع الصوت في الأداء، قصد استحضاره في ذهن المستمع، أمّا إذا أردنا إبراز دلالة التعجيز والتحدّي، كان الواجب على القارئ حينئذ أن يُؤدّي التركيب الذي يشتمل عليها بنغمة تناسبه وتستدعيه، وهي: النغمة المستوية الهابطة بدل النغمة الصاعدة، التي تلائم غرض الأمر وهو على حقيقته. وعليه فإنّ الآية تُستهلّ بهذه النغمة (أي المستوية الهابطة)، ليبدأ بعدها المنحنى بالانخفاض شيئا فشيئا، تاركا المجال للنغمة الهابطة وحدها، وهكذا تقف قرينة التنغيم بمشاركة قرائن حالية أخرى كمؤشّر في تحديد الأغراض والمعاني،

(1) - لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، 7، دس، ص 558.

(2) - السيّد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج 15، تح: السيّد محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، دب، دط، دس، ص 313.

من خلال النمط الصوتي المعتمد في عملية القراءة أو الأداء.

وقال في سورة أخرى: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ تُرْبِعِدُهُ وَمَنْ يَرْفُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَعْلَمٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ [سورة النمل، الآية: 64].

إنّ الفعل (هاتوا) في الآية على الرغم من وروده فيها بصيغة الأمر الصريحة، وكذا صدوره على وجه الاستعلاء؛ من الرسول محمد ﷺ إلى قومه المشركين، إلا أنّ المقصود منه ليس حقيقة الأمر، بل هو تحديهم بأن يأتيوا بالشركاء الذين يزعمون أنّهم آلهة مع الله عزّ وجلّ، وتقدير الكلام: قل لهم يا محمد: إن كنتم تقولون حقاً، فأحضروا حجّتكم ودليلكم لإثبات صدق وجود الآلهة التي تدعون شراكتها مع الله الواحد الأحد. يقول "مأمون حمّوش" في هذا الصدد، مؤكّداً على المعنى الذي خرج إليه الأمر ههنا: «وهو تحدّ للمشركين، وقد علّم أنّهم فارغون من الدليل والحجّة، وما لهم إلاّ اتباع سبيل الآباء، وتعظيم أعراف الجاهلية».⁽¹⁾

نلاحظ أنّ الآية تتوالى فيها ثلاث أدوات للاستفهام وفعلين من أفعال الأمر؛ فأما أدوات الاستفهام فكلّها خرجت عن المعنى الأصلي - كما سنرى فيما سيأتي من البحث إن شاء الله تعالى - إلى غرض التوبيخ، وأما فعلا الأمر {قُلْ، وهاتوا}، فهما للتحدي والتعجيز، كما يمكن أن ينفثا على دلالة أخرى تتقاطع مع التعجيز، ألا وهي دلالة التبكيت والسخرية. يقول "محمد الشوكاني" في بيان ذلك: «أي هاتوا حجّتكم على أنّ الله سبحانه شريكاً، أو هاتوا حجّتكم أنّهم صانعا يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيت لهم وتهكم بهم».⁽²⁾

وعليه، وفي سبيل استحضار الأغراض المذكورة (التوبيخ، التعجيز، التبكيت والتهكم)، فإنّ الآية تُقرأ كلّها بنغمة مستوية هابطة، يفصل بين آخر جزء وأداة الاستفهام الموالية سكتة إيقاعية خفيفة، تمثّل في نظام الترقيم فاصلة واصله، لتشهد النغمة انخفاضاً أكثر آخر مقاطع الآية، دليلاً على اكتمال المعنى وحصول الغرض المطلوب، أين يكون محلّ الوقف (النقطة في نظام الترقيم) نهاية الآية.

من أمثلة هذا الغرض أيضاً، قوله عزّ وجلّ في سورة أخرى من سور الطواسين: ﴿قُلْ فَأَنُوبُ بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ [سورة القصص، الآية: 49].

في الآية أمر وهو على وجه الاستعلاء، ولكنّه واضح من خلال قرائن الأحوال أنّ المقصود به ما تستلزمه ألفاظ التركيب من معاني، لا الدلالة الحرفية له؛ ففي الآية أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ على أن يتحدّى قومه كي يأتيوا بكتاب غير التوراة والقرآن، يكون أصلح منهما في هداية البشر، حيث وعدهم لو أنّهم جاءوا به على

(1) - مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص565.

(2) - محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، تح: يوسف العوش، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ / 2007م، ص1086.

المواصفات المطلوبة، وكانوا صادقين فيما يقولون، جادّين فيما يدعون، لتركهما واتّبع كتابهم، كلّ ذلك من باب التحدي، كونه واثقا بأنهم غير مؤهلين للإتيان به، وأنهم عاجزون كلّ العجز عن القيام بما هو مطلوب منهم. قال "محمد حسن سلامة" مشيراً إلى هذا الغرض: «فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز»⁽¹⁾، وأضاف "الصابوني" في السياق ذاته قائلاً: «أمر على وجه التعجيز؛ أي قل لهم يا محمد إنكم إذا كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمّنا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق، فائتوني بكتاب منزل من عند الله أهدى منهما وأصلح أتمسك به»⁽²⁾.

ونوع النعمة التي ترشدنا إلى هذا المعنى هي: النعمة المستوية الهابطة، لذا فإنّ النمط التنغيي التي تُؤدّي به الآية هو: التنعيم المستوي الهابط، ليتّجه المنحني آخر الآية نحو الانخفاض، متفرداً بالنعمة الهابطة فقط.

وقال أيضاً: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 75].

الأمر هنا شأنه شأن الآية السابقة مستعمل في التعجيز والتحدي، فرغم صدوره أيضاً على وجه الاستعلاء من الله تعالى، إلاّ أنّه لا يقتضي قيام المخاطب بالفعل المطلوب وجوباً، بل يُراد منه إيصال فكرة مفادها: أنّ المشركين على باطل فيما زعموه من الشركاء، حيث أنّه لما أدركوا عجزهم على إظهار البرهان، أيقنوا أنّ الحقيق بالربوبية هو الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 64]. لذا ناداهم الله بأمر التعجيز هنا من خلال فعل "ادْعُوا"، وبقوله في الآية السابقة "هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ". يقول "ابن عثيمين" في بيان المعنى المراد: «القائل هنا هو الله عزّ وجلّ، والبرهان: الدليل؛ أي: هاتوا الدليل على ما قمتم به من الإشراك، ولن يجدوا دليلاً، وقوله: "هاتوا" فعل أمر، والمقصود به: التحدي، لأنهم طلبوا ما لا يمكن، والتوبيخ لأنّه سوف يلحقهم من الخزي والعار أمام النّاس في ذلك الجمع مالا يستطيعون دفعه»⁽³⁾.

هذه الآية تُستهلّ بنعمة التقرير المستوية، لما فيها من إخبار وسرد في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا﴾، لتستمرّ النعمة على المستوى ذاته، مع تميّزها بالهبوط نوعاً ما (النعمة المستوية الهابطة) موضع التعجيز والتحدي: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، لتتدرّج بعدها شيئاً فشيئاً نحو الانخفاض إلى غاية آخر مقطع من الآية.

(1) - محمد حسين سلامة: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1423هـ/2002م، ص228.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، صص402-403.

(3) - ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة القصص، ص333.

• الأمر للتحقير والتسفيه: يكون الأمر للتحقير «حين تُستعمل الصيغة في سياق عدم إقامة وزن للمأمور»⁽¹⁾، و«سّر بلاغة التعبير إظهار التهكم بهم حتى يلتفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والدّلة، فيقلعوا عن عنادهم وتكبرهم»⁽²⁾.

ومنه في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 64].

ألا ترى أنّ الآية تفيض بمعاني التهكم والتحقير والتسفيه، والمعنى: لو أنّكم أيها الكفار تستغيثون بأهنتكم التي عبدتموها في الدنيا، لعلها تنصرمكم اليوم وتدفع عنكم عذاب الله، فالأمر هنا ليس حقيقياً، بل المراد منه تحقير الكفار وإهانتهم، وكذا تسفيها لهم لادّعائهم بوجود آلهة غير الله جلّ وعلا.

يقول "محسن الجبوري" موضّحاً هذا الرأي: «الفعل (أدعوا) جاء بصيغة الأمر، والمراد منه: تسفيه رأي من يتخذ من دون الله إلها يزعمه وتسخيفه، يعني حتى وإن دعوتهم، فإنهم لا يملكون دفع الضرّ أو تحويله عنكم»⁽³⁾.

ولا سبيل للوصول إلى غرض التسفيه والتحقير، إلّا عن طريق إضفاء نعمة هابطة على صيغة الأمر "ادْعُوا" وما بعدها، حتّى يتبيّن الفرق بين أسلوب الأمر الذي يُراد منه الطلب حقيقةً، وبين ما كان لفظه أمراً ومعناه مجازي كالتحقير مثلاً، هذا الأخير الذي تولّد أساساً جزاء افتراء الكفار على الله تعالى، ومشاركتهم في عبادته آلهة أخرى غيره، «فمثل هذه الآيات فيها جرأة على الله، وتقوّل عليه، وكفر وتحدّ، أو افتراء عليه، لذا فهي تُؤدّي على مستوى طبقات الصوت بصوت خفيض تسفيها لقائلها، وتعظيماً لله، واستحياء منه»⁽⁴⁾.

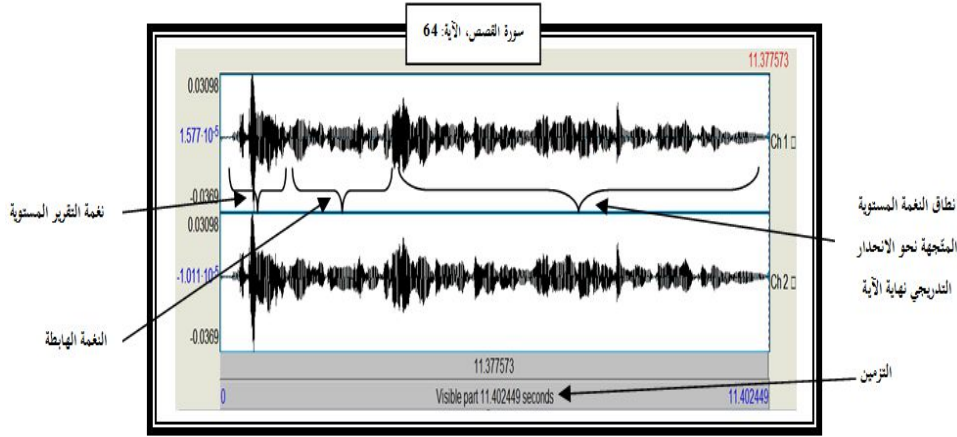
وعليه، فإنّ الآية التي بين أيدينا تُستهلّ بنعمة التقرير المستوية؛ تشمل المقاطع الثلاثة الأولى التي تمثّلها كلمة {وَقِيلَ= ص ح + ص ح ح + ص ح}، بعدها تبدأ بالانخفاض لتتلبّث نطاق نغمي قصير عند قوله تعالى: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾، لتعود النعمة من جديد إلى مستواها التي بدأت به، محافظة على الإيقاع ذاته إلى غاية المقطع الختامي للآية الكريمة. وهذا ما يمكن توضيحه من خلال مخطّط الموجة الصوتية أسفله (الشكل رقم: 36):

(1)- عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوي: الكافي في علوم البلاغة العربية- المعاني، البيان، البديع، ص 254.

(2)- جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص 58.

(3)- أحمد حمد محسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم- دراسة ووصف وتقويم وأمثلة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2017م، ص 687.

(4)- أحمد البايي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 297.



الشكل رقم: 36

• الأمر للنصح والإرشاد: وهو: «طلبٌ خلا من كلِّ تكليف وإلزام، يحمل بين طيّاته معنى النصيحة والإرشاد»⁽¹⁾.

إنّ غرض النصح هو الآخر من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها أسلوب الأمر؛ وذلك في حالة ما إذا لم توجد مطابقة بين المعنى الحرفي للبنية السطحية، وغرض الصيغة أو العبارة التلقظية التي تحملها الآية الكريمة، ولعلّ من بين مواطن خروج الأمر إلى هذا الغرض في سور الطواسين، نذكر قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [سورة الشعراء، الآية: 150].

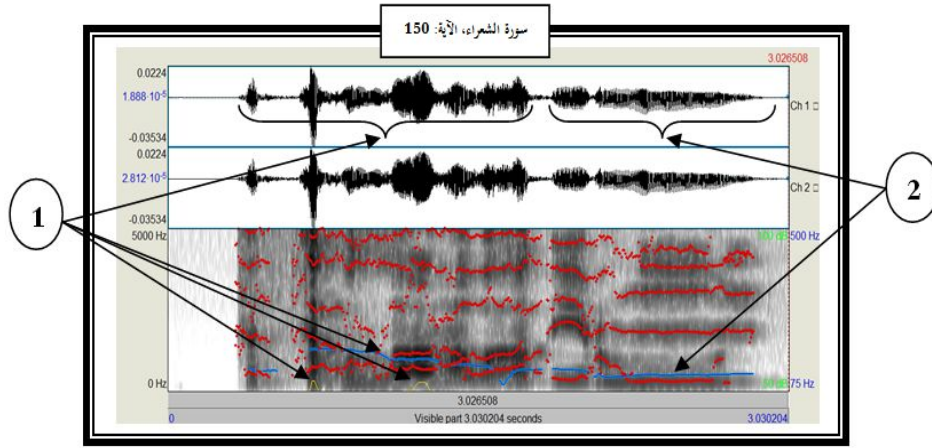
والمعنى: خافوا ربّكم وأقبلوا على ما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة، واحرصوا على عبادة الله الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتقيموا حدوده، وهذا من باب العظة وتقديم النصيحة لا الأمر؛ فواضح أنّ الصيغة خالية من أيّ تكليف أو إلزام، على الرغم من صدورهما على وجه الاستعلاء (من النبيّ صالح عليه السلام إلى قومه). يقول "الصابوني" في بيان المعنى المقصود بالأمر ههنا: «أي فاتقوا عقاب الله، وأطيعوني في نصيحتي لكم»⁽²⁾.

وما يزيد غرض النصح بروزا ووقوع النبر على المقطع المتوسط المغلق أول كلمة "اتقوا".

لو كان الأمر حقيقيا، لاستدعى المقام أن تكون نغمة الأداء صاعدة، بيد أنّ خروجه إلى غرض آخر هو: النصح والإرشاد، أدّى إلى تغييرٍ على مستوى نمط التنغم، لذا فإنّ الآية التي اشتملت على فعلي الأمر، كلاهما خرجا للغرض ذاته، تُقرأ بنغمة مسطّحة، تشمل أغلب مقاطعها الصوتية المشكّلة لها، متّجهة نحو الانحدار في نهايتها، مثلما هو موضح في الشكل رقم: 37

(1) - شكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج 1، ص 97.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ج 19، ص 358.



الشكل رقم: 37

الظاهر من خلال النافذتين في المخطط أعلاه أنّ المنحنى اللحني للآية منحنى تنازلي ↘ ، فالرقم 1 في الصورة يوضّح شكل النغمة المستوية، أما الرقم 2 فيوضّح شكل النغمة وهي تتّجه نحو الهبوط التدريجي، فمثل هذه النغمة لا تحتاج إلى جهد عضليّ، ومؤشّر ذلك غياب المنحنى الأصفر في هذا النطاق، وظهوره - بشكل متقطع - في النطاق الذي يمثّل النغمة المستوية ولكن بدرجات منخفضة، لأنّ الآية يغلب عليها طابع الهدوء عموماً، وعلى هذا الأساس يمكن عرض نتائج التحليل الفيزيائي فيها على النحو الآتي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم
92.319 هرتز	130.845 هرتز	185.542 هرتز	الخصائص الفيزيائية الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	52.83 ديسيل	53.23 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
3.03 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 150 من سورة الشعراء

وقال أيضاً: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 20].

الآية 20 من سورة القصص تسرد لنا الحادثة التي وقعت مع موسى عليه السلام، وذلك لما قصده رجل من آل فرعون؛ جاءه ساعيا الخير لموسى، حيث كان الرجل مؤمناً، يُحْفِي إيمانه عن فرعون وقومه، نَصَحَهُ بالتعجيل في الخروج من المدينة، قبل أن يقبض عليه فرعون وملئه، ويقدمون على قتله، خصوصاً وأنهم يتشاورون فيه ويدبّرون له المكائد، ممّا يعني أنّ فعل الأمر (أَخْرُجْ) هنا لم يردّ بصيغته الحقيقية، بل هو على سبيل المجاز أيضاً، وغرضه الإرشاد وتقديم النصيحة، ولقد فضّل الرجل توظيف الفعل (أَخْرُجْ) دون غيره من المرادفات على غرار: {أَهْرُبْ، عَجَلْ،

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

اِخْتَفَى...}، لما يتَّسم به الفعل من سرعة في الأداء والتطبيق، إلى جانب وقوع النبر على مقطعه الأوّل (المقطع المتوسط المغلق)، والذي يمثّل أمانة لتأكيد القيام بفعل الخروج. وفي هذا الصدد يقول "يوسف عبد الله الأنصاري: «فالأمر في قوله "فَأَخْرَجَ" للنصح والإرشاد، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَكْتُبُكَ مِنَ الصَّاحِقِينَ﴾»، والفعل (أَخْرَجَ) مناسب لمقام النصح والإرشاد، لذا فقد آثر هذا الناصح التعبير بالفعل (أَخْرَجَ) الدال بحرسه وإيقاعه السريع، لأنّه يكشف عن رغبته في خروج موسى بسرعة، خوفاً عليه من بطش القوم»⁽¹⁾، وما يؤكّد أيضاً ورود فعل الأمر في سياق النصح والوعظ، تمطيط القارئ للمقطع الأخير من الآية (المقطع الطويل من كلمة النَّاصِحِينَ) إظهاراً للمعنى المقصود، وهو الذي يسمّيه علماء التجويد بنبر المدّ العارض للسكون.

إنّ الاعتدال في الأداء هو المستوى الملائم لاستدعاء مثل هكذا أغراض، لذا فإنّ الآية تُؤدّي في عمومها بالنغمة المستوية؛ إذ تُستهلّ بالإخبار والتقرير، يليهما الموضع الذي خرج فيه الأمر للنصح، غير أنّ المنحنى الإيقاعي للآية يشهد في وسطها تذبذباً ملحوظاً في طبقة الصوت ودرجة النغمة؛ إذ ترتفع هذه الأخيرة بعض الشيء عن المستوى المتوسط محلّ النداء والتأكيد ﴿يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، ولكن لا تلبث إلا أن تعود إلى مستواها الأوّل.

• الأمر للاعتبار: ويكون «حين تُستعمل الصيغة في سياق أخذ العظة»⁽²⁾.

مثاله قول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 14]، وقوله أيضاً: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 40].

يبدو من الوهلة الأولى أنّ الأمر بالنظر، وهو طلب التأمل في عاقبة فرعون وقومه، يُراد منه حقيقة الطلب، غير أنّ المتمعّن أكثر في سياق الآيتين، يجد أنّ الأمر فيهما جاء لغير ما وُضع له في الأصل، للدلالة على ضرورة أخذ العبرة من كلّ ظالم سوّلت له نفسه التحجراً على الخالق جلّ وعلا بأيّ طريقة كانت، لعلّه يرتدع ويتعظ. قال "المراغي" في تفسيره للآية 14 من سورة النمل، مبيناً هذا الغرض: «أي فانظر أيّها الرسول ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الذي فيه العبرة للظالمين، ومن إخراجهم من الجنّات والعيون والزروع والمقام الكريم»⁽³⁾.

ويسلك "الطاهر بن عاشور" طريقاً مماثلاً؛ إذ يشير أثناء تفسيره للآية 40 من سورة القصص إلى الغرض

(1) - يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص 86.

(2) - عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشنوي: الكافي في علوم البلاغة العربية - المعاني، البيان، البديع، ص 257.

(3) - المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 19، ص 81.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

ذاته قائلاً: «اعتبار بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر، وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوته، وهذا موضع العبرة من سَوْقِ هذه القصة، ليعتبر بها المشركون، فقيسوا حال دعوة محمد ﷺ بحال دعوة موسى ﷺ، وقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه، فيوقنوا بأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة (...). ليعتبر الناس بأن شأن أهل الضلالة واحد»⁽¹⁾.

إنّ الأمر كما هو معلوم من مواضع الرفع في الأداء، هذا إذا كان بطبيعة الحال حقيقياً، لكنّه إذا خرج عن أصله، فقد يُحافظ على النمط التنغيي ذاته، وقد يتغيّر اتجاهه بين الانخفاض والاعتدال، أو مزجاً بين هذه النغمات كلّها، في شكل منحني إيقاعي متفاوت في درجاته، متذبذب في طبقاته.

هذا، ولاستحضار دلالة الاعتبار الذي خرج إليها الأمر في الآيتين، كان يكفي أن تُؤدّى المجموعة المقطعية الذي يشملها هذا الغرض بنغمة مستوية مسطّحة، غير أنّ الاستفهام التهديدي الواقع في آخر الآيتين، قد يؤثّر بطريقة أو بأخرى على هذا النمط، فيكسب النطاق النغمي قوّة أكبر ممّا هو عليه. لذا فإنّ الآيتين عموماً تُفتتح بنغمة الأداء المستوية تشمل قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل، الآية: 14]، وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ﴾ [سورة القصص، الآية: 40]، ويستمرّ هذا النمط التنغيي مع الشطر الثاني من كلّ آية، بيد أنّ ما يميّزه هو الاتجاه الصاعد في نهايته، تفصل بين النغمتين سكتة إيقاعية خفيفة، تُستغلّ لأخذ النَّفَسِ والتحضير لاستئناف القراءة.

من المواضع الأخرى التي خرج فيها الأمر لغرض الاعتبار قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 51].

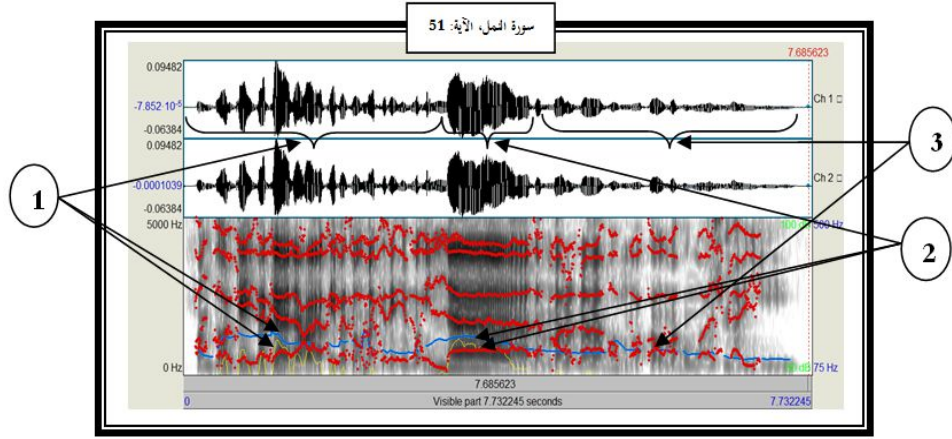
الخطاب هنا موجه من الأعلى (الله جلّ وعلا)، إلى الأدنى (رسوله محمد ﷺ)، ومع ذلك فإنّ الأمر فيه ليس على حقيقته، بل هو للاعتبار والاتعاظ أيضاً، والمعنى: تأمل يا محمد في أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم كيف كانت عاقبتهم، فقد أهلكناهم وقومهم الكفرة المشركين على وجه يستدعي النظر في مآلهم، ويقتضي الاعتبار من سوء خاتمهم. يقول "ابن عاشور" مفسّر الآية، مشيراً إلى دلالة الاعتبار فيها: «والخطاب في قوله ﴿فَأَنْظُرْ﴾ للنبي ﷺ واقتترانه بفاء التفرّيع إيماء إلى أنّ الاعتبار مكر الله هو المقصود من سَوْقِ القصة، تعريضاً بأنّ عاقبة أمره مع قريش أن يكفّ عنه كيدهم وينصره عليهم، وفي ذلك تسليّة له على ما يلاقه من قومه»⁽²⁾.

وهذه الآية لا تختلف عن سابقتها من الناحية الأدائية، فقد اجتمع فيها - هي الأخرى - الأمر للاعتبار

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص ص 125 - 126.

(2) - المرجع نفسه، ج19، ص ص 284 - 285.

والاستفهام للتهديد، وعلى هذا تُتلى بنغمة مستوية إلى صاعدة، يشمل هذا النمط التنغمي قوله: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، تليها خطفة إيقاعية عالية وسريعة تخصّ المقطعين المتوسطين الممثلين للفظ {إنا= ص ح ص+ ص ح ح}، بعدها يعرف المنحنى الإيقاعي أنّها معاكسا، حيث تمتدّ النغمة الهابطة لتشمل قوله تعالى: ﴿دَمَرْنَا هُرُوفَهُمْ وَأَجْمَعِينَ﴾، والشكل رقم: 38 يمثل هذا المنحنى:



الشكل رقم: 38

تمثّل الأرقام الثلاثة في المخطّط أعلاه ما يلي:

الرقم 1: يشير إلى مجال النغمة المستوية الصاعدة.

الرقم 2: يمثّل هذا الحيز الصوتي تلك الخطفة الإيقاعية السريعة التي تتميز بالعلو الموسيقي لما فيها من تأكيد؛ إذ بلغت شدّة درجة الصوت عند هذا الموضع: 61.50 ديسيبل، إلى جانب ذلك فقد سجّلت الذبذبات الصوتية في هذا الحيز سرعة في الحركة وكثرة في العدد، وهذا ما يتّضح جليا في النافذة الأولى من هذا المخطّط، أين تشهد هذه المساحة سوادا وكثافة أكثر من غيرها في مواضع متفرّقة من الآية.

الرقم 3: أمّا هذا الرقم فيمثّل النطاق التنغمي الأخير في الآية، وفيه يعرف المنحنى اللحنى انخفاضا ملحوظا دليلا على تمام المعنى.

يمكننا تلخيص نتائج التحليل الفيزيائي لمقاطع الآية في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
116.589 هرتز	145.178 هرتز	200.118 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	54.81 ديسيبل	61.50 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
7.73 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 51 من سورة النمل

• الأمر للاستبعاد: وذلك عندما يكون اللفظ أمراً، والمعنى استبعاداً، نحو قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 187].

هذا خطاب قوم شعيب له، وفيه مبالغة في تكذيبهم لرسالته، وكأنّ تقدير الكلام: إن كنت صادقاً يا شعيب في دعوتك، فأنزل علينا من السماء قطعاً يكون فيها العذاب لنا، وواضح أنّ أمرهم له ليس فيه إلزاماً لأنّه ببساطة غير حقيقي؛ إذ هو طلب من الأدنى (القوم) للأعلى (النبيّ شعيب عليه السلام)، لذا فقد خرج الأمر ههنا لأداء معنى آخر يتّضح من خلال السياق والأداء التنغمي للآية، ألا وهو التكذيب واستبعادهم لحصول العقاب، اعتقاداً منهم ببطلان رسالة شعيب، واستنكاراً لنبوّته في الأصل.

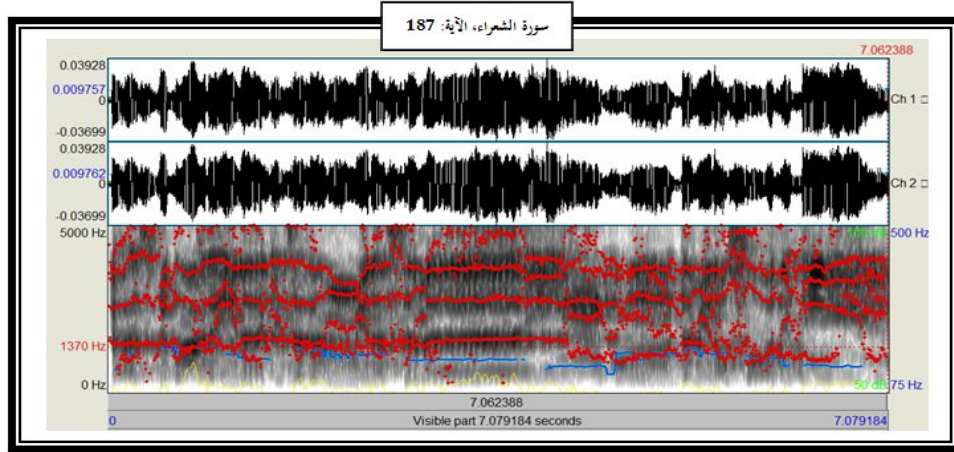
يقول "الرازي" مبيّناً هذا المعنى: «قرئ كسفا بالسكون والحركة، وكلاهما جمع كِسْفَةٌ، وهي القطعة والسماء السحاب أو الظلّة، وهم إنّما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه، فظنّوا أنّه إذا لم يقع ظهر كذبه»⁽¹⁾.

والأمر كما ذكرنا من مواضع الرفع في الأداء، هذا إذا كان الطلب فيه حقيقياً؛ أي على وجه الاستعلاء، أمّا إذا خرج عن معناه الأصلي إلى معاني مجازية أخرى، فإنّه قد يحافظ على النمط التنغمي عينه إذا كان الغرض الذي يخرج إليه من مواطن الرفع مثله، وقد تستوي نعمته أو تنخفض، أو يكون المنحنى الإيقاعي مزجياً من هذا الخليط النغمي، كلّ ذلك منوط بالغرض البلاغي المقصود من الكلام، يقول "أحمد البايبي" في هذا الصدد: «فالمنحنيات التنغمية الموظّفة في الخبر تختلف عن المنحنيات التنغمية المستعملة في الاستخبار، وتلك الواردة في الأمر لا تطابق نظيرتها في النهي وهكذا...، وبهذا فالتنغم حاكم في دلالات التراكيب والجمل؛ إذ يُغيّر الجملة من تركيب إلى آخر، ومن باب إلى باب»⁽²⁾.

غرض الاستبعاد مثله مثل الأمر الحقيقي يحتاج أداءه إلى علوّ موسيقي معيّن، وإلى امتداد صوتي يعبر عن استبعاد أو استحالة حصول الشيء المذكور، وبناء على هذا فإنّ تنغم الأمر الاستبعادي هنا يبدأ قوياً مرتفعاً، ويستمرّ على المستوى ذاته، إلى أن يصل إلى الضعف آخر الآية. والشكل رقم: 39 يوضّح ذلك:

(1)- الرازي: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج24، ص164.

(2)- أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوابة الإيقاعية، ج1، ص261-262.



الشكل رقم: 39

واضح جدًا من خلال النافذة التي تظهر عليها الخصائص الفيزيائية للموجات الصوتية، أنّ المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية منحنى تنازلي ↘ ، وهذا يتناسب مع غرض الاستبعاد. وعموماً يمكن تلخيص النتائج المتوصل إليها من خلال هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
122.240 هرتز	162.564 هرتز	195.371 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.03 ديسيبل	58.95 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
7.07 ثانية			الزمن (Tempo)

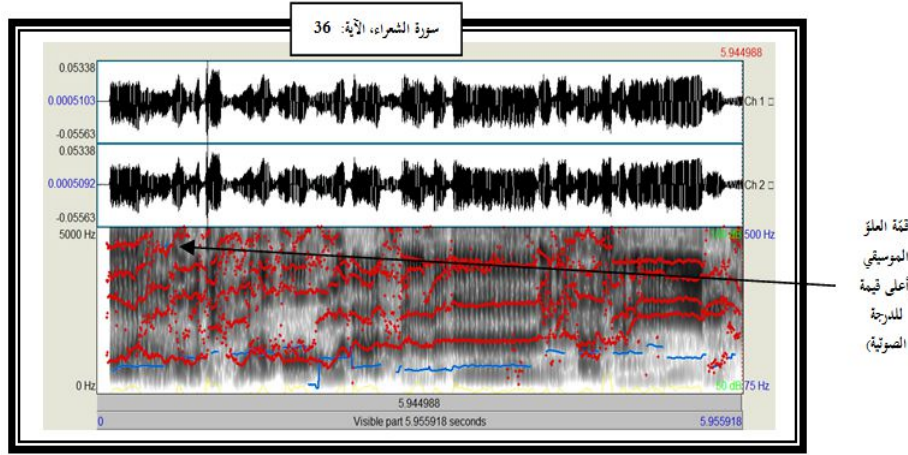
جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 187 من سورة الشعراء

• الأمر للمشورة: من الأغراض البلاغية التي يشهد أسلوب الأمر الخروج إليها: غرض المشورة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 36].

ورد في هذه الآية فعلين من أفعال الأمر هما: {أَرْجِهْ} بمعنى أَخْرَجَ، و {أُبْعَثْ} بمعنى أَرْسَلَ، وكلاهما سقط شرط الاستعلاء فيهما، لأنّ الأمر هنا صادر من الأدنى (أشراف قوم فرعون) إلى الأعلى (فرعون الطاغية)، لذا خرج عمّا يقتضيه ظاهر الكلام، لتأدية غرض آخر وهو: الاقتراح والمشاورة؛ فلمّا رأى فرعون تلك الآيات الباهرة التي أظهرها الله سبحانه وتعالى عليّ يدي نبيّه موسى عليه السلام، خاف على قومه أن يتبعوه، الأمر الذي دفعه مضطراً إلى مشاورتهم والأخذ باقتراحهم، بعد أن كان مستبداً بالرأي متفرداً بالتدبير، حيث نصحوه بالترثّ في الحكم عليهما (موسى وأخاه هارون)، وذلك بتأخير البثّ في أمرهما، وعدم التعجيل في معاقبتهما، لا لشيء سوى لريح مزيدا من الوقت، تدبيراً منهم لأمر يطلبون من خلاله معجزة موسى عليه السلام في زعمهم. يقول ابن

كثير " مستعرضا اقتراح الملاً لفرعون: «أي أَخْرَهُ وَأَخَاهُ حَتَّى تَجْمَعُ لَهُ مِنْ مَدَائِنِ مَمْلَكَتِكَ وَأَقَالِيمِ دَوْلَتِكَ كُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ يَقَابِلُونَهُ، وَيَأْتُونَ بِنظِيرِ مَا جَاءَ بِهِ، فَتَغْلِبُهُ أَنْتَ وَتَكُونُ لَكَ النُّصْرَةُ وَالتَّأْيِيدُ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَكَانَ هَذَا مِنْ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي ذَلِكَ، لِيَجْتَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَلِتُظْهَرَ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَّتُهُ وَبِرَاهِينُهُ عَلَى النَّاسِ فِي النَّهَارِ جَهْرَةً»⁽¹⁾.

إنّ الملائم لاستحضار مثل هكذا أغراض أن تُؤدَّى الآية بنغمة معتدلة، لا هي صاعدة ولا هي بمنخفضة، دليلاً على هدوء السامع، وشدّة تركيزه على الخطاب، تمكينا له من أخذ القرار الصائب في نهاية المطاف، وعليه فإنّ الآية تُؤدَّى كلّها بنغمة منفردة هي: النغمة المستوية، والشكل رقم: 40 يوضّح ذلك:



الشكل رقم: 40

ودليل تأدية الآية كلّها بالنمط التنغمي نفسه وهو النغمة المستوية، التجانس الذي يعرفه المنحنى الأزرق الذي يمثّل درجة الصوت، وكذا المنحنى الأصفر الذي يمثّل شدّة الصوت، حيث لا يكاد يخرج الواحد منهما عن الوتيرة ذاتها، من أول مقطع في الآية إلى آخر مقطع منها. وفي العموم يمكن أن نحمل نتائج التحليل الفيزيائي لموجات الآية من خلال الجدول أدناه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
79.297 هرتز	165.232 هرتز	459.543 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.62 ديسيبل	55.89 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
5.95 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 36 من سورة الشعراء

(1) - ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2104.

لعلّ من أبرز مواضع المشورة في سور الطواسين قوله تعالى في سورة النمل: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ [سورة النمل، الآية: 32].

صحيح أنّ فعل الأمر (أفْتُونِي) الوارد في الآية أعلاه صادر من الأعلى (بليقيس ملكة سبأ)، إلى الأدنى (أشراف قومها)، إلا أنّ الغرض منه خرج عن أصله لبيان معنى المشورة؛ أي أخبروني بماذا سنحجب سليمان؟ هل نقاد إليه وندخل تحت طاعته؟ أم ماذا سنصنع؟ وهذه كلّها علامات تشير إلى دلالة الأخذ برأي الآخر؛ إذ كان الدافع وراء هذا التصرف حيرتها وفزعها كأنثى من أن تتخذ قرارا بمفردها، فحرصت على مشاركة من حولها في صناعة القرار، محاولة منها للتخفيف عن نفسها هذا العبء، ودليل ذلك قولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾. يقول "السعدي" موضّحا ما سقناه: «أي أشيروا عليّ، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها، استعملت المشورة مع رؤساء قومها».⁽¹⁾

هذا، ويتّجه المنحنى الإيقاعي للآية أنّها تنازليا؛ إذ تبدأ النغمة مستوية موضع النداء للمشورة، تليها نغمة مماثلة تمتدّ من فعل الأمر (أفْتُونِي)، الذي خرج هو الآخر إلى دلالة المشورة، إلى أواخر مقاطعها الصوتية؛ هذه الأخيرة التي تشهد انخفاضاً واضحاً على مستوى درجة النغمة، لتختتم الآية قياساً على ما ذكر بنغمة هابطة، دليلاً على اكتمال المعنى المراد إيصاله.

● الأمر للسخرية: حينما تكون القوّة الإنجازية للتركيب غير مطابقة لما يُريده المتكلّم ويقصده، فأكد سيكون الغرض من الكلام مخالفاً لظاهره، يحدث هذا حينما يخرج مثلا الأمر إلى دلالة التهكم والتوبيخ، ويمكن أن نمثّل لهذه الحالة بقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 38].

تضمّنت الآية الكريمة فعلين من أفعال الأمر هما: {أَوْقِدْ، اجْعَلْ}، كلاهما يحمان دلالة مجازية يُدركها القارئ عن طريق السياق، ويفهمها السامع بواسطة الأداء، فلا يخفى على أحد ما يحمله الفعلان من دلالات استخفاف واستهزاء فرعون بربّ موسى، إذ أمر وزيره هامان بأن يتخذ له أجرا لبناء قصر عالٍ، يرتقي من خلاله إلى إله موسى، كي يتأكد من صحّة وجوده فعلا، وهذه مبالغة منه في التكذيب والإنكار.

يقول "الصابوني" في معرض حديثه عن الآية، موضّحا خروج الأمر فيها إلى غرض السخرية: «أي فاطبخ لي يا هامان الأجر، فاجعل لي منه قصرا شامخا رفيعا، لعليّ أرى وأشاهد إله موسى، الذي زعم أنّه أرسله، قال

(1) - السعدي: تيسير اللطيف المئان في خلاصة تفسير القرآن، ص 243.

ذلك على سبيل التهكم...»⁽¹⁾، ودليل سخريته قوله تعالى في نهاية الآية: ﴿وَلِيِّنِي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

والمناسب لاستدعاء ما في الآية من معاني السخرية والاستهزاء، أن تُؤدَّى المقاطع التي تمثل هذه الدلالة بنغمة منحدرّة تحقيراً لصاحبها وخطاً من قيمته، فمن تسوقه أفكاره إلى مثل هكذا ادعاءات، لا يستحق أن يُقيّم أصلاً، وعلى هذا المعنى فإنّ الآية تُقرأ في بدايتها بنغمة التقرير المستوية، تشمل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾، لترتفع بعدها النغمة قليلاً موضع النداء للتعظيم، تشمل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، ثم تعود من جديد للانخفاض بشكل تدريجي، إلى أن تبلغ أدنى حدّها نهاية الآية، مع وجود ارتفاع ملحوظ للنغمة موطن التأكيد بأنّ ولام الابتداء، الأمر الذي يحدث خطفة إيقاعية عالية تكون مفاجئة وسريعة، لا تلبث إلا أن ترجع إلى المستوى الصوتي المعتاد. —

يقول المولى عزّ وجلّ في موضع آخر من السورة ذاتها: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 64].

الأمر هنا على وجه الاستعلاء، صدر من الله تعالى إلى الكفار والمشركين، الذين اتخذوا آلهة غيره لعبادتها، والأمر الوارد في الآية، لا يُراد منه إلزام المخاطب القيام به حقيقة، بل هو مستعمل على سبيل المجاز، ومعناه: تبكيت المشركين والاستهزاء بهم، لأنّ الآلهة التي عكفوا على عبادتها في الدنيا، والتي دُعوا للاستغاثة بها اليوم لن تنفعهم في شيء، فلا هي قادرة على دفع الضرر والعذاب عنهم، ولا هي بقادرة على نصرتهم وإخراجهم من المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه. يقول "المراغي" في بيان هذه الدلالة: «ثمّ طُلب إليهم دعاء الشركاء توبيخاً لهم وتهكماً بهم (...)، والمقصد من طلب ذلك منهم فضيحتهم على رؤوس الأشهاد، بدعاء من لا نفع له ولا فائدة منه»⁽²⁾.

في سياق ذي صلة يقول "عبد الرحمن النقيسة" متحدّثاً عن الآية الكريمة: «أي يُقال للمشركين على وجه الاستهزاء بهم: ادعوا من كنتم تعبدون من دون الله»⁽³⁾.

والتهكّم من مواضع الخفض في الأداء، فالملائم لاستدعاء الغرض أن تكون نغمة الأداء منخفضة، وعليه فإنّ الآية تُستهلّ بنغمة مستوية تشمل المقاطع الصوتية الثلاثة الأولى، التي تمثلها لفظة {وَقِيلَ} = ص ح + ص ح ح + ص ح، تليها نغمة التهكّم الهابطة بتزمين وإيقاع بطيئين، تستمرّ إلى نهاية الآية لغلبة الطابع الإخباري

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص399.

(2) - المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج20، ص150.

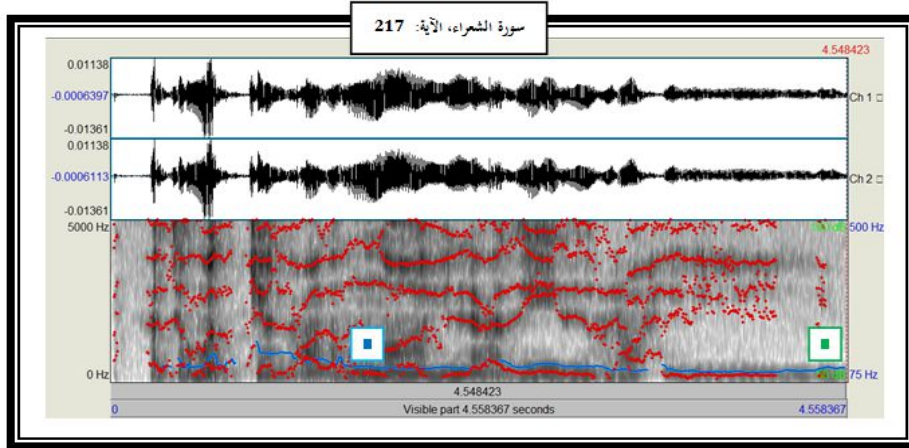
(3) - عبد الرحمن بن حسن النقيسة: التفسير المبين، مج6، ج20، دار التدمرية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1429هـ/2009م، ص436.

عليها.

• الأمر للتسليم والتفويض: وذلك حينما يكون اللفظ أمراً، والمعنى التسليم والتفويض، أو هو: «توجيه الأمر إلى المخاطب بعد الاقتناع بما قُلت»⁽¹⁾، نحو قوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 217].

الخطاب موجّه إلى الرسول محمد ﷺ، ومعنى الآية: حتّى ولو عصاك المشركون بعد أن أنذرتهم، ولم يقيموا وزناً لدعائك لهم، فلا تلتفت إليهم ولا تبتئس لهم، فقد أدّيت ما أمرت بتأديته، وسيجزون لا محالة على جرمهم، وكلّ ما عليك يا محمد أن تُفوّض أمرك إلى خالقك، فهو القادر على دفع الضرر عنك، والانتقام من أعدائك. إذًا، صار واضح جدًّا أنّ فعل الأمر (تَوَكَّلْ) في هذه الآية، لم يعد يُقصد منه حقيقة الطلب على وجه التكليف والإلزام، بل المراد منه الدعوة للتسليم وتفويض الأمر لله وحده. قال "محمد الشوكاني" مبينًا ذلك: «أي فوّض أمورك إليه، فإنّه القادر على قهر الأعداء، وهو الرحيم للأولياء»⁽²⁾.

والأمر الحقيقي يحتاج إبرازه قوّة في الأداء، غير أنّ هذا النمط التنغمي غير مناسب لاستحضار معنى التسليم والتفويض، وقياساً على هذا وفي سبيل إظهار الغرض المذكور، وجب تأدية الآية كلّها بالنعمة الهابطة الهادئة، لمناسبتها والدلالة المقصودة ➤ ، وتبعاً لذلك فإنّ المجموعة المقطعية المشكّلة للآية، تكون كلّها ملفوفة بمدى نغمي سلبي هابط. (انظر الشكل رقم: 41):



الشكل رقم: 41

يعكس منحني الموجات الصوتية (المنحني الأسود) في النافذة أعلى الصورة، وكذا منحني الدرجات الصوتية

(1) - حميد آدم تويني: البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1427هـ / 2007م، ص93.

(2) - محمد الشوكاني: فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ص1068.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

(المنحنى الأزرق) في النافذة أسفل الصورة النطاق التنغمي للآية 217 من سورة الشعراء، والتي هيمنت على أغلب مقاطعه النغمة الهابطة المناسبة لغرض التسليم، تماما مثلما توضّحه المسافة الفاصلة بين المربع الأزرق والمربع الأخضر في الصورة أعلاه. وفيما يلي نتائج التحليل الفيزيائي لموجات هذه الآية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
99.926 هرتز	113.683 هرتز	182.903 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intenisy)
4.56 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 217 من سورة الشعراء

وقال أيضا في موضع آخر: ﴿الْأَتَعْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 31]، وقوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 33].

الأمر في الآية 31 صادرا من الأعلى إلى الأدنى؛ أي من ملكة سبأ (بليقيس)، إلى الملأ، والآية 33 الأمر فيها صادرا من الأدنى إلى الأعلى؛ أي من الملأ إلى ملكة سبأ عكس الحالة الأولى تماما، ومع أنّ الأمر صادر في الآية 31 على وجه الاستعلاء، بيد أنّ الغرض منه لا يختلف عن الغرض الذي خرج إليه الأسلوب ذاته في الآية 33، وهو الانصياع والتسليم، يقول "السعدي" موضّحا هذا المعنى في الآية 31: «أي لا تكونوا فوقي، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إليّ مسلمين، وهذا في غاية الوجازة مع البيان التام، فإنّه تضمّن نهيهم عن العلوّ عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى الإسلام...»⁽¹⁾.

بالمقابل يقول "القرطبي" في بيان المعنى نفسه في الآية 33 من سورة النمل: «أخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها في كلّ ما يعرض لها، فراجعها الملأ بما يُقرّر عينها من إعلامهم أياها بالقوّة والبأس، ثمّ سلّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاوره حسنة من الجميع»⁽²⁾.

أما من جهة الأداء فإنّ الآية 31 تُستهلّ بنغمة مستوية صاعدة، لخروج النهي فيها إلى دلالة الوعيد، تشمل قوله: ﴿الْأَتَعْلُوا عَلَيَّ﴾، في حين تُفتتح الآية 33 بنغمة مستوية عند قوله: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، تلي النمط التنغمي في الآيتين نغمة التسلية الهابطة، تشمل قوله: ﴿وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وكذا: ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

(1) - السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان، ص 575.

(2) - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنّة وآي الفرقان، ج 13، ص 194.

وفي موضع آخر من هذه السورة يقول عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 65].

إنّ السياق ومعه الأداء كفيّل للتأكيد بأنّ فعل الأمر (قُلْ) في الآية لم يُوضع لطلب القيام بالفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، حتّى وإن كان الأمر فيه موجّهاً من الأعلى إلى الأدنى، إلّا أنّ الغرض من الأمر هو: التسليم، إذ يقول "ابن عطية" في هذا الصدد: «إنّما نزلت لأنّ الكفّار سألوا وأحتوا عن وقت القيامة التي يعدّهم بها محمّد، فنزلت هذه الآية فيها التسليم لله تعالى وترك التحديد، فأعلم عزّ وجلّ أنّه لا يعلم وقت الساعة سواه، فجاء بلفظ يعمّ الساعة وغيرها، وأخبر عن البشر أنّهم لا يشعرون أيّان يبعثون»⁽¹⁾.

وما قيل عن أداء الآيات السابقة ينطبق على هذه الآية التي بين أيدينا، فلا مناصّ لاستدعاء غرض التسليم، إلّا بواسطة تأديتها بنغمة هابطة، على طول المقاطع الصوتية المشكّلة لها.

الحقيقة أنّ أسلوب الأمر قد يخرج إلى دلالات أخرى وأغراض بلاغية عديدة غير التي أتينا على ذكرها، يكون للسياق والأداء الأثر الواضح في التوصل إليها، ونظرا لغيابها في سور الطواسين، كان لا داعي للوقوف عندها، ولعلّ من أبرز هذه الأغراض على سبيل الذكر لا الحصر: الالتماس، التمتّي، التعجّب، التخيير، الإباحة، التسوية، التسخير، التلهيف، الوجوب، التأديب، الامتنان، الإكرام، الإذن، التمييز وغيرها كثير.

(1) - ابن عطية الأندلسي: المحرّز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص ص266-267.

المبحث الثالث: النهي

المطلب الأول: مفهومه وصيغته

1- تعريف النهي: النهي في اللغة هو طلب الكفّ عن فعل شيء ما على سبيل التحريم، ولا يتعد التعريف

الاصطلاحي عن هذا المعنى، إذ هو: «طلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام»⁽¹⁾.

إذًا، فواضح أنّ النهي يتّفق مع الأمر في:⁽²⁾

- أنّ كلّ واحد منهما لا بدّ فيه من اعتبار الاستعلاء.

- أنّهما يتعلّقان بالغير، فلا يمكن أن يكون الإنسان أمرًا لنفسه أو ناهيا لها.

- أنّهما لا بدّ من اعتبار حال فاعلهما في كونه مریدا لهما.

ويختلفان في:⁽³⁾

- أنّ كلّ واحد منهما مختصّ بصيغة تخالف الآخر.

- أنّ الأمر دالّ على الطلب، والنهي دالّ على المنع.

- أنّ الأمر لا بدّ فيه من إرادة مأموره، وأنّ النهي لا بدّ فيه من كراهية منهيه.

وعليه فالنهي بهذا المعنى على ثلاثة مستويات؛ فهو: «كالأمر حينما يكون استعلاء مع الأدنى، ودعاءً مع

الأعلى، والتماساً مع النظر»⁽⁴⁾.

2- صيغ النهي: ليس للنهي سوى صيغة واحدة هي: المضارع مع لا الناهية، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: 85].⁽⁵⁾

المطلب الثاني: أغراض النهي البلاغية: قد تخرج صيغة النهي شأنها شأن سائر صيغ الأساليب الإنشائية

الأخرى عن معناها الحقيقي إلى معاني مجازية أخرى، تُفهم من السياق وقرائن الأحوال، ممّا يعني أنّ النهي عند

البلاغيين قسمان: النهي الحقيقي؛ إذا كان طلب الكفّ فيه دالا على المنع، وعلى وجه الاستعلاء والإلزام

والتحريم، والنهي المجازي وهو ما افتقد شرط الاستعلاء والإلزام؛ إذ لا يكون الغرض منه حقيقة المنع أو طلب

(1)- جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص108.

(2)- المرجع نفسه، ص ن.

(3)- نفسه، ص ن.

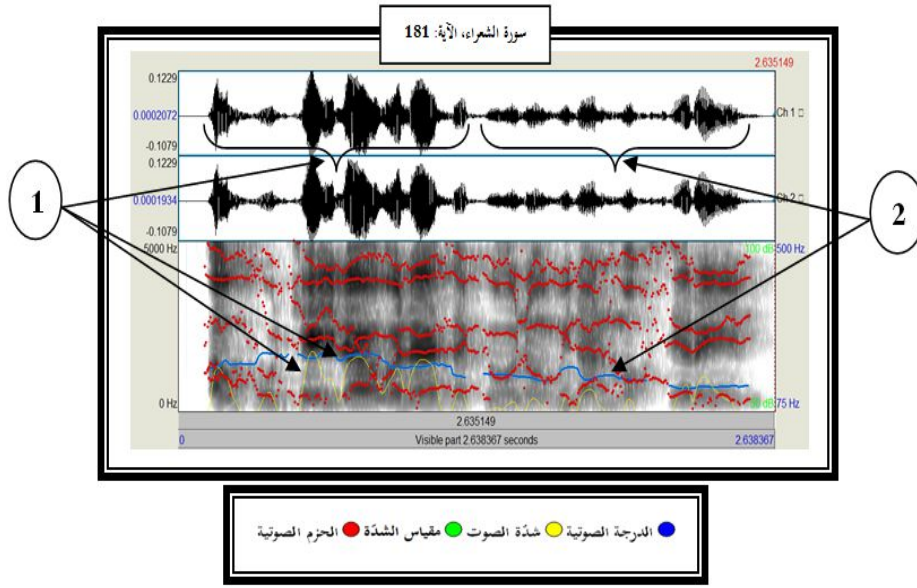
(4)- جلال الدّين يوسف العيداني: دلالة البنية الصرفية في السور القرآنية القصصار، دار الرّاية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1431هـ/

2010م، ص ص235-236.

(5)- أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة- البيان والمعاني والبديع، ص79.

الكفّ عن القيام بالفعل، بل لغاية بلاغية أخرى يرمي إليها المخاطب التّاهي، ومن بين المواضيع التي استعمل فيها النهي لغرض المنع في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 181].

ففي الآية نهي صريح عن الإنقاص في الميزان والمكيال على سبيل التحريم، والآية تُؤدّي بنغمة صاعدة متّجهة نحو الهبوط في آخرها، تتماشى مع دلالاتي الأمر والنهي الحقيقيين، والشكل رقم: 42 يوضّح المنحنى التنغمي لنصّ الآية الكريمة:



الشكل رقم: 42

إنّ المنحنى الإيقاعي الخاص بهذه الآية كما هو مبين في الصورة أعلاه منحنى صاعد هابط، حيث يشهد في بدايته ووسطه ارتفاعا في عدد الذبذبات الصوتية، وهذا هو سرّ السواد الكثيف الذي نلاحظه في بداية الموجات الصوتية مقارنة بنهايتها؛ أين تعرف حين ذاك نقصانا في عددها، وإلى جانب كثرة هذه الذبذبات وسرعة حركتها في بداية الآية، فقد عرفت أيضا ارتفاعا في درجة الصوت وشدّته (علوّ المنحنيين الأزرق والأصفر)، حيث يمثّل الرقم 1 النطاق النغمي للنغمة الصاعدة موضع الأمر والنهي الحقيقيين، أمّا الرقم 2 فيمثّل النطاق النغمي الذي تسجّل فيه النغمة بداية انحدارها، وفيه نلاحظ تمطيط آخر مقطع من لفظ ﴿الْمُخْسِرِينَ﴾.

أمّا بالنسبة لنتائج هذا التحليل، فيمكن تلخيصها فيما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
131.975 هرتز	182.419 هرتز	221.696 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	57.87 ديسيل	67.56 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
2.64 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 181 من سورة الشعراء

وقوله أيضا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 183].

في الآية أيضا نهي حقيقي عن شيئين: الأول؛ حرمة بجنس الناس أشياءهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، والثاني: تحريم الإفساد في الأرض، مهما كان نوعه؛ كالقتل، والحراية، والسلب والنهب، وغيرها من أضرب الفساد. هذه الآية تُؤدّي أيضا بالنعمة ذاتها، متمثلة في النعمة الصاعدة الهابطة، ومادام أنّ النهي الأصلي من مواضع الرفع في الأداء، فلا يمكن استدعاؤه إلاّ من خلال تزويد النطق بشحنة صوتية قويّة، تُظهر المعنى وتكشف الغرض منه، وهذا ما أشار إليه "تحسين فاضل عباس" في كتابه "البحث الصوتي وجمال الأداء".^(*)

ولعلّ من أبرز المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي عن معناه الأصلي نذكر:

● **الدعاء:** كثير ما يخرج أسلوب النهي عمّا يقتضيه ظاهره، إلى معاني إضافية أخرى يكون للسياق والأداء فاعلية في إبرازها، كخروجه إلى غرض الدعاء مثلا. فالأمر للدعاء يكون: «من أدنى إلى أعلى، ومن صغير إلى كبير، ومن ضعيف إلى قويّ، ومن مخلوق إلى خالق كما في الأمر». ⁽¹⁾، ويكمن سرّ التعبير بصيغة النهي عند مقام الدعاء في القرآن الكريم في: «بيان رغبة العبد في الغفران، وإظهار كمال تضرّعه إلى الله جلّ وعلا». ⁽²⁾

ففي هذه الحالة يسقط شرط الاستعلاء في طلب الكفّ عن الفعل، تماما مثلما هو الشأن في قوله تعالى على لسان نبيّه إبراهيم **عليه السلام**: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 87]؛ فعلى الرغم من توافر الآية على الأداة الناهية، إلاّ أنّ القصد منها مخالف للمقصد؛ أي للغرض الذي وُضعت إليه في الأصل، فهي لا تدلّ ههنا على المنع، بقدر ما تدلّ على الضراعة والدعاء والتدللّ لله سبحانه وتعالى. يقول صاحب "أيسر التفاسير" مشيرا إلى هذا الغرض: «ودعا ربّه أن يجيره من الخزي والهوان يوم القيامة، يوم يبعث الله الخلائق، ويحشرهم جميعا للحساب؛ أي: لا تفضحني، ولا تُدِلّني بعقابك». ⁽³⁾

(*)- ينظر: المرجع المذكور، ص 84.

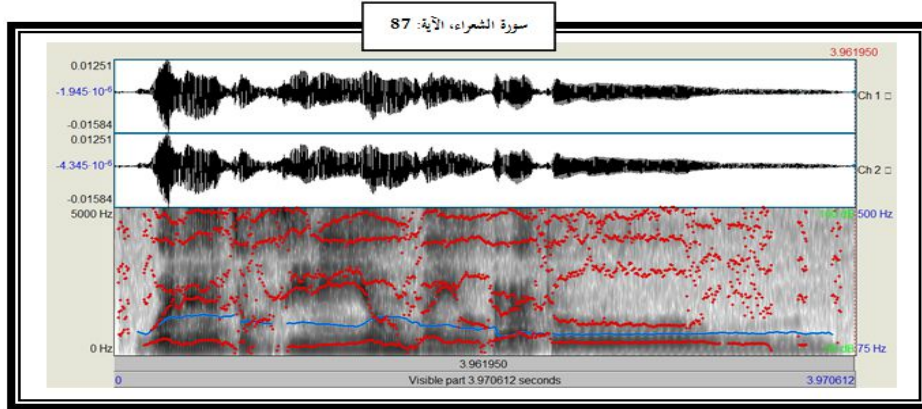
(1)- بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج 1، ص 103.

(2)- جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص 111.

(3)- أسعد محمود حومد: أيسر التفاسير (تفسير- أسباب نزول- أحاديث- نماذج إعراب)، ج 2، ص 911.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

والنهي المحض كما عرفنا سابقا من مواضع الرفع في الأداء، لكنّ هذا المنحنى في أغلب الأحيان ما يطرأ عليه تحوُّلا، في حالة ما إذا اتَّجه الأسلوب إلى دلالة مخالفة، يحتاج استدعاؤها إلى نمط تنغمي مغاير عمّا يحتاجه النهي الحقيقي، فهاهو غرض الدعاء هو الآخر قد يختلف نمطه في الأداء، باختلاف السياق الوارد فيه وقد يتطابق؛ يتطابق مع النمط المناسب للنهي الحقيقي، إذا كان الغرض الضمني منه هو الإصرار على انتفاء طلبٍ ما، والإلحاح على عدم وقوعه، وقد يخالفه في حالة ما إذا كانت الغاية المرجوة منه تقتضي إظهار الضعف والاحتياج والتوسل، وهذا تماما ما نجده في الآية التي بين أيدينا؛ فإبراهيم عليه السلام طلب من ربه استعطافا وضعفا منه، ألا يفضحه ويهينه يوم تُبعث الخلائق للحساب، فدعاؤه هذا كان نتيجة حتمية لحاجته إلى رحمة ربه، وهنا يبرز معنى التذلُّل بوضوح، لذا فإنّ الآية تُتلى كلّها بتنغميم هابط ↘، كمؤشِّر للدلالات الضعف والحاجة والابتهاال «فقارئ هذه الآية لا بدّ أن يكون نطقه بها مشحونا بتنغميم صوتي، يجسّد الضراعة والخضوع والتذلُّل لله سبحانه وتعالى»⁽¹⁾؛ وعليه يكون الأداء مصبوغا بنغمة التحزين، وإيقاع وتزمين بطيئين، استدعاء للغرض أكثر، وتقريبا له من السمع. (انظر الشكل رقم: 43):



الشكل رقم: 43

هذا، ويمكن ترجمة ما يوضّحه المخطّط من خلال النتائج التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
129.604 هرتز	142.489 هرتز	192.399 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
3.97 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 87 من سورة الشعراء

(1) - عائشة خضر أحمد البدراني: "مقومات التنغم ودلالاته"، ص 115.

● **الالتماس:** رأينا فيما سبق من البحث الدور الذي يلعبه الأداء التنغيي في إبراز معاني التراكيب، وأثره في توجيه أغراضها البلاغية من خلال النغمات المتنوعة والمتناوبة أحيانا، التي تفرز لنا منحنى إيقاعيا معينا، يتم الاستعانة به قصد الوصول إلى الدلالة المراد بلوغها، إلى جانب تفاعل النغمات مع عوامل أخرى كالفواصل من سكتات ووقفات إيقاعية، والضغط على مقطع من السلسلة الكلامية دون غيره، الأمر الذي يساهم بطريقة أو بأخرى في عملية الإيضاح السمعي، وغيرها من العناصر التي تجتمع من أجل الحكم على أيّ الأغراض البلاغية المعنية بخروج الأسلوب عن مقتضى ظاهره.

فالتّهي - كما أشرنا - قد يحتاج لإبرازه نمطا تنغيميا مختلفا تمام الاختلاف عن النمط الذي يحتاجه غرض آخر خرج إليه على غرار: الالتماس مثلا؛ هذا الأخير الذي يتباين عن النهي في كون طلب الكفّ عن القيام بالفعل فيه لا على وجه الاستعلاء والإلزام والخضوع لسلطة الناهي، بل هو طلب المساوي من المساوي في الرتبة والمنزلة على سبيل التلطّف والرجاء، يقول "عبد الفتّاح بسيوني" معرّفا آياه: «وذلك إذا كان النهي من المساوي والند دون استعلاء ولا خضوع وتدلّل، كقولك لنظيرك: لا تفعل هذا، لا تؤذ ضعيفا، لا تهن مسلما».⁽¹⁾

يحدث هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 09].

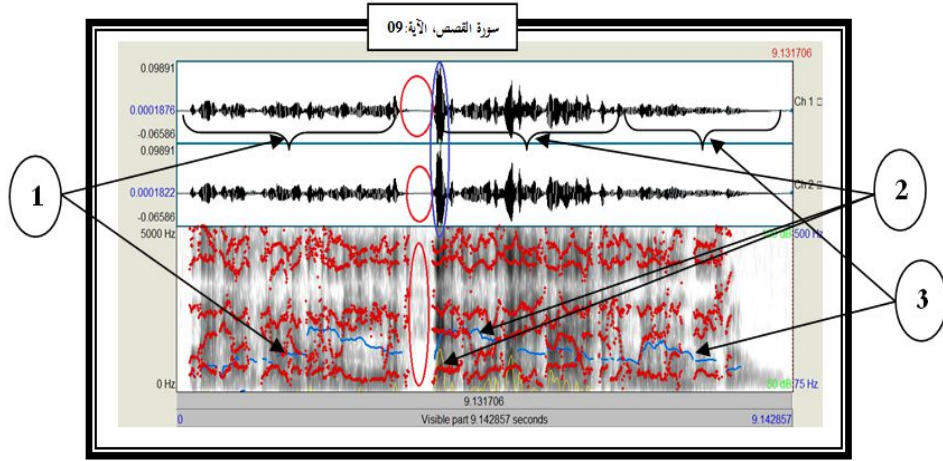
الظاهر من خلال السياق أنّ النهي الوارد في الآية غير صادر من الأعلى إلى الأدنى، ولا هو بالعكس، بل من متساويين (من الزوجة آسية بنت مزاحم، إلى الزوج فرعون الطاغية)، وكان خطاب النهي ههنا بلفظ الجمع تعظيما للمخاطب، وسياسة لكسب عطفه ورحمته، وحتى يشعر بشدّة تعلق المخاطب بطلبه، وترجّي قبوله من الطرف الثاني. يقول "يوسف عبد الله الأنصاري" موضّحا هذا المعنى: «لقد افتتحت امرأة فرعون خطابها بكلام جامع بليغ، تسعى من خلاله إلى إثارة عاطفة الأبوة والرحمة والشفقة في قلب فرعون بقولها: ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾، فالتّهي في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ للرجاء والرغبة بدلالة السياق والمقام».⁽²⁾

الملاحظ أنّ زوجة فرعون في طلبها هذا قد وقرت كلّ العوامل لكسب ودّ زوجها الطاغية، فلم تُخفِ عليه حنانها وتعلّقها الشديدين بالصبيّ، كما استطاعت أن تتحدّى قسوة فرعون بفضل ما أوتيت من حكمة وحنكة قصد إقناعه بضرورة الاحتفاظ به، واتّخاذ ولداهما. هذا يعني أنّ التماسها لم يكن خاليا أبدا من الإصرار والإلحاح، لذا فإنّ المناسب لأداء الغرض هو نغمة الأداء الصاعدة، فلا يخفى على أحد ما بذلته زوجة فرعون من

(1) - عبد الفتّاح فيود بسيوني: علم المعاني - دراسة بلاغية وتقديمية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط4، 1436هـ/2015م، ص372.

(2) - يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص315.

جهد لحماية موسى^(*) من القتل، وعليه تُفتتح الآية الكريمة بنغمة مستوية تشمل قوله: ﴿وَقَالَ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنُ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾، تليها نغمة الالتماس الصاعدة، والتي لا تلبث - هي الأخرى - أن تستمر على الوتيرة ذاتها؛ إذ تشهد انخفاضاً ملحوظاً مع نهاية الآية دليلاً على اكتمال المعنى، تفصل بين النغمة المستوية الأولى، والنغمة الصاعدة الثانية سكتة إيقاعية خفيفة، تُستغل لأخذ النفس، والاستعداد لاستئناف القراءة من جديد. والشكل رقم: 44 يوضح المنحنى اللحني للآية كما يلي:



الشكل رقم: 44

تشير الأرقام الثلاثة في هذه الصورة إلى ما يلي:

- الرقم 1: يمثل هذا الرقم النغمة المستوية التي تستأنف بها الآية، التي تشهد في نهاية نطاقها النغمي علواً موسيقياً تمهيداً لموضع النهي، الذي يلي الكلام التقريري بداية الآية.
- الرقم 2: يمثل هذا الرقم النطاق النغمي لنغمة النهي للالتماس، وهي نغمة صاعدة، حيث يشير الحيز الدائري الأزرق إلى أعلى قيمة لها، تحديداً عند أداة النهي (لا)، ودليل ما في هذا النطاق من قوة في الصوت كثرة عدد ذبذبات الموجات الصوتية، فضلاً عن ارتفاع المنحنى الأزرق (الممثل للدرجات الصوتية)، وظهور المنحنى الأصفر (الممثل لشدة الصوت)، أين يسجل هذا الأخير أعلى قيمة له في هذا النطاق والتي قدرتها بـ: 62.84 ديسيبل.
- الرقم 3: أما هذا الرقم فيمثل النغمة الهابطة آخر الآية، وهذا الاتجاه النغمي يوحي بتمام المعنى، واكتمال الغرض المقصود من الكلام.

(*)- تذكر الروايات أنّ النبي موسى أُلْتَقِطَ وهو صبيّ في الصندوق، هذا يعني أنّ القوم الذين التقطوه لا يعرفون اسمه، لأنّه رضيع لا يقدر على النطق به، وهذا من معجزات الله في خلقه، أنّه سمّي بينهم بالاسم نفسه الذي سمّته به أمّه يوم وُلِدَ، حيث أطلقت عليه زوجة فرعون آسية لقب "موسى"؛ لأنّ تابوته وُجِدَ بين الماء والشجر، والماء في لغتهم يسمّى (مو)، والشجر (شا). ينظر: مجير الدين بن محمد العلمي المقدسي الحنبلي: فتح الرحمن

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

تفصل بين النغمة الأولى (النغمة المستوية) والتي تليها (النغمة الصاعدة)، سكتة إيقاعية خفيفة، تشير إليها الدوائر الحمراء في الصورة أعلاه.

في العموم يمكن توضيح ما توصل إليه التحليل الفيزيائي لموجات الآية الكريمة في هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
76.212 هرتز	178.891 هرتز	243.724 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	56.12 ديسيل	62.84 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
9.14 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 09 من سورة القصص

• النهي للإباحة: وذلك في: «النهي بعد الإيجاب، فإنه إباحة الترك»⁽¹⁾، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَبْغُ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 77].

الآية التي بين أيدينا مليئة بالأوامر والنواهي، يجمع بينها قاسما مشتركا هو النصح والإرشاد، بيد أن السياق يُضفي على قوله: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ دلالة أخرى هي: الإباحة. قال "الطاهر بن عاشور": «والنهي في ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ﴾ مستعمل في الإباحة»⁽²⁾.

ويفصل "الرازي" أكثر في الغرض قائلا: «...لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة، بين له بهذا الكلام إنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (...)، المراد منه الإنفاق في طاعة الله، فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون أن يأكل ويشرب...»⁽³⁾.

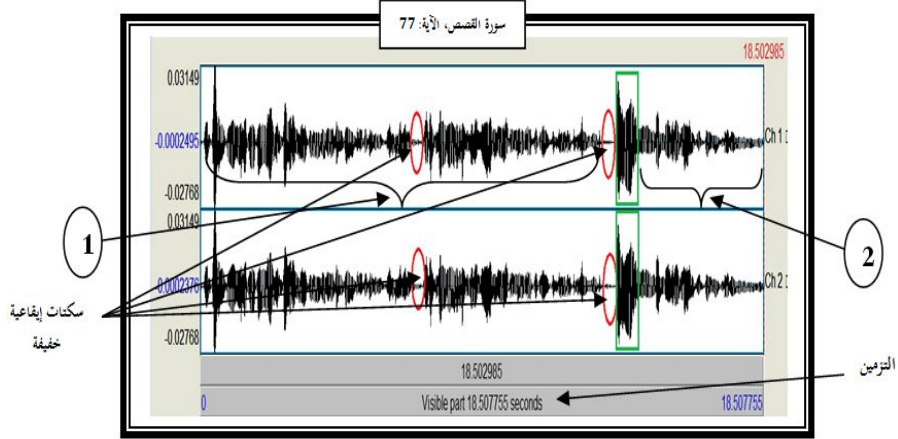
تبعا لما تحمله الآية من معاني الوعظ والإباحة، فإن منحناها الإيقاعي يشهد تذبذبا نغميا ملحوظا؛ إذ تُستهلّ بنغمة مستوية تتناسب ودلالة النصح الذي خرج إليها الأمر، أي قوله تعالى: ﴿وَأَبْغُ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، تستمرّ وتيرة التنغم هاته إلى موضع النهي للإباحة ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، لكن بإيقاع هادئ وتزمين بطيء، ليعود غرض النصح والإرشاد مجددا مع فعل الأمر (أَحْسِنَ)، وفعل النهي (لا تَبْغِ)، حيث تُتلى المجموعة المقطعية التي تشملهما بذات النغمة وهي: النغمة المستوية أيضا، ليسجل بعدها المنحنى الإيقاعي خطفة عالية موضع التوكيد، لا تلبث طويلا حتى يأخذ المنحنى اتجاهها معاكسا نحو الهبوط، دليلا على اكتمال المعنى،

(1) - عبد العزيز أبو سريع ياسين: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1410هـ/1989م، ص315.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص179.

(3) - الرازي: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج25، ص16.

ومؤشراً على بلوغ نقطة النهاية (موضع الوقفة). وهذا ما يوضحه مخطّط الموجات الصوتية في الشكل رقم: 45



الشكل رقم: 45

نلاحظ أنّ الصورة تخلو من مختلف الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي من: رسم طيفي، منحني الدرجة الصوتية، منحني شدة الصوت، منحنيات الحزم الصوتية... الخ، السبب يكمن في طول المدّة المستغرقة في أداء الآية الكريمة، حيث بلغت 18 ثانية، و51 جزء من الثانية، وفي مثل هكذا حالات يعجز البرنامج الذي نشتغل عليه في عرض نتائج التحليل الأكوستيكي على إظهار تلك الخصائص ما دام أنّ التزمين تجاوز الحد المسموح به وهو عشر ثوانٍ، لذا فإنّ برنامج برات في هذه الحالة لا يمكنه إلاّ أن يبرز لنا منحنيات الموجات الصوتية الخاصة بمقاطع الآية، حيث يتّضح لنا من خلال المخطّط أعلاه أنّ النغمة المستوية تأخذ حيزاً صوتياً لا بأس به، إذ تستوعب كلّ أفعال الأمر والنهي المذكورة في الآية، والتي خرجت كلّها إلى أغراض بلاغية أخرى، تراوحت بين معاني النصح والإباحة كما ذكرنا آنفاً، وهذا ما يشير إليه الرقم 1، مع وجود سكتات إيقاعية خفيفة يستغلّها القارئ لاسترداد نفسه وتهيئته للاستمرار في القراءة، لبدأ المنحنى في الانخفاض التدريجي نهاية الآية حسب ما يشير إليه الرقم 2، يكون هذا التغيّر النطقي مسبقاً بمخطفة إيقاعية عالية موضع التأكيد بأنّ، وهو الموضع المحاط بالمستطيل الأخضر في المخطّط أعلاه.

● **النهي للتسلية:** كما مرّ بنا في السابق، فإنّ غرض التسلية أو كما يُعرف أيضاً بالاثتناس؛ يدلّ على المواساة وكشف الهمّ والغمّ عن المنهي، لذا فقد كانت الأفعال الخاصة بالعرض من قبيل: لا تخف، لا تأس، لا تحزن، لا تحسبن، وهلمّ جرّاً أكثر الأفعال وروداً في هذا المعنى، ويجيء أسلوب النهي للتسلية «حين تستعمل الصيغة في سياق بثّ الطمأنينة والأنس»⁽¹⁾، ويظهر معنى التسلية والتصبير في سور الطواسين في مواضع عديدة،

(1) - عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوى: الكافي في علوم البلاغة العربية (المعاني، البيان، البديع)، ص 260.

نستعرض أبرزها فيما يلي:

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ الْإِيكُونُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 03].

تبدو الآية من الوهلة الأولى أمّا خبرية، لا علاقة لها بأسلوب النهي، وذلك لعدم وجود أداة النهي، غير أنّ المتأمل أكثر في السياق الذي جاءت فيه، يجد أنّ المعنى الباطني هو المقصود، حتّى وإن كان مخالفاً للبنية السطحية، ودليل ذلك وجود قرينة لفظية توحى بأنّ الغرض المقصود من الكلام هو النهي؛ فالنهي بلفظ الرجاء (لعلّ) يكون لغرض آخر يخرج إليه الأسلوب وهو: التسلية، ففي الآية تصبير منه سبحانه وتعالى، وإيناس لرسوله ﷺ بعد إعراض كقار قريش عن القرآن الكريم، يقول "الألوسي" في هذا الصدد: «لعلّ: هي في مثل هذا الموضع موضوعة موضع النهي، والمعنى: لا تبجع نفسك...»⁽¹⁾.

البجع كما هو معلوم: قتل النفس من شدّة الغيظ والغمّ والحزن، وتقدير الآية: لا تشقّ على نفسك أيّها الرسول فتهلكها أسفا وهماً، بسبب عدم إيمان هؤلاء الكافرين بك المشركين برّبك، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فما عليك أيّها الرسول إلّا أن تبّلغهم رسالة ربّك، فإن هم أطاعوك كان خيراً لهم، وإن هم عصوك فعلينا حسابهم، وكلّ هذا يدخل ضمن معاني التخفيف والتصبير والتسلية للرسول ﷺ. يقول صاحب "أيسر التفاسير" مبيناً خروج النهي لغرض التسلية: «لا تهلك يا محمد نفسك أسى وحزناً وحسرة على قومك، إذا لم يؤمنوا بما جئتهم به من عند ربّك، وفي هذا الخطاب تسلية للرسول ﷺ عمّا يلاقيه من قومه من عناد وكفر وتكذيب برسالة ربّهم وتكذيب لرسوله»⁽²⁾.

ولمّا كانت تسليته لنبيّه محمد ﷺ نتاج ما أصابه من أسف وحسرة وحزن على قومه، فالأنسب لأداء هذه الآية استحضاراً لهذه المعاني بنغمة منحدرة، لذا فإنّ الآية تُتلى كلّها بنغمة واحدة، وهي النغمة الهابطة (المدى السليبي الهابط)، والتي تعرف في موضع التحضيض خطفة إيقاعية تكون عالية وسريعة، ليعود بعدها المنحنى التنغيي إلى مستواه الطبيعي المعتاد.

وقال أيضاً: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكْفُؤُنَّ لَأَنْفُسِهِمْ لِيُحَافُوا ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 10]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَكْفُؤُنَّ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 31].

واضح من خلال الآيتين أنّ النهي ههنا، لا يُقصد منه طلب الكفّ عن الخوف، لأنّ هذا الأخير كتلة من

(1) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج19، ص59.

(2) - أسعد محمود حومد: أيسر التفاسير (تفسير - أسباب نزول - أحاديث - نماذج إعراب)، ج2، ص899.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

المشاعر، تنتاب الإنسان ليس بإرادته، وإنما نتيجة أسباب معينة ودواعي خاصة يزول بانتفائها، وبالتالي يصبح النهي عنه لا يستقيم مع المنطق، ولا يتقبله العقل السليم، هذا يعني أنّ النهي في كلتا الآيتين لم يُوضع وضعاً حقيقياً، بل هو على سبيل المجاز.

ورد النهي كما هو ملاحظ في الآيتين بالصيغة ذاتها (لا تَحْفُفْ)، موجّهاً في كليهما للنبيّ موسى عليه السلام، غير أنّ الموقع الذي جاء فيه النهي في سورة النمل، يختلف عن الموقع الذي ورد فيه ضمن سورة القصص حتى وإن كان السياق واحداً؛ ففي سورة النمل جاء النهي عن الخوف بعد النداء تمهيداً لما سيكلفه الله به من أمر الدعوة، وتبشيراً له بالرسالة الربّانية، وهذا ما يجب أن يبعث في نفسه الأمن والطمأنينة، لأنّ الرسل محفوظون من الله عزّ وجلّ، لذا جاء النهي - هنا عن أسباب الخوف، وليس عن الخوف في حدّ ذاته - مباشرة مقرونًا بالتبشير بالرسالة، وهذا غاية في التشريف والتكريم، وكلّ ذلك يدخل ضمن التسلية والتثبيت. يقول "سيد قطب" في معرض تفسيره للآية 10 من سورة النمل: «لا تحفّف، فأنت مكلف بالرسالة، والرسل لا يخافون في حضرة ربّهم، وهم يتلقّون التكليف»⁽¹⁾.

وما زاد الغرض تشبيهاً أكثر في هذه الآية ورود نبر المدّ العارض للسكون، على آخر مقطع من كلمة "المُرْسَلُونَ" كما يلي:

لَدَيْهِ لُـرْسَـلُـوْنَ
ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح ح ح
السبر الثانوي السبر الأولي

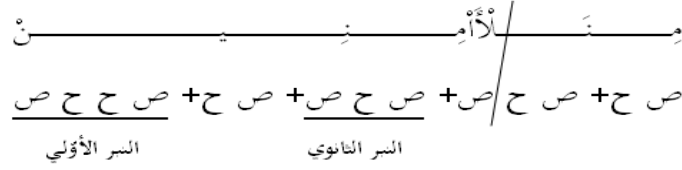
أما في سورة القصص، فقد جاء النداء متبوعاً بالأمر ثمّ النهي عن أسباب الخوف، مقرونًا بالتبشير بالأمن مع التأكيد على ذلك. فلمّا رأى موسى عليه السلام عصاه تهتزّ كأنّها جانّ خاف وولّى مدبراً، ولم يرجع أو يلتفت لهول المشهد، لكنّ الله سبحانه وتعالى طمأنه بقوله: ﴿يَكْمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَحْفَظُ﴾، والأمر والنهي في الآية كلاهما للتسلية والتطمين كما أشرنا آنفاً، بدليل قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾، ولا يخفى على أحد أنّ مثل هذا الكلام المؤكّد من شأنه أن يساهم في زيادة الأمن، وبعث الطمأنينة في قلب الخائف، يقول "ابن عاشور": «وفيه زيادة تحقيق أمنه، بما دلّ عليه التأكيد بـ (إنّ)، وجعله من جملة الأمنين، فإنّه أشدّ في تحقيق الأمن من أن يقال: إنّك آمن...»⁽²⁾.

وما زاد الغرض تأكيداً وإشعاراً للمخاطب بالأمان، ما تشهده قراءة لفظ (الأمينين) من تمطيط لآخر مقطع

(1) - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج 5، ج 19، ص 2629.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 20، ص 113.

صوتي فيه، لوقوع النبر عليه، كما يلي:



والتسلية كما أشرنا هنا كانت نتيجة الخوف، لذا فإن النمط التنغمي المناسب لاستدعاء الغرض، وتقريب المعنى هو النمط الهابط، وعلى هذا الأساس تُفتح الآيتين بنغمة صاعدة في قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [سورة النمل، الآية: 10]، و﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [سورة القصص، الآية: 31]، لمناسبتها الأمر الحقيقي، تليها نغمة التقرير المستوية تمتد لتشمل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَرَمِعَ قَبْ﴾ [سورتي: النمل، الآية: 10، والقصص، الآية: 31]، لترتفع بعد ذلك درجة التنغم برهة من الزمن، تواكب قراءة المقطع المتوسط المفتوح، الذي تمثله أداة النداء (يا)، لتعود النغمة من جديد إلى الهبوط موضع التسلية، مستمرة على الوتيرة الصوتية ذاتها، إلى غاية المقطع الختامي للآيتين، مع تخللها لسكتات إيقاعية خفيفة بين الفينة والأخرى، يستغلها القارئ لأخذ النفس الجديد، والاستعداد لاستكمال القراءة.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 70].

على الرغم من أنّ النهي الوارد في هذه الآية صادر على وجه الاستعلاء؛ أي من الأعلى (الله تعالى)، إلى الأدنى (رسوله محمد ﷺ)، إلا أنّ النهي فيه لم يأت على حقيقته أيضا، فلا يُعقل أن يطلب الناهي من المنهي الكفّ عن الحزن، وبمنعه منه على وجه الإلزام، لأنّ الحزن يعترى الإنسان شأنه شأن الخوف، وغيرهما من الأحاسيس دون إرادة المعني، إنّما النهي هنا عن ضرورة الابتعاد عن الأسباب المؤدية إلى الحزن، وهذه هي النقطة الفارقة التي تميّز النهي الحقيقي عن النهي المجازي. فتقدير الكلام: لا تحزن يا محمد بشأن هؤلاء المكذّبين الظالمين، ولا تأسف لحالمهم، وهذا من باب تصبيره وتشبيته. يقول صاحبنا "تفسير الجلالين"، مؤكّدين ما سقناه: «تسلية للنبي؛ أي لا تهتمّ بمكرهم عليك، فأنا ناصرك عليهم». (1)، ويضيف "عبد الرحمن بن حسن النفيسة" قائلا: «﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في هذا تسلية لرسول الله ﷺ بالألّا يحزن على هؤلاء في عدم استجابتهم لدعوته وتكذيبهم للبعث، ولا يضيق بك مكرهم ولا يحزنك كيدهم، فإنّ الله سوف ينصرك عليهم، لأنّ العاقبة للمتقين». (2)

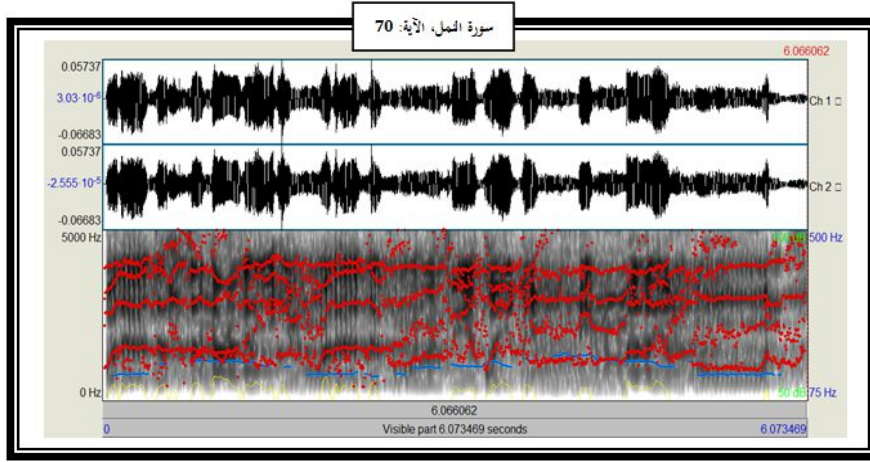
والحزن يحتاج إلى تصبير وتسلية، وكلّها معاني وأغراض يستدعي بيانها أن تُؤدّى التراكيب الواردة فيها بنغمة

(1) - جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي: تفسير الجلالين الميسر، تح: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص383.

(2) - النفيسة: التفسير المبين، مج6، ج20، ص383.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

هابطة هادئة، تتناسب مع التطمين وبعث الأمن في قلب الحزين، وعليه تُتلى الآية كلّها بالنعمة نفسها، وهي: النعمة المستوية المنحدرة، بتزمين وإيقاع بطيئين. والشكل رقم: 46 يوضّح ذلك:



الشكل رقم: 46

الأداء هنا لم يعرف ارتفاعا ملحوظا لا في الدرجة الصوتية، ولا حتى في شدة الصوت، حيث كان المنحنى الإيقاعي في عمومه معتدلا ميالا أكثر إلى الهدوء والخفض في طبقة الصوت، وهذا ما سجّله التحليل الفيزيائي من نتائج:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
134.646 هرتز	160.701 هرتز	193.896 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.78 ديسيبل	57.20 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
6.07 ثانية			التزمين (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 70 من سورة النمل

لعلّ من أعظم آيات القرآن الكريم التي خرج فيها النهي لبيان التسلية قوله عزّ وجلّ في سورة القصص:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 07].

واضح من خلال سياق الآية وطريقة أدائها أنّ المقصود بالنهي فيها هو ما تستلزمه ألفاظها من معنى (الدلالة الضمنية)، لا المعنى الحرفي لها (الدلالة السطحية)، فالله سبحانه وتعالى من خلال قوله لأُمّ موسى: (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)، هو هنا لا يريد نهيها عن الخوف والحزن، لأنّ النهي - كما ذكرنا - لا ينفع مع الأمور المعنوية غير المحسوسة، لعدم مقدرة الإنسان على التحكم والتصرّف فيها، لذا كان المقصود منه: مواساته سبحانه في

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

مصيبتها، وتصبيرها على فراقه، لأنه تعهد بإرجاعه لها سالما غانما. يقول "يوسف عبد الله الأنصاري" مفصّلا في الحادثة، ومبيّنا الغرض من النهي فيها: «أي لا تخافي عليه من الغرق ولا تحزني لفراقه، لأننا سنردّه إليك سالما، تُصوّر هذه الآية الكريمة حيرة الأمّ وخوفها على ولدها من الخطر المحدق به، وهي عاجزة عن حمايته، وسرعان ما تتدخل يد القدرة، فنزيل عنها الخوف، وتلقي في روعها عن طريق الإلهام كيف تعمل وتتصرّف؛ ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾؛ أي لا تخافي عليه من الهلاك غرقا، ولا تحزني على فراقه ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاءُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فهذه الجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن زيادة في الطمأنينة والتسكين والتثبيت»⁽¹⁾، ويتابع قائلا: «وإيثار الجملة وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها، أي إنّنا فاعلون لردّه وجعله من المرسلين، فهذه بشارة ووعد من الله، ومن أصدق من الله قولا، فالنهي في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ للطمأنينة والتسكين بدلالة السياق والمقام»⁽²⁾.

إنّ الحزن والخوف يحتاجان إلى الإيناس والتصبير والتسليّة، هذه الأخيرة تحتاج هي الأخرى إلى نمط معيّن في الأداء قصد استحضارها، وهو خفض الصوت. وبناء على هذا تُقرأ الآية في بدايتها بنغمة مستوية، تمتد لتشمل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، تستمرّ النغمة على هذا النمط لاتّصال المعنى اللاحق بالمعنى السابق عند قوله: ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، غير أنّ هذه النغمة الأخيرة تشهد ارتفاعا ملحوظا موضع الأمر الحقيقي، لتتحوّل بعدها من مستوية إلى صاعدة، تشمل قوله: ﴿فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، بعدها تعود إلى الانخفاض تدريجيا، إلى أن تبلغ أدنى حدود الهبوط، حيث ينتاب منحنى الخفض خطفة إيقاعية عالية، تكون سريعة موضع التأكيد؛ أي عند قوله: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ﴾، لكن سرعان ما يعرف المنحنى عودة مجددا إلى نمطه الذي كان عليه.

وفي موضع آخر من هذه السورة يقول المولى تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ لَمْ يَجُوتْ مِنِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 25].

النهي في الآية صادر من الشيخ الكبير (شعيب عليه السلام) إلى موسى عليه السلام، وهو ليس على سبيل الحقيقة كما نلاحظ، لأنّ الخوف لا يُنهي عنه لكونه شيئا مجرّدا غير ملموس، بل هو على سبيل المجاز أيضا، ويُراد به تصبير موسى وبعث الطمأنينة في قلبه حتّى ترتاح نفسه، ويكفّ عن التفكير فيما سيلحقه من فرعون من ضرر؛

(1) - يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص 334.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

«فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب، ولكن حاجة نفسه إلى الأمان كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد، ومن تمّ أترزّ السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور (لَا تَخَفْ)، فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه، ليلقي في قلبه الطمأنينة ويشعره بالأمان، ثم بين وعلل (بِحُجُوتٍ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فلا سلطان لهم على مدين، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار»⁽¹⁾.

قصد إبراز دلالة التسلية التي خرج إليها النهي ههنا، كان يكفي بالقارئ أن يُؤدّي سلسلة المقاطع التي يشتمل عليها الغرض بصوت خفيض، وإيقاع هادئ وتزمين بطيء، يتماشى مع حاجة موسى الماسّة إلى قرارة نفسه وسكينة قلبه، وشعوره أنّه في بلد آمن لا يصل جبروت فرعون إليه، وسلطته عليه.

والآية على هذا الأساس تُتلى بتنغيم مستوٍ من: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾، إلى غاية: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾، يليها تنغيم مستوٍ هابط، يمتد ليشمل قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ بِحُجُوتٍ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

• **النهي للإلهاب والتهيج:** «مقولان على كلّ كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصوّر منه تركه، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصوّر منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممّن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهيج له على الفعل أو الكف لا غير»⁽²⁾.

إنّ النهي الذي تتضمّنه دلالة الإلهاب والتهيج والإثارة، ليس المقصود منه الكفّ عن القيام بالفعل، وإنّما المراد به زيادة في تثبيت الرسل والمؤمنين، بما يهيج حميتهم أكثر، ويُلهب غضبهم أشدّ، قصد الانتصار لله وحده ولدينه الحنيف، فالله سبحانه يعلم أنّ هذا لا يصدر من رسله والمؤمنين، ولكنّه أراد من نهيهم أن يحركهم، ويشير أنفسهم لزيادة إخلاصهم وتقواهم، ومن ذلك قوله في سورة الشعراء: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 213].

صحيح أنّ النهي ههنا يقترب إلى حدّ بعيد من المعنى الحقيقي الذي وُضع لأجله وهو: المنع، أو طلب الكفّ عن الفعل على سبيل التحريم والاستعلاء والإلزام، وكلّ هذه الشروط نجدها متوفّرة في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾، بيد أنّ المتأمل أكثر في سياق الآية، يجد أنّ الخطاب فيها موجّه من الخالق عزّ وجلّ، إلى رسوله محمد ﷺ، ومعلوم أنّ النهي لا بدّ فيه من كراهية منهيه، والرسول ﷺ لا يُتوقّع منه الشرك بالله، فكيف إذن يستقيم نهيّه هنا على فعل لا يمكن أن يأتيه أصلاً، ممّا يعني أنّ الغرض المقصود من طلب الكفّ، ليس هو النهي حقيقة، بل هو على سبيل المحازم، والمعنى: لا تعبد أيّها الرسول مع الله أحداً سواه، فتكون من الذين سيدوقون العذاب مثلهم،

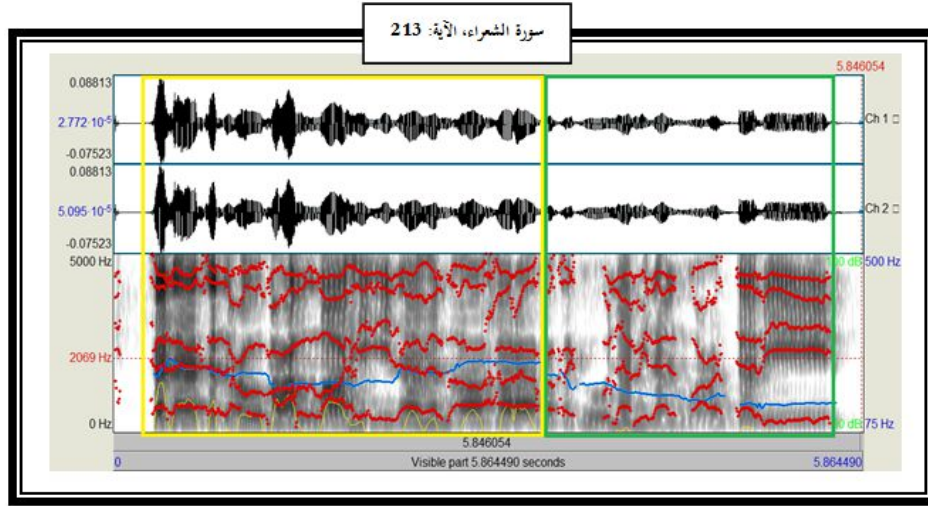
(1) - سيّد قطب: في ظلال القرآن، مج 5، ج 20، ص 2687.

(2) - يحيى بن حمزة العلوي: كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج 3، مطبعة المقتطف، مصر، ط 1، 1914م، ص 165.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

فجاء الخطاب للرسول بطريقة التهيج لزيادة إخلاصه وتقواه، لا من أجل نهييه عن شيء ما. يقول "أبو السعود"، مفسراً الآية وموضحاً هذا العدول الدلالي لأسلوب النهي: «خوِّط به النبي ﷺ، مع ظهور استحالة صدور المنهية عنه ﷺ تهيجاً أو حتّى على ازدياد الإخلاص، ولطفاً لسائر المكلفين ببيان أنّ الإشراك من القبح والسوء، بحيث ينتهي عنه من لا يمكن صدوره عنه، فكيف بمن عداه»⁽¹⁾.

ومّا لا شكّ فيه أنّ الإلهاب والتهيج من الأغراض التي يحتاج استدعاؤها إلى رفع في طبقات الصوت، وعليه فإنّ الآية تُستهلّ بتنغيم صاعد يشمل قوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، ليأخذ المنحنى بعدها بصفة تدريجية في الانحدار إلى غاية المقطع الختامي للآية ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَعْدِيَّينَ﴾، تماماً مثلما هو موضّح من خلال الشكل التالي:



الشكل رقم: 47

يمثّل الإطار الأصفر في هذه الصورة النطاق النغمي الذي خرج فيه النهي إلى الإلهاب والتهيج، وتمثّله النغمة الصاعدة عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أمّا الإطار الأخضر فيمثّل المجال الذي عرف انخفاضاً في عدد الذبذبات والذي ساهم بشكل أو بآخر في التقليل من الموجات الصوتية، إلى جانب الانحدار الواضح للمنحنى الأزرق وشبه غياب للمنحنى الأصفر، وكلّهما مؤشرات تتسم بها النغمة الهابطة والتي تمّ قراءة قوله عزّ وجلّ: ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَعْدِيَّينَ﴾.

سنعرض فيما يلي نتائج التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في الآية 213 من سورة الشعراء:

(1) - أبو السعود العمادي: تفسير أبي السعود المستقى إرشاد العقل السليم إلى مرآة القرآن الكريم، ج6، ص267.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
132.140 هرتز	194.097 هرتز	248.689 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	55.96 ديسيل	63.87 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
5.86 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 213 من سورة الشعراء

وقوله أيضا في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ ۗ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۗ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ [سورة القصص، الآيات: 86-88].

إنّ النهي الوارد في مواضع متفرقة من هذه الآيات، هو أيضا من باب التهيج والإثارة، فلا يُتوقع من خاتم الأنبياء والرسل أن يُشرك في عبادة الله آلهة أخرى، وجاء نهي سبحانه على فعل لم يصدر منه ﷺ، والنّاهي متيقن من أنّه لن يقوم به أصلا، حتّا له على الإخلاص وزيادة التقوى. يقول "الزخشي" في معرض حديثه عن الآيات أعلاه: «والنهي عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهيج...»⁽¹⁾.

وما يزيد المعنى تقوية وترسيخا أكثر، وقوع النبر على مواضع النهي في الآية {فَلَا تَكُونَنَّ، لَا يَصُدُّكَ، وَلَا تَكُونَنَّ}.

لقد سلك "الألوسي" مسلك "الزخشي"؛ إذ يشير هو الآخر إلى الغرض ذاته قائلا: «أي ولا تعبد معه تعالى غيره عزّ وجلّ، وهذا وما قبله للتهيج والإلهاب، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم، وإظهار أنّ المنهي عنه من القبح والشرية، بحيث ينهى عنه من لا يتصوّر وقوعه منه أصلا»⁽²⁾.

هذا، وقد تكرّر في الآيات النهي عن الشرك بالله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، و﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، لغرض التوكيد وتقرير معنى التهيج والإلهاب أيضا.

أما من ناحية الأداء، فالآيات تُستهلّ بنغمة مستوية، تشمل قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، تتبعها نغمة التهيج الصاعدة في المواضع الأربعة للنهي، وكذا موضع الأمر الذي خرج إلى غرض الدوام، حيث يستمرّ المنحنى الصاعد إلى غاية الآية 88 عند قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، بعدها يتدرّج في الانخفاض شيئا فشيئا إلى غاية آخر مقطع صوتي من الآية الأخيرة، أين ينتهي الكلام، ويتمّ معناه (موضع الوقف).

● **النهي للتحذير:** وهو حينما يرد التركيب في صيغة النهي، تحذيرا وتخويفا من ناحية المعنى، نحو قوله جلّ

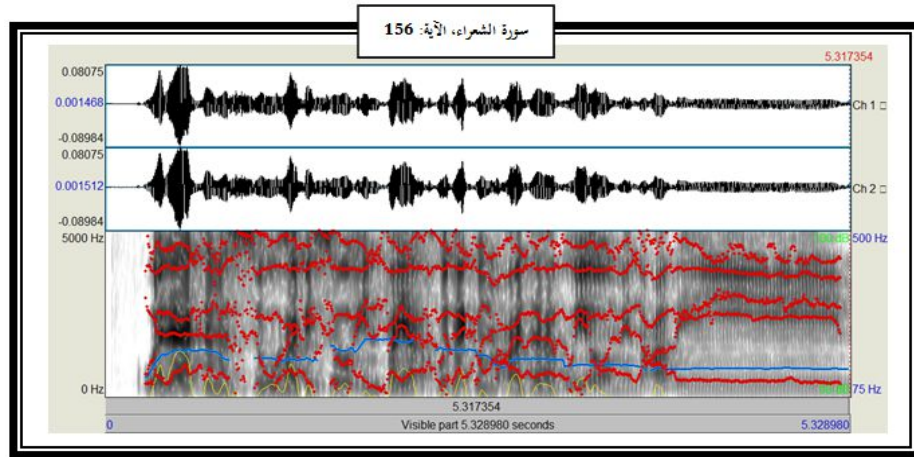
(1)- الزخشي: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج20، ص812.

(2)- الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج20، ص130.

وعلا: ﴿وَلَا تَمْسُوا نَاقَةَ سُوءٍ بِأُحْدُرٍ عَدَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 156].

النهي الوارد في هذه الآية صادر من النبي ﷺ صالح ^{عليه السلام} إلى قومه، وفيه طلب الكفّ عن الفعل المنهي عنه على وجه التحريم والإلزام، غير أنّ المقصود منه ليس هو النهي الصريح، إنّما المراد معنى آخر ضمني يتوصّل إليه من خلال القرائن الحالية المختلفة كالسياقات المحيطة بالكلام، وطريقة أدائه وغيرها، وهذا المعنى تمثّل في: التحذير والتنبيه، وهو الغرض ذاته الذي كان يريده صالح من وراء توظيفه لأسلوب النهي، والمعنى: لا تمسّوا الناقة بأيّ سوء، لا بالضرب ولا بالعقر، والدليل على أنّ الغرض هو التحذير لا النهي على حقيقته قوله تعالى: ﴿فِيَأْخُذُكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، لما في التركيب من تخويف. يقول صاحب "أيسر التفاسير": «وحدّتهم من نعمة الله أن تحلّ بهم إن مسّوا الناقة بسوء...»⁽¹⁾.

غرض التحذير - كما رأينا في السابق - من مواضع الرفع في الكلام، لذا فإنّ الآية تُقرأ في عموم مقاطعها الصوتية بتنغميم صاعد، يتّجه في نهايتها نحو الانحدار، كمؤشّر لاستيفاء غرض التحذير، وبلوغ الدلالة المعنية مبلغها المقصود. والشكل رقم: 48 يبيّن المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية:



الشكل رقم: 48

إنّ المتمنّ لحركة الموجات الصوتية على طول النطاق النغمي للآية، فضلا على الاتجاه الذي يسر عليه كل من المنحنى الأزرق (الدرجة الصوتية)، والمنحنى الأصفر (شدة الصوت)، يتّضح له جليّا أنّ المنحنى الإيقاعي للآية عموما في اتجاه تنازلي، يستهلّ بنغمة صاعدة مرتفعة، ثمّ يبدأ مستواه بالانخفاض التدريجي إلى غاية المقطع الختامي من الآية، ممّا يعني أنّ المنحنى قد سجّل قيما مختلفة لدرجات الصوت وشدّته، تراوحت بين العلوّ والخفض والاعتدال، وهذا ما سيوضّحه الجدول أسفله:

(1) - أسعد محمود حومد: أيسر التفاسير (تفسير، أسباب النزول، أحاديث، نماذج إعراب)، ج2، ص920.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
127.211 هرتز	168.892 هرتز	225.128 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	56.93 ديسيبل	63.92 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
5.33 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 156 من سورة الشعراء

وقوله في موضع آخر من سورة النمل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّعْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّعْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 18].

اشتملت الآية على ثلاثة أساليب إنشائية هي: النداء، ثم الأمر، يليهما النهي، جمع بينهم قاسما مشتركا ألا وهو غرض التحذير، الذي خرج إليه كل أسلوب من الأساليب المذكورة. وما يهتّمنا نحن في هذا المقام هو أسلوب النهي في قوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، فواضح أنّ النهي هنا صادر من متساويين (النملة لرفيقاتها)، فلا يُقصد من الخطاب حقيقة النهي، بقدر ما تريد النملة تحذير رفيقاتها من تحطيم سليمان وجنوده لهم، دون شعورهم بذلك، فكلامها ضمنا فيه تنبيه لهم عن عاقبة التوقّف؛ فلو أنّهم توقّفوا ومكثوا في أماكنهم منتظرين سليمان وجنده، لكان مصيرهم الكسر لا محالة. قال "البيضاوي" في بيان المعنى المقصود من قوله تعالى: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: «نهيّ لهم عن الحطم، والمراد نهيها عن التوقّف بحيث يحطمونهم...»⁽¹⁾.

والتحذير في هذه الآية يتفق مع النهي المحض في نمط الأداء التنغمي، حيث يُستهلّ نصّها بنغمة التقرير المستوية عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّعْلِ﴾، تستمرّ على الوتيرة ذاتها، لكنّها تشهد بعدها صعودا ملحوظا في طبقة الصوت بداية من موضع النداء الذي خرج هو الآخر إلى غرض التحذير، مروراً بموضع الأمر للتحذير، ووصولاً إلى موضع النهي للتحذير أيضا، لكن سرعان ما يعرف المنحنى الإيقاعي بعد ذلك هبوطا في مستوى النغمة نهاية الآية لتمام المعنى، أي عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

● **النهي للتهديد:** من المعاني الأخرى التي يخرج إليها النهي: دلالة التهديد؛ وذلك «حين تُستعمل الصيغة في سياق عدم الرضى بالمنهي عنه، والتلويح بسوء العاقبة في حال الاستمرار على هذا المنهي عنه، كقولك لمن هو دونك: { لا تمتثل لأمرى، وسترى النتيجة }، وكقول القائد لأحد جنده: { لا تطع أمري، ولا تفعل ما أمرتك به }... الخ»⁽²⁾.

مما يعني أنّ الناهي في مثل هكذا مقامات يكون ساخطا على المنهيّ، ما دام أنّ النهي لا بدّ فيه من كراهية

(1) - البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، ج19، ص563.

(2) - عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوي: الكافي في علوم البلاغة العربية (المعاني، البيان، البديع)، ص259.

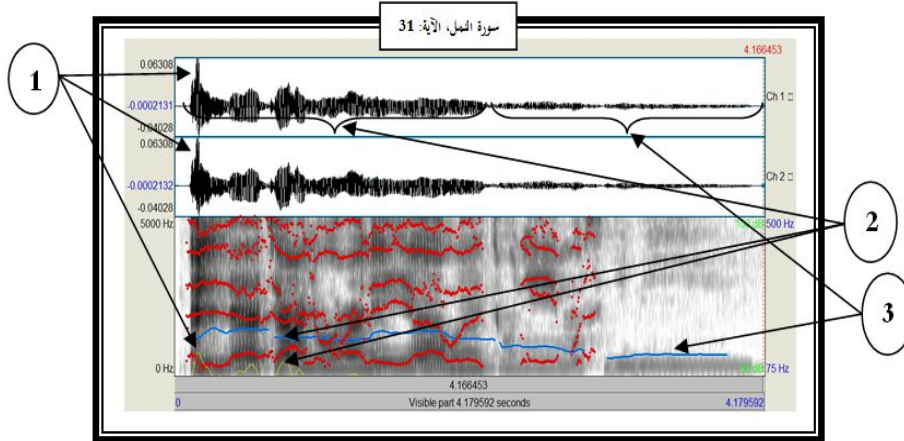
الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

منهيه. من ذلك قول سليمان عليه السلام في رسالة بعثها إلى بلقيس ملكة سبأ: ﴿الْأَتَعْلُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 31].

يتضح من خلال تركيب الآية أنّ معناها الحرفي لا يتطابق مع قوّتها الإنجازية، فلا يخفى على أحد ما يلهج به سياق الآية من دلالات الوعيد والتهديد، فقول سليمان: ﴿الْأَتَعْلُوا﴾ فيه طلب الكفّ عن العلوّ، وهو التكبر على سبيل الإلزام والوعيد، وتقدير الكلام: «لا تتكبروا وتجتبروا واعتزازا بملككم».⁽¹⁾

في سياق تفسيره للآية الكريمة، يشير "الطاهر بن عاشور" إلى غرض التهديد الذي خرج إليه النهي وهنا قائلا: «الْأَتَعْلُوا عَلَيَّ: نهي مستعمل في التهديد، لذلك أتبعته ملكة سبأ بقولها: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْئُونِي فِي أَمْرِي﴾».⁽²⁾ وقصد التوصل إلى هذا الغرض، وجب على القارئ أن يفتح الآية بنغمة تناسب ودلالة التهديد، وهي النغمة المستوية الصاعدة، تليها نغمة هابطة (المدى السلبي الهابط)، ثلثم غرض التسليم الذي خرج إليه الأمر الوارد في الآية.

ومن دون شكّ فقد كان لفونيم النبر أثره الواضح في استجلاء دلالة التهديد، الذي خرج إليها النهي في الآية؛ ليكتمل بذلك عمل التنغيم، ولا شيء أدلّ على ذلك إلّا وقوعه موضع النهي في لفظ (ألاً)، لما يمتاز نطقه من ارتكاز، وكأنّ القارئ حينما يضغط على مقاطع هذا اللفظ، فهو بذلك يؤكّد على النهي، بل يؤكّد على شيء آخر وهو: سخط الناهي عن المنهي، مادام أنّ المقام مقام تهديد ووعيد. والشكل رقم: 49 يوضّح ما قلناه:



الشكل رقم: 49

تمثّل الأرقام في هذا المخطّط ما يلي:

الرقم 1: قَمّة الإسماع الصوتي نتيجة وقوع النبر على المقطع المتوسط المغلق أوّل لفظ (ألاً)، والذي من شأنه أن

(1) - التقيسة: التفسير المبين، مج6، ج19، ص360.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص262.

يُحدِث علوا موسيقيا.

الرقم 2: يمثّل النغمة المستوية الصاعدة (نغمة التهديد الذي خرج إليه النهي).

الرقم 3: يمثّل النغمة الهابطة المناسبة لغرض التفويض الذي خرج إليه الأمر في هذه الآية.

أما فيما يخصّ نتائج التحليل الأكوستيكي لموجات الصوت اللغوي في الآية، فيمكن رصدها على الشكل

التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
121.221 هرتز	173.174 هرتز	202.813 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	53.60 ديسيل	57.21 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
4.18 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 31 من سورة النمل

• النهي للنصح والإرشاد: هو «طلبٌ جاء على صورة النهي ظاهرا، وحمل معنى النصيحة والإرشاد

باطنا»⁽¹⁾.

ومن مواضع النهي في سور الطواسين، والتي تكون للقوة الإنجازية المستلزمة فيها، الغلبة عن القوة الحرفية في هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ مُوسَى قَبَعَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَقَالِحَهُ وَلَتَنُوءًا بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة القصص، الآيتين: 76 - 77].

امتزج النهي في الآيتين مع الأمر والتوكيد أيضا، هذا الأخير الذي نجده يتكرر بكثرة في عدّة مواطن تعزيرا للمعنى الذي خرج إليه النهي وتثبيتا له، فقد اشتملت الآيتين على ثلاثة أفعال للنهي هي: { لا تَفْرَحْ، لا تَنْسَ، ولا تَبْغِ }، كلّها خرجت عن معناها الأصلي إلى معنى بلاغي آخر هو: النصح والإرشاد، إلى جانب دلالة الإباحة في أسلوب النهي ﴿وَلَا تَنْسَ﴾، وفيه يقول "ابن عطية": «جاء النهي هنا على لسان قوم قارون لقارون على سبيل الوعظ، بأن ينفق ماله في طاعة الله، ولا ينسى أن يعمل في الدنيا للآخرة»⁽²⁾.

وقال "يوسف عبد الله الأنصاري" في معرض حديثه عن أفعال النهي في الآيتين: «فالنهي في قوله (لا

تَفْرَحْ، ولا تَنْسَ، ولا تَبْغِ) للنصح والإرشاد والموعظة، بدلالة السياق والمقام وخصائص التراكيب»⁽³⁾.

(1) - بكرى شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج1، ص104.

(2) - ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص299.

(3) - يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، ص311.

وفيما يتعلّق بأداء الآيتين، فقد سبقت الإشارة إلى المنحنى النغمي للآية 77 في عنصر النهي عن الإباحة، وأمّا عن الآية 76، فإنّ المناسب لأدائها هي: النغمة المستوية، التي تلائم ما فيها من تقرير وإرشاد، حيث يشهد منحناها النغمي بين الحين والآخر صعودا سريعا في الدرجة الصوتية، لا يلبث طويلا حتى يعود إلى نمطه المعتدل، وذلك في مواضع التأكيد الكثيرة التي حوتها الآية الكريمة.

هذا، وقد يعرف أسلوب النهي خروجاً إلى أغراض ودلالات أخرى عدا ما ذكرنا على غرار: التوبيخ، التئيس، التمني، التفضيع والتهويل، التحقير، الدوام، بيان العاقبة، وغيرها، وكلّ هذه الأغراض وغيرها ممّا لم يُذكر كانت غائبة في سور الطواسين، ولأجل ذلك لم نتعرّض إليها.

الفصل الثالث: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب الاستفهام في سور الطواسين

المبحث الأول: الاستفهام: مفهومه، أدواته، أقسامه، وأهميته

المطلب الأول: تعريف الاستفهام: الاستفهام في اللغة يعني: طلب الفهم، أما في الاصطلاح فهو: «طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وأدواته: الهمزة، وهل، وما، ومن، ومتى، وأين، وكيف، وأيان، وأنى، وكم، وأي، فمنها ما يكون تارة للتصوّر^(*)، وأخرى للتصديق^(**) وهو الهمزة، ومنها ما يكون للتصديق فقط وهو هل، ومنها ما يكون للتصوّر وهو باقي الأدوات». (1)

والاستفهام ليس هو الاستخبار في ذاته - بالمفهوم الدقيق للمصطلح - كما شاع عند كثير من المفكرين والباحثين، فكما سبق وأن رأينا أنّ الاستفهام هو طلب فهم شيء لم يكن مفهومًا عند السائل، كطلب فهمه لخبير لم يُدرِك بعد فحواه أو مقصوده، في حين أنّ الاستخبار هو طلبٌ أيضاً، ولكن ليس طلب فهم الخبر بل هو طلب الخبر في حدّ ذاته، يقول "أحمد بن فارس الرازي": «الاستخبار طلب خُبْرٍ ما ليس عند المستخبر». (2)، فالخبير حينما يُلقى على مسامع طالبه فإنّ هذا يسمّى استخباراً، أما إذا أُلقي عليه الخبر ولم يفهم مقصوده، وطلب من الملقى إيفاهمه إيّاه سُمّي حينئذ استفهاماً؛ إذّا ف «الاستخبار ما سبق أولاً ولم يُفهم حقّ الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً». (3)، وهذا ما ذهب إليه "أحمد بن فارس" من قبل مفصّلاً بقوله: «وذكر ناس أنّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق، قالوا: ذلك أنّ أولى الحالين الاستخبار، لأنّك تستخبر فتجأب بشيء، فرمّا فهمته ورمّا لم تفهمه، فإذا سألت ثانية فأنت مستفهم، تقول: أفهمني ما قلت لي، قالوا: والدليل على ذلك أنّ الباري جلّ ثناؤه يُوصف بالخبير، ولا يُوصف بالفهم». (4)

(*)- التصوّر: وهو إدراك المفرد، ويكون عند التردّد في تعيين أحد الشيعين، كقولك: {أَدْبَسُ في الإناء أم عسل}، عالماً بوجود شيء فيه طالبا لتعيينه.

معين دقيق العملي: دروس في البلاغة، دار جواد الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ / 2012م، ص43.

(**) - التصديق: هو طلب تعيين النسبة المرادّة عند السائل بين الثبوت والنفى، وتستعمل معها غالباً في هذه الصورة الجملة الفعلية، وتُجأب إذا كانت جملة الاستفهام مثبتة بـ (نعم) إذا أُريد الإثبات، وبـ (لا) إذا أُريد النفي، وتُجأب إذا كانت جملة الاستفهام منفية بـ (نعم) إذا أُريد النفي، وبـ (بلى) إذا أُريد الإثبات، نحو: {أجاء زيد؟} فيقال: (نعم) للإثبات، و(لا) للنفي، ونحو {ألم يأت زيد؟} فيقال: (نعم) للنفي، و(بلى) للإثبات. عبد الهادي

الفضلي: تلخيص البلاغة، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، لبنان، دط، دس، ص64-65.

(1)- عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في البلاغة عند ضياء الدّين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، 1986م، ص104.

(2)- أحمد بن فارس: الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص134.

(3)- أحمد محمد محسن الجبوري: موسوعة أساليب المجاز في القرآن الكريم- دراسة ووصف وتقويم وأمثلة، ص685.

(4)- أحمد بن فارس: المرجع السابق، ص135.

المطلب الثاني: أدوات الاستفهام: للاستفهام إحدى عشر أداة هي: (1)

- الهمزة: - لطلب التصوّر: أي إدراك المفرد نحو: {أزيد عندك أم عمرو؟}.
- لطلب التصديق: أي إدراك النسبة نحو: {أعندك زيد؟}.
- والجواب في الأول بالتعيين، وفي الثاني بنعم أو لا.
- هل: لطلب التصديق فقط نحو: {هل عندك زيد؟}.
- أما باقي الأدوات فهي لطلب التصوّر، والجواب فيها كلّها بالتعيين كما يلي:
- مَنْ: لطلب تعيين العاقل نحو: {مَنْ هذا؟}.
- مَا: للاستفهام عن غير العقلاء، ويُطلب بها:
 - تارة يُضاح الاسم وشرحه كأن تقول: مَا اللُّجَيْنُ؟ فتُجاب: بأنّه الفضة.
 - وتارة بيان حقيقة المسمّى، تقول: ما الحسدُ؟ فتُجاب: بأنّه تمّي زوال نعمة المحسود.
- متى: يُطلب بها تعيين الزمان ماضياً أو مستقبلاً، مثل: متى قَدِمْتَ؟ ومتى تُسافرُ؟
- أَيَّانَ: لطلب تعيين المستقبل، مثل: {أَيَّانَ تستغني بلادنا عن المصنوعات الأجنبية؟}، وقيل أنّ "أَيَّانَ" تستعمل في موضع التفخيم، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة القيامة، الآية: 06]، و﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ [سورة الذاريات، الآية: 12].
- أَيَّنَ: ويُطلب بها تعيين المكان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿...ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا نَزَعُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: 22].
- كَيْفَ: للسؤال عن الحال، نحو: {كَيْفَ أنت؟}.
- كَمْ: لطلب بيان العدد، نحو: ﴿قَلَّ كَمِ لَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ سِنِينَ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: 112].
- أَنَّى: - تكون بمعنى "كيف"، مثل: {أنى تترقى الصناعة الوطنية، ولم يشجعها المواطنون؟}.
- بمعنى "من أين"، مثل: {أنى لك هذا المال، وقد عهدتُك مُعَدَّماً؟}.
- وبمعنى "متى"، مثل: {أنى يرجع المسافرون؟}.
- أَيُّ: للسؤال عمّا يميّز أحد المتشاركين في أمر يخصّهما، قال تعالى حكاية عن سليمان: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

(1)- ينظر: هارون عبد الرزاق: حسن الصياغة في فنون البلاغة، ص21. وكذا: عبد الهادي الفصلي: تلخيص البلاغة، ص65. وكذا: محمد طاهر اللادقي: المبسط في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبدیع (نماذج تطبيقية)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 1426هـ/ 2005م، ص ص68-69. وكذا: مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربية- تأصيل وتجدید، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، 2002م، ص25. وكذا: مختار عطية: علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، 2004م، ص48.

أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرَشَهَا... ﴿ [سورة النمل، الآية: 38]، أي: الإنس أم الجن؟، وقال حكاية عن الكفار: ﴿...أَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿ [سورة مريم، الآية: 73]، أي: نحن أم أصحاب محمد ﷺ .

المطلب الثالث: أقسام الاستفهام

يمكن تقسيم الاستفهام إلى قسمين: فهو إما أن يكون بمعنى الخبر، وإما أن يكون بمعنى الإنشاء؛ فأما
الأول فهو أيضا على ضربين: أحدهما نفي والآخر إثبات، فالوارد للنفي يسمّى استفهاما إنكاريا والوارد للإثبات
يدعى استفهاما تقريريا؛ لأنه يُطلب بالأول إنكار المخاطب وبالثاني إقراره به. وأما الاستفهام بمعنى الإنشاء فهو
على ضرب شتى منها: الأمر، النهي، التحذير، التذكير، التنبيه، الترغيب، التمني، الدعاء، العرض، التحضيض،
الاستبطاء، الاستبعاد، الإيأس، الإيناس، التهكم، التحقير، التعجب، التوبيخ، ... الخ.⁽¹⁾

المطلب الرابع: أهمية الاستفهام في الكلام

إنّ من أهمّ مزايا أسلوب الاستفهام أنّه يعمل على إثارة العقل ويدعوه إلى التأمل والتفكير، كما أنّ أهميته
في الكلام لا تقتصر على مجرد خروجه من معناه الأصلي الذي وضع له حقيقةً، إلى معاني بلاغية مجازية؛ لأنّ:
«الاستفهام الحقيقي لم يكن مقصورا على طلب معرفة شيء مجهول (...)، بل كان هذا المعنى الحقيقي مبطنًا
بألوان من المعاني الثانوية الخصبية، والظلال المديدة التي لا تخرجه عن كونه حقيقيا، وهذا من عجيب شأن
القرآن». ⁽²⁾

المبحث الثاني: أغراض الاستفهام البلاغية

يقول صاحبنا كتاب "علوم البلاغة" موضّحان دور التنغيم في تحديد أسلوب الاستفهام، وتوجيه أغراضه
البلاغية بقولهما: «للتنغيم دور في إخراج الاستفهام إلى المعنى المقصود، فهو يساعد على تصنيف الجمل في أنماط
مختلفة من: إثبات ونفي، واستخبار وتعجب، ولا توضع علامة استفهام فيها، بل يتغيّر أداء الجملة وفق نعم معيّن
وتصويت مختلف، يحدّد معنى الاستفهام والغاية منه». ⁽³⁾

إذاً، يمكن أن نميّز لأسلوب الاستفهام بين ضربين: الاستفهام الحقيقي والاستفهام المجازي.

المطلب الأول: الاستفهام الحقيقي

رأينا فيما سبق بأنّ لفظ الاستفهام معناه طلب الفهم والاستخبار - وإن كان في ذلك خلافٌ -، ومن
المنطقي ألا نجد هذا المعنى عند المولى عزّ وجلّ، لأنّه سبحانه يعلم كلّ شيء في هذا الوجود، فلا يمكن أن يصدر

(1) - ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص ص328، 344.

(2) - صباح عبيد دراز: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1406هـ/ 1986م، ص121.

(3) - محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب: علوم البلاغة (البيدع، والبيان، والمعاني)، ص30.

منه جلّ في علاه استفهما أصليا، إلا إذا كان ذلك على لسان عباده، أو أحدٍ من أنبيائه.

ومن نماذج هذا الضرب في سور الطواسين نذكر:

* قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مِّنْ مَّوْمِنٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 30].

هذا الاستفهام «استفهام حقيقيّ»، ساقه موسى إلى فرعون بعدما تميّز فرعون من غيظ وامتنان من غضب، واستطاع موسى بهذا أن يخفف من تهديد فرعون ووعيده، وأن يستدرجه إلى الاستماع إليه، وأن يستجيب إلى ما كان موسى يتغي منه ويريد، فقال فرعون: فأت به إن كنت من الصادقين⁽¹⁾.

* وقال أيضا: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 35].

الاستفهام هنا أيضا حقيقيّ، استعمله فرعون في طلب العلم بشيء لا يعلمه من قبل، وهو استفهام لطلب التصوّر (أي طلب التصوّر بأمر مجهول).

* في موضع آخر يقول عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا لَنُحِبُّ الْعَالِيْنَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 41].

فهزة الاستفهام ههنا لطلب التصديق، لأنّ السياق الذي ورد فيه الاستفهام يصلح للإجابة عن السؤال فيه بنعم أو لا.

* وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 42].

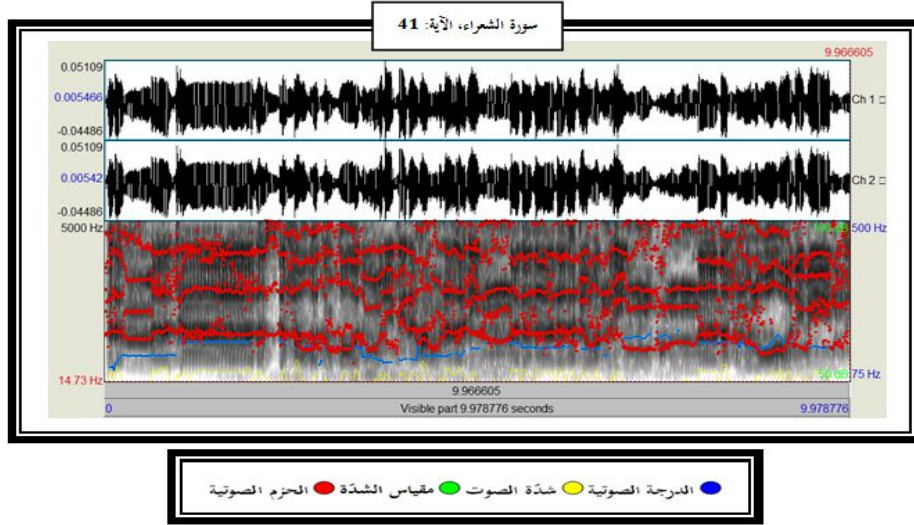
إنّ همزة الاستفهام في هذه الآية هي الأخرى لطلب التصديق، والسؤال عن نسبة تردّد الأمر في نفس بلقيس ملكة سبأ.

ولمّا كانت جميع أدوات الاستفهام في المواضع السابقة الذكر، إمّا لطلب التصديق أو لطلب التصوّر، أي استفهما حقيقيا، استدعى المقام لتأدية سلسلة المقاطع التي حوت عليها هذه الآيات بتنغيم عالٍ جدّا، تحقّقا للغرض المقصود، وهو: طلب الفهم والاستخبار عن أمر كان مجهولا، أو مشكوكا في مدى صدقه أو كذبه، يقول "تحسين فاضل عباس" مبينا هذا الكلام: «الاستفهام أسلوب لغوي يُراد به طلب الفهم، والاستفهام نوعان: حقيقي ومجازي، والنوع الأوّل أعلى درجة في التنغيم من النوع الثاني؛ لأنّه يُراد به الجواب، على حين لا يُراد به الجواب من الثاني»⁽²⁾.

(1) - عبد الرؤوف سعيد عبد الغني اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ج1، المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، دط، 1992م، ص ص303-304.

(2) - تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، ص69.

في سبيل تقريب الفكرة أكثر نمتلّ لحالة من الحالات المذكورة بالمخطّط أسفله، والذي من خلاله يتبنّ لنا المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية كما يلي:



الشكل رقم: 51

صار واضحاً من خلال الصورة أعلاه أنّ الآية 41 تُستهلّ بنغمة مستوية تليها نغمة صاعدة موضع الاستفهام، وهذا ما يبدو جلياً من خلال المنحنى الأزرق المسؤول عن تحديد درجات الصوت داخل النطاق النغمي.

عموماً يمكن تلخيص ما ورد في هذا المخطّط من خصائص أكوستيكية، من خلال عرض تبسيطي لمختلف القيم التي سجّلتها هذه الخصائص في الجدول أدناه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
1.5.492 هرتز	166.886 هرتز	211.451 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.34 ديسيبل	56.36 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
9.98 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 41 من سورة الشعراء

المطلب الثاني: الاستفهام المجازي: قد يخرج الاستفهام - في مواضع عدّة - عن معناه الحقيقي الذي وُضع له في الأصل، لسقوط شرط الطلب فيه، ليفيدنا بمعاني بلاغية تُفهم من خلال السياق، وتُدرّك بمعنونه جملة من القرائن ومقتضيات الأحوال، إلى جانب العملية الأدائية للكلام كالتنغم مثلاً؛ خصوصاً وأنّ «التنغم أحد أهمّ عناصر السياق، ومن دونه يظلّ البحث عن دلالة التركيب اللغوية المنطوقة متأرجحاً»⁽¹⁾، ولاسيما إذا تعلّق

(1) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنغم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)"، ص 39.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

الأمر مثلاً بالاستفهام، فهو في القرآن الكريم لا سبيل للوصول إليه، إلا من خلال الأداء التنغمي، لغياب علامات التقييم في النصوص القرآنية، وهنا يكون التنغم قد أدى وظيفته في اللغة من وجهة نظر علم الأصوات الوظيفي (الفونولوجيا)، وهذا ما يُصطلح عليه تسمية "الدلالة الصوتية"، أو كما يُطلق عليها "ابن جني" (الدلالة الصوتية التحليلية) المستنبطة من ظاهرة التنغم بعدّه فونيميا ثانوية (فونيم غير تركيبية) في نظام اللغة.

مما يعني أنّ الاستفهام في هذه الحالة لا يفيد طلب التصوّر، ولا حتى طلب التصديق على شيء يجمله المتكلم؛ أي أنّ السياق لا تصلح الإجابة فيه بنعم أو لا، وعموماً فإنّ الاستفهام كما تشير كثيرٌ من الدراسات هو من مواضع الرفع في الأداء، هذا إذا كان معناه حقيقياً، لكن إذا خرج إلى معانٍ مجازية أخرى، فقد يُحافظ على المنحنى نفسه، وقد يتخذ اتجاهها آخر نحو: الاعتدال أو الهبوط، أو مزجاً من هذه المستويات. يقول "أحمد البايبي" في معرض حديثه عن أسلوب الاستفهام: «فالتنغم عن طريق المدّ هو وسيلة التعبير عن الاستفهام، وتمييزه عن الخبر، وهذا من كمال الترتيل».⁽¹⁾

ومن أهمّ الأغراض البلاغية لأسلوب الاستفهام حينما يخرج عن معناه الحقيقي نذكر:

• **الاستفهام التقريري:** يخرج الاستفهام إلى معاني بلاغية كثيرة، تُستشفّ من خلال السياق والأداء الصوتي، على غرار: الأمر، النهي، التهديد، الإنكار، التوبيخ، التعجّب، التهكّم، والتمني وغيرها، ومن بين الأغراض الأخرى التي يخرج إليها الاستفهام في كثير من الأحيان: غرض التقرير، وفي هذه الحالة يكون التركيب استفهامياً لفظاً، تقريرياً معنواً؛ والاستفهام التقريري هو: «هو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتاً ونفياً لغرض من الأغراض، وذلك بإخراج هذا التقرير بصورة الاستفهام، ذلك لأنّه أوقع في النفس، وأدلّ على الإلزام... انظر إلى قوله سبحانه: ﴿...أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [سورة الملك، الآية: 08]، فإنّ الغرض منه إقرارهم بمجيء النذير، لكنّه أخرجه بصورة الاستفهام، وذلك لما فيه من حجّة دامغة، ومنه قولك لابنك وقد نهيته عن فعل ما، ولكنّه فعله: أفعلت هذا؟ أنت لا تستفهم: أفعل أم لم يفعل؟ لذلك أنت لا تريد جواباً، بل تريد أن تخبره بأنّه فعل وأن تنتزع اعترافه بذلك».⁽²⁾

ورد الاستفهام التقريري في سور الطواسين في عدّة مواضع منها:

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 18].

فالسائل في الآية لا يريد من خلال سؤاله إجابة بنعم أو لا من المخاطب، وطريقة الأداء تُظهر للسامع أنّ

(1) - أحمد البايبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص295.

(2) - ينظر: فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط4، 1417هـ/ 1997م،

صص 190 - 191.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

السؤال ليس للاستفسار، بل هو للإخبار والتحقيق، فعن طريق تنعيم الجملة تُدرك الدلالة ويُتوصَّل للمقصود، وتقدير الكلام: إننا قد ربيناك فينا وليدا، يقول "الرضي" (ت: 684هـ، وقيل: 686هـ): «وإذا دخلت الهمزة على النافي فهي لمحض التقرير، أي حمل المخاطب على أن يُقرّ بأمر يعرفه، نحو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ...﴾ [سورة الشرح، الآية: 01]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ...﴾ [سورة الضحى، الآية: 06] ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ يَقْدِرُ...﴾ [سورة القيامة، الآية: 40]، وهي في الحقيقة للإنكار، وإنكار النفي إثبات»⁽¹⁾.

قياسا على هذا المعنى، فإن الآية الكريمة تُؤدّي بنغمة صوتية واحدة على طول مقاطعها، وهي: النغمة المستوية لتناسبها ودلالة التقرير.

ويقول أيضا في السورة ذاتها: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧٤﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٥﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 70، 73].

إنّ الأداء السليم لهذه الآيات من شأنه أن يقرب المعنى المقصود إيصاله، بل إنّ له بالغ الأثر في تحديده وتوجيهه، فتأدية الآية 70 بالنغمة الصحيحة، يُنمّ على أنّ أداة الاستفهام (ما) فيها، لا يُراد بها الاستفسار عن ماهية الشيء المعبود، بل يُراد منها استصغار هذا المعبود والتقليل من شأنه، لذا تُؤدّي هذه الآية والتي بعدها بنغمة هابطة، لما فيها من تقرير إلى جانب دلالة التحقير تسفيها للأصنام وخطأ من قيمتها، أما أداة الاستفهام الواردة في الآية 72 فهي هنا للتقرير والحثّ على الاعتراف. يقول "القرطبي" مبينا هذه الدلالة: «بمعنى هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم، أو تملك لكم خيرا أو ضرا إن عصيتم؟! وهذا استفهام لتقرير الحجّة، فإذا لم ينفَعوكم ولم يضرّوا فما معنى عبادتكم لها؟!»⁽²⁾، ويضيف "محمد الشوكاني" مثمنا ما ذهب إليه "القرطبي" قائلا: «وهذا الاستفهام للتقرير، فإنّها إذا كانت لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هي كذلك، أقروا بأنّ عبادتكم لها من باب اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجّة عليهم، فلمّا أورد عليهم الخليل هذه الحجّة الباهرة، لم يجدوا لها جوابا، إلّا رجوعهم إلى التقليد البحت، وهو أنّهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون»⁽³⁾.

أما من ناحية الأداء، فالآيتين 72 و73 تُؤدّيان بنغمة واحدة، وهي: النغمة المستوية الهادئة.

(1) - محمد بن الحسن الإسترابادي السمنائي النجفي الرضي: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب: مج1، ج2، تح: يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ/ 1996م، ص1393.

(2) - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبو بكر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنّة وآي الفرقان، ج16، تح: عبد الله بن عبد الحسن التركي وآخرون، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/ 2006م، ص36-37.

(3) - محمد الشوكاني: فتح القدير - الجامع بين فتي الرواية والدراية من علم التفسير، ج19، ص1059.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيات: 205، 207].

المقام ههنا للتقرير لا للاستفهام، حتى وإن كان ظاهر الكلام يوحي بأن هناك سؤالين، إلا أن الأداء هو الفيصل الذي ينحرف بالدلالة عن المعنى الذي تقتضيه الألفاظ إلى المعنى الباطني؛ فالهمزة في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ هي ألف تقرير وتنبية بلفظ الاستفهام، كما أن أداة الاستفهام (ما) في الآية 207 تدلّ هي الأخرى على معنى التقرير بأنه لن تنفعهم النعمة التي هم فيها، إذا لم يقدروها حق قدرها، وجاءهم العذاب وهم في غفلتهم يعمهون، وبناء على هذا، فإن الآيات الثلاث تُقرأ كلّها بنغمة صوتية واحدة، وإيقاع لحني منفرد، وهي: النغمة المستوية ذات الإيقاع البطيء.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٢٢١﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 221].

إنّ الاستفهام الوارد في هذه الآية لا يحتاج إلى إجابة عنه، لأنه ليس بسؤال يتطلّب الردّ من المخاطب، بل أنّ أداة "هل" فيها قد استعملت للإخبار لا للاستخبار، إذ كانت لقرينة التنغيم الأثر الواضح في تبيان ذلك. يقول "الطاهر بن عاشور" مفسراً الآية، وموضحاً خروج الاستفهام فيها إلى دلالة التقرير: «وهذا الاستفهام صوري مستعمل كناية عن كون الخبر ممّا يستأذن في الإخبار به، واختير له حرف الاستفهام الدال على التحقيق، وهو (هل)، لأنّ (هل) في الاستفهام بمعنى (قد)، والاستفهام مقدّر فيها بجمزة الاستفهام، فالمعنى: أُنَبِّئُكُمْ إنباء ثابتاً محققاً، وهو استفهام لا يترقّب منه جواب المستفهم، لأنه ليس بحقيقي، فلذلك يعقبه بما استفهم عنه قبل الإذن من السامع...»⁽¹⁾.

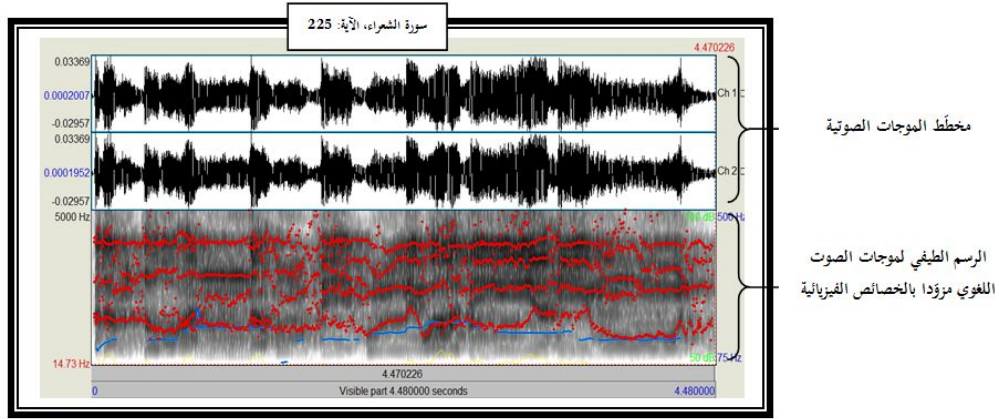
والمعارف عليه في مجال الصوتيات الفسيولوجية أنّ أسلوب الاستفهام يتمّ تأديته بنمط التنغيم العالي، إلاّ أنّه في هذا الموضوع قد خرج إلى معنى التقرير، وبالتالي فإنّ الآية تُتلى على طول مقاطعها الصوتية بنغمة تقريرية مستوية، متّجهة نحو الهبوط آخر الآية، لأنّ الغرض منها الخبر لا الطلب.

وفي آخر موضع للاستفهام التقريري في سورة الشعراء يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿الرُّؤُوسَ أَنهَرَفَ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 225].

هذه الآية تمثّل موضعا من المواضع التي دخلت فيها الهمزة على أداة النفي، فهي هنا ليست للاستفهام، وإنّما للتقرير، وذلك عن طريق حمل المخاطب على الاعتراف بأمر يعرفه، يقول "ابن عاشور" موضحاً خروج

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص205.

الاستفهام إلى التقرير: «والاستفهام تقريرى، وأجري التقرير على نفي الرؤية، لإظهار أنّ الإقرار لا محيد عنه»⁽¹⁾. ولما كان الغرض هو التقرير أيضا، فإنّ المناسب للآية أن تُؤدّى على طول شريطها بنغمة تقريرية مسطّحة، ولا بأس هنا أن تقدّم مخطّطا توضيحيا - على سبيل التمثيل للاستفهام التقريرى -، يبيّن لنا المنحنى الإيقاعي لنصّ هذه الآية كما يلي:



الشكل رقم: 52

يمكن ترجمة ما ورد في هذا التحليل من خلال الأرقام التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
82.097 هرتز	163.319 هرتز	235.516 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.87 ديسيبل	54.82 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
4.48 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 225 من سورة الشعراء

أما في سورة النمل فيقول عزّ وجلّ في آخر جزء من الآية 59: ﴿...ءالله خيرٌ أمّا يُشركون﴾ [سورة النمل، الآية: 59].

يُقرأ هذا الجزء بنغمتين متباينتين: إمّا بنغمة صاعدة هابطة، لاستحضار معنى التهكّم والسخرية، وإمّا بنغمة مستوية على سبيل إبراز غرض التقرير والإخبار، ففي كلتا الحالتين، نجد أنّ همزة الاستفهام قد خرجت عن المعنى الأصلي التي وُضعت لأجله، وهو طلب الفهم، إلى معنى التهكّم لمن يريد من خلال أدائه أن يظهره، أو إلى معنى التقرير لمن شاء أن يستدعيه عن طريق قراءة الآية بنمط تنغمي يستحضر هذا المعنى، ويزيده تقريبا من الذهن. يقول صاحب "تفسير الميزان": «والاستفهام للتقرير، ومحصل المراد أنّه إذا كان الشاء كلّهُ لله وهو المصطفى لعباده

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص209.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

المصطفين، فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم، ولا خلق ولا تدبير لهم يحمدون عليه، ولا خير بأيديهم يفيضونه على عبادتهم»⁽¹⁾.

نجد لهذا الغرض حضوراً قوياً ومتواتراً في خمس آيات متتابعة من سورة النمل، إذ تشترك هذه الآيات في قالب واحد، حيث تُستهلّ باستفهام وتُختَم باستفهام أيضاً، يتخلّل الاستفهام الأوّل والثاني من كلّ آية تقريراً وإخباراً، وكلا الاستفهامين في الآيات جميعها التي سنذكرها خرجاً إلى غير ما وُضعا له:

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ [سورة النمل، الآية: 60]، وقوله: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا...﴾ [سورة النمل، الآية: 61]، و: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ...﴾ [سورة النمل، الآية: 62]، و: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ...﴾ [سورة النمل، الآية: 63]، و: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾ [سورة النمل، الآية: 64].
ففي كلّ هذه المقاطع جاءت همزة الاستفهام للتقرير، يقول "الأخفش الأوسط" (ت: 215هـ): «أمن هنا ليست للاستفهام على قوله: ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 59]، إنّما هي بمنزلة الذي»⁽²⁾. ففي تفسيره للآية 64 على سبيل التعميم، يذكر "ابن عاشور" الغرض الذي خرج إليه الاستفهام قائلاً: «والاستفهام تقريرى، لأنهم لا ينكرون أنه يبدأ الخلق وأنهم يرزقهم»⁽³⁾.

ولمّا كان الغرض هنا التقرير لا الاستفهام، فإنّ هذه الآيات تُؤدّي بنغمة تتناسب والغرض المقصود، وهي: النغمة المستوية، لتتغيّر نهاية الآية أين تكون همزة الاستفهام دالة على الاستنكار والتوبيخ تارة، والنهكّم والتعجّب تارة أخرى، فيتحوّل التنغم عندئذ من تنغم مستوٍ، إلى تنغم صاعد هابط، عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 60]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 61]، و: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 62]، و: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 63]، و: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 64].

في موضوع ذي صلة يقول المولى عزّ وجلّ في سورة القصص: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِظُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَوْ نُمَكِّنُ لَهُمْ حَرَمًا مِمَّا نَحِبُّ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رَّزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة القصص،

(1) - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج15، ص379.

(2) - أبو الحسن سعيد بن مسعدة (الأخفش الأوسط): معاني القرآن، ج2، تح: هدى محمود قراة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1411هـ/1990م، ص466.

(3) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص18.

[الآية: 57].

ورد الاستفهام هنا عند قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾، وهمزة الاستفهام في الآية لا هي لطلب التصديق، لأنّ المقام لا يحتاج إلى إجابة مباشرة بنعم أو لا، ولا هي لطلب التصوّر على أساس أنّ المخاطب يجهل فحوى الخبر، وإّما خرجت إلى غير أصلها وهو: التقرير والإخبار، ومّا لا شكّ فيه أنّ الأداء التنغمي للآية يلعب دورا بارزا في تحديد هذا المعنى، فإليه يرجع الفضل في توجيه الأغراض، وذلك من خلال قراءة الآية على مستوى جميع مقاطعها الصوتية بنغمة مستوية وإيقاع موسيقيّ بطيء، يقول "الشعراوي" (ت: 1998م) مشيرا إلى دلالة التقرير في الآية: «استفهام للتقرير، فسألهم وسوف يعترفون هم أنّ الله مكّن لهم حرما آمنا يُجبي إليه ثمرات كلّ شيء، فالحقّ سبحانه يريد أن يثبت هذه القضية بإقرارهم بها»⁽¹⁾.

وفي آية أخرى من السورة ذاتها يقول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 78].

الظاهر من خلال أداء الآية أنّ الاستفهام فيها قد خرج - أيضا - عن مقتضى الظاهر ليدلّ على حمل المخاطب الإقرار بما يعرفه، يقول "ابن عثيمين": «الهمزة للاستفهام، والمراد بها التقرير؛ أي: إنّ الله قد علّم؛ لأنّ الذي علّم هو الله، وهو عالم بأنّ قارون عالم بذلك، فالتقرير هنا من الله، هو الذي أخبرنا بأنّ قارون قد علّم بهذا الأمر»⁽²⁾.

وهذه الآية مثل سابقتها تُؤدّي هي الأخرى بتنغمين تقريرية مستوية على طول مقاطعها الصوتية.

• **الاستفهام الإنكاري:** قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على أنّ المُستفهم عنه أمرٌ منكّر عرفا أو شرعا، ويسمى هذا النوع استفهاما إنكاريا، والفرق بينه وبين الاستفهام التقريرية أنّك في الاستفهام التقريرية تريد تثبيت الأمر وتحقيقه، أو تنتزع إقرار المخاطب واعترافه، أمّا في الاستفهام الإنكاري فأنت لا تقرّر المخاطب في شيء، وإّما تنكر عليه وتستهن منه ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يحدث في المستقبل. والاستفهام الإنكاري قسمان: **تكذيبي وتوبيخي**؛ لأنّك حينما تُنكر من شخص أمرا ما؛ فإّما أن يكون هذا الأمر قد ادّعا لنفسه وليس ذلك صحيحا، فأنت تكذّبه فيما ادّعى، وإّما أن تنكر عليه قولاً قاله أو عملا عمله ولم يكن ينبغي له ذلك، فأنت تُوجّه على ما صدر منه، وكلّ من التكذيبي والتوبيخي إمّا أن يكون على أمر قد مضى، أو على أمر في الحال؛ فالأقسام أربعة: تكذيب لأمر مضى، وتكذيب لأمر في الحال، أو في المستقبل،

(1) - محمد متوّلي الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، مج 17، تح: أحمد عمر هاشم، مطابع دار أخبار اليوم، دب، دط، 1991م، ص 10967.

(2) - ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة القصص، ص 354.

وكذلك الشأن بالنسبة للاستفهام التوبيخي.⁽¹⁾

– الاستفهام للإنكار التوبيخي (الإنكار الحامل لمعنى التوبيخ والتقريع):

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهًا فَقَدْ نَسَّوْنَهَا مِنْ كُلِّ رُوحٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 07].

إنّ السياق الذي جاء فيه الاستفهام هنا هو سياق الإنكار، لذا فإنّ الهمزة المبدوءة بها الآية الكريمة هي ألف إنكار؛ والاستفهام في الآية إنّما هو إنكارٌ على «عدم رؤيتهم ذلك، لأنّ دلالة الإنبات على الصانع الواحد دلالة بيّنة لكلّ من يراه؛ فلمّا لم ينتفعوا بتلك الرؤية، نزلت رؤيتهم منزلة العدم، فأُنكِرَ عليهم ذلك، والمقصود إنكار عدم الاستدلال».⁽²⁾

مما يعني أنّ المعلول عليه في الآية ليست هي الأداة وحدها، بل إنّ للتنغيم مثلاً الفضل في بيان معنى التركيب وتحديد غرضه، ولو توقفت العملية على الأداة فقط، لحكمتنا على الآية ظاهرياً أنّها استفهام؛ ففي «أحيان كثيرة تكون قرينة التنغيم أعظم أثراً من القرينة اللفظية؛ أي الأداة، بحيث تجرّدها والجملة المركّبة معها من المعنى الذي تحمل عليه، فثمّة جمل كثيرة تشتمل على أداة الاستفهام، لكنّها لا تحمل معنى الاستفهام...».⁽³⁾

بناءً على الدلالة التي تحملها الآية الكريمة، فإنّها تُقرأ بتنغيم صاعد، من أوّل مقطع صوتي فيها إلى آخر مقطع؛ وفي هذا الصدد يقول "أحمد البايبي": «ويرتفع الصوت كذلك دلالة على الإنكار».⁽⁴⁾

هذا، وتستمرّ دلالة الإنكار إلى الآية الحادية عشر عند قوله تعالى: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 11].

فإلى جانب إنكار انتفاء تقواهم، في الآية كذلك تعجيب لموسى عليه السلام من حالهم، خصوصاً وأنّه قد نشأ حولهم، وكان مطلعاً على أحوالهم، يقول "الصابوني" في تفسير الآية: «أي ألا يخافون عقاب الله؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم، وإفراطهم في العدوان».⁽⁵⁾

تؤدّي الآية الكريمة بنغمتين: الأولى مستوية، تشمل المقاطع الخمسة الأولى، تليها نغمة عالية ابتداءً من الهمزة التي هي ألف إنكار إلى آخر مقطع صوتي من المقاطع الخمسة الثانية التي تلي الخمسة الأولى، وهذه النغمة الأخيرة تتناسب مع إعراض قوم فرعون للآيات التكوينية، وذلك بعد إعراضهم على الآيات التنزيلية.

(1) – للتوسع أكثر ينظر: فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفانها (علم المعاني)، ص 194، 200.

(2) – ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 19، ص 101.

(3) – سامي عوض وعادل علي نعام: "دور التنغيم في تحديد معنى الجملة العربية"، ص 92.

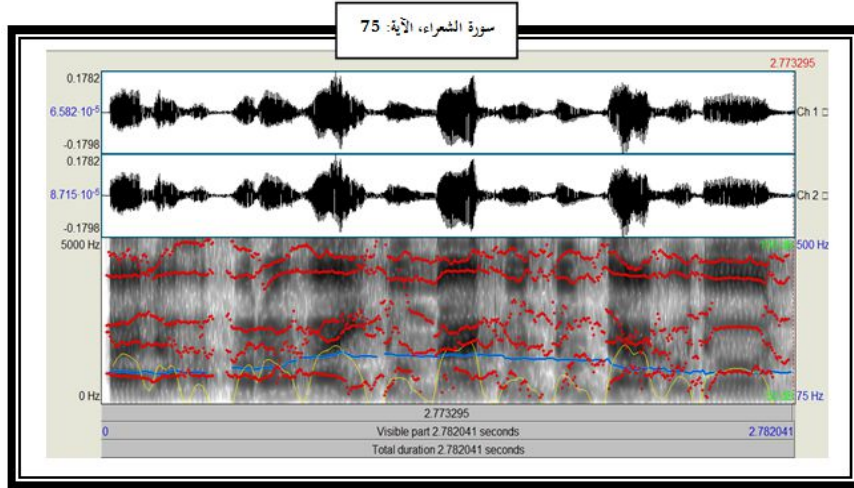
(4) – أحمد البايبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية – دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 269.

(5) – الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ج 19، ص 345.

وقال أيضا: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 75].

في الآية الكريمة تفرُّغ واضح، واستنكارٌ صارخٌ من النبي إبراهيم عليه السلام للصنيع الذي كان عليه قومه؛ فالكلام الذي سبقت فيه الآية هو: «إنكار وتوبيخ، يتضمّن بطلان آهتهم وعبادتها، وأنّ عبادتها ضلال قديم لا فائدة في قدمه إلاّ ظهور بطلانه»⁽¹⁾.

ولمّا كانت الآية تحمل معنى الإنكار والتوبيخ، فإنّه من المناسب أن تُقرأ بصوت عالٍ تماشيا ودلالاتها العامة، في منحنى إيقاعي تصاعدي، حيث تبدأ الآية الكريمة بنغمة مستوية في المقطعين المشكّلين للفظ { قَالَ = ص ح + ص ح }، تليها مباشرة نغمة صاعدة من المقطع الثالث إلى المقطع الأخير؛ أي المقطع الثالث عشر، وممّا لا شكّ فيه هنا أنّ «التنغم كافيّ للدلالة على معنى الإنكار»⁽²⁾، ويمكن أن نوضّح المنحنى اللحني للآية من خلال الشكل التالي:



الشكل رقم: 53

يتّضح من خلال هذه الصورة أنّ المنحنى الإيقاعي العام للآية الكريمة منحنى تصاعدي ↗، يبرز ذلك من خلال المنحنى الأزرق، ويتأكد أكثر من خلال ما يعرفه المنحنى الأصفر من تموجات عالية ومتكرّرة، دليلاً على وجود توتّر وارتفاع في مستوى الصوت، هذا الأخير الذي يستدعي بالضرورة وجود مجهود عضلي مبدول أثناء النطق. وحتى يكون كلامنا هذا ملموساً، قريبا منه إلى الواقع، نورد ههنا نتائج التحليل الفيزيائي على شكل أرقام قصد تقريب الصورة أكثر:

(1) - الألو سي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج19، ص94.

(2) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص276.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
149.688 هرتز	170.301 هرتز	207.432 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	58.66 ديسيبل	68.40 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
2.78 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 75 من سورة الشعراء

فكما هو ملاحظ من خلال الجدول أنّ القيم المختلفة التي سجّلتها درجات الصوت، وكذا شدّته متقاربة جدّاً، ممّا يعني أنّ المنحنى اللحني للآية حتى ولو شهد في نهايته انخفاضاً، إلّا أنّه لم يبلغ في ذلك أدنى مستوياته، والسبب يكمن في العلو الشديد الذي وصل إليه المنحنى في بدايته، تعبيراً عمّا في الآية من صور الإنكار.

وفي الآية 128 من سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 128].

إنّ الآية التي بين أيدينا لا يمكننا الحكم على فحواها بالصدق أو الكذب، لأنّها خرجت من دائرة الخبر إلى الإنشاء، أو بتعبير أدقّ: من دلالة الإخبار إلى دلالة الاستخبار، ثمّ إنّ الاستفهام هنا لا يُقصد من ورائه طلب الفهم، أو الاستعلام عن أمر مجهول، وإنّما خرج عن معناه الأصلي لغرض الإنكار؛ فالمقام مقام تفرّيع وتوبيخ، إنكاراً لصنيع قوم هود عليه السلام، يقول "الصابوني" في تفسير معنى الآية: «استفهام إنكاري؛ أي أتبنون بكلّ موضع مرتفع من الطريق بناء شامخاً كالعلم، لمجرّد اللّهو والعبث»⁽¹⁾.

والآية الكريمة تُتلى عموماً بنغمة صاعدة على طول مقاطعها الصوتية، تأكيداً على دلالة الإنكار، وتفنيداً لبشاعة ما يصنعون، مع تسجيل انخفاض في طبقة الصوت آخر الآية.

وقوله أيضاً: ﴿أَتَرْكُونَ فِي مَاهُتَنَاءٍ آمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 146].

هذا الخطاب موجّه إلى قوم صالح عليه السلام؛ فالمقام هنا مقام إنكار وتفرّيع؛ ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى يوبّخ قوم صالح لما شهد منهم من إعراض واستنكار لرسالة نبيّهم، قال "أبو حيّان": «أتركون؟: استفهام في معنى التوبيخ؛ أي أيتركم ربّكم؟»⁽²⁾، بمعنى أنّ أحوالهم التي هم عليها لن تدوم لهم، فلا يعتقدوا أنّهم سيكونون في ديارهم آمنين، متمتعين بالنعم والخيرات، بل عليهم أن يتذكّروا أنّهم عائدون لا محالة إلى ربّهم، مجازون على أعمالهم خيرها وشرّها، ليمتزج الإنكار التوبيخي بغرض آخر، وهو: التحذير والتخويف من المصير الذي سيؤول

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص357.

(2) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج8، ص181.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

إليه حالهم، إذا ما ضلّوا على ما هم عليه ولم يعتبروا، يقول "ابن عثيمين" مبيناً دلالة التحذير والتخويف: «والاستفهام في قوله: ﴿أَتُزَكُّونَ﴾ للتحذير، يعني: أظنّون أن تُزكّوا؟ لا فلن تُزكّوا فهو للنفي المتضمّن للتحذير»⁽¹⁾، ويقول "ابن عطية" الصّدّد ذاته: «تخويف لهم بمعنى: أطمعون أن تقرّوا في النعم على معاصيكم»⁽²⁾.

وعلى العموم، فإنّ المنحنى الإيقاعي للآية يتخذ اتّجاها واحداً، وهو المنحنى التصاعدي من أوّل مقطع في الآية، إلى آخر مقطع تماشياً والدلالة التي تحملها.

قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 165].

لقد كان للأداء التنغمي الممزوج بحالة من الاستغراب، دورٌ مهمٌّ في إفادة خروج الاستفهام عن غرضه الحقيقي إلى معنى الإنكار والتوبيخ، فالآية تتحدّث عن سلوك شاذّ استقبحت الخلائق وزجرته الأمم، ومعنى الآية: أنّه لا ينبغي أن يأتي الرجال الرجال، فلا الرجال للرجال، ولكنّ الرجال للنساء، فهذا أمر منكر لا ينبغي أن يقع، لأجل ذلك قرئت الآية الكريمة بتنغيم صاعد، استنكاراً للمسألة، وتوبيخاً لصاحبها، وهذا المعنى يبدو جلياً من خلال الأداء، فالاستفهام هنا لا يُقصد منه الجواب، بقدر ما هو تبيكيتٌ لصاحب الفعل، يقول "الصابوني" في هذا الشأن: «استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع، أي أنتكحون الذكور في أدبارهم، وتفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق»⁽³⁾.

وفي الآية 197 من السورة ذاتها يقول عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 197].

تُستهلّ هذه الآية بنغمة صاعدة مستغرقة إحدى عشر مقطعا صوتياً، أي قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾، لتبدأ بعد ذلك في الانخفاض، آخذة الاتجاه ذاته إلى غاية المقطع الختامي منها، إذ كانت للنغمة الصاعدة بداية الآية أثرها في إيضاح خروج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى غرض الإنكار والتوبيخ والتقريع، يقول "الصابوني" مؤكّداً هذا الغرض: «الاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي أُولم يكن لكفّار مَكَّة علامة على صحّة القرآن»⁽⁴⁾.

قال تعالى في موضع آخر: ﴿أَفِعْدَا إِنَّا يَسْتَعْلِمُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 204].

اشتملت الآية الكريمة على إحدى عشر مقطعا صوتياً، حيث يتمّ أدائها بتنغيم صاعد متّجها نحو الهبوط

(1)- ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء، ص241.

(2)- ابن عطية الأندلسي: المحرّز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص239.

(3)- الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص359.

(4)- المرجع نفسه، ص362.

آخر الآية، دليلاً على أنّ المعنى الباطني المقصود مختلف عن الظاهر، فهزمة الاستفهام هنا ليست لطلب الفهم والاستخبار عمّا هو مجهول، بل هي للتعجب من حال قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى «والاستفهام مستعمل في التعجب من غرورهم، والمعنى: أيستعجلون بعدابنا، فما تأخيره إلاّ تميع لهم...»⁽¹⁾، وفي الوقت ذاته هو استنكارٌ لهذا الصنيع وتوبيخٍ لفاعله، يقول "ابن كثير" في تفسيره للآية الكريمة: «إنكار عليهم وتهديدا لهم، فإنّهم كانوا يقولون للرسول تكذبا واستعبادا: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: 29]»⁽²⁾، وما يزيد المعنى تثبيتا وإيضاحا وقوع النبر على المقطع الطويل آخر الآية (نبر المدّ العارض للسكون)، إذ يشهد هذا الأخير تمطيلا واستطالة، إنكارا لفعل الاستعجال.

وفي آخر موضع من سورة الشعراء يقول المولى تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 207].

بمعنى ماذا سينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معاشهم؟ هل سينفعهم النعيم الذي يعيشونه في دفع العذاب عنهم؟ ممّا يعني أنّ المقام ليس مقام استخبار، بل هو مقام إنكار، يقول صاحب "تفسير التحرير والتنوير": «"ما" في قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ استفهامية، وهو استفهام مستعمل في الإنكار، أي لم يُغن عنهم شيئا»⁽³⁾.

هذا، وقد كان للأداء التنغمي بالغ الأثر في بيان المعنى وتحديدده، حيث تُتلى الآية الكريمة بنغمة صاعدة متّجهة إلى الهبوط في نهايتها، دليلٌ على تمام الكلام وبلوغ الدلالة المقصودة (موضع الوقف).

يقول تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِ أُمَّةٍ أَنزَلَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِّمَّا أَنزَلْنَا وَلَئِن لَّمْ يَهْدِيَنَّكُمْ تَفِرُّونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 36].

إنّ ما يميّز الاستفهام بالهمزة من الناحية الصوتية - في الغالب وليس دائما - هو منحى الرفع، سواء أكان الغرض منه البحث عن إجابة، أم خرج هذا الغرض إلى دلالات ثانوية عدا تلك التي وُضع الاستفهام لها في الأصل، وعلى هذا الأساس فإنّ اتجاه المنحنى النغمي في هذه الآية هو اتجاه تصاعدي؛ إذ يمكن تقسيم نصّ الآية إلى مجموعتين، تمثل الأولى والمتكوّنة من تسعة مقاطع صوتية: النغمة المستوية الهابطة، لأنّ المقام مقام إخبار وتقرير، تليها النغمة الصاعدة التي تمثل المجموعة المقطعية الثانية، والتي تمتدّ إلى نهاية الآية الكريمة، فالتنغم المرتفع هنا يكون مصحوبا بشيء من الانفعال الدال على استنكار وتعجب سليمان ^{عليه السلام} من سلوك القوم الذين

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص196.

(2) - ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2123.

(3) - ابن عاشور: المرجع السابق، ص س.

يخاطبهم، وكأنّ لسان حاله يقول: كيف تُمدّونني بمال، وأنا عندي منه ما ليس عندكم؟ وهذا دليل على عزوفه **الطَّيْلَةَ** عن الدنيا، وعدم تعلق قلبه بها، فليس المال هو الذي يربطه بها كما يربطهم. يقول "أبو السَّعود" مبيّناً ذلك: «وهو إنكار لإمدادهم إيّاه عليه الصّلاة والسلام بالمال، مع علوّ شأنه وسعة سلطانه، وتوبيخ لهم بذلك، وتنكير مالٍ للتحقير»⁽¹⁾.

وقال أيضا في محكم تنزيله: ﴿قَالَ يَقْوَرٌ لِمَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 46].

هذا خطاب سيّدنا صالح **الطَّيْلَةَ** الذي وجهه لقومه، لما شهد عليهم من فرط الإنكار، حيث كانوا يخاطبونه بقولهم: يا صالح ائتنا بعذاب الله، فأراد صالح أن ينبههم أنّهم على خطأ وضلال قائلا لهم: يا قوم لما تطلبون العذاب قبل الرحمة؟ ولماذا تستعجلون العقاب ولا تطلبون العفو؟ هلاّ تتوبوا إلى الله من كفركم، فيغفر لكم عظيم جرمكم، ويصفح عن عقوبتكم على ما أتيتم به من الذنوب والخطايا، وهذه نصيحة منه إلى قومه على سبيل التوبيخ والتفريع، وإنكارٍ لاستعجالهم. يقول صاحب "تفسير التحرير والتنوير": «والاستفهام في قوله: ﴿لِمَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكار لأحدهم بجانب العذاب دون جانب الرحمة (...)، وظاهر الاستفهام أنّه استفهام عن علّة استعجالهم، وإثما هو استفهام عن المعلول، كناية عن انتفاء ما حقّه أن يكون سببا لاستعجال العذاب، فالإنكار متوجّه للاستعجال لا لعلته»⁽²⁾.

ودلالة الإنكار التوبيخي تستدعي أن تكون نعمة الأداء منحدرّة، لما في السياق من تأنيب للكفرة، واستنكار لسلوكاتهم وتصرفاتهم اللامسؤولة، لذا فإنّ الآية تُستهلّ بنعمة مستوية تشمل المقاطع الصوتية الخمسة الأولى؛ أي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقْوَرٌ﴾، تليها نعمة هابطة إلى غاية نهاية الآية الكريمة.

وقال أيضا: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ﴾ [سورة النمل، الآيتين: 54-55].

تتحدّث الآيتان عن الفاحشة التي كان يمارسها قوم لوط **الطَّيْلَةَ**، المتمثلة في سلوكٍ شاذٍّ لم يسبقهم إليه أحدٌ من بني آدم، وهو: إتيان الذكور دون الإناث، ومن الطبيعي أن تحتاج مثل هكذا ممارسات من الناحية الأدائية قوّة في الصوت، وغلظة في اللحن، وحدّة في النطق، وسرعة في الإيقاع، لذا غلب على مقاطع الآيتين التنغيم الصاعد؛ إذ تُستهلّ الآية 54 من السورة الكريمة بنعمة مستوية، تتناسب ومقام الإخبار والتقرير، تليها مباشرة نعمة

(1) - أبو السعود العمادي: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج6، ص285.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص280.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنفي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

صاعدة، تنطلق من همزة الاستفهام في لفظ: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ الدالة طبعاً على الإنكار والتوبيخ، يقول "الرازي" محدداً هذا المعنى: «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ: فهو على وجه التنكير، وإن كان بلفظ الاستفهام، وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ»⁽¹⁾؛ فطبيعة الأداء كان له دوراً بارزاً في تحديد المعنى وتوجيه غرض الآية، حتى وإن كانت أداة الاستفهام حاضرة على مستوى الآية، إلا أن السياق والأداء كان لهما الأثر الأكبر في نقل الدلالة من الاستفهام إلى الإنكار، هذا ويستمرّ منحى الرفع مع الآية 55، تأكيداً على مدى شناعة فعل القوم ودناءة فاعله؛ إذ «كرّر التوبيخ زيادة في التقييح، واستهجان هذه الفعلة الشنعاء المخالفة لنواميس الطبيعة»⁽²⁾، ويقول "أبو السعود" في شأن ذي صلة مفسراً الآية: «الاستفهام للإنكار التوبيخي تشبیه للإنكار وتكرير للتوبيخ، وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح، وتحلية الجملة بحرفي التأكيد للإيدان بأنّ مضمونها ممّا لا يصدّق وقوعه أحد، لكمال بعده من العقول وإيراد المفعول بعنوان الرجولية لتربية التقييح، وتحقيق المباينة بينهما وبين الشهوة التي علّل بها الإتيان (من دون النساء)، متجاوزين النساء اللاتي هنّ محال الشهوة»⁽³⁾، لتختتم الآية 55 بنغمة مستوية جامعة للمقاطع التسعة الأخيرة، في سياقٍ للإقرار بجهل قوم لوط، وسفاهة عقولهم، وشناعة فعلتهم التي تتنافى مع ما فطر عليه بنو البشر.

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 60].

نلاحظ من خلال نصّ الآية علاقة أدائها الصوتي بدلالاتها المقصودة، ففي الآية إنكارٌ لربوبية الله الواحد الأحد، وإشراك غيره في العبادة، ثمّ إنّ أداء مطلع الآية بنغمة الإنكار لدليل على ارتباط هذا الأداء بمعناها؛ إذ يستدعي هذا المعنى الانطلاق بنغمة عالية تتناسب ودلالات التفرّيع والتبكيك والتعجب أيضاً، والتي تُستفاد من سياق الآية، «فالهزمة للإنكار التوبيخي المتضمّن للتعجب، لحملهم على الإقرار بالحقّ الذي لا محيص لمن له أدنى تمييز عن الإقرار به»⁽⁴⁾.

لتنخفض النغمة بعد ذلك في المقاطع التي تتوسّط نصّ الآية، ثمّ تعود مرّة أخرى للارتفاع في نهايتها بداية من الاستفهام الإنكاري الثاني، يقول "البغوي" في تفسير الآية الكريمة: «استفهام على طريق الإنكار؛ هل معه

(1) - الرازي: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 24، ص 204.

(2) - محيي الدّين الدّرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج 7، ص 231.

(3) - أبو السعود العمادي: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج 6، ص 292.

(4) - باقر سيّد جعفر: أساليب المعاني في القرآن الكريم، ص 80.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنفي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

معبود سواه أعانه على صنعه؟ بل ليس معه إله»⁽¹⁾، إلى جانب دلالة الإنكار يقول "المأمون": «توبيخ وتقريع؛ أي: أبعد كل ما ذكر تعبدون مع الله غيره، وهو الإله الحقّ الأحد الصمد المتفرد بالخلق والتدبير والإمامة والإحياء، وكشف الضّرّ وجلب الخير وبعث الأمل»⁽²⁾، وهي معاني كلّها لا تتجلى، إلاّ بواسطة رفع الصوت وتفخيمه.

وفي الآية 84 من السورة ذاتها يقول عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 84].

تُتلى الآية بناء على ما تحمله من دلالات بنغمتين متباينتين، تُستهلّ بنغمة معتدلة إلى هابطة، تليها أخرى صاعدة نسبياً موضع التوبيخ الأوّل، ليزيد النغم ارتفاعاً أكثر موضع التوبيخ الثاني.

إذ نلاحظ أنّ الآية الكريمة يتوالى فيها توبيخين؛ الأوّل جاء ممزوجاً بالإنكار، والثاني جاء ممزوجاً بشيء من السخرية والتعجب، علاوة على ما فيه من التبكيت والتقريع، وكأنّه جلّ جلاله يقول لهم: أيّ شيء كنتم تعملون في الدنيا غير التكذيب، إذًا فـ «السؤال المذكور سؤال توبيخ وتقريع، فقد وبّخهم الله تعالى فيه على فساد الاعتقاد، وفساد الأعمال»⁽³⁾؛ فأما فساد الاعتقاد فيظهر جلياً من خلال قوله تعالى: ﴿...قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا...﴾، يقول صاحب "صفوة التفاسير" في تفسير هذا المقطع من الآية: «أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى موجّهاً ومقرّعاً: أكذبتهم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يُؤدّي إلى إحاطة العلم بكنهها أو معرفة صدقها؟»⁽⁴⁾.

وأما فساد الأعمال فيتجلى هذا المعنى في الموضوع الثاني للتوبيخ عند قوله تعالى: ﴿...أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، يقول "الشوكاني" في تفسير هذا المقطع مستحضراً المعنى الذي خرج إليه الاستفهام فيه: «والمعنى: أم أيّ شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها، والتفكير في معانيها، وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم»⁽⁵⁾.

بينما سورة القصص، فقد شهد أسلوب الاستفهام فيها خروجاً - أيضاً - لغرض الإنكار التوبيخي على

(1) - أبو محمّد الحسين بن مسعود البغوي: تفسير البغوي "معالم التنزيل"، مج6، ج20، تح: سليمان مسلم الحرش وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، دط، 1411هـ/1990م، ص172.

(2) - مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص564.

(3) - محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشنقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مج6، إشراف: بكر بن عبد الله بوزيد، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، دب، دط، دس، ص487.

(4) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص385.

(5) - محمّد الشوكاني: فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج20، ص1090.

غرار ما عرفته سورتي الشعراء والنمل، ولعلّ من مواضع هذا العدول الدلالي قوله تعالى في الآية 60: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 60].

تحتوي الآية على تركيبين؛ الأول تقريرٌ وإخبارٌ، والثاني إنشاء بغرض الاستفهام، لكنّه ليس استفهاماً حقيقياً، لأنّه لا يتطلّب إجابة بنعم أو لا، إضافة إلى أنّ طريقة أدائه توحى بخروج معناه إلى غرض الإنكار التوبيخي؛ يقول "الصابوني" في هذا الصدد: «تويخ لهم، أي أفلا تعقلون أنّ الباقي أفضل من الفاني»⁽¹⁾، وعليه فإنّ المقاطع الستّة الأخيرة الحاملة لهذا المعنى تُؤدّي بتنغميم صاعد تماشياً ودلالة الإنكار، في حين تبدأ الآية من أول مقطع إلى آخر مقطع قبل هذه الستّة بنغمة هابطة هادئة، تتناسب مع غرض الإخبار الذي خرج هو بدوره إلى معنى التحقير، إذاً فالمنحنى الإيقاعي للآية هو منحنى هابط صاعد ↘.

هذا، ويستمرّ الإيقاع ذاته في الآيتين الموالتين؛ فمثلاً الآية 62 من هذه السورة: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تُستهلّ هي الأخرى بنغمة تقريرية هابطة، تليها نغمة صاعدة موضع بداية الاستفهام بأين، لما فيها من إنكار وتويخ أيضاً، يقول "الصابوني": «أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التويخ والتفريع: أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني، وزعمتم أنّهم ينصرونكم ويشفعون لكم»⁽²⁾.

والأمر ذاته يمكن إسقاطه على الآية 65 أيضاً، وفيها يقول عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، حيث تُتلى المقاطع الإحدى عشر الأولى بنغمة مستوية إلى هابطة، تتناسب ومعنى التقرير، ثم ترتفع في موضع السؤال لتشمل المقاطع التسعة الأخيرة مشكّلة منحنى هابط فصاعد، لأنّ السؤال فيها أيضاً يحمل معنى الإنكار التوبيخي، يقول "الصابوني": «تويخ آخر، أي ويوم يناديهم الله ويسألهم ماذا أجبتهم رسلي؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم»⁽³⁾.

- الاستفهام للإنكار التكميدي (الإبطالي):

إنّ من أهمّ الأدوات التي تُسهّم في تحديد معاني التراكيب وتوجيه أغراضها البلاغية كما ذكرنا: قرينة التنغميم، إذ أنّ أداء الكلام بوتيرة صوتية معيّنة من شأن ذلك أن يضيفي عليه طابعا دلاليا معيّنا، خصوصا في حالة غياب القرينة اللفظية، ففي هذه الحالة سيتفرد التنغميم في كشف المعاني وتحديد الدلالات، تماما مثلما هو الحال مع الآية 22 من سورة الشعراء، وفيها يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، حيث

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص405.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

(3) - نفسه، ص406.

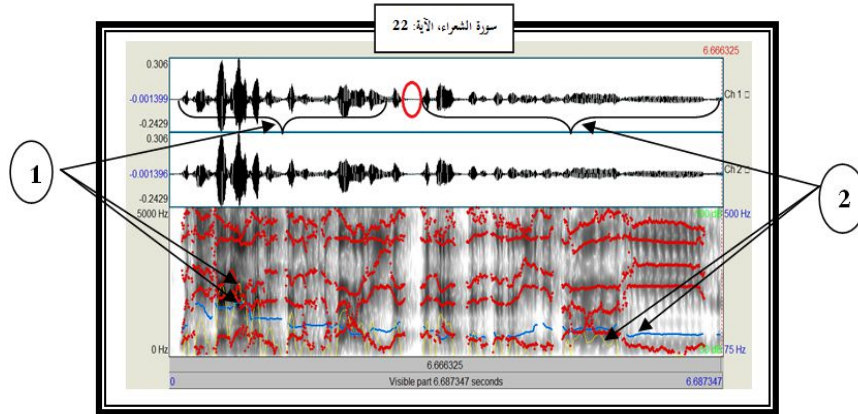
تبدو الآية من الوهلة الأولى أنّها خبرية، لخلوّها من أيّ أداة إنشائية، غير أنّ الأداء التنغمي هنا يفرض نفسه، إذ يعمل على توجيه الغرض من التقرير إلى الاستفهام، فقد «تكون قرينة التنغم بديلا عن الأداة، فكثير من أبواب النحو العربي إنّما تعرف بأدواتها، لكن تلك الأدوات قد تُحذف، ومع ذلك يبقى النغم محافظا على المعنى المراد»⁽¹⁾.

بناء على ما قيل تُؤدّي الآية بنغمة صاعدة في بدايتها استدعاء لمعنى الإبطال والتكذيب، لتحفّ حدة هذه النغمة موضع السكّنة الخفيفة عند كلمة: ﴿عَلِيٌّ﴾، ثمّ تبدأ بعد ذلك هذه النغمة في الهبوط التدريجي إلى غاية المقطع الختامي، أي موضع الوقف والإعلان عن اكتمال المعنى المراد. يقول "الأخفش الأوسط" متحدّثا عن هذه الآية: «هذا استفهام، كأنّه قال: أوتلّك نعمة تمّنها؟ ثمّ فسّر فقال: أن عبّدت بني إسرائيل، وجعله بدلا من النعمة»⁽²⁾.

وإنّما حذفت همزة الاستفهام ههنا، لأنّ المعنى - كما أشرنا - يدلّ عليها، ولأنّ الأداء المستقيم للآية يستحضرها، وفي السياق ذاته يضيف "أحمد الزاويّتي" في باب حديثه عن معنى الآية قائلا: «والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرّباني أبوي، فأنيّ نعمة لك عليّ، فأنت تمّن عليّ بما لا يجب أن تمّن به»⁽³⁾، ويقول "الخانز" في هذا الصدد: «... قيل هو على طريق الإنكار، ومعنى الآية: أو تلك نعمة على طريق الاستفهام، والمعنى: أتمنّ عليّ أن ربّيتني، وتنسى جنايتك على بني إسرائيل بالاستعباد والمعاملات القبيحة...»⁽⁴⁾.

نقدّم فيما يلي مخطّطا تمثيليا يوضّح المنحنى الإيقاعي للآية 22 من سورة الشعراء، كما هو مبين في الشكل

رقم: 54



الشكل رقم: 54

- (1)- سليمان بوراس: "الظواهر التطريزية ودورها في المعنى - التنغم أنموذجا"، ص 12.
- (2)- الأخفش الأوسط: معاني القرآن، ج 2، ص 461.
- (3)- الزاويّتي: تفسير الضحّاك، مح 1، ص 634.
- (4)- الخانز: تفسير الخانزن المسّمى لباب التأويل في معاني التنزيل، ج 3، ص 332.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يمثل الرقم 1 النطاق النغمي للنغمة الاستفهام التكميلي الصاعدة، حيث بلغت درجة الصوت في هذا النطاق أقصاها وقدرت بـ: 231 هرتز، وفي هذا النطاق بدل القارئ استحضارا للغرض المقصود جهدا نطقيا كبيرا، دليل ذلك ظهور المنحنى الأصفر في شكل موجات جدّ عالية، حيث كادت شدّة الصوت تتجاوز 74 ديسيبل.

ليشهد المنحنى بداية الانخفاض التدريجي انطلاقا من السكتة التي يستغلّها القارئ لتجديد نَفْسِهِ والاستعداد لاستئناف قراءته، وهي المشار إلى موضعها بالدائرة الحمراء أعلى الصورة، ليمثل بعدها الرقم 2 النطاق النغمي التي تشهد فيه طبقات الصوت انحدارا تدريجيا إلى أن تصل أدنى مستوياتها مع آخر مقطع صوتي منها. هذا، ويمكن ترجمة نتائج التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في هذه الآية على النحو الآتي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
123.538 هرتز	152.465 هرتز	231.501 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	61.75 ديسيبل	74.38 ديسيبل	شدّة الصوت (Intenensity)
6.69 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 22 من سورة الشعراء

الحقيقة أنّ الاستفهام الإنكاري قد يخرج إلى معاني أخرى عدا التوبيخ والتكذيب؛ تستفاد من خلال قرائن الأحوال على غرار: النفي، التعجب، التهديد والتهكّم وغيرها، وعلى هذا الأساس أمكن التمييز للاستفهام الإنكاري - أيضا - في سور الطواسين بين الأنواع التالية:

- الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى النفي:

من الآيات القرآنية التي جاءت في مظهرها الشكلي بالأسلوب الاستفهامي، ولكنها في المضمون تحمل معنى غير المعنى الذي وُضع من أجله الاستفهام وهو معنى النفي أو آخر الآيتين 60 و 61 من سورة النمل، والذي يقول الله عزّ وجلّ فيهما: ﴿...أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدُلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 60]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿...أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَآيِعَامُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 61].

وفي الموضوعين تُؤدّي المقاطع الأولى المشكّلة لهذين التركيبين تناسبا مع غرض النفي بتنعيم عالٍ، إنكارا وتبكيّتا للقوم الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، ورفع الصوت في الأداء هو النمط الذي يتلاءم مع غرض النفي، لاسيما إذا كان هذا الغرض قد ورد في أسلوب الاستفهام. يقول "مبارك حنون" مبيّنا المنحنى الإيقاعي للسلسلة الكلامية التي يكون الغرض فيها النفي: «إذ يُرْفَع الصوت مع النفي والجمد، ويزيد رفع الصوت تمكينا مع

الاستفهام، أمّا في غير هذه المواضع فالصوت يُخفّض». (1)

بدوره يقول "محمد الألوسي" في بيان معنى النفي في الآيتين: «"أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ": وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عمّا يشركونه به عزّ وجلّ في ضمن النفي الكلّي على الطريقة البرهانية، بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد، فإنّ أحداً ممن له أدنى تمييز، كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرّة، لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأساً، لاسيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عمّا سواه عزّ وجلّ». (2)

لكن ما تلبث هذه النغمة إلاّ أن تشهد انحدارا ملحوظا بداية من السكتة التي يُختتم بها قوله تعالى: ﴿أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ﴾، لأنّ القارئ هنا يقوم بسكتة خفيفة، ليواصل القراءة بنغمة هابطة إلى غاية المقطع الختامي للآيتين؛ أي موضع الوقفة الدال على تمام المعنى.

تقول "عفاف الشلي" موضحة سرّ هذا الأداء: «في أدوات النفي جميعها عدا الأداة لم، ينتهي المنحنى بشكل منخفض (نغمة منخفضة)، يقع على المقاطع الصوتية للكلمة الأخيرة...». (3)

هذا هو الاتجاه الذي نتمنّه، ونراه أقرب إلى الصواب أكثر، غير أنّ هناك من له موقف آخر، حيث يرى الباحث "أحمد البايبي" أنّ المنحنى الإيقاعي للآيتين متذبذب، يبدأ صاعدا ثمّ ينخفض، بعدها يعود للارتفاع مرّة ثانية، وهذا ما يؤكّده في قوله: «إنّ تكرار أسلوب الاستفهام المصدر بأمن بنطاقه التنغمي الخاص، مع تكرار عبارة (أَوَّلُهُ مَعَ اللَّهِ) الاستفهامية بفتح همزة الاستفهام وكسر همزة (أَوَّلُهُ)، يُحدث نغمة تعلو وتهدّج (وتنخفض)، ثمّ تعود لتعلو في النهاية لنفح النغمة عن الاستفهام، الذي يُقصد منه التوبيخ والتعجّب ممّن يجعلون مع الله إله آخر». (4)

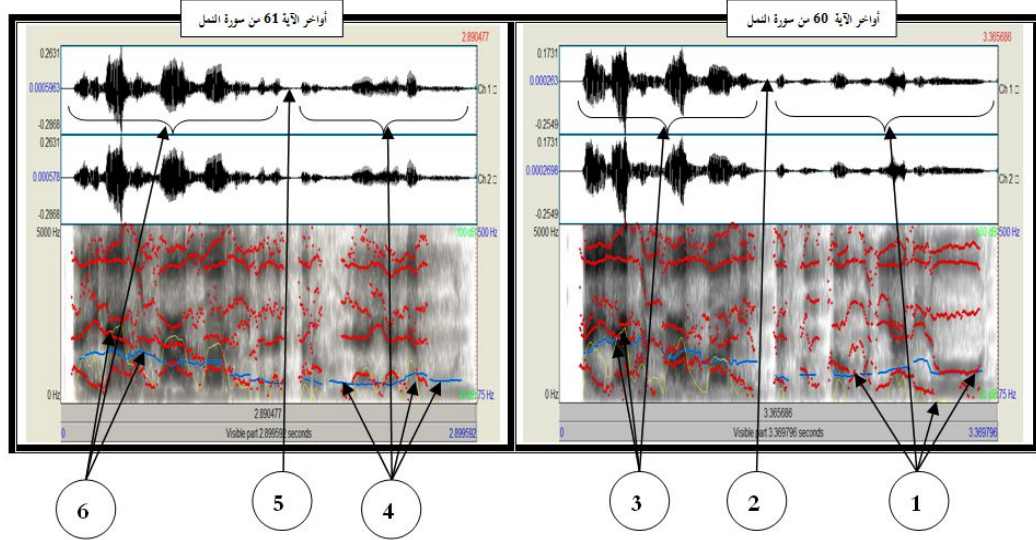
غير أنّ أداء الشيخ "سعود الشريم" لنصّ الآيتين كان موافقا للرؤية الأولى التي تبينناها، وليس لرؤية "أحمد البايبي"، وهذا ما يوضّحه الشكل رقم 55

(1) - مبارك حتون: في التنظيم الإيقاعي للغة العربية - نموذج الوقف، ص 39.

(2) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 20، ص 5.

(3) - عفاف الشلي وآخرون: "دراسة تنغمي الكلام المركب باللغة العربية وتوليده آليا"، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية - مجلة علمية محكمة دورية، دمشق، سورية، مج 29، ع 1، 2013م، ص 218.

(4) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 351.



الشكل رقم: 55

تمثل الأرقام في الصورتين أعلاه ما يلي:

- الرقم 1: النغمة الصاعدة موضع الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى النفي في أواخر الآية 60 من سورة النمل.
 الرقم 3: النغمة الهابطة في نهاية الآية 60 من سورة النمل.
 الرقم 2: السكتة الإيقاعية الخفيفة التي تتوسط نطاق النغمتين في الآية 60 من سورة النمل.
 الرقم 4: النغمة الصاعدة موضع الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى النفي في أواخر الآية 61 من سورة النمل.
 الرقم 6: النغمة الهابطة في نهاية الآية 61 من سورة النمل.
 الرقم 5: السكتة الإيقاعية الخفيفة التي تتوسط نطاق النغمتين في الآية 61 من سورة النمل.

وفي سبيل تعزيز الاتجاه الذي سلكه المنحنى الإيقاعي في الآيتين أكثر، كان لابد من تذييل هذا التعقيب بنتائج التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في الآيتين على شكل أرقام، نتعرف من خلالها على قمة وذروة درجة الصوت، إلى جانب مقياس الشدة التي بلغها الصوت اللغوي في الآيتين كما هو مبين في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum		القيمة المتوسطة La valeur moyenne		أقصى قيمة Valeur maximum		نوع القيم الخصائص الفيزيائية
سورة النمل، الآية 61	سورة النمل، الآية 60	سورة النمل، الآية 61	سورة النمل، الآية 60	سورة النمل، الآية 61	سورة النمل، الآية 60	الدرجة الصوتية (Pitch)
118.347 هرتز	128.160 هرتز	141.605 هرتز	171.929 هرتز	201.133 هرتز	229.218 هرتز	
سورة النمل، الآية 61	سورة النمل، الآية 60	سورة النمل، الآية 61	سورة النمل، الآية 60	سورة النمل، الآية 61	سورة النمل، الآية 60	شدة الصوت (Intensity)
50 ديسيبل	61.31 ديسيبل	60.72 ديسيبل	72.23 ديسيبل	70.35 ديسيبل	70.35 ديسيبل	
سورة النمل، الآية 61: [2.90 ثانية]				سورة النمل، الآية 60: [3.37 ثانية]		الزمن (Tempo)

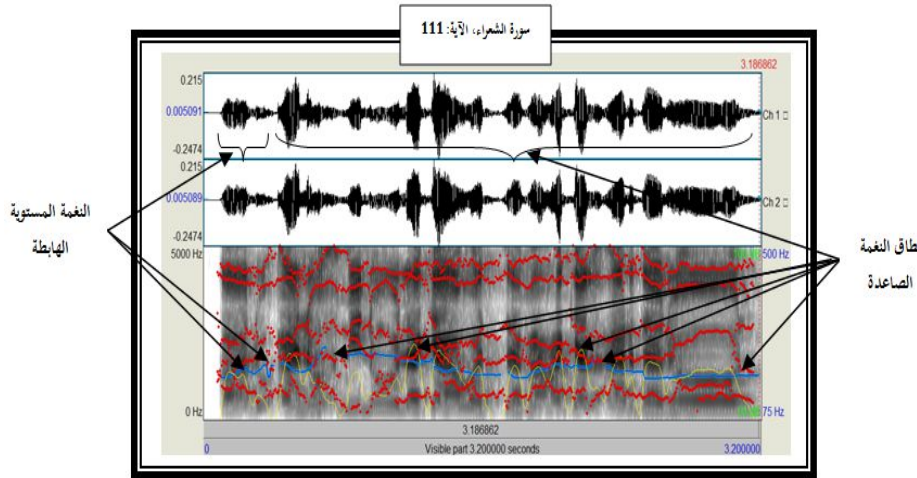
جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في أواخر الآيتين 60 و 61 من سورة النمل

- الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى التعجب (التعجب):

يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿قَالُوا أَنْوْمُنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 111].

وتقدير الكلام: قالوا يا نوح: كيف لنا أن نتبعك ونصدقك ونؤمن بك، ونحن لا نرى أتباعك إلاّ أسافل الناس، ومرادهم أنّ هذا لن يحدث مطلقاً، ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفي، فانتفاؤهم لما دعاهم إليه نوح عليه السلام هو الذي دفعهم لإبداء تعجبهم من الدعوة واستنكارهم تحقّقها، يقول "الشعراوي": «والاستفهام هنا للتعجب، كيف نؤمن لك ونحن السادة والمؤمنون بك هم الأردلون؟»⁽¹⁾.

بناء على ما قيل، فإنّ الآية الكريمة تُقرأ بنغمتين متباينتين، الأولى قصيرة المدى، وهي نغمة مستوية تميل إلى الهبوط، تشمل المقطعين المتوسّطين الأوّلين، تليها نغمة صاعدة إلى نهاية الآية، تتناسب ومعنى الإنكار الحامل لمعنى التعجب، وما يزيد هذه الدلالة تأكيداً وقوّة، ما شهدته الشطر الثاني في الآية من قمّة إسماع واضحة، نظير ما في كلمة (وَاتَّبَعَكَ) من نبر المقطع الأوّل (المقطع المتوسّط المغلق)، إحالة على أنّ إيماننا بك لن يتحقّق، وأتباعك أحقر الناس وأسافلهم في نظرنا؛ فالنبر ههنا قد عزّز أكثر المعنى الذي بيّنه التنغم، وكان إلى جانبه خادماً للغرض الذي خرج إليه الاستفهام الإنكاري في الآية. ويمكن توضيح ما سقناه من خلال الشكل التالي:



الشكل رقم: 56

فعلا نلاحظ أنّ النغمة تبدأ مستوية ثمّ تنخفض برهة من الزمن، لتعود إلى الارتفاع موضع الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى التعجب، حيث يحافظ النطاق الذي يمثّل النغمة العالية على الوتيرة ذاتها إلى نهاية الآية، كما هو موضّح في الصورة أعلاه، فمن شدّة الجهد المبذول أثناء القراءة امتزج المنحنى الأزرق مع المنحنى الأصفر، مشكّلا معا تموجات متداخلة من شأنها أن تمنح الأداء قوّة تتناسب مع الغرض المقصود من الكلام.

(1)- الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، مج 17، ص 10623.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يمثل الجدول أسفله عرض توضيحي مبسّط لأبرز القيم الأكوستيكية المستنبطة من التحليل الفيزيائي أعلاه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
176.277 هرتز	194.543 هرتز	252.587 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	61.94 ديسيل	71.81 ديسيل	شدة الصوت (Intenensity)
3.20 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 111 من سورة الشعراء

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسًا لِّلنَّاسِ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا بِمَا كَانُوا فِيهَا يَسْتَفْتِهِمْ﴾

[سورة النمل، الآية: 86].

استهلت الآية الكريمة بأداة استفهام، وهي هنا "الهمزة"، غير أنّ المراد بها ليس الاستخبار وطلب الحصول على جواب، وإّما خرجت عن هذا المعنى الحقيقي إلى معنى آخر مجازي، يُستشفّ من خلال السياق وكذا الأداء الصوتي لها، فالآية الكريمة تسوق لنا ظاهرة من ظواهر الكون هي: تعاقب الليل والنهار؛ وفيها تعجّب من أولئك الذين لا يتدبّرون في آيات الله ويُشركون به، وهم يملكون بين أيديهم ما يُغنيهم عن ذلك، ويثبت كمال وحدانيته عزّ وجلّ، فالله تعالى سخّر لعباده الليل والنهار، هذا بظلمته لتسكن فيه أبدانهم وتستريح أنفسهم من متاعب النهار، كي تستعدّ لاستقبال يوم آخر للعمل والنشاط، وذاك بنوره لينتشر الناس في الأرض طلبا للرزق والمعاش.

يقول "صاحب التحرير والتنوير" مبيناً خروج الاستفهام إلى معنى التعجّب في الآية 86 من سورة النمل: «والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حالهم، لأنّها لغرابتها تستلزم سؤال من يسأل عن عدم رؤيتهم، فهذه علاقة أو مسوّغ استعمال الاستفهام في التعجيب...»⁽¹⁾.

والتعجّب أو التعجيب من المعاني التي يحتاج أداءها إلى تفخيم ورفع في مستوى الصوت، لذا تبتدئ الآية الكريمة بنغمة عالية مرتفعة، تليها نغمة هابطة، تنطلق هذه الأخيرة مع المقطع الذي يلي التأكيد بإنّ.

- الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى التهديد والوعيد:

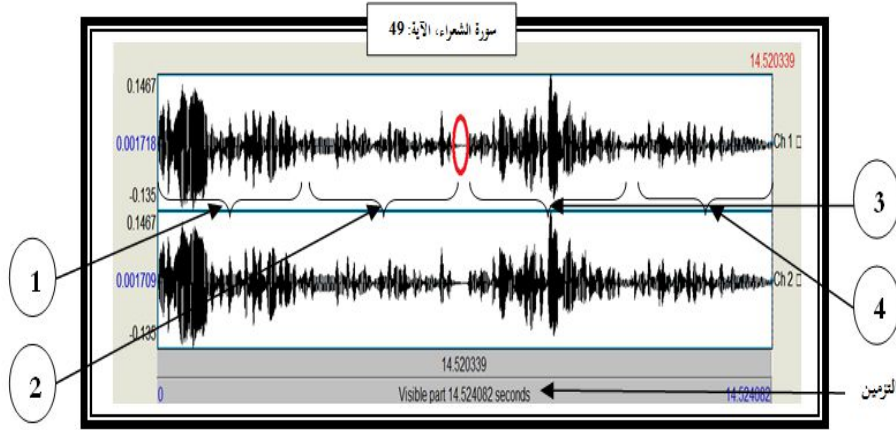
يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿قَالَ أَمْ نُمِثُّ لَهُمْ فَبَلَّ أَنْ أَدْنَىٰ لِكُرْبَانِهِ لَكَيْدُ الَّذِي عَلَّمَ كُرْبَانَ السِّحْرِ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ

أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَأَلْصَقْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ [سورة الشعراء، الآية: 49].

في الآية تهديد صارخ ووعيد واضح، لا يتجلّى إلّا من خلال الأداء السليم، حيث يتكرّر هذا المعنى في مواضع عدّة من الآية الكريمة؛ إذ تبدأ بنغمة معتدلة تشمل المقطعين الأولين المشكّلين لكلمة { قَالَ = ص ح ح +

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص43.

ص ح}، تليها مباشرة نغمة مستوية صاعدة تتناسب ودلالة التهديد التي تجسدها ههنا همزة الاستفهام في كلمة (ءَأَمْتُمْ)، لتعود النغمة إلى الانخفاض التدريجي مجدداً عند المقاطع التي تشمل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، لما فيه من تقرير وإخبار، لتظهر نبرة التهديد مرة ثانية، ولعلها أشد حدة من سابقتها، حيث تتجلى عند قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وعند قوله أيضا: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأُزِيلَنَّ عَنْكُم مِّنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَّاكُمْ أجمعين﴾، وعليه يتم تأدية هذا الجزء بنغمة مستوية صاعدة، لما فيه من وعيد وتوعد بالعقاب الشديد. ولتوضيح المنحنى اللحني لنص الآية تقدّم الشكل التالي، الذي يبرز مخطّط الموجات الصوتية لمقاطع الآية على هذا النحو:



الشكل رقم: 57

تمثل الصورة التي أمامنا مخطّط الموجات الصوتية لمقاطع الآية 49 من سورة الشعراء غير مصحوب بالخصائص الفيزيائية للصوت اللغوي على غرار: الرسم الطيفي للموجات الصوتية، منحنى الدرجات الصوتية، منحنى التواترات وشدة الصوت، سلاسل الحزم الصوتية، ... الخ، فبرنامج برات - كما أسلفنا - يكون في مثل هكذا حالات عاجزا على عرض كلّ هذه الخصائص، لاسيما إذا كانت مدّة الأداء طويلة، أي تتجاوز الحدّ المسموح به في البرنامج لإظهار القيم الأكوستيكية المذكورة وهي عشر ثوانٍ.

بالعودة إلى مخطّط الموجات الصوتية أعلاه فإنه يوضّح لنا التذبذب الذي عرفه المنحنى الإيقاعي للآية الكريمة، حيث يمثّل الرقم 1 المجال الصوتي للنغمة المستوية الصاعدة وهو أوّل موضع للاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى التهديد، وأما الرقم 2 فيشير إلى الانحدار الذي يشهده مستوى النغمة، هذا الأخير الذي يسجّل مرة ثانية علوًا موسيقيًا ملحوظًا مواطن الوعيد المتوالية كما يوضّحه الرقم 3، حيث تفصل بين النغمة الهابطة والنغمة المستوية الصاعدة سكتة إيقاعية خفيفة، لتتخفّف درجة الصوت ويقلّ عدد الذبذبات الصوتية مرة أخرى نهاية الآية، دليلًا على اكتمال معناها، وهذا ما يشير إليه الرقم 4 في المخطّط أعلاه.

- الاستفهام الإنكاري الحامل لمعنى التهكم:

ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 23].

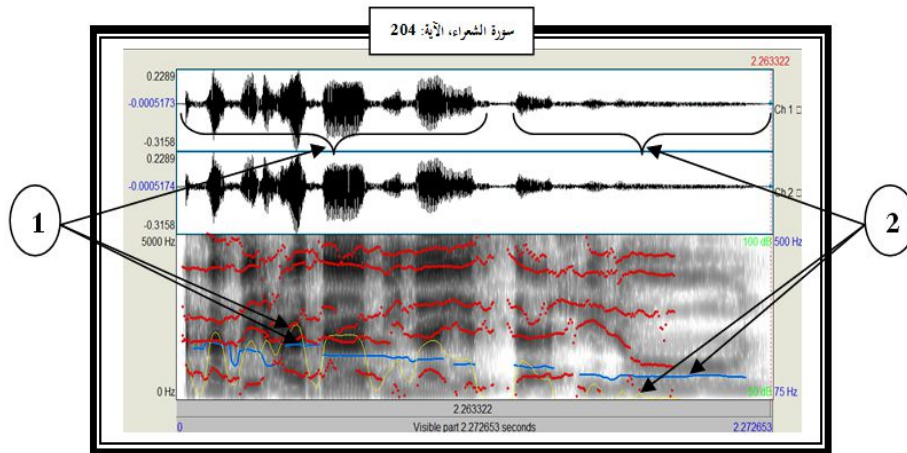
الآية فيها إنكار فرعون لربوبية الله واستهزائه به جلّ في علاه، فأداة الاستفهام (ما) هنا لا يُقصد بها السؤال عن ماهية الشيء، وإنما يُراد بها شيئاً أبعد من ذلك وهو التهكم والسخرية من المسؤول عنه، يقول "السعدي": «وهذا إنكار منه لربه ظلماً وعلوّاً، مع تيقن صحّة ما دعاه إليه موسى».⁽¹⁾

لذا فإنّ الآية تُؤدّي في عموم مسارها بنغمة واحدة، وهي: النغمة المستوية الهابطة، لتناسبها مع جملة التقرير ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾، ومع الاستفهام الإنكاري ذو الطابع التهكمي ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ولكن ما يميّز هذه المقاطع من الناحية الأدائية عن المقاطع الأولى، هو وجود خطفة إيقاعية سريعة تميّزت بها أداة الاستفهام (ما) مع الواو التي تسبقها، حيث يتمّ تأدية المقطعين الصوتيين المشكّلين لهما {وَمَا = ص ح + ص ح ح} بنغمة صاعدة سريعة، لكن سرعان ما تعود النغمة للانحدار موضع التهكم، تسفيها للمستهزئ.

في موضع آخر يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿أَفِعْدَابٍ أَيَّامٌ يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 204].

إنّ استدعاء معنى السخرية والاستهزاء الذي يحمله تركيب الآية الكريمة، لن يتحقّق إلاّ إذا تمّ تأدية الآية بنمط تنغمي، يتواءم والمعنى المراد من وراء التلقظ بالكلام، وإلى جانب ما في الآية من تهكم وازدراء، فهي أيضاً تحمل في طياتها شيئاً من الإنكار والتوبيخ، وعلى هذا الأساس فهي تُقرأ بنغمة صاعدة هابطة، يقول "المأمون" في تفسير الآية: «توبيخ لهم، وإنكار عليهم الاستهزاء بقدم العذاب».⁽²⁾

ويمكن توضيح المنحنى اللحني لنصّ الآية في الشكل رقم 58:



الشكل رقم: 58

- (1)- السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص561.
 (2)- مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون- تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص508.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يتبين من خلال مخطط الموجات الصوتية، وكذلك منحنيات درجة الصوت وشدته أن نغمة الأداء صاعدة هابطة ↗ ↘، حيث يمثل الرقم 1 النغمة العالية وهو موضع الاستفهام الإنكاري الوارد في قالب استهزائي بحت، حيث كادت درجة الصوت أن تتجاوز في هذا النطاق 224 هرتز، بشدة فاقت 72 ديسيل، أما الرقم 2 فيشير إلى النغمة الهابطة التي شهدتها المقاطع الأخيرة من الآية، وفيها بلغت درجة الصوت 125 هرتز، ووصلت عندها شدة الصوت أدنى حدودها وهي 50 ديسيل، إلى جانب قلة سلسلة الحزم الصوتية مقارنة مع كثافتها في النطاق النغمي الأول. وفي الجمل يمكننا اختزال هذه النتائج على اختلاف المراحل التي يقطعها الصوت اللغوي أثناء عملية الأداء في هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
125.284 هرتز	165.753 هرتز	224.906 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	61.73 ديسيل	72.57 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
2.27 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 204 من سورة الشعراء

ومن المواضيع الأخرى التي يظهر فيها غرض الإنكار التهكمي في أسلوب الاستفهام عن طريق الأداء، بشكل جليّ وواضح قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 59].

يمكن تقسيم الآية نطقياً إلى مجموعتين مقطعتين، فأما الأولى فتبدأ من مستهلّ الآية إلى غاية لفظ (اصْطَفَىٰ)، وهذه المجموعة تُتلى بنغمة تقريرية مسطحة، بينما تمثل المجموعة الثانية باقي مقاطع الآية الكريمة، انطلاقاً من همزة الاستفهام التي خرجت هنا عن معنى الاستخبار وطلب الفهم، إلى معنى بلاغي آخر هو السخرية والتهكم، لذا يستوجب تمييز هذه المجموعة المقطعية صوتياً عن سابقتها، وذلك برفع الصوت نسبياً عما هو عليه برهة من الزمن، ثم العودة سريعاً إلى المستوى الهابط.

فهذا الأداء الإيقاعي نتيجة تناوب عمليات العلوّ والانخفاض، يتناسب مع حال المشركين الذين آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، وبناء على هذا جاء الخطاب تهكمي، تنبيهاً لهم على جهلهم وضلالهم. يقول "أبو حيان" مستحضراً هذا المعنى: «اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يُشْرِكُونَ»: استفهام فيه تبيكيت وتوبيخ وتهكم بحالهم، وتنبيه على موضع

التباين بين الله تعالى وبين الأوثان، إذ معلوم عند من له عقل أنه لا شركة في الخيرية بين الله تعالى وبينهم»⁽¹⁾.

• **الاستفهام للأمر:** يرد الأمر في سياق غايته حمل المخاطب على القيام بفعل على وجه الاستعلاء، لأنّ السائل لا يطلب معرفة، بل ينتظر إنجاز مضمون الاستفهام الذي يطرحه، وبهذا يكتسب الاستفهام قيمة الأمر الصريح، والمقام هنا يفرض أن يكون المستفهم في موقع اجتماعي أو إداري أو سياسي عالٍ قياساً إلى موضع المخاطب، وأن يتوفّر في ذاكرتهما المشتركة جملة من الأحداث أو الرغبات التي يمكن طلب تحقيقها عن طريق الاستفهام، مثل ذلك قول الرئيس لمروّسه المتقاعس: ألا تصرف أعمال الناس؟ ألا تخاف العواقب؟⁽²⁾

ومن نماذجه في سور الطواسين قول العليّ القدير: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 39].

اشتملت الآية الكريمة على نعمتين مختلفتين؛ الأولى مستوية عند قوله: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ لما فيها من إخبار وتقرير، والثانية صاعدة إلى هابطة تتجلّى في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾؛ إذ تُؤدّي مقاطع هذا التركيب بتنغيم عالٍ وسريع.

إنّ التنغيم - كما أسلفنا - قد يكون في كثير من النصوص أهمّ من وجود الأداة، لأنّ هناك عديد النماذج التي اشتملت على أدوات الاستفهام مثلاً، وهي في الوقت ذاته لم يُحكم عليها بكونها استفهامية، وهذا وجه من أوجه الوظيفة التي يؤدّيها التنغيم في اللغة، ولعلّ من هذه المواضع قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾، فأداة الاستفهام (هل) ليست للاستخبار والاستعلام، وإنما خرجت إلى معنى بلاغي هو: الأمر، لذا تمّ تأدية المقاطع الأخيرة من الآية تناسباً مع هذا الغرض بنغمة مرتفعة. يقول ابن عثيمين: «والاستفهام هنا للأمر، يعني: اجتمعوا...»⁽³⁾، ويقول "محي الدين الدرويش" في بيان الدلالة البلاغية المقصودة من وراء توظيف أداة الاستفهام "هل": «هل حرف استفهام، وأنتم مبتدأ، ومجتمعون خبر، والجملة مقول القول، وفي الاستفهام معنى الأمر، كأنتم يستبطنهم ويستحثّهم على الاجتماع»⁽⁴⁾.

كما هو معلوم أنّ الأمر يقتضي الوجوب، فنغمة السؤال الصاعدة تدعو المعني بالأمر بصوت مرتفع وممدود، وبنبرة العلوّ الموسيقي الواضحة في المقطع الأول من لفظ (مُجْتَمِعُونَ) إلى الإذعان والتسليم، امتثالاً لأوامر المولى عزّ وجل.

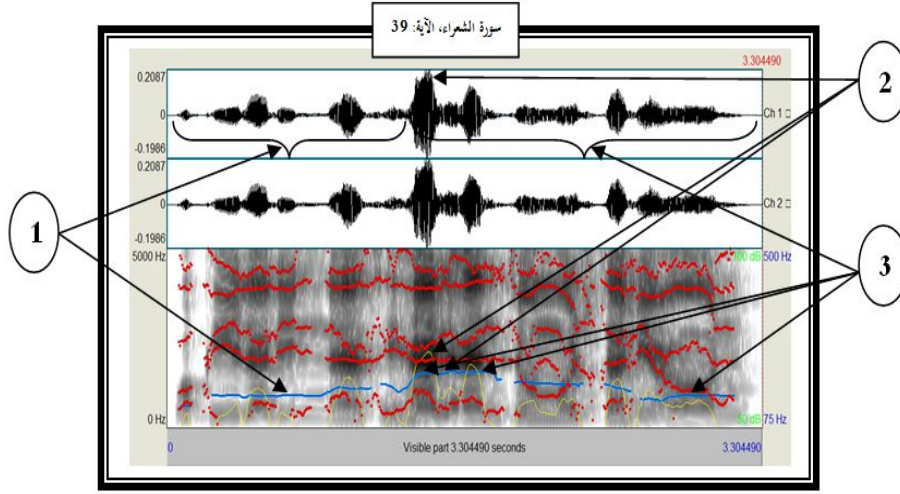
(1) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيظ في التفسير، ج8، ص256.

(2) - محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب: علوم البلاغة (البدیع، والبيان، والمعاني)، ص ص295-296.

(3) - ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة الشعراء، ص90.

(4) - محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، مج7، ص71.

والشكل رقم 59 يوضّح المنحنى اللحني للآية 39 كما يلي:



الشكل رقم: 59

كما سبقت الإشارة فإنّ قراءة هذه الآية قد تمّت بنمطين تنغميين مختلفين، وهذا ما توضّحه الصورة أعلاه، حيث يشير الرقم 1 إلى نمط الأداء الأول وهو النغمة المستوية، أمّا الرقم 3 فيشير إلى نمط الأداء الثاني وهو النغمة الصاعدة التي تنحو في اتجاه هابط نهاية الآية، وفي هذا النطاق عرف الصوت أقصى درجة وشدّة وصل إليها على طول مسار الآية، وهو الموضع الذي يشير إليه الرقم 2 في الصورة، فقد كادت أن تتجاوز درجة الصوت في الموضع المذكور 209 هرتز، في المقابل قدّرت شدّة الصوت المبذولة هنا 71 ديسيبل، وهي قيمة عالية تتناسب والجهد الكبير الذي بدله القارئ، من أجل استدعاء غرض الأمر الذي خرج إليه الاستفهام في الآية، وفي الجدول أسفله باقي القيم التي سجّلها الصوت اللغوي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
125.628 هرتز	166.007 هرتز	209.616 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	60.72 ديسيبل	71.07 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
3.30 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 39 من سورة الشعراء

وتتواتر النماذج التي خرج الاستفهام فيها إلى دلالة الأمر في مواطن متفرّقة من سور الطواسين، فسياق الآية 25 من سورة الشعراء مثلاً نجد مصبوغاً بصيغة الأمر، إلى جانب ما فيه من السخرية والاستهزاء، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ وَالْآتِمْهَونَ﴾، فإنّ الآية فيها حثٌّ على ضرورة الاستماع، وتقدير الكلام: استمعوا، وقوله

في سورة القصص الآية 60: ﴿...أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾، والتقدير: أَعْقِلُوا، وقوله كذلك في السورة ذاتها الآية 71: ﴿...أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ بمعنى: اسمعوا، وأيضا في قوله عند الآية 72 من سورة القصص: ﴿...أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ففيه أيضا حثٌّ على التأمل والتدبر، والتقدير: أبصروا ما حولكم من الآيات الكونية لعلكم تؤمنون.

في كلِّ هذه المواضع يمثل الأمر فعلا إنجازيا مخالفا لحرفية ما تحمله الآية من معنى، استلزمه السياق واقتضته قرائن الأحوال المختلفة، فعقد الكلام من أجله بحكم أنه معنى إضافي قابح وراء المعنى الأصلي (ظاهر الكلام). يقول "صباح عبيد دراز" متحدثا عن السرِّ البلاغي من وراء التعبير بالاستفهام عن الأمر أن: «دلالة الاستفهام على الأمر يعطي لونا من الإثارة والتشويق وسياسة النفوس والتأثير فيها، وإشراكها في عملية الاقتناع، فهو يزيد على الأمر الصريح بصيغته المعهودة هذه المعاني الإضافية، ولذا كانت له مقاماته الخاصة من ناحية، ومن ناحية أخرى يمثل قمة الطلب إن صحَّ التعبير...»⁽¹⁾.

● **الاستفهام للنهي:** وهو كالأمر طلب، لكنّه طلبٌ سلبي، والأمر طلبٌ إيجابي؛ إذ الأمر يطلب إنجاز أمر والنهي يطلب عدم إنجاز شيء ما، مثاله قوله تعالى: ﴿...أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة التوبة، الآية: 13]، فكأنَّ الآية تقول: "لا تخشوهم واخلشوا الله، لأنّه أحقّ منهم بخشيتكم إذ كنتم مؤمنين به وبتعاليمه".⁽²⁾

لم تخل سور الطواسين من خروج الاستفهام فيها إلى هذا المعنى، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ ﴿١٦٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 165].

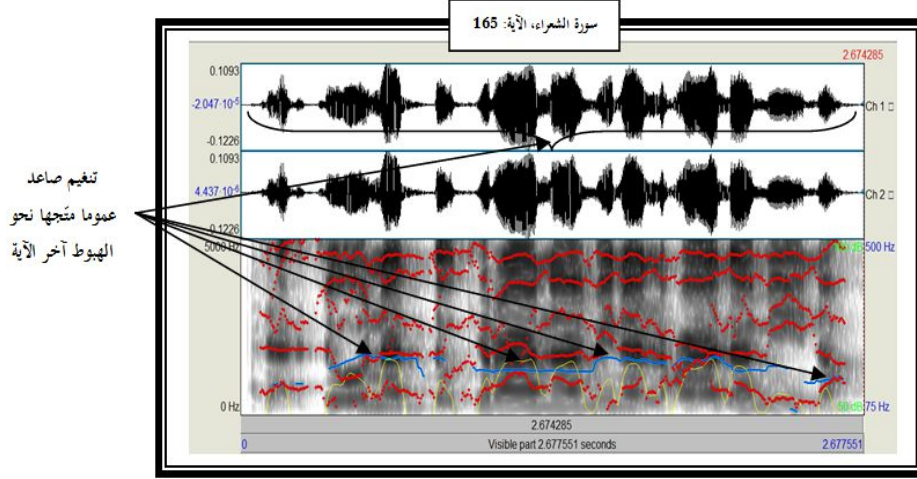
إنَّ السياق التي وردت فيه هذه الآية الكريمة، يبدو من الوهلة الأولى أنّ الجملة فيه جملة استفهامية طلبية تتصدّرها همزة الاستفهام، فإذا نحن تمعنا في نصّها، وقلّبناها في أذهاننا، اتّضح لنا بأنَّ المعنى مختلفٌ عمّا تخفيه الأدوات والألفاظ، وإلى تنعيم الجملة يعود الفضل في إطلاق مثل هكذا أحكام؛ فهزمة الاستفهام هنا هي على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، لأنَّ نعمة الأداء ساهمت في توجيه الغرض، إذ كانت بصيغة استنكارية دالة على نهي قوم لوط عن إتيان هذه الفاحشة، التي لم يسبقهم إلى فعلها قومٌ آخر، وتقدير الكلام: لا تأتوهم، أو بتعبير آخر: قد نهيّاكم عن إتيان الذكور فأعرضتم عن نهيّا والتزمتم بشهواتكم، وأمرناكم بإتيان النساء فتركتم أمرنا وخالفتم الفطرة البشرية.

والآية من الناحية الصوتية تُقرأ كلّها بنمط تنغمي واحد، وهو: التنعيم الصاعد، المتدرّج نحو الهبوط في

(1) - صباح عبيد دراز: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ص 264.

(2) - محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب: علوم البلاغة (البدیع، والبيان، والمعاني)، ص 296.

النهاية ↗ ، استحضارا لما في الآية من نهي واستنكار، ولتوضيح المنحنى الإيقاعي لهذه الآية نقدم مخطّطا مصوّرا عن موجات الصوت اللغوي فيها، يقابله رسما طيفيا لهذه الموجات محمّلا بالخصائص الفيزيائية السابق الإشارة إليها كما يلي:



الشكل رقم: 60

دليل ما في الأداء من قوّة وشدّة، التموجات المتكرّرة التي يعرفها المنحنى الأصفر، إذ بلغت أقصى قيمة مسجّلة: أكبر من 65 ديسيبل، لتخفّ شدّة الصوت نهاية الآية كما هو موضّح في مخطّط الموجات الصوتية، والمنحنيين الأزرق والأصفر أيضا.

ويمكن عرض باقي نتائج التحليل في الجدول أسفله على النحو التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
82.999 هرتز	192.145 هرتز	220.373 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	57.67 ديسيبل	65.79 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
2.68 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 165 من سورة الشعراء

• الاستفهام للنفي: وذلك عندما تجيء لفظة الاستفهام للنفي لا لطلب العلم بشيء كان مجهولا، نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [سورة الرحمن، الآية: 60]، فظاهر الآية أنّها جاءت في قالب استفهامي غير أنّ المعنى هو النفي، وتقدير الكلام: {ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان}.⁽¹⁾

يعدّ النفي من أهمّ الأغراض البلاغية التي خرج إليها الاستفهام في سور الطواسين، وذلك بإحدى أدواته المعروفة {لا، لات، ليس، ما، لم، لمتا...}، والتنغم في مثل هكذا أغراض، إنّما يتحكّم فيه موضع النفي، سواء

(1) - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 96.

أكان في بداية التركيب أم وسطه أم نهايته؛ فإذا كان النفي بداية الكلام استهملّ التنعيم صاعداً، وإذا كان وسطه أو نهايته، استمرّ في صعوده إن كان صاعداً، أو ارتفع عن مستواه إن كان مسطّحاً أو هابطاً، تقول "عفاف الشلي" في هذا الصدد: «ترتكز النغمة في جمل النفي على المقاطع الصوتية لأداة النفي حصراً، وخاصة على الأصوات المجهورة فيها؛ إن كانت هذه الأداة تقع في بداية الجملة أو في منتصفها، ولا فرق بين شكل النغمة باختلاف موقع الأداة».⁽¹⁾

جاء الاستفهام في سور الطواسن حاملاً لمعنى النفي في مواضع عدّة، نذكر منها قوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْ إِذْ تَدْعُونَ ۗ أَوْ يَبْصُرُونَ كُرْ أَوْ يُضْرَبُونَ ۗ﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 72 و 73]. بمعنى أنّ هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها صمّاء بكماء، لا تسمع ولا يمكنها أن تجيب دعائكم، كما لا يمكنها أن تجلب لكم منفعة أو أن تدرأ عنكم مضرة.

ومثل هذا الموضوع مواضع أخرى في سورة الشعراء منها قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۗ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ۗ﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 100 و 101].

فـ «كلمة (ما) نافية وليست استفهامية، والدليل إتيان (مِنْ) المؤكّدة (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)، وأصلها: فما لنا شافعون، ولكن أوتي بـ (من) للتوكيد».⁽²⁾، ومعنى الآية: ليس لدينا اليوم شفيع ينقذنا من الهلاك، ولا صديق ينفعنا كما كان في الدنيا.

وقوله أيضاً: ﴿قَالُوا أَلْوَيْ لَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۗ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 111]. الخطاب موجّه من قوم نوح لنوح عليه السلام، والتقدير: قالوا لن نؤمن لك، ولا نؤمن بك، مادام أنّ أتباعك - حسب رأيهم - يمثلون أسافل الناس، فردّ عليهم بالنفي قائلاً: ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 112].

من مواضع الاستفهام أيضاً التي خرج فيها الأسلوب إلى دلالة النفي في سورة الشعراء قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَالُهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَنُونَ ۗ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 207].

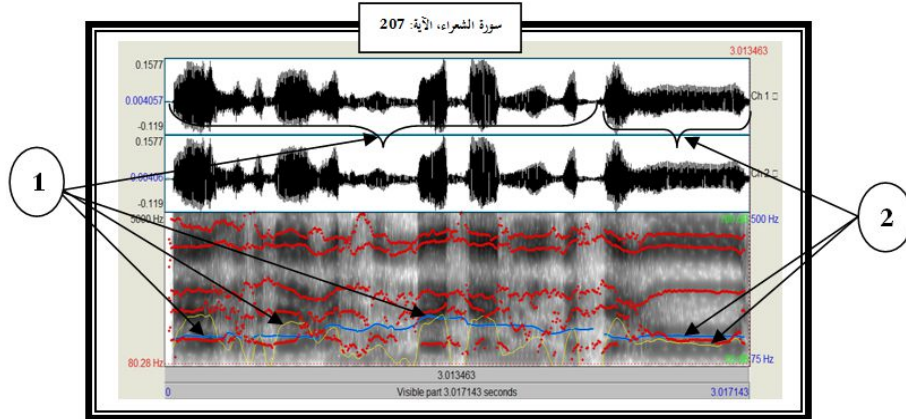
والمعنى: لن تُغني عنهم الحياة الرغيدة والمعيشة الطيبة التي كانوا يتمتّعون بها في حياتهم الدنيوية، ما دام أنّهم لم يعتبروا ولم يعملوا لآخرتهم حساباً، فالיום وبعد انقضاء الفرصة، وفوات الأوان لن ينفعهم النعيم شيئاً في تخفيف الحزن، أو دفع العذاب، يقول "عبد القاهر الجرجاني" في هذا الإطار: «ما أغنى: نفي على سبيل الاستفهام

(1) - عفاف الشلي وآخرون: "دراسة تنعيم الكلام المركّب باللغة العربية وتوليد آليا"، ص 218.

(2) - ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة الشعراء، ص 172.

والسؤال»⁽¹⁾.

إنّ النفي في الأداء كما هو معلوم من مواضع الرفع ف «مهما كانت أداة النفي، يبدأ المنحنى بالصعود ممثلاً بنغمة مرتفعة»⁽²⁾؛ وعلى هذا الأساس فإنّ جميع الآيات المذكورة تُتلى في عمومها بنغمة عالية، تناسبها ودلالة النفي التي خرج إليها الاستفهام، متدرّجة في نهايتها نحو الانحدار. وتمثّل في ما يلي بنموذج واحد فقط، نستشفّ من خلاله طبيعة وشكل المنحنى النغمي لأسلوب الاستفهام الخارج لغرض النفي:



الشكل رقم: 61

إنّ النطاق النغمي الذي يُشار إليه بالرقم 1 في هذه الصورة يمثّل نغمة الاستفهام للنفي، وهي نغمة لم تعرف الاستقرار على وتيرة واحدة، تراوحت بين الاعتدال أحياناً، وبين الارتفاع في أغلب المواضع؛ يتّضح ذلك جلياً من خلال مخطّط الموجات الصوتية، إلى جانب التذبذب الذي عرفه منحنى الدرجة الصوتية (المنحنى الأزرق)، ومنحنى شدّة الصوت (المنحنى الأصفر)، أمّا الرقم 2 فيشير إلى النطاق الذي يمثّل الانحدار التدريجي في نغمة الأداء، وفي هذا النطاق عرف المنحنى اللحني للآية أدنى مستويات الصوت والتي قدّرت بـ: 147,743 هرتز. وفي العموم يمكن عرض باقي نتائج التحليل في هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
147.743 هرتز	164.494 هرتز	214.663 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	58.05 ديسيبل	66.65 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
3.02 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 207 من سورة الشعراء

(1)- عبد القاهر الجرجاني: درج الدرر في تفسير القرآن العظيم، ج2، تح: طلعت صلاح الفرحان ومحمد أديب شكور، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 1430هـ/ 2009م، ص398.

(2)- عفاف الشلبي وآخرون: "دراسة تنغم الكلام المركّب باللغة العربية وتوليد آليا"، ص218.

أما في سورة النمل، فيقول عز وجل: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 90].

فأداة الاستفهام "هل" ههنا لا يُقصد بها السؤال عن طبيعة الجزاء أو ماهيته، بل يُقصد بها الانتفاء والشماتة، والمعنى: ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه؛ فالجزاء من جنس العمل. يقول ابن عثيمين⁽¹⁾ في إطار تفسيره لنص الآية، مبيناً الغرض الذي خرج إليه الاستفهام قائلاً: «قوله (هَلْ يُجْزَوْنَ)؛ أي: ما تُجزون، يعني أنّ الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي الجرد؛ لأنه يدلّ على النفي وزيادة، فقولنا: ما تُجزون إلا ما كنتم تعملون، يدلّ على أنّهم لا يُجزون إلا ما كانوا يعملون، لكن قوله: (هل تجزون) يدلّ على تقرير هذا الأمر، وأنه لا يمكن للإنسان أن يُجازى إلا بما كان يعمل، ويكون فيه تقرير وتقريع في نفس الوقت»⁽¹⁾.

والآية نصفها خبرٌ خرج إلى معنى التهديد، والنصف الآخر استفهامٌ خرج إلى معنى النفي، والتهديد يُؤدّى بتنغييم مستوٍ صاعد عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾، أما النفي فيؤدّى كما أشرنا بتنغييم صاعدٍ متّجه نحو الهبوط آخر الآية، وذلك عند قوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أما في سورة القصص فيقول المولى عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 62].

أداة الاستفهام "أين" الواردة في هذه الآية هنا لا يُراد منها في الحقيقة السؤال عن المكان الذي به الشركاء، وإنما هو للتحقير وللإنكار الممزوج بالتوبيخ، ومعلوم أنّ دلالة الإنكار التوبيخي تحمل على عاتقها دلالة ضمنية أخرى هي النفي، ففي الآية تأكيد على عدم وجود الشركاء الذين ينفعون المكذّبين بوحداية الله المدّعين بتعدّد الآلهة، يقول "رابح دوب": «يُخرج الاستفهام إلى الإنكار، ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفي وما بعده منفي»⁽²⁾، أي نفي وجود الشركاء.

في السياق ذاته نجد "الظاهر بن عاشور" قد أشار إلى دلالة النفي التي خرج إليها الاستفهام في هذه الآية قائلاً: «والاستفهام بكلمة أين ظاهره استفهام عن المكان الذي يوجد فيه الشركاء، ولكنّه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذ، فالاستفهام مستعمل في الانتفاء»⁽³⁾.

ثمّ إنّ الآية تُؤدّى من الناحية التنغيمية بمنحني إيقاعي تصاعدي، تُستهلّ بنغمة مستوية هابطة عند قوله

(1) - ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة النمل، ص 514.

(2) - رابح دوب: البلاغة عند المفسترين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1997م، ص 294.

(3) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 20، ص 156.

تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾، لتبدأ بالصعود انطلاقاً من أداة الاستفهام (أين)، متدرّجة نحو الهبوط شيئاً فشيئاً نهاية الآية، هذا إذا أراد المتكلم/ القارئ أن يوصل للسامع/ المتلقي دلالة النفي، أمّا إذا أراد بالاستفهام إظهار دلالة التحقير، فقد وجب عليه حينئذ أن يقرأ موضع التحقير بصوت خفيض بدل الرفع، لتحوّل بذلك النعمة من صاعدة هابطة إلى مستوية هابطة.

ودلالة النفي في كلّ هذه المواضع جاءت في قالب إنشائي، رغم أنّ النفي يندرج ضمن الأساليب الخبرية.

• الاستفهام للجحد:

قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 14].

هذه الآية تتحدّث عن موقف قوم فرعون بعد أن جاءتهم آيات الله بيّنة واضحة مبصرة، لا يمكن لأحد نفيها أو إنكارها، ومع ذلك كذبوها، بل وجحدوا بها.

اشتملت الآية أعلاه على أسلوب خبري وأسلوبين إنشائيين؛ الأول لغرض الأمر (فَانظُرْ)، والثاني للاستفهام (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)، والحقيقة أنّ أداة الاستفهام "كيف" الواردة في نصّ هذه الآية، لا يُراد منها الاستفهام حقيقة، وإنّما هي للتكذيب والإنكار، بل هي لشيء آخر أشدّ منهما وهو: الجحد؛ «فالجحد أعلى مراتب التكذيب والإنكار، واليقين أعلى مراتب التصديق والإقرار»⁽¹⁾، وفي سياق ذي صلة يقرّر "ابن قتيبة" بهذه الحقيقة قائلاً: «والجحد يكون ممن علم بالشيء فأنكره»⁽²⁾.

وهذا تماماً ما نجده في الآية المذكورة، فهاهو "السعدي" يفسّرها، مبيناً دلالة الجحد فيها، والإنكار مع العلم بذلك الشيء فيقول: «أي كفروا بآيات الله جاحدين لها، فليس جحدهم مستندا إلى الشكّ والريب، وإنّما جحدهم مع علمهم ويقينهم بصحّتها، ظلما منهم لحقّ ربّهم ولأنفسهم، وعلوّا على الحقّ وعلى العباد، وعلى الانقياد للرسول»⁽³⁾.

لَمَّا كَانَ الْجَحْدُ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَسْتَلْزِمُ حُضُورَهَا رَفْعًا فِي الصَّوْتِ «وَمَا يُرْفَعُ الصَّوْتُ فِي النَّفْيِ، يُرْفَعُ

(1) - خلود بنت سعد بن إبراهيم العقيل: الأساليب الإنشائية في سورة النمل (دراسة بلاغية تحليلية)، إشراف: عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعلان، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، كليّة اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/ 2008م، ص80.

(2) - أبو محمّد بن مسلم بن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، شرحه: أحمد صقر، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1393هـ/ 1973م، ص322.

(3) - السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان، ص573.

كذلك في الجحد، وهو جزء من النفي...»⁽¹⁾، فإن الآية تُتلى بنغمتين؛ الأولى: نغمة مستوية تقريرية، تشمل قوله عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، والثانية: عالية، تشمل أسلوب الأمر الخارج لمعنى التحذير، والاستفهام الذي خرج هنا للجحد عند قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أما عن التمثيل البياني لمنحنى الآية، فقد سبق لنا تقديمه في مطلب الأمر، عند عنصر: خروج الأمر إلى غرض التحذير، فلا داعي لإعادة عرضه هنا.

• الاستفهام للتوبيخ:

من أمثله في سور الطواسين قول العليّ القدير: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصْرِوْنَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الشعراء، الآيتين: 92-93].

السؤال هنا سؤال تفرغ وتبكيت، لكنه ليس بحاجة إلى تعنيف ولا يُتوقع أن يكون له جوابا، وكأن الله يُخاطبهم فيقول لهم: أين آلهتكم التي عبدتموها، هل ستندكم اليوم من عذاب الله، وهل تستطيع أن تدفع هذا العذاب عن نفسها؟! وهذا كله من باب التوبيخ. يقول "المأمون" متحدثا عن المعنى الإجمالي للآيتين، مشيرا إلى دلالة التوبيخ التي خرجت إليها أدوات الاستفهام {أين، ما، وهل}: «تفريع وتوبيخ لأهل النار، الذين استحسوا دخولها بعبادتهم الأوثان والأنداد والطواغيت من دون الله، فيقال لهم: أين الأنداد اليوم لينفذوكم من عذاب الله وبأسه وغضبه؟! أو ينصرون أنفسهم فينجون من دخول النار معكم؟!»⁽²⁾.

وعلى هذا فإن الآيتين تُؤدّيان بتنوع نغمي، تبدآن بنغمة مستوية محضة، تشمل المقاطع الستة الأولى المكوّنة لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ لعدم تمام المعنى؛ «فشكل النغمة المسطّحة يبقى مرتبطا بتعليق الكلام، من حيث افتقاره إلى المعنى التام، كما تساهم الوقفة في استبانة شكل النغمة بشئ أنواعها، فالمسطّح من الصوت لا ينحاز إلى النوعين الآخرين (الصعود والهبوط)، وإنما يبقى معلقا، ما لم ينهي المتكلم كلامه، مخلصا نغمة صوته من تسطّحها، وملتزمًا في ذلك بما يقتضيه مفهوم الجملة في إطارها اللساني (الصوت والمعنى)»⁽³⁾، تليها نغمة مستوية هابطة (المدى النسبي الهابط)، انطلاقا من أداة الاستفهام الأولى "أين" الدالة على التوبيخ، حيث تستمر هذه النغمة إلى غاية آخر مقطع قبل أداة الاستفهام الثانية "هل"، لِتُتْبَعِ آخر نغمة بأخرى هابطة عند قوله تعالى: ﴿هَلْ يَصْرِوْنَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ لما فيها من عتاب وتأنيب، إلى جانب دلالة التوبيخ. يقول "مزاحم حسن مطر": «وخروج

(1)- أحمد البايي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية- دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص ص288-289.

(2)- مأمون حموش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون- تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص484.

(3)- بن شبيحة طيب: "النغمة المسطّحة في إنشاء مفدي زكريا"، مجلّة الخطاب والتواصل، مجلّة علمية محكمة سنوية، مخبر الخطاب التواصلي، المركز الجامعي - عين تموشنت (الجزائر)، ع3، أبريل 2017م، ص349.

الاستفهام إلى غرض التوبيخ تلائمته النعمة التي تميل إلى الهبوط»⁽¹⁾.

أما في سورة القصص فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 62].

واضح من خلال الأداء السليم لألفاظ الآية وتراكيبها، أنّ السؤال الوارد فيها لا يُراد منه مجرد البحث عن إجابة، وإنما خرج مخرجا آخر؛ إذ تدلّ أداة الاستفهام "أين" على معنى التوبيخ والتفريع، يقول "ابن عطية الأندلسي": «أين: على جهة التفريع والتوبيخ»⁽²⁾، وفيها شيءٌ من التهديد والوعيد أيضا الممزوجين بمعاني السخرية والاستهزاء.

يقول "ابن كثير" مفسرا إياها: «يقول تعالى مخبرا عمّا يوبّخ به الكفّار المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، يعني: أين الألهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد، وهل ينصركم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التفريع والتهديد...»⁽³⁾، وكأنّ الله سبحانه وتعالى يخاطبهم فيقول: "أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنّهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم فيدفعوا عنكم ما أنا محلّ بكم من العذاب، فقد كنتم تعبدوهم في الدنيا وتولّوهم، والوليّ ينصر وليّه وقت الحاجة؟!".

وإلى الاتجاه نفسه ذهب "المأمون"؛ إذ أشار في تفسيره للآية الكريمة إلى المعنى ذاته قائلا: «تفريع وتهديد، وتوبيخ وتنديد بالمشركين، الذين عبدوا الأوثان والأنداد والطواغيت في الدنيا من دون الله»⁽⁴⁾.

بناء على هذا فإنّ الآية من الناحية الأدائية، تُفتتح بنعمة تقريرية مستوية عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾، تنتهي عند موضع السكتة الخفيفة التي يتخذها القارئ استراحة لأخذ النَّفْس، وهو بهذه السكتة يقوم بتعليق الكلام، ليتّمم في الجزء الذي يليه، أين تتحوّل بعدها النعمة إلى مستوية هابطة دليلا على تمام المعنى عند قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، تماشيا مع دلالة التوبيخ التي تميّز الجزء الثاني من الآية.

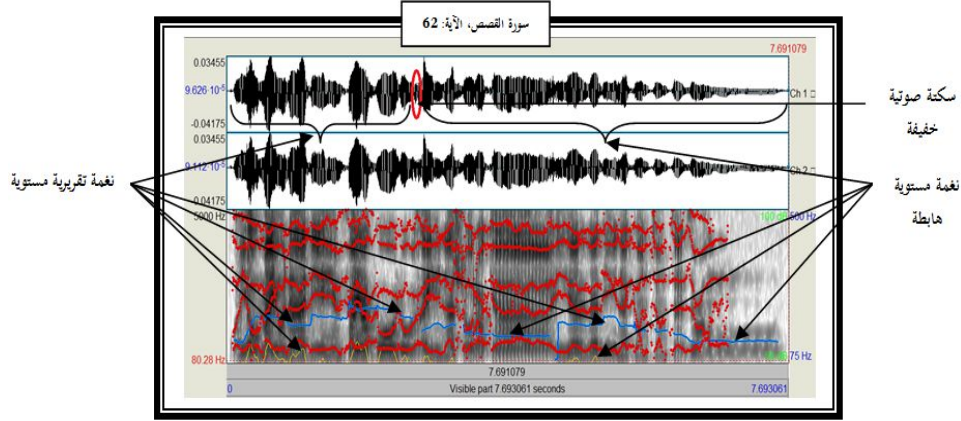
والشكل رقم 62 يوضّح المنحنى الإيقاعي لمقاطع الآية الكريمة على النحو التالي:

(1) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنغم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، ص46.

(2) - ابن عطية الأندلسي: المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص294.

(3) - ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2185.

(4) - مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، ج5، ص634.



الشكل رقم: 62

يمكن ترجمة ما جاء في الصورة على شكل أرقام في هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
85.987 هرتز	177.553 هرتز	250.023 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.77 ديسيبل	56.57 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
7.69 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 62 من سورة القصص

هذا، وتكرّر الآية 62 في السورة ذاتها مبناً ومعناً، ففي الآية 74 من سورة القصص، يعود الله عزّ وجلّ إلى التوبيخ والتبكيث مرّة أخرى، دون الحاجة إلى التعنيف طبعاً، لأنّ المقصود هو التأكيد على التأنيب وشدة العتاب، الأمر الذي يدلّ على غضب الله على أولئك الذين يشركون مع الله آلهة أخرى. يقول "الألوسي": «تقرير إثر تقرير، للإشعار بأنّه لا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك، كما لا شيء أدخل إلى مرضاته من توحيده عزّ وجلّ».⁽¹⁾

ومن مواطن خروج الاستفهام إلى غرض التوبيخ أيضاً في سورة القصص، قول المولى جلّ وعلا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظَلْمٍ أَوْ لَسَعَةٍ أَوْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُ فِيهَا أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة القصص، الآيتين: 71 و72].

احتوت كلّ آية من الآيتين أعلاه على ثلاث أدوات للاستفهام، كلّها خرجت فيها إلى معنى مجازي هو: التوبيخ، وكأنّ تقدير الكلام: أخبروني أيّها المشركون لو أنّ الله جعل لكم الليل مستمرّاً لا ينقطع إلى يوم البعث،

(1) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج20، ص109.

من إله مما تعبدون غيره يأتيكم بنور بعد ظلمة تصلح به حياتكم؟! أحبروني أيها المشركون لو أنّ الله جعل لكم النهار متواصلاً لا يعقبه ليل إلى يوم البعث، من إله مما تشركون غيره يأتيكم بليل تسترحون فيه من عناء النهار؟! أفلا تبصرون في آيات الله؟ أفلا تتدبرون في خلقه وملكوته؟ فهذا توبيخ وتنبه لهم. يشير أحد الباحثين في معرض حديثه عن أسلوب الاستفهام في الآيتين إلى خروج الأسلوب لغرض التوبيخ؛ ففي الأولى يقول: «واستفهام (أَرَيْتُمْ) في هذه الآية الكريمة يفيد التوبيخ: توبيخ المشركين على عبادتهم غير الله، وعلى تركهم عبادة الله، الذي يعلمون أنّه هو الذي يأتيهم بالضياء بعد الليل ليتبعوا فيه من فضله، ويفيد أيضاً التنبه: تنبيه المشركين على أنّ الله وحده هو الذي يقدر على أن يأتي بالنهار بعد الليل ليتبعوا فيه من فضله، وأنّ أصنامهم التي يعبدونها من دون الله لا تقدر على ذلك، فعليهم أن يسمعوا آية الله هذه، وأن يتدبروها فينصرفوا عن عبادة الأصنام، ويجعلوا عبادتهم خالصة لله الذي أنعم عليهم بهذه النعمة العظمى».⁽¹⁾

وعن الثانية يقول: «...وأما استفهام (أَرَيْتُمْ) هنا يفيد التوبيخ: توبيخ المشركين على عبادتهم غير الله، وعلى تركهم عبادة الله، الذي يعلمون أنّه هو الذي يأتيهم بالليل بعد النهار ليجدوا فيه السكينة والطمأنينة، فالله وحده هو الذي يستحقّ العبادة، ويفيد هذا الاستفهام أيضاً التنبه: تنبيه المشركين على أنّ الله وحده هو الذي يقدر على أن يأتيهم بالليل من بعد النهار، ليسكنوا فيه ويدققوا طعم الراحة، فعليهم أن يُبصروا آية الله هذه وأن يتدبروها، فيعرضوا عن عبادة الأصنام، ويُخلصوا العبادة لله الذي أنعم عليهم بهذه المنّة الكبرى».⁽²⁾

والاستفهام إن كان حقيقياً، فإنّ المنحنى التنغمي المناسب له هو المنحنى الصاعد، ولكن إذا خرج إلى معنى آخر غيره، فقد يحافظ على النمط النغمي ذاته، إذا كان ذلك الغرض من الأغراض التي تستدعي درجة موسيقية عالية، أو أن يتخذ اتجاهها مخالفاً نحو الاستواء أو الهبوط، كما قد يشهد خليطاً إيقاعياً ممزوجاً بكلّ أنواع هذه النغمات، ولما كان التوبيخ والعتاب من المواضع التي تحتاج إلى خفض في طبقة الصوت، فإنّ الآيتين تُقرآن بنغمة مستوية هابطة، تكون مسبقة بنغمة عالية قصيرة المدى، يمثّلها المقطع المتوسط المغلق الذي يتصدّر بداية كلّ آية، لما فيه من أمر حقيقي، بيد أنّ ما يميّز هاتين الآيتين: وجود سكتة إيقاعية خفيفة، بعد لفظ القيامة في كليهما.

• الاستفهام للتهديد والوعيد: يكثر مجيء التهديد والوعيد إذا كان المقام عدم الرضا بالمأمور به،

فالاستفهام حينئذ لا يُراد به الاستعلام فقط، بل التهديد والوعيد مع التخويف على أمر غير مرغوب فيه.⁽³⁾

نحو قوله تعالى على لسان نبيّه نوح **الصلوات**: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُّ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية:

(1) - عبد الرؤوف اللبدي: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، ج 1، ص 113.

(2) - المرجع نفسه، ص 114.

(3) - فلاح حسن محمد الجبوري: قطوف دانية في علوم البلاغة (المعاني، البيان، البديع)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1971م، ص 45.

[106]، وقوله على لسان نبيّه هود عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُوْدٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 124]، وقوله أيضا على لسان نبيّه صالح عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 142]، وأيضا على لسان نبيّه لوط عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 161]، وأخيرا على لسان نبيّه شعيب عليه السلام حين قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 177].

لقد تكرّرت الآية الكريمة في هذه السورة عدّة مرّات، ومما لا شكّ فيه أنّ لهذا التكرار دلالة ومغزاه، حيث وردت في جميع هذه الآيات أداة استفهام والمتمثلة في "الهمزة"؛ إذ جاءت ضمن أداة العرض "ألا" وهي هنا لا تفيد حقيقة الاستفهام، وإنما هي للتخويف والوعيد، فرغم ظهور الآيات البيّنة أمام القوم، إلّا أنّهم ظلّوا على استنكارهم واستمرارهم في عبادة الأصنام، وكأنّ شيئا لم يكن، لذا جاء خطاب الأنبياء تخويفا وتهديدا لهم عمّا هم عليه، «وجعل تكذيب نوح تكذيبا للرسل جميعا؛ لأنّ تكذيبه يتضمّن تكذيب غيره منهم، إذ طريقته لا تختلف؛ فهي في كلّ مكان وزمان الدعوة إلى التوحيد وأصول الشرائع، وقد حكى سبحانه عن نوح أنّه خوّفهم أوّلا بقوله: أَلَا تَتَّقُونَ؟ لأنّ القوم إنّما قبلوا تلك الأديان تقليدا، والمقلّد إذا خوّف خاف، وما لم يستشعر بالخوف لا يشتغل بالاستدلال والنظر».⁽¹⁾

إنّ الاستفهام عادة ما يؤدّي من الناحية الأدائية بصوت عالٍ وبتنغيم صاعد، هذا إذا كان يُقصد منه ما وُضع له في الأصل؛ أي طلب الفهم، أمّا إذا خرج عن هذا المعنى، فقد يحافظ على الاتجاه الصوتي نفسه، وقد يغيّر منحاها، ولما كانت همزة الاستفهام ههنا تدلّ على التهديد والتخويف، فإنّ الآية تُقرأ بنغمتين متباينتين، تبدأ بنغمة مستوية إلى هابطة، تشمل قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ...﴾ تليها نغمة مستوية صاعدة، تشمل المقاطع الصوتية الخمسة الأخيرة في قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ ذلك أنّ معنى الوعيد والتهديد من المعاني التي تستدعي إظهار الشدّة والحزم والجدّ، وهي كلّها دلالات تتلاءم والنغمة الصاعدة القويّة.

أمّا في نهاية الآية الأخيرة من سورة الشعراء، فإنّ المتأمل فيها لا يمكن له أن ينكر ما تحويه من دلالات الوعيد والتهديد، يقول تعالى: ﴿...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 227].

الحقيقة أنّ الآية اشتملت على أسلوبين؛ الأوّل: خبري، والآخر: إنشائي في سياق استفهامي، والملاحظ أيضا أنّ كلا الأسلوبين لم يحمل المعنى الأصلي المراد من تركيبهما، بل خرجا كلاهما إلى معنى التهديد والوعيد، يقول "أبو جعفر النحاس" (ت: 338هـ) في معرض حديثه عن الجزء الأخير من الآية الأخيرة في سورة الشعراء:

(1)- المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص54.

«وفي هذا تهديد لمن انتصر بظلم». (1)، ويفصل بدوره "القاسمي" في القول، حينما يتحدث عن معنى الآية قائلاً: «تهديد شديد ووعيد أكيد لما في "سيعلم" من تهويل متعلقه، وفي "الذين ظلموا" من إطلاقه وتعميمه، وفي "أيّ منقلب ينقلبون" من إبهامه وتهويله، كأنه لا يمكن معرفته، وقد رأوا ما حاق بهم في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى». (2).

لما كان الخبر في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، والاستفهام في قوله: ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ للتهديد والتخويف، فإنّ كلّ المقاطع الصوتية المشكّلة لهذا التركيب تُؤدّي بوتيرة صوتية وتنغميم واحد، أي بنغمة مستوية صاعدة؛ كون التهديد من مواضع الرفع في الأداء على حدّ قول "أحمد البايبي": «إنّ تمكين الصوت وإشباعه واعتماده، هي المنحنيات التنغمية الدالة على منزلة الوعيد والإغلاظ». (3).

وفي موضع من سورة النمل يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 69].

الآية من أولها إلى آخرها فيها: تهديد ووعيد، تخويف وترهيب، اشتملت على ثلاثة أفعال أمر كلّها للتهديد، تلتها أداة الاستفهام "كيف"، والتي كانت هي الأخرى للتهديد والتخويف بأن تكون حالهم حال الأمم السابقة المكذّبة، إن استمرّوا في تكذيبهم ولم يرتدعوا. يقول "الصابوني" مفسراً الآية ومبيّناً معناها: «أي فانظروا - نظر اعتباريّ - كيف كان مآل المكذّبين للرسول؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم، فما حدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد، والآية وعيد وتهديد». (4).

والأصل في الأمر والاستفهام الحقيقيين أن يُؤدّيّا بتنغميم صاعد، لكنّهما هنا خرجا عن الأصل، إلى معنى سياقي (الدلالة المجازية) وهو التهديد، يقول "البيضاوي": «تهديد لهم على التكذيب، وتخويف بأن يُنزّل بهم مثل ما نُزّل بالمكذّبين قبلهم، والتعبير عنهم بالمجرمين ليكون لطفًا بالمؤمنين في ترك الجرائم». (5).

على هذا الأساس فإنّ الآية التي بين أيدينا تُقرأ بنغمة مسطّحة صاعدة على طول مقاطعها الصوتية، وهذا ما يوضّحه الشكل رقم 63:

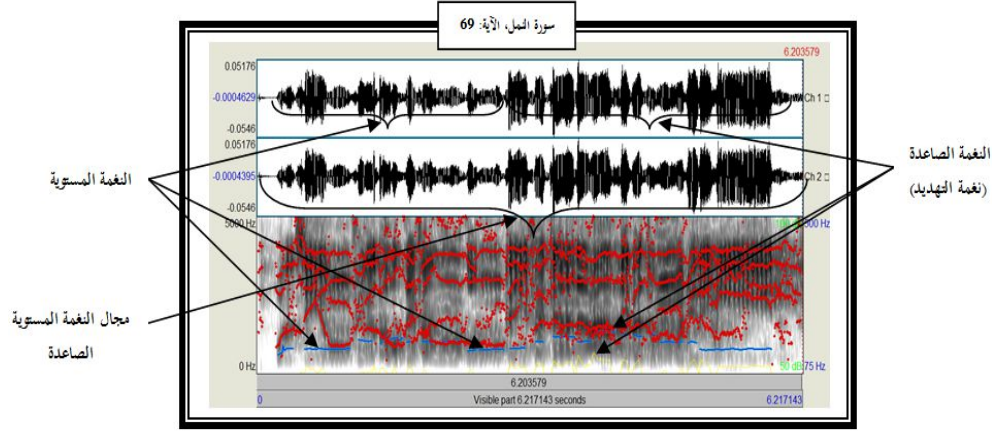
(1) - أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس: إعراب القرآن، تح: خالد العلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1429هـ / 2008م، ص690.

(2) - محمد جمال الدين القاسمي: تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل، ج13، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دون دار النشر، دب، دط، 1376هـ / 1957م، ص4654.

(3) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة ليسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص261.

(4) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص383.

(5) - البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، مج2، ج20، ص573.



الشكل رقم: 63

وهذه هي نتائج التحليل الفيزيائي لمجملة في الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
126.797 هرتز	159.104 هرتز	190.593 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.85 ديسيبل	56.46 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
6.22 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 69 من سورة النمل

• الاستفهام للتنبيه عن الخطأ:

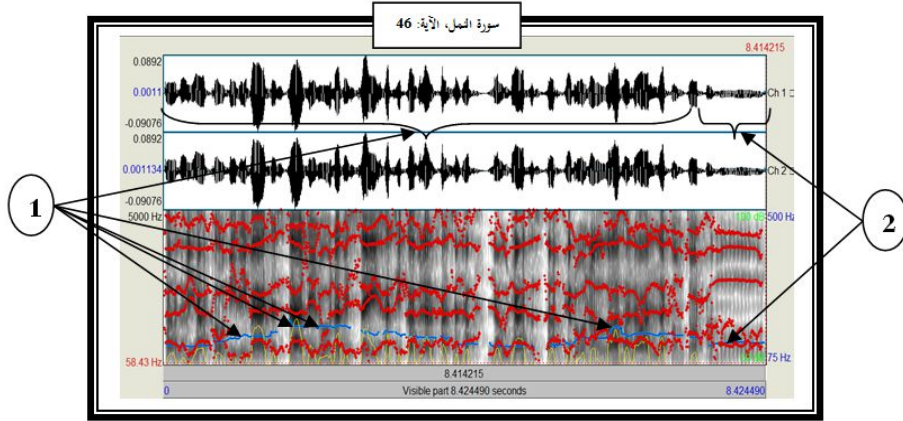
ومثاله في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 46].

ورد الاستفهام في هذه الآية عند قوله تعالى: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، وأصل الميم هنا (ما)، لأنها اسم استفهام لغير العاقل، وإنما حذف الألف فيها، لكونها جاءت مسبوقه بحرف الجرّ (اللام)، لتدلّ فتحة الميم على الألف المحذوفة.

هذا، وقد خرج الاستفهام الوارد في قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغي هو: تنبيه القوم لما هم عليه من ضلال، إلى جانب استنكاره وتعجبه من حالهم، لأنّ العاقل يستعجل بالحسنة قبل السيئة، والسفيه يستعجل بالسيئة قبل الحسنة، حيث كان للأداء التنغمي أثره الواضح في إبراز هذا المعنى، وفاعليته في توجيه غرض الاستفهام من المعنى الأصلي، الذي هو الاستخبار، إلى المعنى المجازي والمتمثل في التنبيه، ودليل ذلك أنّ لفظ "لولا" هنا بمعنى "هالاً تستغفرون الله وتعبدون عمّا أنتم عليه من الخطأ والضلال". يقول صاحب "تفسير الكشاف" موضّحاً هذه الدلالة: «ثمّ قال لهم: هالاً تستغفرون الله قبل نزول العذاب لعلكم ترحمون، تنبيهاً لهم

على الخطأ فيما قالوه، وتجهيلاً فيما اعتقدوه»⁽¹⁾.

والآية تُؤدّي بنمط تنغمي مستوٍ صاعد؛ إذ أنّ التنبيه يستدعي أن تكون نغمة الأداء ههنا قوّة، ليتحوّل النمط بعدها إلى تنغم هابطٍ أواخر الآية. والشكل رقم: 64 يوضّح هذا المنحنى:



الشكل رقم: 64

عرفت المقاطع الأولى من الآية تذبذباً واضحاً في الأداء؛ بين الاستواء في النغمة تارة، والعلوّ فيها تارة أخرى، وهذا ما يشير إليه الرقم 1 في الصورة، ليسجّل المنحنى الإيقاعي في نهاية الآية انخفاضاً في مستوى الدرجة الصوتية (انظر رقم 2)، إلى الحدّ الذي بلغت فيها شدّة الصوت أدنى قيمة مسجّلة وهي 50 ديسيبل، وهذه هي علّة غياب المنحنى الأصفر في هذا الموضع، وظهوره في النطاق الذي يمثّل النغمة المستوية الصاعدة، والتي تتناسب والغرض المقصود من الكلام وهو التنبيه عن الخطأ.

نحاول في الجدول أسفله أن نرصد أهمّ القيم التي تمّ التوصل إليها، من خلال قراءة فيزيائية للمنحنيات الظاهرة في الصورة أعلاه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
122.199 هرتز	149.866 هرتز	200.892 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	57.01 ديسيبل	64.66 ديسيبل	شدّة الصوت (Intensity)
8.42 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 46 من سورة النمل

وفي موضع آخر من سورة النمل يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ

خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ [سورة النمل، الآية: 59].

(1)- الزّخشي: تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج20، ص785.

فهزمة الاستفهام هنا فضلا على ما فيها من تهكم وسخرية، فهي أيضا تحمل معنى آخر هو: التنبيه عن الخطأ. يقول "ابن عاشور" مبيّنا ذلك: «والاستفهام مستعمل في الإلجاء وإلزام المخاطب بالإقرار بالحق، وتنبيهه على خطئه...»⁽¹⁾، ويضيف قائلا في السياق ذاته: «ففي هذا الاستفهام عن الأفضل في الخير تنبيه لهم على الخطأ المفرط والجهل المورط، لتنتفح بصائرهم إلى الحق إن أرادوا اهتداء، والمعنى: الله الحقيق بالإلهية، أم ما تشركون معه»⁽²⁾.

تُستهلّ الآية بنغمة مرتفعة موضع الأمر الحقيقي، تليها نغمة مستوية إلى هابطة تناسب ودلالة التقرير والإخبار، وتستمرّ على هذا الحال إلى غاية لفظ (أَصْطَفَيْتَ)، لتشهد بعد ذلك ارتفاعا خاطفا وسريعا موضع الاستفهام لا يلبث طويلا، حيث يسجّل المنحنى مرّة أخرى اعتدالا في الدرجة الصوتية، تتدرّج نحو الهبوط شيئا فشيئا إلى آخر مقطع صوتي في الآية.

وقال أيضا في سورة القصص: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قُرُونٍ مِّنْ هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْبَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص، الآية: 78].

إنّ همزة الاستفهام في هذه الآية مثلها مثل سابقتها، لا يُقصد منها طلب الفهم، أي أنّها خرجت عن معناها الأصلي إلى معنى بلاغي هو: التنبيه عن الخطأ، إلى جانب ما فيها من تعجيب وتوبيخ لقارون، على اغتراره بقوّته وكثرة ماله، وهو يعلم جيّدا أنّ الله قد أهلك قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنا، وأشدّ مالا؟! فكيف إذا يستمرّ على خطئته واغتراره، يقول "أبو حيّان الأندلسي" في تفسير الآية، موضّحا خروج الاستفهام فيها إلى هذا الغرض: «تقرير علمه بذلك، وتنبيهه عن خطئه في اغتراره؛ أي قد علم أنّ الله قد أهلك من القرون من قبله من هو أقوى منه وأغنى، لأنّه قد قرأه في التوراة، وأخبر به موسى، وسمعه في التواريخ، كأنّه قيل: أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم؟ هذا حتّى لا يغترّ بكثرة ماله وقوّته...»⁽³⁾.

وهذه الآية هي الأخرى تُستهلّ بنغمة مستوية هابطة، تشمل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾، لتتحوّل بعد ذلك إلى نغمة عالية، تمتدّ إلى لفظ (جَمْعًا)، تعود إلى الانخفاض بعدها إلى غاية المقطع الختامي من الآية.

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج20، ص9.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

(3) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج8، ص326.

• الاستفهام للتحدي والتعجيز: وذلك حينما يكون ظاهر التركيب استفهاما، والمعنى الباطني يدل على التحدي والتعجيز، نحو قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 72]. إنَّ الأداء كما هو معلوم من بين القرائن التي تُستغلّ في توجيه أغراض التركيب اللغوية، وهذا ممَّا لا يختلف فيه اثنان، فالاستفهام مثلا إذا كان حقيقيا يُؤدّي بطريقة تجعل السامع/ المتلقّي يشعر بأنّ المتكلّم إمّا يريد من خلاله إجابة أو لا، وإذا كان مجازيا فإنّ المنحنى النغمي يتغيّر وفق الغرض الذي يقصده المتكلّم من خلال كلامه وأدائه، ولعلّ هذا ما يتكرّر أيضا مع أداة الاستفهام "هل" الواردة في الآية أعلاه، إذ تُقرأ مع باقي المقاطع الصوتية التي تليها بنغمة هابطة مستقلة، توحى بأنّ الاستفهام هنا لا يُراد به طلب الفهم، ولو كان كذلك لعرف التركيب أداء صاعدا، وإمّا يُقصد به معنى إضافي آخر هو: التحدي والتعجيز، إلى جانب ما في الآية من إنكار واستهزاء، يقول "ابن عثيمين": «هل للاستفهام المراد به الإنكار مع التحدي، يعني يتحدّاهم، يقول: هذه الأصنام التي تعبدونها وتسألونها الحوائج، هل يسمعونكم إذ تدعون؟ والجواب: لا».⁽¹⁾

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 71]. حوت الآية الكريمة على نغمتين: الأولى مستوية؛ شملت المقاطع الخمسة الأولى التي يُمثّلها لفظ {وَيَقُولُونَ} ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح {التي يستهلّ بها نصّ الآية أعلاه، والثانية نغمة هابطة (المدى النسبي الهابط) إلى نهاية الآية؛ أي شاملة باقي مقاطع الآية، هذا إذا أراد القارئ أن يُبرز معنى التعجيز، أمّا إذا أراد إبراز معنى الاستبعاد، فإنّ النطاق النغمي الذي تمثّله النغمة الهابطة، ستعرف فيه النغمة ارتفاعا ملحوظا، لكون الأداة "متى" التي تتصدّر الشطر الأوّل من الآية لم تُوضع هنا للاستفهام عن الزمن، بل هي للاستبعاد. يقول صاحب تفسير "المحرز الوجيز" في بيان ما في الآية من تعجيز: «على معنى التعجيز للواعد به، فأمر تعالى نبيّه أن يتوعّدهم بأنّه عسى أن يأذن الله في أن يقربّ منهم بعض ما استعجلوه من الساعة والعذاب».⁽²⁾ أمّا في سورة القصص فيقول عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 65].

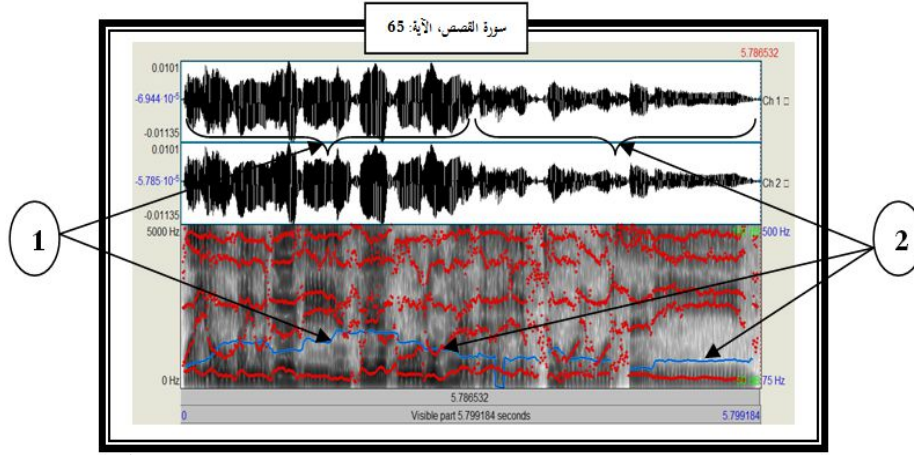
لقد حملت أداة الاستفهام (ماذا) في هذه الآية المعنى ذاته التي حملته أداتي {هل، متى} في الآيتين السابقتين، فهي هنا ليست للسؤال عن غير العاقل، بل للتعجيز والتحدي أيضا، أو بعبارة أكثر دقة يمكن القول: إنّ القوّة الإنجازية للصيغة التركيبية لنصّ الآية، مخالفة تماما لما يريده المتكلّم، وذلك راجع أساسا لعدم وجود تطابق

(1)- ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء، ص154.

(2)- ابن عطية الأندلسي: المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج4، ص269.

بين حرفية الكلام، وما يستلزمه هذا الأخير من معنى. يقول "الشعراوي" في معرض حديثه عن الآية: «وهذا الاستفهام للتعجيز، لأنهم إن حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون...»⁽¹⁾.

لذا يمكن أن نقسم الآية الكريمة من الناحية الأدائية إلى قسمين: فأما الأول فتمثله النعمة التقريرية المستوية، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾ ، بينما تمثل القسم الثاني نعمة التعجيز الهابطة، أي عند قوله: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾. ويمكن توضيح هذا المسار التنغمي من خلال الشكل أسفله:



الشكل رقم: 65

يمثل الرقم 1 مجال نعمة التقرير المستوية، ودليل استوائها وليس علوّها الغياب التام لمنحنى الشدّة (المنحنى الأصفر)، ولو كانت النعمة صاعدة لبرزت تموجات المنحنى الأصفر، أما الرقم 2 فيمثل نعمة التعجيز الهابطة. وسنورد في هذا الجدول النتائج التي تُظهرها الصورة أعلاه على شكل أرقام:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم
76.233 هرتز	160.444 هرتز	225.836 هرتز	الخصائص الفيزيائية الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
5.80 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 65 من سورة القصص

● **الاستفهام للتعجّب:** هو استفهام يتعلّق بأمر غير مفهوم عند المتكلّم مثل كلّ استفهام، لكنّه يتجاوز ذلك إلى حدّ الإلغاز، ويختلف عن سائر معاني الاستفهام القريبة منه كالحيرة مثلا من حيث المقصد، إذ القصد فيه إلى بيان الاستغراب، ويجري هذا الاستفهام عادة بعد حصول الظاهرة موطن التعجّب.⁽²⁾

(1)- الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، مج 17، ص 10989.

(2)- الأزهر الزناد: دروس البلاغة العربية- نحو رؤية جديدة، ص 114.

قليلة هي مواطن التعجّب الخالص في سور الطواسين، فعادة ما يجيء هذا الأسلوب ممزوجا بمعاني تشاركه وتقاسمه التركيب، كالإنكار والتوبيخ والتهديد والاستهزاء وغيرها.

ومن هذه المواضع قول المولى عزّ وجلّ في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ آلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 25].

فواضح أنّ الاستفهام هنا ليس لطلب الفهم، إذ كان للتنغيم فاعليته في توجيه الغرض، وأثره في بيان المعنى المقصود من الآية، وهو استهزاء فرعون بموسى ^{عليه السلام}، وتعجّبه من إجابة هذا الأخير، فهزمة الاستفهام في الآية - كما أسلفنا - هي للتهكّم والتعجّب أيضا، يقول "عبد الرحمن الثعالبي" (ت: 875هـ) موضّحا هذا المعنى: «على معنى الإغراء والتعجّب من شناعة المقالة، إذ كانت عقيدة القوم أنّ فرعون ربّهم ومعبودهم، والفراغنة قبله كذلك، فزاده موسى في البيان بقوله: "ربّكم وربّ آبائكم الأولين"»⁽¹⁾.

بناء على هذا المعنى، قد يختلف القراء في أداء الجزء الحامل لهذا الغرض من الناحية التنغيمية، حيث تبدأ الآية في كلتي الحالتين بنغمة تقريرية مستوية، تليها نغمة هابطة موضع الاستفهام إذا قصد من طبيعة الأداء بيان معنى التهكّم، أو نغمة صاعدة إلى غاية المقطع الختامي من الآية على سبيل إظهار دلالة التعجّب، كلّ ذلك يتوقّف بطبيعة الحال على شكل التنغيم وغطه، يقول "مزامح مطر حسن" في بيان الحالة الثانية: «ومن الطّبيعي أن تكون نغمة التعجّب هنا نغمة مرتفعة صاعدة، يرتقي فيها الصوت ليعبر عن امتلاء النّفس عجبا من هذا الصنيع...»⁽²⁾.

وفي أواخر هذه السورة يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 205].

نصّ الآية تعجّب من أولئك الذين يستعجلون العذاب، وهم لم يُجَهّزوا أنفسهم لدفعه عنهم، نظرا لكفرهم وكثرة معاصيهم، فماذا لو أمهلهم الخالق عزّ وجلّ عدّة سنين أخرى، يتمتّعون بها في الحياة الدنيا، فهل سيفيدهم هذا الإمهال لاستدراك ما فاتهم، والعمل على تصحيح أخطائهم، والرجوع إلى جادة الصواب!؟

إدّا، فهزمة (أَفَرَأَيْتَ) ليست للسؤال، بل هي للتعجّب من حال هذه الفئة الغافلة. يقول "الألوسي" في بيان معنى الآية: «تعجّبا من حالهم مترّبا على الاستهزاء والاستعجال»⁽³⁾.

إنّ الآية تُقرأ كلّها بتنغيم صاعد مرتفع، تعجّبا من حال هؤلاء القوم، واستنكارا لاستعجالهم العذاب دون الرحمة.

(1) - عبد الرحمن الثعالبي: تفسير الثعالبي المسمّى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج4، ص226.

(2) - مزامح مطر حسن: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، ص44.

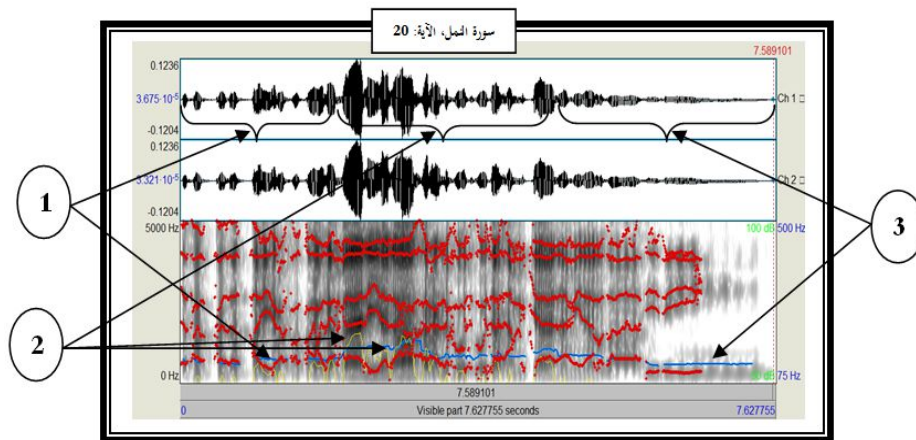
(3) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج19، ص131.

ولعلّ من أبرز مواطن التعجّب في سور الطواسين قول المولى عزّ وجلّ: ﴿وَتَقَدَّ الظِّيرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى
أَلْهَدْهُدًا مَكَانَ مِنَ الْعَائِبِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 20].

فقوله: ﴿مَا لِي لَا أَرَى أَلْهَدْهُدًا﴾ عبارة عن استفهام، ولكنّه ليس على حقيقته، بل هو للتعجّب؛ إذ كان
للتنغم أيضا فضلا في تحديد هذه الدلالة، وكأنّ سليمان يقول متعجّبا ومستغربا: «أعاب عني الهدهد الآن فلم
أره حين تفقدته، أم كان قد غاب من قبل ولم أشعر بغيبته».⁽¹⁾

يمكن تقسيم الآية السابقة إلى ثلاثة أقسام تنغيمية، فأما القسم الأوّل فيُتلى بنغمة تقريرية مستوية، تشمل
قوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَقَدَّ الظِّيرَ فَقَالَ﴾، وأما الثاني، فيتمّ تأديته بنغمة تعجّبية صاعدة تشمل قوله تعالى: ﴿مَا لِي لَا
أَرَى أَلْهَدْهُدًا﴾ ف «المناسب لهذا المعنى أن تكون نغمة الأداء مرتفعة صاعدة، لتؤدّي إلى إيصال معنى
التعجّب...».⁽²⁾، لينخفض بعدها منحنى الرفع قليلا، وبهذا يتميّز القسم الثالث بنغمة أقلّ نسبيا من مستوى
النغمة التي تسبقها، فلا هي بصاعدة ولا هي بمستوية.

ونقدّم فيما يلي رسما توضيحيا لهذه الآية، نحاول من خلاله إبراز المنحنى الإيقاعي لنموذجٍ من الاستفهام
التعجّبي، كما يوضّحه الشكل رقم: 66



الشكل رقم: 66

يمثّل الرسم أعلاه مخطّط الموجات الصوتية لمقاطع الآية 20 من سورة النمل محمّلا بالخصائص الفيزيائية
المختلفة، والتي من شأنها أن تعرض لنا النمط اللحني لسلسلة النغمات التي ميّزت أداء هذه الآية، حيث يشير
الرقم 1 إلى النطاق النغمي لنغمة التقرير المستوية، والتي بها استهلّ القارئ في تأديته لمقاطع الآية، أمّا الرقم 2
فيشير إلى نغمة الاستفهام التعجّبي وهي نغمة صاعدة كما يوضّحها الرسم، بينما يشير الرقم 3 إلى نطاق النغمة

(1)- المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج19، ص85.

(2)- مزاحم مطر حسن: "أثر التنغم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، ص44.

المهابطة والتي فيها تمطيط لآخر مقطع في كلمة "الغائبين".

يرصد لنا هذا الجدول مختلف القيم التي سجّلها الصوت اللغوي في هذه الآية على النحو الآتي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
121.483 هرتز	142.149 هرتز	189.320 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	57.26 ديسيل	65.39 ديسيل	شدة الصوت (Intenisy)
7.63 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 20 من سورة النمل

امتدّ الاستفهام التعجّبي إلى ثالث سورة من سور الطواسين وهي سورة القصص، وفيها يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة القصص، الآية: 23].

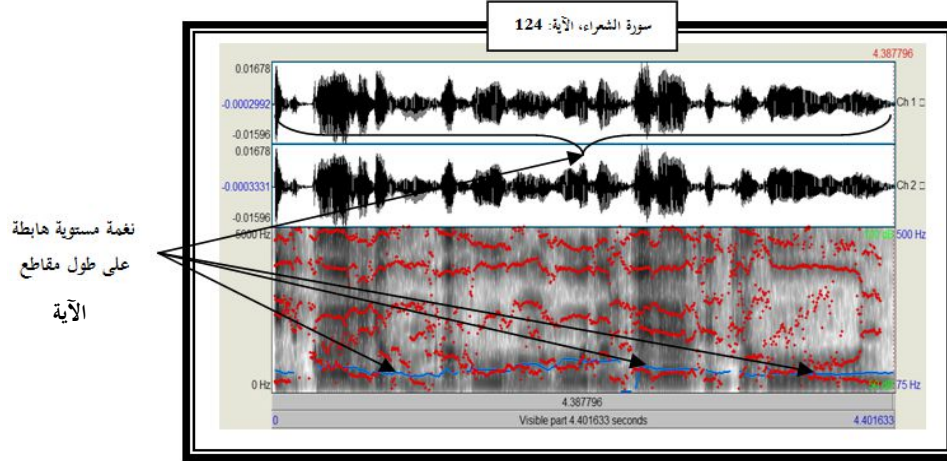
معنى الآية أنّ موسى لما خرج فاراً من مدينة فرعون ووصل إلى مدين بلدة شعيب ^{عليه السلام}، وجد على البئر جمعا كثيفا من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تكفّان غنمهما، وتمنعها عن ورود الماء مع القطيع، فسألها متعجّبا عن سبب المنع، فأجابتا بأنهما يتأنيان حتّى ينصرف الرعاة مع مواشيهم عن الماء، فلم تعد لهما طاقة على مزاحمة الأقوياء، ومخالطة الرجال، خصوصا أنّ أبيهما رجل مسنّ، وهو عاجزٌ على أن يُياشر سقاية الغنم، الأمر الذي جعلهما مضطرتين للسقاية بأنفسهما.

إذاً، فموسى ^{عليه السلام} سأل الفتاتين عن مسألة يجهلها، فهو هنا يريد أن يحصل على جواب، ولكن طريقة سؤاله لا تخلو من نبرة استغرابية، وعليه فإنّ "ما" الاستفهامية ههنا، قد خرجت إلى معنى التعجّب، فهي لا تفيد فقط الاستخبار وطلب الفهم. يقول "الشعراوي" في بيان هذه الدلالة: «وفي الاستفهام هنا معنى التعجّب، يعني: لماذا تمنعان الغنم أن تشرب، وما أتيتما إلّا للسقيا؟!»⁽¹⁾.

والآية كما نلاحظ صيغت في قالب سردي حوارى، وبناء على هذا فإنّ أداءها الصوتي يتباين من جزء إلى آخر، يُؤدّي الجزء الأول منها بنغمة تقريرية مسطّحة، تناسبها لما فيه من السرد، تمتدّ هذه النغمة على طول قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ﴾، تليها نغمة التعجّب الصاعدة في قوله: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، لتعود من جديد النغمة للاستواء عند قوله جلّ وعلا: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، متّجهة نحو التسفّل شيئا فشيئا، دليلا على تمام المعنى.

(1) - الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، مج 17، ص 10903.

التي تُقرأ هي الأخرى بالنمط النغمي نفسه على طول مقاطعها الصوتية؛ أي بنغمة مستوية إلى هابطة. ونقدّم فيما يلي رسماً توضيحياً لنموذج واحد من النماذج المذكورة أعلاه، قصد استبيان المنحنى الإيقاعي للتركيب الذي خرج فيه أسلوب الاستفهام لغرض العرض، على النحو التالي:



الشكل رقم: 67

أما في الجدول التالي فيمكن رصد مختلف القيم الأكوستيكية المستنبطة من هذا التحليل على الشكل التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
77.601 هرتز	129.093 هرتز	162.394 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
4.40 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 124 من سورة الشعراء

• الاستفهام للتحضيض: ومعناه طلب الشيء بحثاً، ومن أدواته {لولا} و{لوما} و{هلاً} بتشديد اللام، و{ألاً} بفتح الهمزة وتشديد اللام، وهذه الأدوات إذا كانت للتحضيض فإنّها تختصّ بالدخول على جملة فعلية فعلها ماضٍ أو مستقبل. فإذا وقع بعد أداة من هذه الأدوات فعل ماضٍ، فإنّ معناها يخرج إلى اللوم والتوبيخ فيما تركه المخاطب، أو يعدّ فيه الترك نحو قولك لمن قصّر في الامتحان: هلاً أعددت للامتحان عدّته؟ ولمن جاء متأخراً: لولا حضّرت مبكراً؟ ولمن تراخى وتباطأ في عمله: ألاّ بدأت عملك؟ ولمن تسرّع في القيام بواجبه فلم يحسنه: لوما تأنيت في أداء واجبك؟ فالتحضيض في كلّ هذه المعاني قد خرج إلى اللوم والتوبيخ، وذلك لوقوع

الفعل الماضي بعد كل أداة تحضيض. (1)

أما إذا وقع المستقبل بعد أي أداة من الأدوات السابقة، فإن معنى التحضيض يخرج إلى الحث في طلب الشيء، كقول المعلم لتلميذه الذي لا يُظهر اجتهادا: لولا تجتهد؟ ولمن لا يصغي إليه أثناء شرح الدرس: لوما تصغي إلي؟ ولمن ينقطع عن المدرسة أحيانا: ألا تواظب على الحضور إلى المدرسة؟ ولمن يقرأ من غير جد: هلا تقرأ خيرا من ذلك؟ فالتحضيض في كل هذه المعاني قد خرج إلى الحث والاستحثاث على الفعل، وذلك لوقوع الفعل المستقبل بعد أدوات التحضيض، ومما ورد من ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ...﴾ [سورة الحجر، الآية: 07]، وفي هذا شاهد على وقوع الفعل المستقبل بعد أداة التحضيض، فأفاد طلب الفعل بحث، وقد خرج الاستفهام هنا إلى معنى الأمر أي: {إيتنا بالملائكة}. (2)

وقد يلي الفعل الماضي أداة التحضيض، فلا يفيد اللوم والتوبيخ، وإنما يفيد الطلب بحث، وذلك لأن الماضي في تأويل الفعل المستقبل، نحو قوله تعالى: ﴿...لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ [سورة المنافقون، الآية: 10]، إذ المعنى: {لولا تؤخرني إلى أجل قريب؟}. (3)

قد تستعمل أداة العرض ألا المفتوحة همزة المخففة اللام للتحضيض، إذا دلّت على طلب الفعل بحث نحو: ﴿الْأَنْفَلَتُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ...﴾ [سورة التوبة، الآية: 13]، وكقولك لمن يخلف الوعد: ألا تنفي بوعدك؟ ولمن يضيع وقته سدى: ألا تملأ وقتك بعمل نافع؟ وهكذا. (4)

يُفهم مما سبق أنّ التحضيض يشترك مع العرض في كون كل واحد منهما طلب، بيد أنّ الأول يكون بحثٍ وشدة، والآخر يكون برفقٍ ولين، فإذا خرج الاستفهام للطلب بلطف كان عرضا، وإذا كان للطلب بالقوة صار تحضيضا. مثال ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَوْلَوْجِئُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 30].

واضح من خلال الأداء الصحيح والسليم لنص هذه الآية أنّ الاستفهام فيها لا يُقصد منه البتة الاستخبار عن شيء مجهول لا يعلمه السائل، بل إنّ همزة الاستفهام الواردة في قوله: ﴿أَوْلَوْجِئُكَ﴾ إنما هي لطلب الشيء بحث؛ أي حثّ موسى عليه السلام بأن يأتي ببرهان صادق يبين صحة رسالته، وأنه مبعوث من رب العالمين.

بغرض إبراز هذا المعنى وجب تأدية قوله تعالى: ﴿أَوْلَوْجِئُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ بنغمة صاعدة، لما فيها من شدة في الطلب، وحثّ بقوة، تكون هاته النغمة مسبوقة بنغمة معتدلة يمثلها لفظ {قَالَ = ص ح ح + ص ح}.

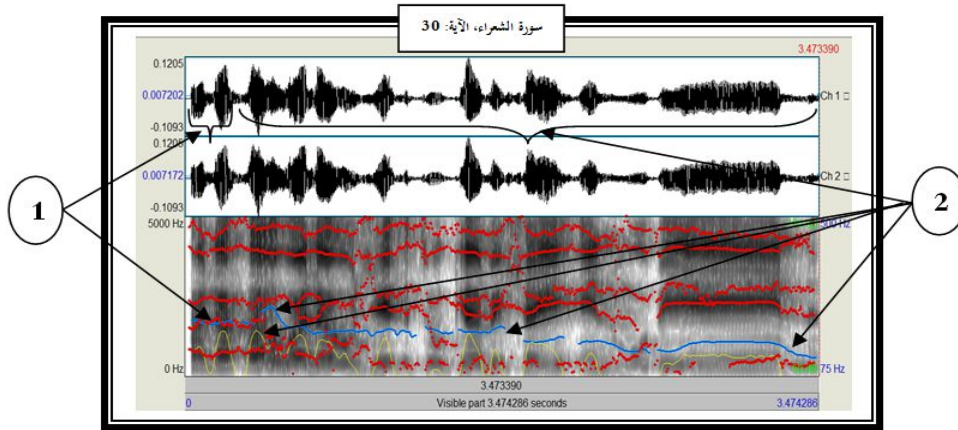
(1)- عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية- علم المعاني، ص 108.

(2)- المرجع نفسه، ص 108-109.

(3)- نفسه، ص 109.

(4)- نفسه، ص ن.

ولتوضيح المنحنى اللحني للآية 30 من سورة الشعراء نورد التمثيل الفيزيائي التالي:



الشكل رقم: 68

يمثل الرقم 1 النغمة المسطّحة التي يُقرأ بها لفظ ﴿قَالَ﴾، تليها نغمة الأداء الصاعدة المشار إلى نطاقها بالرقم 2، والتي بما يُقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَوْ جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ﴾، حيث يعرف هذا النمط انحداراً آخر النطاق، كما هو موضّح في مخطّط الموجات الصوتية أعلى الصورة، وكذا منحنى الدرجة ومنحنى الشدّة أسفل الصورة، أمّا عن أقصى درجة سجّلتها الآية الكريمة، فقد واكبت المقاطع الصوتية الثلاثة التي ورد فيها الاستفهام للتحضيض [أَوْ لَوْ = ص ح + ص ح + ص ح] إذ بلغت 260 هرتز، أمّا عن شدّة الصوت فقد عرفت هي الأخرى أقصى قيمة مسجّلة عند هذا الموضع بالذات، حيث بلغت 64 ديسيبل.

إذاً، وكما هو مبينٌ في الرسم أعلاه فإنّ المنحنى الإيقاعي للآية منحنى متذبذب، يُستهلّ بنغمة مستوية، تليها نغمة عالية، لتشهد هذه الأخيرة انخفاضاً في مستواها نهاية الآية الكريمة. والجدول أسفله يعرض مختلف القيم المستنبطة من هذا التحليل:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
123.592 هرتز	184.793 هرتز	260.563 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	58.37 ديسيبل	64.24 ديسيبل	شدّة الصوت (Intenensity)
3.47 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 30 من سورة الشعراء

وفي موضع آخر يقول المولى جلّ وعلا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 106]،

وقوله أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 142].

إنّ المتعارف عليه أنّ أداة "ألا" بتخفيف اللام هي للعرض، لكنّها قد تخرج في بعض الأحيان إلى التحضيض كما أسلفنا، تماما مثلما هو الحال مع الآيتين المذكورتين، وسواء أكان المعنى الباطني هو للعرض أم للتحضيض، إلا أنّ السياق الظاهري يظلّ محتفظا بأسلوب الاستفهام، لأنّ الطلب هنا يكون من الناحية الصوتية بنبرة استفهامية، لكن لا يُقصد منه البحث عن إجابة، بل لطلب القيام بالفعل بشدّة وعلى وجه الإلزام؛ أي اتّقوا، لذا يختلف قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ من الناحية الأدائية إذا كان للتحضيض من كونه عرضا؛ إذ يُؤدّي هذا الشطر بنغمة عالية، لما في الطلب من قوّة وبذلٍ لطاقةٍ أكبر أثناء الطلب، تكون هذه النغمة مسبقة بأخرى مستوية، تمثّل الشطر الأوّل من الآية. يقول "ابن عثيمين" مشيرا إلى دلالة التحضيض الذي خرج إليها الاستفهام في الآية 106 من سورة الشعراء: «ألا في الأصل تكون للعرض، وهو الطلب برفق، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ﴾ إِيَّاهُ قَالَ أَلَأَنْتَ أَكْبَرُ﴾ [سورة الذاريات، الآية: 27]، ولكن المراد به هنا التحضيض، وهو الطلب ببحث؛ يعني أنّه يحثّهم على أن يتّقوا الله عزّ وجلّ، ويتّخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه»⁽¹⁾.

ويقول "الشعراوي"، في بيان هذه الدلالة في الآية 142 من السورة ذاتها: «ألا تتّقون: إنّها استفهام إنكاري تعني: اتّقوا الله، ففيها حثٌّ وحضٌّ على التقوى، فحين تُنكر النفي، فإنّك تريد الإثبات»⁽²⁾.

• الاستفهام للتكثير:

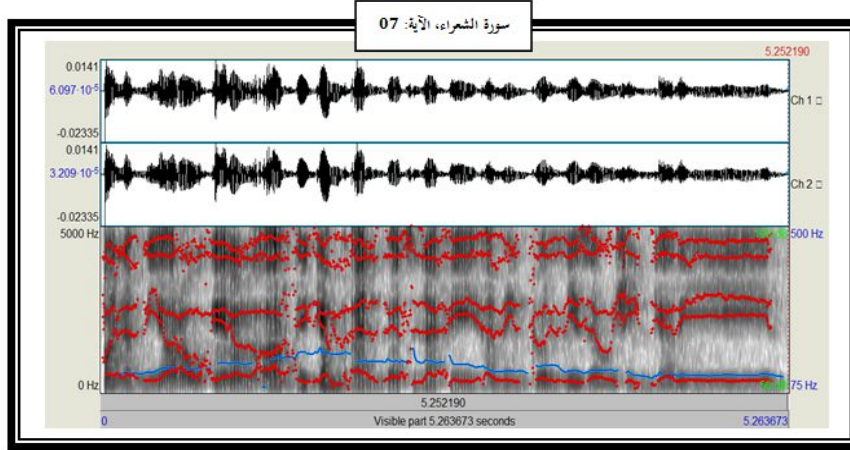
نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَأْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [سورة الشعراء، الآية 07]. ورد الاستفهام في هذه الآية عند موضعين، وفي كليهما خرج عن معناه الحقيقي، إذ دلّت "همزة" الاستفهام فيها على معنى ضرورة التأمل ووجوب التمعّن في خلق الله تعالى، ودلّت "كم" الاستفهامية ههنا على معنى الكثرة. يقول "الشعراوي": «كم خبرية تفيد الكثرة، جاءت بصيغة الاستفهام للتقرير، كما تقول لصاحبك: كم أحسنتُ إليك، بدل أن تُعدّد مظاهر إحسانك إليه، فتسأله لأنّك واثق أنّ الإجابة في صالحك، فالكلام بالإخبار دَعَوَى منك، لكن الإجابة على سؤال إقرارٍ منه، فالمعنى: أنّ نبات الأرض كثيرٌ يفوق الحصر»⁽³⁾.

وبما أنّ دلالاتي التمعّن والكثرة جاءتا في قالب تقريريّ إخباريّ، فإنّ الآية تُؤدّي على مستوى كلّ مقاطعها الصوتية بنغمة واحدة، هي: النغمة المستوية الهابطة. والشكل رقم: 69 يوضّح طبيعة المنحنى الإيقاعي للآية:

(1)- ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء، ص189.

(2)- الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، مج17، ص10646.

(3)- المرجع نفسه، ص10541.



الشكل رقم: 69

هذا، ويمكن ترجمة نتائج التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في هذه الآية على شكل أرقام كما

يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
89.743 هرتز	134.919 هرتز	192.720 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
5.26 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 07 من سورة الشعراء

وقال تعالى: ﴿وَكُرْ أَهْلَكَ تَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَلِكُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ

أَلْوَارِيثِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 58].

"كم" هنا استفهامية، ولكن لا يُقصد بها السؤال عن العدد، بل خرجت إلى معنى الكثرة، يقول "الألوسي" في سياق توضيحه لهذه الدلالة: «أي وكثيرا من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش والدعة، حتى بطروا واغترّوا ولم يقوموا بحق النعمة، فدمرنا عليهم وحرّينا ديارهم».⁽¹⁾

ولمّا صيغت هذه الدلالة في قالب إخباري تقريبي، فإنّها تُقرأ من الناحية الصوتية بنمط يستدعي غرض الكثرة، وهو التنغيم المستوي الهابط يشمل كلّ مقاطع الآية.

• الاستفهام للتعظيم: وذلك بالخروج بالاستفهام عن معناه الأصلي، واستخدامه في الدلالة على ما يتحلّى

به المسؤول عنه من صفات حميدة كالشجاعة والكرم والسيادة والملك وما أشبه ذلك. ومن أمثله:

(1) - الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج20، ص98.

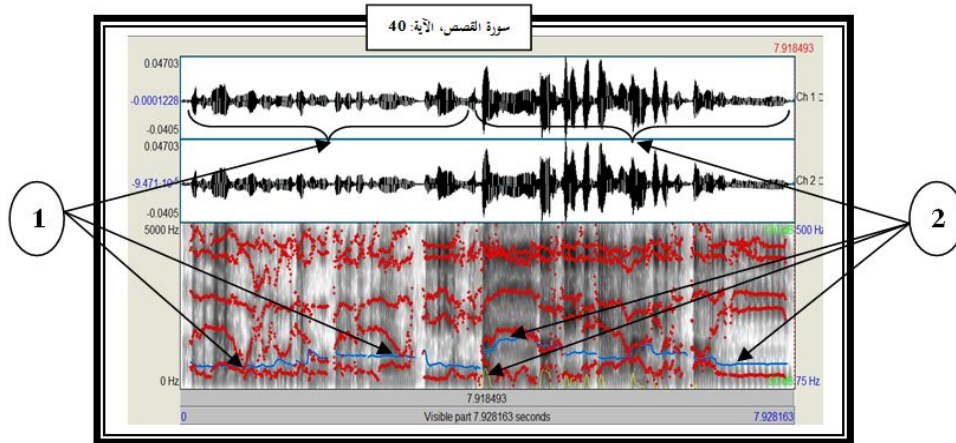
مَنْ فِيكُمْ الْمَلِكُ الْمُطَاعُ كَأَنَّهُ ﴿٤٠﴾ تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبَعِّ فِي حَمِيرٍ؟⁽¹⁾

يعدّ خروج أسلوب الاستفهام إلى غرض التعظيم من باب مخالفة ظاهر اللفظ لمعناه، ومما لا شكّ في ذلك أنّ للتنغيم فاعلية قصوى في إثبات هذا التوجيه الدلالي وتقريره، ولعلّ من مواضع هذا العدول في سور الطواسين قوله عزّ وجلّ في سورة القصص: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 40].

إنّ الناظر للآية الكريمة يتبيّن له من الوهلة الأولى أنّ التركيب إنشائي بامتياز، لاجتماع أسلوب الأمر فيه مع الاستفهام، لكن بعد التمعّن والتدقيق أكثر، وتقليب الآية في أذهاننا، يتّضح لنا أنّ أداة الاستفهام الواردة فيها ليس للسؤال عن الحال، بقدر ما هي تعظيما للعقوبة التي ستقع على فرعون وجنوده، وأكد كان للأداء التنغمي إلى جانب السياقات وقرائن الأحوال الأخرى دخلا في إبراز هذه الدلالة الإضافية. يقول "ابن عثيمين" موضّحا هذا التوجيه الدلالي للغرض: «وكيف هنا للاستفهام، والمراد به التعظيم؛ يعني: عِظْمُ العاقبة، لكن لا تعظيم الرفة، بل تعظيم العقوبة، فهو تفخيم لها، وتعظيم للعاقبة الوحيمة السيئة للغاية...»⁽²⁾.

التعظيم كما رأينا في السابق من مواضع الرفع في الأداء، فإبرازه يحتاج إلى بذل جهد أكبر في النطق، وإلى قوّة وعلو في الصوت، وقياسا على هذا فإنّ الآية تُستهلّ بتنغيم مستوٍ يشمل قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾، يتبعه تنغيم صاعد يشمل الأمر الخارج لمعنى التهديد والاعتبار، وكذا موضع الاستفهام للتعظيم، ليشهد المنحنى الصاعد انخفاضاً محسوساً أواخر مقاطع الآية، محلّ الوقف وتمام المعنى.

وللتوضيح أكثر نقدّم الشكل رقم: 69، الذي يبيّن منحنى الأداء في هذه الآية على النحو الآتي:



الشكل رقم: 69

(1) - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 99.

(2) - ابن عثيمين: تفسير القرآن الكريم - سورة القصص، ص 195.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يشير الرقم 1 في الشكل أعلاه إلى نطاق النغمة المستوية، أما الرقم 2 فيشير إلى نطاق النغمة الصاعدة الهابطة أين موضع الاستفهام للتعظيم، حيث وصلت أقصى درجة سجلها الصوت اللغوي في هذا النطاق 219.861 هرتز، أما عن بقية القيم فهي موضحة في الجدول أسفله:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
125.196 هرتز	154.391 هرتز	219.861 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	53.56 ديسيل	56.13 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
7.93 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 40 من سورة القصص

• **الاستفهام للتحقير:** عندما يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على ضالة المسؤول عنه وصغر شأنه مع معرفة المتكلم أو السائل به، نحو: {من هذا؟}، والعلاقة أنّ المحتقر من شأنه أن يجهل بعدم الاهتمام به فيسأل عنه، والاحتقار فيه إظهار حقارة المخاطب، وإظهار اعتقاد صغره، ولذا يصحّ في غير العاقل نحو: {ما هذا؟}، أي هو شيء حقير قليل. ومما ورد منه في القرآن قوله تعالى على لسان الكفار: ﴿...أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: 41].⁽¹⁾

إذًا، فالتحقير من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، حينما لا تكون هناك مطابقة تامة بين ما يقتضيه المعنى الحرفي للبنية اللغوية السطحية، وغرض العبارة التلقظية، ولعلّ من مواضع هذا العدول الدلالي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 70].

الاستفهام هنا خرج إلى معنى التحقير للدلالة على ضالة المسؤول عنه (الأصنام)، وصغر شأنه مع معرفة المتكلم أو السائل (إبراهيم عليه السلام) به، وذلك ليبيّن لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع أو يضرّ، وحتى يقيم عليهم الحجّة «فإبراهيم لا يجهل عبادة قومه، فهو يقصد من سؤاله إنكار وتحقير عبادتهم، فجاء بالاستفهام ليكون التأثير أقوى، وإن كان المعنى الحقيقي لا يتقاطع مع المعنى المجازي، فهو أي المعنى الحقيقي؛ الجسر الذي يوصل المتلقّي للمعنى المجازي المقصود».⁽²⁾

في إطار تفسيره للآية يشير "أبو حيان" إلى خروج "ما" الاستفهامية من دلالة طلب الفهم إلى دلالة التحقير قائلاً: «و"ما" استفهام بمعنى التحقير والتقرير، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنّهم عبدة أصنام، ولكن سألهم

(1) - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 100.

(2) - سعد محمد على التميمي: الانفتاح الدلالي في سورة الشعراء (دراسة بلاغية تحليلية)، كلية التربية، قسم اللغة العربية، الجامعة المستنصرية، العراق،

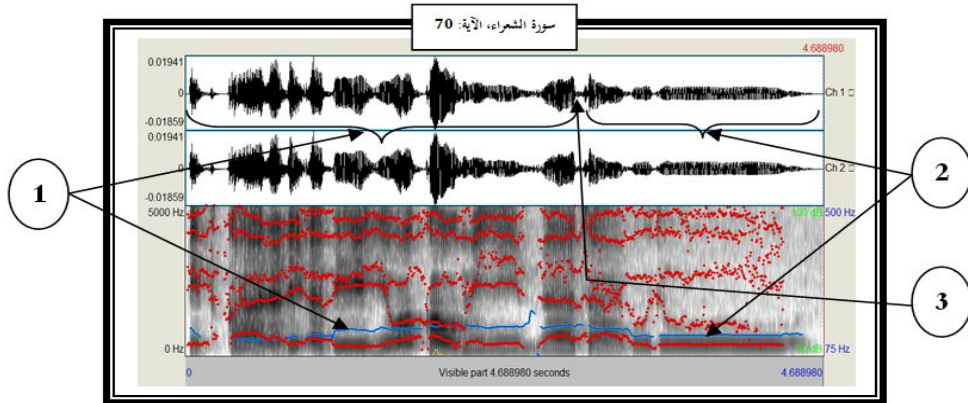
الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

ليوربهم أنّ ما كانوا يعبدونه ليس مستحقًا للعبادة، لما ترتّب على جوابهم من أوصاف معبوداتهم التي هي منافية للعبادة...»⁽¹⁾.

هذا، ولا سبيل للوصول إلى سياق الاستفهام التحقيري، إلّا عن طريق إضفاء نعمة هابطة ذات مدى نغمي نسبي هابط، على عبارة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، وبتوقيع نبرة على مقطعها الأول الذي يشكّل ههنا قَمّة الإسماع {ما= ص ح ح}، حتّى يتبيّن غرض الاستفهام، الذي هو: التحقير.

الحقيقة أنّ خطاب إبراهيم عليه السلام في هذه الآية، فيه كما أشرنا تحقير للمعبود (الأصنام)، وتسفيه للعابد (أبوه وقومه)، وهذا ناتج أساسا من إنكار قومه ومعهم والده لربوبية الله، وعبادتهم الأصنام بدلا من عبادتهم للخالق عزّ وجلّ، وفي مثل هذا الصنيع كفر وجرأة على المولى جلّ وعلا، لذا تُؤدّي الآية بنغمتين؛ الأولى: تقريرية مسطّحة عند قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِمْ﴾، تلي آخر مقطع صوتي في هذا التركيب سكتة خفيفة دالة على عدم تمام معنى الكلام المراد، والثانية: هابطة في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ موضع الوقف وتمازج الدلالة المقصودة؛ إذ «تُسعمل النعمة الهابطة في الجمل التي هي من قبيل المفتريات على الله أو رسله مثلا»⁽²⁾.

من أجل توضيح الفكرة أكثر نقدّم الشكل التالي، الذي يبرز المنحنى الإيقاعي للاستفهام التحقيري في هذه الآية:



الشكل رقم: 70

يمثّل الرقم 1 في هذه الصورة منحنى النغمة المستوية، أمّا الرقم 2 فيشير إلى منحنى النغمة الهابطة، يفصل بين نمطي التنغيم الأول والثاني سكتة خفيفة وهي المشار إليها بالرقم 3. ممّا يعني أنّ المنحنى الإيقاعي للآية لم يشهد في موضع من مواضعه أيّ علوٍّ موسيقي، دليل ذلك الغياب

(1) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج8، ص162.

(2) - أحمد البايبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج1، ص297.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

شبه التام لمنحنى الشدّة (المنحنى الأصفر) الذي يوحي بعدم وجود طاقة صوتية أو جهد عضلي مبدول، وما يؤكّد هذا الكلام أكثر الأرقام التي سنعرضها في الجدول أسفله.

نقدّم في الجدول التالي نتائج التحليل الفيزيائي كما تُظهرها صورة الموجات الصوتية، وما يصاحبها من خصائص أكوستيكية على هذا النحو:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
78.976 هرتز	146.646 هرتز	202.759 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	50.46 ديسيل	52.08 ديسيل	شدّة الصوت (Intenensity)
4.69 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 70 من سورة الشعراء

قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون﴾ [سورة القصص، الآية: 62].

يلعب الأداء دوراً هاماً في إبراز الوظيفة التي تقوم بها أداة الاستفهام "أين" على مستوى الآية الكريمة، فهو الذي يوجّه غرضها من الاستفهام إلى معنى آخر، فالسؤال هنا ليس عن مكان الشركاء حقيقة، وإنما هو للتحقير، إلى جانب ما في الآية من إنكار وتوبيخ طبعاً.

فالآية أعلاه تحدّثنا عن أولئك الكفرة الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره، وهذا تقوّل على الله وافتراء عليه. يقول "المراغي" في بيان دلالة "أين": «وهذا السؤال للإهانة والتحقير، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون».⁽¹⁾

والتحقير من الناحية الصوتية يناسبه - كما رأينا - خفضٌ في الصوت وتسفيلٌ فيه، لأنّه ناتج إمّا عن تكذيب أو إبطال لحقيقة، عادة ما يكون الفرد أو القوم على يقين أنّهم على خطأ وضلال تجاهها، لكن يدفعهم إلى ذلك إصرارهم على الافتراء والإنكار بدون وجه حقّ، «فمثل هذه الآيات فيها جرأة على الله وتقوّل عليه، وكفرٌ وتحذُّ، أو افتراء عليه، لذا فهي تُؤدّي على مستويات الصوت بصوت خفيض تسفيها لقائلها وتعظيمها لله واستحياء منه؛ إذ المفتريات ينبغي أن تُقرأ بالإخفاء والترقيق، وهي من الملامح الموازية للخفض».⁽²⁾

بناءً على ما قيل تُفتتح هذه الآية بنغمة مستوية تشمل قوله: ﴿وَيَوْمَ يناديهم فيقول﴾، تليها نغمة مستوية هابطة موضع التحقير والتسفيه؛ أي عند قوله: ﴿أين شركاءي الذين كنتم تزعمون﴾.

(1) - المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 20، ص 149.

(2) - أحمد البايي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 297.

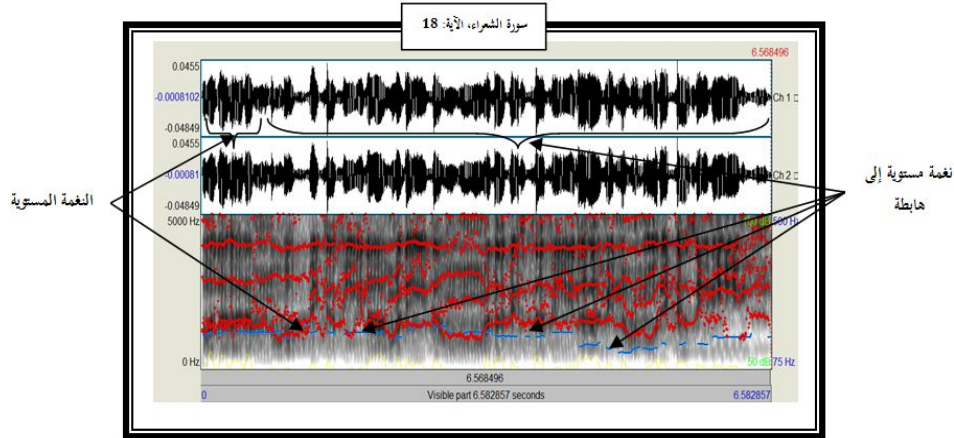
• الاستفهام للاحتقار:

نحو قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿قَالَ الرَّكُّونُ رَبُّكَ رَبُّنَا وَرَبُّكَ رَبُّنَا وَلَبِئْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِينِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 18].

هذا الخطاب خطاب فرعون، وفيه احتقار لموسى ~~عليه السلام~~، فهمزة الاستفهام في الآية خرجت عن معناها الأصلي إلى معنى بلاغي غير طلب الفهم وهو: الاحتقار. يقول "الثعالبي" في هذا الصدد: «هو على جهة المرّ عليه والاحتقار؛ أي ربّيناك صغيراً، ولم نقتلك في جملة من قتلنا».⁽¹⁾

ويضيف "الصابوني" في السياق ذاته مؤكّداً هذا المعنى قائلاً: «في الكلام حذف يدلّ على المعنى تقديره: فأتيناها فبلّغناه الرسالة، فقال فرعون لموسى عندئذ: ألم نربّك في منازلنا صبيّاً صغيراً؟ قصّد فرعون بهذا الكلام المرّ على موسى والاحتقار له، كأنّه يقول: ألسنت أنت الذي ربّيناك صغيراً وأحسنّا إليك، فمتى كان هذا الأمر الذي تدّعيه؟».⁽²⁾

إنّ الاحتقار مثله مثل التحقير في الأداء، يحتاج إلى صوت خفيض ليدلّ عليه، لأنّ في كليهما خطأ وإنقاصاً من قيمة المعنى بالتحقير أو الاحتقار، لذا تُستهلّ الآية بنغمة معتدلة تخصّ المقطعين الصوتيين المشكّلين لكلمة {قَالَ = ص ح ح + ص ح}، تتبعها نغمة مستوية إلى هابطة تشمل باقي مقاطع الآية الكريمة. (انظر الشكل رقم: 71):



الشكل رقم: 71

أمّا فيما يخصّ نتائج التحليل، فيلخصها الجدول أسفله:

(1)- عبد الرحمن الثعالبي: تفسير الثعالبي المسمّى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج4، ص225.

(2)- الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص345.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
119.576 هرتز	174.879 هرتز	201.539 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	52.31 ديسيل	55.39 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
6.58 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 18 من سورة الشعراء

- الاستفهام للتحسّر: هو استفهام يعبر به صاحبه عن حسرته، ويتعلّق عادة بأمر مستحيل التحقق، ويستبطن شعورا بالأسى والغلب.⁽¹⁾

مثاله قول المولى عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 203]. إنّ للتنغم دورا جوهريا في تحديد المعنى الذي خرجت إليه الأداة "هل" في الآية، ليس هذا فحسب، بل حتّى لملامح الوجه وتقاسيمه أثناء تلاوة الآية، يقفان فيصلا في بيان الدلالة المقصودة والغرض المراد منها، فكلّ هذه العوامل تتفاعل مع بعضها البعض، لتؤكد بأنّ المعنى المرغوب من العبارة هو ما تستلزمه ألفاظها، وليس المعنى الحرفي الظاهر. فهل هنا ليست للاستفهام، بقدر ما هي لإظهار الحسرة والندم على ما فات، وتميّي هؤلاء الإمهال والعودة للعالم من أجل طاعة الله والقيام بالأعمال الصالحة، لعلّها تُنجيهم من عذاب يوم القيامة، بعد أن كانوا يستبعدونه وينكرون وجوده. يقول "أبو حيّان الأندلسي" مشيرا إلى هذه الدلالة: «وهذا على جهة التميّي منهم والرغبة، حيث لا تنفع الرغبة».⁽²⁾

ويفضّل بدوره "المراغي" في تبيان الدلالة المقصودة في معرض تفسيره للآية قائلا: «أي فيقولوا على وجه الحسرة والأسف والتمّي للإمهال، ليتداركوا ما فرطوا فيه: هل نُؤخَّر إلى حين؟ كما يستغيث المرء حين تعذّر الخلاص، وهم يعلمون إذ ذاك أنّه لا رجعة لهم، لكنهم يذكرون ذلك استرواحا».⁽³⁾

معلوم أنّ الآية جاءت شكلا جملة استفهامية، وهذا يستدعي رفعا للصوت، غير أنّ معناها كما ذكرنا مخالفت لظاهرها، وعليه فإنّها تُؤدّي بنغمة مستوية، تليها أخرى هابطة هادئة، وتزمن بطيء، يشوبها جوٌّ من الحزن والأسف، تتناسب مع انقطاع الأمل وإظهار الندم، وهذا المعنى يتواءم والمدى النغمي السلبي الهابط.

الحقيقة أنّ ما يزيد هذا المعنى تمكينا، ما نلاحظه من تمطيط وتطويل في قراءة المقطع الطويل، الذي نُحتم به الآية الكريمة، لوقوع النبر الأوّل عليه، وكأنّ في استطالته وتمديده تطلّعا من المفرط في الظفر بفرصة أخرى، والرغبة

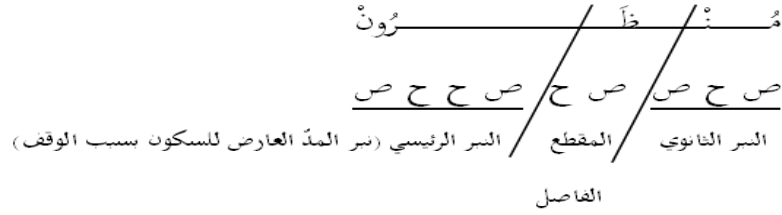
(1) - الأزهري الزناد: دروس البلاغة العربية - نحو رؤية جديدة، ص 113.

(2) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج 8، ص 193.

(3) - المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 19، ص 70.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

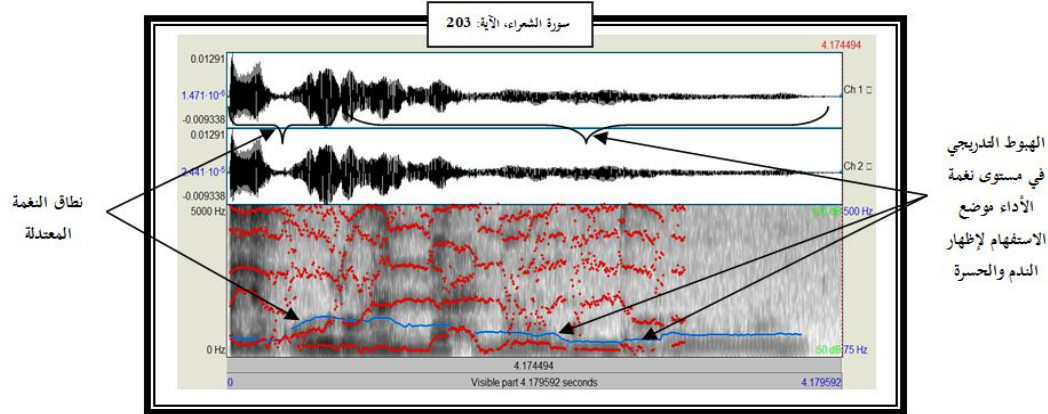
فيها لاستدراك ما فاتته، ومما لا شك فيه أنّ الارتكاز الواقع على المقطع الختامي ظاهرة تطريزية؛ من شأنها أن تعزز الغرض الذي خرج إليه الاستفهام في الآية، وتزيده تثبيتاً في الذهن وترسيخاً في النفس.



إذ يُشكّل النبر الثانوي مع المقطع الذي يفصله عن النبر الأوّل الصيغة التالية:

مقطع متوسط مغلق + مقطع قصير مفتوح

هذا، ويمكن تمثيل ما سقناه فيزيائياً من خلال الشكل التالي:



الشكل رقم: 72

وفيما يلي نتائج التحليل الفيزيائي التي تُظهرها الصورة أعلاه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
113.491 هرتز	137.949 هرتز	188.331 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
4.18 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 203 من سورة الشعراء

- الاستفهام التهكمي: ويقال له أيضاً السخرية والاستهزاء، وهو إظهار عدم المبالاة بالمستهزأ أو المتهكم به ولو كان عظيماً، وقد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على المعنى، نحو قوله تعالى حكاية على الكافرين لشعيب: ﴿قَالُوا يَسْأَلُكَ أَصْلَوكُ أَتَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

أَلْحَيْمُ الرَّشِيدُ ﴿٧٧﴾ [سورة هود، الآية: 87]؛ فالقصد هنا هو الاستخفاف بشأن شعيب في صلاته التي يلازمها، لأنّ شعيب كان كثير الصلاة، وكان قومه إذا رأوه يصلي تضحكوا، فقصّدا بسؤالهم لشعيب الهزء والسخرية والتهمك لا حقيقة الاستفهام. (1)

لعلّ من نماذجه في سور الطواسين قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 25].

احتوت الآية على ثلاثة عشر مقطعا صوتيا، تُقرأ المقاطع السبعة الأولى منها بنغمة مستوية لما فيها من تقرير، حيث تنتهي هذه بسكتة خفيفة دليلا على عدم تمام الكلام، تتبعها نغمة صاعدة هابطة مع المقاطع الستة الموالية، تناغما مع أسلوب الاستفهام الذي خرج هنا إلى معنى التهكم والتعجب أيضا، إذ كان للأداء الصوتي أثره في إيضاح هذا المعنى وتقريبه، ثم إنّ انخفاض مستوى النغمة في آخر مقطع من مقاطع الآية للدليل على تمام معناها واكتمال المراد، ومؤشّر ذلك قرينة الوقف التي تقابل النقطة كتابة.

يقول "الرازي" مفسّرا الآية ومبيّنا الغرض الذي خرج إليه أسلوب الاستفهام: «أي قال فرعون لمن حوله من أشرف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء: ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته...». (2)

كما امتزج غرض التهكم بمعنى آخر هو التعجب، وهذا ما تحدّث عنه "الصابوني" حين قال: «وإنّما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى، يعني أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية...». (3)

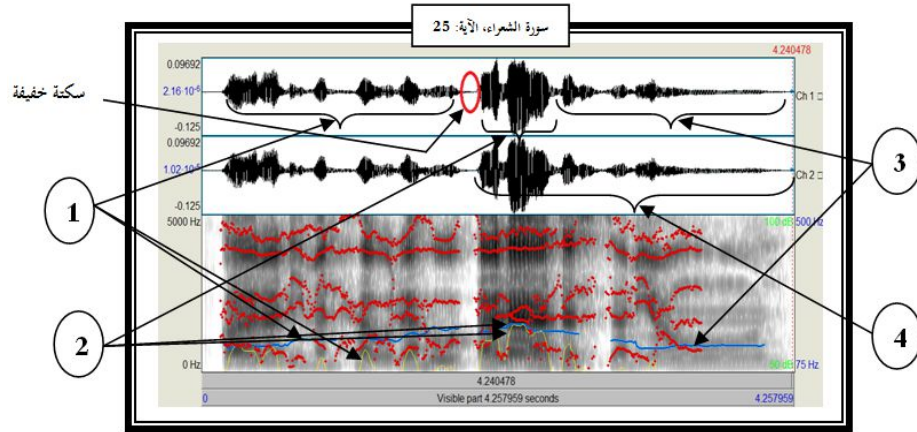
ومّا لا شكّ فيه أنّ نبر المدّ العارض للسكون في هذه الآية، يقف جنبا إلى جنب مع التنغم في بيان المعنى المقصود، يبرز ذلك أثناء استطالة القراءة بلفظ (تَسْتَمِعُونَ)، والارتكاز على المقطع الطويل التي تُختم به الآية.

ويمكن توضيح ما ذكرناه من خلال الشكل رقم: 73

(1) - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 104.

(2) - الرازي: تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ج 24، ص 128.

(3) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ص 346.



الشكل رقم: 73

تمثل الأرقام الأربعة في هذه الصورة ما يلي:

- الرقم 1: يشير إلى نطاق النغمة المستوية عند قوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ﴾.
- الرقم 2: يشير إلى موضع الرفع في الأداء؛ أي عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ سَمِعُوا﴾، فعلى الرغم من أنّ السياق تمكّم، وهذا المعنى يحتاج إلى خفض درجة الصوت، إلا أنّ المنحنى اللحني شهد هنا علوا موسيقيا، لأننا لا يمكننا أن نجرد السياق من المعاني الأخرى، التي امتزج معها غرض السخرية في الآية على غرار: الإنكار والتعجب، وهي كلّها دلالات بحاجة إلى قوّة في النطق وجهد في الأداء، لذا ارتفع المنحنى الأزرق وصاحبه في ذلك المنحنى الأصفر، لما في هذا الموضوع من بذل طاقة أكبر مقارنة عمّا قبله أو بعده.
- الرقم 3: يشير إلى النطاق النغمي الذي يمثّل تمطيط آخر كلمة في الآية، واستطالة مقطعها الصوتي الأخير، والذي وقع عليه نبر المدّ للسكون نتيجة الوقف على صوت النون.
- أما الرقم 4 فهو يجمع بين الرقمين 2 و3، حيث يشير إلى النطاق اللحني الذي تمثله النغمة الصاعدة الهابطة ↘.

في الأخير يوضّح الجدول التالي النتائج التي أسفر عليها التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في الآية

25 من سورة الشعراء:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
138.127 هرتز	161.198 هرتز	205.220 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	56.89 ديسيبل	64.73 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
4.26 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 25 من سورة الشعراء

وفي موضع آخر من السورة ذاتها يقول تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 75].

الآية جاءت على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يُخاطب قومه معاتباً أيّاهم، ومستهزئاً بالأصنام التي صنعتها أيديهم وهم عاكفون على عبادتها، فقد كان إبراهيم عليه السلام بينهم، وهو يُدرك جيّداً ماذا كانوا يعبدون، لذا كان سؤاله لهم ليس من أجل البحث عن إجابة، أو ردّ يُشبع رغبته في إيجاد سبب دفعهم إلى عبادة جمادٍ لا ينطق ولا يسمع، ولا ينفع ولا يضرّ، وإنما كان سؤاله ساخرًا تهكمّياً، لعلّ وعسى يفهم العقلاء منهم مقصوده، فيعودوا إلى جادة الصواب، وهذا ما يتّضح جلياً من خلال الأداء السليم للآية الكريمة بنبذة احتقارية، وعليه فإنّ الآية تُثلي على طول شريطها المقطعي بنغمة هابطة. يقول "مزاخم مطر" في هذا الصدد: «وغرض التهكم من أغراض الاستفهام التي يُساعد التنغيم الهابط على إظهارها، لما في هذا الغرض من رغبة عند المتكلّم في إظهار الصور الساخرة، التي تُلائمها تلك النغمة الصوتية الهادئة الهابطة...»⁽¹⁾

أما في سورة النمل فيقول المولى القدير: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 71].

إنّ للأداء الصوتي أو بتعبير أكثر دقّة للتنغيم أهميّة كبرى في تحديد المعنى المرغوب إيصاله في هذه الآية، إذ أنّ أداءها بنمط تنغيبي معيّن، من شأنه أن يستبعد كثيراً من المعاني الأخرى المتربّصة بالمقام، والتي لا تتناسب ولا تتماشى أصلاً مع هذا النمط، فالآية التي بين أيدينا تُقرأ كلّها بنغمة واحدة، هي: النغمة الهابطة، هذا باستثناء المقاطع الخمسة الأولى التي تتصدّرها، والمشكّلة لعبارة: {وَيَقُولُونَ} = ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح، فإنّها تُقرأ بنغمة التقرير المعتدلة، على الرغم من احتواء الآية على أداة الاستفهام "متى"، فكما هو معلوم أنّ الاستفهام من مواضع الرفع، غير أنّ الأداء كان منحدراً، ممّا يعني أنّ قرينة التنغيم قد تدخّلت بطريقة أو بأخرى في تحديد الغرض وتوجيه الأسلوب من الاستخبار إلى الازدراء؛ أي إلغاء عمل أداة الاستفهام؛ فإيقاع الاستفهام من قبل منكري الحساب، قد خرج مجازياً إلى دلالة التهكم، نتيجة شدّة إيغالهم في استبعاد هذا الحدث العظيم، وإنكارهم له عنوة. يقول صاحب "تفسير التحرير والتنوير" مفسراً الآية ومحدّداً الغرض من الاستفهام فيها: «فإنّهم يستعجلون العذاب تهكّماً وتعجيزاً في زعمهم غير قادرين قُدّر نعمة الإمهال»⁽²⁾.

ويضيف "الصابوني" في الإطار نفسه قائلاً: «أي يقولون استهزاء: متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما

(1) - مزاخم مطر حسن: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)"، ص 46.

(2) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 20، ص 28.

تقولون؟ والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين»⁽¹⁾.

• الاستفهام للتمني: وفي التمني يتوجه السؤال إلى ما لا يُعقل⁽²⁾، نحو قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 203].

الظاهر أنّ أداة الاستفهام "هل" الواردة في هذه الآية، أنّه لا يُراد بها الاستخبار عن أمر مجهول لا يعلمه المتحدّث، وإنّما خرجت عن هذا المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي؛ فاللفظ لفظ الاستفهام، والمعنى معنى التمني، وكأنّ تقدير الكلام: فيقولوا ليتنا نُنظر؛ أي مُمهّل حتى نقدّم خيرا ينفعا يوم الحساب. يقول صاحب "تفسير التحرير والتنوير" مبيناً هذه الدلالة: «وهل مستعملة في استفهام مراد به التمني مجازاً، وجيء بعدها بالجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي تمنّوا إنظاراً طويلاً يتمكّنون فيه من الإيمان والعمل الصالح»⁽³⁾.

ولا يذهب "الشنقيطي" (ت: 1393هـ) إلى أبعد من ذلك؛ إذ نلفيه يقول: «لفظة هل هنا يُراد بها التمني، والآية تدلّ على أنّهم تمنّوا التأخير والإنظار، أي: الإمهال...»⁽⁴⁾.

يعدّ التمني في الأداء شأنه شأن التحسّر والندم من مواطن الخفض، حيث صنّفه "تحسين فاضل عباس" وغيره من الدارسين، من الأغراض التي تنتمي إلى المستوى الهابط^(*)، فها هو مثلاً الباحث "مزاحم مطر حسن" يقول عنه: «إذ أنّ طلب ما لا يُدرك لا بدّ أن يكون بتلك النغمة الحزينة، التي كلّت على رفع الصوت، واستكانت علّها تنال بعض ما تتمني»⁽⁵⁾، وعلى هذا الأساس يمكن تأدية الآية صوتياً بنغمة مسطّحة، متبوعة بأخرى هابطة؛ المسطّحة تشمل قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا﴾، والهابطة تشمل قوله: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾.

• الاستفهام للاستبطاء: وهو عدّ الشيء بطيئاً في زمن انتظاره، وقد يكون محبوباً منتظراً، ولهذا يخرج الاستفهام فيه عن معناه الأصلي للدلالة على بُعد زمن الإجابة عن بُعد زمن السؤال، وهذا البعد يستلزم الاستبطاء، نحو قولك لمخاطب دَعَوْتَهُ فأبطأ في الاستجابة لك {كم دعوتك؟}، فليس المراد هنا الاستفهام عن عدد مرّات الدعوة أو النداء، وإنّما المراد أنّ تَكَرَّرَ الدعوة قد باعد بين زمن الإجابة وزمن السؤال، وفي ذلك إبطاء، ولهذا جاء السؤال دالاً على استبطاء تحقّق المسؤل عنه، وهو الاستجابة للدعوة المتكرّرة، ومن قبيل الاستبطاء

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج20، ج20، ص384.

(2) - بكرى شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ج1، ص92.

(3) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص195.

(4) - محمد الأمين بن محمد المختار الحكي الشنقيطي: تفسير القرآن بالقرآن من أطواء البيان، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ودار هدى النبوي المنصورة، مصر، ط1، 1426هـ/2005م، ص1070.

(*) - ينظر: تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، ص86.

(5) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنعيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)"، ص44.

قوله تعالى: ﴿...مَتَىٰ فَهَرُ اللَّهُ...﴾ [سورة البقرة، الآية: 214].⁽¹⁾

وقد كان لهذا الغرض حضورا في سور الطواسين مثال ذلك قوله جلّ وعلا: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 39].

الاستفهام في الآية خرج إلى معنى مجازي المقصود منه: الحثّ والاستعجال في الاجتماع بسبب استبطائهم في القيام به، فالاستفهام هنا ليس لطلب الفهم، وإنما هو استفهام استبطائي. يقول "البيضاوي": «الاستفهام للاستبطاء؛ فيه استبطاء لهم في الاجتماع، حثّا على مبادرتهم إليه».⁽²⁾ وفي السياق ذاته يشرح "الزمخشري" معنى الاستبطاء مشيرا إلى خروج أداة الاستفهام "هل" في الآية السابقة إليه قائلا: «استبطاء لهم في الاجتماع، والمراد منه استعجالهم واستحثائهم، كما يقول الرجل لغلامه: هل أنت منطلق إذا أراد أن يُحْرَكَ منه، ويحثّه على الانطلاق، كَأَمَّا يُحَيِّلُ لَهُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ انْطَلَقُوا وَهُوَ واقف...».⁽³⁾

لاستحضار معنى الاستبطاء يكفي أن يكون الصوت منحدرًا خفيفًا، يتناسب واستنفاد زمن الانتظار. يقول "مزاحم مطر حسن" في هذا الصدد مؤكداً الكلام الذي سقناه: «والتنغيم الهابط يلائم غرض الاستبطاء تماما؛ إذ أنّ هذا الغرض يخصّ نوعا من الحزن والأسى على تأخر مجيء المطلوب، مع اندفاع تامّ من المتكلم ورغبة صادقة في حصوله على وجه السرعة، فالتكلم يستبطئ ويتحسّر لهذا الاستبطاء، ولا بدّ أن تكون هكذا معاني تلائم مع التنغيم الهابط».⁽⁴⁾ لذا فإنّ الآية تُقرأ بنغمتين: الأولى تقريرية مستوية عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ﴾ وهنا موضع السكتة، وكأنّ التركيب يحتوي على فاصلة وهي هنا فاصلة من الناحية النطقية، واصلة من الناحية الدلالية، والدليل على ذلك انتهاء التركيب بنغمة مستوية، إشارة إلى عدم تمام المعنى، والثانية هابطة عند قوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾، وهنا موضع الوقفة التي تدلّ على اكتمال الكلام.

أما إذا أراد القارئ إظهار معنى الأمر من قوله: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾، كان الأولى به أن يرفع في طبقة الصوت، بدل الخفض؛ أي أكثر من المستوى الذي يستدعيه إبراز غرض الاستبطاء، يكون التنغيم كظاهرة تطريزية الفيصل في تحديد المعاني المقصودة، وتوجيه أغراض التراكيب، اعتمادا على درجة الصوت وشدّته.

هذا، ويقف النبر بعدّه فونيمًا فوق قطعيّ (غير تركيبّي) في هذه الآية جنبا إلى جنب مع فونيم التنغيم في

(1) - ينظر: عبد اللطيف شويكي وزير درّاق: الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2004م، ص40.

(2) - البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، مج2، ج19، ص540.

(3) - الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج19، ص759.

(4) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، ص45.

توجيه الغرض وبيان الدلالة المقصودة، فوقوعه على آخر مقطع من آخر كلمة، والتي تُشكّل البؤرة الذي يتمحور حولها معنى الآية، لم يكن هذا جزافاً أو اعتباطاً، بل من شأن ذلك أن يؤكد معنى الاستعجال والحث على السرعة في الاجتماع، وهذا ما يُستشَفّ من خلال تمطيط المقطع الطويل الأخير، واستطالة النطق به، تعبيراً عن مدى بطء المعنى الذي سيقوم بالفعل، وتحريك همته على أساس أنّ الطالب مثلاً قد استنفذ صبره، ولم يعد قادراً على الانتظار أكثر.

أَنْتُمْ جُنُودٌ

ص ح ص + ص ح + ص ح ص + ص ح + ص ح ص

السر الأولي (الرئيسي)

السر الثانوي

سر المدّ العارض للسكون بسبب الوقف

نلاحظ أنّ النبر الثانوي في كلمة (مُجْتَمِعُونَ) قد وقع على المقطع الثالث قبل النبر الأوّلي، ليكون بهذا مع المقطعين اللذين يفصلانه عن المقطع المنبور نبراً أولياً النموذج التالي:

مقطع متوسط مغلق + مقطعين قصيرين مفتوحين.

• الاستفهام للاستبعاد: وهو عدّ الشيء بعيداً حسناً ومعنى، وقد يكون منكراً مكروهاً غير منتظر أصلاً، وربما يصلح المحل الواحد له وللإستبطاء، وعلى هذا قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي للدلالة على استبعاد السائل للمسؤول عنه، سواء أكان البعد حسياً مكانياً، نحو قول "شوقي" وهو منفي في الأندلس: "أين شرق الأرض من أندلس؟"، أم بعداً معنوياً كمن يقول لمن هو أعلى منه منزلة: "أين أنا منك؟"⁽¹⁾ وأما في سورة النمل فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنَّا وَإِنَّا بِلِقَاءِ رَبِّنَا لَأِتَيْنَا لَهُمْ جَمِيعًا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [سورة النمل، الآية: 67].

كثيرة هي المواضع التي لا يكون فيها للقرينة اللفظية الأثر الذي يكون للقرينة الحالية، ولعلّ الآية التي بين أيدينا تمثل هذا الجانب؛ إذ أنّ لقرينة التنغيم ههنا الفاعلية في تحديد الغرض المقصود من همزة الاستفهام، والتي خرجت عمّا يقتضيه الظاهر، وأصبحت تحيل على معنى الاستبعاد، وكأنّ تقدير الكلام: متى يكون هذا العذاب الذي تعدوننا به إن كنتم صادقين فيما تدعون؟، وهذا كلّه بأسلوب ساحر ونبرة استهزائية؛ إذ أنكر الكافرون بالله المكذّبون لرسله حقيقة الآخرة (خروج الناس من قبورهم)، وأنّ الأجساد ستعود إلى ما كانت عليه، بعد أن يُنفخ في الصور، وترجع الروح إليها. يقول "المراغي" في معرض حديثه عن الآية: «وهذا منهم استبعاد لإعادة الأجسام

(1) - محمد أحمد قاسم ومحيي الدين ديب: علوم البلاغة (البدعي والبيان والمعاني)، ص 101.

بعد صيرورتها عظاما ورفاتا». (1)

والمناسب لهذا الغرض أن تكون نعمة الأداء صاعدة، استنكارا لمثل هكذا اعتقاد، وتقريبا لصاحبه، لذا فإن الآية الكريمة تُستهلّ بنعمة تقريرية مستوية، تشمل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُؤُنَا﴾، ليرتفع المنحنى الأدائي بعدها إتماما للكلام عند قوله: ﴿إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾.

يقول "مزاحم مطر حسن" محددا النمط النغمي المناسب لغرض الاستبعاد: «ومعنى الاستبعاد من أغراض الاستفهام المجازية التي تتطلب وجود نعمة مرتفعة، تتساوق مع جعل الأمر مستبعدا، فكأن ارتفاع النعمة وامتدادها يعبر عن استبعاد حصول ذلك الشيء المذكور». (2)

ومثال الحالة قوله في موضع آخر: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدَانِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 71]. فـ "متى" هنا اسم استفهام لا للاستجواب، بل للاستبعاد في محلّ نصب على الظرفية الزمانية، فاستبعاد المشركين ليوم الحساب، ناتج أساسا من «سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدّره بقدره، فلا يدلّ عدم استعجاله على بعض مطلوبهم». (3)

وهذا الاستعجال إنما أرادوا من خلاله التأكيد من حقيقة وجود العذاب فعلا، فهم ينكرونه ويستبعدونه أصلا، والدليل على ذلك قوله عزّ وجلّ في الآية الموالية: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 72].

وعليه فإنّ الآية تُتلى مثل سابقتها بنغمة مسطّحة، تشمل المقاطع الصوتية الخمسة الأولى في قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ= ص ح + ص ح + ص ح ح + ص ح ح}، تليها نغمة صاعدة موضع الاستبعاد، التي تتدرّج بدورها نحو الانخفاض نهاية الآية، دليلا على تمام المعنى.

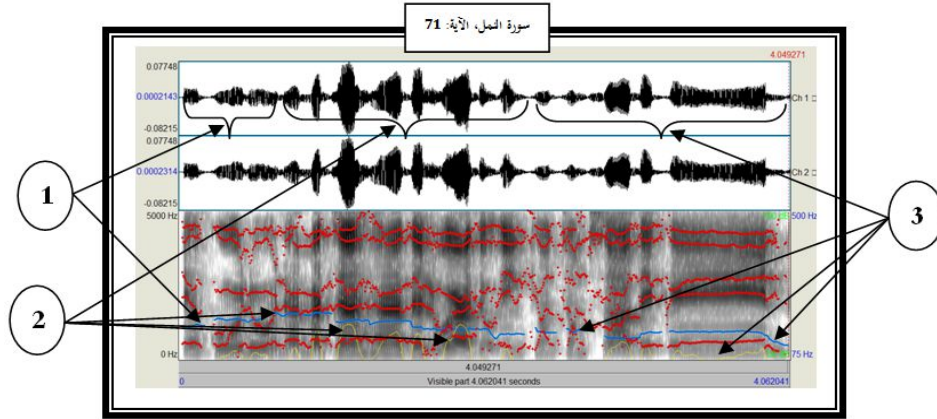
نقدّم فيما يلي رسما بيانيا، نبرز من خلاله المنحنى اللحني لهذه الآية، كما هو موضّح من خلال الشكل

التالي:

(1) - المراغي: تفسير المراغي، مج7، ج20، ص105.

(2) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجا)"، ص44.

(3) - السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان، ص580.



الشكل رقم: 74

تبيّن الصورة التي أمامنا المنحنى الإيقاعي للآية 71 من سورة النمل، حيث يبدأ بنغمة مسطّحة كما يشير إلى ذلك الرقم 1، تليها نغمة الاستبعاد الصاعدة كما يوضّح ذلك الرقم 2، لتبدأ النغمة بعدها في الاعتدال ثم الانخفاض التدريجي إلى أن تبلغ أدنى مستويات الخفض، وهذا ما يشير إليه الرقم 3 في الصورة أعلاه. هذا، وقد بلغت درجة الصوت وشدّته قمّتها في النطاق اللحني الذي يُؤشّرُ إليه بالرقم 2، حيث وصلت درجة الصوت قرابة 211 هرتز، كما تجاوزت شدّته 61 ديسيبل، ممّا يعني أنّ الأداء في هذا الموضع كان بحاجة إلى جهد عضلي أكبر، و طاقة صوتية أوسع من أجل استحضار الغرض الذي خرج إليه الاستفهام في الآية، وهو الاستبعاد.

أمّا عن باقي القيم الأكوستيكية التي سجّلها التحليل الفيزيائي لمقاطع الآية المذكورة، فيمكن إيجازها في هذا الجدول:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
117.330 هرتز	162.813 هرتز	210.552 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	56.15 ديسيبل	61.87 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
4.06 ثانية			الزمن (Tempo)

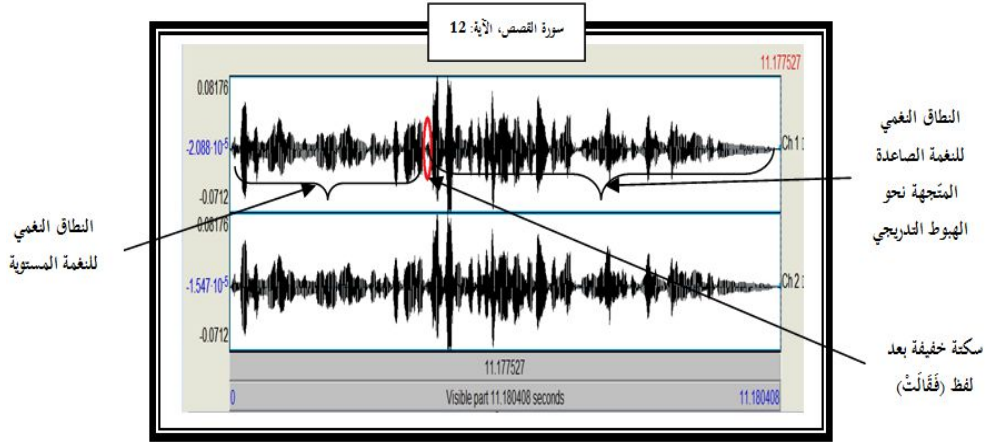
جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 71 من سورة النمل

- الاستفهام للتشويق والإثارة والترغيب: المتكلم هنا يدرك الخبر ويشوّق سامعه إلى سماعه، فكأنّه يريد دغدغة المخاطب وتحفيزه على الاستفهام، لأنّه يطرح السؤال ويوجب عنه غالباً، كقولنا: أتريد مالا؟ حُدِ المال.⁽¹⁾ نجد هذا المعنى في سورة القصص عند قوله تعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ

(1) - محمد أحمد قاسم ومحبي الدين ديب: علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، ص 298.

الواثق بصدق الوعد»⁽¹⁾.

يمكن توضيح المنحنى الإيقاعي لنص الآية من خلال مخطط الموجات الصوتية الذي يبيّنه الشكل رقم: 75



الشكل رقم: 75

• الاستفهام للاعتبار: نحو قوله تعالى: ﴿الرَّيْرُوا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوفِيهِ وَالتَّهَارُ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 86].

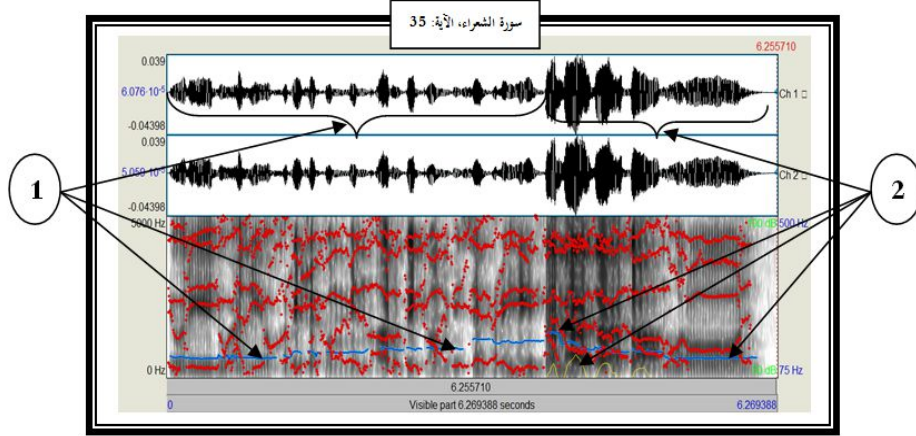
هذه الآية هي الأخرى من المواضع التي خرجت فيها أداة الاستفهام من معناها الحقيقي إلى معنى مجازي يُستشف من خلال السياق والأداء التنغمي لها، فإلى جانب ما تحمله همزة الاستفهام من تعجب، إلا أن فيها دعوة من الخالق عز وجل إلى التأمل في آية من آياته سبحانه وتعالى وهي: تعاقب الليل والنهار، قصد الاتعاض وأخذ العبرة.

يقول "الصابوني" مبيناً هذه الدلالة: «أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلماً، ليناموا ويستريحوا من تعب الحياة، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق»⁽²⁾.

بما أن التعجب الذي نلمس له وجوداً واضحاً في متن الآية يُؤدّي بنغمة صاعدة، فإنّ غرض الاعتبار هو الآخر لا يتناقض مع التعجب، حيث تُقرأ الآية من بدايتها إلى غاية آخر مقطع صوتي قبل حرف التوكيد (إنّ) بنغمة مستوية إلى صاعدة، لتأتي نحو الانحدار نهاية الآية بعد التوكيد مباشرة بشكل تدريجي. وهذا ما يوضّحه مخطط الموجات للصوت اللغوي.

(1) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنغم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني (الاستفهام أنموذجاً)"، ص 44.

(2) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج 2، ج 20، ص 385.



الشكل رقم: 77

تُستهلّ هذه الآية كما هو موضّحاً في الصورة أعلاه بنغمة مسطّحة (انظر رقم 1)، تتبعها نغمة عالية نسبياً تواكب النطاق النغمي الذي خرج فيه الاستفهام لطلب المشورة، حيث بلغت درجة الصوت في هذا الموضع 195 هرتز، بينما تجاوزت شدّة الصوت في الموضع ذاته 57 ديسيبل، لكن لا يلبث هذا العلوّ الموسيقي طويلاً حتى يعود إلى الوتيرة التي كان عليها (نمط الاعتدال) كما يشير إلى ذلك الرقم 2.

في الجدول التالي نسجّل أهمّ القيم المتحصّل عليها من خلال التحليل الفيزيائي أعلاه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
124.004 هرتز	142.559 هرتز	195.051 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.08 ديسيبل	57.19 ديسيبل	شدّة الصوت (Intenensity)
6.27 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 35 من سورة الشعراء

• الاستفهام للاختبار: يخرج الاستفهام إلى هذا الغرض «حينما يكون السائل عالماً، ويريد امتحان

المخاطبين واختبار معارفهم»⁽¹⁾.

مثاله في سور الطواسين قوله تعالى في سورة النمل: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكُرُوا وَلَهَا عَرْشُهَا نَنْظُرُ أَن تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النمل، الآيتين: 40 - 41].

تحدّث الآيتان عن ملكة سبأ "بلقيس"، التي أخذت تتجهّز قصد مقابلة سليمان عليه السلام، حيث كانت الجنّ تتفقّى خطاها، حتّى إذا اقتربت من الوصول سأل سليمان جنده إحضار عرشها إليه، وهذا ما حدث فعلاً

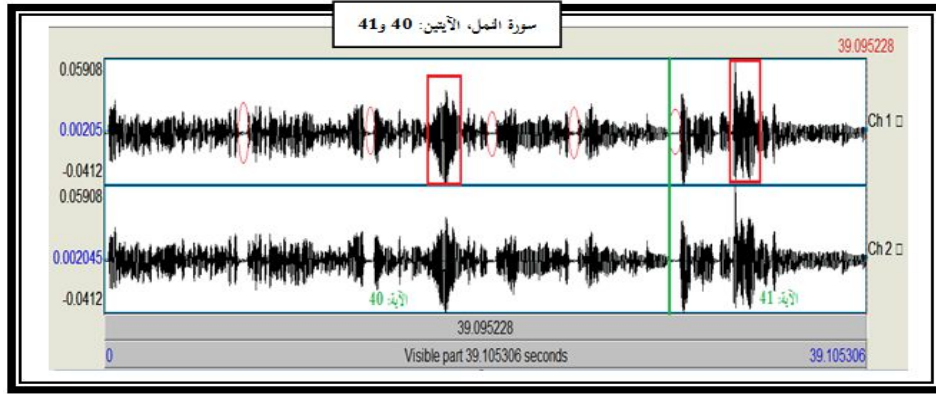
(1) - جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص 101.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

وفي لمح البصر، إذ قام بتغيير معالمة وتبديل أوضاعه، ومع وصولها سألها مختبراً رجاحة عقلها وقدرتها على التمييز، هذا لتعلم صدق نبوة سليمان، وتتجلى لديها الأدلة على قدرة المولى سبحانه وتعالى.

وعليه فإنّ الهمزة الواردة في قوله تعالى: ﴿أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وقوله: ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ليست للاستفهام، بل هي للاختبار والامتحان، يقول "الصابوني" في بيان هذا الغرض: «أي ليختبرني أشكر إنعامه، أم أجدد فضله وإحسانه».⁽¹⁾ ثمّ يردف قائلاً في ذات الصدد: «أي لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها».⁽²⁾

والآيتان صيغتا في قالب سردي، لأجل ذلك فهما تُؤدِّيَان بنغمة مستوية، من أول مقطع في الآية 40 إلى آخر مقطع في الآية 41، مع وجود خطفة إيقاعية سريعة تنتاب المقطع الصوتي الذي يمثله الأمر الحقيقي، والمقاطع التي تحتوي همزة الاستفهام؛ إذ تتميز تلك المقاطع بعلو موسيقي ونغمة صاعدة، لا تلبث طويلاً حتى تعود للاستواء من جديد في مواطن السرد. ومخطّط الموجات الصوتية أسفله يوضّح النمط التنغمي في الآيتين:



الشكل رقم: 78

يتّضح جلياً من خلال هذا المخطّط أنّ النغمة السائدة على المنحنى الإيقاعي في الآيتين هي النغمة المستوية، هذه الأخيرة التي تعرف بعض الارتفاع في طبقات الصوت في مواضع محدودة، كما هو الحال مع همزة الاستفهام وكذا موضع الأمر الحقيقي، وهذا ما يُشار إليه بالمستطيل الأحمر.

كما يتخلّل هذا المنحنى من حين لآخر سكتات إيقاعية خفيفة، يستغلّها القارئ لتجديد نفسه والاستعداد لاستئناف القراءة من جديد، حيث نلاحظ من خلال مخطّط الموجات الصوتية أعلاه، وجود خمس سكتات يشار إليها بالدوائر الحمراء؛ الأولى بعد لفظ "طرفك"، والثانية بعد "قال"، الثالثة بعد "أكفر"، والرابعة

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج19، ص376.

(2) - المرجع نفسه، ص ن.

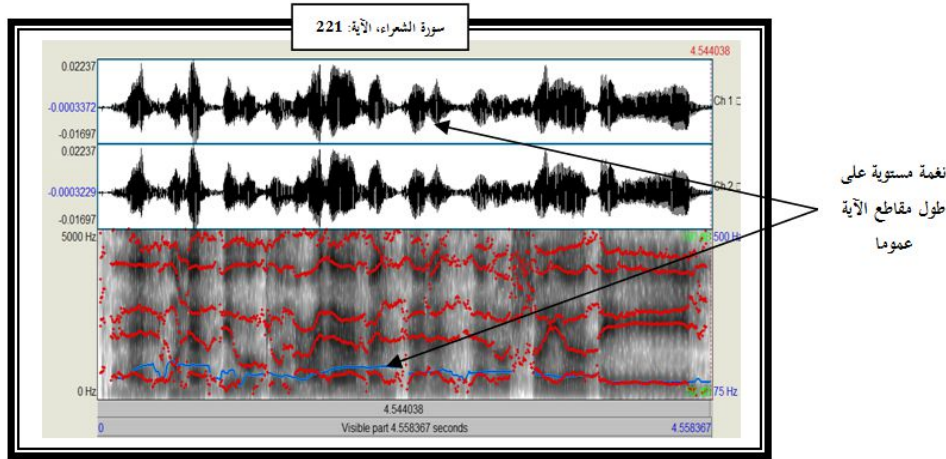
بعد "النفسه"، وأما الخامسة فبعد انتهاء الآية 40 مباشرة، والتي يشار إلى نهايتها بالخط الأخضر؛ أي بعد كلمة "كريم".

• الاستفهام للتوقيف: ويستعمل في الأمور الظاهرة مما يُؤبَّخ به ويدمّ.⁽¹⁾

إنّ مواضع التوقيف في سور الطواسين نادرة جدًا، إن لم نقل أنّها منعدمة، ولعلّ من بين هذه المواضع قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيْطَانَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 221].

يقول "أبو حيّان" في تفسير الآية، وبيان دلالة التوقيف فيها: «أي قل يا محمّد: هل أخبركم؟ وهذا استفهام وتوقيف وتقرير...».⁽²⁾

والتوقيف من الناحية الأدائية شأنه شأن التقرير، يُؤدّي مثله بنغمة مسطّحة تشمل سائر مقاطع الآية، وهذا ما يمكن إبرازه من خلال الشكل التالي:



الشكل رقم: 79

إنّ المنحنى الأصفر المسؤول عن إظهار القيم الخاصة بشدّة الصوت غائب تماما في هذه الصورة، ممّا يعني أنّ القارئ لم يبذل مجهودا كبيرا أثناء قراءته لمقاطع الآية الكريمة، وهذا يتناسب مع نمط النغمة، والغرض الذي خرج إليه الاستفهام ههنا وهو التوقيف.

نحاول في هذا الجدول تلخيص النتائج التي أسفر عليها التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في الآية كما يلي:

(1) - عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية - علم المعاني، ص 106.

(2) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج 8، ص 199.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
110.669 هرتز	138.163 هرتز	171.455 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبيل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
4.56 ثانية			التردد (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 221 من سورة الشعراء

• الاستفهام للتسوية: وتكون في مقام يُقصد فيه المتكلم إظهار المساواة بين أمرين فأكثر للمخاطب، كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 07]؛ أي إنذارك وعدمه سيان، فهم - في الحالين - مُعرضون...⁽¹⁾

أما في سورة الشعراء فيقول عز وجل: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 136].

واضح أنّ الهمزة الاستفهامية هنا قد وُضعت للتسوية بين أمرين، لا لطلب الفهم، لورود حرف "أم" بعدها. يقول "السمرائي" في هذا الصدد: «وبهذا تعلم أنّ في قولنا (أَكْتَبَ أَمْ قَرَأَ؟) أمرين متعادلين يسأل عنهما، وأما قولك (أَكْتَبَ أَوْ قَرَأَ؟) فليس فيه أمران، بل هو أمر واحد يسأل عنه، أي أَفَعَلَ أحدهما؟ والتسوية لا تكون إلاّ بين أمرين، ولا في أمر واحد، ولذا امتنع أن يساوي بـ (أو) بعد الهمزة».⁽²⁾

فالشيئان اللذان يُسَوَّيان هنا على أساس أنهما سواء: لَمَّا كانوا يُوعظون ولا يُوعظون {أي بين الوعظ وعدمه}، فضلا على ورود همزة التسوية في قالب يوحي بأنّ وضعها فيه، قد كان لغاية الموازنة وتسوية شيء بشيء آخر. يقول "المبرد" في هذا الإطار: «ويدخل في باب التسوية مثل قولك: سواءٌ عليّ أذهبت أم جئت، وما أبالي أقبلت أم أدبرت، وليت شعري أزيد في الدار أم عمرو؟».⁽³⁾ وفي مثل هكذا حالات فإنّه من الطبيعي جدّا أن تخرج همزة الاستفهام عن الغرض التي وُضعت من أجله، لتُؤدّي معنى آخر وهو التسوية. يقول "السمرائي" متحدثا عن همزة التسوية في سياق الاستفهام: «وهمزة الاستفهام ههنا لا يُراد بها الاستفهام الحقيقي، بل هي وما بعدها على معنى الخبر لا الإنشاء، لأنّها لا تستحقّ جوابا، وأنّ الكلام معها قابل للتصديق والتكذيب كونه خبرا».⁽⁴⁾

وعن كون الهمزة في الآية أعلاه قد وُضعت للتسوية بين شيئين لا للاستخبار والاستفهام يوضح "البقاعي"

(1) - أمين أبو ليل: علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ/ 2006م، ص80.

(2) - فاضل صالح السمرائي: معاني النحو، ج4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1420هـ/ 2000م، ص234.

(3) - المبرد: المقتضب، ج3، ص287.

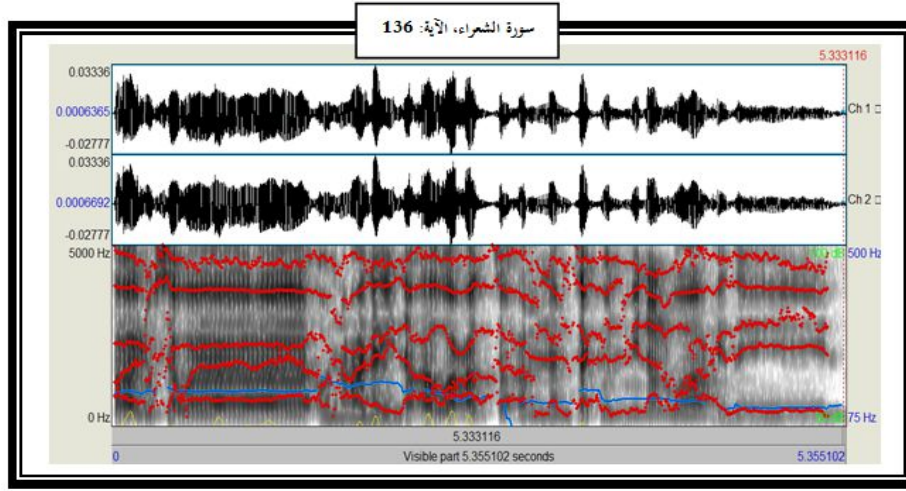
(4) - السمرائي: المرجع السابق، ص س.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

قائلا: «أم لم تكن من الواعظين (...) فهو أبلغ من أم لم تعظ أو تكن واعظا (...)»، والمعنى أنّ الأمر مستوٍ في الحالتين، في أنّ لا نطيعك في شيء»⁽¹⁾.

الحقيقة أنّ قوم هود لمّا سوّوا بين الشيعين، فإنّ هذا ناتج أساسا عن احتقارهم لدعوته واستهزائهم برسالته «أي أنّهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه، واستخفافهم بما أورده من المواعظ والوعظ؛ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد»⁽²⁾.

والهمزة التي هي للتسوية تُؤدّي بنغمة تناسب المعنى الذي تحمله، وهي النغمة المسطّحة المعتدلة، لذا فإنّ الآية السابقة تُقرأ كاملة بالنغمة ذاتها، وهي: النغمة المستوية. والشكل التوضيحي رقم: 80 يبيّن هذا المنحنى:



الشكل رقم: 80

أما عن نتائج التحليل الفيزيائي فتترجمها الأرقام التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
78.542 هرتز	144.917 هرتز	191.331 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.33 ديسيبل	54.09 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
5.35 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 136 من سورة الشعراء

(1) - البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج14، ص ص71-72.

(2) - الحازن: تفسير الحازن المسمّى لباب التأويل في معاني التنزيل، ج3، ص329.

الفصل الرابع: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب التمني والنداء في سور الطواسين

المبحث الأول: التمني

المطلب الأول: مفهومه وأدواته

1- تعريف التمني: التمني في اللغة يدل على معنى طلب المحبوب إجمالاً، أما اصطلاحاً فهو: «طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله، إما لأنه مستحيل الوقوع، أو بعيد المنال»⁽¹⁾.

2- أدوات التمني: أدوات التمني أربعة هي: ليت، هل، لعل، ولو؛ الأولى أصلية، والثلاثة الأخرى نائبة عنها. وفيما يلي تفصيلها:⁽²⁾

■ ليت: تفيد استحالة وقوع الشيء نحو قوله تعالى: ﴿...وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [سورة النبأ، الآية: 40].

ومن أمثلة إفادتها ما هو ممكن لا يطمع في حصوله ما جاء في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [سورة يس، الآيتين: 26-27].

■ وأما هل ولعل فتظهران المستحيل على أنه ممكن، ومن ذلك قول الشاعر:

أَيَا مَنْزِلِي نَجِدُ سَلَامًا عَلَيْكُمَا ۝ هَلْ الْأَزْمُنُ اللَّائِي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْلِكُنْ أَبْنِي لِي صَرِحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى اللَّهِ مُوسَى...﴾ [سورة غافر، الآيتين: 36-37].

■ أما لو فمعناها مختلف، إذ تشعر بامتناع وقوع الممتنى، وكذا يكون استعمالها، من ذلك قوله تعالى: ﴿...لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ...﴾ [سورة البقرة، الآية: 167].

ملاحظة هامة: الطريقة التي يمكن من خلالها أن نتبين أن هذه الأدوات [هل، لو، لعل] قد خرجت عن معناها الحقيقي، ووظفت للدلالة على التمني: هو أن نلاحظ أنها مستعملة في شيء بعيد الحصول أو مستحيل الوقوع.⁽³⁾

لعل من أبرز الأساليب التصاقاً بأسلوب التمني: الترجي؛ هذا وقد تقدّم لنا الحديث بأن الترجي ليس من أقسام الإنشاء الطلبي عكس التمني الذي لطالما اقترن به، لأنّ هذا الأخير طلب الشيء، في حين أنّ الترجي هو

(1) - محمد طاهر اللادقي: المبسّط في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع (نماذج تطبيقية)، ص78.

(2) - ينظر: محمد علي سلطاني: المختار من علوم البلاغة والعروض، دار العصماء، دمشق، سوريا، ط1، 1427هـ/ 2008م، ص ص52-53. وكذا: السيّد جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، ص ص117، 119.

(3) - عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوي: الكافي في علوم البلاغة العربية (المعاني، البيان، البديع)، ص282.

ترقّب حصول الشيء، فإذا كان المطلوب «منتظر الحصول، قريب الوجود كان ترجيًّا، ويعبّر فيه بعسى ولعل». (1)
وقد ميّز "السيوطي" بين التمني والترجّي فقال: «الترجّي يكون في الممكن والتمني فيه وفي المستحيل، وبأنّ الترجّي في القريب والتمني في البعيد، وبأنّ الترجّي في المتوقّع والتمني في غيره، وبأنّ التمني في المعشوق للنفس والترجّي في غيره». (2)

من أمثلة الترجّي في القرآن الكريم قوله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّسِينِ وَقَفَّصْنَا مِنْ أَلْتَمَرَاتِ لَعَالَهُمْ يَدَكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: 130]، وقوله أيضا: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا فَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [سورة القلم، الآية: 32].

هذا، وقد ورد الترجّي أيضا بأداتي {لعلّ، وعسى} في سور الطواسين عند عدّة مواضع، منها قوله في سورة النمل (الأداة لعلّ): ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كَرْمِيهَا خَيْرًا وَأَوْعَاتِي كَرْمِيهَا بِيْشَاهَابٍ قَبَسٍ لَعَالَكُمُ تُصْطَلُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 07].

وقع هذا حينما كان موسى ^{عليه السلام} متّجها مع زوجته من مدين إلى مصر، حيث كانا يسيران ليلا فاشتبهتا عليهما الطريق، فأبصر موسى بريق نارٍ ترجّي أن يأتي منه بخبر عن الطريق، أو على الأقلّ بشعلة من النار يستدفئان بها من البرد الشديد.

وقوله في سورة القصص (الأداة عسى): ﴿وَلَمَّا توجَّهَ نَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [سورة القصص، الآية: 22].

هذا كلام موسى أيضا، لمّا توجه إلى مدين هربا من جبروت فرعون وطغيانه، ولم يكن يعرف طريقه إليها، فدعا ربّه مترجّيًا أن يهديه إلى سواء السبيل، ويرشده إلى الطريق الصحيح.

يقول سبحانه في موضع آخر من السورة ذاتها تعبيرا بأداة "عسى": ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 67]، فهو ليس تمّني، بل ترجّي؛ لأنّ المطلوب فيه ممكن الوقوع، فمّمّا لا شكّ فيه أنّ التوبة من الشرك، والرجوع إلى طريق الحقّ، سيكون مصير صاحبها الفوز والفلاح.

المطلب الثاني: أغراض التمني البلاغية: من أبرز المعاني المجازية التي يؤدّيها التمني في خروجه عن معناه الحقيقي الذي وضع لأجله في الأصل وهو طلب المحبوب، المعاني التي سنأتي على ذكرها والتي يكون للمقام وللتنغم فيها دور أساسي في التعرّف عليها، وقبل التعرّض لها نورد ههنا بعض النماذج من هذا الأسلوب في معناه الحقيقي من

(1) - أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة: البيان والمعاني والبدیع، ص62.

(2) - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص583.

سور الطواسين وهي:

1- التميّ الحقيقي: إنّ التميّ لا يكون فقط من خلال توظيف الأداة الأصلية "ليت"، بل يمكنه أن يكون بأدوات نائبة عنها، على غرار أدوات: هل، لعلّ، لو، ولولا، وقد أدرج كثير من علماء البلاغة التميّ بغير الأداة الأصلية في باب خروج الأسلوب عن مقتضى ظاهره، غير أنّ وجهة نظرنا تختلف، لأنّ إحلال الأدوات الثلاث النائبة محلّ أداة التميّ الأصلية، إذا أُريد بها التميّ فنحن هنا أمام الأصل (التميّ الحقيقي)، وليس بصدد التميّ البلاغي أو المجازي، وهذا ما سنوضّحه فيما يلي:

• **التميّ بليت:** إنّ التميّ بليت هو الأصل في الغرض، وقد ورد ذلك في سور الطواسين في مواضع محدودة جدّاً، منها قوله عزّ وجلّ في سورة القصص: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلَّهِ لَأَنَاءِلٌ أَلْفَ مِائَةٍ قَدْ أَفْرَدْنَا وَعَلَى قَوْمِهِ لَشِقَا﴾ [سورة القصص، الآية: 79].

يتجلّى من خلال سياق الآية أنّ أداة "ليت" فيها قد استعملت للتميّ، لكنّها لا تفيد ههنا استحالة وقوع الشيء المُتممّي مطلقاً، بل هي لطلب أمر محبوب ممكن الوقوع، ولكنه بعيد المنال، فالقائل يتمنّى مثل ما أُوتي قارون طمعاً في الحصول على ما حصل عليه، ولكنه في الوقت ذاته يشعر بعدم إمكانية تحقّق أمنيته. يقول "ابن كثير" في بيان هذا المعنى: «يقول تعالى مخبراً عن قارون: إنّّه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتحمّل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلمّا رآه من يريد الحياة الدنيا، ويميل إلى زُحرفها وزينتها، تمنّوا أنّ لو كان لهم مثل الذي أُعطي». (1)

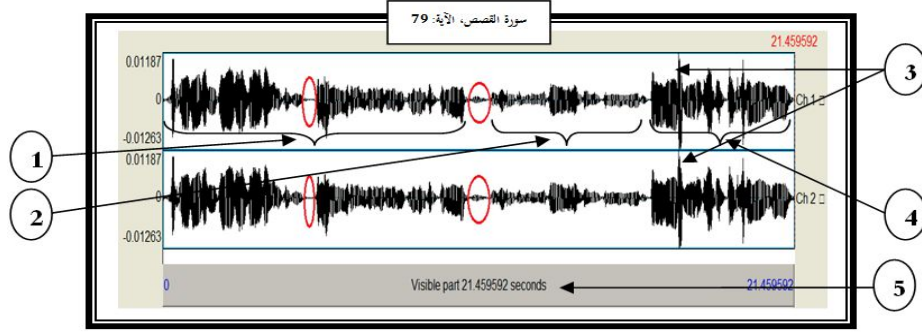
والتميّ كما سبق وأن أشرنا من مواضع الخفض في الأداء، ولا يُناسبه إلاّ النمط التنغيي الهابط قصد استدعائه واستحضاره، ولا بأس هنا أن نستذكر مرّة أخرى كلام الباحث "مزاحم حسن مطر" بهذا الخصوص، الذي يقول فيه: «... إنّ طلب ما لا يُدرك لا بدّ أن يكون بتلك النعمة الحزينة، التي كلّت عن رفع الصوت واستكانت، علّها تنال بعض ما تتمنّى...». (2)

وعلى هذا الأساس تُقرأ الآية بتنغيم مستوٍ، يمتدّ ليشمل قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ﴾، تتخلّل هذا الجزء سكتة إيقاعية قبل المقطع المتوسط الأول من لفظ (قَالَ)، ليبدأ المنحنى الموسيقي بعدها بالانحدار التدريجي موضع التميّ، أين يسجّل في المساحة الصوتية التي يقع فيها التوكيد بأنّ ولام الابتداء ارتفاعاً ملحوظاً في طبقة الصوت، لا يلبث هذا الارتفاع طويلاً حتّى يعود مستوى التنغيم إلى الحالة التي كان عليها

(1) - ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، مج3، ص2189.

(2) - مزاحم مطر حسن: "أثر التنغيم في توجيه الأغراض البلاغية لعلم المعاني-الاستفهام أنموذجاً"، ص45.

قبلا، مرفوقا بإيقاع بطيء وحزين. ومخطّط الموجات الصوتية الذي يمثّله الشكل رقم: 81 يوضّح ذلك:



الشكل رقم: 81

نظرا لاستغراق أداء الآية 79 من سورة القصص لمدة طويلة قدرّت بـ: 21 ثانية و46 جزء من الثانية كما هو موضّح في الصورة أعلاه، فإنّ برنامج برات الذي نستعين به في التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في آيات سور الطواسين، لن يمنحنا ههنا مختلف الخصائص الأكوستيكية المتعلقة بالموجات أعلاه (الرسم الطيفي للموجة، الدرجات الصوتية، شدّة الصوت، سلاسل الحزم الصوتية،... الخ)، لعجزه عن رصدها في حالة ما إذا تجاوز أداء القطعة عشر ثوانٍ.

ومع ذلك فإنّ مخطّط الموجات الصوتية لنصّ هذه الآية يبيّن لنا المنحنى الإيقاعي بوضوح، وهو منحنى متذبذب، يبدأ بنغمة مستوية كما يشير إلى ذلك الرقم 1، يتوسّط هذا النطاق النغمي الذي تمثّله هذه النغمة سكتة إيقاعية كما هو مشار إلى موضعها بالدائرة الحمراء الأولى، تلي هذه النغمة نغمة التمني الهابطة، حيث يشير الرقم 2 إلى مجال بدايتها ونهايتها، يكون هذا المجال مسبقا بسكتة إيقاعية أخرى، يستغلّها القارئ لأخذ النَّفَسْ قصد استئنافه للقراءة، أمّا الرقم 4 فيشير إلى نطاق النغمة الصاعدة الهابطة، حيث تشهد مقاطع نهاية الآية أعلى درجة يصل إليها الصوت اللغوي نظير ما فيها من تأكيد، والرقم 3 يشير إلى قمة هذه الدرجة. وأمّا الرقم 5 فيمثّل المدة المستغرقة لقراءة الآية الكريمة، وهذا ما يُصطلح عليه بـ: "التزمين".

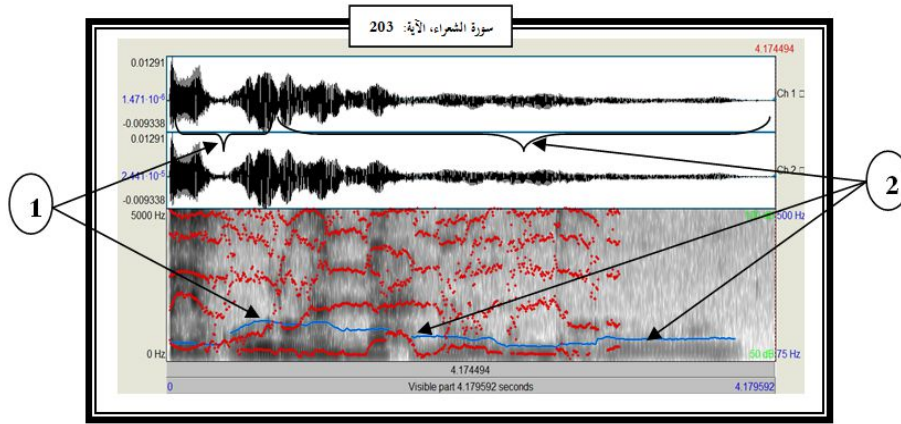
• التمني بأداة الاستفهام "هل": تستعمل "هل" للتمني إذا أردنا أن نبرز المُتَمَنَّى في صورة الممكن الذي لا نجزم بانتفائه، وذلك لكمال العناية به، قال تعالى: ﴿...فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا...﴾ [سورة الأعراف، الآية: 53]، وقال تعالى: ﴿...هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [سورة الشورى، الآية: 44].⁽¹⁾

ومن أمثلة الحالة - على قلّتها - في سور الطواسين، قول المولى جلّ وعلا في سورة الشعراء: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 203].

(1) - فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وألفانها (علم المعاني)، ص158.

المعارف عليه أنّ الأصل في أداة "هل" للاستفهام، لكنّ المراد منها في هذه الآية معنى مختلف وهو: التمنيّ، يقول "أبو حيّان الأندلسي": «وهذا على جهة التمنيّ منهم، والرغبة حيث لا تنفع الرغبة».⁽¹⁾

والتقدير: يا ليت تُمَهَّل إلى حين، وهذا التمنيّ مستحيلٌ وقوعه طبعاً، ومن أجل تقريب ما في الآية من معاني التمنيّ ودلالات الحسرة والندم، يكفي أن تكون طبقة الصوت منخفضة، يشوبها جوّ إيقاعي حزين، وعليه تُفتتح الآية أعلاه بنغمة التقرير المستوية، تشمل المقاطع الأربعة الأولى التي تمثلها عبارة "فَيَقُولُوا"، لتأتي بعدها النغمة للانخفاض التدريجي ابتداءً من أداة الاستفهام، التي خرجت هنا لغرض التحسّر والتمنيّ، إلى غاية المقطع الختامي من الآية الكريمة، مع تزمين بطيء وهادئ. والشكل رقم: 82 يوضّح ذلك:



الشكل رقم: 82

يحيل الرقم 1 في الصورة أعلاه إلى النطاق النغمي الأوّل الذي تمثّله نغمة التقرير المستوية، أمّا الرقم 2 فيمثّل النطاق الثاني، والذي يأخذ الحيز الأكبر من الآية؛ إذ يتميّز بهبوط تدريجي في طبقة الصوت، إلى أن تبلغ - هذه الأخيرة - أدنى مستويات الانخفاض والتسفلّ نهاية الآية، وهذا ما يتّضح جلياً من خلال النافذة العلوية التي تُظهر لنا سلسلة الموجات الصوتية، إلى جانب ما يشهده المنحنى الأزرق من انحدار في نهايته. وفي العموم يمكن رصد نتائج التحليل لموجات الصوت اللغوي في هذه الآية من خلال الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
113.491 هرتز	137.949 هرتز	188.331 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
4.18 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 203 من سورة الشعراء

(1) - أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، ج8، ص193.

• التمني بأداة الترجي "لعل": فقد يُتمنى بما فُعطِي حكم "ليت"، ويُنصب في جوابها المضارع على إضمار أن، كما في قوله سبحانه حكاية عن فرعون: ﴿...لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى...﴾ [سورة غافر، الآيتين: 36-37]، وقوله: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَعَالَهُمْ يُصْرُوتَ﴾ [سورة يس، الآية: 74]، وقوله سبحانه: ﴿...وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَالَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف، الآية: 48].

ذكرنا سابقاً أنّ الأصل في "لعل" للترجي، وهو طلب الأمر المحبوب الذي يرجى حصوله، ولكنها لم تُحمَل هنا على معناها الحقيقي (أي الترجي)، لاستحالة بلوغ الأسباب، ونصرة الأصنام لهم ورجوعهم عن الكفر، وكان مقتضى الظاهر استخدام الأداة الموضوعية أصلاً للتمني وهي "ليت"، لكنه عدل عن ذلك وجيء بـ "لعل" التي تفيد الرجاء (وهو إمكان الوقوع) لغرض بلاغي هو: إبراز المتمنى البعيد الحصول في صورة القريب المترقب الحصول؛ دلالة على كمال العناية به والتشوق إليه.⁽¹⁾

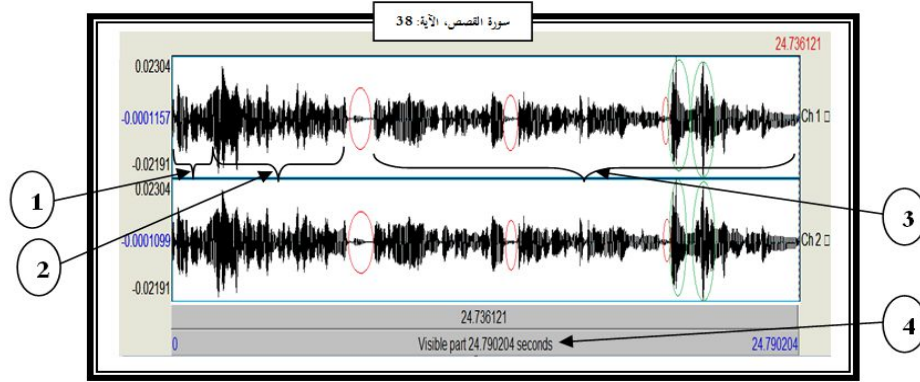
من أمثلة التمني بلعل في سور الطواسين، والتي تحمل هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الظِّلِّينَ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 38].

تعبر لنا هذه الآية عن إنكار فرعون لوجود إله آخر غيره، حيث كذب رسالة موسى إليهم وادعى الربوبية لنفسه، بل بلغ به الأمر لأن يطلب من وزيره بأن يبني له قصرًا شامخًا، لعله يرتقي إلى إله موسى حتى يتأكد من صدق رسالته وصحة وجوده، وكما هو معلوم أنّ أداة الترجي (لعل) تفيد ترقب حصول الشيء، ما دام أنّ الترجي لا يكون إلا في الأمر الممكن، القريب والمتوقع، غير أنّها وُظِّفت في هذه الآية في سياق مخالف لدلالاتها كما هو ملاحظ، لأنّ ما بعدها لا يُرجى حصوله، لاستحالة بلوغ فرعون غايته، واستبعاد تحقّقها، وهي الارتقاء إلى السماء والاطّلاع على الله، ولكن تمّ استخدام أداة الترجي "لعل" هنا في سياق التمني، وكان ممكناً أن يتمّ توظيف أداة التمني "ليت" بدلا من "لعل"، إلاّ أنّه حدث العكس، ومما لا شكّ فيه أنّ لمثل هذا الاستعمال دواعيه وأسارره البلاغية، فهو لم يحصل هكذا اعتباطاً أو جزافاً، بل من أجل إظهار الأمر المتمنى المستحيل وقوعه أو البعيد المنال، في صورة القريب المنتظر حصوله.

إنّ الآية خليطٌ من الأساليب المتنوّعة، ما جعل منحناها اللحن متذبذباً في مستوى درجاته النغمية؛ بين الصعود والهبوط والاعتدال، وعلى هذا تُستهلّ الآية بنغمة التقرير المستوية، تشمل المقاطع الستة الأولى التي تمثلها عبارة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ = ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح، تليها نغمة النداء العالية

(1) - ينظر: عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوي: الكافي في علوم البلاغة العربية (المعاني، البيان، البديع)، ص 281.

تمتد لتشمل قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، بعدها يبدأ المنحنى الإيقاعي بالانحدار التدريجي موضع الأمر الذي خرج إلى غرض التهكم، وكذا موضع التمنيّ بأداة الرجاء (لعلّ)، غير أنّ هذا المنحنى يعرف نوبات إيقاعية آنية ومرتفعة، تعترى تلك المقاطع التي تتخلّلها أدوات التأكيد ﴿وَلِيِّنِي لِأُظْهِرَهُ﴾، لكن سرعان ما يعود المنحنى إلى نمطه التنغمي الهابط. (انظر الشكل رقم: 83):



الشكل رقم: 83

تمثّل الأرقام في هذه الصورة ما يلي:

- الرقم 1: النغمة المسطّحة التي يُستهلّ بها المنحنى الإيقاعي للآية الكريمة.
- الرقم 2: النغمة الصاعدة التي تعرف في نهاية النطاق النغمي المشار إليه بهذا الرقم اعتدالا في طبقة الصوت، حيث ينتهي هذا النطاق بسكتة إيقاعية خفيفة قبل أول مقطع صوتي للفظ (عَيْرِي)، وموضع السكتة الأولى توضحه أول دائرة حمراء في الصورة أعلاه.
- الرقم 3: يمثّل في العموم النطاق النغمي التي تسيطر عليه النغمة الهابطة لما فيه من تهكّم (الأمر الخارج إلى معنى السخرية)، إلى جانب التمني، بيد أنّه يعرف من حين إلى آخر:
 - سكتات إيقاعية خفيفة: وهي المحيطة بالدائرة الحمراء في الصورة أعلاه؛ الأولى ناتجة عن توقّف القارئ على كلمة (صَرِحًا)، ثمّ استئنافه للقراءة ابتداء من قوله: ﴿فَأَجْعَلْ لِي صَرِحًا﴾، لوقوفه على كلمة لا يصحّ الابتداء بما بعدها لعدم تمام الكلام، وارتباط معناها بالتركيب الذي يليها. وأمّا الثانية فهي سكتة مسجّلة بعد لفظ (مُوسَى) وقبل التأكيد بإنّ ولام التأكيد.
 - نوبات (نقرات) إيقاعية عالية: وهي المحيطة بالدائرة الخضراء في الصورة أعلاه، وهذه النوبات ناتجة أساسا عن ورود الكلام في سياق توكيدي؛ الدائرة الأولى تخصّ أداة "إنّ"، والثانية تتعلّق بلام التوكيد.
- الرقم 4: يشير إلى المدّة الزمنية المستغرقة لأداء الآية الكريمة، والتي قدّرت بـ: 24 ثانية، و79 جزء من الثانية،

وهذه المدّة الطويلة كانت كافية لعدم ظهور الخصائص الفيزيائية للموجات الصوتية، لأنّ برنامج برات - كما أسلفنا - لا يمكنه عرض هذه القيم ما دام أنّ التزمين قد تجاوز عشر ثوانٍ.

• التمنيّ بحرف الامتناع لو: يُتَمَنَّى به وينصب المضارع في جوابه بأن المضمرة على غرار (ليت)، كما في قوله سبحانه: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 102]، والغرض البلاغي من التمنيّ بـ "لو" والعدول عن "ليت" هو: «الإشعار بعزّة التمنيّ وقدرته، لأنّ المتكلم يُظهره في صورة الممنوع»⁽¹⁾؛ لأنّ "لو" حرف يدلّ على امتناع جواب الشرط لامتناع الشرط.

وتقدير الكلام: ليت لنا رجعة أخرى إلى الحياة الدنيا، نستدرك من خلالها ما فاتنا، وما فرّطنا في جنب الله، فنؤمن به ونعبده حقّ العبادة، ونعمل الصالحات، حتّى إذا متنا وبعثنا مرّة ثانية لا ينالنا من العذاب ما نحن فيه الآن، وهذا على وجه التحسّر والندم.

لقد فضّل القرآن الكريم توظيف الأداة "لو" بدلا عن الأداة "ليت"، لإشعار المتلقّي؛ قارئاً أو مستمعا بامتناع تحقّق المطلوب، فالذي يموت لا يمكن له الرجوع مرّة أخرى إلى الحياة، يقول "الزخشري" (ت: 538هـ) في هذا الصدد: «وقد تجي لو بمعنى التمنيّ، كقولك: "لو تأتني فتحدّثني"، كما تقول: "ليتك تأتني فتحدّثني...»⁽²⁾.

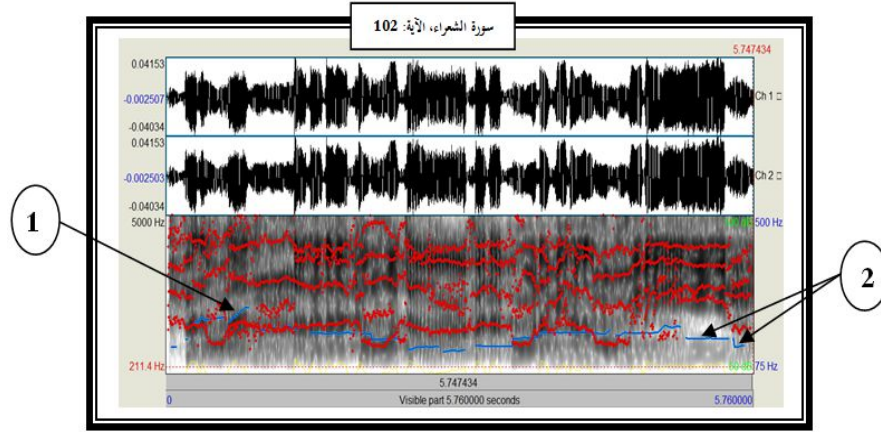
يضيف "محمد الشوكاني" مفسّرا الآية، ومبيّنا ما فيها من تمنّ وتحمّس قائلا: «هذا منهم على طريق التمنيّ الدال على كمال التحسّر، كأهمّ قالوا: فليت لنا كرتة، أي: رجعة إلى الدنيا، وجواب التمنيّ: فتكون من المؤمنين، أي: نصير من جملتهم»⁽³⁾.

وما دام أنّ استحضار دلالة التمنيّ المشوبة بالتحسّر وإظهار الأسف والأسى، تحتاج إلى خفض في الدرجة الصوتية، فإنّ الآية التي بين أيدينا تُتلى بنغمة واحدة على طول مقاطعها الصوتية، وهي: النغمة الهابطة (المدى السلي الهابط)، إلى أن تصل أدنى مستويات الانحدار آخر الآية، مع إيقاع حزين هادئ، وتزمين بطيء. وهذا ما يبيّنه الشكل أسفله:

(1) - محمد بدري عبد الجليل: تصوّر المقام في البلاغة العربية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، دط، 2003م، ص 92.

(2) - أبو القاسم محمود بن عمر الزخشري: المفصل في علم العربية، تح: فخر صالح قدارة، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ/ 2004م، ص 329.

(3) - محمد الشوكاني: فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج 19، ص 1061.



الشكل رقم: 84

إذا صار واضح أنّ المنحنى النغمي للآية هو منحنى تنازلي، بدليل ما عرفته درجات الصوت من انخفاض آخر الآية (انظر الرقم 2) مقارنة ببدايتها (انظر الرقم 1)، ويمكن إثبات ذلك أيضا من خلال النتائج التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
133.492 هرتز	182.960 هرتز	253.382 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	51.81 ديسيبل	54.17 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
5.76 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 102 من سورة الشعراء

• التميّي بأداة "لولا": لولا هي أداة مركّبة من حرفين هما: "لو" و"لا"، وهي تأخذ معناها من خلال السياق الواردة فيه، فقد تكون للتحضيض وهو طلب الشيء بقوة وشدة، كما قد تكون للشرط، ويمكن لها أن تكون أيضا حرف امتناع لوجوب إذا كانت الجملتان (فعل الشرط وجوابه) مثبتتين، أو حرف وجوب لامتناع إن كانتا منفيّتين، أمّا إن كانت الأولى مثبتة والأخرى منفية فهي حرف وجوب لوجوب، وإن كانت الأولى منفية والثانية مثبتة، فهي حرف امتناع لامتناع.

كما قد تكون دالة على المعاني المذكورة، ولكن السياق سياق التميّي، تماما مثلما هو الشأن في قوله تعالى:

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِثْلَ مَا أُنزِلَ لَمُوسَىٰ أَوَّلَ مَا يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كِفْرٍ عَلِيمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القصص، الآيتين: 47-48].

تكرّرت أداة "لولا" في الآيتين ثلاث مرّات؛ الأولى والثالثة فيهما هي: حرف امتناع لوجوب، لأنّ عدم وقوع المصيبة مرهون بإرسال الرسول، وأنّ تصديقه برسالة محمد ﷺ كان منوطا باشتغالها على معجزات باهرة،

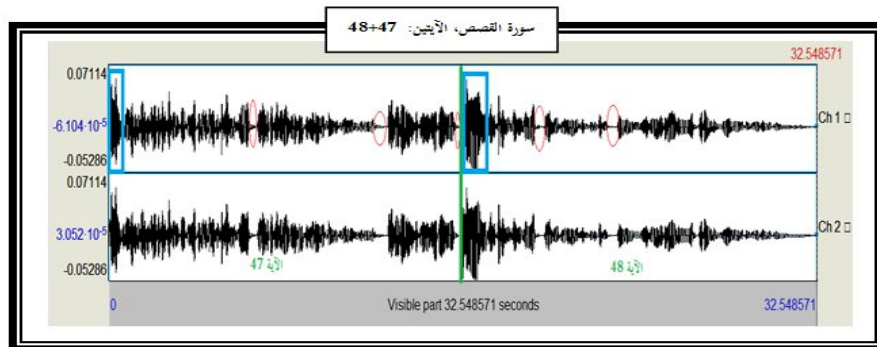
كنتلك المعجزات التي جاء بها موسى من قبل.

أما "لولا" الثانية فهي للتحضيض. يقول "الصابوني" موضّحاً ذلك: «ولولا الثانية عرض وتحضيض، والمعنى: لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل، وإِنَّمَا أَرْسَلْنَاهُمْ عَلَىٰ وَجْهِ الْإِعْذَارِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»⁽¹⁾.

الحقيقة أنّ تمّي القوم بإرسال رسول لهم قبل حلول سخط الله عليهم وإنزاله للعذاب، ثمّ تمّيهم لو كانت في رسالته - بعدما أرسل إليهم رسولا مثلما طلبوا - من المعجزات التي تُظهر لهم صدق دعوته وصحّة رسالته، كمعجزة تحوّل العصا إلى حيّة تسعى، واليد البيضاء وغيرها من معجزات موسى عليه السلام، إنّما يعدّ ضرباً من الغباء، وتمادياً في الغي والضلال، فهؤلاء الذين تمّنوا مثل هكذا أمنيات، شأْنهم شأن الكفار زمن موسى؛ حين طالبوه بالمعجزات، ولكنهم بعدما أظهرها لهم كفروا به، ولم يزدهم ذلك إلاّ عتوّاً وإنكاراً لرسالته، ودليل ما في الآيتين من تعنّت وعناد وتمرد، وصفهم لمحمد وموسى بالسحر ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾، وأنهما تعاونوا معاً على التذجيل والتضليل، وهذا قَمّة في الافتراء والجحود.

عموماً تُؤدّي الآية 47 بنغمة عالية تشمل موضعي الشرط المحذوف جوابه، وجملة التحضيض التي تمثّلها "لولا" الثانية، لتبدأ النغمة بالانخفاض التدريجي ابتداءً من قوله: ﴿فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾، وتستمرّ على الوتيرة نفسها إلى آخر مقطع صوتي من هذه الآية، لتشهد بعدها الآية 48 ارتفاعاً نسبياً في طبقة الصوت، حيث تُستهلّ بنغمة التقرير المستوية الصاعدة تشمل قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، ليبدأ المنحنى اللحني بالانخفاض شيئاً فشيئاً موضع الاستفهام التويخي ﴿أَوْتِي رِيكَفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، بعدها يعود للارتفاع النسبي عمّا هو عليه، حيث تُؤدّي المقاطع الأخيرة من الآية بنغمة مستوية هابطة عند قوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفُورٍ﴾. وهذا ما يوضّحه مخطّط الموجات الصوتية للصوت اللغوي في الآيتين من

خلال الشكل رقم: 85



الشكل رقم: 85

(1) - الصابوني: صفوة التفاسير، مج2، ج20، ص402.

يمكن التعليق على هذا المخطط كما يلي:

- الخط الأخضر العمودي هو الذي يفصل الآية 47 عن الآية 48، لبيّن بذلك مجال الموجات الصوتية والنطاق النغمي لكل آية على حدة.

- الدوائر الحمراء تدلّ على سلسلة السكتات الإيقاعية التي عمد إليها القارئ، إمّا لأخذ النَّفَس، وإمّا تقيّدا بضوابط علم التجويد، فالسكتة الأولى جاءت بعد كلمة "رَسُولًا"، والثانية جاءت بعد كلمة "المُؤْمِنُونَ" أي بعد نهاية الآية 47، والثالثة بعد كلمة "قَالُوا" الأولى في الآية 48، والرابعة بعد كلمة "مُوسَى" الأولى في الآية 48، والخامسة بعد لفظ "قَبْلُ".

- المستطيلان الأزرقان يشيران إلى أقصى قيمة وصلت إليها طبقة الصوت، وهما يدلّان على موضعا ورود أداة "لولا"، فكما أشرنا سالفا أنّ هذه الأداة وردت ثلاث مرّات، الأولى والثالثة حرف امتناع لوجوب، والثانية للتحضيض، غير أنّ الأولى والثالثة عرفت علوا موسيقيا أكبر من الثانية، ولعلّ مرجع ذلك لكون الأولى جاءت رأس آية، والثالثة جاءت بعد سكت؛ أي وكأَنَّها رأس آية أيضا، أمّا الثانية فأحفّ منهما لكون أدائها قد ورد في سياق وصل لا وقف أو قطع.

في العموم يمكن توضيح المنحنى الإيقاعي المتذبذب الذي يعكسه لنا مخطط الموجات الصوتية في الصورة أعلاه كما يلي:

﴿وَلَوْلَا أَنْ نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [سكتة] ثمّ: ﴿رَسُولًا فَتَنْجِعْ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [سكتة لانتهاء الآية] ثمّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا ﴿٤٩﴾﴾ [سكتة]، ثمّ: ﴿لَوْلَا أَوْتِيَتْهُمَا نُورٌ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [سكتة]، ثمّ: ﴿أَوْ لَوْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ﴿٥١﴾﴾ [سكتة]، ثمّ ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا قَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [وقفه].

2- التمنيّ المجازي: نادرة هي حالات التمنيّ المجازي - وحتىّ الحقيقي كما رأينا - في سور الطواسين، إذا ما قُوبلت بغيرها من الأساليب الأخرى؛ فالمتنبّع لهذا الأسلوب في السور المذكورة، يجده أقلّ أشكال التعابير الإنشائية دوراننا مقارنة مع الاستفهام والأمر والنهي والنداء، ولعلّنا يمكن أن نتميّز خروج التمنيّ في هذه السور، عن غرضه الأصلي الذي وُضع من أجله وهو: طلب الأمر المحبوب، بين الحالتين التاليتين:

• خروج التمنيّ إلى العرض:

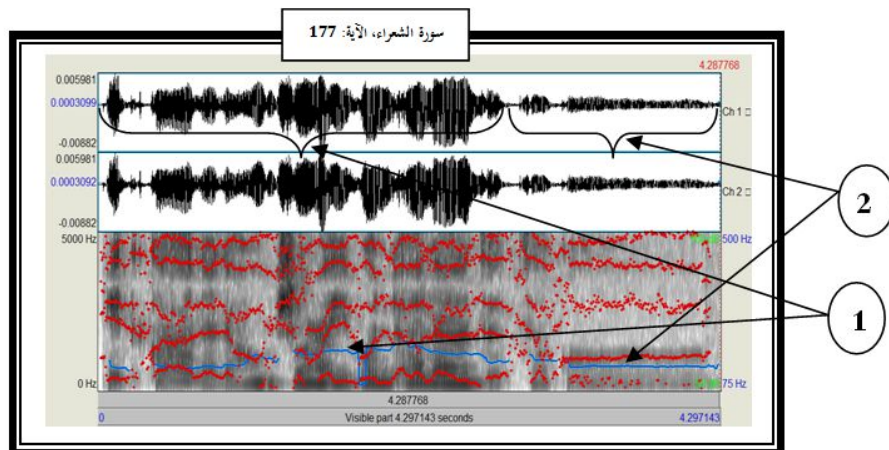
يخرج التمنيّ عن معناه إلى معنى العرض وهو: الطلب برفق ولين، حينما يكون المعنى الحرفي للآية مخالفا لما تقتضيه ألفاظها (الدلالة المستلزمة)، يحدث هذا سواء أكانت أدوات النداء حاضرة في نصّ الآية أم غائبة، مذكورة

أم عُوْضَتْ بأخرى، لأنَّ الغرض يكمن في السياق وليس في الأداة بالضرورة، فقد تكون الأداة حاضرة والسياق خارجا عن غرض التمني، وقد تكون الأداة غائبة والسياق يحيل إلى التمني، ومن النماذج التي خرج فيها التمني إلى طلب الشيء برفق في سور الطواسين، رغم غياب أداة التمني قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 124]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 161]، وقوله أيضا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 177].

والمعنى: ألا تخافون أن يدرككم الموت وأنتم على معصية ربكم؟ ألم يحن الوقت بعد لترك ما أنتم عاكفون عليه من عبادة الأوثان والأصنام؟ ألا تخلصون العبادة لله وحده، لعلَّ وعسى يغفر لكم الذنوب والآثام؟

طلب {هود، ولوط، وشعيب} من أقوامهم هذا الطلب، باستخدام أداة العرض (ألا) تلطفاً منهم، لعلَّ ذلك يلين قلوبهم، ويُرجعهم إلى جادة الصواب، وبالتالي يتحقق للطالب (الأنبياء) ما يتمناه، فالمُتَمَنَّى هنا غير مستحيل، لكنّه بعيد المنال، بل ربّما لا يمكن حصوله؛ لأنَّ الرسل رأوا من أقوامهم كلّ أنواع وضروب الإنكار، وسمعوا منهم شتى أشكال وألوان التكذيب، فلجأوا هنا لمخاطبتهم بأسلوب رقيق، عسى أن ينفع فيهم ذلك.

لاستحضار دلالة العرض والطلب بلطف الواردة في سياق التمني، يكفي أن تكون نعمة الأداء معتدلة ميّالة إلى الانحدار، وعليه تُتلى الآيات السابقة بالنمط نفسه، تُستهلّ بنعمة التقرير المستوية عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ...﴾، تليها نعمة مستوية هابطة موضع العرض عند قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. ونقدّم فيما يلي نموذجا واحدا فقط، قصد الوقوف على المنحنى الإيقاعي لنصّ الآيات، مادام أنّها تشترك غالبا في الألفاظ نفسها، وبالتالي لها نمط أدائي واحد:



الشكل رقم: 86

يشير الرقم 1 في الصورة أعلاه إلى النطاق النغمي الذي تمثله نعمة التقرير المستوية، أمّا الرقم 2 فيشير إلى

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

النطاق النغمي الذي تمثله النغمة الهابطة، لما يحتويه الكلام الوارد في سياق التمني من الطلب برفق وليونة.

أما عن قيم الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 177 من سورة الشعراء، فيوضحها

الجدول أدناه:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
82.525 هرتز	149.282 هرتز	208.429 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
4.30 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 177 من سورة الشعراء

• خروج التمني إلى التحضيض: وقد أحق البلاغيون بـ "هَلْ" و"لَوْ": "لَا" و"مَا"، فقالوا: {هَلَّا، لَوْلَا،

لَوْ مَا} يقصدون بها التمني كذلك.

قال "عنترة بن شداد":

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ فَرْجِيءً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا...﴾ [سورة يونس، الآية: 98].

وتقول: هَلَّا أَكْرَمْتَ صَاحِبِكَ، هَلَّا عَمِلْتَ بِنصِيحَتِي.

فهذه الأحرف دخلت على الفعل الماضي، والغرض منها عند ذلك التنديم، كأنما تريد أن تجعله يندم على

ما فرط منه، فإذا دخلت على المضارع فإن الغرض يكون التحضيض، أي الحث على طلب الشيء، قال تعالى:

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٧﴾﴾ [سورة الحجر، الآية: 07]، وتقول لصاحبك: هَلَّا تَجْتَهِدُ فَتَنْجِحُ،

لولا تقوم بواجبك فتشعر بالسعادة.⁽¹⁾

إذًا، فمثلما يخرج التمني إلى غرض العرض والطلب برفق، يخرج أيضا إلى التحضيض والطلب بشدة، من

ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 106]، وقوله

أيضا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 142].

وكما هو معلوم أنّ (أَلَا) بتخفيف اللام تكون للعرض، وبتشديدها تخرج إلى التحضيض، ومع ذلك فقد

جعل ثلثة من المفسرين أداة العرض هنا للطلب بالقوة، لا للطلب باللين، فهذا هو "محمد العثيمين" يقول مفسرا

الآية 106 من سورة الشعراء: «أَلَا في الأصل تكون للعرض، وهو الطلب برفق، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ

(1) - فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وألفاظها (علم المعاني)، ص 160-161.

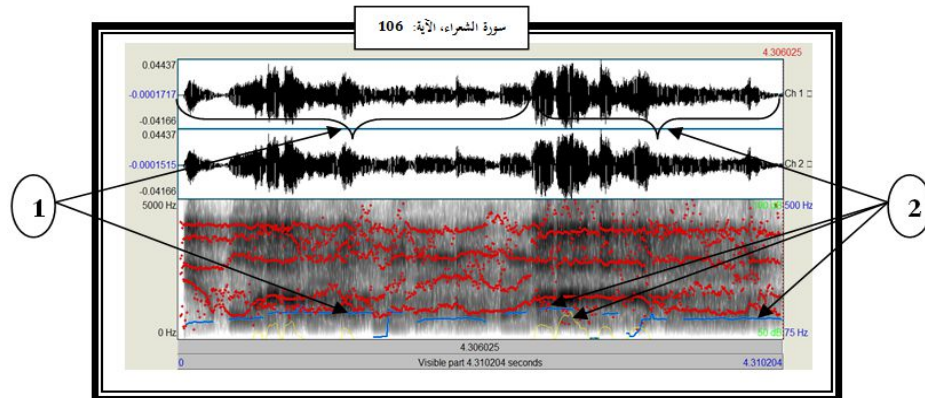
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٠٦﴾ [سورة الذاريات، الآية: 27]، ولكن المراد به هنا التحضيض، وهو الطلب بحث، يعني أنهم يحثهم على أن يتقوا الله عز وجل، ويتخذوا وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه»⁽¹⁾.

ورجوع قوم نوح إلى طريق الصواب من خلال القيام بأوامر ربهم، واجتناب نواهيه هو مبتغاه ومتمناه، فهو ليس بالأمر المستحيل المستبعد وقوعه، بل أنّ وقوعه وارد وممكن، لكنّه بعيد المنال، لأنّ نوحا دعا قومه قرابة عشرة قرون دون جدوى، وهذا ما جعل طلبه هنا بالقوة والشدة، لما قُوبل به من رفضٍ وتكذيبٍ ومبالغة في الإنكار، كلّ ذلك دفعه إلى اليأس من حالهم.

وفي المقابل هاهو "الشعراوي" يشير إلى أنّ الأداة (ألا) في الآية 142 من سورة الشعراء، قد وُضعت للتحضيض لا للعرض قائلا: «"أَلَا تَتَّقُونَ": إنّها استفهام إنكاري، تعني اتقوا الله، ففيها حثٌّ وحضٌّ على التقوى، فحين تُنكر النفي، فإنّك تريد الإثبات»⁽²⁾.

فصالح عليه السلام في هذه الآية كان يتمنى أن تجد رسالته القبول من طرف قومه، الذين كانوا غارقين في ملذات الدنيا، وفي عبادة الأصنام، متفاخرين بقوّتهم، معتزّين بأنفسهم، فلم يأبها برسالة صالح، ولم يعيروا لها اهتماما، وإثما بالغوا في تكذيبهم، حتّى بعد أن أظهر لهم المعجزة التي طالّبوا بها، وبالشروط التعجيزية التي اتفقوا عليها؛ وهي خروج ناقة عشراء من الصخرة الصماء، تلد أمام مرأى القوم، ومع ذلك كذبوه، بل أقدموا على عقربها رغم تنبيههم بعدم إذابتها، فأمنية صالح في الآية غير مستحيلة أيضا، لكنّها - تظنّ - بعيدة المنال؛ لغلو قوم ثمود في الإنكار واستمرارهم عليه، رغم ظهور البيّنات ووضوح الآيات، لذا كان جزاؤهم أن زلزل الله بهم الأرض، فلم يُبق منهم ديارًا.

والآيتان من الناحية الأدائية تُستهلانّ بالنعمة ذاتها، وهي: نعمة التقرير المستوية، تشمل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ...﴾، تليها نعمة التحضيض الصاعدة، عند قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. (انظر الشكل رقم: 87):



الشكل رقم: 87

(1)- ابن العثيمين: تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء، ص189.

(2)- الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، مج17، ص10646.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التركيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يشير الرقم 1 في الصورة أعلاه إلى النطاق النغمي الذي تمثله نغمة التقرير المستوية، أما الرقم 2 فيشير إلى النطاق النغمي الذي تمثله النغمة الصاعدة الهابطة دلالة على غرض التحضيض، ومما لا شك فيه أن هذا الغرض يحتاج إلى قوة وشدة في الطلب، لذا بلغ المنحنى الأصفر عند هذا الموضع من الآية قمته، والتي كادت أن تبلغ 60 ديسيبل، وللتوضيح أكثر نقدّم في الجدول أسفله النتائج التي أسفر عليها التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في الآية كما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
77.547 هرتز	138.440 هرتز	177.266 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	54.55 ديسيبل	59.68 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
4.31 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 106 من سورة الشعراء

وفي موضع آخر من سورة النمل يقول تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ

اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ [سورة النمل، الآية: 46].

فولوا هنا أداة تحضيض بمعنى "هلاً"، لأنّ ما بعدها فعل مضارع، وهي للطلب بشدّة، حيث وقعت في سياق عام هو التمتّي والترجّي، بدليل ورود أداة الترجي (لعلّ) بعدها، فأمنية صالح ^{الكليلة} في الآية بعيدة المنال، لكنّها ليست مستحيلة، فهو يتمّي أن يرى قومه تائبين من معاصيهم، عاكفين على عبادة ربّهم، بدلا من تلك الأصنام التي لا تنفعهم أكثر ممّا تضرّهم، وعلامة جهلهم: استعجالهم السيئة قبل الحسنه، حتّى وإن كانوا غير مستعدّين للحساب، وفي هذا تنبيه لهم عن الخطأ، يقول "المراغي" في تفسير الآية: «أي لم تستعجلون بالعقوبة التي يسؤكم نزولها بكم قبل حصول الخيرات، التي بشرتكم بها في الدنيا والآخرة إن كنتم آمنتم بي (...) هلاًّ تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم عظيم جرمكم، ويصفح عن عقوبتكم على ما أتيتم به من الخطايا، لعلكم ترحمون بقبولها، إذ قد جرت سنّته ألاّ تُقبل التوبة بعد نزول العقوبة».⁽¹⁾

والآية من الناحية التنغمية تُقرأ في بدايتها بنغمة معتدلة تشمل النداء الذي خرج مخرج النصح؛ أي قوله:

﴿قَالَ يَقَوْمِ﴾، تليها نغمة صاعدة موضع الاستفهام الذي خرج إلى غرض التنبيه عن الخطأ، وكذا موضع

التحضيض الوارد في سياق التمتّي، أي قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾، لتندحر

نغمة الآية شيئا فشيئا عند قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

(1) - المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 19، ص 95.

المبحث الثاني: النداء

المطلب الأول: مفهومه وأدواته

1- تعريف النداء: النداء هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة (أدعو)، والغاية منه أن يصغي من تناديه إلى أمر ذي بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم شرعي، ونحو ذلك من الأمور المهمة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنِيُّ قُمْ فَأَنْذِرْ ۖ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝ وَيَا بَا بَكَ فَطَهِّرْ ۖ﴾ [سورة المدثر، الآيات: 01-04]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَبُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝﴾ [سورة المائدة، الآية: 87]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [سورة التحريم، الآية: 01]، وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ...﴾ [سورة الطلاق، الآية: 01].⁽¹⁾

إذاً، فوظيفة النداء في الكلام هي: التنبيه، والكلام المشتمل على النداء ينقسم إلى قسمين هما:⁽²⁾

- **لفظ النداء:** وهو أداة التواصل بين الطرفين، ويشمل هذا اللفظ: حرف النداء، ويكون متبوعاً باسم المنادى.

- **الرسالة:** وهي المضمون المراد توصيله إلى المخاطب.

وستكون لنا إشارات إلى هذين القسمين في الجانب التطبيقي إن شاء الله تعالى.

2- أدوات النداء:

أدوات النداء أدوات حرفية عددها ثمان، والمستعمل منها: {يا، الهمزة (أ)، أي، آيا، هيا}، وتندُر استعمال: {آ، أي، وا}، هذا وقد عُدَّت الهمزة (أ) و(أي) لنداء القريب، وعُدَّت (يا) لنداء القريب والبعيد معاً، ولذلك كانت الأدرج استعمالاً، وقد تظهر أو تُحذف وتُقَدَّر، تقول مثلاً: يا أخي أقبل لتساعدني، أخي أقبل لتساعدني، أما بقية الحروف فتستعمل للبعيد فقط.⁽³⁾

وقد يُنزل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة أو أي، تنبيهاً على أنه لا يغيب عن القلب، بل هو مالك

الفؤاد واللَّب، فكأنه حاضر الجثمان، ليس بناءً عن العيان، كقول "الضيبي" في رثاء ابنه:

أَبِي لَا تَبْعُدْ وَلَيْسَ بِخَالِدٍ ۖ حَيٌّ وَمَنْ تُصِيبِ الْمُنُونُ بَعِيدٌ⁽⁴⁾

(1) - عبد الفتاح فيود بسويوني: علم المعاني - دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، ص 410.

(2) - باطاهر بن عيسى: البلاغة العربية مقدمات وتطبيقات، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، 1، 2008م، ص 89.

(3) - قدري مايو: المعين في البداية (البيان، البديع، المعاني)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1، 1420هـ / 2000م، ص

ص 182-183.

(4) - أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، ص 81.

كما قد يحدث العكس، فَيُنزَّلُ القريب منزلة البعيد، فينادى بإحدى أدواته إمّا: (1)

- للدلالة على أنّ المنادى رفيع القدر عظيم الشأن، فيجعل بُعد المنزلة كأنه بُعدٌ في المكان، كقول "أبي بكر بن النطّاح" في مدح "أبي دلف العجلي":

أَبَا دُلْفٍ بُورِكْتَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ﴿٢٨﴾ كَمَا بُورِكْتَ فِي شَهْرَهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ

- للإشارة إلى أنه وضيع منحطّ الدرجة، نحو قول "الفرزدق" يهجو "حريرا":

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْتَنِي بِمِثْلِهِمْ ﴿٢٩﴾ إِذَا جَمَعْتَنَا يَا حَرِيرُ الْمَجَامِعِ

- للإشعار بأنّ السامع غافل لاه، فتعتبره كأنه غير حاضر في مجلسك، ومثال ذلك قول "أبي العتاهية":

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا غَرِيبٌ ﴿٣٠﴾ وَأَمْضَى الْعُمْرِ فِي قَيْلٍ وَقَالِ

المطلب الثاني: أغراض النداء البلاغية

يتحدّد الغرض البلاغي للنداء من خلال العلاقة القائمة بين المنادى والمنادى، بعد القيام بعملية النداء مباشرة، فإذا كان هذا الأخير صريحاً واضحاً، لا يحتاج إلى قرائن أخرى لإدراك مقصوده، صار الغرض منه طلب إقبال المنادى وتهيئته لاستقبال المطلوب منه، أمّا إذا احتاج التعبير إلى قرائن سياقية لغوية كانت أم غير لغوية لفهم المراد من النداء، خرج حينئذ عن مقتضى ظاهره إلى معاني أخرى خفيّة ضمنية، زائدة عن المعنى الأصلي الذي وُضع له الأسلوب، هذا وقد اختلف علماء البلاغة في مسألة تنزيل المنادى، أنكون حينها أمام أسلوب حقيقي، أم أسلوب بلاغي، فهناك من قال أنّ تنزيل البعيد منزلة القريب أو العكس؛ أي تنزيل القريب منزلة البعيد هو الأصل في النداء، ولا يمكن أن يكون في ذلك عدولاً دلالياً، في المقابل يرى فريق آخر أنّ مثل هذا التوجّه كفيّل بإخراج النداء إلى معاني مجازية، تُدرك من خلال السياقات وقرائن الأحوال المختلفة.

1- النداء الحقيقي:

إنّ أغلب الحالات التي ورد فيها النداء في سور الطواسين، خرج عندها إلى معاني إضافية، يُتوصّل إليها من خلال السياق و عملية أداء السلاسل الكلامية، ونادراً ما كان الغرض منه طلب الإقبال، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نمثّل للنداء الحقيقي بقول المولى تعالى في سورة النمل: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَلَيْسَ الْفُقَرَاءُ عَلَيْكُمْ كَرِيمٌ﴾ [سورة النمل، الآية: 29].

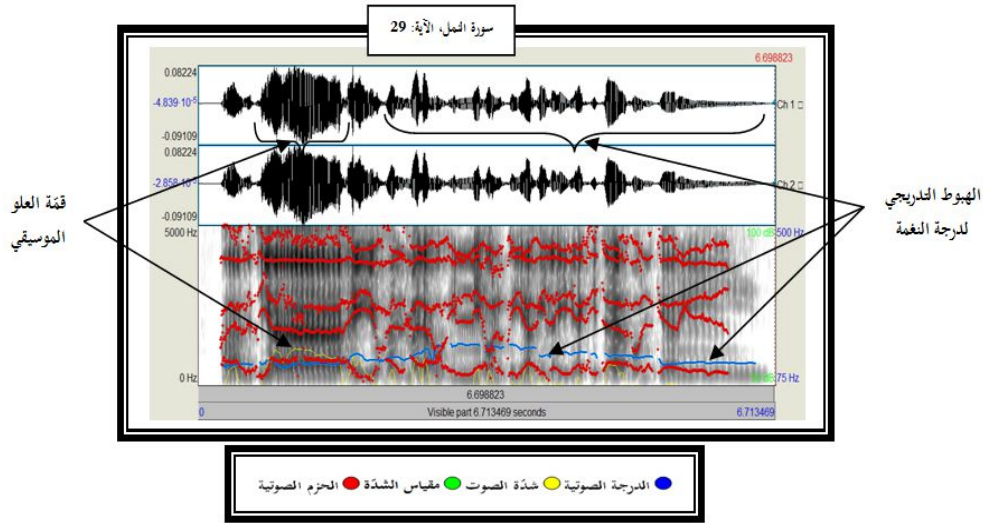
واضح من خلال هذا النداء أنّ المقصود منه هو: طلب الإقبال؛ لوجود مطابقة حرفية بين الجملة التلفظية وحوادثها الدلالية، فبعد أن استقبلت بلقيس رسالة سليمان، وقرأت ما فيها، دعت أشرف قومها، وجمعتهم

(1) - ينظر: أحمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة: البيان والمعاني والبدیع، ص81، وكذا: يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، ص 85.

لاستشارتهم وأخذ رأيهم فيما عُرض عليها في الكتاب.

يُصنّف النداء الصريح ضمن مواضع الرفع في الأداء، وفي ذلك يقول "أحمد البايبي": «إنّ النداء يحتاج إلى تصويت وإلى امتداد بحروفه، أو لنقل إلى ذرات نغميّة تتسم بالعلوّ...»⁽¹⁾.

قياسا على هذا تُفتتح الآية الكريمة بنغمة مستوية، تشمل المقطعين المتوسطين الأوّلين المشكّلين للفظ {قَالَتْ = ص ح ح + ص ح ص}، تليها نغمة النداء الصاعدة، تمتدّ لتشمل باقي مقاطع الآية، غير أنّها تعرف انحدارا ملحوظا في مقاطعها الأخيرة، دليلا على وجود وقفة صوتية فاصلة بين هذه الآية والتي تليها. والشكل التالي يوضّح المنحنى الإيقاعي للآية:



الشكل رقم: 87

نلاحظ من خلال الصورة أنّ الآية تبدأ بنغمة معتدلة نسبيا، ثمّ تبلغ أعلى قمّة موضع النداء، حيث يحتاج القارئ هنا إلى بذل جهد أكبر، ودليل ذلك أنّ المنحنى الأصفر سجّل في هذا الموضع أعلى قيمة أكوستيكية تجاوزت 61 ديسيبل، يظلّ المنحنى اللحنى للآية يعرف تذبذبا بين الاستواء والصعود تماما مثلما يوضّحه المنحنى الأزرق، ليشهد في النهاية هبوطا تدريجيا إلى أن يبلغ أدنى درجات الانحدار والتي وصلت إلى 121.774 هرتز، ولتفاصيل أكثر نورد نتائج التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي على مستوى نصّ هذه الآية في الجدول أدناه:

(1) - أحمد البايبي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوابة الإيقاعية، ج 1، ص 374.

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
121.774 هرتز	144.631 هرتز	186.697 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54.98 ديسيل	61.30 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
6.71 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 29 من سورة النمل

2- خروج النداء عن مقتضى الظاهر: لعل من أبرز الأغراض البلاغية للنداء نذكر:

• **النداء للدعاء:** كثيرة هي مواضع النداء التي خرجت في سور الطواسين عما يقتضيه ظاهر تركيبها إلى غرض الدعاء، تكون لقرائن الأحوال المختلفة بما في ذلك التنغم فاعلية في إبرازه، بعض هذه المواضع جاء فيها النداء متبوعاً بالأمر، والبعض الآخر ورد متبوعاً بالتأكيد، لذا كانت الغاية منه في الحالتين: تنبيه المنادى للإصغاء إلى أمر ذي بال، ومن هذه المواضع نذكر:

قال تعالى في سورة الشعراء على لسان نبيّه إبراهيم **الصلوات**: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 83]، وقوله في موضع آخر من السورة ذاتها على لسان نبيّه لوط **الصلوات**: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَبْعَثُونَ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 169].

وقال في سورة النمل على لسان نبيّه سليمان **الصلوات**: ﴿فَتَبَسَّصَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 19].
أما في سورة القصص فقال على لسان نبيّه موسى **الصلوات**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة القصص، الآية: 21]، وقوله أيضاً: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَاءً تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص، الآية: 24].

وفي آخر موضع خرج فيه النداء إلى الدعاء في سور الطواسين، قوله تعالى في سورة القصص على لسان موسى **الصلوات**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ [سورة القصص، الآية: 33].

أغلب هذه النماذج التي سقناها، كانت قد مرّت بنا في مبحث الخبر الخارج عن مقتضى ظاهره، وكذا الأمر الذي خرج إلى غرض الدعاء أيضاً، وجاء تكريرها هنا لاجتماع النداء في سور الطواسين مع عدّة أساليب أخرى الخبرية منها والإنشائية بمختلف أنواعها.

إنّ الناظر إلى هذه النماذج تبدو له من الوهلة الأولى أنّها لا تمتّ بصلة لأسلوب النداء، ويكمن السبب في

عدم وجود أداة نداء في هذه الآيات جميعها، وهذا هو القاسم المشترك الذي يجمعها؛ فالنداء حينما يكون موجّهاً إلى الله عزّ وجلّ، كما هو الحال في الآيات السابقة الذكر، يخرج عن الأصل الذي وُضع له وهو طلب الإقبال، ليُصبح دالاً على الدعاء، لذا أجاز علماء اللغة حذف حرف النداء في مثل هكذا أساليب. يقول "محمود سليمان ياقوت" في معرض حديثه عن الحذف في الآية 83 من سورة الشعراء، على سبيل التمثيل والتعميم؛ كون جميع الآيات المذكورة جاءت على شاكلتها، يقول: «ربّ: منادى بحرف نداء محذوف، وياء المتكلم المحذوفة (= يا ربّي) مضاف إليه، أي قال إبراهيم **الصلوات** داعياً». (1)

هذا، وقد تمثّلت حجّتهم في تبرير هذا الحذف، أنّ الله سبحانه وتعالى قريب من عباده، سميع لدعائهم لا يغيب عنه مثقال ذرّة، وعليه عدّ علماء البلاغة إثبات الأداة في التعبير الندائي الموجّه لله، خروجاً به إلى غرض التنبيه، وهذا لا يجوز مع الخالق عزّ وجلّ، يقول "أبو الحسن الوزّاق" مؤكّداً هذا الكلام: «ويجوز أن يكون الحذف كثيراً في القرآن، لأنّ الله تعالى قريب ممّن يدعو، فلهذا حُذِفَ النداء». (2)

ويذكر "الزركشي" سبباً آخر يعلّل به حذف الأداة قبل لفظ "الربّ"، ويبيّن سرّ هذا الحذف قائلاً: «وكثر ذلك في نداء الربّ سبحانه، وحكمة ذلك دلالة على التعظيم والتنزيه؛ لأنّ النداء يتشرّب معنى الأمر؛ لأنّك إذا قلت: يا زيد، فمعناه أدعوك يا زيد، فحذفت (يا) من نداء الربّ، ليزول معنى الأمر، ويتمحّض التعظيم والإجلال». (3)

الحقيقة أنّه لا ينبغي دائماً أن نحمل قواعد النحو كامل المسؤولية في محاولة إيجاد مخرج لمثل هكذا حالات، لأنّ كثيراً منها يمكن التعويل في معالجتها على الأداء بالدرجة الأولى، لذا كان جدير بنا أن نكفّ عقولنا عن هذه التأويلات، التي تُرجع السبب فيها دائماً إمّا لذكرٍ أو حذفٍ، تقديمٍ أو تأخيرٍ وما إلى ذلك، خصوصاً وأنّ لغتنا العربية لغة منطوقة، وتعتمد على آليات وقرائن شفوية من شأنها أن تخرجنا من مأزق أحادية التأويل، والاستناد فقط على قواعد النحو. يقول "أحمد البايبي" مبيناً هذه الفكرة ومعزّزاً هذا التوجّه: «إنّ التنعيم يقوم بدوره كاملاً من خلال نطاقاته في جملة النداء؛ وذلك بدعم من حرف النداء، أو في غيابه التام، وممّا يؤكّد هذا الأمر أنّ نماذج ورود جملة النداء من غير حرف في القرآن العظيم، قاربت من حيث العدد النماذج الواردة مع الحرف، وهذا ما

(1) - محمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم، مج7، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، دس، ص335.

(2) - أبو الحسن محمد بن عبد الله الوزّاق: علل النحو، تح: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط1، 1420هـ/1999م، ص348.

(3) - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج3، ص213.

يؤكد قيمة الأداء القرآني». (1)

إذاً يُفهم ممّا سبق أنّ التنغم قادرٌ على تسييق التراكيب، وجعلها ضمن أسلوب النداء، وإن كانت خالية من أدوات النداء، لأنّ قرينة التنغم تحلّ محلّ المحذوف وتدلّ عليه، وبهذا يكون قد أدّى وظيفته السياقية على أكمل وجه، فهاهو الباحث "عبد القادر بن فطّة" يسوق بدوره كلاماً، يؤكد من خلاله ما ذهبنا إليه قائلاً: «فالجملّة البلاغية تختلف نغماتها وفقاً لأنواع التراكيب، وقد تميّزها الأدوات في بعض المواقف، إلاّ أنّ التنغم ضروري لرفع الاختلاف بغية الوصول إلى المقصود، وحين تُحذف تلك الأدوات، فطريقة الأداء بنغمة ملائمة للمقام، تُشعرنا بوجود أداة محذوفة». (2)

هذا، وقد عرفت النصوص القرآنية التي تمّ استعراضها، والتي خرج فيها النداء المحذوف أدواته إلى غرض الدعاء، عرفت منحنيات متذبذبة، وطبقات لحنية متباينة، تراوحت بين نغمات متنوّعة؛ لأنّ كلّ آية منها لها خصوصية نطقية، تبعاً لما تحتويه من أساليب وأغراض مختلفة تتحكّم في نمط الأداء، وتفرض اتجاهها نغمياً مناسباً لها.

ففي الآية 83 من سورة الشعراء، يدعو إبراهيم عليه السلام ربه أن يؤتیه العلم النافع والرأي السديد، وأن يؤفقه في طاعته حتّى يكتب من الصالحين، وفي دعائه هذا إصرار وإلحاح، ودليل ذلك تكرار مواطن الدعاء أكثر من مرّة في هذه الآية والآيات التي تأتي بعدها، لذا كان من الأنسب أن تُؤدّى الآية استدعاءً للغرض بنغمة صاعدة على طول مقاطعها الصوتية، متّجهة نحو الهبوط آخرها.

أما الآية 169 من السورة ذاتها، فإنّها تُصوّر لنا تضرّع لوط عليه السلام لربه، تعبيراً عن حاجته لرحمته سبحانه، لذا يُفضّل أن تُتلى الآية بنغمة مستوية باتجاه الهبوط، تناسب مع عجزه وضعفه.

وفي الآية 19 من سورة النمل: نجد دعاء سليمان ربه، يطلب منه التوفيق على شكر النعم التي منّها عليه، حيث كان في دعائه مصرّاً على الطلب، ملحّاً على الإجابة، من هنا كان من الأحسن لاستحضار هذا الغرض رفع الصوت بالقراءة، وعلى هذا الأساس، تُؤدّى الآية عموماً بنغمة عالية، لما فيها من معاني التعجّب والنداء والأمر الخارجة لغرض الدعاء، تتدرّج هذه النغمة شيئاً فشيئاً نحو الانحدار أواخر الآية، دليلاً على اكتمال المقصود، وحصول المعنى المراد إيصاله.

في حين تمتزج في الآيتين 16 و 17 من سورة القصص، عدّة أساليب: النداء والأمر للدعاء والضراعة، الخبر

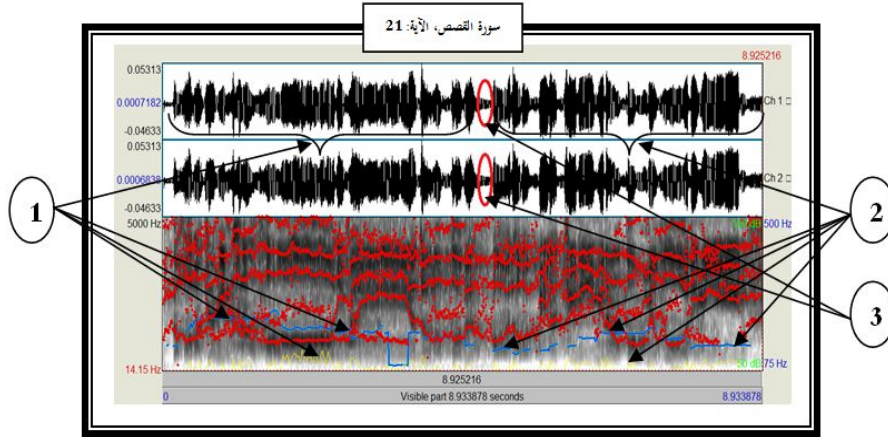
(1) - أحمد البايبي: القضايا النظرية في القراءات القرآنية - دراسة لسانية في الصوارة الإيقاعية، ج 1، ص 376.

(2) - عبد القادر بن فطّة: "أصالة التنغم في القرآن الكريم"، ص 77.

للاسترحام والاستعطاف، وكلها أغراض فيها ضعف وتدلل من موسى لربه جلّ وعلا، ومثل هكذا أغراض هي بحاجة - أكيد - إلى نمط تنغمي منخفض، وعليه فإن الآيتين تُؤدّيان بالنمط نفسه، حيث تُستهلّ كل واحدة منهما بنغمة التقرير المستوية، تميل هذه الأخيرة إلى الهبوط التدريجي في نهايتها.

ولا تبعد المواضع المتبقية للنداء في نمطها اللحني عن الآيتين 16 و 17 من سورة القصص؛ ففيها جميعا يعبر موسى ^{عليه السلام} عن ضعفه وشدة حاجته إلى حماية ورعاية ربه له، وعطفه وحنانه عليه، حيث تُستهلّ الآيات الثلاث الأخيرة كلها بالنغمة عينها، هي: النغمة المستوية تشمل قوله: ﴿فَرَجَّ مِنْهَا خَائِفَاتٍ رَبُّهُ﴾ [سورة القصص، الآية: 21]، وقوله: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [سورة القصص، الآية: 24]، وقوله أيضا: ﴿قَالَ﴾ [سورة القصص، الآية: 33]، تليها نغمة مستوية هابطة؛ لارتباط معنى الجملة اللاحقة بمعنى الجملة السابقة، أي قوله: ﴿قَالَ رَبِّ يَجْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة القصص، الآية: 21]، وقوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص، الآية: 24]، وقوله أيضا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ [سورة القصص، الآية: 33].

بغرض تقريب الفكرة أكثر، نقدّم مخطّطًا تمثيلاً لنموذج واحد من النماذج المذكورة - نظرا لكثرتها - حتى يتسنى لنا توضيح المنحنى الإيقاعي لنص الآية كما يلي:



الشكل رقم: 88

يمثل الرقم 1 النغمة المستوية، أمّا الرقم 2 فيمثل النغمة المستوية الهابطة، حيث يشهد النطاق النغمي لهذه الأخيرة تذبذبا في مستوى الصوت يتراوح بين الاعتدال حيناً والانحدار حيناً آخر، ممّا جعل المنحنى الإيقاعي للآية غير مستقرّ، وهذا ما يتّضح جلياً من خلال المنحنيين الأزرق (درجة الصوت)، والأصفر (شدة الصوت)، حيث يفصل بين النغمتين سكتة إيقاعية كما يشير إلى ذلك الرقم 3.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

وعلى هذا الأساس يمكن تلخيص مجمل النتائج، التي تمّ التوصل إليها بواسطة التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في هذه الآية، من خلال الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
78.656 هرتز	168.975 هرتز	243.256 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	53.41 ديسيل	56.82 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
8.93 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 21 من سورة القصص

● **النداء لطلب المشورة:** إنّ الغاية الرئيسة من النداء في القرآن الكريم في الأغلب الأعمّ، تتمثّل في تنبيه المنادى للإصغاء إلى النداء، لذا فقد غلب على هذا الأسلوب أن يليه إمّا أمراً أو نهياً أو استفهاماً أو إخباراً بحكم شرعي.

لعلّ من مواضع تتابع النداء والأمر في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَقًّا شَهِدُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 32].

إنّ النداء هنا جاء بعد أن اطلّعت ملكة سبأ على رسالة سليمان عليه السلام، إذ دعاها فيها إلى ضرورة التخلّي عن عبادة الشمس، وخصّه وحده سبحانه وتعالى بالربوبية، فهي لم تُعجّل باتّخاذ القرار بمفردها، والبثّ فيه بسرعة، بل أبت إلاّ أن تُشارك أشراف قومها، لعلّهم يصلون معها إلى قرار صائب ورشيد، الأمر الذي دفعها إلى توجيه ندائها إلى الملأ من قومها فقط: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ﴾، على الرغم من كون المسألة تعني الجميع دون استثناء، إلاّ أنّها فضّلت مشاركة هذه الفئة دون غيرها لرجاحة عقلها، قصد الوصول إلى رأي سديد وموقف حازم، فهي بهذا قد تنزّلت إلى مشاورة من هم أقلّ منها مكانة، كونها ملكة عليهم، لا لأيّ شيء آخر إلاّ لمصلحة قومها جميعاً. قال "الزمخشري": «... والمراد بالفتوى ههنا الإشارة بما عندهم فيما حدث لها من الرأي والتدبير...»⁽¹⁾.

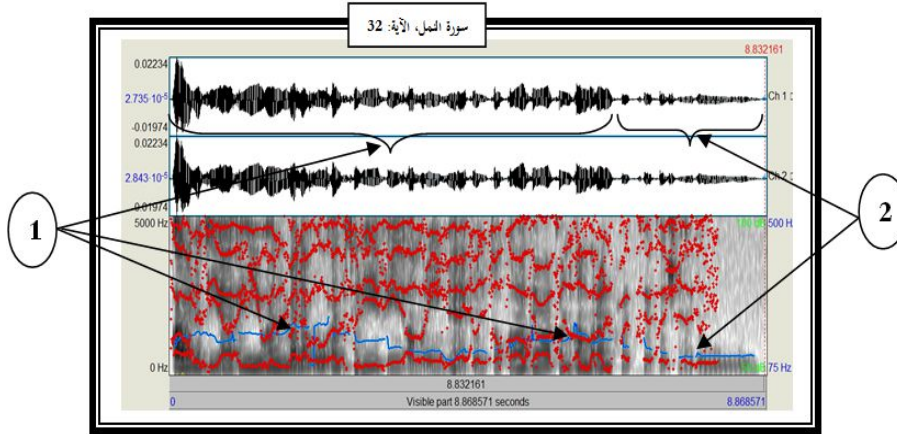
إلى جانب ذلك أرادت من خلال ندائها أن تنبّه أشراف قومها، إلى خطورة اتّخاذ القرار لوحدها، والتأكيد على صعوبة الموقف الذي وضعها فيه سليمان، لذا كان التعبير هنا بأداة نداء متبوعة بأداة واصلة وحرف تنبيه. يقول "سيبويه" في بيان ما تؤدّيه "أيّ" الواصلة وحرف التنبيه المتّصل به من تأكيد في أسلوب النداء: «وأما الألف والهاء اللتان لحقتا "أيّ" توكيدا، فكأنّك كرّرت (يا) مرّتين، إذا قلت (يا أيّها)، وصار الاسم بينهما كما صار هو بين ها وذا إذا قلت ها هو ذا»⁽²⁾.

(1) - الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج19، ص782.

(2) - سيبويه: الكتاب، ج2، ص197.

من أجل إظهار دلالة المشورة التي خرج إليها كلٌّ من أسلوب النداء والأمر أعلاه، أمكننا تأدية الآية بنغمة الاعتدال المتوسطة، التي توحى بجوّ هادئ يسوده تبادل سلس لأطراف الحديث، تُفضي مخرجاته إلى حكم رشيد ورأي سديد، يجلب النفع للعامّ والخاصّ.

وعلى هذا الأساس تُقرأ الآية بتنغيم مستوٍ وبتزمين بطيء، يميل نحو الانحدار أواخر مقاطعها الصوتية، أي عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونَ﴾ دلالة على اكتمال المعنى المراد إيصاله. (انظر الشكل رقم: 89)



الشكل رقم: 89

يعكس لنا النطاق النغمي الذي يُشار إليه في الصورة بالرقم 1 النغمة المستوية، في حين يشار بالرقم 2 إلى ذلك النطاق النغمي الذي يمثل النغمة الهابطة في نهاية الآية، وأما عن طابع الهدوء الذي يصاحب أداء الآية فيتّضح جلياً من خلال غياب المنحنى الأصفر، كمؤشّر على عدم وجود جهد عضلي مبدول، كونه المسؤول عن إبراز قيم شدّة الصوت، هذه الأخيرة التي لم تتجاوز خلال المدة المستغرقة لقراءة كلّ مقاطع الآية عتبة الخمسين ديسيبل، ولتقريب الفكرة أكثر يمكن إبراز مختلف القيم الفيزيائية المسجّلة خلال هذا التحليل في الجدول أدناه كما يلي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
90.597 هرتز	167.294 هرتز	232.971 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	50.21 ديسيبل	50.52 ديسيبل	شدّة الصوت (Intenisty)
8.67 ثانية			التزمين (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 32 من سورة النمل

- النداء للتحذير والإغراء: وهو الحثّ على طلب الأمر ولزوم الشيء الذي ينادى له، كقولك لمن يتظلم:

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغيي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

يا مظلوم تكلم، فليس المراد هنا: طلب حقيقة الإقبال لأنه حاصل، ولا معنى لطلب الحاصل، وإنما المراد بالنداء إغراؤه وحثه على بث الشكوى وإظهار التظلم... وكقولك لمن يتردد في الإقدام: يا شجاع تقدم، تريد حثه على المضي والتقدم.⁽¹⁾

إذاً، كثيرٌ ما يلزم غرض الإغراء معنى التحذير ويقترن به، لسبب واحد وهو: إنَّ في كليهما تنبيه، غير أنَّ التنبيه فيهما مختلف، فإذا كان «التحذير: تنبيه المخاطب على أمر مكروه ليتجنبه، فإنَّ الإغراء تنبيه المخاطب على أمر محمود ليفعله».⁽²⁾

من المواضع التي خرج فيها النداء مخرج التحذير في سور الطواسين، قوله تعالى في سورة النمل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ وَادِ النَّعْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّعْلُ ادْخُلْوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 18].

اجتمع في الآية ثلاثة أساليب إنشائية، من بين الثلاثة أسلوب النداء بأداة "يا"، والمنادى (جماعة النمل)، حيث فصل بين الأداة والمنادى أداة وصل للنداء، بما يمكننا الوصول إلى المنادى وهي: "أي"، والتي جاءت بدورها متصلة بأداة التنبيه "ها"، فكما هو معلوم في اللغة أنه لا يصلح نداء المعرف بالألف واللام بأداة "يا" لوحدها، فليس مألوف في العربية أن نقول مثلاً: "يا النمل"، ولكن يصح قولنا "يا نمل"، وعليه كان واجب من أجل الوصول إلى المنادى الاعتماد على أداة واصلة هي: "أي". ولا يخفى ما في الآية من تنبيه لاتصال أداة الوصل للنداء بحرف التنبيه "ها"، إلى جانب الغاية من هذا النداء؛ فهو هنا لتنبيه المنادى (النمل) لضرورة الإصغاء إلى النداء المتبوع بالأمر والنهي، وهذا ما أصبغ على التعبير الندائي دلالة التحذير، قال "سيد قطب": «جاء معنى التحذير في خطاب نملة لصوجباتها خطاب الآدميين، تحذّرهم من سليمان وجنوده، خوفاً من كسرهم وهم لا يشعرون».⁽³⁾

وقد مثل نداء النملة لرفيقاتها خطاب غير العاقل بلغة العاقل، وهذا ما قصده "سيد قطب" بقوله "خطاب الآدميين". يقول "البيضاوي" موضحاً ذلك: «كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرّت عنهم مخافة حطمهم، فتبعها غيرها، فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعها، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء

(1) - ينظر: عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في علم المعاني، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنيّة، الإسكندرية، مصر، دط، دس، ص101. وكذا: عبد

الفتاح فيود بيسيوي: علم المعاني - دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، صص 414 - 415.

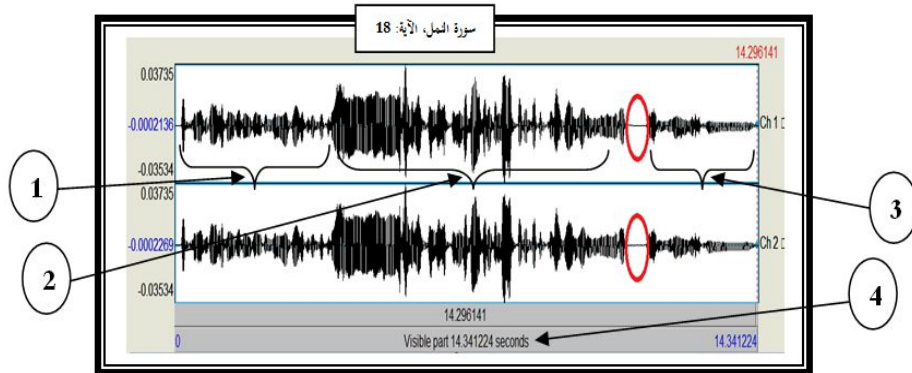
(2) - عبد السلام محمد هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، ط1، 1421هـ/ 2001م، ص152.

(3) - سيد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج19، ص2636.

ومناصحتهم، ولذلك أُجروا مُجْرَاهُمْ، مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقل والنطق»⁽¹⁾.

والنملة في هذا الخطاب قد نزلت رفيقاً منزلة البعيد، رغم تواجدهم في المكان ذاته، وذلك لما رأت فيهم من الغفلة ما رأت، فجاء خطابها بأداة "يا" لإشعارهم بعظمة وخطورة ما سيحدث لو أنهم التزموا أماكنهم، ولم يعجلوا بالدخول إلى مساكنهم، الأمر الذي يستدعي منهم الالتزام بالحيطه والحذر، وتوخي اليقظة والانتباه.

أما من الناحية الأدائية فلا يختلف النمط التنغمي الخاص بالنداء، عن النمط الذي يحتاجه غرض التحذير، فكلاهما من مواضع الرفع في الأداء كما رأينا، إلا أن طريقة التنغم ونبرة الصوت تمتاز من غرض لآخر، وتقف معوّلاً للتفريق بين المعاني والدلالات، وعلى هذا الأساس تُتلى الآية 18 من سورة النمل بنغمة مسطّحة في بدايتها؛ أي عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَاسَّوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ﴾، تليها نغمة تحذيرية صاعدة، يصاحبها إيقاع قوي، يواكب الغرض الذي خرج إليه كلٌّ من أسلوب النداء والأمر والنهي في الآية، لتبدأ النغمة بعدها في الانحدار التدريجي شيئاً فشيئاً نهاية الآية، أي بداية من قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، غير أن هذا المنحنى قد يشهد تغيراً طفيفاً في حالة ما إذا أراد القارئ أن يوصل للسامع غرضاً آخر غير التحذير، ألا وهو الوعظ والإرشاد، فقد تستقيم دلالة الآية - أيضاً - حينما تخرج فيها الأساليب الإنشائية الثلاثة المذكورة كلها أو بعضها، إلى غرض نصح النملة لرفيقاتها بالإسراع في الدخول إلى بيوتها مخافة الحطّم، فتتحوّل حين ذاك النغمة من العلوّ (النغمة الصاعدة)، إلى الاعتدال (النغمة المستوية)، وكلّ ذلك منوط أساساً بالمعنى الذي يريد المتكلّم إيصاله للمتلقّي، وعند هذه النقطة يكون التنغم بعدّه فونيميا فوق قطعي، قد أدّى وظيفته التمييزية في النظام اللغوي. هذا ويمكن توضيح ما قلناه من خلال مخطّط الموجات الصوتية الذي بيّنه الشكل رقم: 90.



الشكل رقم: 90

تمثّل الأرقام في هذه الصورة ما يلي:

الرقم 1: النطاق النغمي للنغمة المستوية بداية الآية.

(1) - البيضاوي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، مج 2، ج 19، ص 563.

الرقم 2: النطاق النغمي لنعمة التحذير العالية وسط الآية.

الرقم 3: النطاق النغمي الذي يمثل بداية انحدار درجة الصوت (النعمة الهابطة) نهاية الآية، تكون مسبقة بسكتة إيقاعية تفصلها عن نعمة التحذير، وهي المحاطة بالدائرة الحمراء في الصورة أعلاه.

الرقم 4: المدّة المستغرقة (الترمين) في أداء الآية والتي بلغت 14 ثانية و34 جزء من الثانية، ولمّا تجاوز الأداء المدّة المسموح بها لإظهار برنامج برات للخصائص الفيزيائية للموجات الصوتية وهي عشر ثوان، اكتفى هذا البرنامج فقط بعرض مخطّط للموجات الصوتية، والتي يفيدنا أيضا في معرفة النمط اللحني للآية، واتجاهات سلسلة النغمات فيه.

وقال في موضع آخر من سورة القصص: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة القصص، الآية: 20].

لقد مرّت بنا الآية أثناء الحديث عن خروج الأمر إلى معنى النصح والإرشاد، ومّا لا شكّ فيه أنّ النداء هنا لا يُراد منه طلب الإقبال، فذلك يتنافى مع المعنى العام للآية، بل فيه تحذيرا لموسى من مكائد فرعون، وخوف الرجل الذي جاء إليه ناصحا، وإشفاقه على موسى من أن يصيبه أيّ مكروه مدبّر من فرعون وحاشيته، وكلا الغرضين يكتمل أحدهما الآخر، كأنّ تقدير الكلام: «يا موسى: إنّ الملك وبطانته وأشراف دولته يدبّرون لك المكائد، وينصبون لك الحبال، يريدون أن يقتلوك، فالبدارَ البدارَ والهرب الهرب قبل أن يقبضوا عليك، وينفذوا ما دبّروه ويقتلوك، فخرج من المدينة مسرعا، وإني لك لناصر أمين»⁽¹⁾.

وهذه الآية تُفتتح بنعمة التقرير المستوية، تمتد لتشمل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾، تليها سكتة صوتية متبوعة بنعمة مستوية فصاعدة، لعدم تمام الكلام الأوّل، واتّصاله بما يليه؛ أي عند قوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، فالنداء هنا للتحذير، ولا مجال لإبرازه إلّا من خلال رفع الصوت موضع التحذير، تلي هذه النعمة نعمة مستوية موضع الأمر للنصح، تتدرّج هذه الأخيرة نحو الهبوط شيئا فشيئا إلى آخر الآية.

● **النداء للتهديد:** وذلك حينما يرد النداء في سياق الوعيد، مثاله من سور الطواسين قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْصُرْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 116]، وقوله في موضع آخر من هذه السورة: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 167].

الظاهر من خلال الآيتين أنّ النداء فيهما لا يُراد به طلب حقيقة الإقبال، لأنّه حاصل أصلا، فهو بينهم وقريب منهم، وإمّا المقصود به تخويف المنادى وتهديده بالمصير الذي اتّفقوا عليه، لولا أنّه لم يكف عن دعوتهم

(1) - المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 20، ص 128.

الباب الثاني: وظيفة الأداء التنغمي وإيقاعه في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين

ونصحهم، ففي الآية 116 هُدد المنادى وهو نوح ^{الطاسل} بالرحم، ولم يصدر هذا النداء من القوم في سرية تامة، بل على مسمع ومرأى الملاء* كـ، حتى يشمل الوعيد كل من اتبعه وصدقته في دعوته. يقول صاحب "التحرير والتنوير" في بيان هذا المعنى: «وفي هذا إشارة إلى ضعف حجة القوم، واعتراف ضمني منهم على أنهم في ضلال، ولأنّ الحجة عليهم لا لهم، لجأوا إلى هذا الأسلوب لإيذائه وتهديده بالقتل رجماً».⁽¹⁾

هذا، وقد تركز التهديد مع لوط للأسباب ذاتها، لكن بنتيجة مختلفة، فقد كان وعيدهم له بالطرد والترحيل، لا بالرحم والتقتيل، وكان ذلك على مسمع ومرأى الملاء أيضاً. يضيف "الطاهر بن عاشور" قائلاً: «فهدّوه بالإخراج من مدينتهم، لأنّه كان من غير أهل المدينة، بل كان مهاجراً بينهم، وله صهر فيهم، وصيغة "من المخرجين" أبلغ من لُنُجْرَجْتِك...».⁽²⁾

الحقيقة أنّ قوم نوح ولوط لم يعدوا يوماً الأنبياء المرسلين إليهم أفراداً منهم، ودليل ذلك تهديدهم بمثل هكذا أساليب، وما يزيد هذا المعنى تثبيتاً أكثر؛ تنزيل المنادى القريب في الآيتين منزلة البعيد المنبوذ، فالنداء عندما يصدر من القوم إلى الأنبياء، فيه إشعار بانحطاط مكانة المنادى وكأنّه بعيد عن القلب، وهذا ما تؤكده بدورها الباحثة "سعاد زدام" حينما تقول: «وفي نداء القوم للأنبياء بأسمائهم وبالآداة (يا) إنزالهم منزلة البعيد من جهة، وتهكّم واستهزاء بهم من جهة أخرى، ثمّ أعقبوا ذلك بالقسم مبالغة في الحقد والتوعّد، وفيما توعّد قوم نوح نبئهم بالرحم بقولهم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، وهو القتل بالحجارة، أو العودة إلى ملّتهم وملة آبائهم وأجدادهم، فقد توعّد قوماً شعيب ولوط أنبيائهم بالطرد والتهجير، فقالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾».⁽³⁾

في سبيل استحضار ما في الآيتين من دلالات الوعيد والتخويف، يكفي أن تُؤدّيًا بنغمة مستوية صاعدة وإيقاع سريع، مع تمكين الصوت في المقطع الطويل آخر الآيتين لوقوع النبر الأوّل عليه، الأمر الذي يزيد معنى التهديد بالرحم أو الإخراج تثبيتاً في الذهن، بعد أن قامت أدوات التوكيد الواردة فيهما بتأكيد الغرض، وتقريره في نفس السامع، لكن هذا لا يمنع من أن يعرف هذا النمط انخفاضاً في طبقة الصوت نهاية الآيتين.

مِنَ الْمَخْرَجِينَ	مِنَ الْمَرْجُومِينَ
ص ح + ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح ص	ص ح ص ح ص + ص ح ح ص + ص ح ح ص
السر الأوّلي	السر الثانوي

(*)- الملاء = أشرف القوم، وهم من يملئون العيون هيبة وحضوراً، أو الذين يملئون المكان إذا حضروا.

(1)- ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، ص163.

(2)- المرجع نفسه، ص180.

(3)- سعاد زدام: دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم - النداء أنموذجاً، إشراف: صفية مطهري، بحث مقدّم لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة

والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أحمد بن بلّة، وهران 01، الجزائر، 2018-2019م، ص182.

نلاحظ أنّ النبر الثانوي في كلمة (المَرْجُومِينَ) يمثّل مع المقطع الذي يفصله عن النبر الأوّل (الرئيسي) الصيغة التالية:

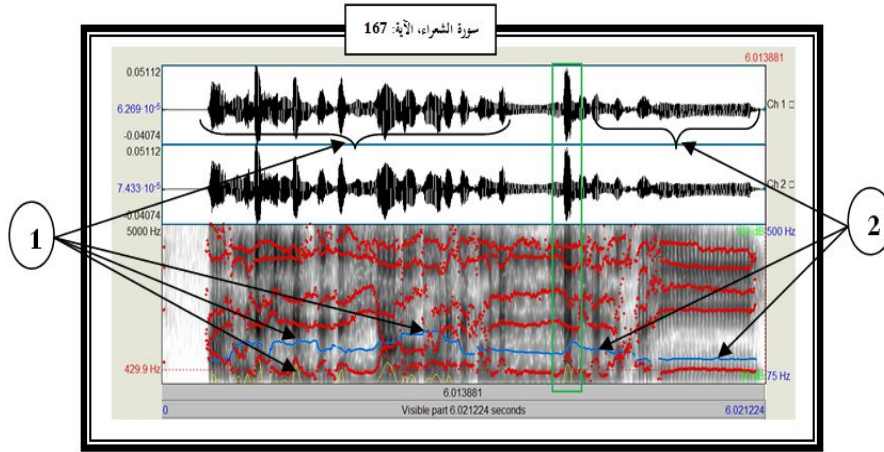
مقطع متوسّط مغلق + مقطع متوسّط مفتوح.

أمّا في كلمة (المُخْرَجِينَ)، فيكوّن مع الذي يفصل بينه وبين المنبور نبرا رئيسيا النسق التالي:

مقطع متوسّط مغلق + مقطع قصير مفتوح.

وفي كلتا الحالتين يضلّ موضع النبر الأوّل خصوصا خادما لقرينة التنغم، لما فيه من تمطيط واستطالة، من شأنهما أن يعزّزا أثر التنغم في توجيه الغرض من النداء في الآيتين.

لا بأس ههنا أن نقدّم رسما تمثيلا لإحدى الآيتين فقط، ما دام أنّهما يشتركان في الأداء نفسه، وبالتالي يتّسمان - عموما - بمنحنى إيقاعي ذاته، وهذا ما يوضّحه الشكل أسفله:



الشكل رقم: 91

يمثّل الرقم 1 النطاق النغمي الخاص بالنغمة المستوية الصاعدة، يتّضح ذلك جليّا من خلال سلسلة الموجات الصوتية، وما يقابلها من منحنيات الدرجات الصوتية وشدّة الصوت، ففي هذا النطاق سجّل الصوت اللغوي أقصى درجة صوتية تجاوزت 215 هرتز بشدّة صوتية وصلت حوالي 58 ديسيبل.

أمّا الرقم 2 فيمثّل النطاق النغمي الخاص بالنغمة الهابطة نهاية الأداة، الناتجة أساسا عن تمطيط آخر مقطع في آخر كلمة من الآية لوقوع النبر الأوّل عليه، وهذا ما يُعرف في علم التجويد بمصطلح: نبر المدّ العارض للسكون.

وأما الإطار الأخضر في الصورة أعلاه، فيشير إلى الموضع الذي تجدد فيه الارتفاع على مستوى عدد الذبذبات، وكذا شدّة الصوت ودرجته، وذلك بعد أن عرف المنحنى الإيقاعي هبوطا في الطبقة الصوتية، وهو هنا

موضع التأكيد باللام والنون.

وفيما يخصّ نتائج التحليل الفيزيائي فيوضّحها الجدول التالي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
124.314 هرتز	164.271 هرتز	215.974 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	54 ديسيل	57.94 ديسيل	شدة الصوت (Intensity)
6.02 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 167 من سورة الشعراء

● النداء للتعظيم: يقول "قيس إسماعيل الأوسي": «إذا أرادت العرب أن تعظم أمرا من الأمور جعلته نداءً». (1)

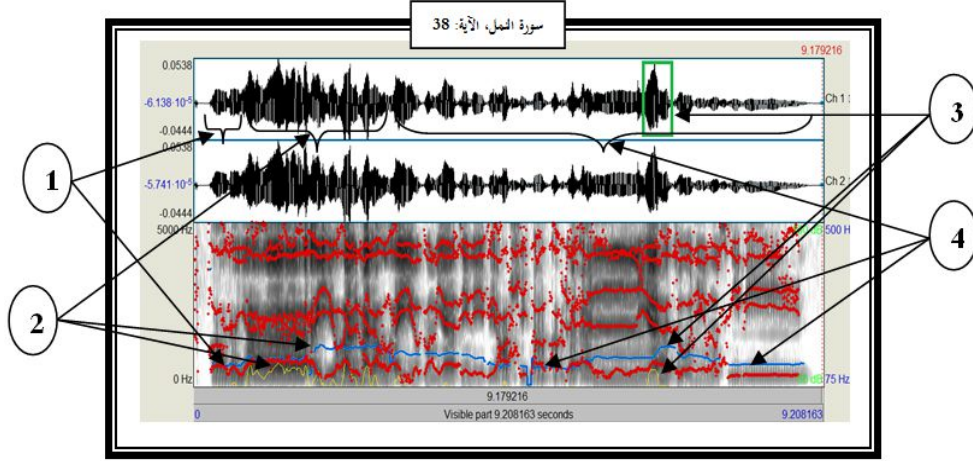
ولا يوجد أفضل من القرآن الكريم يمثل هذه الحالة، ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [سورة النمل، الآية: 38].

النداء فيها لا يُراد به طلب الإقبال، وإنما يُخفي في بنيته العميقة ما لا يُظهر في البنية السطحية للتركيب، إنّه يُوحى بمعنى التعظيم، أو بعبارة أكثر دقة: فيه إظهار لعظمة ملك سليمان ~~عليه السلام~~؛ إذ «أجّه سليمان إلى الاستعانة بمن سخرهم الله له من الإنس والجنّ ليفاجئها [أي ملكة سبأ] بأمر غريب، فقال: أيكم يأتي بعرشها العظيم، قبل أن يأتوني خاضعين منقادين؟». (2)

ودلالة التعظيم التي خرج إليها النداء هنا، يحتاج إبرازها إلى قوّة في الصوت، وليس أدلّ على ذلك ما يُصاحب نطق النداء والمنادى من تفخيم وامتلاء الفمّ بالنفّس (الهواء)، وعليه فإنّ الآية تُستهلّ بنغمة مستوية تشمل قوله: ﴿قَالَ﴾، تتبعها نغمة صاعدة موضع النداء، تتدرّج شيئا فشيئا نحو التسقّل إلى آخرها، كمؤشّر لتمام الكلام وحصول المعنى المقصود، مع وجود بعض النوبات الإيقاعية العالية موضع التأكيد نهاية الآية. (انظر الشكل التوضيحي رقم: 92).

(1)- قيس إسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، المملكة الوطنية، بغداد، العراق، دط، 1988م، ص 298.

(2)- لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص 567.



الشكل رقم: 92

يشير الرقم 1 هنا إلى النغمة المستوية، وأمّا الرقم 2 فيشير إلى النغمة العالية (موضع النداء للتعظيم)، بينما يشير الرقم 4 إلى النغمة الهابطة والتي عرفت أدنى مستوى لها نهاية الآية الكريمة، غير أنّ النطاق النغمي الذي جاءت فيه هذه الأخيرة شهد في أحد مواضعه نوبة صوتية عالية، صاحبت المقطع الذي يمثله حرف الزيادة "أنّ" بعده حرفاً من أحرف التوكيد، وهذا ما يشير إليه الرقم 3 والمستطيل الأخضر، إلى جانب القمّة التي عرفها كل من المنحنى الأزرق والمنحنى الأصفر في النافذة الثانية من هذه الصورة، فكما هو ملاحظ أنّ المنحنى الأصفر كان غائباً منذ استئناف النغمة في الهبوط التدريجي، ولم يشهد ظهوراً إلاّ عند هذا الموضع، دليلاً على أنّ القارئ هنا قد بذل جهداً عضلياً أثناء النطق بالمقطع المقابل لحرف الزيادة.

ونقدّم فيما يلي أهمّ القيم التي سجلتها الخصائص الأكوستيكية أثناء عملية التحليل الفيزيائي لموجات الصوت اللغوي في الآية 38 من سورة النمل على النحو الآتي:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
72.915 هرتز	149.480 هرتز	184.419 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	53.30 ديسيبل	57.22 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
9.21 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضّح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 38 من سورة النمل

- النداء لإظهار العجز والضعف: نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [سورة الشعراء، الآية: 12].

صحيح أنّ الآية خالية من أداة النداء، إلاّ أنّ القراءة السليمة لها مع مراعاة ما يقتضيه التنغم من درجات في مستوى الصوت تجعل من الآية نداءً. يقول "محيّ الدّين الدرويش" ملمّحاً إلى حذف حرف النداء في هذه

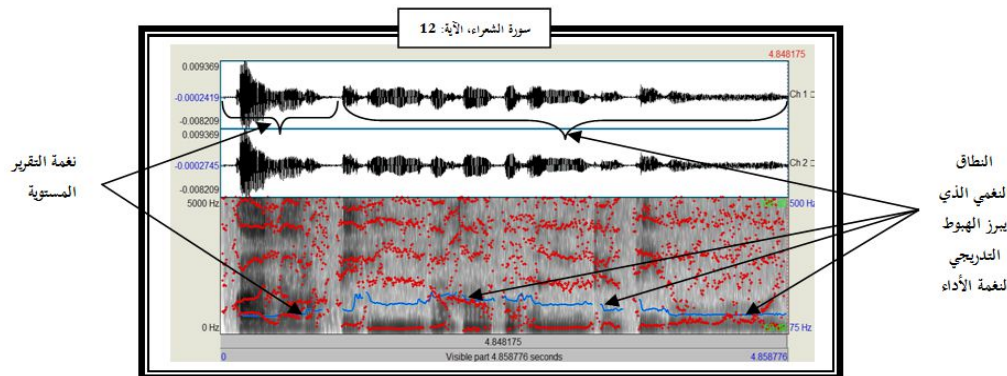
الآية: «رَبِّ مَنَادَى مِضَافٍ حُذِفَ مِنْهُ حَرْفُ النِّدَاءِ»⁽¹⁾.

وليس أمامنا في هذه الحالة إلا أن نقدر الكلام بإضافة أداة النداء (يا) لأنها أكثر الأدوات دورانا في التوظيف القرآني، أي: يا رب. يقول "مختار عطية" في هذا الصدد: «أشهر حروف النداء "يا"، ولم تُستخدم نداءات القرآن سواها، ولذلك لا يُقدّر عند الحذف إلّاها»⁽²⁾.

الحقيقة أن مثل هكذا إجراء يتم فيه الاعتماد على قاعدة الحذف والذكر، في تأويل الكلام الذي سيق في أسلوب ندائي، لا ضرورة له ولا حاجة لنا به كما سبق وأن ذكرنا، لأنّ الأقرب إلى طبيعة اللغة، أن نُعَوّل على الجوانب الفسيولوجية والأكوستيكية، أكثر من الجوانب الخطّية الجغرافية، وأن نجعل التنغم هو الفيصل في الحكم على التعبير، إن كانت أداة النداء فيه محذوفة حقيقة، أم أنّ الكلام في أصله لا يحتاج إلى أدوات.

وفي كلتا الحالتين، فإنّ النداء في الآية واردٌ وموجود، بيد أنّ المقصود منه ليس طلب الإقبال، لأنّ ذلك لا يصحّ مع المولى عزّ وجلّ، فلا يستقيم أن يدعو المنادي ربّه، ويطلبه بالإقبال إليه، بل المراد من النداء: الدعاء مع إظهار العجز والضعف على وجه التحديد، يقول "سليمان العجيلي" (ت 1204هـ): «اعتذر موسى بثلاثة أعدار، كلٌّ منها مرتّب على ما قبله، وليس مراده الامتناع من الرسالة، بل مراده إظهار العجز عن هذا الأمر الثقيل، وطلب المعونة عليه من الله»⁽³⁾.

إنّ شعور موسى بضعفه وخوفه من تكذيب قومه لرسالته، يحتاج إلى نغمة هابطة؛ وهي كفيلة باستدعاء مثل هكذا إحساس، وتقريبه إلى ذهن السامع أكثر، لذا فإنّ هذه الآية تُفتتح بنغمة التقرير المستوية، ثمّثل المقطعين الصوتيين اللذين يتصدّرا الآية {قَالَ = مقطع متوسط مفتوح + مقطع قصير مفتوح}، تليها نغمة هابطة بتزمين وإيقاع بطيعين. والشكل رقم: 93 يوضّح المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية:



الشكل رقم: 93

- (1) - محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، مج 7، ص 58.
- (2) - مختار عطية: علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم - دراسة بلاغية، ص 60.
- (3) - سليمان العجيلي: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، ج 5، ص 376.

يمكن تلخيص نتائج التحليل الفيزيائي في الأرقام التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
129.882 هرتز	152.450 هرتز	204.594 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيل	منعدمة	منعدمة	شدة الصوت (Intensity)
4.86 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 12 من سورة الشعراء

- النداء للتمني: وذلك حينما يجيء النداء في سياق التمني والرغبة في الحصول على شيء ما، نحو قوله عز وجل: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [سورة القصص، الآية: 79].

يبدو جلياً من خلال الآية التي بين أيدينا أنّ النداء فيها لا يُقصد منه المعنى الذي وُضع من أجله وهو طلب الإقبال، لأنّ القوّة الإنجازية للصيغة التركيبية في الآية أعلاه، مخالفة تماماً لما يريده المتكلم، لعدم وجود تطابقٍ حرّفي بين اللفظ ومعناه؛ إذ نلاحظ أنّ أداة النداء (يا) جاءت مقترنة بأداة التمني، ولمّا تغلّبت عليها هذه الأخيرة، وشاركتها حمولتها الدلالية، خرج أسلوب النداء ههنا إلى غرض التمني، يبرز ذلك في تمني القوم أن يكون لهم من المال والجاه والكنوز ما لقارون، وهي أمنية ممكن وقوعها وإن كانت بعيدة المنال، ولعلّ هذا ما يدفع المنادي التمني إلى مدّ ألف الأداة (يا) وإطالتها، علّه يبلغ ما يصبو إليه.

ففي النداء بـ (يا) تعبيرٌ عمّا اضطرب في النفس من خلجات، تمثّلت في تعلقهم بمظاهر الزينة، وإعجابا لما لقارون من كنوز وأموال، وجاء تمنيهم جرياً على سنن البشر، وما جُبلوا عليه من حبّ المال والرغبة في المملدات، واختتمت الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، تحليلاً وتبريراً بسبب أمنيته تلك، وجاء التعليل بصيغة التوكيد بـ: {إنّ واللام} دلالة على عظمة ملك قارون والتعجب ممّا أتاه الله. (1)

النداء كما أسلفنا من مواضع الرفع في الأداء، ولمّا كان خروجه إلى غرض التمني في الآية، وجب على القارئ عندئذ التغيير في نمط التنغم، وإعطائه اللحن والإيقاع المناسبين لاستدعاء الغرض المقصود، وهو: نمط التنغم الهابط، مع تزمين بطيء وإيقاع هادئ، وعلى هذا الأساس فإنّ المنحنى اللحني للآية يشهد تذبذباً بين الاعتدال حيناً، والهبوط والارتفاع حيناً آخر، إذ تُستهلّ الآية الكريمة بنغمة التقرير المستوية، تشمل قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، تتبعها سكتة خفيفة توحى بعدم تمام الكلام، واتّصال السابق منه بما يليه، لتستمر

(1) - ينظر: سعاد زدام: دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم - النداء أنموذجاً، ص 233.

النعمة على الوتيرة ذاتها عند قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، بعدها تبدأ النعمة في الانحدار التدريجي موضع النداء للتمّي إلى غاية المقطع الختامي، غير أنّ المنحنى يسجّل بعد السكتة الثانية ارتفاعا ملحوظا في الدرجة الصوتية، يشمل بعض المقاطع التي يمثلها التوكيد في الآية، لكنّه لا يلبث طويلا حتّى يعود إلى المستوى الذي كان عليه (أي النعمة الهابطة). هذا وقد سبق لنا عرض مخطّط الموجات الصوتية لمقاطع هذه الآية في مبحث التميّ الحقيقي.

● **النداء للتحسّر والأسف:** وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا والقبور والأموات والويل والحسرة وما إلى ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفرقان، الآية: 27، 29]، وقوله أيضا: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الزمر، الآية: 56]؛ فنداء الحسرة والويل في الآيتين يفيد التحزّن وإظهار الندم، وكأّنه يقول: يا ويلتي ويا حسرتي أقبلا، فهذا هو أوانكما، وكأنّه أي الكافر لفرط ما هو فيه صار يتخيّل أنّ الويل والحسرة يسمعان ويجيبان فناداهما... وهذا ينبئ عمّا بداخله من أحزان وآلام وتحسّر وندم.⁽¹⁾

ومن المواضيع الأخرى التي يخرج فيها أسلوب النداء عن أصله إلى دلالة التنديم وإظهار الأسف والحسرة في سور الطواسين، قوله تعالى على لسان نبيّه نوح **عليه السلام**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة الشعراء، الآية: 117]، والتقدير: "يا ربّ" بحذف حرف النداء وياء المتكلّم، والكسرة التي في الباء دلالة على المحذوف، فقد يمس نوح **عليه السلام** من دعوة قومه، حيث كانوا يقابلونه دائما بالتكذيب والنكران، رغم أنّه لبث يدعوهم وينصّحهم قرابة عشرة قرون، الأمر الذي دفعه لإبداء حسرته وأسفه تجاه ما لقيه منهم، لذا أوكّل نوح ربّه مصير قومه، ولم يجد أفضل أسلوب للتعبير عن ذلك إلّا نداء التحسّر والتوجّع، قال نوح: «فاحكم بيني وبينهم حكما تُهلك به المبطل، وتنتقم منه وتنصر به الحقّ وأهله».⁽²⁾

ولاستدعاء هذا الغرض وجب أن تكون نعمة الأداء منخفضة، وعليه فإنّ الآية تُفتتح بنعمة مستوية تشمل المقطعين الصوتيين المشكّلين للفظ (قَالَ)، تليها نعمة التحسّر الهابطة ذات الإيقاع الحزين إلى غاية المقطع الختامي منها.

من النماذج الأخرى التي أريد منها النداء للتحسّر رغم غياب أداة النداء فيها، حيث قام الأداء مقامها

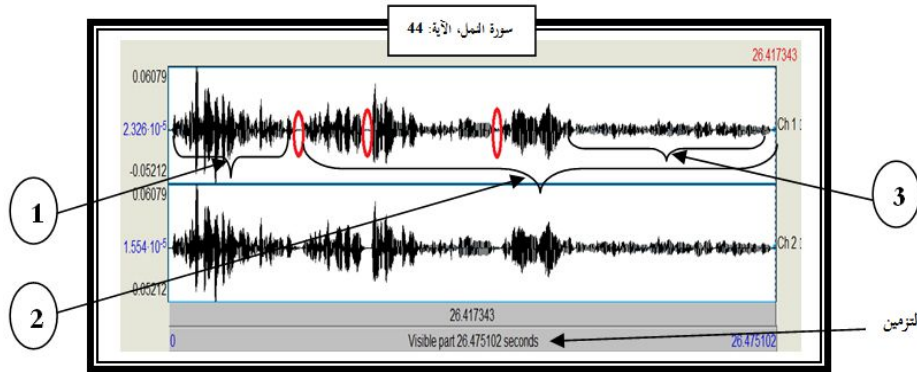
(1) - عبد الفتاح فيود بسيوي: علم المعاني - دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، ص 417.

(2) - المراغي: تفسير المراغي، مج 7، ج 19، ص 55.

ودلّ السياق على وجودها، قوله تعالى على لسان ملكة سبأ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لَّيْلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿44﴾﴾ [سورة النمل، الآية: 44].

واضح أنّ قول بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ لا يُراد به حقيقة الإقبال، بل هي هنا في مقام التحسّر والندم على ما فرّطت في جنب الله لعبادتها الشمس، يقول صاحب "التحرير والتنوير": «بهرها ما رأت من آيات علمت منها أنّ سليمان صادق فيما دعاها إليه، وأنه مؤيد من الله تعالى، وعلمت أنّ دينها ودين قومها باطل، فاعترفت بأنّها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس».⁽¹⁾

وهذه الآية تُؤدّي بتنغيم مستوٍ يتصدّر رأس الآية ﴿قِيلَ لَهَا﴾، يتبعه تنغيم صاعد يتلاءم مع ما في هذا الجزء من أمر حقيقي: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، بعدها يعود المنحنى الإيقاعي من جديد إلى الاعتدال موضع التقرير والسرد، أين يشهد النمط اللحني انحداراً تدريجياً في الطبقة الصوتية، إلى أن يبلغ نهاية الآية بمستوى نغمي هابط (المدى السلبي الهابط)، يتناسب ومعنى التحسّر وإظهار الأسف، ومخطّط الموجات الصوتية أسفله يوضّح طبيعة هذا المنحنى كما يلي:



الشكل رقم: 94

يشير الرقم 1 في مخطّط الموجات الصوتية أعلاه إلى نطاق النغمة المستوية الصاعدة، أمّا الرقم 2 فيشير إلى نطاق النغمة المستوية الهابطة، هذه الأخيرة التي تسجّل أدنى مستويات الانخفاض آخر الآية، وهذا ما يشير إليه الرقم 3.

تتخلّل سلسلة النغمات المذكورة من حين لآخر سكتات إيقاعية خفيفة، الأولى بعد كلمة (لُجَّةً)، والثانية بعد (سَاقِهَا)، والثالثة بعد لفظ (قَوَارِيرَ).

(1) - ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج 19، ص 276.

● النداء للتسلية:

لقد غلب توالي الأمر أو النهي أو كلاهما معا أسلوب النداء الذي خرج مخرج الاستثناس في سور الطواسين، والغاية من ذلك تنبيه المنادى لضرورة الإصغاء إلى النداء (الرسالة)، هذا الأخير الذي لا يمكن أن ينتفي فيه التنبيه انتفاء تامًا، حتى ولو كان الغرض الضمني منه مخالفًا لما يقتضيه ظاهره، كالتهديد والتمني والدعاء والإرشاد والتعجب وهلم جرا؛ ذلك أنّ النداء يحمل ضمنا معنى التنبيه، ولا يمكن أن يتم من دونه.

ولعلّ من أمثلته في سور الطواسين قول المولى عزّ وجلّ: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ۝٢﴾ [سورة القصص، الآيتين: 9-10].

في الآيتين تنزيل القريب منزلة البعيد، فموسى عليه السلام كان قد سار بأهله من مدين إلى مصر، فأنس نارا، فلما ذهب إليها ناداه ربّه وهو في غفلة من هذا النداء لشروود ذهنه، بغرض تنبيهه وتسليته وتبشيريه بالرسالة.

فإلى جانب ورود النهي عن الخوف بعد النداء، فقد جاء هذا الأخير أيضا متبوعا بعدة مؤكّدات هي: إنّ، الضمير المنفصل (أنا)، فضلا عن توالي اسمين من أسماء الله الحسنى وهما: العزيز والحكيم، ومما لا شكّ فيه أنّ كلّ هذه العوامل من شأنها أن تخدم غرض الآية وأبجائها الدلالي، إذ صار واضح بعد كلّ هذه المعطيات، أنّه لم يعد يُقصد بالنداء هنا مجرد طلب الإقبال، بل تنبيهه تعالى لنبية موسى عليه السلام وتسليته، خصوصا بعدما تسرّب إلى قلبه شيئا من الخوف والفرع، وليس أدلّ على ما في الآية من استثناس قوله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ ۝١﴾، وقوله أيضا: ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ ۝٢﴾، إشارة إلى أنّه يُنادى ممّن يعرفه ويعرف أحواله، الأمر الذي يساهم في بعث الطمأنينة أكثر، وبثّ الأمن والراحة في قلب موسى، بأنّ الله معه وأنّه على الحقّ المبين.

أما من الناحية الأدائية، فإنّ الآية تُستهلّ بتنغييم عالٍ موضع النداء والتوكيد، لا يلبث حتى يسجّل المنحنى الإيقاعي انخفاضًا في طبقة الصوت نهاية الآية التاسعة، ليعود بعدها إلى الارتفاع مرّة أخرى موضع الأمر الحقيقي، أي عند قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۝١﴾، ثمّ يضعف مستواه بعض الشيء وصولًا إلى درجة الاعتدال عند قوله: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ﴾ بعد ذلك يعرف المنحنى حطفا إيقاعية آنية وسريعة تمتاز بالشدة والعلوّ عند أداء النداء، ليعود المنحنى إلى مستواه متدرّجًا نحو الانخفاض إلى غاية المقطع الختامي للآية.

رأينا فيما سبق أنّ النداء الموجه للأنبياء والرسل عادة ما يأتي من أجل تشبيتهم على الدعوة، وتأكيد لمعجزاتهم الباهرة، التي تُخزي أعداءهم، ولعلّ هذا ما يتكرّر أيضا في سورة القصص عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَمُوسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ۝٢١﴾ [سورة القصص،

الآيتين: 30-31].

في الآيتين أيضا تنزيل المنادى القريب منزلة البعيد، لكن لغرض آخر وهو: الإشعار بعلو منزلته، فقد ورد النداء في الآيتين تكريما وتعظيما لموسى عليه السلام، وليس أدلّ على رفعة هذه المنزلة من توظيف أداة النداء (يا)، لبيان مكانة المنادى وتشريفه بها، وتنبئها له على أنه في حضرة الإله، وأنّ الله قد اصطفاه لتبليغ رسالته في الأرض، فأما قوله بعد النداء: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وكأنّ سبحانه هنا يعرّف بنفسه له، حتى يستأنس به ولا يشعر بالوحدة، لذا جاء الكلام مؤكّدا بمؤكّدين هما: (إنّ) والضمير المنفصل (أنا)، على الرغم من خلوّ ذهن المخاطب من الشكّ أو التردد أو الإنكار، حتى يشعر موسى بالراحة، وتقوى ثقته برّبّه وعزيمته بنفسه، ويبلغ عين اليقين فيما هو ماضٍ من أجله.

وأما عن قوله: ﴿يَلْمُوسَى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ﴾، ففيه تبيد لمخاوفه وبعث للاطمئنان والأمن في قلبه، على أنه يسير في طريق الحق.

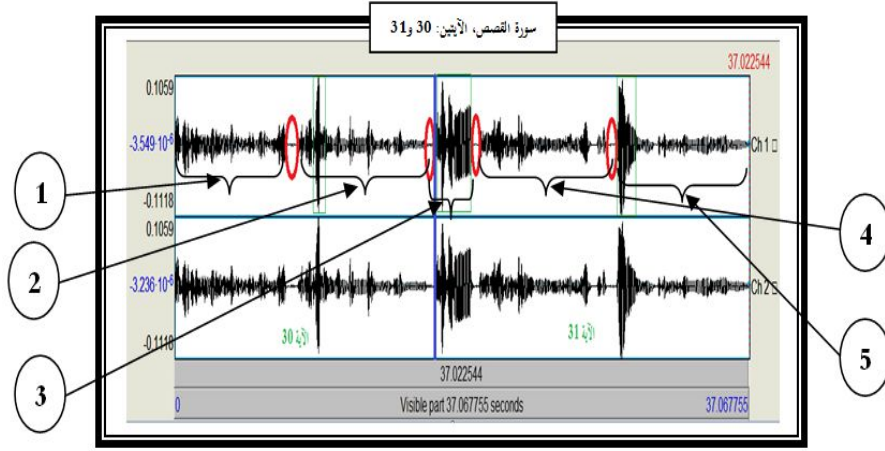
فلقد رأى الله تعالى ما أصاب موسى من رعب وهلع، بعدما ألقى عصاه التي أصبحت تهتزّ كأنها جانّ، الأمر الذي دفعه إلى الفرار هربا، لأنّه خاف منها خصوصا بعدما رأى سرعة حركتها وعظمة جسمها، فجاء النداء هنا للتثبيت والتسلية. قال "سيد قطب" في معرض حديثه عن غرض الآية، مبينا هذا المعنى ومؤكّدا له: «وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه، ومن ترعاه عين الله؟»⁽¹⁾.

الملاحظ أنّ التسلية في الآيتين كانت نتيجة خوف موسى، وعليه فإنّ النمط التنغمي المناسب لهذا الغرض الذي خرج إليه كلّ من النداء والأمر والنهي هو: التنغيم الهابط موضع التسلية.

بناء على ما قيل كان جديرا بالقارئ أن يفتتح الآية 30 من سورة القصص بنغمة التقرير المستوية، تمتد لتشمل قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، تدرّج نحو الانخفاض موضع التسلية الأوّل، أي عند قوله: ﴿أَن يَلْمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مع وجود تذبذب في المنحنى اللحني الذي يواكب النطاق النغمي لهذا الجزء؛ يتراوح بين الهبوط حين الصعود حين آخر، لوجود مقاطع صوتية تحتاج إلى ارتكاز وضغط فسيولوجي بسبب ما فيها من توكيد، لئلا تُستأنف الآية الموالية بدرجة صوتية عالية موضع الأمر الحقيقي: ﴿وَأَنَّ لَقِيَ عَصَاكَ﴾، تليها نغمة التقرير المستوية تمتد لتشمل قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَرَمَى عَصَاهُ﴾، بعدها تشهد هذه النغمة نغمة صوتية عالية، تخصّ المقطع المتوسط الذي تمثله أداة النداء (يا)، لتعود النغمة مجددا إلى الانحدار موضع الإناس، تستمرّ على هذا النمط إلى نهاية الآية، حيث تسجّل

(1)- سيد قطب: في ظلال القرآن، مج5، ج20، ص2692.

الآيتين من حين لآخر سكتات إيقاعية خفيفة، يستغلها القارئ لتجديد النَّفَس، والاستعداد لاستئناف قراءته. وفي العموم يمكن توضيح ما قلناه من خلال مخطَّط الموجات في الشكل التالي:



الشكل رقم: 95

تمثّل الأرقام الخمسة في هذه الصورة النطاقات التنغمية التي يشكّل مجموعها المنحنى الإيقاعي لنصّ الآية:

الرقم 1: يشير إلى نغمة التقرير المستوية التي تستهلّ بها الآية كما ذكرنا أنفاً، تليها أوّل سكتة إيقاعية بعد الوقف على كلمة الشجرة، ثمّ الابتداء بعبارة (من الشجرة).

الرقم 2: يشير إلى النغمة الهابطة، حيث يشهد مستوى التنغم في هذا النطاق هبوطاً تدريجياً في مستوى الصوت، لكنّه يعرف في أحد المواضع علواً موسيقياً عند المقطع المتوسط المغلق الذي يمثّله الحرف الزائد (أن)، وقد أحيط في الصورة بالمستطيل الأخضر الأوّل، هذا وتختتم الآية بسكتة أخرى تمهيناً لاستئناف قراءة الآية التي تليها، والخطّ العمودي الأزرق في الصورة أعلاه هو الفاصل بين الآيتين، والموضّح لحدودهما.

الرقم 3: هو موضع الأمر الحقيقي، والذي عرف علواً في طبقة الصوت، فلا تناسبه سوى نغمة الأداء الصاعدة، والمستطيل الأخضر الثاني يشير إلى وجود ارتفاع في الدرجة الصوتية، يتبع هذا الارتفاع سكتة ثالثة كما هو موضّح في مخطَّط الموجات أعلاه.

تأتي بعد النغمة الصاعدة نغمة التقرير المستوية كما يشير إلى ذلك الرقم 4، تفصلها عن النغمة الهابطة - (انظر الرقم 5) آخر الآية والتي تُستهلّ بارتفاع في درجة الصوت موضع النداء بـ "يا" (هذا الموضع محاط بالمستطيل الأخضر الأخير) - سكتة أخيرة تُستغلّ لاسترجاع النَّفَس، والاستعداد لاستئناف القراءة، خصوصاً أنّ الآيتين طويلتان، وتحتاجان إلى جهد عضلي ونفّس طويل، لتنوّع نغماتهما، وتذبذب منحناهما اللحن.

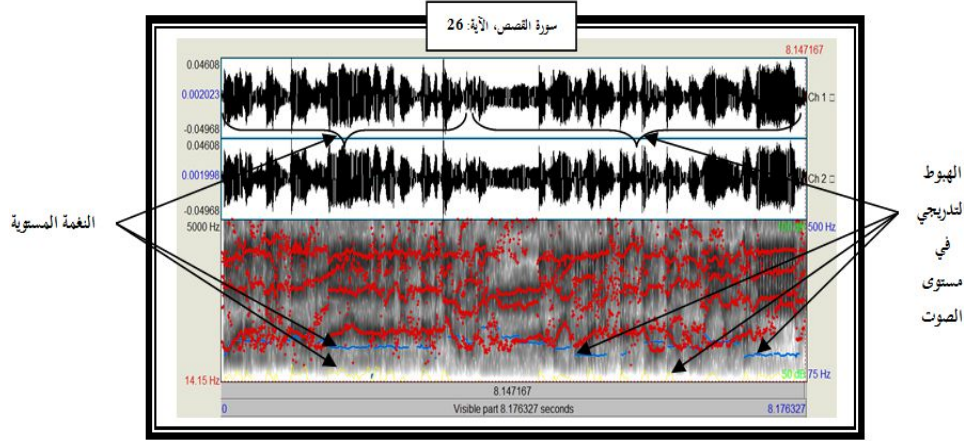
• النداء للنصح والإرشاد:

لم يَرِدْ النداء الخارج إلى معنى النصح بكثرة في سور الطواسين، ولعلّ من نماذجه قول المولى عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿قَالَ يَقْوَرُ لِمَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 46]، وقوله في موضع آخر: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَكَ الْفَوِيءُ الْأَمِينُ﴾ [سورة القصص، الآية: 26].

ففي الموضع الأوّل لم يكن النداء فيه أصليا، بمعنى لا يُراد منه حقيقة الإقبال، بل جاء للوعظ والنصح، حيث دعا صالح عليه السلام في هذه الآية قومه إلى إعمال عقولهم، لأنّ العاقل لا يستعجل بالسيئات، ولهذا جاء النداء تلطفاً منه في العتاب، والإنكار عليهم من استعجالهم للعذاب.

والأمر ذاته نلمسه في الموضع الثاني، فالنداء فيه على سبيل المجاز أيضا، وهو هنا للنصح والإرشاد؛ فلما توسّمت إحدى ابنتي شعيب عليه السلام الخير في موسى عليه السلام بعدما تطوّع لسقاية الغنم، التمست من والدها ناصحة أباها بأن يتّخذها أجيرا له، لما رأت فيه من قوّة وأمانة، ولا يخفى على أحد ما في عبارة: ﴿يَا أَبَتِ﴾ من تطفّف واحترام، تُشعر المتلقّي أو السامع بعلوّ منزلة المنادى ورفعة مكانته عند المنادي.

هذا، وفي سبيل الوصول إلى دلالة الوعظ التي خرج إليها النداء، يكفي أن تكون نعمة الأداء متوسّطة، لا هي بالعالية جدّا، ولا هي بالمنخفضة، وعليه فإنّ الآيتين تُستهلان بنعمة مستوية، تشمل قوله: ﴿قَالَ يَقْوَرُ﴾ [سورة النمل، الآية: 46]، وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ﴾ [سورة القصص، الآية: 26]، تليها نعمة صاعدة هابطة إلى آخر مقطع صوتي في الآيتين، أي تشمل قوله: ﴿لِمَسْتَعِجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النمل، الآية: 46]، لما في الآية من استفهام خرج إلى غرض التنبيه عن الخطأ، فضلا لما فيها من توبيخ وتأنيب، ونعمة هابطة عند قوله: ﴿اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرَكَ الْفَوِيءُ الْأَمِينُ﴾ [سورة القصص، الآية: 26]، لما في الآية من خبر إلى جانب خروج الأمر فيها لغرض الاستعانة، نتيجة ضعف أو عجز. ونقدّم فيما يلي عرضا مبسّطا للموجات الصوتية لمقاطع الآية 26 من سورة القصص على سبيل التمثيل، مرفوقة بمختلف الخصائص والقيم الفيزيائية المصاحبة لها من رسم طيفي، ودرجات صوتية، وتواترات، وحزم صوتية وما إلى ذلك.



الشكل رقم: 96

يمكن ترجمة نتائج هذا التحليل من خلال الأرقام التالية:

أدنى قيمة Valeur minimum	القيمة المتوسطة La valeur moyenne	أقصى قيمة Valeur maximum	نوع القيم الخصائص الفيزيائية
85.072 هرتز	168.808 هرتز	223.700 هرتز	الدرجة الصوتية (Pitch)
50 ديسيبل	52.46 ديسيبل	54.98 ديسيبل	شدة الصوت (Intensity)
8.18 ثانية			الزمن (Tempo)

جدول يوضح الخصائص الفيزيائية لموجات الصوت اللغوي في الآية 26 من سورة القصص

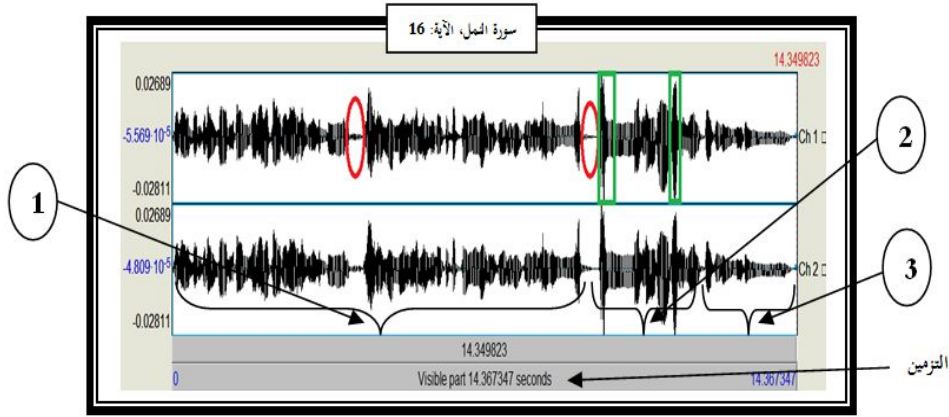
● **النداء للتشهير والاعتراف:** إنّ التشهير من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها النداء، عندما لا تكون هناك مطابقة تامة بين ما يقتضيه المعنى الحرفي للبنية السطحية، وبين غرض العبارة التلقظية، ومن بين هذه المواضع في سور الطواسين قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْتُمْ أَنْتُمْ أَنَّ هَذَا لَهُوَ **أَفْضَلُ الْمَمِينِ**﴾ [سورة النمل، الآية: 16].

نلاحظ أنّ النداء التنبيهي هنا لا يُراد منه حقيقة الإقبال لانتفاء الطلب فيه، فهو إذاً على سبيل المجاز، وإتّما يُقصد: التشهير بنعم الله، وتقدير الكلام قول سليمان مخاطباً من حوله: يا أيّها النَّاس، لقد يسّر لي ربّي فضلاً منه ونعمة عليّ أن أفهم ما يريد الطائر إذا صوّت، ومنحني من القدرة أن أدرك مقاصده من كلّ حركة يصدرها أو إشارة يومئ بها، وإنّ هذه لنعمة تستحقّ الاعتراف بها والشكر عليها. يقول "أبو السعود" مشيراً إلى هذا الغرض الذي خرج إليه النداء في الآية: «تشهيراً لنعمة الله تعالى وتنويهاً بها، ودعاءً للناس إلى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التي أوتيتها»⁽¹⁾، وأضاف "الزمخشري" غرضاً آخر وهو: الاعتراف بمكانة هذه المعجزات

(1) - أبو السعود العمادي: تفسير أبي السعود المسمّى إرشاد العقل السليم إلى مرآة القرآن الكريم، ج6، ص276.

كالعلم بمنطق الطير وغيرها. (1)

والتشهير كما أسلفنا من مواضع الاعتدال في الأداء، وعليه فإن الآية تُفتتح بتنغيم تقريري مستوٍ، يشمل قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ﴾، يتبعه تنغيم مائل، دليلاً على عدم تمام الكلام، واتصال السابق باللاحق، يمتد ليشمل قوله: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، لتشهد الآية بعدها ارتفاعاً في الدرجة الصوتية موطن التأكيد بأن ولام التوكيد، يتدرج المنحنى اللحني بعد ذلك شيئاً فشيئاً نحو الانخفاض إلى غاية نهاية الآية، والتي تحتتم بنغمة هابطة كمؤشر دلالي على تمام المعنى، وانتهاء المساحة المخصصة لغرض التشهير. (انظر الشكل رقم: 97).



الشكل رقم: 97

يمثل الرقم 1 النغمة المستوية حيث تشطر نطاقها النغمي سكتة إيقاعية خفيفة كما توضّحها أول دائرة حمراء في الصورة أعلاه، إذ تقع هذه السكتة بعد الوقف على لفظ (الناس)، ليأتي الابتداء بـ (يَتَأَيَّهَا النَّاسُ)، يلي هذه النغمة خطفة إيقاعية عالية نتيجة التأكيد بأن يشير إليها المستطيل الأخضر الأول، حيث تكون هذه الخطفة مسبوقة أيضاً بسكتة إيقاعية أخرى بعد لفظ (شيء) (انظر الدائرة الحمراء الثانية)، تنخفض بعدها طبقة الصوت قليلاً لتعاود الارتفاع مجدداً، مع المقطع الذي يمثل أداة التوكيد (لام الابتداء)، وهو الموضع المشار إليه بالمستطيل الأخضر الثاني في هذه الصورة (انظر النطاق النغمي المشار إليه بالرقم 2).

أما الرقم 3 فيمثل مجال النغمة الهابطة نهاية الآية الكريمة.

عموماً لا يمنع خروج أسلوب النداء إلى أغراض أخرى لم يكن لها ذكرٌ في هذا المبحث، لعدم حضورها في سور الطواسين، لكن هذا لا يعني أنّها لا توجد في سور أخرى على غرار خروج النداء إلى معنى: التعجب، الاختصاص إما للتفاخر أو للتواضع، الندبة، الزجر والملامة، التحقير، الاستغاثة، الوعد والوعيد، التوبيخ والعتاب، الاستنكار وغيرها.

(1) - ينظر: الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج19، ص777.

الخلاصة

- بحكم أنه لا بدّ لكلّ بداية من نهاية، أصبح من حسن الختام في نهاية هذا العمل البحثي، أن أقف لجني القُطاف الذي حفل به هذا الموضوع، لذا أستعرض فيما يلي أبرز النتائج التي تمّ التوصل إليها على هذا النحو:
- ❖ يُصنّف التنغيم ضمن الفونيمات فوق القطعية، كونه يتجاوز التركيب الظاهري للكلام، إذ لا يشكّل جزءاً منه، مثلما هو الحال مع الصوامت والصوائت، بل يظهر كملمح في الكلام المنطوق، ليكون بذلك ذا أثرٍ دلالي فعّالٍ في نظام اللغة.
 - ❖ صحيح أنّ الكلام لا يجري وفق وتيرة وطبيعة صوتية واحدة، إنّما يرتفع الصوت عند بعض مقاطع الكلام، وينخفض في بعضها، وقد يستوي في بعضها الآخر، وهذا ما يُصطلح عليه بالتنغيم، غير أنّ هذا الأخير لا ينحصر مفهومه في مستوى الصوت، أو حدود طبقاته، بل هو سلسلة من العوامل التي بتضافرها يتمّ الكلام ويحصل معناه، كالإيقاع والنبر والفواصل والمدود والطول والتزمين، والتتابع المطّرد للسكنات والحركات وغيرها.
 - ❖ التنغيم ظاهرة نطقية لها وجودها في الاستعمال اللغوي، يدرسها عالم الصوتيات من أجل تحديد جوهرها وكيفية تشكيلها الفسيولوجي، والوقوف على مستوياتها الصوتية المختلفة، ويدرسها المختصّ في علمي القراءات والتجويد قصد تبيان دورها في الأداء الصوتي، وفقاً لما يقتضيه كلّ علم من أحكام وضوابط، أمّا علم اللغة فيتناولها بغية تحديد أبعادها الجمالية والوظيفية في اللغة، ومن بينها مساهمتها في تحديد المعاني، وتوجيه الأغراض الكلامية.
 - ❖ إنّ المقطع الصوتي الذي على أساسه يتمّ الحكم على شكل التنغيم، هو ذاته المقطع الذي يعرف ارتكازاً وضغطاً ملحوظاً، مقارنة بغيره من مقاطع السلسلة الكلامية (أي المقطع المنبور).
 - ❖ تتربّج الجملة من سلسلة من المفردات، يُطلق علماء الأصوات على تلك "التونات" الموسيقية المصاحبة لنطق المفردة الواحدة مصطلح النغمة، هذه الأخيرة التي تختلف في درجتها من كلمة إلى أخرى، حسب ما يقتضيه سياق الكلام، حتّى إذا ما تابعت في الجملة شكّلت لنا سلسلة نغمية متفاوتة في مستواها الصوتي؛ بين الصعود حيناً، والهبوط تارة، والاستواء حيناً آخر، يسمّى علماء الأصوات هذا التتابع الأفقي للنغمات بالتنغيم، كما يمكن أن نصطلح على المجال أو المساحة الصوتية التي تجمع هذه النغمات بـ: النطاق النغمي، الذي يمثّل المنحنى اللحني الناتج أساساً عن متتاليات نغمية.
 - ❖ بناء على النتيجة السابقة، يعدّ الترتيب الأفقي المتتابع للنغمات على مستوى السلسلة الكلامية، المحدّد لنمط المسار التنغيمي فيها؛ إذ من شأن ذلك التتابع أن يشكّل منحنى إيقاعي، خصوصاً إذا كان متفاوت الدرجات، يتناسب والجرّ العام الذي يوحي إليه سياق الكلام أو النصّ.

- ❖ التنغيم موجود في اللغة العربية، مثلها مثل باقي لغات العالم، وإن لم يكن بهذه التسمية كما رأينا، ثم إن إنكار إدراك الأوائل له فكرة تفنّدها نصوصا صريحة وردت عنهم، سبق لنا وأن استعرضنا أغلبها فيما سبق من هذا البحث، وهي في الحقيقة إشارات تجاوزت معرفة هؤلاء للظاهرة، إلى الوعي العميق بوظائفها النحوية والدلالية تحديدا، على مستوى اللغة المنطوقة.
- ❖ يتحدّد التنغيم فيزيائيا بناء على نشاط الوترين الصوتيين المسؤولين عن إصدار الذبذبات الصوتية، هذه الأخيرة التي تتفاوت في درجاتها وحدّتها وشدّة توتّرها من سياق إلى آخر، ومن تركيب إلى تركيب، كلّ ذلك يمكن أن يتّضح من خلال الرسم الطيفي الذي يكون مزوّدا بسلسلة من المنحنيات، كمنحنى درجة الصوت (التنغيم)، ومنحنى شدّة الصوت (النبر)، ومنحنيات سلاسل الحزم الصوتية (صفات الأصوات)، فكلّما شهد منحنى الموجات الصوتية زيادة في عدد الذبذبات، كلّما سجّل منحنى الدرجات وشدّة الصوت ارتفاعا أو تذبذبا ملحوظا، وبالتالي علّوا في درجة التنغيم والعكس بالعكس.
- ❖ يمكن الوقوف على أنماط التنغيم من زاوية ماديّة ملموسة من خلال منحنيات الموجات الصوتية، كما يمكن إثبات درجات وشدّة الصوت، وحتّى صفاته المصاحبة له أثناء نطقه، كل ذلك من خلال الخصائص التي يبرزها الرسم الطيفي للصوت اللغوي، هذا الرسم الذي يساعد الباحث على التحكّم الجيّد في عملية تحديده لنمط التنغيم، بأقلّ جهد ممكن مقارنة بما هو مكتوب، كونه يعمل على تحويل الأصوات المنطوقة إلى صور مرئية.
- ❖ للتنغيم وظيفتان أساسيتان هما: الوظيفة الأدائية الإيقاعية، والوظيفة الدلالية السياقية.
- ❖ يُؤدّي التنغيم دورا نحويا وأثرا دلاليا بالغا؛ فبفضله يمكن أن نغيّر طبيعة التركيب، وننقله من باب نحوي إلى باب نحوي آخر.
- ❖ يعدّ التنغيم أسلوبا من أساليب الفصاحة، حيث تعتمد عليه اللغة العربية، أو أيّ لغة أخرى يؤدّي فيها التنغيم وظيفته التمييزية، كقريئة لرفع اللبس وإزالة الغموض عن التراكيب، فضلا عن توضيح الأغراض التي يقصدها المتكلّم من خلال رسالته (كلامه)، فهو بهذا ذو أثر صوتي ودلالي داخل نظام هذه اللغة.
- ❖ الحقيقة أنّ وظيفة التنغيم لا تتوقّف عند حدود التمييز بين معاني الجمل، وتوجيه التراكيب من باب نحوي لآخر، بل يمكن للنغمة أن تحلّ محلّ الأداة، في حالة غياب هذه الأخيرة من بنية التركيب، ليكون بذلك التنغيم المحدّد، والوسيلة المُعوّل عليها قصد الوصول إلى الدلالة المقصودة، بل إنّ الأمر لا يقتصر على ذلك فقط، وإتّما قد تكون الأداة حاضرة وللتنغيم حينها يعود الفضل في تحديد المعاني، ليكون هو الفيصل في مثل

هكذا حالات.

❖ تُصنّف سور الطواسين الثلاث ضمن السور المكّيّة، لذا فقد اتّسمت نصوصها بالطابع القصصي أكثر من كونها ذات طابع فقهي بحت، ما جعلها تُشكّل مادة خصبة للبحث، خصوصا ما تعلّق بالجانب البلاغي، حيث تنوّعت فيها الأساليب وتعدّدت الأغراض، وكلّ هذا كان خادما للموضوع ومثريا لفصوله.

❖ إنّ السياق العام للآية خادما لقريئة التنغيم، هذه الأخيرة التي تقف هي الأخرى جنبا إلى جنب معه في بيان معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في أحيان كثيرة، فقد يوحي السياق بمعنى ظاهري معين، ليأتي التنغيم بعد ذلك فيقلب الموازين ويغيّر الرؤى، محوّلًا هذا المعنى إلى معنى آخر (المعنى الباطني المقصود)، وهنا يكون ظاهر الكلام مخالفا لباطنه، وعليه فالتنغيم في مثل هكذا مناسبة يقف مُعوّلا في تحديد الدلالات وكشف الأغراض المقصودة من الكلام، لكن في المقابل قد يحتاج المتلقّي قارئًا كان أو مستمعا، للرجوع إلى السياق الذي يقف ههنا مُحدّدًا أكثر من التنغيم في بيان مسألة المعنى، فقد يكون المقام مقام استفهام حقيقي مثلا، لكنّ الأداء التنغيبي ينزاح به نحو غرض إضافي هو الاستفهام للأمر، وكما هو معلوم أنّ كلاماً أضرب الكلام يحتاج استدعاءهما لنمط تنغيبي صاعد، وبالتالي فالمتلقّي هنا يجد نفسه في موضع حيرة؛ أيّ المعاني يقصدها صاحب الكلام؟ لذا صار من الضروري الرجوع في هذه الحالة إلى السياق العام للكلام، فهو الموجّه الرئيس ههنا للدلالة المقصودة.

❖ من خلال الدراسة التي قمنا بها تبين لنا أنّ أغراض ومعاني التراكيب اللغوية تتناسب عموما مع أنماط معيّنة من التنغيم، أو بعبارة أخرى أنّ نمطا تنغيما معيّنا، يقتضي استحضر أغراض بعينها، في المقابل يستبعد احتمالية خروج كلام ما إلى غرض آخر، لا يتناسب وذلك النمط لاستدعائه، ولكن هذه القاعدة غير مطلقة ولا يمكن تعميمها على جميع السياقات، لأنّ المقام أيضا قد يتدخّل - كما ذكرنا - في أحيان كثيرة في تغيير المعنى، ليصبح النمط الذي كان يتناسب مع ذلك الغرض في مقام معيّن، لا يُجدي نفعا لاستحضار الغرض المقصود فعلا في مقام آخر، هذا ويمكن تصنيف الأغراض التي تمّ الإشارة إلى خروج أساليب الكلام إليها في سور الطواسين على النحو التالي:

- **النداء الصريح، النفى، الجحد، الإنكار، الردع والزجر، التعجّب، التحذير والتخويف، التنبيه، التعظيم والتهويل، الإلهاب والتهيج، التشويق والإثارة، التحضيض، الافتخار والابتهاج، الشرط، الدعاء بدافع الإصرار والإلحاح، الدوام، الاستبعاد، الالتماس، وهلمّ جرّا.**

- النعمة المستوية تتناسب مع الأغراض التالية: التقرير، النصح والإرشاد، التبشير، التشهير، الاعتبار، طلب المشورة، الإباحة، التكثير، الاختبار، التوقيف، التسوية،... الخ.

- النعمة الهابطة تتناسب مع الأغراض التالية: السخرية والتهكّم، إظهار التحسّر والندم، التحقير والتسفيه، الاحتقار، التسلية، التميّي، الاستبطاء، العرض، الدعاء بدافع التدلّل والتضرّع، إظهار الضعف، الاسترحام والاستعطاف، الاستعانة، وغيرها.

- النعمة المستوية الهابطة تتناسب مع الأغراض التالية: التوبيخ، التسليم والتفويض، التحدي والتعجيز، وإظهار التواضع.

- النعمة المستوية الصاعدة تتناسب مع غرض: التهديد والوعيد.

❖ عرف أسلوب الخبر في سور الطواسين خروجاً إلى معاني مجازية غير معنى الإعلام، كان للتنعيم الأثر في إيضاحها وكشفها نذكر منها: الإقرار، الاستفهام، الاسترحام، إظهار الضعف، التسلية، الافتخار، التوبيخ، التحذير، الزجر، التهديد، الجحد، التعظيم، التحقير، التعجّب، التنبيه، الإرشاد، التبشير، التحسّر، الاستهزاء، التشهير، التسليم، الدعاء، الشرط، وغيرها.

❖ في المقابل شهدت الأساليب الإنشائية الطلبية في السور ذاتها خروجاً إلى معاني إضافية، تُستشفّ من خلال السياق وكذا الأداء التنغيمي، حيث سجّل أسلوب الأمر خروجاً إلى عدّة معاني بلاغية منها: التقرير، الدعاء، الاستعانة، الدوام، التسلية، التحضيض، التحذير، الردع، التهديد، التعجيز، التحقير، النصح، الاعتبار، الاستبعاد، المشورة، السخرية، التسليم وهلمّ جرّاً، أمّا المعاني التي خرج إليها أسلوب النهي فنذكر منها: الدعاء، الالتماس، الإباحة، التسلية، الإلهاب والتهييج، التحذير، التهديد، النصح والإرشاد، وما يقال عن هذين الأسلوبين ينسحب على بقية الأساليب البلاغية، فهاهو الاستفهام هو الآخر قد شهد خروجاً إلى كثير من المعاني المخالفة لمقتضى الظاهر على غرار: الاستفهام للإنكار التوبيخي والتكذيبي، الاستفهام التقريري، الاستفهام للأمر، للنهي، للنفي، للجحد، للوعيد، للتحدي والتعجيز، للتعجّب، للعرض والتحضيض، للتعظيم والتحقير، للاستبعاد والاستبطاء، للتحسّر والتهكّم والتمّي، للتشويق والإثارة، للاختبار، للتكثير، للتسوية، وغيرها. في حين لم يخرج أسلوب التميّي والنداء إلى أغراض بلاغية كثيرة، حيث لم يشهد التميّي على قلة مواضعه في سور الطواسين خروجاً إلّا لغرضي العرض والتحضيض، وهذا في حدود قراءتنا واستعانتنا بمختلف المراجع وكتب التفاسير، أمّا أسلوب النداء فقد خرج إلى معاني: الدعاء، طلب المشورة، التحذير والتنبيه، التهديد، التعظيم، التميّي، التحسّر، التسليم، النصح، والتشهير وغيرها من

الأغراض، دون أن نغفل التنويه عن الدور الذي كان يؤديه التنعيم في سبيل الكشف عن هذه المعاني، ومساهمة الفاعلة في توجيه الأغراض، لما يمتلكه من مقومات تحوّل له ذلك، وتيسّر له وظيفته، وتمكّنه من القيام بما على الوجه الذي يبرز أثره في اللغة، هذا فضلا على مشاركة جملة من العوامل الأخرى، والتي تقف معه - من دون شك - جنبا إلى جنب، وتتدخل بطريقة أو بأخرى لتكمّل عمله، وتؤكد على مصداقية وظيفته، نحو: الإيقاع الصوتي، المقطع، النبر، السكتة، الوقفة... الخ.

❖ إنّ الأسلوب الكلامي خبرا كان أو إنشائيا بأنواعه المختلفة، قد يُحافظ على نمطه التنعيمي في حال خروجه عن مقتضى الظاهر، ليؤدّي أغراضا بلاغية أخرى مخالفة لشكل التركيب وبنيته السطحية، كما قد يتغيّر نمطه للسبب ذاته، كلّ ذلك مرتبط بالغرض الخفي والمعنى الباطني المقصود، فقد تبين لنا من خلال هذه الدراسة أنّ الأسلوب الخبري مثلا إذا كان الغرض منه الإفادة والإعلام؛ أي خبرا حقيقيا، فإنّ النمط المناسب له هو التنعيم الهابط، فهو بهذا قد يُحافظ على النمط ذاته إذا خرج إلى غرض آخر يتواءم مع هذا النمط، ويكون كافيا لاستدعائه، كخروج الخبر إلى معنى التحقير أو التحسّر أو الاستهزاء وما إلى ذلك، وقد يتغيّر نمطه وفقا لما يحتاجه الغرض الضمني بُغية استحضاره، فقد يتحوّل من نعمة هابطة إلى مستوية حال استدعاء غرض النصح والإرشاد مثلا، أو من نعمة هابطة إلى صاعدة حال استدعاء أغراض من قبيل: التحذير والتنبيه، الزجر والردع، التعظيم والتهويل وهلمّ جرّا.

❖ الاستفهام هو الآخر ينطبق عليه ما ينطبق على الخبر، فقد تبين أنّ النعمة المناسبة لاستدعاء هذا الغرض حينما يكون المراد منه طلب الفهم هي: النعمة الصاعدة ذات العلوّ الموسيقي، بيد أنّ الأسلوب قد يُحافظ على النعمة ذاتها حال خروجه إلى غرض يتماشى استحضاره والنعمة المناسبة لحقيقة هذا الطلب، كخروجه مثلا إلى معنى: الأمر، النهي، النفي، الجحد، الاستبعاد، التحضيض وغيرها، وقد يتحوّل النمط من نعمة عالية مرتفعة إلى أخرى مستوية مسطّحة، حال استدعاء غرض التقرير أو التسوية وما إلى غير ذلك، كما يمكن للنعمة أن تتجه نحو الانحدار التام أثناء خروج الاستفهام إلى معاني تحتاج إلى خفض في الدرجة الصوتية، تماما كما هو الحال مع: الاستبطاء، العرض، التميّن، التهكّم، وغيرها، وما يُقال عن الاستفهام ينسحب بالضرورة على بقية الأنواع الأخرى، بعدّها تندرج كلّها ضمن صنف كلامي واحد وهو: الأساليب الإنشائية الطلبية، مع الإشارة إلى أنّ السياق قد يقف كقرينة يُعوّل عليها في التمييز بين المعاني، التي يشترك استدعاءها في النمط التنعيمي عينه.

التوصيات:

✓ ضرورة العناية بالأداء التنغمي أثناء قراءة آي القرآن الكريم، لما له من دور في إظهار دلالاته، وتوضيح مقاصده، والتميز بين صنوف كلامه.

✓ على القارئ أن يمتلك القدرة على التلوين الصوتي والتنويع اللحني الذي يتناسب مع استدعاء المعاني القرآنية المناسبة للمقام، خصوصا وأن ذلك من شأنه أن يفسح المجال للمتلقّي من استحضار الدلالة نفسها التي أرادها القارئ؛ ذلك أنّ أداء آيات الوعيد مثلا غير أداء آيات التبشير، وقراءة مواضع التعظيم غير قراءة مواضع التحقير، كما أنّ تلاوة آيات العذاب والعقاب والأحكام والعقائد، تختلف عن تلاوة آيات الرحمة والنعيم وقصص الأنبياء وأقوامهم، كلّ ذلك يرجع أساسا إلى حسن اختيار التنغم الصوتي، الذي يتواءم مع الجوّ العام للآيات والسور.

في العموم يظنّ هذا الجهد جهدا بشريا، لذا فمما لا شكّ فيه أنّه لا يمكن أن يخلو من بعض الهفوات والأخطاء، فلا أدعي فيه الكمال ولا الاكتمال، مصداقا لقول الشاعر "أبو البقاء الرندي" (ت: 684هـ):

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانٌ ﴿٤٢٢﴾ فَلا يُغَرِّ بِطَيْبِ العَيْشِ إنْسَانُ

لكن أمني أن أكون قد فتحت آفاقا واسعة للباحثين من بعدي في هذا الموضوع، وعبّدت فيه الطريق لعلّه يحظى بدراسات أخرى، تمثّل حلقة في سلسلة غير متناهية من البحث والتنقيب.

أخيرا أسأل الله العليّ القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسنات كلّ من ساهم في إخراجها، وشارك في تقييمه وتقويمه، حتّى يكون على الصورة التي هو عليها، كما أسأل المولى عزّ وجلّ أن يعفو على كلّ خطأ أو تقصير أو إهمال بدر من الباحث بقصد أو دون قصد، وأن يتجاوز عمّا وقع فيه من زلّات وهنات، فهو سبحانه القادر على ذلك والجدير بالإجابة، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الملاحق

الملحق رقم 1: نصوص سور الطواسين

1- نص سورة الشعراء:



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿طَسَمَ ١ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ ٣ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤﴾ إِنَّ نَسْفَاتٍ عَلِيمٍ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْتَقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ أَوْ لَمْ يَبْرُوا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ١٢ أَلَا يَتَّقُونَ ١٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٤ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْدَأُ لِسَانِي فَأُرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ١٥ وَلَهُمْ عَلَى ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٦ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٧ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٨ أَنْ أُرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٩ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمِثَّتْ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ٢٠ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْآتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٢١ قَالَ فَعَلْتُمَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ٢٢ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢٣ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ٢٤ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٥ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٢٦ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٧ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٢٨ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٩ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ٣٠ قَالَ لِمَنْ اتَّخَذَتِ الْهَالِكَةُ غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ٣١ قَالَ أَوْلَوْجِثَّتْكَ بَشَىءٌ مُبِينٌ ٣٢ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣٣ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ٣٤ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ٣٥ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ٣٦ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٧ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُعِثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٨ يَا تَوْكُ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ٣٩ فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ٤٠ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ٤١ لَعَلَّنَا نَنْبِغُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِمِينَ ٤٢ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا الْأَجْرُ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِمِينَ ٤٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّي إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٤ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقَوْمَا أَنْتُمْ مُثْقَلُونَ ٤٥ فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِييَهُمْ وَقَالُوا بَعِزَّةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِمُونَ ٤٦ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثُ مَائَةٍ وَأُكُودٍ ٤٧ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ٤٨ قَالُوا أَمْ تَأْتِي رَبَّ الْعَالَمِينَ ٤٩ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ٥٠ قَالَ أَمْ نَسْتَعْتَبُكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَابِكُمْ أَجْمَعِينَ ٥١ قَالُوا لَا صَبِيرًا إِنَّا إِلَيْنَا مِنْقَلِبُونَ ٥٢ إِنَّا نَقْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا حَتَّىٰ نَأْتِيَ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ٥٣ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ٥٤ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٥٥ إِنَّ هُنَّ لَأَشْرُكٌ قَالِيلُونَ ٥٦ وَإِنَّهُمْ لَنَا لِقَائِيُونَ ٥٧ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ٥٨ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٩ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٦٠ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٦١ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ٦٢ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ٦٣ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٦٤ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَاقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٥ وَأَرْزَلْنَا ثَمْرَ الْأَخْرَبِينَ ٦٦ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ ٦٧ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرَبِينَ ٦٨ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٧٠ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ٧١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٧٢ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُ لَهَا عَلَافِينَ ٧٣ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ٧٤ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضْرُوتُ ۝ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئِي يَوْمَ الدِّينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۝ وَأَجْعَلْنِي مِنَ وَرَثَةِ حَنَّةَ الْعَقِيمِ ۝ وَأَغْفِرْ لِي إِثْمِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ ۝ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَأْكُتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَكُمْ ۝ فَكَبُرُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ ۝ وَحُودُؤُا بِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ۝ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ إِذْ نَسُوهُ يَوْمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَمَا أَصْبَأْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۝ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۝ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ ۝ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ۝ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلْنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَيَسْرًا وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَأَجْبِئْهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَابِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامِهِمْ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَنَّهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتَنْتَرِكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ آمِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلَعَهَا هُضَيْبٌ ۝ وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتَا قَرَاهِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ۝ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأَنْتَ بِآيَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ۝ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلْنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ۝ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝ فَجَجَبْنَا وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ۝ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا هَسَاءً مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۝ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ

الْأَوَّلِينَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نُّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ فَكَذَّبُوا فَأَخَذَهُم عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٠﴾ وَآتَى رَبُّكَ لَهَاوِيغِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُ لَكُنزٌ لِلرَّحِيمِ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّهُ لَكُنزٌ لِلرَّحِيمِ ﴿٤٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٤٤﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٤٥﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُ لَوَعْدٌ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٤٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٤٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٥١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٥٣﴾ أَفِعَذَابِنَا لَيْسْتَ عَاجِلُونَ ﴿٥٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتِعُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا هَا مُنذِرُونَ ﴿٥٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥٩﴾ وَمَا نَنْزَلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ﴿٦٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُولُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ فَإِن عَصَاكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦٧﴾ الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٦٨﴾ وَقَبْلَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٠﴾ هَلْ أُتْبِعُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ ﴿٧١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُ كُذُوبٍ ﴿٧٣﴾ وَالشُّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٧٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٧٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٧٧﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٧٨﴾ ﴿ صر في الله العظيم ﴾



2- نصّ سورة النمل:



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿١﴾ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّاتُمَا لَهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٦﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِتَيْنَاكَ نَارًا سَاطِئَةً فَمَنْهَا يَخْضِرُ أَوَّاعٌ يَكْمُرُ بِشَهَابٍ فَبَيْسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٨﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ هَانُودَىٰ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ يَمْوَسِيٰ إِنَّهُ وَأَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْجَبٌ ﴿١١﴾ يَمْوَسِيٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِيَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ هَمُومًا مَبْصُرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ لَأَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمُنَا مَطْلُوعٌ الطَّيْرِ وَأُوذِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٩﴾ وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْضِعْنِي أَنْ

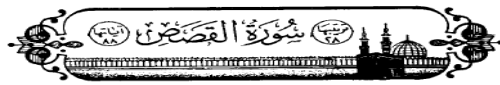
أَشْكُرُ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٥﴾ وَتَقَدَّرَ الظَّيْفُ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدَى أَمْرًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ لَا أُعَدِّبُهُ وَعَدَّ أَبَا شَدِيدًا أَوْلَادًا بَحْتَهُ وَأَوْلِيَاتِي سُلْطَانَ مُّبِيدٍ ﴿١٧﴾ فَمَكَتْ عَبْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يُقِينُ ﴿١٨﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٢﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ بِكِخْيِ هَذَا فَأَقِمْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأ إِنِّي أَتِيَّتُكَ كَرِيمٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢٦﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوْنِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأ أَتُّونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذَانًا وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيهِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٢﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا أَتَيْتَهُمْ بِجُوْدٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَخِرْجَتُهُمْ مِنْهَا آذَانًا وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ عَفْوَيتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا وَآبِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٥﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٣٦﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسَأْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فِئْقَانٍ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا أَطَّيْرُنَا يَا وَيْحَكَ مَعَكَ قَالِ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٣﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَّهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٤﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دُخِرْتُهُمْ وَقَوْمُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ فَبَلَكَ يُؤْتِيهِمْ خَاوِيَةً يَمَاطِلْمُوا آتٍ فِي ذَلِكَ آيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٤٩﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٠﴾ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بُجْهَلُونَ ﴿٥١﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْهُ أَل لَّوِطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٤﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ آمَنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٥٦﴾ آمَنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ آمَنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ آمَنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ آمَنَ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَانُوا بَرَهْدَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهَذَا كُنُوزُنَا وَءَابَاؤُنَا إِتْنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٣٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٤٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٤٤﴾ وَمِمَّا مِنْ عَابِدِي فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قُرْآنٌ يَقُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٤٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٤٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكُفْرَ وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنْ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٥٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطَفِقُونَ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُمْ فِيهِ وَنَهَارٌ مُبْصِرٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرِّعْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صَبَّحَهُ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَىٰ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ حَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٥٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَ يُذْعَرُ الْأَمُونُ ﴿٥٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ وَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبَتْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ مَنْ آهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٦٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَ عَمَّا يُشْرِكُونَ فَتَعَرَّفُوا بِهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾

صدق الله العظيم



3- نصّ سورة القصص:



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله تعالى: ﴿ طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَسْأَلُوا عَنِّيكَ مِنْ بَنِي مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكَلِّمُهُمُ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَلْمَنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِيفَتْ عَلَيْهِ وَأَقْبَبَهُ فِي الْعِصْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَىٰ بَيْتِكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقِطْهُ وَءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَلْمَنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَأْتٌ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَٰكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ

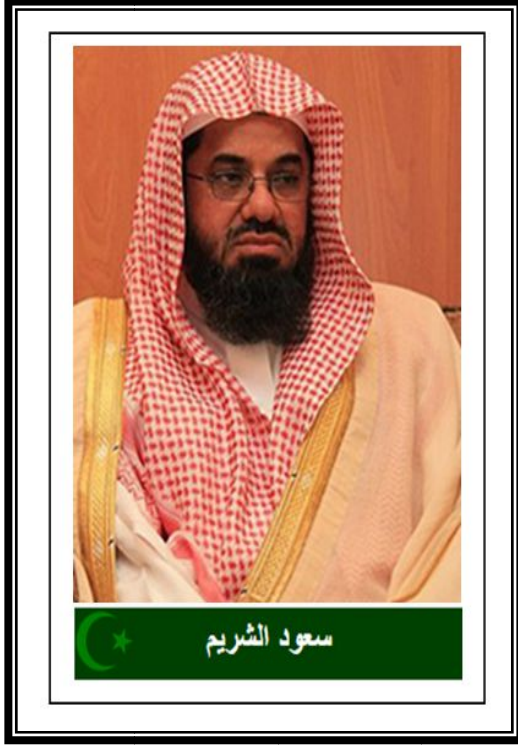
الْعَرَبِيَّ إِذْ قَضَيْتَنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ إِسْتَنْذَرْتَهُمْ مَّا أَنذَرْتَهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قِبَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلَوْ لَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْ لَوْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُورٍ ﴿٥٠﴾ قُلْ فَأَنوُا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنْتَاعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٣﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٥﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَّرْتَبَتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُوْنَ بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا إِنَّا عَمَلْنَا وَلَكِنْ أَعْمَلْنَا سَلَمًا عَلَيْنَا لَعَلَّكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٨﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخْذَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَوْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَىٰهِ نَمُرُّ كَيْلَ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ يَطَّرَتْ مَعِيشَتُهُمْ فِتْنًا مَسَّا كُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٠﴾ وَمَا كَانَتْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَسَمِعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٤﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٥﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٦﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٧﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٨﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧١﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْكُوفُ وَاللَّيْءُ تُرْجَعُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلَ لَكُمْ لَيْلٌ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٦﴾ وَتَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٧﴾ * إِنْ قَدَرُونَ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْمُصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ وَعَلَىٰ عِلْمِ عِنْدِي أَلَمْ يَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمَجْرُومُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونًا إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٨١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ

ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُقَلِّبُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٦﴾ فَخَسَفْنَا بِهِهٖ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ
 يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا بِمَكَانِهِمْ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسُبُّوا اللَّهَ يَكْفُرُونَ لَمَن
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاتُهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩١﴾ وَمَا كُنْتَ
 تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ
 إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُسْرِكِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴿سورة المائدة العنعم﴾



الملحق رقم ②: نبذة عن الشيخ "سعود الشريم"

● من هو "سعود الشريم"؟⁽¹⁾



يُعدّ واحداً من أشهر مرتلي القرآن الكريم في العالم، عُرف بصوته الرخيم وإحساسه المرهف. له اطلاعا واسعا بقواعد ترتيل القرآن الكريم وأصوله وأحكامه. أسلوبه رصينا ورزينا ومؤثرا، وترتيله سلسا ومُعَبِّرا ومُحَكِّمًا، يتلو القرآن الكريم بخشوع العالمين ونبوغ العارفين، فيرحل بالمستمعين إلى عوالم الطهر الروحي والصفاء النفسي، شخصيته القويّة وطبعه المتواضع يمنحانه هالة من الاحترام، ويضفيان عليه مُسحة من الوقار، يسميه مُجْبُوهُ (ريحانة الحرم) نسبة لاشتغاله كإمام للمسلمين بالحرم المكي، يتعلق الأمر بالقارئ السعودي الشيخ "سعود الشريم".

وُلد الشيخ "سعود الشريم" واسمه الكامل سعود بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن ناصر بن إبراهيم بن محمد بن شريم سنة 1965م، في مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية لأسرة ذات حسب ونسب. ترعرع منذ طفولته في وسط محافظ يعطي للإسلام ما يستحقه من تقدير واهتمام، ويولي القرآن الكريم عناية خاصة وحرصا لا حدود له، الأمر الذي أثار في تكوين شخصية سعود الشريم، وساهم في انجذابه لكتاب الله تعالى، فتعلق به وتعلّمه وعكف على ضبط قواعد تجويده وترتيله.

بدأ الشيخ "سعود الشريم" مساره التعليمي في سن مبكرة، فالتحق بمدرسة عرين خلال المرحلة الابتدائية، وبالمدرسة النموذجية خلال المرحلة الإعدادية، ثم بثانوية اليرموك الشاملة خلال المرحلة الثانوية فتخرج منها سنة 1984م، بعد ذلك التحق بكلية أصول الدين التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، فتخصّص في العقيدة والمذاهب المعاصرة، وتخرج منها سنة 1989م، ثم التحق بالمعهد العالي للقضاء فحصل منه على شهادة الماجستير سنة 1993م، ليُتَوَجَّح مساره الدراسي بنيل شهادة الدكتوراه في الفقه من جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة 1996م.

(1)- الشيخ سعود الشريم.. ريحانة الحرم المكي، موقع السبيل، الرابط المباشر للصفحة: <http://ar.assabile.com/saud-shuraim-11/saud-shuraim.htm>، تاريخ المعاينة: 31/03/2021م، الساعة: 18:15.

موازاة مع مساره الدراسي الحافل والتميز، تلقى الشيخ "سعود الشريم" تكوينا في العلم الشرعي، لكن بشكل شفوي، حيث كان يواظب على حضور حلقات الذكر والخطب في المساجد والمؤسسات الدينية وغيرها، كما تعلم القرآن الكريم، وأتم حفظه على يد عدد من العلماء والمشايخ البارزين أمثال: الشيخ عبد الرحمن البراك، والشيخ عقيل بن عبد الله، والشيخ عبد الله جبرين، والشيخ عبد العزيز الراجحي، والشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله)، وفهد الحمين وغيرهم.

ذكاءه المُتَّقِد وتُبوغُه الفكري المتميز ومكانته العلمية العالية، عوامل من بين أخرى أهلته في وقت لاحق لشغل عدد من المناصب في الحقل الديني والقضائي والتربوي، وهكذا تم تعيينه سنة 1992م إماما وخطيبا للمسجد الحرام في مكة المكرمة، ولم يمضِ وقتا طويلا حتى تم تنصيبه قاضيا بالمحكمة الكبرى بمكة المكرمة سنة 1993م، ثم ما لبث أن عُيِّنَ بعدها مُدرِّساً في المسجد الحرام بمكة المكرمة، وكان ذلك سنة 1994م.

على الصعيد الفكري يملك الشيخ "سعود الشريم" مكتبة ضخمة من الإنتاجات العلمية والدعوية؛ تضم عددا لا بأس به من المؤلفات والمخطوطات والدروس الصوتية والتسجيلات القرآنية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: كتاب "المهدي المنتظر عند أهل السنة والجماعة"، ومؤلف "أصول الفقه سؤال وجواب"، ومجلد "التحفة المكيّة في شرح حائية ابن أبي داود العقديّة"، وكتاب "المنهاج للمعمر و الحاج"، وغيرها.

الملحق رقم ③: لمحة عامة حول برنامج برات

1- التعريف بالبرنامج:

تطبيق برات (Praat) يعني بالهولندية: "تكلم"، كتبه ويشرف عليه منذ 1992م باحثان هولنديان هما: "David Weeninck" وزميله "Paul Boersma"، من معهد علوم الصوتيات بجامعة "أمستردام". هذا التطبيق لتحليل ومعالجة وكتابة الموجات الصوتية، يُستعمل أساساً في مجال الصوتيات والفونولوجيا، لكنّه مستعمل بشكل كبير في ميادين أخرى تتعلق باللسانيات، وفي العلوم المجاورة كعلم النفس والإثنولوجيا وعلم الموسيقى.⁽¹⁾

2- مميزات البرنامج

إنّ برنامج برات، تطبيق متميّز للغاية في مجاله؛ ومن خصائصه أنّه:⁽²⁾

✓ مجاني التحميل، ومفتوح المصدر، أي يمكن تحميل مصادره من الموقع التالي:

<https://github.com/praat>

✓ يمكن تشغيله على مجموعة واسعة من الأنظمة، بما فيها الإصدارات المختلفة ليونكس وماكينتوس وويندوز.

✓ يمكن وصله ببرامج أخرى.

✓ صغير الحجم، فحجم الإصدار الأخيرة هو: 35.5Mo.

✓ سهل البرمجة والتصميم، ويجري تطويره وتحسينه باستمرار.

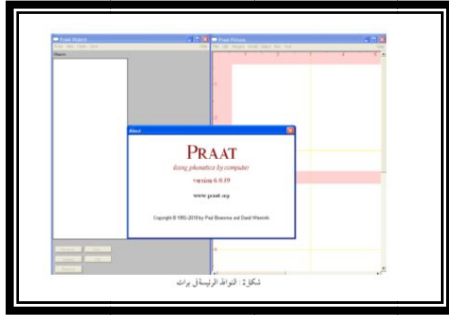
✓ سهل الاستخدام، فمع اختلاف واجهته عن معظم

البرامج، إلاّ أنّه من للغاية؛ فعند فتحه تظهر نافذتان،

إحدهما للكائنات "Praat objects"، والأخرى

للصور "Praat picture"، وداخل هاتين النافذتين

تجري جميع عمليات التحليل والدرس.



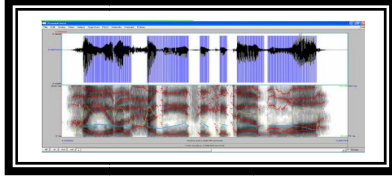
✓ يمكن من خلاله تحرير ملفات صوتية بحجم 02 جيجا بايت (03 ساعات)، وإضافة التأثيرات عليها وتعديلها.

✓ يمكن من خلاله عزل الصوت، واستعادة التسجيلات القديمة بكل سهولة ويسر.

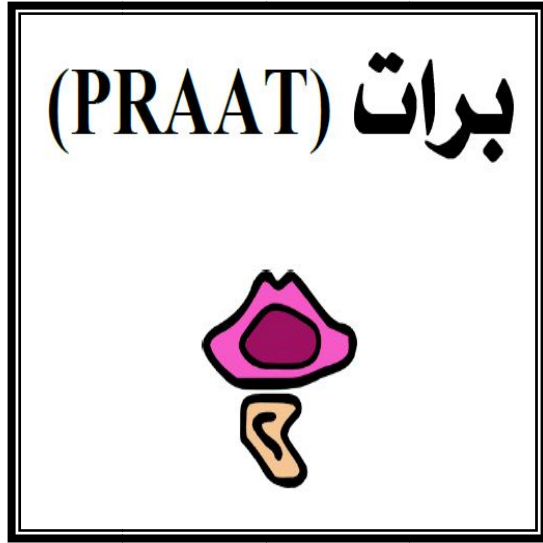
(1)- كبير بن عيسى: "دليل مُستَعْمِل تطبيق تحليل الإشارات الصوتية ومعالجتها- برات Praat"، كراسات المركز (سلسلة يصدرها مركز

البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، دب، العدد 9، 2019م، ص5.

(2)- المرجع نفسه، ص5، 7.



- ✓ يمكن من خلاله إجراء تحليل طيفي للملفات الصوتية.
- ✓ يمكن من خلاله تركيب الكلام وتجميع أجزاء المنطوق.
- ✓ يمكن من خلاله إنشاء صور عالية الجودة، لتضمينها الأطاريح والمقالات العلمية.
- ✓ يمكن من خلاله التدوين المباشر على الإشارة الصوتية، في منحنى حاسوبي وبدقة معتبرة.
- ✓ يسهل فيه محاذاة الكتابة بالصوت، وإعادة قراءتها.
- ✓ يقبل أحيانا محوّلات خارجية، ويمكن تصدير ملفّاته (ملفّات الشبكات النصيّة ذات الامتداد: TextGrid)، نحو صيغ أخرى: (.txt ; .rtf)، وكذا امتدادات برامج أخرى نحو: (TASX ; EXMERaLDA ; CLAN) لإجراء تحاليل لاحقاً.
- ✓ التطبيق يدعم كتابة التعليقات باللغة العربية، إلاّ أنّه ليس ثمة واجهة معرّبة له، لذلك فإنّ الكتابة فيه تُقرأ من اليسار إلى اليمين.



3- كيفية الحصول على التطبيق وتنصيبه:

للحصول على هذا البرنامج يكفي نسخ أو تحميل النسخة الملائمة لنظام تشغيل الحاسوب من الصفحة الرسمية للتطبيق (www.praat.org)، أو موقع (www.fon.hum.uva.nl/praat)، بالضغط على الرابط المناسب، مع اتّباع الإرشادات الموجودة هناك، وبعد الفراغ من التحميل يكفي إنشاء اختصار للتطبيق على مكتب الحاسوب، وبالنقر مرّتين على أيقونة الاختصار يُفتح التطبيق.⁽¹⁾

وللمزيد من التوسّع، يرجى العودة إلى القرص المضغوط المرفق.

محتويات القرص المضغوط:

- مراجع مُفصّلة لكيفية استعمال البرنامج والاشتغال عليه، قصد الحصول على التحليل الفيزيائي لخصائص الموجات الصوتية للصوت اللغوي.
- فيديو توضيحي عن طريقة اشتغال البرنامج.

(1)- كبير بن عيسى: "دليل مُستعمل تطبيق تحليل الإشارات الصوتية ومعالجتها- برات Praat"، ص8.

- فيديوهات تطبيقية خاصة بسور الطواسين (مدوّنة هذا البحث)، تُوضّح مخطّطات الموجات الصوتية، والمنحنيات الإيقاعية لأغراض متفرّقة خرجت إليها أساليب النصوص القرآنية السالفة الذكر، الخبرية منها والإنشائية بأنواعها الخمسة: (الأمر، النهي، الاستفهام، التمني، والنداء).

الملحق رقم 4: قائمة الرموز والاختصارات المستعملة في البحث

- ج = الجزء
- مج = المجلد
- تح = التحقيق
- تر = الترجمة
- دب = دون بلد
- دط = دون طبعة
- دس = دون سنة
- ص = الصفحة
- ص ص = رمز يدل على التعدد (صفحتان أو أكثر)
- ص ن = الصفحة نفسها
- ص س = الصفحة السابقة
- ع = العدد
- ت = توفى
- م = ميلادي
- ه = هجري

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أولاً: التفسير القرآني، وكتب الإحياء النبوية الشريفة

1/ التفسير القرآني:

1. أسعد محمود حومد: أيسر التفاسير (تفسير- أسباب نزول- أحاديث- نماذج إعراب)، تح: محمد متوئي الشعراوي وأحمد حسن مسلم، دون دار النشر، دب، ط4، 1419هـ/ 2009م.
2. الألوسي، شهاب الدين السيّد محمود البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تح: محمود شكري الألوسي البغدادي، إدارة الطباعة المنيرية ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دس.
3. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: تفسير البغوي "معالم التنزيل"، تح: سليمان مسلم الحرش وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، دط، 1411هـ/ 1990م.
4. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، 1404هـ/ 1984م.
5. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: تفسير البيضاوي المسمّى أنوار الترياق وأسرار التأويل، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، سورية، ومؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/ 2000م.
6. الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد المالكي: تفسير الثعالبي المسمّى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وعبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/ 1997م.
7. الجرجاني، عبد القاهر: درج الدرر في تفسير القرآن العظيم، تح: طلعت صلاح الفرحان ومحمد أديب شكور، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 1430هـ/ 2009م.
8. الحنبلي، مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي: فتح الرحمن في تفسير القرآن، تح: نور الدين طالب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1430هـ/ 2009م، ص175.
9. أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي: البحر المحيط في التفسير، مراجعة: صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1432هـ/ 2010م.

10. الخازن، علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادي: تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، تح: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ/ 2004م.
11. الزاويتي، محمد شكري أحمد: تفسير الضحّاك، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 1419هـ/ 1999م.
12. التّخشي، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمي: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ/ 2009م.
13. السّعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تح: عبد الرحمن بن مغلّا اللويحق، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/ 2003م.
14. السّعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط1، 1422هـ/ 2001م.
15. أبو السّعود، محمد بن محمد العمادي: تفسير أبي السّعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دس.
16. السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي: تفسير القرآن من الفرقان إلى الزمر، تح: أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن للنشر، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ/ 1997م.
17. سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط32، 1423هـ/ 2003م.
18. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: تناسق الدرر في تناسب السور، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ/ 1986م.
19. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد السيد حسن يمامة، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، مصر، ط1، 1424هـ/ 2003م.
20. الشعراوي، محمد متوّي: خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، تح: أحمد عمر هاشم، مطابع دار أخبار اليوم، دب، دط، 1991م.

21. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الحكيني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، إشراف: بكر بن عبد الله بوزيد، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، دب، دط، دس.
22. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الحكيني: تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، ودار هدى النبوي المنصورة، مصر، ط1، 1426هـ/ 2005م.
23. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير - الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تح: يوسف الغوش، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ/ 2007م.
24. الصّابوني، محمد علي: صفوة التفاسير، المكتبة التوفيقية ودار الصابوني، السعودية، ط12، 2015م.
25. الطباطبائي، السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، تح: السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات جماعة المدرّسين في الجوزة العلمية، دب، دط، دس.
26. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ودار المرتضى، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/ 2006م.
27. الطّبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1415هـ/ 1994م.
28. ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1404هـ/ 1984م.
29. ابن عثيمين، محمد بن صالح: تفسير القرآن الكريم، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1436هـ/ 2014م.
30. العجيلي الشافعي، سليمان بن عمر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، تح: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2018م.
31. ابن العدويّ، أبو عبد الله مصطفى: التسهيل لتأويل التنزيل - تفسير سورة القصص في سؤال وجواب، مكتبة مكّة، طنطا، مصر، ط1، 1423هـ/ 2002م.
32. ابن عطية، أبو محمد عبد الحقّ بن غالب الأندلسي: المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/ 2001م.
33. فخر الدّين الرازي، محمد بن ضياء الدّين عمر: تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح

- الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1401هـ / 1981م.
34. القاسمي، محمد جمال الدين: تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دون دار النشر، دب، دط، 1376هـ / 1957م.
35. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبو بكر: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه في السنة وآي الفرقان، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ / 2006م.
36. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ومكتبة دار الزيتان، الجزائر، ط1، 1423هـ / 2002م.
37. لجنة القرآن والسنة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدوحة، قطر، ط7، دس.
38. مأمون حمّوش: التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون - تفسير منهجي فقهي شامل معاصر، تح: أحمد راتب حمّوش، وزارة الإعلام، دمشق، سورية، ط1، 1428هـ / 2007م.
39. المحلّي، جلال الدين والسيوطي جلال الدين: تفسير الجلالين الميسر، تح: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
40. المراغي، أحمد مصطفى: تفسير المراغي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ / 2001م.
41. التقيسة، عبد الرحمن بن حسن: التفسير المبين، الدار التدمرية للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1429هـ / 2009م.
- 2/ كتب الإلهيات النبوية الشريفة:**
42. أحمد بن حنبل، أبو عبد الله: مسند الإمام أحمد، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، دط، 1419هـ / 1998م.
43. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَزْدَرِيَّة الجعفي: صحيح البخاري، كتاب "فضائل القرآن"، باب "من لم يتغنّ بالقرآن"، شركة الشهاب، الجزائر، دط، 1991م.
44. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة: سنن الترمذي، تح: صدي جميل العطار، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ومن سورة "الشعراء"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ/ 2002م.

45. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: سنن أبي داود، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، دس.

ثانياً: المعاجم والقواميس اللغوية

46. أحمد بن فارس، أبو الحسين بن زكريا الرازي: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دب، دط، 1399هـ/ 1979م.

47. البستاني، بطرس: محيط المحيط، تح: محمد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

48. الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1990م.

49. الرّازي، محمد بن أبو بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، دط، 1986م.

50. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: محمود محمد الطناحي، مراجعة: عبد السلام محمد هارون، دار التراث العربي للنشر، الكويت، دط، 1413هـ/ 1993م.

51. الزّخشي، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ/ 1998م.

52. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، تح: داوود سلّوم وآخرون، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

53. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط8، 1426هـ/ 2005م.

54. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تح: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، دس.

55. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، دار التحرير للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية، دط، 1989م.

56. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ط4، 1426هـ/ 2005م.

57. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري: لسان العرب، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1426هـ/ 2005م.

ثالثاً: الدكتورين الشريفة:

58. جرير بن عطية الخطفي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1406هـ/ 1986م.
59. عمر بن أبي ربيعة: الديوان، تح: فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1416هـ/ 1996م.

رابعاً: المختب باللغة العربية (المراجع القديمة والحديثة):

60. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، مصر، دط، دس.
61. إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط3، 1976م.
62. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط2، 1952م.
63. أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دط، 2005م.
64. أحمد البايي: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية (دراسة لسانية في الصواتة الإيقاعية)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م.
65. أحمد حمد محسن الجبوري: موسوعة أساليب المحاز في القرآن الكريم - دراسة ووصف وتقويم وأمثلة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2017م.
66. أحمد زرقة: أصول اللغة العربية - أسرار الحروف، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1993م.
67. أحمد عبد التّوّاب الفيومي: أبحاث في علم أصوات اللغة العربية، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1991م.
68. أحمد عبد التّوّاب الفيومي: علم الأصوات اللغوية (ظواهر علم الأصوات في القرآن الكريم) - الفصل الصوتي، اللفظة المركزية، الاستفهام الخبري، الخبر الاستفهامي، ظاهرة استحضر الصورة، المكتبة الأزهرية للتراث والجزيرة للنشر والتوزيع، مصر، دط، 2009م.
69. أحمد عزّوز: علم الأصوات اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية (المطبعة الجهوية)، وهران، الجزائر، دط، دس.
70. أحمد بن فارس، أبو الحسين بن زكريا الرّازي اللغوي: الصّاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح: عمر فاروق الطّبّاع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط1، 1414هـ/ 1993م.
71. أحمد كشك: من وظائف الصوت اللغوي - محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2006م.

72. أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر آفاق معرفة متجددة، دمشق، سورية، ط3، 1429هـ/2008م.
73. أحمد محمود عبد السميع الشافعي: الوافي في كيفية ترتيل القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم الكوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2000م.
74. أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط6، 1988م.
75. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر، دط، 1979م.
76. أحمد مختار عمر: علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5، 1998م.
77. أحمد مطلوب: أساليب بلاغية- الفصاحة، البلاغة، المعاني، وكالة المطبوعات للنشر، الكويت، ط1، 1980م.
78. الأخصري، عبد الرحمن بن صغير: الجواهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، تح: محمد بن عبد العزيز نصيف، مركز البصائر للبحث العلمي، دب، دط، دس.
79. الأخصف الأوسط، أبو الحسن سعيد بن مسعدة: معاني القرآن، تح: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1411هـ/1990م.
80. الأزهر الزناد: دروس البلاغة العربية نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.
81. أمين أبو ليل: علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ/2006م.
82. الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشر النحوي: كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تح: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سورية، دط، 1390هـ/1971م.
83. إنعام فؤال عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة- البديع والبيان والمعاني، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ/1996م.
84. أيمن أمين عبد الغني: الصرف الكافي، مراجعة: عبده الراجحي ورشدي طعيمة وآخرون، دار التوفيقية للتراث للطبع والنشر والتوزيع، ط5، 2010م.

85. باطاهر بن عيسى: البلاغة العربية مقدمات وتطبيقات، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
86. الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيّب: إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، دط، دس.
87. بسام بركة: علم الأصوات العام- أصوات اللغة العربية، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، دط، 1988م.
88. البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيّد، والبعلي الحنبلي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبو الفتح: المثلث أو الألفاظ المثلثة المختلفة المعنى، ويليهِ المثلث ذو المعنى الواحد، تح: يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ / 2003م.
89. بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط6، 1999م.
90. بهجت عبد الواحد الشيخلي: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز، مكتبة دنديس، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1422هـ / 2001م.
91. تحسين عبد الرضا الوزان: الصوت والمعنى في الدرس اللغوي عند العرب في ضوء علم اللغة الحديث، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 2011م.
92. تحسين فاضل عباس: البحث الصوتي وجمال الأداء، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1437هـ / 2016م.
93. تمام حسّان: البيان في روائع القرآن- دراسة لغوية وأسلوبية للتصّ القرآني، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ / 1993م.
94. تمام حسّان: اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط4، 1421هـ / 2001م.
95. تمام حسّان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994م.
96. تمام حسّان: مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1990م.
97. التهانوي، محمّد علي: موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
98. الجاحظ، أبو عثمان بن بحر: البيان والتبيين، تح: موقّق شهاب الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ / 2003م.

99. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي: كتاب دلائل الإعجاز، تح: أبو فهد محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، دس.
100. ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف: التمهيد في علم التجويد، تح: علي حسين البوّاب، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1405هـ/ 1985م، ص98.
101. ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف: طيبة النشر في القراءات العشر، تح: محمد تميم ومصطفى الزّعبي، مكتبة دار الهدى، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ/ 1994م.
102. ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف: منجد المقرئين ومرشد الطالبين، تح: عارف الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1423هـ/ 2002م.
103. ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف: منظومة المقدّمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، تح: أيمن رشدي سويد، دار نور المكتبات للنشر والتوزيع، جدّة، السعودية، ط4، 1427هـ/ 2006م.
104. جعفر السيّد باقر الحسيني: أساليب المعاني في القرآن، مؤسسة بوستان كتاب، دب، ط1، 1427هـ/ 2006م.
105. جلال الدّين يوسف العيداني: دلالة البنية الصرفية في السور القرآنية القصار، دار الرّاية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1431هـ/ 2010م.
106. ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ/ 2003م.
107. ابن جني، أبو الفتح عثمان: سر صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 1413هـ/ 1993م.
108. حاتم صالح الضامن: فقه اللغة، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، العراق، دط، 1411هـ/ 1990م.
109. حازم علي كمال الدّين: دراسة في علم الأصوات، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1420هـ/ 1999م.
110. حازم القرطاجيّ، أبو الحسن: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3، 2008م.

111. حامد بن أحمد بن سعد الشنبري: النظام الصوتي للغة العربية- دراسة وصفية تطبيقية، مركز اللغة العربية، القاهرة، مصر، دط، 1425هـ/ 2004م.
112. الحريري، أبو محمد القاسم بن علي: درة الغواص في أوهام الخواص، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، ط1، 1299م.
113. حسام البهنساوي: الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ط1، 2005م.
114. حسام البهنساوي: علم الأصوات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ/ 2004م.
115. الحسن بن أحمد بن علي الكاتب: كمال أدب الغناء، تح: غطّاس عبد الملك خشية، مراجعة: محمد أحمد الحفني، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1975م.
116. الحسين بن قاسم المرادي: الجني الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدّين قِبارة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ/ 1992م.
117. الحصري، محمود خليل: أحكام قراءة القرآن الكريم، دار البشائر الإسلامية، دب، ط4، 1999، ص80.
118. حفني ناصف وآخرون: دروس البلاغة، شرحه: محمد بن صالح العثيمين، مكتبة أهل الأثر وشركة غراس للطباعة والكمبيوتر، الكويت، ط1، 1425هـ/ 2004م.
119. حلمي علي مرزوق: في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني)، كليّة الآداب، جامعة بيروت العربية، لبنان، دط، 1999م.
120. حمدي بخيت عمران: علم اللغة دراسة نظرية وتطبيقية، أصوات للدراسات والنشر، دب، ط1، 1440هـ/ 2019م.
121. حميد آدم تويني: البلاغة العربية المفهوم والتطبيق، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1427هـ/ 2007م.
122. خالد قاسم بني دومي: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2006م.
123. ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الهمداني التّحوي الشافعي: إعراب القراءات السبع وعللها، تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1413هـ/ 1992م.

124. الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد: الإيضاح في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ / 2003م.
125. الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد: التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، دب، ط1، 1904م.
126. خلدون أبو الهيجاء: فيزياء الصوت اللغوي ووضوحه السمعي، جدارا للكتاب العلمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2006م.
127. خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009م.
128. خليل إبراهيم العطية: في البحث الصوتي عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، الجمهورية العراقية، دط، 1983م.
129. خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصة للنشر، الجزائر، ط2، 2006م.
130. الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد الأندلسي: التحديد في الإتقان والتجويد، تح: غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1421هـ / 2000م.
131. رابح دوب: البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1997م.
132. راضية بن عريية: من آليات النطق إلى هندسة الخط قراءة في الموروث العربي، دار ألفا للوثائق، قسنطينة، الجزائر، ودار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2014م.
133. الرضي، محمد بن الحسن الإستراباذي السمناي النجفي: شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تح: يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ / 1996م.
134. الرّعيني، أبو عبد الله محمد بن شريح الأندلسي: الكافي في القراءات السبع، تح: أحمد محمود عبد السميع الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ / 2000م.
135. رفعت كاظم السوداني: المنهج التوليدي التحويلي (دراسة وصفية وتاريخية- منحنى تطبيقي في تركيب الجملة في السبع الطوال الجاهليات)، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 2009م.

136. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1417هـ / 1997م.
137. رمضان عبد الله رمضان: أصوات اللغة العربية بين الفصحى واللهجات، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، ط1، 2005م.
138. الزّجاج، أبو إسحاق بن السري: معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ / 1988م.
139. الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، تح: فوز أحمد زملي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ / 1995م.
140. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، دط، دس.
141. بن زروق نصر الدين: دروس ومحاضرات في اللسانيات العامة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.
142. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: المفصل في علم العربية، تح: فخر صالح قدارة، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ / 2004م.
143. زواخ نعيمة: البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني (دراسة أسلوبية صوتية لسورة الواقعة)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1433هـ / 2012م.
144. زيد خليل القرالّة: الحركات في اللغة العربية- دراسة في التشكيل الصوتي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 1425هـ / 2004م.
145. سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن في تجويد القرآن، تح: أحمد أحمد مصطفى أبو حسن ومحمد أمين طنطاوي، دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1430هـ / 2009م.
146. سعد محمّد على التميمي: الانفتاح الدلالي في سورة الشعراء (دراسة بلاغية تحليلية)، كلية التربية، قسم اللغة العربية، الجامعة المستنصرية، العراق، دط، 2008م.
147. السّكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن علي: مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ / 2000م.
148. سلمان بن سالم بن رجاء السحيمي: إبدال الحروف في اللهجات العربية، مكتبة الغرباء الأثرية،

- السعودية، ط1، 1415هـ/ 1995م.
149. السمرائي، فاضل صالح: معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1420هـ/ 2000م.
150. سمير شريف إستيتية: اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1429هـ/ 2008م.
151. سمير العزاوي: التنعيم اللغوي في القرآن الكريم، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1439هـ/ 2018م.
152. سناء حميد البياتي: التنعيم في القرآن الكريم- دراسة صوتية، مركز إحياء التراث العلمي العربية، جامعة بغداد، العراق، ومركز الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية، جامعة كالمبرج، دط، 2007م.
153. سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، ط3، 1408هـ/ 1988م.
154. السيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دس.
155. سيد مجراوي: العروض وإيقاع الشعر العربي- محاولة لإنتاج معرفة علمية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، 1993م.
156. سيد قطب: التصوير الفتي في القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط17، 1425هـ/ 2004م.
157. ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله: رسالة أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسن الطيّان، ويجي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سورية، دط، دس.
158. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر: الإتقان في علوم القرآن، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، ط1، 1429هـ/ 2008م.
159. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر: الأشباه والنظائر في النحو، تح: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1406هـ/ 1985م.
160. السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408هـ/ 1988م.
161. شرف الدين علي الراجحي: في علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث، دار المعرفة الجامعية

- للتباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، 2012م.
162. الشريف الجرجاني، علي بن محمد: معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، دط، 2004م.
163. شعبان محمد إسماعيل: القراءات أحكامها ومصدرها، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1414هـ/ 1993م.
164. شكري محمد عياد: موسيقى الشعر العربي (مشروع دراسة علمية)، دار المعرفة للنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1978م.
165. الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي: ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تح: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي - قم، دب، ط2، 1368هـ/ 1952م.
166. صالح سليم عبد القادر الفاخرى: الدلالة الصوتية في اللغة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، مصر، دط، 2007م.
167. صَبَّاح عبيد دراز: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1406هـ/ 1986م، ص121.
168. صبحي الصّالح: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط10، 1977.
169. صلاح حسنين: المدخل في علم الأصوات المقارن، توزيع مكتبة الآداب، دب، دط، 2006م.
170. صلاح صالح سيف: العقد المفيد في علم التجويد، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن، ط1، 1408هـ/ 1987م.
171. ابن طباطبا العلوي، محمد أحمد بن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1426هـ/ 2005م.
172. الطيّب البكوش: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، تقديم: صالح القرمادي، المطبعة العربية، تونس، ط3، 1992م.
173. أبو الطيّب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي: كتاب الإبدال، تح: عزّ الدين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سورية، دط، 1379هـ/ 1960م.
174. عاشور خضراوي الحسني: أحكام التجويد برواية ورش عن نافع من طريق الأزرق، مكتبة الرضوان، مصر، دط، 2005م.

175. عاطف فضل محمد: الأصوات اللغوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 1434هـ/ 2013م.
176. عاطف مذكور: علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1987م.
177. عبد الحميد السيّد: دراسات في اللسانيات العربية، المشاكلة، التنعيم، رؤى تحليلية، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ/ 2004م.
178. عبد الرحمن الوجي: الإيقاع في الشعر العربي، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سورية، ط1، 1989م.
179. عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة، مطبعة الكيلاني، القاهرة، مصر، ط2، 1968م، ص133.
180. عبد الرزاق علي إبراهيم موسى: المحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز- شرح وتوجيه أرجوزة العلامة الشيخ محمد المتولي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1408، 1988م.
181. عبد السلام محمد هارون: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، ط1، 1421هـ/ 2001م.
182. عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية- رؤية جديدة في الصرف العربي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1400هـ/ 1980م.
183. عبد العزيز أحمد علام وعبد الله ربيع محمود: علم الصوتيات، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1430هـ/ 2009م.
184. عبد العزيز أبو سريع ياسين: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1410هـ/ 1989م.
185. عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط2، 1427هـ/ 2007م.
186. عبد العزيز عتيق: في البلاغة العربية- علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1430هـ/ 2009م.
187. عبد العزيز بن علي الحري: البلاغة الميسرة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط2، 1432هـ/ 2011م.
188. عبد الغفار حامد هلال: القراءات واللهجات من منظور علم الأصوات الحديث، دار الفكر العربي،

- مصر، ط3، 1426هـ / 2005م.
189. عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: ترتيل القرآن الكريم في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط1، 1425هـ / 2004م.
190. عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: مقدمة في أصوات اللغة العربية وفن الأداء القرآني، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط3، 1424هـ / 2004م.
191. عبد الفتّاح عبد العليم البركاوي: مقدمة في علم أصوات العربية، الجريسي للطباعة والتصوير، القاهرة، مصر، ط3، 1424هـ / 2004م.
192. عبد الفتّاح فيود بسيوني: علم المعاني - دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط4، 1436هـ / 2015م.
193. عبد القادر الخليل: المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة المعاصر، جامعة مؤتة، المملكة الأردنية الهاشمية، دط، 1993م.
194. عبد القادر شاكر: علم الأصوات العربية "علم الفونولوجيا" دراسة تبحث في مستوى التشكيل الصوتي القديم الجديد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1971م.
195. عبد القادر عبد الجليل: الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1418هـ / 1998م.
196. عبد القادر عبد الجليل: التنوعات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1430هـ / 2009م.
197. عبد القادر عبد الجليل: الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1417هـ / 1997م.
198. عبد القادر عبد الجليل: علم الأصوات الصرفي، دار أزمنة، عمان، الأردن، دط، 1998م.
199. عبد الكريم مجاهد: الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، دط، دس.
200. عبد الكريم محمد حسن جبل: في علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضّليات، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، دط، 1997م.
201. عبد اللطيف شويكي وزير دراقي: الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط،

- 2004م.
202. ابن عبد الله أحمد شعيب: الميسر في البلاغة العربية- دروس وتمارين، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/ 2008م.
203. عبد الملك مرتاض: نظام الخطاب القرآني- تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2001م.
204. عبد الهادي الفضلي: تلخيص البلاغة، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، لبنان، دط، دس.
205. عبد الواحد حسن الشيخ: دراسات في علم المعاني، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنيّة، الإسكندرية، مصر، دط، دس.
206. ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله: أحكام القرآن، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ/ 2003م.
207. عصام نور الدين: علم الأصوات اللغوية الفونيتيكا، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.
208. عصام نور الدين: علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.
209. عطية سليمان أحمد: في علم الأصوات- الفونيمات فوق التركيبية في القرآن الكريم (المقطع- النبر- التنغيم) سورة الواقعة أمودجا، الأكاديمية الحديثة للكتاب للكتاب الجامعي، مصر، دط، دس.
210. علم الدين السنخاوي، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد: جمال القراء وكمال الإقراء، تح: عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، دس.
211. العلوي، يحيى بن حمزة: كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، ط1، 1914م.
212. علي الجارم ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة- البيان، المعاني، البديع، دار المعارف، دب، 1999م.
213. عيسى علي العاكوب وعلي سعد الشتيوي: الكافي في علوم البلاغة العربية- المعاني، البيان، البديع، منشورات الجامعة المفتوحة، الإسكندرية، مصر، دط، 1993م.
214. غازي مختار طليمات: في علم اللغة، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سورية، ط2، 2000م.

215. غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1428هـ / 2007م.
216. غانم قدوري الحمد: محاضرات في علوم القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1423هـ / 2003م.
217. غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1425هـ / 2004م.
218. فاتن خليل محجازي: محاضرات في علم الأصوات، دار النشر الدولي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1429هـ / 2008م.
219. الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان: كتاب الموسيقى الكبير، تح: غطّاس عبد الملك خشية، مراجعة وتصوير: محمود أحمد الحفني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دس.
220. فايز الداية: علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق - دراسة تاريخية تأصيلية نقدية، دار الفكر، دمشق، سورية، ودار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ / 1996م.
221. فتح الله أحمد سليمان: مدخل إلى علم الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط1، 1412هـ / 1991م.
222. فريد عوض حيدر: علم الدلالة - دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2005م.
223. فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط4، 1417هـ / 1997م.
224. فضيلة مسعودي: التكرارية الصوتية في القراءات القرآنية - قراءة نافع أنموذجا، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008م.
225. فلاح حسن محمد الجبوري: قطوف دانية في علوم البلاغة (المعاني، البيان، البديع)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1971م.
226. فهمي علي سليمان: المنير الجديد في أحكام التجويد، دار النصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1990م.
227. فوزي الشايب: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن،

- ط1، 1425هـ/ 2004م.
228. ابن قتيبة، أبو محمد بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، شرحه: أحمد صقر، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1393هـ/ 1973م.
229. قدرى مايو: المعين في البداية (البيان، البديع، المعاني)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ/ 2000م.
230. قيس إسماعيل الأوسي: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، المملكة الوطنية، بغداد، العراق، دط، 1988م.
231. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني: الكليات- معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، وضع فهرسة: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ/ 1998م.
232. كمال بشر: علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2000م.
233. كمال بشر: فن الكلام، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2003م.
234. كوليزار كاكل عزيز: القرينة في اللغة العربية، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط1، 2009م.
235. اللبدي، عبد الرؤوف سعيد عبد الغني: همزة الاستفهام في القرآن الكريم، المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، دط، 1992م.
236. المارغني، سيدي إبراهيم: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام نافع، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1415هـ/ 1995م.
237. مبارك حنون: في التنظيم الإيقاعي للغة العربية- نموذج الوقف، دار الأمان، الرباط، المغرب، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 1431هـ/ 2010م.
238. الميرزا، أبو العباس محمد بن يزيد: المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، دط، 1415هـ/ 1994م.
239. مجدي إبراهيم محمد: في أصوات العربية دراسة تطبيقية، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2011م.
240. مجدي إسحاق: فن الإيقاع (التاريخ، الأوزان الشرقية، الآلات الإيقاعية)، بورصة الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2016م.

241. محمد أحمد قاسم ومحي الدين ديب: علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003م.
242. محمد أحمد معبد: الملخص المفيد في علم التجويد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، دب، دط، 1997م.
243. محمد أحمد مفلح القضاة وآخرون: مقدمات في علم القراءات، دار عمار للتوزيع والطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط1، 1422هـ / 2001م.
244. محمد الأنطاكي: دراسات في فقه اللغة، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1389هـ / 1969م.
245. محمد الأنطاكي: المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1391هـ / 1971م.
246. محمد بدري عبد الجليل: تصوّر المقام في البلاغة العربية، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، دط، 2003م.
247. محمد جواد النوري: علم الأصوات العربية، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، ط2، 2007م.
248. محمد الحسناوي: الفاصلة في القرآن، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1421هـ / 2000م.
249. محمد حسن حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية دراسة نظرية تطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط4، 1427هـ / 2006م.
250. محمد حسين سلامة: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1423هـ / 2002م.
251. محمد حسين علي الصّغّير: الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرّخ العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ / 2000م.
252. محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، مصر، ط1، 1420هـ / 2000م.
253. محمد الصادق قمحاوي: البرهان في تجويد القرآن ويليهِ رسالة في فضائل القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، دط، دس.

254. محمد طاهر اللادقي: المبسّط في علوم البلاغة- المعاني والبيان والبديع (نماذج تطبيقية)، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 1426هـ/ 2005م.
255. محمد عابد الجابري: فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2009م.
256. محمد بن عبد العزيز بن عمر بن نصيف: بطاقات التعريف بسور المصحف الشريف، جمعية تحفيظ القرآن بجدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1440هـ/ 2019م.
257. محمد عبد الله القواسمة: معالم في اللغة العربية، مكتبة المجتمع العربي للنشر، عمان، الأردن، ط2، 1424هـ/ 2003م.
258. محمد عصام مفلح القضاة: الواضح في أحكام التجويد مع أسئلة للمناقشة وتمارين، تح: أحمد خالد شكري، وأحمد محمد القضاة، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، دط، دس.
259. محمد علي الخولي: علم الدلالة (علم المعنى)، دار الفلاح للنشر والتوزيع، الأردن، دط، 2001م.
260. محمد علي الخولي: معجم علم الأصوات، مطابع الفرزدق التجارية، دب، ط1، 1402هـ/ 1982م.
261. محمد علي سلطاني: المختار من علوم البلاغة والعروض، دار العصماء، دمشق، سوريا، ط1، 1427هـ/ 2008م.
262. محمد محمد أبو شهبه: المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط3، 1407هـ/ 1987م.
263. محمد مندور: الأدب وفنونه، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط5، 2006م.
264. محمد نبهان بن حسين مصري: الإستبرق في رواية ورش عن نافع من طريق الأزرق (الشاطبية)، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، السعودية، ط2، 1428هـ/ 2007م.
265. محمد يحيى سالم الجبوري: مفهوم القوّة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.
266. محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دس.
267. محمود سليمان ياقوت: إعراب القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، دط، دس.
268. محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط،

دس.

269. محمود محمود عبّود زوين: الدّعاء: المعاني والصيغ والأنواع، مركز الرسالة، دب، ط1، 1432هـ/2011م.

270. محي الدين الدّرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ودار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، سورية، ط3، 1412هـ/1992م.

271. محي الدين رمضان: في صوتيات العربية، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الأردن، دط، 1979م.

272. مختار عطية: علم المعاني ودلالات الأمر في القرآن الكريم- دراسة بلاغية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، 2004م.

273. المخلّلاتي، أبو عبيد رضوان بن محمّد بن سليمان: شرح العلامة المخلّلاتي المسمّى بالقول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز على ناظمة الزهر للإمام الشاطبي رضي الله عنه، تح: عبد الرزاق بن علي بن إبراهيم موسى، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، السعودية، ط1، 1412هـ/1992م.

274. المراغي، أحمد مصطفى: علوم البلاغة- البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ/1993م.

275. المرصفي، عبد الفتاح السيّد عجمي: هداية القارئ إلى تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، السعودية، ط2، دس.

276. المرعشي، محمد بن أبو بكر: جهد المقل، تح: سالم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1429هـ/2008م.

277. المسدي، عبد السلام: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، ط2، 1986م.

278. مصطفى أكرور: مخارج وصفات الحروف العربية عند جمهور علماء التجويد، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1434هـ/2013م.

279. مصطفى حركات: أوزان الشعر، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 1418هـ/1998م.

280. مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، دب، دط، دس.

281. مصطفى رجب: دراسات لغوية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دب، ط1، 2009م.

282. مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربية- تأصيل وتجديد، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، دط، 2002م.
283. معين دقيق العاملي: دروس في البلاغة، دار جواد الأئمة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ / 2012م.
284. مناع خليل القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط7، 1995م.
285. منصور كافي: الوجيز في علوم القرآن الكريم عرض ونقد وتحقيق لطلبة العلوم الإسلامية (ليسانس- ماستر- دكتوراه)، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة (الجزائر)، دط، 1432هـ / 2011م.
286. منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421هـ / 2001م.
287. منقور عبد الجليل: علم الدلالة: أصوله ومباحثه في التراث العربي- دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، دط، 2001م.
288. منيرة محمد ناصر الدوسري: أسماء سور القرآن وفضائلها، تقديم: فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1426هـ / 2005م.
289. نادية رمضان النجار: اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، مراجعة وتقديم: عبده الراجحي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، 2004م.
290. ابن الناظم، بدر الدين بن مالك: المصباح في المعاني والبيان والبدیع، تح: حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، مصر، دط، دس.
291. نجاة علي: فن الإلقاء بين النظرية والتطبيق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط3، 2003م.
292. النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل: إعراب القرآن، تح: خالد العلي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1429هـ / 2008م.
293. نور الهدى لوشن: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، دط، 2008م.
294. هادي نمر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، تقديم: علي الحمد، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 1427هـ / 2007م.
295. هارون عبد الرزاق: حسن الصياغة في فنون البلاغة، مركز الراسخون للتأصيل الشرعي ودار الطاهرية،

- الكويت، ط1، 1439هـ / 2018م.
296. أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 1418هـ / 1997م.
297. هيام كريدية: الألسنية الفروع والمبادئ والمصطلحات، دون دار النشر، بيروت، لبنان، ط2، 1429هـ / 2008م.
298. الوّزاق، أبو الحسن محمد بن عبد الله: علل النحو، تح: محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط1، 1420هـ / 1999م.
299. ابن يعيش، موفّق الدّين بن علي النحوي: شرح المفصّل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، دط، دس.
300. يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية: علم المعاني، علم البيان، علم البديع، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 1427هـ / 2007م.

المصادر المكتبية المتوفرة:

301. أندريه مارتينييه: وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.
302. برتيل المبرج: علم الأصوات، تر: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشهاب، دب، دط، دس.
303. جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية، تر: صالح القرمادي، نشرات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، تونس، دط، 1966م.
304. جوتفلف برجشتراسر: التطوّر النحوي للغة العربية، تر: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط2، 1414هـ / 1994م.
305. جوليان براون وجورج يول: تحليل الخطاب، تر: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود للنشر العلمي والمطابع، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1418هـ / 1997م.
306. رومان ياكبسون: محاضرات في الصوت والمعنى، تر: حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
307. سلمان حسن العاني: التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية، تر: ياسر الملاح، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1403هـ / 1983م.

308. فردينان دي سوسير: علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، العراق، دط، 1985م.
309. ماريو باي: أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط8، 1419هـ/ 1998م.

سلسلة الكتب باللغة الأجنبية:

310. Crane, B., Yeager, E., & Whitman, R. (1981). An Introduction to Linguistics Canada : Little, Brown and Company.
311. Gussenhoven, C. (2004). The Phonology of tone and intonation. Cambridge: Cambridge University Press.
312. Roach, P. (1991). English phonetics and phonology. Cambridge: Cambridge University Press.

سلسلة الدوريات:

1/ المجلات العلمية:

313. مجلّة الآداب- مجلة علمية دولية محكمة سنوية، قسم الآداب واللغة العربية، كليّة الآداب واللغات، جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة 01، الجزائر، مج2، ع1، جوان 1995م.
314. مجلّة آداب البصرة- مجلة علمية فصلية محكمة، العراق، ع78، 2016م.
315. مجلّة الآداب والعلوم الاجتماعية- مجلة علمية محكمة دولية نصف سنوية، جامعة محمد أمين دباغين- سطيف 02، الجزائر، مج17، ع02، جويلية 2020م.
316. مجلّة إشكالات في اللغة والأدب- مجلة علمية محكمة نصف سنوية صادرة عن المركز الجامعي لتمنراست، الجزائر، مج08، ع05، ديسمبر 2019م.
317. مجلّة التعليمية- مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية، تصدر عن مخبر تجديد البحث في تعليمية اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية، كليّة الآداب واللغات والفنون، جامعة جيلالي لباس، سيدي بلعباس، الجزائر، ع2، ديسمبر 2011م.
318. مجلّة الجامعة الإسلامية - سلسلة الدراسات الإنسانية، مجلة علمية محكمة ربع سنوية صادرة عن عمادة

- البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مج 17، ع 02، يونيو 2009م.
319. مجلة جامعة أمّ القرى للبحوث المحكّمة، مكّة المكرّمة، المملكة العربية السعودية، ع 14، 1996م.
320. مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية- سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية (مجلة علمية فصلية محكّمة)، اللاذقية، سورية، مج 28، ع 1، 2006م.
321. مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلة علمية محكّمة تصدر كلّ شهرين عن كليّة التربية، جامعة تكريت، العراق، مج 18، ع 02، نيسان 2011م.
322. مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية- مجلة علمية محكّمة دورية، دمشق، سورية، مج 29، ع 1، 2013م.
323. مجلة حوليات الآداب واللغات- مجلة علمية محكّمة دولية نصف سنوية صادرة عن كليّة الآداب واللغات، جامعة محمّد بوضياف- مسيلة، الجزائر، ع 08، جويلية 2017م.
324. مجلة حوليات التراث- مجلة علمية محكّمة سنوية، جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم (الجزائر)، ع 9، 2009م.
325. مجلة حوليات التراث- مجلة علمية محكّمة سنوية، جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم (الجزائر)، ع 18، 2018م.
326. مجلة دراسات نجفية- مجلة علمية فصلية محكّمة، كليّة الآداب، جامعة الكوفة، العراق، ع 5، دس.
327. مجلة الخطاب والتواصل، مجلة علمية محكّمة سنوية، مخبر الخطاب التواصلي، المركز الجامعي- عين تموشنت (الجزائر)، ع 3، أفريل 2017م.
328. مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية- مجلة علمية محكّمة فصلية، العددان (3-4)، مج 6، 2007م.
329. مجلة القسم العربي- مجلة علمية محكّمة، جامعة بنجاب- لاهور، باكستان، ع 21، 2014م.
330. مجلة كليّة الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية- مجلة دولية علمية محكّمة نصف سنوية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، (الجزائر)، مج 3، ع 7، جوان 2010م.
331. مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية- مجلة علمية محكّمة نصف سنوية، العراق، مج 7، ع 7، 2007م.
332. مجلة الممارسات اللغوية، مجلة دولية علمية محكّمة فصلية، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، ع 20، ديسمبر 2013م.
333. مجلة الممارسات اللغوية، مجلة دولية علمية محكّمة فصلية، مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، مج 5، ع 4، ديسمبر 2014م.

334. مجلّة الناص - مجلة علمية محكمة نصف سنوية، كليّة الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة جيجل (الجزائر)، ع13، جوان 2013م.

2/ الرسائل والإطروحات الجامعية:

335. جلّول دواحي عبد القادر: البحث اللغوي عند محمد الأمين الشنقيطي - مقارنة سيميائية، إشراف: مطهري صفية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي، تخصّص: لسانيات، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة السانانية، وهران، (الجزائر)، 1434هـ / 1435هـ - 2013م / 2014م.

336. خلود بنت سعد بن إبراهيم العقيل: الأساليب الإنشائية في سورة النمل (دراسة بلاغية تحليلية)، إشراف: عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعلان، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، كليّة اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1429هـ / 2008م.

337. سعاد زدام: دلالة الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم - النداء أتمودجا، إشراف: صفية مطهري، بحث مقدّم لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي، كليّة الآداب والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أحمد بن بلّة، وهران 01، الجزائر، 2018-2019م.

338. محمود عبد الخالق خلة: سورة القصص دراسة تحليلية وموضوعية، إشراف: محمد أبو زور، بحث تكميلي لنيل شهادة الماجستير، كليّة أصول الدّين، قسم التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية، غزّة، فلسطين، 1423هـ / 2002م.

339. معروف محمد رشاد الشريف: التغيّي بالقرآن وعلاقته بالأنغام، إشراف: عبد الرحيم الزقة، رسالة مكتملة لمتطلّبات الحصول على درجة الماجستير في القرآن الكريم وعلومه، كليّة الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل بيت، المملكة العربية السعودية، 2003م.

340. مناع عبد الله شداد: المقطع في بنية الكلمة العربية - دراسة لغوية تطبيقية في القرآن الكريم، إشراف: عباس السر محمد علي، رسالة مقدّمة لنيل درجة الماجستير في علم اللغة، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات اللغوية والنحوية، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2009م.

341. نجيدة ولهاصي: الأصوات الذلّقية في اللغة العربية - دراسة تطبيقية مخبرية، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه تخصّص: لسانيات تطبيقية، إشراف: سيدي محمد غيثري، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب

العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)، السنة الجامعية: 1433 هـ / 1434 هـ - 2012 م / 2013 م.

342. يوسف عبد الله الأنصاري: أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية، إشراف: صباح عبيد دراز، رسالة مقدّمة للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد، جامعة أمّ القرى، كَلّية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، فرع البلاغة والنقد، المملكة العربية السعودية، 1410 هـ / 1990 م.

3/ المسائل المعرفية:

343. كبير بن عيسى: دليل مُسْتَعْمِل تطبيق تحليل الإشارات الصوتية ومعالجتها- برات Praat، كراسات المركز (سلسلة يصدرها مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، دب، العدد 9، 2019 م).

ثامنًا: المواقع الإلكترونية:

344. الشيخ سعود الشريم.. ربحانة الحرم المكي، موقع السبيل، الرابط المباشر للصفحة: <http://ar.assabile.com/saud-shuraim-11/saud-shuraim.htm>، تاريخ المعاينة:

31 / 03 / 2021 م، الساعة: 18:15.

المُلخَص باللغة العربية، وباللغتين

الفرنسية والإنجليزية

الملخص باللغة العربية:

يُعالج هذا البحث ظاهرة نطقية لها أثر بالغ في نظام اللغة، إذ تساهم إلى جانب قرائن سياقية أخرى في تحديد معاني التراكيب اللغوية، وتوجيه أغراضها البلاغية، ألا وهي ظاهرة التنغيم، حيث ينطلق البحث من إشكالية عامة مفادها: أنّ علماء البلاغة قد عمدوا إلى حصر التراكيب الجمالية في ضربين، فلا يمكن أن يخرج الكلام عن نطاق ما أسماه بالخبر أو الإنشاء، ثمّ إنهم لجئوا إلى وضع آلية معروفة للتمييز بينهما، وعلى الرغم من وجود المحدّدات التي يمتاز من خلالها الكلام الخبري عن نظيره الإنشائي، إلّا أنّ المتأمل في تراكيب اللغة سيجد أنّ الفرق بينها قائم وواضح، يكمن ذلك أساساً في كيفية أداء كلّ جملة، فمعلوم أنّ الجمل الخبرية تختلف عن الجمل الإنشائية في طبيعة تلفظ الأولى عن الثانية، ما دام أنّ الأولى تكون نبرتها التنغيمية مبالغة إلى قطعية الوقوع والصرامة في تقرير الأحداث، لأجل ذلك عادة ما تأتي مُعزّزة بمؤكّدات تثبت وقوع الحدث وحتمية حصوله، أمّا الثانية فإنّ نبرتها الصوتية كثير ما تنجح نحو شيء من التلطّف، لما فيها من إلزامية في تنفيذ المطلوب وضرورة الاستجابة للطلب، هذا فضلاً عن إمكانية مخالفة باطن الكلام لما يقتضيه ظاهره، فقد تدلّ البنية السطحية للكلام على معنى ما، في حين يكون المقصود منه غير ذلك، كلّ هذا يتدخل التنغيم في تحديده، ليكون معوّلاً في كشف الأغراض والمعاني الكامنة وراء سلسلة الألفاظ، وفي كثير من الأحيان لا يتسنى للتنغيم القيام بذلك إلّا بمصاحبة جملة من العوامل الأخرى، التي تقف معه جنباً إلى جنب، وتعزّز دوره الوظيفي على غرار: المقاطع الصوتية، النبر، الفواصل القرآنية من وقف وسكت، الإيقاع الصوتي... الخ، لذا جاء عنوان البحث موسوماً بـ: التنغيم وأثره الصوتي والدلالي في سور الطواسين - دراسة إيقاعية وظيفية، حيث قسّمته إلى بابين رئيسين يسبقهما فصل تمهيدي، كان بمثابة مدخل للدراسة بعنوان: التنغيم فونيم غير تركيب (مدخل نظري)، تطرقت فيه إلى مفهومه من مختلف الزوايا: العقلية، المادية، الوظيفية، وكذا التجريدية، كما تناولت تاريخه في العصر الحديث، ليقودنا الحديث بعدها إلى تحديد مستوياته وأقسامه وأنواعه، ثمّ استعراض أهمّ الآليات التي يعتمد عليها الفونيم في أداء وظيفته التمييزية في اللغة.

ليتمّ الانتقال بعدها إلى الباب الأول المعنون بـ: محدّدات أوليّة (بسط نظري)، حيث تضمّن ثلاثة فصول نظرية، كان الأوّل حول علم الأصوات وعلاقته بالعلوم الأخرى نحو: علم القراءات، علم التجويد، وعلم الدلالة، أمّا الفصل الثاني فخصّص لظاهرة التنغيم في اللغة وعلاقتها بالإيقاع الصوتي، في حين استعرضت في الفصل الثالث والأخير لمحة عامة حول سور الطواسين مدوّنة هذا البحث، وهي ثلاث سور جاءت متتابعة في النزول والمصحف، تمثّلت في: سورة الشعراء، سورة النمل، وسورة القصص.

وأما الباب الثاني فقد وُسم بـ: وظيفة الأداء التنغمي في تحديد معاني التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في سور الطواسين، حيث قُسم بدوره إلى أربعة فصول، حاولت في كل فصل منها إبراز مدى أثر التنغم في التمييز بين أغراض أساليب الكلام المختلفة، إذ خُصص الأول منها للأسلوب الخبري، والثاني لأسلوب الأمر والنهي، والثالث لأسلوب الاستفهام، والرابع لأسلوب التمني والنداء، كانت أغلب النماذج التي خرجت فيها أساليب الكلام الخبرية والإنشائية بأنواعها المختلفة إلى معاني مجازية في سور الطواسين، مشفوعة بمخططات بيانية توضيحية للموجات الصوتية، ومزودة بمختلف الخصائص الفيزيائية للصوت اللغوي، وهذا بغرض الوقوف أكثر على وتيرة الأداء التنغمي ومنحناه الإيقاعي.

وخلصت في نهاية الدراسة إلى خاتمة، رصدت فيها أبرز النتائج التي تمّ التوصل إليها منها: أنّ أغراض ومعاني التراكيب اللغوية تتناسب عموماً مع أنماط معيّنة من التنغم، أو بعبارة أخرى أنّ نمطاً تنغمياً معيّناً، يقتضي استحضار أغراض بعينها، في المقابل يستبعد احتمالية خروج كلام ما إلى غرض آخر، لا يتناسب وذلك النمط لاستدعائه، ولكن هذه القاعدة غير مطلقة ولا يمكن تعميمها على جميع السياقات، لأنّ المقام أيضاً قد يتدخل في أحيان كثيرة عند مسألة تغيير المعنى، ليصبح النمط الذي كان يتناسب مع ذلك الغرض في مقام معيّن، لا يتمشى مع استحضار الغرض المقصود فعلاً في مقام آخر.

Résumé:

Cette recherche traite un phénomène de prononciation ayant un impact capital dans le système langagier, car il contribue, avec d'autres éléments contextuels, à définir les significations des structures linguistiques et à orienter ses objectifs rhétoriques, à savoir l'intonation. La recherche part d'un problème général qui est que les rhétoriciens ont délibérément limité les structures de phrases en deux catégories, de sorte que la parole ne peut sortir du cadre de ce qu'ils ont appelé par le déclaratif et la composition. Puis, ils ont eu recours à la mise en place d'un mécanisme connu pour les distinguer, et nonobstant la présence de déterminants par lesquels le déclaratif se distingue de son homologue la composition. Or, l'observateur des structures linguistiques trouvera que la différence entre ces dernières est réelle et claire.

Cela consiste essentiellement dans la façon dont chaque phrase est accomplie, de sorte que l'on sait que les phrases assertives diffèrent des phrases de composition par la nature de la prononciation de la première, tant que la première ait une intonation penchant vers des une survenance formelles et une rigueur dans le rapport des événements. De ce fait, elle est généralement

renforcée par des confirmations de la survenance de l'événement et l'inévitabilité de sa survenance. Quant à la seconde, son le ton vocal penche souvent vers une certaine douceur, car elle est obligatoire pour exécuter ce qui est demandé et la nécessité de répondre à la demande. Cela s'ajoute à la possibilité pour l'essence de la parole de contredire l'aspect apparent.

La structure apparente de la parole peut dénoter une signification, alors que l'intention réelle est différente. L'intonation interfère dans sa détermination, de sorte qu'elle puisse être fiable pour révéler les objectifs et les significations derrière les expressions, et dans de nombreux cas, ce n'est pas le cas, il n'est pas possible pour l'intonation de le faire, sauf parallèlement avec un certain nombre d'autres facteurs. Ce qui se tient avec lui côte à côte, et améliore son rôle fonctionnel, tels que: syllabes, accentuation, pauses coraniques d'arrêt et de silence, rythme phonémique...etc.

Ainsi, le titre de la recherche est « L'intonation et son effet vocal et sémantique dans les sourates al-Tawasine »- une étude du rythme fonctionnel, que j'ai divisé en deux chapitres principaux précédés d'un chapitre introductif, qui a servi de préface à l'étude intitulée : l'intonation phonème non structural (introduction théorique), dans laquelle j'ai traité de l'histoire du phonème à l'ère moderne, ainsi que de son concept sous différents angles : mental, matériel, fonctionnel, ainsi qu'abstrait. La conversation nous amène, ensuite, à définir ses niveaux, ses sections et ses types, puis à l'étude des mécanismes les plus importants sur lesquels s'appuie le phonème pour remplir sa fonction distinctive dans la langue.

Puis, le passage au premier chapitre intitulé : Les déterminants initiaux (présentation théorique), comprenant trois chapitres théoriques, le premier porte sur la phonologie et ses relations avec d'autres sciences à l'instar de : la récitation, la psalmodie et la sémantique, tandis que le deuxième chapitre est consacré au phénomène de l'intonation dans le langage et sa relation avec le rythme phonémique, alors que j'ai présenté dans le troisième et dernier chapitre un aperçu des sourates al-Tawasine, constituant le corpus de cette recherche, c'est-à-dire trois sourates qui se sont succédées dans la révélation et dans le Saint à-Coran, à savoir la sourate ach-chou'arâ, la sourate an-naml et la sourate al- qasas.

Quant au deuxième chapitre, il a comme titre : L'efficacité de l'intonation dans la définition des significations des structures et d'orienter ces objectifs rhétoriques dans les sourates al-Tawasine, divisé à son tour en quatre chapitres, où j'ai tenté dans chaque chapitre de mettre en évidence l'effet de l'intonation dans la distinction entre les objectifs des différents styles de la parole, dont le

premier était consacré au style déclaratif, le second aux styles impératif et défensif, le troisième au style interrogatif et le quatrième pour les styles de souhait et d'appel. La plupart des modèles dans lesquels les différents types de méthodes de parole informatives et structurelles ont abouti à des significations métaphoriques dans les sourates de Tawasine, suivis de schémas illustratifs des ondes sonores, et équipés de diverses caractéristiques physiques de la voix linguistique, afin d'apprendre en savoir plus sur la intonation de la performance tonale et sa courbe rythmique.

À la fin de l'étude, j'ai conclu par une conclusion, dans laquelle j'ai mis en évidence les résultats les plus marquants qui en ont été obtenus : que les objectifs et les significations des structures linguistiques correspondent généralement à certains modèles d'intonation, ou en d'autres termes qu'un certain modèle tonal exige l'évocation d'objectifs spécifiques. D'autre part, il exclut la possibilité de signifier à travers la parole autre chose, qui ne correspond pas à ce modèle. Cette règle n'est pas absolue et ne peut être généralisée à tous les contextes, car le contexte peut également interférer, à plusieurs reprises, lorsque la question de changer le sens, de sorte que le modèle qui correspondait avec cet objectif, dans un contexte particulier, ne coïnciderait pas avec l'évocation de l'objectif visé réellement dans un autre contexte.

Abstract:

This research studies a phenomenon of pronunciation that has a strong impact on the language system as it contributes along with other contextual evidence in determining the meaning of linguistic structures and directing their rhetoric purposes; that is the phenomenon of Intonation at which the research proceeds from a general problem stating: Rhetoric scientists attempted to confine the fine structures in two types so that the speech cannot deviate from the fields of Informative and Non-Informative, thus they headed for developing a known mechanism to tell them apart. And in spite of the determinants that distinguishes the two, a deep thinker in the linguistic structure would find that the difference between them is net and clear. This basically lies in how each sentence is performed. As a matter of fact, the informative sentences differ from the non- informative ones in the nature of pronunciation of each. The tone of the first tends to be definite in occurrence and rigor in reporting the incidents. The reason why it usually happens to be enhanced with evidence that prove the imperative occurrence of an incident. On the other hand, the tone of the second tends more towards kindness, for the obligation in the implementation of the required and the necessity to respond to the request; as

well as the possibility of the implicit speech contraindicating the explicit. As the superficial structure of speech may indicate a specific meaning meanwhile the referent meaning is different. All these interfere in determining the intonation in order to be reliable in uncovering the aim and meaning lying behind.

A series of words. And most of the times it is not possible for the intonation to achieve this without a sentence of the other factors that supports and gives a boost to its functional role, such as : audio clips, voice, the Quran'ic punctuation (i.e. stop and pause), rhymes, etc. Therefore comes the title of the thesis designated by: Intonation and Its Vocal and Semantic Impact in Tawaseen Chapters- A Rhythmic- Funtional Study, which I have divided into two main sections preceded by an introductory chapter that served as an introduction to the study entitled: Intonation is a Non-Structural Phoneme (Theoretical Introduction), in which I dealt with the history of Phoneme in the modern age, as I touched on its conception from various perspectives: Mental, Materialistic, Functional, and so Abstractional. Thereby it led us to determine its levels, divisions and types, and then review the most important mechanisms on which this phoneme relies in performing its discriminatory function in the language.

After that comes the first section entitled: Primary Determinants (Theoretical extension), which includes three theoretical chapters of which the first was about phonics and its relation with other sciences such as: science of reading, Tajweed, and semantics. Whereas the second chapter is devoted for the Intonation phenomenon in the language and its relation with the vocal rhythm. While the third and last chapter is an overview about the Tawaseen chapters-the study of the thesis- which includes three chapters that are consecutive in both their revelation and order in the Quran and they are: Surat- Ush- shuaraa, Surat- Unnaml, and Surat-UI-Kassass.

Besides comes the second section was designated by: The effectiveness of the intonational performance in determining the meaning of the structures, and directing the rhetoric purposes in the Tawaseen Chapters; where it was divided into four chapters at which I tried to reveal the extent to which intonation influenced distinguishing among the purposes of various speech methods, and thereby the first part was devoted for the Informative Method, the second for both Imperative and Prohibition methods, the third for Interrogative Method and the fourth for both Request and Interjection methods. Most of the models in which the different types of informative and structural speech methods resulted in metaphorical meanings in the Tawaseen surats, followed by illustrative

patterns of sound waves, and equipped with various physical characteristics of the linguistic voice, in order to learn to know more about the intonation of the tonal performance and its rhythmic curve.

At the end of the study I have come to a conclusion where the most emphasized obtained results were monitored; for instance: The purpose and meaning of linguistic structures go together with specific patterns of intonation, or in other words a specific intonation pattern itself requires coming up with purposes, and consequently the potential of a speech to deviate towards a different purpose that does not suit both the pattern and its call, is ruled out.

However, this rule is not general and cannot be generalized to all contexts; as a matter of context often interfering upon the change in meaning, and thereby the pattern becomes the one that suits that purpose in a specific context and not accord the summon of the intended purpose in another context.

Most of the models in which the different types of informative and structural speech methods resulted in metaphorical meanings in the Tawasine suras, followed by illustrative patterns of sound waves, and equipped with various physical characteristics of the linguistic voice, in order to learn to know more about the intonation of the tonal performance and its rhythmic curve.

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ- ك	مقدمة
31-12	(الفصل التمهيدي: التنعيم فونيم غير قرئ (مدرخل نظري)
13	توطئة
23-14	المبحث الأول: مفهوم الفونيم
24-23	المبحث الثاني: تاريخ الفونيم في العصر الحديث
28-24	المبحث الثالث: الفونيم: مستوياته، أقسامه، وأنواعه
31-28	المبحث الرابع: وظيفة الفونيم في اللغة العربية
162-32	(الباب الأول: محذوران (أوليتا) (مطل نظري)
34-33	توطئة
69-35	الفصل الأول: علم الأصوات وعلاقته بالعلوم الأخرى
35	* تمهيد
46-35	المبحث الأول: ماهية علم الأصوات
57-46	المبحث الثاني: علمي القراءات والتجويد وصلتها بعلم الأصوات
69-57	المبحث الثالث: علم الدلالة وصلته بعلم الأصوات
135-70	الفصل الثاني: ظاهرة التنعيم في اللغة، وعلاقتها بالإيقاع الصوتي
70	* تمهيد
81-70	المبحث الأول: مفهوم التنعيم
83-81	المبحث الثاني: التنعيم: آلية إنتاجه، حقيقته وجوهره، وأسس تحديده
84-83	المبحث الثالث: التنعيم واللغات

111 -84	المبحث الرابع: علاقات التنغيم
116 -111	المبحث الخامس: أنواع التنغيم ومستوياته
117 -116	المبحث السادس: خصائص التنغيم وقيمه في الاستعمال اللغوي
126 -117	المبحث السابع: ظاهرة التنغيم في تراثنا اللغوي العربي: بين الحضور والغياب
135 -126	المبحث الثامن: وظائف التنغيم في اللغة (مساهمة التنغيم في تحديد معنى الكلام، وتوجيه غرضه البلاغي)
162 -136	الفصل الثالث: لمحة عامة حول سور الطواسين
136	* تمهيد
146 -137	المبحث الأول: سورة الشعراء
151 -147	المبحث الثاني: سورة النمل
158 -152	المبحث الثالث: سورة القصص
162 -159	المبحث الرابع: أنواع الفواصل القرآنية، وأثر إيقاعها الصوتي بموضوعات ومعاني آي سور الطواسين
415 -163	الابحس السطوية، ونظيمة الالاء (التعجب واليتاع)، في قديم معاني التراكيب، وتوجيه الغرض منها البلاغية في سور التوراسين
167 -164	توطئة
228 -168	الفصل الأول: دور التنغيم في تمييز أغراض أسلوب الخبر في سور الطواسين
174 -168	المبحث الأول: الخبر: مفهومه، أركانه، أغراضه، وأضره
228 -175	المبحث الثاني: أغراض الخبر البلاغية
294 -229	الفصل الثاني: دور التنغيم في تمييز أغراض أسلوب الأمر والنهي في سور الطواسين
231 -229	المبحث الأول: مفهوم الإنشاء وأقسامه
273 -231	المبحث الثاني: الأمر

294 -274	المبحث الثالث: النهي
374 -295	الفصل الثالث: دور التنعيم في تمييز أغراض أسلوب الاستفهام في سور الطواسين
297 -295	المبحث الأول: الاستفهام: مفهومه، أدواته، أقسامه، وأهميته
374 -297	المبحث الثاني: أغراض الاستفهام البلاغية
415 -375	الفصل الرابع: دور التنعيم في تمييز أغراض التمني والنداء في سور الطواسين
389 -375	المبحث الأول: التمني
415 -390	المبحث الثاني: النداء
422 -416	الملاحقة
437 -423	الملاحق
466 -438	قائمة المصادر والمراجع
473 -467	ملخص البحث باللغة العربية، وباللغة الفرنسية والإنجليزية
477 -474	فهرس المحتويات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملخص باللغة العربية: يعالج هذا البحث ظاهرة نطقية لها أثر صوتي ودلالي بالغ في اللغة، ألا وهي ظاهرة **التنغيم**، حاولت فيه الوقوف على الظاهرة من حيث إبراز مدى فاعليتها في تحديد دلالات التراكيب، وتوجيه أغراضها البلاغية في اللغة العربية عموماً، وفي القرآن الكريم على وجه الخصوص، حيث كانت سور الطواسين الثلاث وهي: سورة الشعراء، سورة النمل، وسورة القصص، مدونة هذه الدراسة؛ إذ يقوم فونيم التنغيم بمعونة قرائن سياقية أخرى بوظيفته التمييزية من خلال ما يمتلكه من تنوعات نطقية تتراوح بين الصعود في درجات الصوت تارة، والهبوط في طبقاته حيناً، والاستواء تارة أخرى، الأمر الذي من شأنه أن يقرب المتلقي من الدلالة المقصودة، والتي من المؤكد جداً أن استحضارها له علاقة بنمط التنغيم ومستوى الأداء الصوتي.

الكلمات المفتاحية: التنغيم، الصوت، الدلالة، الإيقاع، سور الطواسين، البلاغة، الخبر، الإنشاء.

Résumé: Cette recherche traite un phénomène de prononciation ayant un impact phonétique et sémantique capital, à savoir **l'intonation**, dans laquelle, j'ai tenté de cerner ce phénomène en mettant en exergue son efficacité dans la détermination du sens des structures, d'orienter ses objectifs rhétoriques en langue arabe en général, et au Saint Coran en particulier. Les trois sourates, à savoir : ach-chou'arâ, an-naml et le al-qasas constituent le corpus de cette étude. Le phonème d'intonation, à l'aide d'autres indices contextuels, remplit sa fonction discriminante par sa diversité phonétique, allant de l'ascension en hauteurs à certains moments, en descendant dans ses couches à certains moments, et en nivelant à d'autres moments, ce qui rapprocherait le destinataire de la connotation voulue, ce qui est très certain que son évocation a à voir avec le modèle d'intonation et le niveau de performance vocale.

Les Mots Clés: intonation, phonème, sémantique, cadence, sourates- al tawasine, rhétorique, déclarative (informatif), composition (créatif).